

الْبَيْتُ الْمَدِينِيُّ

بِئْسَ لَوْمَةُ الْمُرَاتِبِ

لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِ بَيْتِهِ

يَتَّبِعُونَ
يَسْمَعُونَ الْكَيْدَ بِحَسْبِ

عَنْ أَبِي بَكْرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البدائع فى علوم القرآن

كاتب:

محمد بن ابى بكر بن ايوب الزرعى

نشرت فى الطباعة:

دارالمعرفة

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٩	البدايع في علوم القرآن
١٩	اشارة
١٩	مقدمة
٢١	امصنفات المحقق
٢١	(١) كتاب: «بدايع التفسير»
٢٢	(٢) كتاب: «جامع الفقه»
٢٢	(٣) كتاب: «جامع الآداب»
٢٢	(٤) «جامع السيرة»
٢٢	(٥) «المختار من الفتاوى»
٢٢	(٦) ثم كان: «البدايع في علوم القرآن»
٢٤	الوقفات الثلاثة في علم علوم القرآن
٢٤	١- الوقفة الأولى في بدء كتابة و تدوين العلوم:
٢٥	٢- الوقفة الثانية: كتابة الوحي:
٢٦	٣- الوقفة الثالثة: أ- متى نشأ مصطلح «علوم القرآن»؟
٢٧	أفضل أول المصنفات المستقلة في هذا الفن
٢٨	فصل علوم القرآن و الرد على الشبهات
٣١	فصل في منهج ابن القيم في التفسير
٣١	اشارة
٣٣	أهم قواعد منهج ابن القيم
٣٣	اشارة
٣٥	عرف القرآن
٣٨	فصل موقف ابن القيم من الإسرائيليات:

- ٣٩ بيان تعظيمه للقرآن الكريم
- ٤١ ابن القيم و التفسير العلمى
- ٤٢ فصل فى ترجمه الإمام ابن القيم
- ٤٢ اشارة
- ٤٤ فصل مكتبه ابن القيم
- ٤٥ فصل مؤلفات ابن القيم مرتبه على الحروف
- ٤٥ اشارة
- ٤٦ ١- «اجتماع الجيوش الإسلاميه»:
- ٤٦ ٢- «أحكام أهل الذمه»:
- ٤٦ ٣- «إعلام الموقعين عن رب العالمين»:
- ٤٦ ٤- «أسماء مؤلفات ابن تيمية»:
- ٤٦ ٥- «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»:
- ٤٧ ٦- «إغاثة اللهفان فى حكم طلاق الغضبان»:
- ٤٧ ٧- «بدائع الفوائد»:
- ٤٧ ٨- «التبيان فى أقسام القرآن»:
- ٤٧ ٩- «تحفة الودود فى أحكام المولود»:
- ٤٧ ١٠- «تهذيب سنن مختصر أبى داود»:
- ٤٧ ١١- «جلاء الأفهام فى الصلاة و السلام على خير الأنام»:
- ٤٧ ١٢- «حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح»:
- ٤٨ ١٣- «الداء و الدواء»:
- ٤٨ ١٤- «الرساله التبوكيه»:
- ٤٨ ١٥- «روضه المحبين و نزهه المشتاقين»:
- ٤٨ ١٦- «الروح»:
- ٤٨ ١٧- «زاد المعاد فى هدى خير العباد»:

- ١٨- «شفاء العليل في مسائل القضاء و القدر و الحكمة و التعليل»: ٤٨
- ١٩- «الصواعق المرسله على الجهمية و المعطلة»: ٤٨
- ٢٠- «طريق الهجرتين و باب السعادتين»: ٤٩
- ٢١- الطرق الحكيمه في السياسة الشرعية»: ٤٩
- ٢٢- «عدة الصابرين و ذخيرة الشاكرين»: ٤٩
- ٢٣- «الفروسية»: ٤٩
- ٢٤- «الفوائد»: ٤٩
- ٢٥- «كتاب الصلاة و حكم تاركها»: ٤٩
- ٢٦- «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية»: ٤٩
- ٢٧- «الكلام على مسألة السماع»: ٤٩
- ٢٨- «الكلم الطيب و العمل الصالح»: ٥٠
- ٢٩- «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين»: ٥٠
- ٣٠- «مفتاح دار السعادة و منشور ألوية العلم و الإرادة»: ٥٠
- ٣١- «المنار المنيف في الصحيح و الضعيف»: ٥٠
- ٣٢- «هداية الحيارى في أجوبة اليهود و النصارى»: ٥٠
- فصل [كتابين منسوبين الى ابن القيم ٥٠
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن «١» [أو اخبار النساء] ٥٠
- إشارة ٥٠
- أولاً: التعريف بكتاب «الفوائد المشوق»: ٥١
- ثانياً: إن وسائل إثبات صحة نسبة الكتاب لمؤلفه، هي عديدة نذكر منها: ٥١
- ثالثاً: محاولة تطبيق ما سبق على «الفوائد المشوق»: ٥١
- ضرورة الوحي ٥٥
- مكانة الوحي ٥٥
- مراتب الوحي [النبوى] ٥٥

- ٥٦ مراتب الهداية الخاصة و العامة و الفرق بين الإلهام و الوحي و التحديث
- ٦٢ قلم تعبير الرؤيا
- ٦٢ اشارة
- ٦٢ و الرؤيا الصحيحة أقسام:
- ٦٢ نزول القرآن الكريم
- ٦٢ وقت نزول القرآن
- ٦٣ أول ما نزل من القرآن
- ٦٤ أسباب النزول
- ٦٤ أمثلة من أسباب النزول
- ٦٤ من سورة البقرة
- ٦٤ من سورة آل عمران
- ٦٤ من سورة النساء
- ٦٤ من سورة المائدة
- ٦٦ من سورة المائدة
- ٦٧ من سورة الأنعام
- ٦٧ من سورة إبراهيم
- ٦٨ من سورة الأحزاب
- ٦٩ المعوذتين
- ٦٩ المكي و المدني
- ٦٩ مثال المكي
- ٧٠ مثال المدني
- ٧١ جمع القرآن الكريم
- ٧١ كتاب الوحي
- ٧١ اشارة

- ٧١ جمع عثمان رضى الله عنه الناس على مصحف واحد
- ٧١ تحريق عثمان رضى الله عنه المصاحف و جمع الناس على مصحف واحد من أهم السياسات الشرعية
- ٧٢ القراءات
- ٧٢ القراءة بالأحرف السبعة و غيرها
- ٧٢ الجمع بين القراءات
- ٧٢ النهى عن التنطع و الغلو فى النطق بالحرف
- ٧٣ مثال للقراءات
- ٧٥ فواتح السور
- ٧٥ بيان دلالات فواتح السور و عظم شأنها
- ٧٦ مقاصد السور و الآيات فصل
- ٧٦ اشارة
- ٧٧ بيان بعض ما تشير إليه دلالة الآيات و السور
- ٧٧ دلالة السور و الآيات على الغزوات
- ٧٧ اشارة
- ٧٧ بعض الحكم و الغايات فى وقعة أحد من خلال سورة آل عمران و بيان مطابقتها أسباب النزول للواقع
- ٨٥ الأمثال فى القرآن الكريم
- ٨٥ قيمة المثل فى القرآن
- ٨٥ حكمه ضرب المثل فى القرآن
- ٨٦ أصول و قواعد من أمثال القرآن الكريم لعلم التعبير
- ٨٦ فصل تدبر الأمثال التى وقعت فى القرآن «٢»
- ٨٦ اشارة
- ٨٧ مثل المقلدين
- ٨٨ مثل المنفقين فى سبيل الله
- ٨٩ مثل من أنفق ماله فى غير طاعة الله عزّ و جلّ

- ٨٩ مثل فيمن انسلخ من آيات الله
- ٩٠ و تأمل ما في هذا المثل من الحكم و المعنى:
- ٩١ مثل الحياة الدنيا
- ٩٢ مثل المؤمنين و الكافرين
- ٩٢ المثال المائي و النارى فى حق المؤمنين
- ٩٢ مثل فى بطلان أعمار الكفار
- ٩٣ مثل فى الكلمة الطيبة
- ٩٥ مثل الكلمة الخبيثة
- ٩٥ مثل فى تثبيت المؤمن
- ٩٧ التمثيل بالعبد المملوك
- ٩٩ فى تشبيهه من أعرض عن مثل الشرك
- ٩٩ اشارة
- ٩٩ قدرة الذين يدعوهم المشركون من دون الله
- ١٠٠ تمثيل أعمال الكافرين بالسراب
- ١٠١ مثل فى بيان حال الكفار
- ١٠٢ مثل فى الذين اتخذوا أولياء من دون الله تعالى
- ١٠٢ مثل فى ضلال المشركين
- ١٠٣ مثل الموحد و المشرك
- ١٠٣ مثل المغتاب
- ١٠٣ مثل من حمل الكتاب و لم يعمل به
- ١٠٣ مثل للكفار و مثالن للمؤمنين
- ١٠٤ مثل فى تشبيهه من أعرض عن كلامه و تدبره
- ١٠٥ فصل فى الفوائد و الحكم من ضرب الأمثال
- ١٠٦ المحكم و المتشابه

- ١٠٦ المحكم أصل للمتشابه
- ١٠٦ المتشابه و أنواع الإحكام
- ١٠٦ اشارة
- ١٠٧ و الإحكام له ثلاثة معان:
- ١٠٧ التحذير ممن يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة
- ١٠٧ بيان خطأ الأخذ بالمتشابه في رد المحكم
- ١١٣ الناسخ و المنسوخ
- ١١٣ حكمه النسخ في القرآن
- ١١٣ اشارة
- ١١٤ حكم نسخ القرآن بالسنة
- ١١٥ أمثلة على النسخ
- ١٢٠ الاستدلال في القرآن الكريم
- ١٢٠ الاستدلال على الله تعالى بالآيات الأفقية و النفسية
- ١٢١ الاستدلال بأسماء الله و صفاته على بطلان وصفه تعالى بما لا يليق
- ١٢١ الاستدلال على صدق رسول الله صلى الله عليه و سلم
- ١٢٢ من أساليب القرآن الكريم
- ١٢٢ التحدى
- ١٢٣ القرآن الكريم محكم جامع
- ١٢٣ اشارة
- ١٢٤ بيان فساد إضافة الشر إلى الله تعالى
- ١٢٥ التدرج في التكليف
- ١٢٥ العطف في القرآن الكريم
- ١٢٥ الكلام على واو الثمانية «٢»:
- ١٢٨ تقديم بعض الكلام على بعض

- ١٣٩ دخول الشرط على الشرط
- ١٣٩ [صور دخول الشرط على الشرط]
- ١٤٠ الروابط بين الجملتين
- ١٤٨ القسم فى القرآن
- ١٤٨ من أحكام القسم
- ١٤٩ أمثلة من قسم القرآن
- ١٥١ ألفاظ القرآن و مقاصدها
- ١٥١ بيان الوجوه التى تنقسم إليها معانى ألفاظ القرآن
- ١٥٢ من أنواع استعمال القرآن لبعض الألفاظ
- ١٥٢ خطأ تحميل اللفظ فوق ما يحتمله
- ١٥٣ من الألفاظ المكروهة
- ١٥٣ بعض ألفاظ القرآن الكريم و مقاصدها كالطبع و الختم و الغشاوة و الغطاء و غيرها
- ١٥٣ اشارة
- ١٥٤ فصل
- ١٥٤ فصل
- ١٥٨ فصل
- ١٥٩ فصل
- ١٥٩ فصل
- ١٦١ فصل
- ١٦١ فصل
- ١٦١ فصل
- ١٦٢ فصل
- ١٦٢ فصل
- ١٦٣ فصل

١٦٤	فصل
١٦٤	فصل
١٦٤	فصل
١٦٤	فصل
١٦٥	فصل
١٦٦	فصل
١٦٦	فصل
١٦٧	فصل
١٦٧	فصل
١٦٨	فصل
١٦٨	فصل
١٧٠	فصل
١٧٠	فصل
١٧١	فصل
١٧٢	فصل
١٧٣	فصل
١٧٤	فصل
١٧٥	السلطان في القرآن
١٧٧	السمع في القرآن
١٧٨	الصبر في القرآن
١٨٠	صلاة الله عز و جلّ على عباده في القرآن
١٨١	الفاجر في عرف القرآن
١٨٣	تفسير القرآن و تأويله
	القضاء و الحكم و الإرادة و الكتابة و الأمر و الإذن و الجعل و الكلمات و البعث و الإرسال و التحريم و الإنشاء في القرآن و بيان انقسامها إلى كوني و ديني

- ١٨٣ حقيقة التأويل
- ١٨٤ درجات التأويل
- ١٨٤ ما يدخل فيه التأويل و المجاز
- ١٨٤ الأقوال في التأويل و بيان خطورته
- ١٨٤ اشارة
- ١٨٥ رأى الجوبنى في الكف عن التأويل
- ١٨٥ رأى الغزالى في التأويل
- ١٨٦ التأويل عدو كل الأديان
- ١٨٦ أصناف المتأولة
- ١٨٧ فتنة التأويل و بعض ما أحدثت
- ١٨٧ رأى ابن رشد في التأويل
- ١٨٧ مثل من أول شيئا من القرآن
- ١٨٨ أمثلة للتأويل الفاسد
- ١٩٢ التفسير بالرأى
- ١٩٢ اشارة
- ١٩٢ أقسام الرأى
- ١٩٢ اشارة
- ١٩٢ فالرأى الباطل أنواع
- ١٩٥ الآثار عن التابعين في ذم الرأى
- ١٩٦ موقف أهل الرأى من السنة
- ١٩٦ كلام أئمة الفقهاء عن الرأى
- ١٩٧ النهى عن تفسير القرآن بمجرد الاحتمال النحوى الإعرابى
- ١٩٧ من فوائد الإخبار عن المحسوس الواقع
- ١٩٧ اشارة

- ١٩٧ «عسى» من الله واجب
- ١٩٨ تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد
- ١٩٨ هل نقل من القرآن آحادا؟
- ١٩٨ تفسير القرآن بالسنة
- ١٩٨ اشارة
- ٢٠١ منزلة السنة من القرآن
- ٢٠٣ الكلام عن الزيادة المغيرة لحكم شرعى
- ٢٠٤ فالجواب من وجوه:
- ٢٠٤ أنواع بيان الرسول صلى الله عليه و سلم
- ٢٠٦ هل يجوز تخصيص كلام الله بحديث؟
- ٢٠٧ عودة إلى حجج أن الزيادة لا توجب نسخا
- ٢١١ تخصيص القرآن بالسنة
- ٢١٣ من تفسيرات النبي صلى الله عليه و سلم للقرآن
- ٢١٣ اشارة
- ٢١٤ تفسير الصحابة للقرآن و الأقوال فى الاحتجاج به
- ٢١٤ بعض تفسير الصحابة يخالف الأحاديث
- ٢١٥ ما أشكل على بعض الصحابة
- ٢١٧ فضائل القرآن
- ٢١٧ مكانة القرآن بين الكتب المنزلة
- ٢١٧ القرآن كثير الخير عظيم النفع
- ٢١٧ القرآن كفيل بمصالح العباد فى المعاش و المعاد
- ٢١٨ القرآن باب الله الأعظم الذى منه الدخول
- ٢١٩ القرآن حق و صدق
- ٢٢٠ القرآن ذكر الله الأكبر

- ٢٢٠ القرآن فضل الله و رحمته
- ٢٢١ القرآن ذكر للعباد
- ٢٢١ القرآن تبصرة للعباد
- ٢٢٢ محتوى خطاب القرآن
- ٢٢٣ فضل قارئ القرآن
- ٢٢٣ النهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو
- ٢٢٣ القرآن متضمن لأدوية القلب، و علاجه من جميع أمراضه
- ٢٢٥ الآيات و السور التي يعتصم بها العبد من الشيطان و يستدفع بها شره و يحترز بها منه
- ٢٢٥ العلاج بالقرآن
- ٢٢٥ هديه صلى الله عليه و سلم في رقية اللديغ بالفاتحة
- ٢٢٦ هديه صلى الله عليه و سلم في علاج لدغة العقرب بالرقية
- ٢٢٨ فضل سورة الفاتحة
- ٢٢٩ فضل آية الكرسي
- ٢٢٩ أجمع آية لمكارم الأخلاق
- ٢٢٩ فضل سورة الملك
- ٢٢٩ فضل سورة الزلزلة
- ٢٣٠ فضل المعوذتين
- ٢٣٠ فضل سورة الإخلاص
- ٢٣٠ فضل سور: الإخلاص و الكافرون و الزلزلة
- ٢٣١ ما صح من أحاديث في فضائل السور و الآيات
- ٢٣٢ ما وضع في فضائل السور
- ٢٣٢ آداب القرآن الكريم
- ٢٣٢ سماع القرآن الكريم
- ٢٣٢ السمع المستحب

- ٢٣٣ أدب استماع القراءة
- ٢٣٣ فضل سماع القرآن من الغير
- ٢٣٤ المستمع للقرآن مستمع لله عز وجل
- ٢٣٤ سماع الناس القرآن يوم القيامة
- ٢٣٤ الشهقة عند سماع القرآن
- ٢٣٤ عشق سماع القرآن
- ٢٣٥ سماع القرآن يغنى عن سماع الشيطان
- ٢٣٥ تدبر القرآن و كيفية ذلك
- ٢٣٥ اشارة
- ٢٣٦ دعوة القرآن إلى تدبره و بيان أنواع التدبر
- ٢٣٩ فوائد تدبر القرآن
- ٢٤١ علاج المدبر عن سماع القرآن
- ٢٤٢ هل الأفضل قلة القراءة مع التدبر أو الكثرة بدونه؟
- ٢٤٣ العلم بالقرآن أفضل العلوم
- ٢٤٣ تعلم قراءة القرآن
- ٢٤٣ المقصود من تعلم القرآن
- ٢٤٣ تحسين الصوت بالقرآن
- ٢٤٥ هديه صلى الله عليه وسلم في قراءة القرآن، و استماعه و خشوعه، و بكائه عند قراءته، و استماعه و تحسين صوته به و توابع ذلك
- ٢٥٠ البكاء عند سماع القرآن
- ٢٥٠ تلاوة القرآن
- ٢٥٠ شروط الانتفاع بالقرآن
- ٢٥١ موانع الانتفاع بالقرآن
- ٢٥٢ أسباب تفاوت الناس في فهم القرآن
- ٢٥٣ كيفية تلاوة القرآن

- ٢٥٤ حكم قراءة الجماعة بصوت واحد
- ٢٥٤ في كم يختم القرآن؟
- ٢٥٤ دعاء ختم القرآن
- ٢٥٥ حكم قراءة القرآن بالفارسية
- ٢٥٥ النهى عن الجهر بالقرآن بحضرة العدو
- ٢٥٥ حكم الوضوء لقراءة القرآن
- ٢٥٦ حكم قراءة الحائض القرآن و إعلال حديث المنع
- ٢٥٦ حكم مس المصحف للجنب و غيره
- ٢٥٨ النهى عن المرء فى القرآن
- ٢٥٨ حكم التسمية بأسماء القرآن
- ٢٥٩ حكم قراءة القرآن للميت
- ٢٦٠ شرط الواقف قراءة قرآن عند قبر
- ٢٦١ النهى عن قراءة القرآن فى الركوع و السجود
- ٢٦١ سجدة القرآن
- ٢٦٢ سجود التلاوة فى الانشقاق
- ٢٦٢ جزاء المعرض عن القرآن
- ٢٦٥ المحتويات
- ٢٦٧ تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

البدائع في علوم القرآن

إشارة

نام كتاب: البدائع في علوم القرآن نويسنده: محمد بن ابى بكر بن ايوب الزرعى (ابن القيم الجوزية) موضوع: علوم قرآنى تاريخ وفات مؤلف: ٧٥١ ق زبان: عربى تعداد جلد: ١ ناشر: دارالمعرفة مكان چاپ: بيروت سال چاپ: ١٤٢٧ / ٢٠٠٦ نوبت چاپ: دوم

مقدمه

مقدمه بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، الذى هدانا للإسلام، و ما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله تعالى، و الصيلاه و السلام على المبعوث رحمه للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم، الذى علمنا الله سبحانه على يديه الكتاب و الحكمة. و بعد ... لعل من الواضحات التى لا لبس فيها ما نراه الآن من اشتداد الحرب على العقيدة الموحدة لله تعالى، و الشريعة المطهرة، هذه الحرب تأتى من كل مكان من الخارج، و من الداخل، أما من الخارج فهذا أمر لا يثير كثيرا من ضيقنا بل يشحذ همتنا، ثم لأنك لا تنتظر من عدوك خلاف ما حذررك الله منه: و لَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَ لَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (١٢٠) [البقرة: ١٢٠]. ثم يأتى الرد القاطع بضلال هؤلاء الأعداء و أنهم ليسوا على شىء من الهدى: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ثُمَّ يَأْتِي التَّحْذِيرَ الشَّدِيدَ وَ الْوَعِيدَ الْأَكِيدَ لِكُلِّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ فِي اتِّبَاعِهِمْ صَلَاحَ أَوْ فَلَاحَ، وَ أَنَّ تَرَكَ بَعْضَ الدِّينِ لِمِظَنَّةِ بَعْضِ الْهَدَى عِنْدَهُمْ لَيْسَ إِلَّا تَكْذِيبًا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَ صَدَا عَنْ سَبِيلِهِ: وَ لَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ فَالعلم النافع كله فى دين الله تعالى، ظاهرا لا غموض فيه، بينا لا لبس فيه، إلا هو: كتاب الله تعالى و سنه نبينا صلى الله عليه و سلم. و لعل بعض الطيبين يعتقد أن هؤلاء الأعداء قد يكون عندهم بعضا من حسن التية تجاهنا، فحسم القرآن ذلك و حكم عليه بالبطان التام حين بدأ الآية بالنفى و لَنْ تَرْضَى فَيعتقد بعضنا حسن التية تجاههم حتى و لو كانوا يأمرؤن بما يخالف الدين و ينهون عن البدائع فى علوم القرآن، ص: ٨ صريح الدين، بما نسميه الآن: بالحرب الفكرية، و يتحجبون بقوله تعالى: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) [الممتحنة: ٨]. فالله تعالى جعل من كمال دينه الإحسان إلى الخلق كلهم حتى الدواب، و هنا يبين لنا رفع الحرج عنا إن نحن عاملنا من لم يقاتلنا أو يساعد على قتالنا أو إخراجنا من ديارنا أن نعامله بالحسنى و العدل، أما الذين يجتمعون لقتالنا ماديا و معنويا لا- بّر لهم ولا- قسط معهم. و يرى كل الخلق كيف يتعامل المسلم مع أهل الكتاب فى بلاد الإسلام خصوصا الشرقية منها، حيث ترى الإحسان و الفضل و حسن الجوار، بخلاف هؤلاء الذين لا يأمن المسلم على نفسه أو ماله و سطهم و هى دول تدعى الديمقراطية و حرية الرأى. أقول: نحن لا نحزن كثيرا إن جاء الضرر من هؤلاء الأعداء الخالص، إنما نحزن حين يأتى من أبناء جلدتنا، ممن يتحدثون بألسنتنا و قلوبهم مع عدونا. و هذا الفريق أخطر على الإسلام من الكافر الصريح لأن هؤلاء المنافقون يحاربون الشريعة تارة بحجة تشدها، و يحاربون العقيدة بحجة تميزها و تفريقها بين الخلق، و يحاربون السلوك و الأخلاق بحجة عدم تفسير الحياة على الناس، فالفضيلة عائق أمام الحرية و الإبداع و الانطلاق إلى العالمية و رضى أسيادهم علينا، و لا يهتم بعد ذلك عندهم رضى الله تعالى!! لأنهم فى البدء لا يعرفون الله تعالى و لا يقدرونه حق قدره، فأسقطوا هذا الجهل على الدين فأصبحوا يتكلمون فيه بلا علم، إنما بأفكار لها فى الغرب و الشرق، و ثمارها لأمة الإسلام حنظلا، حتى لا تقف على أرض العقيدة، و لا تستظل بظل الشريعة و لا تتحرك بنور الفضيلة. فلا يبقى حصن أمامهم إلا و قد هدموه فبنشأ ناشئ الفتان منا مسخ، لا هو مسلم مستقيم و لا هو إنسان عاقل، فلا- ينتفع به فى دين و لا- دنيا و لا يعرف منفعة من مضرتة، بل لا يبقى له من الإسلام إلا الاسم و لا من العقل إلا القشر!! و أعداء الله تعالى الآن لا يعرضون و لا يلمحون فى حربهم الشريعة و العقيدة، بل حرب صريحة مكشوفة. فهم يكيلون للحدود

الإسلامية شتى ألوان الصفات التي إذا قرأها القارئ اقشعر بدنه و ظن في هذه الأمة من صفات الهمجية الكثير، فهي تقطع الرقاب، و الأيدي، و ترحم بالحجارة العشاق و أهل الحب أو تجلدتهم، و تقطع رقاب المفكر الذي يدعو إلى ترك الإسلام و الردة، لأن الاعتقاد أمر شخصي لا دخل لأحد فيه! البدائع في علوم القرآن، ص: ٩ و أن الحفاظ على عفة البنات و ظهر النساء موروث فرعونى لا قيمة له، مع أنهم يقدسون الفراعنة و ينسبون كل فضيلة لهم، و لكنه الهوى!! إذا الحرب علانية و المجاهرة بالعداء ظاهر، و ليست سرا أو تورية!! و المنافقون إخوانهم يسيطرون على الأقلام و الصحف، و على الإذاعات و السينما و المسارح التي كلها أبواق لتشكيل الإنسان وفق المخطط المدروس بدقة، و هى وسائل الثقافة الآن و للأسف. و لكن!! إياك ثم إياك!! أن تظن ظن السوء بربك أو بدينك، بتسرب اليأس و القنوط إلى نفسك من النصر أو الإصلاح!! فإن من ظن السوء بالخالق أن تعتقد أنه لا ينصر رسله و يعلى رسالتهم، و هو قد وعدنا بالنصر و العزة فقال سبحانه: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) [التوبة: ٣٣] و [الفتح: ٣٨] و [الصف: ٩] و كلها سور مدنية، حتى لا يعتقد بعضهم أن الظهور كان على أهل مكة، و دينهم الوثنى فحسب، لكن على دين أهل الكتاب و كتبهم التي حرفوها كذلك، و أهل الكتاب فى ذلك الوقت هم القوى العظمى عند البشر. لكن تعالوا نظروا إلى الآية السابقة لها من سورة التوبة و هى قوله تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) [التوبة: ٣٢]. فهم يبذلون الجهد و المال لإطفاء نور الحق، و لكن كيف يطفئون نورا أذن الله له أن يشرق؟ و هو القرآن الكريم، كلام الله تعالى و روح منه، و لا حياة إلا بالروح، و من أذن الله له بالحياة كيف يمته مخلوق؟ و نور الله تعالى - أيضا - الدلالات و الحجج و البراهين على صحة توحيده و أنه الحق، و لا- حق سواه، فهم فى شغل لتكذيب الحق، العناد و الكبر، أساس تكذيبهم. فإذا كان يوم القيامة و نزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا بؤهانكم فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) [القصص: ٧٥]. و انظر إلى قوله تعالى بِأَفْوَاهِهِمْ لتعلم خطر صناعة الإعلام المعاصر من صحافة و إذاعة و تلفاز و دشات «و شبكات النت» و غير ذلك من شتى أنواع الدعايات التي تبث التكذيب و التضليل للصد عن سبيل الله تعالى، و نحن أولى بهذه الوسائل لنشر دين الله تعالى و هو الحق المبين. البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٠ ثم تأمل قوله تعالى وَ يَا بَى اللَّهُ لَتَعْلَمَ وَ تَتَّقِنَ أَنَّ الدِّينَ مُنْتَصِرٌ، و أن هذا الإباء فيه ما فيه من أسماء الحق تعالى و صفاته ما لا يحصى معناه إلا الله تعالى. فكيف ينهزم هذا الدين؟ و إن تخاذل أصحابه عن نصره؟! ثم تأمل معنى أَنْ يُتِمَّ فَهُوَ يَتَضَمَّنُ الكمال المقصود فى قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا [المائدة: ٣]. و هذا تم فى حياته الشريفة صلى الله عليه و سلم، و يتضمن أيضا الانتشار فى بقاع الأرض شرقا و غربا شمالا- و جنوبا، سهلا و جبلا، و يشمل الغنى و الفقير، و القوى و الضعيف، و الرجال و النساء، كلهم يدخلون فى دين الله تعالى و يكون الدين أحب إليهم من أنفسهم، يعيشون ليرفعوا راياته و ينشروا أنوار الحق فيه، و تهون النفس استشهادا فى سبيله و تراق الدماء محبة له. ثم تأمل قوله تعالى فى الآية (٣٣) لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ نرى أولا أهم أسباب الظهور: إن هذه الرسالة المحمدية على الهدى التام، و التي بيانها فى قوله تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [الإسراء: ٩]. فهو يهدى للطريقة الأقوم، و السبيل الأعدل، و الأسدد قولاً- و فعلا و الأصوب حكما: ١- فى العقيدة: حيث التوحيد الخالص، و التنزيه التام لله تعالى، و التعظيم الكامل مع التوقير الحق الوافر له سبحانه. ٢- فى الشريعة: بأقسامها من عبادات و معاملات ... إلخ. حيث لا تجد شيئا منها إلا و هو صالح و مصلح للإنسان، و لو فتشت سنين عدة، و أرجعت بصرك مرارا ما وقفت على شرع مثل هذا الشرع، يقود الإنسان إلى ربه بأحكام تشريع و أيسره. ٣- فى الأخلاق: حيث العفة، الطهارة، و التزكية، و الاستقامة، مما يصنع إنسانا يتحرك بنور الله إلى نور الله، فهو يتكلم بطاعته، و يفعل ما يرضى خالقه تعالى. و مع هذا يحاسب نفسه و يظن بها الظنون، حتى لا تحرقها نار الكبر، و لا تفتنها شهوة العجب، بل بين الخوف و الرجاء يسير و يتحرك. و لو استعرضنا بعض المعانى فى قوله تعالى لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ لصنعنا مجلدة ضخمة، و لكن من تأمل هذه الشريعة الغراء لوقف على صدق ما نقول «١».

(١) انظر تفسير الآية للعلامة الشنقيطى

في أضواء البيان (٣/ ٣٧٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ١١ إذا فهذه الرسالة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم كاملة الهدى في تمام، و تامة الحق مع كمال. وَ دِينَ الْحَقِّ هُنَا لِبَيَانِ أَنْ خِلَافَهُ بَاطِلٌ، لَا حَقَّ فِيهِ، وَ إِنْ ادَّعَى أَصْحَابُهُ ذَلِكَ، وَ الْحُجَّةُ وَ الْبُرْهَانُ تَثْبِتَانِ اشْتِمَالِ دِينِ اللَّهِ عَلَى الْحَقِّ وَ أَنَّهُ لَا حَقَّ إِلَّا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى. ثم قف و تأمل قوله تعالى لِيُظْهِرَهُ: هذا الظهور كان مع كمال الدين في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث أظهره على أهل مكة ثم جزيرة العرب من نصارى نجران و يهود المدينة، و غيرهم من الطوائف و الوفود التي أقبلت على نبي الله صلى الله عليه وسلم داخله في دين الله تعالى أفواجا. ثم هذا الظهور و العلو في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه و انتصاره على المرتدين و المكذبين، ثم أيام عمر و عثمان رضي الله عنهما، حيث الفتوحات شرقا و غربا، إلى الفتوحات الكبرى التي جعلت دين الله تعالى يظهر من شرق الصين إلى غرب إفريقيا و جنوبها، إلى جنوب أوروبا و غربها و شرقها إلى بلاد البلقان، إلى أوساط روسيا ثم اليابان شرق آسيا، فشبه القارة الهندية، ثم الجزر الأندونيسية و ما يحيط بها ثم استراليا. ثم بعد ذلك أمريكا الشمالية و الجنوبية ... إلى حيث لا توجد بقعة على الأرض إلا و ينادى فيها «لا إله إلا الله محمد رسول الله». و هذا الإقبال على الدين الحق و الدخول فيه تراه في حال القوة، كما تراه عند ضعف المسلمين - كما هو الحال الآن- و لا حول و لا قوة إلا بالله. فقد أسلم في أمريكا وحدها بعد أحداث ١١ سبتمبر (٢٠٠١ م) عشرون ألفا (١) فضلا عن نفاذ كل ما يوجد من كتب بالمكاتب الفرنسية و غيرها و التي تتحدث عن الإسلام. و لو ترك الأمر للدعاة ينشرون دين الله تعالى، دون قيد أو تخويف أو حبس أو تعطيل لرأينا عجبا، و قد نرى أحيانا و نسمع ما لا يصدق عقل من إسلام أوروبيين و أمريكيين حتى أهل القبائل البسيطة في إفريقيا. ثم ما ذا نعم، ثم ما ذا بعد هذه المقدمة التي أرجو من الله تعالى أن يصدقنا فيها النية ... و التي ما أردت من ورائها إلا رجاء الله تعالى أن يثبتنا و إخواننا على ديننا، و يرد كيـد المنـافقين و المرجفين ...

(١) نشر هذا في عدة صحف عربية و دولية و على مواقع في شبكة الأنترنت. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٢ أردت أخى القارئ الكريم أن نصل إلى اليقين بعظمة ديننا و صلاحه لكل زمان و مكان؛ و لكن لا بد أن نسعى لتعلمه و تعليمه، و نشره (١). و من هذا المنطلق كان انشغالي بعلم الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى و من وقت طويل، لما خص الله به تعالى ابن القيم رحمه الله تعالى من فهم و علم و صدق. و هنا أردت أن أضم كلامه في كل باب من أبواب الدين مع بعضه حتى يكون كلام هذا الإمام مجموعا تحت عينيك مما يسهل البحث في الموضوع الواحد. فكانت أول ثمار هذه الشجرة الطيبة:

[مصنفات المحقق]

(١) كتاب: «بدائع التفسير»:

(١) كتاب: «بدائع التفسير»: و كان من أوائل هذا الجهد الذي أسأل الله تعالى أن يتقبله مني و ينفعني و المسلمين به. و هو «في خمس مجلدات» (٢)، و قد حاولت قدر جهدي إخراج كلام الإمام ابن القيم في التفسير مستوفيا، و جعل التفسير في طبعته الجديدة التي أقوم بها الآن أكثر رونقا و فائدة للقارئ، مع إنزاله على أسطوانة لأجهزة الحاسوب (الكمبيوتر). و هذا التفسير يجعل قارئه يكون نظرة شاملة دقيقة لمنهج مدرسة سلفية كبرى في التفسير ... منذ الطبري إلى ابن كثير فابن تيمية، لأن قواعد هذا العلم و أدواته استقاها ابن القيم رحمه الله تعالى من شيخه كما هو موضح في مقدمة بدائع التفسير (٣). هذا ... و ترى إمامنا ابن القيم رحمه الله تعالى في تفسيره ينحى منحى التربية و السلوك و ما «يشكل» الوضع الاجتماعي بما يوافق الأخلاق الإسلامية، فلا تكاد تمر بك آية إلا و تحتها من ألوان الأدب العالية، ما يجعلك تحقق من أهم معاني قوله تعالى إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (٤) بل تجزم أن تفسير ابن القيم للقرآن لا يخرج عن كونه بيانا لهذه الآية الكريمة. و تأمل حديثه عن تحويل القبلة في سورة البقرة و الفوائد المستخلصة من غزوة

بدر () _____ (١) و تقوم بذلك بالطريقة التي تحب الناس في ديننا لا تكرههم فيه، و تيسر على الناس لا تشدد عليهم، و أن يرى على وجوهنا البشر و السماح لا العبس و الضيق، بما يشعر الآخرين بخلاف مقصدنا. (٢) و نحن الآن بصدد إعادة طبعه طبعه جديدة تشتمل على أكثر من [٢٠٠] موضعا، مع فهرسة شاملة وافية. (٣) و سيأتي الكلام عن ذلك عند الحديث عن «البدائع في علوم القرآن». (٤) كما سبق الإشارة إلى ذلك. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٣ و تأمل كلامه عن قصة يوسف، و غير ذلك من المواضيع المبهرة الدالة على عقل راجح، و فكر مشرق، يفخر به المسلمون، و الذي لو تدبره الناس و تدارسوه لاستغنوا عن كثير من الجهالات، التي بهرت أجيالا كاملة من شباب الأمة، و ليس هذا إلّا بسبب جهلنا بديننا و ابتغائنا العزة في غيره.

(٢) كتاب: «جامع الفقه»

(٢) كتاب: «جامع الفقه» ثم كان كتابي: «جامع الفقه» (١) و هو في سبع مجلدات و قد اعتنى به إخواني في دار الوفاء، لإخراجه في صورة مبهرة من فهارس و طباعة. و هذا الكتاب رتب وفق كتب المذهب الحنبلي، حتى يسهل الوقوف على مسائل الفقه في يسر، مع سهولة ذلك أيضا من خلال الفهارس، و قد جعلت في أوله باب النية اقتداء بالإمام البخاري رضي الله عنه في صحيحه و قد لقي هذا استحسانا من كثرة وافر من أهل العلم و طلابه و الحمد لله رب العالمين.

(٣) كتاب: «جامع الآداب»

(٣) كتاب: «جامع الآداب»: و هو في أربع مجلدات جمعت فيه أبواب الأخلاق و السلوك، كما وضحته في مقدمته (٢).

(٤) «جامع السيرة»

(٤) «جامع السيرة»: جمعت فيه السيرة النبوية في مجلد، بما يمكن القارئ من الوقف على أهم الأحداث التي تمت في حياة النبي صلى الله عليه و سلم. و بينت في مقدمته ذلك، و بيان أنه مع صغر حجمه لكنه من دقائق السيرة و فقهها (٣).

(٥) «المختار من الفتاوى»

(٥) «المختار من الفتاوى»: و سوف يصدر بحول الله تعالى في مجلدين كبيرين و قد رتبته على أبواب العلم: _____ (١) أصدرته «دار الوفاء» في سبع مجلدات لصاحبها أخي و صديقي المحترم المهندس عاصم شلبي و هو مثال للأخوة و الرجولة جزاهم الله خيرا. (٢) و سوف يعاد تحقيقه على الصورة المثلى إن شاء الله تعالى مع إعادة بعض الترتيب، حيث خرج في ظل أحوال حالت بيني و بين مكتبتى نسأل الله العافية و السلامة. (٣) و اعتنت بنشرها دار الوفاء، جزاهم الله خيرا. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٤ أولها: العقيدة، الفقه و هكذا .. و هو على صورة سؤال و جواب. و قد انتقيت فيه أهم المسائل التي هي أقرب إلى الواقع الآن، بحيث يصبح مرجعا يسيرا لهذه الأبواب على غرار الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عليه، و فصلت ذلك في مقدمته (١).

(٦) ثم كان: «البدائع في علوم القرآن»

(٦) ثم كان: «البدائع في علوم القرآن»: و هو كتاب لطيف حاولت بعون الله تعالى جمع ما تكلم فيه ابن القيم رحمه الله تعالى في هذه العلم الشريف. و جعلت هذا العمل كالمقدمة لكتابي الكبير «بدائع التفسير» بحيث يضم إليه لتكون مكتبة التفسير و علومه لهذا الإمام

الجليل. وإليك التفصيل: - ١- فصل في: أ- تعريف «علوم القرآن» من حيث التركيب: يتكوّن هذا التركيب الإضافي من جزئين: - «علوم» و هو المضاف. - و «القرآن» و هو المضاف إليه. و المقصود من الجزء الأول منه و هو «علوم» و هو جمع «علم» و يقصد به: - تلك المسائل التي يبحث عنها في هذا العلم. أما المضاف إليه و هو «القرآن الكريم»: فهو كلام رب العالمين الذي نزل به الروح الأمين جبريل، على قلب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه و سلم بلسان عربي مبين. - و لفظ «القرآن» مصدر مرادف للقراءة، لقوله تعالى: إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ (١) يقوم الآن الأخوة الكرام «بمدار

المعرفة» بنشره هو و «البداية في علوم القرآن». البداية في علوم القرآن، ص: ١٥ فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ (١٨) [القيامة: ١٧-١٨]. و قال بعض أهل العلم أنه من القرء بمعنى الجمع أو من قرنت الشيء بالشيء ... إلخ «١». و بذلك يدخل تحت هذا المعنى: علم التفسير و شروطه، و شروط المفسر، و إعجاز القرآن، و القراءات، و أسباب التنزيل، و النسخ و المنسوخ، إلى آخر تلك المباحث المتعلقة بهذا التعريف من حيث كونه مركبا إضافيا. و أما من ناحية معنى «علوم القرآن» كعلم، فيراد به: تلك الأبحاث الدالة على الفن المدون تحته أبحاث نزول القرآن و بدء الوحي و مكانه و زمانه، إلى آخره. و على هذا فعلم «علوم القرآن» من ناحية كونه مركب إضافي، أو من ناحية كونه علما فهو العلم الذي مداره دراسة ما يتعلق بهذا الكتاب العظيم. و لن نخوض في قضايا منطقيّة مفتعلة حول بعض الأبحاث المتعلقة بالتعريف و كونه للكليات لا- للجزئيات فنحن نبحت الأمر على قواعده الأولى، قبل أن يخالط الماء الخبث، و دخول الريب على العقول. - ٢- إذا فعلم «علوم القرآن» يندرج تحته كم هائل من العلوم، جعله غير واحد من أهل العلم كباب مستقل، كما سيأتي. فهل لهذه العلوم حصر أم متجددة؟ ذهب بعض أهل العلم «٢» إلى أن علوم القرآن الكريم تبلغ (٧٧٤٥٠) سبعون ألف و سبعة آلاف و أربعمئة و خمسون علما. يعني: على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، لأن لكل كلمة ظهرا و بطنا، و حدا و مطالعا. و هذا في المفردات، أما باعتبار التراكيب و ما بينها من روابط فهي لا- تحصى، و لا- يعلمها إلا الله تعالى. (١) انظر لسان العرب مادة قرأ، و

كتاب العلم للشافعي ١٢، و الرسالة ص ١٤ و مقدمة تفسير ابن عطية (٢٨١). (٢) الإمام أبي بكر ابن العربي رحمه الله تعالى. البداية في علوم القرآن، ص: ١٦ و ذهب إلى ذلك كثير من الباحثين خاصة أرباب الإشارات، و مال له أيضا السيوطي في الإتيان. و المتتبع بحياد ما دون مفصلا في هذا الفن يعلم أن الأمر فيه من المبالغة ما يفوق حد العقل و الواقع. و ليس معنى هذا أنه علم حصر و احتراق لا! بل يفتح الله تعالى على عباده من الأفهام التي تستنبط و تفصل في هذه العلوم، ما قد يكون له حظ وافر من قوله تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) [الكهف: ١٠٩]. كما سيأتي تفصيله في محله إن شاء الله تعالى. - ٣- و حتى يتعاش القارئ الكريم مع ما ذكر، نذكر أشهر و أهم تلك العلوم التي اشتهر عن علماء هذا الفن وضعها تحت ظلاله: ١- علم بدء الوحي و كفيته. ٢- علم معرفة المكي و المدني. ٣- علم معرفة أول ما نزل و آخره. ٤- علم معرفة أسباب النزول. ٥- علم معرفة النسخ و المنسوخ. ٦- علم معرفة جمع القرآن و ترتيبه. ٧- علم نقل القرآن و روايته و تحمله و كتابته. ٨- علم الوقف و الابتداء و جميع أبحاث علم القراءات. ٩- علم آداب تلاوته. ١٠- علم معرفة غريب القرآن. ١١- علم لغة القرآن و هل فيه غير العربية. ١٢- علم المحكم و المتشابه. ١٣- علم المجمل و المبين. ١٤- علم العام و الخاص. البداية في علوم القرآن، ص: ١٧ ١٥- علم المطلق و المقيد. ١٦- علم حقيقته و مجازه. ١٧- علم إعجاز القرآن. ١٨- علم أقسام القرآن. ١٩- علم قصص القرآن. ٢٠- علم التفسير و أدوات المفسر «١». *** إذا فأبحاث «علوم القرآن» لا تترك صغيرة و لا كبيرة تتعلق بهذا الكتاب المبارك إلا و قد أفاضت في دراسته و بحثه. و هنا نذكر أن جل هذه الأبحاث أساسها اللغة العربية حيث هي لغة القرآن الكريم، و هي الضابط للباحث، و المتتبع لكتاب مثل الإتيان و بدقيق النظر في كل فصوله يلحظ ذلك جليا. فكان لزاما على أهل هذا الفن- و هذا ما صنعه يرحمهم الله تعالى- الإحاطة بعلوم هذه اللغة المباركة أفرادا و تركيبا، مع التحقيق النحوي و البلاغي و الصرفي، إلى آخر هذا الأبحاث

الرئيسية والتي تتولد منها عشرات الأبحاث الفرعية حيث يؤدي ثماره يانعاً مزيناً للناظرين قربةً للطالبيين. - ٤- أما الحديث عن فائدة دراسة «علوم القرآن» ففي غاية البيان، ولا بأس بذكر بعضها: فمن أهمها التسليح بأدوات صحيحة الأصل والمعنى لخوض فهم هذا القرآن الكريم. وهذا علم التفسير ينبثق عن هذا: فلو لم يعرف المفسر ما ذكرناه آنفاً من أبحاث تتعلق بهذا الفن كالنسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه... إلخ كيف يتكلم عن تفسير القرآن لو لم يقف عليها مبنى ومعنى. وهكذا لن يستطيع أحد الخوض في غمار هذا النور والسباحة بين شاطئان نهره العذب إلا

(_____ ١) هذا ما قدرت عليه الذاكرة، و

بعون الله وبحمده، أنتهى الآن في معجم «علوم القرآن»، وحيث رتبته «ألف باء» ولم أذكر فيه إلا الغالب في تعريف المصطلح، مع الدقة في التعريف والإيجاز مع سهولة تناول والأسلوب، إن شاء الله تعالى. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٨ وقد أعد العدة وهي تجهزه بهذه الفنون. فلو أراد الكتابة أو الحديث عن تاريخ القرآن، لاحتاج إلى علم القراءات وعلم تدوين القرآن ونقله وحمله وتواتره وحفاظه من الصحابة ومن بعدهم وكتابة المصاحف إلى آخر تلك الأبحاث. والذي يريد أن يتكلم في إعجاز القرآن، لن يجد فناً من هذه الفنون المدونة في هذا العلم إلا واحتاج إليها، خاصة لو نظرنا إلى الإعجاز يتوسع كما يراه بعضهم. ومنه الإعجاز العلمى للقرآن الكريم وسيأتى الكلام عليه في موضعه، والله الموفق. *** ولما كان القرآن الكريم هو الكتاب الحق، والتنزيل الصدق، وهو الفرقان المبين، والذكر الحكيم، وهو أحسن الحديث، وأصدق القول، وهو الحكمة البالغة، والشفاء التام، والرحمة التامة، والهدى الكامل، وهو الصراط المستقيم، وحبل الله المتين، وهو البيان الباهر، والروح والبصائر، وهو القول الفصل والبرهان المهيمن، والنور المنزل، وهو القرآن العظيم الكريم، المجيد، المبارك، وهو حق اليقين، والنبأ العظيم. أقول لما كان القرآن الكريم كذلك وفوق ذلك: كان هو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع الله تعالى فيه علم كل شيء، وأبان فيه الحق ليتبع ضده ليجتنب، فترى صاحب كل علم حق منه يغترف، وعليه يعتمد بالأحكام يستنبطها الفقيه منه، وصاحب العقيدة لا يخرج عنه، وصاحب اللغة به يحتمى، والنحوى كان له القرآن هو الميزان ليميز بين خطأ القول من الصواب، وصاحب البلاغة هو له مرآة الحسن النظم والبيان، وصاحب التاريخ كان يضرب في صحراء الأسطورة حتى هداه القرآن على القصص الحق والخبر الصدق، وهو دواء القلوب لأرباب السلوك. فقد صدق الله حين قال: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ. فصل من القضايا التي أخذت حظاً وافراً من البحث والتحقيق قضية «نشأة العلوم» ومتى كان بدء تدوينها. وقد أفاض كثير من أهل العلم من أصحاب السير والتاريخ والتراجم بوضع كم وافر من الكتب التي تتحدث عن ذلك. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٩ ومن أهم العلوم التي كان لها حفظ وافر من ذلك التقيد: ١- علم الفقه. ٢- علم أصول الفقه. ٣- علم النحو والصرف. ٤- علم الاعتقاد. ٥- علم قواعد الحديث. ٦- علم التفسير. ٧- علم القرآن. وكان لكل علم منها موضع نظر كبير عند أهل العلم في بيان أول من تكلم فيه منذ عهد الصحابة رضى الله عنهم ثم التابعين... إلخ. ثم بيان أول من دون شيئاً في هذا العلوم. فمثلاً: المتأمل في تاريخ تدوين علم «أصول الفقه» لا يكاد يقف على كتاب في أصول الفقه إلا ويجد هذا الأمر إما باستفاضة أو اختصار. وقد اشتهر عند الخاصة والعامة أن أول من وضع كتاباً في أصول الفقه هو الإمام الشافعى رحمه الله تعالى «١». *** أما علم «علوم القرآن» فله شأن آخر نبهته في هذه الوقفات:

[الوقفات الثلاثة في علم علوم القرآن]

١- الوقفة الأولى في بدء كتابة وتدوين العلوم:

١- الوقفة الأولى في بدء كتابة وتدوين العلوم: - قد اشتهر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن كتابة غير القرآن، كما جاء في الحديث الصحيح. - ثم أذن صلى الله عليه وسلم بالكتابة كما في حديث أبي شاه «٢».

(١) الإمام الكبير شيخ الإسلام الحجّة، ناصر الحديث، فقيه الملة، أحد عجائب علماء الإسلام، انظر ترجمته رحمه الله تعالى و مصادرها في: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/٥). (٢) انظر في النهي عن الكتابة ثم الإذن في كتابة الحديث، في بحث رائع للدكتور/ محمد عجاج الخطيب في «السنة قبل التدوين» (٣٠٣) وما بعدها. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٠ - فكان بجوار كتاب الوحي المعظم، كان هناك كتاب للحديث الشريف، منهم عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما. - ثم كان بدأ التدوين آخر القرن الأول و بدايات القرن الثاني تقريبا. - ولما كان نزول الوحي على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأساس في بناء قواعد هذا الدين، و كانت السنة مبينة و مفسرة له، و كان هدى النبي صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة للتطبيق العملي الذي يرضى الله تعالى، كان كل ذلك كافيا للصحابة عن تدوين العلم بصورته اللاحقة بعد ذلك. - هذا مع تتابع أنوار الوحي و النبوة، و لهما من التأثير ما لا يحيط بأسراره إلا الله تعالى، و لهذا كان الصحابة رضى الله عنهم مقدمين في كل فضيلة سابقين لكل كمال، و هذا في جميع أنواع العلوم، و كان للقرآن الكريم حفظا و فهما و تفسيراً و إحاطة تامة بظاهره. الحظ الوافر عندهم. - و كانوا أعلم الخلق بالأحكام و الآداب و الاعتقاد. - و هم مع كل هذا: الأعلى إخلاصاً، و الأطهر أفئدة، و الأقوى فهما، و الأدق استنباطاً، و الأصح دليلاً، و الأسلم قولاً. - حتى ترى جملة من كلامهم يأخذ العالم في شرحها في أكثر من مائة صفحة أو يزيد «١». - حسبك ما قاله الإمام أحمد رضى الله عنه: «أصول السنة عندنا ما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم». - و اتفق العلماء أن خروج البدع و المبتدعة، سببه ترك ما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، و هذا تراه واضحا لكبار علمائنا من زمن الصحابة إلى وقتنا هذا، و حيث يبهون على خطورة هذا المنهج الذي يبحث في الدين دون الوقوف على أحوال و أقوال الصحابة، و لله درّ الإمام مالك رحمه الله تعالى في هذا الملحظ حيث كان عمل أهل المدينة عنده بمكان «٢». - إذا فمع علم كثير من الصحابة رضى الله عنهم بالكتابة لم يكونوا بحاجة للتدوين كما مرّ بنا.

(١) كما صنع مثلاً ابن القيم في شرح خطاب عمر في إعلام المؤمنين، و هو الآن تحت الطبع بتحقيقى بحول الله و قوته. (٢) و انظر على سبيل المثال: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٣/١٣). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢١

٢- الوقفة الثانية: كتابة الوحي:

٢- الوقفة الثانية: كتابة الوحي: قد تكلم جمهرة من أهل العلم في هذا الموضوع حتى أصبح سيلا جرف أمامه كل شك و ريب و شبهة، أراد بعضهم منذ العهد الأول إلى الآن أن يغرستها في طريق المسلمين، فكان ما سبق من الله تعالى من حفظ كتابه أول و أعظم سند حيث يقول ربنا تبارك و تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) [الحجر: ٩]. - حيث شمل الحفظ: حفظه من التلاشى، و حفظه من الزيادة فيه أو النقصان منه، حيث سخر الله تعالى له من يحفظه و ينقله متواترا، حيث سلم من كل اختلاف حدث فيما سبق من كتب منزلة، حين و كل حفظها إليهم. - و تأمل الصحابة رضى الله عنهم و هم يتلون بعد ما سمعوه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يقرهم عليه، و إذا حدث أى خلاف حول حرف منه رجعوا إليه صلى الله عليه وسلم فيبين الصواب، و أزال شبهة الخلاف فيه، حتى إذا لحق بالرفيق الأعلى، و كان حفاظه من الشهرة بمكان، أتاح لجمهرة من الأمة لا يعلم عددها في كل مصر أن تتوارث هذا الحفظ و النقل، و المتدبر في كتب تراجم القراء يرى عجبا في هذا الشأن، و كذا كتب القراءات. - حيث يرى دقة ضبطهم، مما يحير العقول، و مما لا- يقدر عليه أحد إلا عن طريق ما وصل إليه العلم الآن عن طريق الحاسوب من حيث الحصر و الإحاطة لكل حرف مخرجه و درجة تفخيمه أو ترقيقه أو مده فبأى حديث بعده يُؤْمِنُونَ [الأعراف: ١٨٥]. أ فلا يتدبرون القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (٨٢) [النساء: ٨٢]. - و ليس على ما أعتقد أن كتابا على ظهر الأرض حظى بمثل هذا المقام مثل «القرآن الكريم». - و في هذا خير رد على كيد أهل الكفر و النفاق: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ

لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٢٦) [فصلت: ٢٦]. - فمع تفننهم في صرف شباب الأمة عن الدين باللهو و الفجور و تزين الشهوات، إلاً أنك ترى تكاثر حفاظه و العاملين به، مع توافر البواعث الصارفة، و لكن: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُؤِيدُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ (٤٩) [سبأ]. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٢ فمهما كان الاستهزاء و اللغو و الصد، و تكميم الأفواه الناطقة بالحق، و الداعية للحق، و تخويفهم و ترهيبهم، ما هي في النهاية إلاً جعجات بلا طحين، مثل الزبد فأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً [الرعد: ١٧].

٣- الوقفة الثالثة: أ- متى نشأ مصطلح «علوم القرآن»؟

٣- الوقفة الثالثة: أ- متى نشأ مصطلح «علوم القرآن»؟ - لعلنا في حاجة إلى التفرقة بين ظهور هذا المصطلح بتعريفه المبين في أول هذه المقدمة، و بيان ظهوره جل مباحثه منذ العهد الأول. - و قد تكلم كثير من الباحثين في بدء ظهور هذا المصطلح «علوم القرآن» منهم السيوطي في الإتقان، و الزرقاني في «مناهل العرفان». - و وافق الزرقاني السيوطي و كلاهما تبعاً للبلقيني في أن أول من تحدث بهذا هو الإمام الكبير الشافعي رضي الله عنه في حكاية «١» وردت من كتاب «تاريخ الشافعي» في القضية التي أثارها المبتدعة حول قولهم بخلق القرآن، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاً كَذِباً [الكهف: ٥]. فقد جاء فيها أن الرشيد سأل الشافعي: كيف علمت يا شافعي بكتاب الله عز و جل؟ ... إلى أن قال و لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمي محمد صلى الله عليه و سلم، فقال الشافعي: إن علوم القرآن كثيرة، فهل تسألني عن محكمه و متشابهه، أو عن تقديمه و تأخيره ... إلخ. و إن ثبت هذا، فيكون درة نفيسة، و يكون من فضل الله تعالى الذي لا حد له أن يجري على لسان الشافعي هذا التركيب حتى يزيده فضلاً و شرفاً. فهو - كما مر - اشتهر بوضع أول القواعد لأصول الفقه و ذلك في كتابه الأشهر «الرسالة». و هذا لا يمنع البوح بما في نفسه منذ زمن أن الرسالة نفسها إحدى قواعد: (علوم القرآن) كما هي قواعد لعلوم: «أصول الفقه».

(١) لم يسعني الوقت على تحقيق سندها و صحتها، و لعل هذا استوفيه في مقدمته «معجم علوم القرآن» إن شاء الله تعالى. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٣ و القارئ الرشيد و الباحث الموافق، لو تتبع الرسالة «١» لوجد من بزور هذا العلم ما لا يخفى مع اشتها سبب كتابة هذه الرسالة نفسها. و ذلك أن الإمام «عبد الرحمن بن مهدي» «٢» - و الذي وصفه الشافعي بقوله: «لا أعلم له نظيراً في الدنيا» - سأل الشافعي أن يضع كتاباً يحوى «معاني القرآن»، يجمع قبول الأخبار فيه، و حجة الإجماع و بيان الناسخ و المنسوخ من القرآن و السنة، فوضع له كتاب الرسالة. و هنا نلاحظ قوله «معاني القرآن» فالبدء كان لخدمة القرآن حتى يفهم، و المتأمل في «الرسالة» يلمس الآتي و هي: إن المتأمل في أبواب الرسالة للشافعي رحمه الله تعالى يلحظ من القواعد ذات الصلة الوثيقة بعلوم القرآن مثل: علم القرآن. القرآن كله بلسان العرب. العربي و العجمي فيه. ترجمة القرآن. معنى إنزاله على سبعة أحرف. البيان في القرآن. المجمل و المفسر. العلم بالقرآن و درجات الناس فيه. العام و الظاهر في الكتاب. حكم النسخ. ناسخ القرآن و منسوخه. تخصيص الكتاب بالحديث. العام في القرآن و الخاص. فلو أضفنا ذلك إلى ما سبق ذكره عن سبب تأليف الرسالة، لتجمع لدينا من القرائن ما يجعلنا نميل إلى أن أول من أظهر هذا المصطلح «علوم القرآن» هو الإمام الشافعي

(١) أرجو من الله زيادة توفيق و إسباغ سكينته حتى أقف على تحقيق هذه المسائل بحوله و قوته تعالى. (٢) الإمام الناقد الموجود، سيد الحفاظ، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٩٢/٩). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٤ رحمه الله تعالى، و إن لم يكن أول من وضع فيه كتاباً مستقلاً. و كما يقول الدكتور عبد المنعم النمر في معرض الحديث عن الرسالة «١»: «و لا شك أن الشافعي لم يبتكر معاني القرآن، و لا القول في الإجماع، و لا الناسخ و المنسوخ ... و لكنه نظم ذلك و غربله متداخلاً فيه برأيه، فأضاف و أشار للقواعد المتداولة و بين ما يقبل و ما لا يقبل حسب رأيه. فلا يعقل أن الشافعي ابتكر كل ذلك في رسالته .. و لكنه تحدث فيما يتداول بين علماء زمانه، فقبل و رفض، و

أضاف و نظم، و اعتبر علماء زمانه و من بعدهم هذا أول تنظيم لعلم أصول الفقه» أ. ه. و ذهب الشيخ أحمد شاكر مذهب الفخر الرازي: أن الرسالة أول كتاب أُلّف في أصول الفقه، بل و في أصول الحديث «٢». و يقول الشيخ أحمد شاكر: و كتاب الرسالة- بل كتب الشافعي أجمع- كتب أدب و لغه و ثقافته، قبل أن تكون كتب فقه و أصول، ذلك أن الشافعي لم تهجنه عجمة، و لم تدخل على لسانه لكنة، و لم تحفظ عليه لحنه أو سقطه» أ. ه. أضف إلى ذلك المباحث المشتركة بين أصول الفقه، و علوم القرآن نجد قرب هذا الاستنتاج من الصواب «٣». فصل هذا من ناحية أول ظهور لهذا المصطلح، فكيف لأول ظهور لمألف بهذا العنوان «علوم القرآن»؟ المتأمل لما سبق يلحظ أن كثيرا من علماء القرن الثاني كتبوا في أبحاث احتواها من بعد علم «علوم القرآن». و كما سبق، أن جل أبحاث «علوم القرآن» كغيرها من العلوم الشرعية كالفقه و الحديث، كانت دائرة على السنة الصحابة رضي الله عنهم، مع اختلاف في الألفاظ تارة أو في السعة و الضيق تارة أخرى. و قد يكون من أشهر هذه الأبحاث:

(١) الاجتهاد (١١٨). (٢) مقدمة

الرسالة. (٣) هذا مبحث عظيم الشأن أفصله إن شاء الله تعالى في معجم علوم القرآن. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٥ مسألة الناسخ و المنسوخ. المحكم و التشابه. ثم القراءات. و أسباب النزول و أماكنه. معاني القرآن و تفسيره. نقله و حفظه و كتابته. رسم المصحف. و القصص القرآني. و حيث إن علم «علوم القرآن» يرتبط ارتباطا وثيقا بالقرآن، كان لزاما أن يكون جلّ مباحثه تدور في العصر الأول زمن نزول الوحي المبارك، ثم تناقلها التابعون عن الصحابة رضي الله عنهم و هلم جرا «١»، و إن كانت الأمانة تلمنا تتبع تاريخ هذا العلم الشريف عند الصحابة و التابعين بأكثر من هذا، حيث يستلزم ذلك قراءة كتب السنة كلها، و كذلك كتب الآثار و غيرها مما يتيح للقارئ الوقف بصدق على بذور هذا العلم الشريف. و كما أن أسس هذا العلم الشريف في الكتاب العزيز، هي كذلك مبنوثة بين طيات الأحاديث المطهرة. و لعلماء القرنين الثاني و الثالث جهودا مشكورة في إظهار بعض مباحثه متفردة. نلاحظ ذلك مثلا في: الناسخ و المنسوخ لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤). الناسخ و المنسوخ لعلي بن المديني (٣٣٤). بيان ما ضلت فيه الزنادقة من متشابه القرآن. للإمام أحمد رضي الله عنه «٢». بعض مؤلفات العلامة ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) و بخاصة: تأويل مشكل القرآن، ففيه نفايس.

(١) و هذا ما نرجو من الله تعالى

تيسيره في معجم علوم القرآن، حيث نسأل الله تعالى صرف الهم و تيسير الأمر. (٢) سنحاول بعون الله تعالى أن نسرّد توثيقا لهذه المؤلفات و مدى صلتها بهذا العلم الشريف. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٦

[فصل أول المصنفات المستقلة في هذا الفن]

[فصل أول المصنفات المستقلة في هذا الفن ذهب العلامة السيوطي رحمه الله تعالى إلى أن أول مصنف في هذا العلم «الإمام بدر الدين الزركشي» بكتابه «البرهان في علوم القرآن». و كان من قبل يذهب إلى أن أول ذلك الأمر للعلامة جلال الدين البلقاني بكتابه «مواقع العلوم من مواقع النجوم». و ذهب العلامة الزرقاني في مناهل العرفان إلى أن أول من وضع كتابا يشمل هذا الفن هو العلامة علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي (ت ٤٣٠ هـ) بكتابه «البرهان في علوم القرآن» «١». و لكن قد يرى بعض الباحثين بعد ما ذهب إليه العلامة السيوطي في قوله، و كذا ما ذهب إليه الزرقاني، لأسباب: أولا: أن الذهبي رحمه الله تعالى قال في ترجمة ابن المرزبان «٢» المتوفى (٣٠٧ هـ): «وقع لي قطعة من تأليفه، و له كتاب «الحاوي في علوم القرآن». و كذلك ذكر الذهبي في ترجمة ابن الأباري «٣» (ت ٣٢٨ هـ) قال: صنف في «علوم القرآن و الغريب» ... إلخ. و قد ذكره بعض مترجميه بعنوان «عجائب علوم القرآن». يتبين لنا من هذا سبق ابن المرزبان أولا، و يليه ابن الأباري في الكتابة المستقلة في هذا العلم باسم «علوم القرآن» و الله تعالى أعلم. ثانيا: ما ذكره العلامة الزرقاني عن «الحوفي» عليه ملاحظة: حيث ذكر كتاب الحوفي باسم «البرهان في علوم القرآن» و لم أقف على من ذكره بهذا الاسم غيره، حيث ذكر كل من ترجم له باسم «البرهان في تفسير القرآن». و هو كما يقول العلامة الزرقاني يأخذ في بيان الإعراب و

الناحية النحوية واللغوية، ثم بيان القول في المعنى والتفسير، وبيان التفاسير المأثورة والمعقولة للآية، ثم بيان الوقف
(١) انظر الإتيقان (١ / ٥) و مناهل
العرفان (١ / ٣٤ - ٣٥). (٢) الإمام العلامة الأنباري أبو محمد محمد بن خلف بن المرزبان، انظر ترجمته و مصادرها في السير (١٤ /
٢٤٤). (٣) الإمام الحافظ اللغوي أبو بكر محمد بن القاسم، سير أعلام النبلاء (١٥ / ٢٧٤). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٧ و التمام، ثم
بيان القراءات إن وجدت ... و هكذا. و من هنا يتبين أنه تفسير موسع ضم أنواعا من علوم القرآن، لكن ليس مستقلا في علوم القرآن.
و لعلنا نصيب إذا قلنا إن نضج هذا العلم و تمامه، كان على يدي العالمين الكبيرين الزركشي و السيوطي في «البرهان» و «الإتيقان» (١).
هذا مع افتقادنا لكتب حملت هذا العنوان لكننا لم نستطع الوقوف عليها كما سبق عند ابن المرزبان، و ابن الأنباري، و الله تعالى أعلم.

فصل علوم القرآن و الرد على الشبهات

فصل علوم القرآن و الرد على الشبهات قد لا نبالغ إذا قلنا أن علوم القرآن من أعظم حصون الشريعة، و من حوائط الصد الصلبة القوية
ضد أعداء الدين، من الكفار و المنافقين الذين يلبسون على المسلمين أمرهم و يقدحون في دينهم «٢»، حتى وصل الحال بالمطالبة
بالغاء أبواب كاملة من الدين بل و آيات من الذكر الحكيم. أصبح الحديث عن تلك الأبواب - و التي هي من أركان الدين -
كالجهاد مثلا - قرينة لوصم المتحدث بالإرهاب. و هكذا يتعرض الإسلام لخطر تقطيع أركانه مثل ما حدث للأديان السابقة التي
أصحبت تعبد الصور و الصلبان و النيران و الحيوانات، مع عدم تطبيق أبنائه له في أكثر حياتهم، يظهر لنا أن الخطب جلل. و لهذا لا بد
من نشر هذه العلوم الإسلامية، حتى يتحصن المسلم ضد هؤلاء و هؤلاء. و تستطيع مادة «علوم القرآن» الرد الوافر على الشبهات المثارة
و التي قد يقع فيها بعض المسلمين بحسن نية و قلّة روية. و يتبع ذلك أهمية الوقوف على أقوال السلف في هذا العلم و غيره من
العلوم، و حتى ينضج العقل الميزان، و يصحح القبول.

(١) لعل الله تعالى يسير زيادة تفصيل

في هذه المسألة في معجم علوم القرآن. (٢) و هذا قد ظهر جليا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر (٢٠٠١) و الذى دمرت فيها بعض
المباني بأمريكا. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٨ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: و لهذا كان معرفة أقوالهم في العلم و
الدين و أعمالهم خيرا و أنفع من معرفة المتأخرين و أعمالهم في جميع علوم الدين و أعماله، كالتفسير، و أصول الدين، و فروعه، و
الزهد، و العبادة، و الأخلاق، و الجهاد، و غير ذلك، فإنهم أفضل ممن بعدهم - كما دلّ عليه الكتاب و السنة - فالإقتداء بهم خير من
الإقتداء بمن بعدهم، و معرفة إجماعهم و نزاعهم في العلم و الدين خير و أنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم و نزاعهم. و أيضا:
فلم يبق مسألة في الدين إلّا و قد تكلم فيها السلف «١». و كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في غاية الضبط، حيث ترى الآن بعض من
يتصدى لصعود جبل العلم و الفتوى و الدعوة، و زاده ليس سوى الضجيج و الادعاء و التعالم و لعل غرضه الشهرة و المال. حتى ترى
و تسمع هذا الكم من الكتب و الشرائط لا تسمع فيها إلّا صراخا و كتبا ملئت كلاما لا يساوى مداده، و لا حول و لا قوة إلّا بالله العلي
العظيم. و من الأمثلة على ذلك الكلام في بعض القضايا التي لعل من المفيد الإشارة إلى بعضها: (١) نزول القرآن الكريم لا خلاف
بين سلفنا الصالح رضى الله عنهم على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه و سلم. و كلام الله
صفة من صفاته، يجب وصفه بكل صفات الجمال و الجلال، و الحكمة. و منذ ظهور البدع و الفرق و هى تحاول جاهدة تغيير هذا
الاعتقاد في القرآن، و تحويل المتفق عليه إلى متنازع فيه، فرأينا كلامهم على كون القرآن كلام الله النفسى، و كونه مخلوقا «٢»، هذا
حتى تنزع هيبه القرآن من القلوب و هيمنة القرآن على الكتب، و تقديم العمل بالقرآن على ما يزينه الشيطان في صور شتى تحت
رايات شتى بأسماء شتى، حتى يتشتت العقل المسلم، و يضطرب سلوكه.

(١) مجموع الفتاوى (١٣ / ٢٤ - ٢٥).

(٢) و لعلماء الإسلام منذ الصحابة مرورا بالتابعين ثم عصر الإمام أحمد، مرورا بابن القيم إلى عصرنا هذا ردودا متتورة و مجموعة في مئات الكتب. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٩ و يستوهم بعضنا إن ظن أن كثيرا من القضايا التي هزمها السلف قد اندثرت، بل كثير منها يطل بين الفينة و الفينة. فنرى من يدعو إلى كون القرآن نصا لغويا يحتمل كل الإسقاطات التي يتحملها أى نص من وضع بشرى. و يسمى ذلك «بالوعى العلمى» متهما كل السابقين بأنهم أصحاب الفكر الرجعى، باستنادهم إلى التراث، لأن نشر مثل هذا الوعى العلمى- فى زعمه- يسحب البساط من تحت أقدام هذه القوة المنتفعة بالوضع الاجتماعى المتردى. و يجعل من تهذيب العلوم الإسلاميه للناشئة ضربا من ضروب الارتزاق على أكتاف ناشئة جهلاء، و سيلا من سبل الشهرة. ثم يضع لنا أسسا لصلاحيه الأعمال المتقرب بها إلى الله تعالى حيث يكون أولها الموضوعيه التي يعرفها المتخصصون ... هكذا «١»!! و هذه كما ترى «عينه» مما تفيض به أقلام هؤلاء المغرورين، و لعله لم يصب من يريد عزل الدرس الدينى عن الواقع الإسلامى، و تجريد الفكر المحرك للدعوة من هذه القضايا، و بالتالى تفرغ الدعوة كلها من الدافع فتهدون عليها النتائج. بل استخدام هذه العلوم الشرعيه خير وسيلة- و الله أعلم- يرد على كل صاحب هوى يقدر تارة فى الفقه، و أخرى فى أصوله، و ثالثه فى التفسير، و رابعه فى اللغة و النحو و الصرف، و هلم جرا. و ما وضع علماء سلفنا هذه العلوم إلّا للدفاع عن الدين، و لا معنى لقولهم «غربلهم بالعلم» فى مواجهه المبدعه، إلّا باستخدام هذه العلوم حيث التسليح بالفهم الصحيح بالدليل الصحيح حتى يدحض الله تعالى الباطل، و سنرى مثلا لذلك. فصل سوف يرى القارئ علاج ابن القيم لكثير من الشبهات بالاستناد على علوم القرآن الكريم. حيث ناقش- رحمه الله تعالى:-

(_____١) و هذه من مدرسه قديمه دائما ما

ترى خلف أسوارها أعناق المستشرقين الذين يخرجون تلاميذ نجباء فى ضلالهم، أغبياء فى درسهم، و ينسون أنهم دائما صدى صوت. و هناك قائمه طويله بأسماء هؤلاء سنخرجها قريبا، تصريحا لا تلميحا. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٠ - قضيه النسخ، حيث أشبعها بحثا و بيان حكمتها، و معنى النسخ عند سلفنا الصالح، و الفرق بين معناه عند المتقدمين و المتأخرين. - و كذلك مسائل المتشابهة فى القرآن، و بيان معناه الصحيح عند المتقدمين، بخلاف كثير من المتأخرين الذين جعلوه مطيه لنفى الصفات أو تأويلها أو تحريفها أو تعطيلها. - و يعرج على القصص القرآنى و بيان حكمته و استخراج العبر و القواعد النافعه، التي هى صراط مستقيم للباحث عن الحق. - ثم قضيه الإعجاز العلمى فى القرآن «١»، و تظهر أهميه هذه المسأله فى وقتنا الحالى حيث انتشر هذا الأمر بين الموافق الداعى له و الذى جعله من أهم أسباب الإقبال على الإسلام فى الغرب. حتى بالغ بعضهم و جعل جميع الآيات القرآنيه المتكلمه عن الطبيعه و الكون، ذات تفسير عصرى متاح. و أسقط جميع ما وصل إليه العلم على هذه الآيات. و فى المقابل نرى فريقا أنكر ذلك أشد الإنكار، و منعه منعا باتا. و كعادة الأمة المسلمه التي جعلها الله سبحانه و وسطا، نرى فريقا يتوسط فى الأمر فليس الأمر ممنوعا و ليس مطلقا «٢»، بل له ضوابط قويه و شديده حتى لا يتحول الكلام عن القرآن الكريم- كتاب الهدايه و البصائر- إلى كتاب فى الكيمياء أو الطبيعه أو الفلك. و نحن نذهب مذهبهم هذا حيث إن الآيات ذات الإشارات الكونيه فيها من أسباب الهدايه

(_____١) ألفت نظر القارئ الكريم أننى

ناقشت هذه القضيه و السابق لها باستفاضه لكن لظروف الطبع، أجلت وضعها هنا، و سترى كل ذلك- إن شاء الله- مبينا بالأدله و المناقشه العلميه فى كتابى «معجم علوم القرآن الكريم» و كذلك مناقشه أكثر من عشره كتب تكلمت عن القرآن و علومه و فيها ما فيها من الأخطاء. (٢) من المكثرين الآن الدكتور/ زغلول النجار، و هو مع جوده قوله، لكن نرى كثيرا من المتخصصين مثله يرفض كثيرا من قوله. و كذلك د/ أحمد شوقى إبراهيم، يفسر كثيرا من آيات القرآن بنفس المنهج و إن لم يكن مستفيضا كالأول، بل و يخطئ كثيرا من أقوال السلف فى التفسير و يتهمهم بالجهل، و هو نفسه فسّر قوله تعالى: لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ يقول: هذا ليس مطلق النفى، بل يفيد أن بعض الأبصار تدركه منها نبينا صلى الله عليه و سلم (إذاعة القرآن الكريم فى مصر صباح ٧/ ١٠ / ٢٠٠٠)، و هذا لم يذهب إليه أحد من أهل التفسير، و لعله اختلط عليه الفرق بين الإدراك و النظر إليه سبحانه و تعالى، و أن أهل السنه متفقون على

الرؤية كما هو معلوم. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣١ ما لا يحصى، وإليه يشير كثير من المفسرين و العلماء إلى قوله تعالى في أول ما نزل: أَقْرَأُ بِإِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) و ما فيها من إشارات. وقد يلحظ كثير من الباحثين مدى تحميل قضية إعجاز القرآن، و ما لا- تحتمله الأدلة القرآنية ذاتها. و ليس من المفيد الحرص على التوسع في هذا الباب من أبواب إعجاز القرآن، لترغيب غير المسلمين- و بخاصة الغربيين- في الإسلام. فإن معرفة الأخلاق في القرآن و تطبيق النبي صلى الله عليه و سلم و تأدبه بهذه الآداب كفيل بدخول الناس أفواجا في دين الله تعالى. و هذا ما سطره التاريخ عن السيرة النبوية و حياة الصحابة رضي الله تعالى عنهم. نعم قد يقول القائل: «لكل مقام مقال» و مقام اليوم العلم و بخاصة العلم التجريبي من طب و فلك .. إلخ. و نحن نتفق معه تماما، و لكن متى كان مقام الأخلاق غائبا لزم هنا أن يبدأ به، و ما نراه من انحدار الأخلاق- حتى بين- بعض المسلمين- ناهيك عن الغرب و الشرق، لحرى بنا أن نبدأ به. فالناس في الغرب في حاجة ماسة و ملحة لمعرفة التوحيد و العبادات و الأخلاق، على أن يكون الإعجاز العلمي مدخلا من مداخل الحوار، ثم الكلام عن الإعجاز العلمي يفترق على أمور يصعب حصرها، لأنها علوم غير محدودة، و نظرياتها متجددة كل يوم و بعضها كل ساعة. فالحديث عن ذكر الخلق و تكوين الجنين في القرآن، و مقارنته بما جاء في الطب الحديث، يختلف عن الكلام عن نهاية الشمس و القمر، بمقياس العلم مقارنة بما ورد في القرآن الكريم. فالمثال الأول مسلم به، حتى لينبهر به الباحث الغربي و يسلم بدفته. لكن المثال الثاني يختلف عليه علماء المسلمين أنفسهم «١» و لا نذهب بعيدا إذا قلنا إن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كان يفسر كثيرا من الآيات تفسيرا عضويا قائما على الطب (١) قد ذهب الدكتور زغول النجار

مذهبا في تفسير «إذا الشمس كورت» و كيفية النهاية. فما لبث أن اعترض دكتور صبرى الدمرداش عليه كما في جريدة الأخبار (١٣/٩/٢٠٠٢) و سوف نزيد الأمر بحثا في معجم علوم القرآن إن شاء الله تعالى. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٢ و الطبيعة، كما في شرحه لقوله تعالى وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) [الذاريات و كيف لم نضع ما قاله ضمن كتابنا «بدائع التفسير» و ذلك بعد عرضه على طائفة من أهل الطب و العلوم الطبيعية. و ليس هذا بقدر، فهو رحمه الله تعالى يتب بما قاله على هدف و ضعه نصب عينيه في كل كتبه ألا و هو تعريف العبد بالمعبود و المخلوق بالخالق سبحانه و تعالى، و هذا باب من أبواب المحبة للخالق سبحانه، و من أسرار بدء أول نزول القرآن سورة اقرأ «١» و انظر الفصل الآتي بعنوان: «منهج ابن القيم في التفسير و موقفه من التفسير العلمي» و الله تعالى أعلم. و أيضا من المسائل التي أشبعها ابن القيم بحثا: مسألة التأويل، فسترى كيف صنع التأويل بالنصوص. و كيف قوم ابن القيم المعوج من معنى التأويل عند بعضهم، و كيف أبان وجهه الحق في رد التأويل الباطل لآيات الصفات، و تبيانه الفرق بين التأويل الصحيح و الباطل و معناه عند السلف الصالح «٢» (١) .» (١)

انظر التحرير و التنوير لابن عاشور (٣٠/٤٣٤)، و انظر «بدائع التفسير» (١/٩٧-٩٩) (٢) و قد وقفت على كتاب «تأويل ما أشكل على المفسرين» لمحمد عبد المنعم مراد (صحفي و كاتب مصري)- و هو كما يرى القارئ عنوان هائل ضخمة، تحتاج دلالة لعمل فريق من العلماء سنوات طوال. يدعى صاحبه أنه أزاح الإشكال عن أخطاء وقع فيها المفسرون و أتوا بما لا يليق بكتاب الله تعالى و هذا جهد مشكور و نية حسنة. و لا دخل لنا بالنية و هنا، لكن كلامنا عن هذا الجهد: فصاحبه أورد في أول الأمر (ص ٧): فهو يزيل الإشكال بذكر التأويل الصحيح للآية مستعينا بأحسن طرق التفسير ألا و هي تفسير القرآن بالقرآن، ثم يورد الآية رقم (١٠٢) من سورة البقرة، يتبعها بآيات رقم (١٧٢) الأعراف، (١٠١) التوبة، (٨٧) الحجر، (٧) الإسراء ... إلخ. هذه الآيات فما ذا يفهم القارئ؟! تأتي الإجابة ص (١٩١-٢١٨) ناقلا- كلام المفسرين دون ذكر المصدر ثم رد العلامة د/ أبو شهبه و استشهاده بكلام ابن كثير في بطلان ما أورده المفسرون في الآية رقم (١٠٢) من سورة البقرة. و هكذا في سائر الآيات، فهو لم يأت بجديد سوى النقل. ثم يذكر تفسير الإمام الطبري للآية (٢٧) من سورة إبراهيم يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ... الآية ثم يعقبها بقوله: إن العلماء بهذا التفسير (يقصد تفسيرهم الثبات في الآخرة بالثبات في القبر عند السؤال)- يضعون على الناس جمال المثل الذي ضربه الله سبحانه و تعالى في قوله: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ

اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً الْآيَات (٢٤-٢٧). ولم يبين لنا جمال المثل و سر إنكاره أقوال المفسرين. لكننا لا يخفى علينا السر، فهو صاحب كتاب «عذاب القبر افتراء على الله و رسوله!!». فهو يرى أن عذاب القبر لم يشر إليه القرآن من قريب أو بعيد، تصريحاً أو تلميحاً فأصبح من الواجب على و على كل مسلم أن ينفي عن كتاب الله ما ليس فيه، و أن يطهر العقيدة الواضحة الجليلة مما ليس فيها» ص (٣) و نقول له ليس معنى تفسير آية بقول ما أن هذا القول من القرآن حتى ننفيه عن كتاب الله! البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٣ - ثم يحدثنا ابن القيم رحمه الله تعالى عن المجاز و مذهبه فيه ... إلى آخر تلك الأبحاث البديعة الجيدة، و كما أشرت مرارا و تكرارا إلى الرغبة في بيان كثير من هذه المسائل التي كثر الحديث عنها مؤخرا، و المتعلقة بالقرآن الكريم و علومه، لأننا نعلم يقينا أنه الحصن الحصين لنا، و لكنني لم أشأ الإطالة لظروف الطبع ثم لمشاغل الوقت التي نسأل الله السلامة منها.

و أما تطهير العقيدة الواضحة الجليلة مما ليس فيها!! هل هذا يمكن إلا بالوقوف على صحيح السنة، و إذا صح الحديث فهو الفقه و هو العقيدة!! ثم يورد المؤلف مباحث كثيرة تحت عناوين مثل: - قصة النبي آدم عليه السلام - كم لبثتم. - إنك لا تسمع الموتى. - البرزخ ... إلخ. ثم يرد على ابن كثير تفسيره لقوله تعالى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ أَيْ: أشده ألما و أعظمه نكالا ... و هذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور ... (٧٤) فهو ينكر كيف يستشهد بالآية المكية على عذاب القبر في البرزخ، لأنه ورد ذكره في المدينة!! و هذا الاعتراض لا يحتاج لرد؟! و هو ينكر أشد الإنكار على من يصدق أن النبي صلى الله عليه و سلم يظل خمسة عشر عاما لا يعرف عن عذاب القبر شيئا حتى تأتي يهودية تعلمنا ذلك؟! و هذا رد عقلي يصادم العقل نفسه و النقل نفسه!! فالغيب لا دخل للعقل فيه شيء إلا الإيمان! و أما النقل فطالما صح السند، يبحث بعد ذلك في المعنى و عدم التعارض و الجمع بين الأدلة إلى تلك المسائل العلمية!! أما أن نرد الصحيح لأن العقل لا يقبله فهذا مذهب ليس بجديد على من لم يفهم معنى الإيمان!! ثم يختم كتابه بقوله: «و عذاب القبر لا يستحق الجدل، لأن أمره هين، و ذلك لأن من عذب في قبره، فإن مصيره جهنم و ساءت مصيرا!!» هكذا!! يحلل الكاتب و يهون الأمر، و نقول له ليس أمر عذاب القبر بهين، و اتفق أهل السنة على أن من عذب في قبره إنما يعذب بمقدار و ليس شرطا أن يكون مصيره النار!! و لا أجد غير قول الإمام الشافعي أهديه لهذا الكاتب لعله يهدئ و يتأمل حين يخط قلمه عن دين الله تعالى: يقول الشافعي: «و من تكلف ما جهل و ما لم تثبته معرفته كانت موافقته للصواب - و إن وافقه من حيث لا يعرف - غير محموده و الله أعلم، و كان بخطئه غير معذور، و إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ و الصواب فيه. أه و الله تعالى أعلم.

البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٤

فصل في منهج ابن القيم في التفسير

إشارة

فصل في منهج ابن القيم في التفسير و إليك أولا هذه الدرّة من كلام ابن القيم حتى نبني هذا الفصل على قاعدة من كلامه: في بيان معنى تيسير القرآن للذكر و بيان معنى التفسير أنزل الله سبحانه الكتاب شفاء لما في الصدور و هدى و رحمة للمؤمنين، و لذلك كانت معانيه أشرف المعاني، و ألفاظه أفصح الألفاظ و أبينها، و أعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها كما وصف سبحانه به كتابه في قوله: وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا [الفرقان: ٣٣]. فالحق هو المعنى و المدلول الذي تضمنه الكتاب، و التفسير الأ-حسن هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق فهي تفسيره و بيانه. و التفسير أصله في الظهور و البيان، و باقيه في الاشتقاق الأكبر: الإسفار؛ و منه أسفر الفجر إذا أضاء و وضح، و منه السفر لبروز المسافر من البيوت و ظهوره، و منه السفر الذي يتضمن إظهار ما فيه من العلم و بيانه. فلا بد من أن يكون التفسير مطابقا للمفسر مفهما له، و كلما كان فهم المعنى منه أوضح و أبين كان التفسير أكمل و

أحسن. و لهذا لا تجد كلاما أحسن تفسيرا و لا أتم بيانا من كلام الله سبحانه، و لهذا سَمَّاه سبحانه بيانا و أخبر أنه يسره للذكر؛ و تيسيره للذكر يتضمن أنواعا من التيسير: إحداهما: تيسير ألفاظه للحفظ. الثاني: تيسير معانيه للفهم. الثالث: تيسير أوامره و نواهيهِ للامتثال. و معلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن ميسرا له؛ بل كان معسرا عليه. فهكذا إذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني، أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير، و هو مناف للتيسير «١». ١- لمعرفة منهج المفسر أهمية عظيمة «٢»، شغلت كثيرا من أهل العلم، فهذا يكتب عن

(١) إعلام الموقعين (١ / ٣٣٢). (٢)

أردت ختم هذا الفصل من مقدمة كتابي «بدائع التفسير» حتى تصحيح مقدمة «بدائع علوم القرآن» كالمقدمة الواحدة للعمليين في طبعه التفسير الجديدة. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٥ منهج الطبري، و ذاك عن القرطبي ... إلخ، و قد اتسع المقام في هذا الباب و هو أمر جيد خاصة و هو يعتبر مفتاح لأي تفسير. و من فوائد هذه المناهج و هي كثيرة: معرفة مدرسة المؤلف الفقهية و مدى تحرره في فهم النص و تقيده بالمذهب إن كان من أصحابه. ثم معرفة الجانب العقدي عنده، و إن كان من أهل السنة أم من غيرهم و لما ذا؟ و معرفة أيضا مدى تأثير المؤلف بغيره من أهل العلم و إضافاته عليهم و تعقيباته مما قد يكون للقارئ رأيا راجحا في مسألة ما و بيان مرجوح في أخرى. إلى غير ذلك من الفوائد الجمَّة المسطورة في غير هذه العجالة اليسيرة إنما توسع في بيانها بتفصيل كثير من العلماء كفضيلة العلامة الدكتور/ محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه العظيم «التفسير و المفسرون»، و من المعاصرين البارع الدكتور/ فهد الرومي في كتابه الشيق الفائق القيمة «اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر» و غيرهم من أهل العلم. ٢- و يتوقف ذلك- معرفة المنهج- من الوقوف على تفسير ما، ثم النظر في مقدمة صاحبه، فهي غالبا تكون بالإضافة لكونها مفتاح الكتاب بلورة لمنهج المؤلف و إبراز الأهم عناصره، خصوصا لو اشترط المفسر ذلك. و هذه المقدمات توفر كثيرا من العناء في هذا الشأن كمقدمة ابن جرير الطبري، أو القرطبي أو ابن كثير و مقدمة العلامة الطاهر بن عاشور في التحرير و التنوير. فهذه المقدمات عظيمة الفائدة طريق سهل غالبا في الوقوف على منهج المفسر، بالإضافة إلى دراسة تفسيره، و استخراج الباحث من بطون سطوره و خبايا حروفه كثيرا مما لم يذكره المؤلف في مقدمة تفسيره، و هو مكمل لمعرفة منهجه، بل قد لا تكون مبالغة إذا قلنا إن المقدمة لا تفي أبدا لمعرفة المنهج، بل لا بد من الولوج و الغوص في بحر المؤلف لاستخراج الدرر الكامنة، فالباب لا يفي لمعرفة المنزل إنما هو للدخول و الاستدلال على العنوان. ٣- لكن الأمر يختلف مع عالمنا الكبير ابن القيم، فهو أولا لم يضع تفسيرا مستقلا كما بينت من قبل، فضلا أنه لم يضع مقدمة للتفسير كما صنع شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه، يستطيع بها الباحث معرفة نقاط أساسية في بيان منهجه. مثل ما كتبه رحمه الله تعالى في (بيان أحسن طرق التفسير) (١ / ١١٠) من دقائق التفسير فهي أسس هامة للمنهج الصائب الموفق، البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٦ و مع صغرهما فقد حوت النفائس، و أمتعت النفوس، و هذا نلحظه أيضا من خلال ما سطره قلمه رحمه الله تعالى على آيات الذكر الحكيم. و مما لا يناع فيه تأثير ابن القيم بشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى، تأثير المتبع المدقق لا المقلد. و بالتالي يندرج هذا التأثير في التأليف كما هو في الفكر، مع الفارق بين الشيخين الذي ينزل كلا منهما منزلته. و أيضا طريقته في التفسير مع توحيد المنهج. ٤- و بتتبع ما سطره الإمام ابن القيم خلال كتبه عن آيات الذكر الحكيم إيضاحا و تفسيراً قد تتمكن من الوقوف على أهم هذه الأسس و المبادئ الأساسية لمنهجه قدر الاستطاعة. و قد تقدم في باب من كتب عن ابن القيم من المعاصرين ما سطره غير واحد منهم عن منهج ابن القيم، كالدكتور البقرى و المتولى و غيرهم، و أفرد له الأستاذ محمد أحمد السنباطي مؤلفا مستقلا هو «منهج ابن القيم في التفسير» و استند على ما جمع من قبل فيما عرف ب «التفسير القيم». ٥- يتكون كتاب الأستاذ السنباطي من ثلاثة أبواب: الباب الأول: التعريف بابن القيم و هو مكوّن من: الفصل الأول: ترجمته و وفاته و نشاطه العلمي. الفصل الثاني: البيئة العلمية حول ابن القيم. الباب الثاني: مكوّن من: الفصل الأول: المدرسة الحنبلية السلفية و منهجها. الفصل الثاني: الصراع الفكري بين المدرسة مع المذاهب الأخرى في مشكلتي الصفات و الأفعال. الباب الثالث: منهج ابن القيم في التفسير مكوّن من تمهيد في التعريف بالتفسير القيم ص

(٨١). الفصل الأول: منهجه حول الوحدة الموضوعية للسورة، نماذج من الفاتحة والمعوذتين، ثم مقارنة بينه وبين شيخه في طريقة التفسير (٨٨). ثم ذكر من تأثر بابن القيم في طريقته في التفسير كالإمام محمد عبده، و رشيد رضا رحمهما الله تعالى، و الشيخ محمود شلتوت رحمه الله تعالى، و الشيخ محمد محمد المدني، و الدكتور محمد عبد الله دراز، و الشيخ أبو الأعلى المودودي رحمهم الله تعالى، هذا ما قرره البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٧ الأستاذ السنباطي. الفصل الثاني: تصدير ابن القيم النص القرآني كأصل للمعاني و أولوية تفسيره بالنص. المبدأ الأول: العودة بالنص القرآني إلى معناه المستعمل في العصر الأول. المبدأ الثاني: تفسير القرآن بالقرآن و بالسنة و أقوال الصحابة. الفصل الثالث: منهجه في التعرض للنحويات و البلاغيات و القراءات. المبدأ الأول: عبادته بإبراز ما يتضمنه النص القرآني من أسرار بلاغية. المبدأ الثاني: اهتمامه بالقراءات و عنايته بالنحويات التي ترتبط بها المعاني. الفصل الرابع: منهجه في تفسير آيات الصفات و الأفعال. الفصل الخامس: موقفه من الإسرائيليات. هذا ملخص ما سطره الأستاذ السنباطي عن منهج ابن القيم في التفسير، و يهمننا الباب الثالث (٨١-١٥٦). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٨

أهم قواعد منهج ابن القيم

إشارة

أهم قواعد منهج ابن القيم أولاً: القواعد: ١- تفسير القرآن بالقرآن. ٢- تفسير القرآن بالسنة المطهرة. ٣- تفسير القرآن بتتبع أقوال الصحابة. ٤- النظر في أقوال التابعين مع ترجيح أصح الأقوال. ٥- النظر اللغوي و البلاغي للآية القرآنية. ثانياً: هذه القواعد- أو هذا المنهج- هو منهج أهل السنة في التأليف عامة و التفسير خاصة، و هي القواعد التي لخصها و نقحها غير واحد من العلماء في مقدمة تفاسيرهم، بدءاً بابن جرير الطبري، ثم شدّ يده عليها ابن تيمية رحمه الله في مقدمته المشهورة، و من ثم نهجها ابن كثير، و غيره من العلماء و هي السمة البارزة لعلماء المدرسة السلفية منذ العهد الأول مروراً بعالمها المجل سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، و قدس روحه، و جعلنا و إياه من أهل رحمته و فردوس جنته. ثم هلم جرا إلى عصرنا الحاضر، كل من تمسك بمنهج أهل السنة تراه لا يخرج مداد قلمه إلا و يبنى على قواعد هذه المدرسة، و لما لا، و الله تعالى يقول: أَلَمْ نَأَسِسْ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) [التوبة: ١٠٩]. و كتبهم- خاصة شيخ الإسلام و تلميذه- خير شاهد على ذلك، بل أهم ما يؤكدون عليه النظر في تفسير القرآن بالقرآن، و لهذا ابن القيم رحمه الله تعالى: «و تفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير» التبيان في أقسام القرآن (١٨٧). ثالثاً: ليس معنى هذا المنهج أن ابن القيم يأتي أولاً في تفسير الآية بأختها من القرآن ثم يفسرها من السنة إلخ... ليس بهذا الأسلوب الذي نراه عند كثير ممن وضع تفسيراً للقرآن، لكن هذا منهج بالاستقراء تراه بارزا في مؤلفاته «فابن القيم رحمه الله تعالى يبرز البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٩ الأدلة من الكتاب و السنة، و يستنبط الأحكام الشرعية منها بأسلوب سهل مبسط خال من التعقيد بنوعيه اللفظي و المعنوي، متطلباً نشر التشريع و بث التوحيد، رداً إلى الله و رسوله، و إلى أن يرد الناس منابع الشريعة الأولى خالية من كل ضرر، خالصة من كل شائبة» (١) و لو وضعنا هذا المنهج أساساً للدعوة الآن لاستطاع المخلصون بعون الله تعالى أن يعودوا بالأمة إلى نفس المنابع الطاهرة الطيبة، و يخرجوها من حالتها البائسة التعسفة. إذا ابن القيم هدفه العودة إلى المنابع: الأول كتاب الله و سنة رسوله صلى الله عليه و سلم، و ما كان عليه الصحابة الكرام و أئمة التابعين الأعلام، فهل طبق ذلك في التفسير؟ نعم.... و هذا هو: رابعاً: و لو نظرنا إلى السور التي نكاد نقف على تفسير شبه كامل لها مثل الفاتحة و العنكبوت، و هناك عدد لا بأس به من سورة القيامة إلى آخر التفسير خاصة الفلق و الناس. نرى أن ابن القيم يذهب إلى التفسير الموضوعي للسورة، أي: «إبراز الوحدة الموضوعية المتكاملة للسورة القرآنية، تلك الوحدة التي تربط بين أركان السورة بعضها إلى بعض، لتخدم الأهداف التي أنزلت من أجلها، و التي يمكن أن تكون أساساً لفهم آياتها» (٢). فلو

نظرنا في تفسيره لسورة القيامة (٥ / ٧١): ١- لئلا يبدأ بيان ما في الإقسام في قوله تعالى: لا أقسم بيوم القيامة (١) ولا أقسم بالنفس اللوامة (٢) من معان كثبوت الجزاء و مستحق الجزاء، وأن ذلك يتضمن إثبات الرسالة و القرآن و المعاد، ثم يقول: «و هو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة و يقررها أبلغ تقرير (لما)؟ يقول: «لحاجة النفوس إلى معرفتها و الإيمان بها» فهو رحمه الله تعالى يخلص إلى نتيجة هي الفيصل بين الكفر و الإيمان، و بين الحق و الباطل. فنفس لا تؤمن بالجزاء و لا تثبت الرسالة و القرآن و المعاد كيف يكون حالها؟ بل و لو تدبر أحد آيات ذم الكفر و الكافرين و أهل العناد أجمعين لرأيت إفسادهم في الأرض برا و بحرا مبنيًا على إنكارهم هذه الأمور الضرورية يقول تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَسِيٍّ عِذًّا - إلى قوله - وَ لَتَصْغِي إِلَيْهِ أَفِيْدَةٌ (١) بكر أبو زيد (٨٦)، و الوضو: و نسخ

الدسم و اللين. و ليتأمل القارئ هذه الفقرة جيدا من كلام الشيخ بكر، و يعجب للذين لا يزالون يصرون على أن يؤلفوا لمجرد التأليف و يكتبوا لمجرد التصدر دون اعتبار جماهير المسلمين التي يجب جذبها للعمل في الصف الإسلامي لا مجرد المشاهدة، كما سبق بيان التنبيه على ذلك. (٢) منهج ابن القيم في التفسير (٨٤)، و ضرب الأستاذ السنباطي لذلك مثلا بالفاتحة و المعوذتين. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٠ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ [الأنعام: ١١٢-١١٣] و يقول تعالى في وصف أهل النار: وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) ... إلى قوله تعالى ذكره: كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) [المدثر: ٤٦-٥٣] فهذا في حق من لم يؤمن بالآخرة، بالجزاء و الحساب. و نظائره كثيرة فيمن لم يؤمن بالرسالة و القرآن، و بمقدار إفساد من لم يؤمن بذلك، ترى خلافه عند المؤمنين بالبعث، و الحساب، و الرسالة، و النبي، و القرآن، استقامته، صلاحا و إصلاحا، عقيدة و سلوكا و خلقا. ٢- فأنت ترى ابن القيم يضع القرآن حيث يجب أن يوضع، منهاجا شاملا تاما كاملا لحياة الإنسان، لسعادة الدنيا و الآخرة، ثم يبدأ بعد ذلك في تفسير أهمية هذا القسم، و أن الله أمر نبيه صلى الله عليه و سلم بالإقسام به في غير آية منها و يَسْتَبِيحُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قَوْلِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ... [يونس: ٥٣]. ٣- ثم يبين المراد بالنفس اللوامة ناظرا في نظائر القرآن، و فاحصا لأقوال الصحابة و الترجيح بين ذلك، و بيان اللوم المحمود و المذموم، ثم بيان الإنكار على المنكر للجمع و الحساب، ثم الترجيح بين الأقوال في معنى بلى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) [القيامة: ٤] و بيان القدرة في خلق اليد، و بيان إعجازها، ثم يبين أثر عدم الإيمان بالآخرة في الإنسان يقول: «ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الإنسان، و إصراره على المعصية و الفجور، و أنه لا- يرعوى و لا- يخاف يوما يجمع الله فيه عظامه، و يبعثه حيا، بل هو يريد للفجور فيفجر في الحال، و يريد الفجور في غد و ما بعده، و هذا ضد الذي يخاف الله و الدار الآخرة، فهذا لا يندم على ما مضى منه، و لا يقلع في الحال و لا يعزم في المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار، و هذا ضد النائب المنيب» ثم تبه سبحانه على الحامل له على ذلك، هو استعباده ليوم القيامة ... اه الخ. و هذا هو عين المراد من القرآن: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) [الإسراء]. فمراد القرآن بيان السبيل و المنهج لمن شاء أن يستقيم، ثم يستمر التفسير على هذا النحو، نظرا في القرآن و السنة، تدبرا و فهما، ثم ترجيحا و لأقوال الصحابة و التابعين، و اختيار الأنسب و الأوفق لمراد القرآن الكريم. و هو يدفعك لذلك و يحثك بقوة فيقول عند الكلام عن الآية: وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) [القيامة]. يقول: «و أنت إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن موضعها ... وجدتها منادية نداء صريحا، أن الله سبحانه و تعالى يرى عيانا بالأبصار يوم القيامة، و إن أبيت إلّا تحريفها الذي البدائع في علوم القرآن، ص: ٤١ يسميه المحرفون تأويلا ... و هذا الذي أفسد الدين و الدنيا ..- ثم يقول: .. فاسمع الآن أيها السني تفسير النبي صلى الله عليه و سلم و أصحابه و التابعين و أئمة الإسلام لهذه الآية ...» اه. فهو ينادي عليك ببيان المنهج الصائب في التفسير فالترمه. و مع هذا ينقد و يرجح بين أقوال السلف شأنه شأن العلماء المتبعين بنظر، لا بتقليد مزل، انظر مثلا (١١٦ / ٥) «بدائع التفسير» من سورة النازعات و (١١٨ / ٥) هام جدا في بيان المتوسعين في نقل التفسير و نقدهم. ٤- و ينظر خلال ذلك في علاقة الألفاظ و نسقها في إظهار المعنى، يقول مثلا: «لفظ «يفجر» اقتضت «أمامه» بلا- واسطة حرف، و لا- اسم موصول، فأعطيت ما تضمنته لفظا، و اقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف و

الموصول، فأعطته معنى، فهذا وجه هذا القول لفظاً ومعنى والله أعلم» (٥/ ٧٦). فابن القيم ينظر إلى اللفظ و دوره في المعنى: لأنه ليس في القرآن لفظة مهملة (بدائع الفوائد: ٢/ ٢٢٩). فاللغة هنا لخدمة القرآن الذي نزل بها، لا لإخراج القرآن عن المراد منه، حتى يضع بعضهم تفاسير فيها كل شيء إلا التفسير. فابن القيم يسخر اللغة تسخيراً بارعاً شيقاً صحيحاً لخدمة القرآن، فهو ليس المستكثر الممل حتى ليخيل للقارئ أن القرآن إنما كتاب للنحو، والصرف، وعلوم البلاغة، و دقائق و خفايا القضايا المتعلقة بذلك لا غير، و لا هو المقل حتى يظن بعده عن هذا العلم. «و ربما توارت شهرة ابن القيم بأنه لغوي؛ لأن اللغة في ذاتها لم تكن قصد ابن القيم، وإنما الدرس القرآني بما فيه من موضوعات دخل بعضها فيما يسمى ب «علم الكلام» كان مقصد ابن القيم من أبحاثه اللغوية، فدراسته للغة دراسية مجالها التطبيقي هو النص ووص القرآن و الأحاديث النبوية ..» (١).

(١) «ابن القيم للغوي» للبقرى (٥٩).

البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٢

عرف القرآن

عرف القرآن و هنا يضع ابن القيم رحمه الله تعالى قاعدة أصيلة و عظيمة عند التعامل مع القرآن الكريم، يقول: «... و ينبغي أن يتفطن هنا لأمر لا بد منه، و هو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله عز و جل و يفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، فيكون الكلام بدله معنى ما. فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن، فإنهم يفسرون الآية و يعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، و يفهم من ذلك التركيب أى معنى اتفق، و هذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره، و إن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى فى سياق آخر، و كلام آخر، فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن مثل قول بعضهم فى قراءة من قرأ: وَ الْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا [النساء: ١] بالجر أنه قسم، و مثل قول بعضهم فى قوله تعالى: وَ صَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ [البقرة: ٢١٧] أن المسجد مجرور بالعطف على الضمير المجرور فى «به» و نظائر ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا و أوهى بكثير، بل للقرآن عرف خاص و معان معهودة لا يناسبه تفسيره غيرها و لا يجوز تفسيره بغير عرفه، و المعهود من معانيه، فإن نسبة معانيه إلى المعانى كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ و أجلها و أفصحها و لها من الفصاحة أعلى مراتبها التى يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعانى و أعظمها و أفخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعانى التى لا تليق به، بل غيرها أعظم منها و أجل و أفخم فلا يجوز حمله على المعانى القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي، فتدبر هذه القاعدة، و لتكن منك على بال، فإنك تنتفع بها فى معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين و زيفها، و تقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه ...» (٣/ ٢٧- ٢٨) بدائع الفوائد. و يقول أيضا فى معرض بيان معنى الآية رقم (٢٧- ٢٨) من الأنعام: «و قد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية و ما أوردوا، فراجع أقوالهم تجدها لا تشفى عليل و معناها أجل و أعظم مما فسروا به، و لم يتفطنوا لوجه الإضراب ب «بل»، و لا للأمر الذى بدا لهم و كانوا يخفونه، و ظنوا أن الذى بدا لهم العذاب. فلما لم يروا ذلك ملتثما مع قوله: ما كانوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلِ قُدْرُوا مضافا محذوفا و هو خبر (ما البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٣ كانوا يخفون من قبل)، فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه ..» عدة الصابرين (١٨٥). بل تراه يذم من أعرض عن النحو فلم يفهم التفسير يقول: «... و أنه لم يقدر المعنى حق قدره، فلا لصناعة النحو وفق، و لا لفهم التفسير رزق ...» بدائع الفوائد (١/ ١٣٣)، و انظر أيضا (١/ ٢٠٦). و سيأتى مزيد فى بيان تعظيمه للقرآن و أدوات تفسيره عند الكلام عن الإسرائيليات، إن شاء الله تعالى. فليتدبر المسلم مقدار عظم هذه النصيحة و لا يحيد عنها، و ينظر فى كتاب الله بها ثم ينتظر مدد الله و فيضه. ٥- و هنا نقف على نتيجة هامة هى نظر ابن القيم فى القرآن نظرة المصلح المربى المتبصر، فهو لا تكاد تمر عليه آية أو يمر بها إلا استخرج منها قواعد هامة لإصلاح الفرد و الجماعة، و يؤكد على علاقتين هامتين ضروريتين: (١) علاقة العبد بربه سبحانه و تعالى. (٢) علاقة العباد بعضهم مع بعض. أما علاقة العبد بربه فأكاد أجزم أن مدار كتب ابن القيم عليها قامت، و لها دعت، و انظر

إلى أى آية يظن القارئ أنها بعيدة عن ذلك، تراه يستنبط منها ما ينفع العبد في علاقته مع ربه، انظره مثلا عند كلامه على آيات الربا في سورة البقرة فضلا على فتوحات الله عليه في سورة الفاتحة، وهذا أظن التأكيد عليه من نافلة القول. أما علاقة العبد بغيره من أفراد البشر مسلمين كانوا أم كفارا، فتراه يخرج من الآيات ما به يستقيم حال الفرد و حال المجتمع بتنوع أفرادها، و تأمل ما سطره في «تحفة الودود» أو في «أحكام أهل الذمة» مثلا جليا لذلك، يندفع به ما يراد أن يلصق بالمسلمين الآن من اتهامات بالدموية و القتل لا غير. و يا ليت الأمر جاء من الأعداء فقط لقل الخطب، إنما هي فتنه تبثها أقلام مأجورة و أفواه مطعومة، و عقول مسقاء من نبع واحد إلا هو النفاق، و لكن يتكلمون بألسنتنا و من جلدتنا. ٦- تفسير الصحابة رضی الله عنهم: أولا: منزلة الصحابة رضی الله عنهم من المكانة بما لا يحتاج لبيان، فهم من الشأن و الرفعة لا يعلو عليهم أحد سوى الأنبياء عليهم السلام. و أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يخرجون عن قوله تعالى: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ الْبَدَائِعِ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، ص: ٤٤ وَالصَّالِحِينَ وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا (٦٩) [النساء] فهم الجامعة الإسلامية حقا و الجماعة المؤمنة الأولى الذين تربوا على يد خير الناس صلى الله عليه و سلم. و قد اهتم إمامنا ابن القيم رحمه الله تعالى أيما اهتمام بأمر اتباع الصحابة، بل بيان وجوب ذلك في أكثر من موضع من كتبه أهمها ما ذكره في «إعلام الموقعين» (١٥٥/٤). و بيان الدلالة على اتباعهم مطلقا مجتمعين و منفردين، و الرد على من خالف ذلك. و هذا ما أدين به لرب العالمين و لا نحيد عنه إلى يوم الدين، فإن الصحابة رضی الله عنهم خير الناس و أتقاهم و أعلمهم بعد رسول رب العالمين صلى الله عليه و سلم. «و قد نهج ابن القيم رحمه الله تعالى في مسائل العلم منهج الاسترواح و التطلب من كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و من سنه رسول الله صلى الله عليه و سلم الذى لا ينطق عن الهوى، فإن لم يجد أخذ بأزمة أقوال الصحابة رضی الله عنهم: لأنهم أبر الأمة قلوبا و أعمقها دينا، و أصحها فهوما. و هذه صفة بارزة و سمة ظاهرة في جميع مباحثه في العقائد و الأحكام، و لهذا أفاض رحمه الله تعالى بالاستدلال لهذا الأصل و وجوب الأخذ به و العمل بموجبه ..» (١) و هذا الفصل في وجوب اتباع الصحابة رضی الله عنهم يعرض عليه بالنواجذ فقد لا تجده في غير مكانه. ثانيا: موقف ابن القيم من تفسير الصحابة رضی الله عنهم. بعد أن عرفنا مكانتهم في مصنفاته العقديّة و الفقهيّة، نرى فيما استطعنا جمعه من تفسيره أنه رحمه الله تعالى يجعل هذا من الأصول العظيمة في التفسير، و إليك بعض الشذرات. يقول مثلا في «التيبان في أقسام القرآن» (٢٢٩): «الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه: حدثنا الأحمص، حدثنا عاصم الأحول، عن أنس بن مالك في قوله: لا- يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) قال: المطهرون الملائكة، و هذا عند طائفة من أهل الحديث في حكم المرفوع، قال الحاكم (٢): تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع، و من لم يجعله مرفوعا فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة، و الصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن و يجب الرجوع إلى تفسيرهم» فهنا أوجب الرجوع إلى تفسيرهم كما أوجب- فيما سبق- اتباعهم و طاعتهم (١). بكر أبو زيد (٨٩). (٢)

راجع ص (٣٠٠) من سورة الأعراف. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٥ و قال في موضع آخر من طريق الهجرتين (٣٥٦) في الحديث عن أصحاب الأعراف: «و آثار الصحابة في ذلك المعتمدة». و يقول رحمه الله تعالى في تفسير معنى اللهو من الآية (٣) سورة لقمان: «و صح عن ابن عمر رضی الله عنها أيضا أنه الغناء»- ثم ذكر قولى الحاكم- ثم قال: «و هذا و إن كان فيه نظر- قول الحاكم أن تفسيرهم في حكم المرفوع- فلا- ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم، فهم أعلم الأمة بمراد الله عزّ و جلّ من كتابه فعليهم نزل، و هم أول من خوطب به من الأمة، و قد شاهدوا تفسيره من الرسول صلى الله عليه و سلم علما و عملا، و هم العرب الفصحاء على الحقيقة، فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل...» بدائع التفسير (٣/٤٠٥). و هو يجمع بين أقوالهم، و بين أن أكثر اختلافهم في التفسير اختلاف تنوع، راجع (١٠٥/٥) المرسلات. ٧- و يقول رحمه الله تعالى: «و قد اختلف في تفسير الصحابي هل له حكم المرفوع، أو الموقوف؟ على قولين: الأول اختيار أبي عبد الله الحاكم. و الثاني هو الصواب، و لا نقول على رسول الله صلى الله عليه و سلم ما لم نعلم أنه قاله» اه. و قد قال الحاكم أيضا في مستدرکه (٢/٢٥٨): «ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذى شهد

الوحي و التنزيل عند الشيخين حديث مسند» و لم يعقب الذهبي بشيء، إذا ابن القيم يصبو أن تفسيرهم موقوف، و لكن يوجب اتباعهم فيه؛ لأنهم أعلم الأمة بتفسير القرآن كلام الرحمن، و إن كان المقام لا يسع هنا الترجيح بين أقوال أهل العلم في هذه المسألة، و لكني أظن أن تخريج هذه المسألة مبنى على أن النبي صلى الله عليه و سلم هل تناول تفسير القرآن كله للصحابة أم لا؟ لأن النبي صلى الله عليه و سلم إن تناول تفسير القرآن كله لهم، فلا شك أن ما قالوه يكون مرفوعا، و ما صح سنده يكون العمدة. و الله أعلم. و في المسألة قولان أحدهما: بالإيجاب، و الآخر: بالنفي، و قد ناقش ذلك الدكتور/ محمد الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه الهام «التفسير و المفسرون» (١/ ٥٠). و اتهم الفريقين بالغلو (١/ ٥٣)، و توسط بين القولين بأن النبي صلى الله عليه و سلم بين الكثير من معاني القرآن لأصحابه، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، و لم يبين كل معاني القرآن، و ذكر قول ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير (١/ ٢٥) قال: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، و تفسير لا يعذر أحد بجهالته، و تفسير تعرفه العلماء، و تفسير لا يعلمه إلا الله» (١/ ٥٥). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٦ و جعل الدكتور/ الذهبي على رأس القائلين بأن الرسول صلى الله عليه و سلم تناول بيان القرآن كله ابن تيمية رحمه الله تعالى التفسير و المفسرون (١/ ٥١)، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه و سلم بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، قوله تعالى: لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ [النحل: ٤٤] يتناول هذا و هذا، و قد قال أبو عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين كانوا يقرءونا القرآن- كعثمان بن عفان و عبد الله بن مسعود و غيرهما- أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه و سلم عشر آيات لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم و العمل، قالوا: فتعلمنا القرآن و العمل جميعا، و لهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة، و أيضا فالعادة تمنع أن يقرأ أقوام كتابا في فن من العلم كالتب و الحساب و لا- يستشروه فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، و به نجاتهم و سعادتهم، و قيام دينهم و دنياهم؟! و لهذا كان نزاع الصحابة في القرآن قليلا جدا، و هو و إن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم...» دقائق التفسير (١/ ٩٠- ٩١). و انظر مقدمة القرطبي لتفسيره: باب كيفية التعلم و الفقه... (١/ ٣٤). ٨- ثم المتتبع لتراجم القراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم، كعبد الله ابن مسعود، و سالم و معاذ و أبي بن كعب، و غيرهم كعبد الله بن عباس رضى الله عنهم، ثم التابعين و أشهرهم مجاهد- أقول:- «المتتبع لتراجمهم يلمس مقدار ما أخذوه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم كتلقى ابن مسعود رضى الله عنه سبعين سورة من في رسول الله صلى الله عليه و سلم، فلا يبعد أن يسأله ليتعلموا و يتفقهوا و هذا كثير يصعب حصره، و إنما المتتبع لتفاسير السلف الأوائل يراه واضحا، فهل يعقل أن يسأله صلى الله عليه و سلم عن النعيم في قوله تعالى: ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) [التكاثر: ٨] ثم يتركون السؤال عن غيرها مما خطره أكبر و معناه أهم، كالأحكام و العقائد، و انظر عدة الصابرين (١٩٠). انظر فتح الباري (٨/ ٦٦٣) فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم. و انظر فصل في أحسن طرق التفسير لابن تيمية رحمه الله تعالى (١/ ١١٠- ١١١) دقائق التفسير. و يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «و كذلك الصحابة و التابعون فسروا جميع القرآن، فكانوا يقولون: إن العلماء يعلمون تفسيره و ما أريد به، و إن لم يعلموا كيفية ما أخبر الله به عن نفسه...» درء تعارض العقل و النقل (١/ ٢٠٧). و تفسير ابن جرير، و عبد الرزاق، و غيرهم من الأوائل، دال على كثرة ما نقلوه في التفسير عن خير أمة أخرجت للناس: صحابة رسولنا صلى الله عليه و سلم، و انظر مقدمة ابن كثير لتفسيره (١/ ٣). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٧- ٩ و إنى أتبع قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في أن الرسول صلى الله عليه و سلم بين القرآن للصحابة، و أن الصحابة و التابعين فسروا القرآن كله. فإذا لا عجب أن نرى استحضر ابن القيم لآراء الصحابة رضى الله عنهم عن تفسيره، و هو لا ينقل فقط، بل يرجح و ينقح بين آرائهم، مثلا- انظر تفسيره لمعنى «اللمم» الآية (٣٢: النجم) في (٤/ ٣٠١) من بدائع التفسير، و ينقد من يخالف أقوالهم و بشدة كما عند تفسيره «للطائر» من قوله تعالى الآية (١٣) الإسراء. يقول: «هذه طريقة لكم معروفة في تحريف الكلم عن مواضعه، سلكتموها في الجسم و الطبع و العقل و هذا لا يعرفه أهل اللغة و هو خلاف حقيقة اللفظ و ما فسر به أعلم الأمة بالقرآن، و لا يعرف ما قلموه عن أحد من سلف الأمة...» (شفاء العليل: ٦١) و هذا سيصادف القارئ كثيرا و إذا ثبت النقل عنهم فإنك تراه لا

يخبر عن قولهم رضى الله عنهم. مسألة لقد اعتراني كثير من التحير في مسألة «تفسير النبي صلى الله عليه وسلم» من ناحية كيف يصح شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم يعدل بعض المفسرين عنه أو ذكر ما يعارضه، حتى ولم يتفق معنا بعض الباحثين في تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن، لكن لا يخرج الأمر عن بيان المجمل في الكتاب، كالصلوات وهيئاتها مثلاً. فكل ما ورد عنه في هذا الباب تفسير للقرآن، فالسنة مفسرة للقرآن و مبينة و موضحة له. و مما يؤيد ذلك ما صح عن الصحابة رضى الله عنهم في طريقه تعلمهم للقرآن على يد النبي صلى الله عليه وسلم حيث ذكر غير واحد من الصحابة كابن مسعود و عثمان بن عفان و زيد و ابن عمر، كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من العلم و العمل، فتعلموا القرآن و الإيمان معاً، علماً و عملاً. و لكن لا يشترط لصحة ما ذكرنا أن الصحابة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن كل كلمة من القرآن، لأنهم أهل اللسان الذي نزل به، و أفهامهم أنقى الفهوم و أصفى أفئدة، فلم يكونوا بحاجة لمثل هذا التفصيل، مع ورود ما يشبهه عنهم مثل بيانه صلى الله عليه وسلم معنى الظلم في الآية (٨٢) من الأنعام. و هكذا. لكن اعتراضنا على من صح عنده كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يعدل عنه، و ليس هذا إلّا كصنيع بعض الفقهاء في ترك السنة لأقوال شيخهم، و هذا فصّل لنا في كتاب «جامع الفقه» (١).

تفسير النبي صلى الله عليه وسلم ضمن «معجم علوم القرآن» بحول الله و قوته. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٨

فصل موقف ابن القيم من الإسرائيليات:

فصل موقف ابن القيم من الإسرائيليات: ١٠- للعلماء موقف مما روى من أقاويل أهل الكتاب، يقفون به موقف الاحتياط و الحذر و غالباً الرفض، و ذلك مبناه على قوله صلى الله عليه وسلم: «بلغوا عني و لو آية، و حدثوا عن بني إسرائيل و لا حرج، و من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» عن ابن عمرو (صحيح الجامع: ٢٨٣٤). و لهذا يقول ابن كثير رحمه الله تعالى: «... هذه الأحاديث الإسرائيليات تذكّر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح. الثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه. الثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل و لا من هذا القبيل، فلا تؤمن به و لا تكذبه و يجوز حكايته لما تقدم، و غالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني..» (تفسير ابن كثير ٣/١)، ثم ضرب أمثلة لذلك، كأسماء أصحاب الكهف و كلبهم، و نوع الشجرة التي أكل منها آدم... إلخ. و يذكر كثير من المفسرين ذلك ظناً أن هذا من العلم النفيس، فحشوا كتبهم به و هو غث و غش فصرفوا المسلمين عن مقاصد الكتاب الهادي المنير، إلى (خزعبلات) و أباطيل أهل الكتاب، و غفلوا أن الله تعالى إنما سكت عن أسماء كثير من الأماكن و الأشخاص ليعلمنا أنها ليست مقاصد الكتاب العزيز، فما الذي يفيد في تعيين اسم ذى القرنين، و موطنه، و أماكن رحلاته، ثم تراهم يقفون عند هذا، و يغفلون عن قاعدة هامة من قواعد صلاح الأمم و استقامته الحياة قاعدة العدل و الإحسان و انتقاد الظلم، كما في قوله تعالى: قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُنَجِّدُ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَ سَنُقُولُ لَهُ مِن أَمْرِنَا يُشْرًا (٨٨) [الكهف فلا يعطون لمثل هذه الآية النفيسة ما تستحقه؛ لأن ذلك على خلاف هوى الطغاة و الجبابرة و حسبنا الله و نعم الوكيل. و هنا نقف على جوهرة ثمينة من جواهر العلم النفيس لابن كثير- و لم لا- و هو ممن أزهروا و أثمر ببستان شيخ الإسلام ابن تيمية و تلميذه ابن القيم- يقول ابن كثير في أحسن ما البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٩ يكون في عرض الخلاف أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، و أن ينه على الصحيح منها، و يبطل الباطل، و تذكر فائدة الخلاف و ثمرته لئلا يطول النزاع و الخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. «.. فأما من حكى خلافاً في مسألة و لم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكى الخلاف و يطلقه و لا ينه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً، فإن صح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، و كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً و يرجع حاصلها

إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الزمان و تكبر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبى زور. و الله الموفق للصواب» (تفسير ابن كثير: ١/ ٣). هذه القاعدة الهامة تراها واضحة عند ابن القيم رحمه الله تعالى، فهو لا يذكر الأقوال تكثراً، و لا يسرد الآراء عجباً، بل يرجح ما به يقع القارئ على الصواب و يسهل العمل به. فلا يترك القارئ متحيراً، مدعياً أن له حق الاختيار. البدائع في علوم القرآن، ص: ٥٠

بيان تعظيمه للقرآن الكريم

بيان تعظيمه للقرآن الكريم ١١- و لهذا نرى ابن القيم رحمه الله تعالى يعرض تماماً عن ذكر الإسرائيليات، فهو يعلم مقدار ما أفسدت هذه الآفات في عقائد المسلمين و رغبتها في تحويل الإسلام إلى رهبانية و قصص و حكايات لصرفهم عن المقصد الأسمى: إلا هو العلم الصحيح النافع مع العمل الصائب. و قد ضرب الأستاذ السنباطى مثلاً لإعراض ابن القيم بتفسير آيات آداب الضيافة من سورة الذاريات (٢٤-٢٥) و ما دار بين الملائكة و خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام. (منهج ابن القيم: ١٥٤). و ينقد ابن القيم بشدة من يعتمد الإسرائيليات في احتجاجه دون التفات لمعارضة لأصول الدين أو للصحيح من الآثار، يقول في معرض قبول التوبة و عودة العبد بعدها خيراً مما كان: (... فإذا أثمرت له التوبة هذه المحببة و رجع بها إلى طاعته التي كان عليها أولاً انضم أثرها إلى أثر تلك الطاعات فقوى الأثران فحصل له المزيد من القرب و الوسيلة، و هذا بخلاف ما يظن من نقصت معرفته بربه من أنه سبحانه إذا غفر لعبده ذنبه فإنه لا يعود الود الذي كان له من قبل الجناية، و احتجوا في ذلك بأثر إسرائيلي مكذوب أن الله قال لداود عليه السلام: «يا داود أما الذنب فقد غفرناه و أما الود فلا يعود». و هذا كذب قطعاً... (طريق الهجرتين: ٢١٦-٢١٧). بل نرى ابن القيم يعرض بالكلية عن ذكر ما فيه مساس و عدم صون للكتاب الكريم، أو ما يشوب سير أنبياء الله صلوات الله و سلامه عليهم مما قد لا يحذر منه كثير من المؤلفين (كحاطب ليل) يقول في بيان قوله تعالى ذكره: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا... [الأحزاب: ٣٦]: «أخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه و قضاء رسوله صلى الله عليه و سلم، و من تخير بعد ذلك، فقد ضل ضلالاً بعيداً. و أما زعم بعض من لم يقدر رسول الله صلى الله عليه و سلم حق قدره، أنه ابتلى في شأن زينب بنت جحش، و أنه رآها فقال: «سبحان مقلب القلوب» فظن هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق، و صنف بعضهم كتاباً في العشق و ذكر فيه عشق الأنبياء و ذكر هذه الواقعة. و هذا من جهل هذا القائل بالقرآن و بالرسول و تحميلة كلام الله ما لا يتحملة و نسبته رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى ما برأه الله منه...» (بدائع التفسير: ٣/ ٣٢٥-٤٢٦) فانت ترى موضع الكتاب المعظم عند ابن القيم البدائع في علوم القرآن، ص: ٥١ و مكانة النبي المكرم صلى الله عليه و سلم بل لو عدنا و نظرنا في تكملة آيات سورة القيامة بل و غيرها من السور ترى تردد عبارة «و من أسرار الآيه كذا» «و هذا من أسرار القرآن» راجع مثلاً سورة القيامة (٥/ ٧٩). و يقول أيضاً: «... فتبارك من أودع كلامه من الحكم و الأسرار و العلوم ما يشهد أنه كلام الله، و أن مخلوقاً لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبداً» (بدائع الفوائد: ١/ ٧٤). و منه أيضاً (١/ ١١٧): «... و هذا باب قد فتحه الله لى و لك فلجه و انظر إلى أسرار الكتاب و عجائبه و موارد ألفاظه جمعا و أفراداً و تقديمها و تأخيرها إلى غير ذلك من أسرار...» و منه (١/ ١١٩): «... فمثل هذا الفصل يعرض عليه بالنواجذ و تننى عليه الخناصر فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله، و الله الموفق للصواب» و يرد بشدة و قوة على من ينتصر لقاعدة نحوية على حساب القرآن «... فلا يجوز تحريف كلام الله انتصاراً لقاعدة نحوية، هدم مائة أمثالها أسهل من تحريف معنى آية» (بدائع الفوائد: ١/ ٤٥) و أخيراً ينقد ابن القيم من يطوع إلى بدعته خلافاً لما عليه السلف يقول: «و نحن قد أريناكم أقوال أئمة الهدى و سلف الأمة في الطائر، فأورنا قولكم عن واحد منهم قاله قبلكم، و كل طائفة من أهل البدع تجر القرآن إلى بدعها و ضلالها و تفسره بمذاهبها و آرائها و القرآن برىء من ذلك و بالله التوفيق» (شفاء العليل: ٦١). و هذا قليل من كثير مما يؤكد على تعظيم الإمام للقرآن و الذود عن تفسيره بغير وجه صحيح. و هو مع هذا يرد و يناقش، لا يقلد رأى أحد مهما كان، فهو يعلم أن كل أحد يؤخذ منه و يرد، إلا صاحب الرسالة صلى الله عليه و سلم. راجع مثلاً: كلامه عن آية الذرية (١٧٢) الأعراف أو كلامه عن الشك من الآيه (٩٤) سورة يونس أو معنى الصراط

الآية (٥٦) من سورة هود. و مقصده رحمه الله تعالى في كل هذا الوصول للحق بطريق الحق، و الله حسبه، و كل يؤخذ منه و يرد إلّا صاحب الرسالة صلى الله عليه و سلم و أصحابه و سلم، فرحمه الله تعالى و أثابه فوق نيته. فصل هذه نظرة متعلقة بالأبحاث العلمية و الكونية و الطبية و غيرها من العلوم التجريبية مما تكلم عن بعضها ابن القيم رحمه الله تعالى و فيها بعض التأملات: البدائع في علوم القرآن، ص: ٥٢ أولاً: القرآن الكريم كلام رب العالمين المنزل على قلب خاتم النبيين صلى الله عليه و سلم كتاب هداية و بيان، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه، من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات، من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام: صراط الله المستقيم. و القرآن ملء بالحث على التفكير و التدبر و النظر في السموات و الأرض و فيما خلق الله من جبال و أنهار و بحار و أشجار و كواكب و نجوم إلى سائر مخلوقات الله تعالى جامدة أو حية. و في أيام الذين خلوا من قبل. و هذا يكاد لا تخلو منه سورة من السور و إن غلب ذلك على السور المكية كالأنعام و النحل و غيرها، مثلاً: يقول الله تعالى: وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) [الذاريات و كقوله: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) [الغاشية] إلى كثير من الآيات التي تكلم عنها جمع من العلماء بما عرف بالتفسير العلمي. يقول العلامة الدكتور/ محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى في معنى التفسير العلمي: نريد بالتفسير العلمي: «التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، و يجتهد في استخراج مختلف العلوم و الآراء الفلسفية منها» «التفسير و المفسرون» (٢/ ٤٥٤). و للحديث عن التفسير العلمي في القرآن، و موقف المؤيدين منه و المعارضين، مقام ليس هنا، و إلّا طال المقال عن ضرورة الحال. و من أحسن من كتب و جمع و حلل الآراء في هذه المسألة- مع الاختصار أيضاً- فضيلة الأستاذ الدكتور/ فهد الرومي في كتابه الممتع البديع «اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر» في الفصل الثالث «المنهج العلمي التجريبي في التفسير» (٢/ ٥٤٥- ٧٠٢) و قد رجح المؤلف حفظه الله بين الآراء بأقوال جيدة و نظرات ثاقبة (٢/ ٦٠٢) و أرى- و الله أعلم- حسن ما ذهب إليه، و هو عدم رفض و إنكار التفسير العلمي بشرط ضرورية للخوض فيه. ثم يقول بعد ذكره هذه الشروط: «أقول: لا رفض للتفسير العلمي مطلقاً، و لا تأييد و تسليم له مطلقين، بل جمعاً بين حقيقتين: حقيقة قرآنية ثابتة بالنص الذي لا يقبل الشك، و حقيقة علمية ثابتة بالتجربة و المشاهدة القطعيتين، و من هنا كنا متفقين كما أسلفنا على أن القرآن الكريم لم و لن يصادم حقيقة علمية، و إنما يقع التصادم عند ما ندعى حقيقة علمية في الكون و هي ليست حقيقة علمية، أو ندعى حقيقة قرآنية، و هي ليست حقيقة قرآنية» (٢/ ٦٠٣). و قد تبه الأستاذ المؤلف للفرق بين أمرين هامين و هما: «التفسير العلمي» و «الإعجاز العلمي». أما أولهما فهو مثار البحث و المناقشة، و أما ثانيهما فأحسبه أمراً مسلماً لا جدال فيه و لا إشكال (٢/ ٦٠٠) اه. البدائع في علوم القرآن، ص: ٥٣ و هي تفرقة و إن كانت لا تنكر، لكنها قد تخفى على أجيال يلبس عليها دينها و يشوش فكرها بحجة لا مكان للدين في الحقل العلمي و المعمل المعاصر، و تفهيمهم أن الدين هو عبادات داخل المسجد فقط و لا علاقة له بالدنيا، و لا مكان له بالخارج، و هو لحيه كنه و قميص قصير و مسبحة طويلة ... فهو- عندهم- «دروشه» فأكثر منها إن شئت أودع. ففصلوا بين الدين و الدنيا، بين القرآن و السنة، و الحكم و واقع الناس. فالإعجاز العلمي كان و لا يزال و سوف يستمر إلى ميراث الله الأرض و من عليها «ذلكم أن كتاباً أنزل قبل أربعة عشر قرناً من الزمان و عرض لكثير من مظاهر هذا الوجود الكونية كخلق السموات و الأرض و خلق الإنسان ... و مع ذلك كله لم يسقط العلم كلمة من كلماته و لم يصادم جزئية من جزئياته، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا بحد ذاته يعتبر إعجازاً علمياً للقرآن. هذه النتيجة المتولدة على أن القرآن لم و لن يصادم حقيقة علمية لم أر بين علماء المسلمين من أنكرها لا في القديم و لا في الحديث، و كل ما يثار من ضجة و ما يسطر في الصحف ما هو إلّا عن التفسير العلمي لا عن الإعجاز العلمي» (٢/ ٦٠٠- ٦٠١) المصدر نفسه. فالله عزّ و جلّ لا تخفى عليه خافية، و لا يكون إلّا ما أراد و قدر و قضى، فهو خالق كل صانع و صنعته فهو أنزل القرآن و علمه، و خلق الإنسان و عقله، و قرآنه هو الدال عليه سبحانه، و هو كتابه المقروء و الكون كتابه المنظور. فهذا كتاب بيان و هدى يدللك أن الكون له خالق واحد لا- إله إلّا هو الرحمن الرحيم. و نبهنا في القرآن على ما في كثير من الكون من آيات يراها الناس بين الحين و الآخر

ليزدادوا إيماناً و تسليماً حين يرون إعجاز القرآن العلمي، و هذا ينفع المؤمنين مع إيمانهم و تصديقهم أصلاً بالقرآن، و إلاً فأكثر هذه الإعجازات العلمية أظهرت على أيدي غير مؤمنين فلم تنفعهم شيئاً و كانت حجة عليهم لا لهم. فالعبرة بالإيمان و التصديق أن القرآن حق، ثم تأتي الآيات الكونية لنرى في أنفسنا و الآفاق ما يزيدنا إيماناً و يتبين لنا أنه الحق. و الله أعلم و به أؤمن و له أسلم و أسأله أن يتوفاني على ما توفي عليه عباده الصالحين. ثانياً: «ابن القيم و التفسير العلمي» بعد بيان الفرق بين التفسير العلمي، و الإعجاز العلمي للقرآن، نستطيع أن نقف - بعون الله - على موقف ابن القيم رحمه الله تعالى من الأمرين و هو ما يأتي في الكلام على منهجه رحمه الله تعالى. البدائع في علوم القرآن، ص: ٥٤

ابن القيم و التفسير العلمي

ابن القيم و التفسير العلمي يتنا من قبل في الفصل ص (٥٢) الفرق بين التفسير العلمي و الإعجاز العلمي، و أن الإعجاز العلمي موجود إلى قيام الساعة، أما تفسير القرآن تفسيراً علمياً فمرفوض و التبع لمؤلفات ابن القيم رحمه الله تعالى و التي منها تم جمع تفسيره يلحظ الآتي: أولاً: إن ابن القيم رحمه الله تعالى يحث المسلمين على التفكير و التدبر و النظر في الكون و إلى ما خلق الله من شيء، ليزدادوا إيماناً و تسليماً. و هذا واضح في جل كتبه خاصة «مفتاح دار السعادة...» الذي لا نظير له. فهو يتكلم عن صنع الإنسان و بديع صنعه و الكلام على أعضاء الإنسان عضواً عضواً، ثم ينتقل إلى الكلام عن سائر المخلوقات من شمس و قمر و نجوم و كواكب و اختلاف الليل و النهار، ثم الحيوانات و الحشرات إلى سائر المخلوقات، و في كل هذا يذكر الحكمة في الخلق و الإعجاز في الصنع. ثانياً: يضع ابن القيم رحمه الله فرقاً بينا في النظر في الآيات و أنه نوعان: الأول: نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلاً زرقاً السماء و نجومها و علومها وسعتها، و هذا نظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات و ليس هو المقصود بالأمر. و الثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها و ملكوتها و بين ملائكتها ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته و عظمته و جلاله و مجده... فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقاً لهيبته، خاشعاً لعظمته، عان لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد، فهذا سفر القلب و هو في وطنه و داره و محل ملكه و هذا من أعظم آيات الله و عجائب صنعه...» (مفتاح دار السعادة: ٢١٧). ثم يسرد بعد ذلك ابن القيم سائر المخلوقات ثم يتكلم عن الحكمة في خلقها و عجب صنعه و قدرته تدبيرها. يذكر الأرض مثلاً و ما فيها من أرزاق للعباد، فظهرها وطن لهم و بطنها وطن لهم بعد موتهم... إلخ. مستشهداً في ذلك بالآيات القرآنية، و أحياناً كثيرة بالأحاديث النبوية؛ فيتكلم بتوسع تارة و بإيجاز أخرى، و هو في كل هذا حاد للأرواح إلى بلاد الأفراح، متزوداً للمعاد بهدى خير العباد، متسلحاً ببدائع الفوائد، سائراً في طريق البدائع في علوم القرآن، ص: ٥٥ أعلام الموقعين عن رب العالمين، يخطو على مدارج السالكين، بمفتاح دار السعادة، مغيباً للهفان مؤنسا للسائر في طريق الهجرتين مرسل على أعداء السنة صواعق مرسله «١». رحمه الله تعالى. و لو تتبعنا ما ذكره لطلال المقام فانظر مفتاح دار السعادة ففيه البيان. و يقول رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: سَيُنزِئُهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ [فصلت: ٥٣] «أى أن القرآن حق، فأخبر أنه لا بد أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوثة حق...» الفوائد ص (٢٣). ثالثاً: هل الكلام على هذه الآيات و ما فيها من علوم كونية، يعتبر هذا تفسيراً علمياً أم بياناً للإعجاز العلمي في القرآن؟ بالنظر إلى ما رجحه كثير من أهل العلم المحققين برفض التفسير العلمي للقرآن بدءاً من السابقين أمثال الشاطبي رحمه الله تعالى في الموافقات (٢/ ٧٩ - ٨٠) و انتهاء بالدكتور الذهبي رحمه الله تعالى (٢/ ٤٦٩) نقرر أن ابن القيم لا يفسر الآيات تفسيراً علمياً بمفهوم أصحابه، لقيام هذه العلوم على نظريات لا قرار لها و لا بقاء، قد تكون اليوم صائبة و غدا طائشة، بل بعض هذه النظريات تهدم كثيراً من سابقاتها مع اشتهاها و استمرارها مدة، كنظرية النسبية «الآينشتين» (NIETSNIE) و غيرها من النظريات العلمية في شتى المجالات و كيف هدمت سابقتها، و فربط تفسير الآيات بمثل هذا عين الخطأ. لكن لو ذهبنا إلى أن ابن القيم قد أشار إلى الإعجاز العلمي في القرآن في سائر الآيات التي فسرها غيره تفسيراً علمياً، لو ذهبنا لذلك

فقد- و الله أعلم- وفقنا. مثال: تكلم ابن القيم رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) [الذاريات]. في ما يقرب من أربعين فصلاً، وأكثر من (١٢٠) صفحة في «التبيان في أقسام القرآن» من (٢٩٤-٤٢٢) عن بديع صنع الله تعالى في الأرض، ثم الإنسان، تكلم عن الأذنين و سر شقهما في جانبي الوجه و الأنف و اللسان و الأسنان ... و عن الحمل و تفاوت مدته و عن الجنين و أحواله ثم سائر أعضاء الإنسان، و فائدة كل عضو و خصائصه و بعض خصائصه التشريحية و هو يحسن في أحيان كثيرة، لكن يخالفه الطب الحديث الدقيق في كثير مما تكلم هو عنه. و أقول خالفه الطب- لا خالف الطب- لأنه متقدم و هذا التقدم الطبي حديث فقد يتحدث عن الطحال مثلاً- بخلاف ما وصل إليه العلم (١) وصيف لطيف أدرج فيه المؤلف

عناوين متفرقة من مؤلفات ابن القيم رحمه الله تعالى. البدائع في علوم القرآن، ص: ٥٦ الآن؛ لأنه يتكلم عنه بما وصله من علم من أطباء عصره و هذا مشهور عند المسلمين في تلك القرون و قبلها أيضاً، فهو لا يلام و لكن يشكر سعيه و يحمد فعله، و يثاب من فضل الله على قدر نيته، و هي حسنة إن شاء الله تعالى. و هو في هذا على خلاف من يحارب الإسلام الآن مدعيًا مخالفته للتقدم و المدنية و الحضارة. و التقدم عندهم خروج عن الالتزام، و المدنية مسaire أخلاق الغرب، و الحضارة حضارة الفراعنة، حتى يعتزون بها و يتحمسون لها أكثر من تحمسهم لدينهم الإسلام، هذا إن كانوا أصلاً مؤمنين به. الخلاصة: إننا نرى ابن القيم رحمه الله تعالى- و هو المدافع حتى النهاية عن القرآن و عن التشريع كما سبق بيانه مراراً- ينأى بنفسه عن ربط القرآن بتطورات العلم من نظريات أو اختراعات. إنما يبين إعجاز القرآن كلام الرحمن في تعليم الإنسان ما لم يعلم، و ها هو الإنسان يلمس ذلك الآن، شهد بذلك العدو المعاند قبل الصديق المساند. و الله أعلم. و هذه قضية كبيرة- كمسلم- أميل إلى ما مال إليه علماء الأمة كالشاطبي متبعاً إياهم في تنزيه القرآن عن هذا الأمر. البدائع في علوم القرآن، ص: ٥٧

فصل في ترجمة الإمام ابن القيم

إشارة

فصل في ترجمة الإمام ابن القيم ١- الإمام الشيخ المفسر اللغوي، الفقيه الأصولي، العارف، الموسوعي، شيخ الإسلام، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زين الدين الزرعي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية. من ص (١٧) «ابن القيم» لبكر أبو زيد. ولد رحمه الله تعالى سنة (٦٩١ هـ) و توفي رحمه الله تعالى سنة (٧٥١ هـ) «١». ٢- نشأ رحمه الله تعالى في بيت علم و دين، فأبوه- رحمهما الله تعالى- شيخ صالح عابد، كان قيم المدرسة الجوزية، و من الصالحين الزاهدين. أخذ ابن القيم عن أبيه الفرائض، و وجوده بجوار أبيه في جو المدرسة الجوزية يسمع و يرى الأقوال و الأخلاق الحميدة من أهل العلم؛ كان له عظيم الأثر في تخلقه بمكارم الأخلاق، و التبعيد الصحيح و الزهد القويم، مع ما أكرمه الله به من فرائض نادرة و فطنة و ذكاء، مع ما عاصره من صفات و أخلاق العلماء لا شك نتج عنها مزيج فكري و سلوكي على درجة كبيرة من سمو و النبل. يقول ابن رجب من «الذيل» (٢/ ٤٤٨): «كان رحمه الله تعالى ذا عبادة و تهجد، و طول صلاة إلى الغاية القصوى، و تأله و لهج بالذكر، و شغف بالمحبة و الإنابة و الاستغفار، و الافتقار إلى الله تعالى، و الانكسار له، و الاطراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك» اه. و يمثل هذا- أخى القارئ- ينشأ العلماء الربانيون فما كان نتيجة هذا السلوك مع الله تعالى، يقول ابن رجب- تلميذه- «و لا رأيت أوسع منه علماً، و لا أعرف بمعاني القرآن و السنة و حقائق الإيمان منه، و ليس هو المعصوم، و لكن لم أر في معناه مثله ...» اه. (١) ليست هذه ترجمة بالمعنى

المشاع، إنما هي قطفات و ثمار من حياته المباركة، تكون صورة موضحة للقارئ عن ابن القيم رحمه الله تعالى. البدائع في علوم

القرآن، ص: ٣٥٨- و يقول صديقه و تلميذه ابن كثير رحمه الله تعالى: «... سمع الحديث و اشتغل بالعلم، و برع في علوم متعددة، و لا سيما علم التفسير و الحديث و الأصولين، و لما دعا الشيخ تقى الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة و سبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ، فأخذ عنه علما جمًا، مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريدا في بابه في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلا و نهارا، و كثرة الابتغال، و كان حسن القراءة و الخلق، كثير التودد لا يحسد أحدا و لا يؤذيه، و لا يستعيبه، و لا يحقد على أحد، و كنت من أصحاب الناس له و أحب الناس إليه، و لا- أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، و كانت له طريقة في الصلاة، يطيلها جدًا، و يمد ركوعها و سجودها، و يلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا- يرجع و لا- ينزع عن ذلك، رحمه الله تعالى) اه.

البداية و النهاية (٧/ ٦٥٧). ما شاء الله ... أ رأيت أخى القارئ ثمرة التربية المستقيمة و النشأة القويمية: علم نافع، و سلوك صالح، و خلق عال، و سمت حسن، فجعل الله له ذكرا حسنا، و سيرة عطرة، و هكذا يجب أن يكون طالب العلم على هذا النهج الذى به تستقيم الحياة، غير منهج الأعداء المحرفين للحق، تحت مسمى «يسر الإسلام» و لا يقصدون إلا الترخص الجاف، و تضييع أمر الله بمنع نشره و إقامته، و هكذا ... فلا عجب إذا أن يلوم من هذا حاله على الشباب تمسكه بالدين و الخلق المستقيم، و هل رأيت من تاريخ الإسلام من أفتى «بالنقاب» مثلا- ليس من الإسلام؟! إى و الله هكذا!!! هل رأيت من يحارب المتمسك و يترك المتفلة المتهتك، فأصبح دعاة التوحيد و الاستقامة متشددين مترمتين متطرفين في نظرهم و لبسوا على الناس دينهم بكذبهم هذا!!! و لله الأمر من قبل و من بعد [الروم: ٤]، و الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا- يعلمون [يوسف: ٢١]. و إذا لم نقارن بين أخلاق علماء الأمة الصالحين و سيرتهم العطرة- أمثال عالمانا ابن القيم رحمه الله- و بين بعض علماء العصر؛ فلا فائدة من ترجمتهم، أو ذكر سيرتهم و الله أعلم. ٤-

أما مشايخه- رحمهم الله- فكثيرون، نحيلك توفيراً لوقتك لكتاب الأستاذ العلامة الشيخ «بكر أبو زيد» حفظه الله تعالى «ابن القيم حياته و آثاره و موارده» (١٦١- ١٨٣). ٥- و لكن لا- يطيب الكلام عن مشايخه أو يحسن ذلك دون ذكر الإمام الكبير المجدد شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن عبد السلام ... ابن تيمية رضى الله عنه. فقد لازمه إلى وفاته رحمهما الله تعالى، و أثر ابن تيمية في ابن القيم رحمهما الله تعالى كأثر الماء في البذر، و الشمس في الإنبات، و قد لا أبالغ إن قلت: و الروح في الجسد، البدائع في علوم القرآن، ص: ٥٩ و هذا ظاهر واضح عند كل من ترجم له رحمه الله تعالى. و شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى له أثر عظيم على الأمة كلها في وقته، فهو المحارب بسيفه و قلمه و لسانه و بعد وقته بعلمه الذى ما زال ينتفع به، و لكن ... الكلام عن ابن تيمية رحمه الله تعالى كتحصيل حاصل، فإننى أستحى أن أترجم له. و لكن هل تميز ابن القيم بشيء عن شيخه أم كان له كالظل؟! لا شك أن شجرة ابن تيمية أثمرت ثمارا يانعاً، أحلاها و أصفها ابن القيم رحمه الله تعالى، و مع هذا فقد برزت شخصية ابن القيم الاجتهادية و التأليفية بلا شك متفردة متميزة. يقول العلامة بكر أبو زيد: «فقد اجتهد و أبدع و خالف شيخه في أشياء، و لا يمنع الحب اتباع الحق» من ص (١٣٩- ١٥٦). فأنت ترى فى علاقة هذين الإمامين التواضع و الحب و البذل من جانب شيخ الإسلام، و الوفاء و الإخلاص من جانب ابن القيم. تلمس هذا فى كثرة ذكر ابن القيم شيخ الإسلام بقوله كثيرا: «قال لى شيخ الإسلام كذا ...، و حكى لى كذا ... و سألته عن كذا». فى لها من صحبة مباركة و زمالة نافعة. و قد ذكره أكثر من «٥٠٠» مرة فى كتبه، تتبعت ذلك أثناء الفهرسة. و انظر «١٣٤» بكر أبو زيد، و يقول الشيخ بكر: «فلا- غرو أن يجد ابن تيمية الأستاذ الوفاء من تلميذه رحمه الله تعالى و تحمله معه المحن و الأذى» المصدر نفسه (١٣٦). ٦- و من المناسب عند الكلام عن هذين الإمامين ذكر بعض ما لقيه من أعدائهم، فمنهجهما القائم على الكتاب و السنة منهج سلف الأمة، لا بد أن يجلب عليهما عدا المقلدة و المتعصبة و الجهلة، فتعرضا للأذى: تارة بالحبس، و تارة بالنفى، و كان نصر الله حليفهما. و ما زال منهجها له أعداؤه من الطائفة نفسها، و ما زال الله ينصرهما بنشر علمهما و بثه بين الناس، و يكفى أن تقارن بين ما نفع الله به الناس من كتبهم و علمهم، و ما أفسد الآخرون بمداد أقلامهم فى إفساد العقائد و الشرائع و الأخلاق؛ فيتبين لك بهذه المقارنة أى الفريقين أحق بالاتباع و الذكر الحسن. ٧- من علامات الخير بطالب العلم أن يوفق فى مشايخه و يرزق علماء أتقياء من أهل السنة و الجماعة، ثم يكرمه الله تعالى بغرس حسن يعلمهم من علمه فتستمر الأرض فى البدائع فى علوم

القرآن، ص: ٦٠ الإنبات و الزرع في الإثمار، فلا- يخلو بذلك مكان و لا زمان من قائم بأمر الله تعالى. و هكذا الحال مع عالمنا ابن القيم رحمه الله تعالى فشيخه ابن تيمية، و هو شيخه الكبير و أستاذه الأول، فكان ما كان من حال ابن القيم. و قد لازم ابن القيم شيخ الإسلام «سبعة عشر عاما» و كان ابن القيم حينئذ في الواحدة و العشرين تقريبا. و كان سنه عند وفاة شيخه رحمه الله تعالى «ثمانية و ثلاثين» و عاش بعده «ثلاثا و عشرين سنة». و أيضا من أساتذته: ١- العلامة إسماعيل أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن الفراء الحراني، الفقيه الحنبلي الإمام الزاهد، شيخ المذهب توفي سنة (٧٢٩ هـ) قرأ عليه الفقه، كما في الدرر الكامنة (٣/ ٤٠١)، و ترجمته في ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٠٨). ٢- و سليمان تقي الدين أبو الفضل بن حمزة بن أحمد بن عمر ... بن قدامة المقدسي قاضي القضاة و مسند الشام، سمع الحديث، توفي سنة (٧١٥ هـ) الدرر الكامنة (٣/ ٤٠٠) و ترجمته في الذيل (٢/ ٣٦٤). و أكرمه الله بتلامذة نجباء أعلام، منهم: ١- الإمام الحافظ إسماعيل عماد الدين أبو الفداء بن عمر بن كثير القرشي الشافعي، صاحب الشيخ و كان من أحبابه، و نقل عنه في تفسيره، مثلا عند الآية رقم (٣٥ و ٣٦) من البقرة، و العجيب أن صاحب كتاب «ابن كثير و منهجه في التفسير» لم يشر إلى ابن القيم ضمن شيوخ ابن كثير، أو حتى أقرانه، انظر ص (٤٦-٦٩)، و توفي ابن كثير سنة (٧٧٤ هـ) رحمه الله تعالى «١». ٢- الإمام العلامة الشيخ ابن رجب عبد الرحمن زين الدين أبو الفرج بن أحمد ... الحنبلي يقول ابن رجب: «لازمته قبل موته، و أخذ العلم عنه خلق كثير من حياة شيخه و إلى أن مات، و انتفعوا به، و كان الفضلاء يعظمونه، و يتلمذون له، كابن عبد الهادي و غيره، توفى رحمه الله (٧٨٥ هـ) «٢».

(انظر كتاب الأستاذ العلامة بكر أبو زيد (١٣٩) و ما بعدها و انظر أشهر مشايخه في كتاب العلامة بكر أبو زيد (١٦١-١٧٨). في الدرر الكامنة (١/ ٣٧٣)، و شذرات الذهب (٦/ ٢٣١)، و البداية و النهاية (٧/ ٦٥٧). (٢) شذرات الذهب (٦/ ٣٣٩)، و انظر كوكبة من تلامذته ذكرهم العلامة الشيخ «بكر أبو زيد» (١٧٩-١٨٣). البدائع في علوم القرآن، ص: ٦١

فصل مكتبة ابن القيم

فصل مكتبة ابن القيم ١- إن الكتاب و الشيخ بالنسبة للعالم و طالب العلم هما الماء و الهواء، لا- غنى عنهما، فهو منهوم لا يشبع، فالكتاب كروحه، إن فارقه كان كالميت، فهو رفيقه و أنيسه و معلمه، فلطالب العلم جناحان: المشايخ و الكتب فهما يحلق في سماء العلم و المعرفة، و يسبح في بحورهما و يغوص في أعماقهما. و الكتاب و المكتبة لهما تاريخ كبير عند المسلمين فلا تجد أمه من الأمم صنفت فيها ما صنفه علماء المسلمين في شتى فروع العلم، المتعلق بالشرعية أو حتى التطبيقي (الطب، هندسة، فلک ...) إلخ. و لا تخلو ترجمة عالم من ذكر مكتبته غالبا «١». نعم، الكتاب وحده لا يصنع عالما فاهما مجربا إنما وحده يصنع صحافيا، و هذا ذمه العلماء. فلا بد من التلقى عن المشايخ، هذا حتمى، و لكن التلقى دون المذاكرة و المراجعة و البحث و التنقيب في الكتب سرعان ما ينضب منبعه، و يجف عطاؤه، و يذبل زرعه، فالكتاب و قود العقل، و نور القلب، و موقظ الفكر. فهو البداية و النهاية و العبرة و التجربة و التاريخ ... ٢- قال الإمام الكبير ابن عبد البر- رحمه الله تعالى:- و سئل أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري عن دواء للحفظ فقال: «إدمان النظر في الكتب». (جامع بيان العلم و فضله: ٥٨٣). و أنشد أبو عبد الله بن الأعرابي «صاحب الغريب» حين عاتبه أبو أيوب أحمد بن محمد أبي شجاع عن تأخره من زيارته و ادعائه أن عنده جلساء من الأعراب، و ليس بين يديه شيء إلا الكتب يطالعها، فقال ابن الأعرابي () : ١) و انظر

بحثا مفيدا في الكتب و المكتبات عند المسلمين في كتاب «تاريخ الكتاب» تأليف د/ ألكسندر ستيتشفيتش. (١/ ٢٣٣-٢٥٠)، مترجم- سلسلة عالم المعرفة- الكويت. البدائع في علوم القرآن، ص: ٦٢ لنا جلساء ما نمل حديثهم ألباء مأمونون غيبا و مشهدا يفيدوننا من علمهم علم ما مضى و عقلا و تأديبا و رأيا مسددا بلا فتنه تخشى و لا سوء عشرة و لا نتقى منهم لسانا و لا يدا فإن قلت أموات فما

كنت كاذبا و إن قلت أحياء فلست مفندا «١» يقول ابن جماعة: «ينبغي لطالب العلم أن يعتنى بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكن شراء، و إلّا فإجارة أو عارية: لأنها آلة التحصيل» «٢». ٣- من هذا الباب كان حرص إمامنا ابن القيم رحمه الله تعالى عظيما في اقتناء الكتب، فمع ما تلقاه من العلماء و مصاحبته شيخ الإسلام، يبين أثر الكتاب في عمله، فهو يشكو في أكثر من موضع بعده عن كتبه، و يبين أن هذا كتبه في سفر مرتحلا عنها، انظر مثلا آخر تفسير سورة الكافرون. و لله دره حين أُلّف «زاد المعاد» من خمسة أجزاء و هو في سفره سافرها. فهو شديد الصحبة للعلماء، شديد الصحبة للكتاب، و انظر إلى أول معرفته بشيخ الإسلام، و قد كان وقتها ابن القيم تجاوز العشرين بقليل - و هو سن التأهل و الفتوى و التأليف - كيف حمل قبل هذا اللقاء من فكر تبين خطؤه يقول عن هذه المرحلة: يا قوم و الله العظيم نصيحة من مشفق و أخ لكم معوان جربت هذا كله و وقعت من تلك الشباك و كنت ذا طيران حتى أتاح لي الإله بفضل من ليس تجزيه يدي و لساني حبر أتى من أرض حران فيا أهلا بمن قد جاء من حران «٣» ثم توالى فتح الله عليه بتلك الصحبة المباركة، يقول ابن كثير: «و اقتنى من الكتب ما لا يتهيأ لغيره تحصيل عشره من كتب السلف و الخلف» «٤». و هذا يلاحظ في تتبع مصادره الوفيرة، يقول الشيخ بكر أبو زيد: «كتابه «اجتماع الجيوش» يقع في خمس و ثلاثين و مائة صحيفة ينقل من أكثر من مائة كتاب، و «أحكام أهل _____» (١) المصدر

نفسه (٥٨٠). (٢) تذكرة السامع و المتكلم (١٦٤). (٣) النونية (١ / ٣٣٠). (٤) البداية و النهاية (٧ / ٦٥٨) البدائع في علوم القرآن، ص: ٦٣ الذمة» نحو من ثلاثين كتابا و «الروح» كذلك ... و هكذا» (بتصرف من «ابن القيم حياته، آثاره و موارده» ص ٦١). فلا عجب إذا حين نرى هذا الإبداع و ذاك الإشعاع من مؤلفاته، فهي مائدة حوت من صنوف الطيبات: لأنها نبتت من حلال «١».

(١) _____ انظر في ترجمته رحمه الله تعالى:
- البداية و النهاية، لابن كثير (٧ / ٦٥٧). - الدرر الكامنة، لابن حجر (٣ / ٤٠٠). - ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب (٢ / ٤٤٧). - بغية الوعاة، للسيوطي (١ / ٦٢). - ابن القيم حياته و آثاره، للعلامة بكر أبو زيد. البدائع في علوم القرآن، ص: ٦٤

فصل مؤلفات ابن القيم مرتبة على الحروف

إشارة

فصل مؤلفات ابن القيم مرتبة على الحروف من المعلوم أن ابن القيم من المكثرين من التأليف، و قد أخطأ بعض المترجمين أو الوراقين في نسبة بعض ما ليس من كتبه إليه. و هذا إن كان عن قصد، فهو جريمة، و خيانة للأمة. حتى قد ترى نسبة مؤلفين متناقضين لعالم واحد. و قد يكون لتقارب الزمن، أو الأسلوب، أو الاسم سبب لهذا اللبس في أحيان كثيرة. و لابن القيم رحمه الله تعالى «ثمانية و تسعون» مؤلفا «١»، و قد وضع الشيخ «بكر» اثنتي عشرة نقطة هامة و ضرورية لدراسة مؤلفات ابن القيم رحمه الله تعالى و هي: ١- ذكرها مرتبة على الحروف. ٢- تحرير اسم الكتاب كاملا. ٣- الإشارة إلى أوام النقل في ذلك. ٤- الإشارة إلى عبث الوراقين و نحوهم. ٥- الإشارة إلى موضع ذكره عند المؤلفين السابقين. ٦- الإشارة إلى المطبوع ذكره في مؤلفات ابن القيم. ٧- الإشارة إلى المطبوع منها مع بيان بعض الطبعات المعتمدة. ٨- الإشارة إلى أماكن النسخ الخطية لما لم يطبع منها. ٩- جعل رقما متسلسلا لكتبه ليفيد المجموع العددي لها خالية من المكرر و المنسوب خطأ. ١٠- إذا تكرر الكتاب ذكر كل اسم في حرفه المناسب له.

(١) _____ كما بين ذلك فضيلة الشيخ «بكر أبو زيد» في كتابه «ابن القيم حياته ...» ما بين ص (١٩٩-٣٠٩). و لهذا أحيل القراء الكرام إلى هذا المبحث، تجنبنا للإطالة و التكرار، و أكتفى هنا بذكر ما وصلنا من كتبه الصحيحة النسبة إليه. و أنه مرة أخرى أنه لا يستغنى باحث، أو قارئ عما كتبه الشيخ «بكر أبو زيد» عن هذا الإمام العلم. البدائع في علوم القرآن، ص: ٦٥ ١١- إذا تحقق من نسبة الكتاب خطأ فلا يدخله في الرقم التسلسلي بل

يميزه بعلامة. ١٢- بيان المباحث التي كان ابن القيم يتمنى لو أفرد بها بمؤلف مستقل .. ولهذا فقد اقتضت على ذكر ما وصلنا من مؤلفاته رحمه الله تعالى، و من أراد مزيدا عن حصر مؤلفاته وغيرها من الأمور فليرجع إلى كتاب الأستاذ «بكر أبو زيد». وقد ذكرت مؤلفاته المطبوعة مسلسلة على حروف المعجم، مع بيان المطبوع منها والتعليق على الطباعات قدر المستطاع وباللغة التوفيق.

١- «اجتماع الجيوش الإسلامية»:

١- «اجتماع الجيوش الإسلامية»: طبع في الهند سنة (١٣١٤ هـ) و صور في دار الفكر سنة (١٤٠١ هـ) وهذه هي التي اعتمدت عليها في جمعي التفسير. ثم وصلتني نسخة جديدة طبع الرياض لسنة (١٤٠٨ هـ) بتحقيق الدكتور/ عواد عبد الله المعتنق. وهي تعد من أحسن كتبه المطبوعة تحقيقا وإخراجا. فقد طبعت على ثلاث نسخ بالإضافة إلى المطبوعة، وهذا أمر عظيم في التحقيق. وقد قدم لها المحقق مقدمة جيدة في بيان موقف ابن القيم من الفرق، وهو الجزء الأول، ثم تحقيق الكتاب في الجزء الثاني وقد حزن كثيرا لعدم حصولي على هذه النسخة في بداية العمل، خاصة أن الكتب التي جمعت التفسير هي عندي منذ أكثر من عشر سنوات. ولكن هذا العمل الجيد من الدكتور/ عواد يمكن أن يختصر فيخرج القسم الأول لكتاب مستقل، ثم الثاني وهو «الكتاب» في جزء آخر مع اختصار كثير من التراجم. وقد استفدت منها بقدر اتساع الوقت وسوف أتمدها إن شاء الله تعالى في الطبعة الثانية للتفسير. - ذكره العلامة «بكر أبو زيد» ص (٢٠١).

٢- «أحكام أهل الذمة»:

٢- «أحكام أهل الذمة»: طبع سنة (١٤٠١ هـ) في مجلدين، دار القلم. بتحقيق د/ صبحي الصالح رحمه الله تعالى وقد توفى الدكتور المحقق في المحرم من سنة (١٤٠٧ هـ) وهي طبعة جيدة جدا لكن تحتاج إلى تخريج للأحاديث بشكل دقيق. وهي التي اعتمدها في عملي. - عند «بكر أبو زيد» ص (٢٠١). * أخبار النساء. (انظر آخر الباب).

٣- «إعلام الموقعين عن رب العالمين»:

٣- «إعلام الموقعين عن رب العالمين»: وقد طبع في مكتبة الكليات الأزهرية سنة (١٣٨٨ هـ) بتحقيق/ طه عبد الرؤوف سعد. البدائع في علوم القرآن، ص: ٦٦ وهي تكاد تكون خالية من التصحيحات لكنها خالية أيضا من التخريجات، وطبع أيضا في إحدى مكاتب مصر تصويرا على طبعة الشيخ/ عبد الرحمن الوكيل. وهي مليئة بالتصحيح والسقط، وقد صححت فيها أكثر من مائتين من الأخطاء. وهنا يجدر التنبيه على خطورة إعادة طبع الكتب دون إضافة جديد عليها من تحقيق، وتخريج، فضلا أن تطبع بعيوبها، وهي تحت الطبع الآن. - عند «بكر أبو زيد» (٢٠٩).

٤- «أسماء مؤلفات ابن تيمية»:

٤- «أسماء مؤلفات ابن تيمية»: وهي طبعة دمشق، لسنة (١٣٧٢ هـ) بتحقيق الأستاذ/ صلاح الدين المنجد. - ذكره «بكر أبو زيد» ص (٢٠٨).

٥- «إغاثة اللهفان من مصادب الشيطان»:

٥- «إغاثة اللهفان من مصادب الشيطان»: اعتمدت على طبعة السنة المحمدية لسنة (١٣٥٨ هـ) بتحقيق الشيخ/ حامد الفقي رحمه الله تعالى. وهي طبعة جيدة غير مستوفاة تخريج الأحاديث. وقد طبعه المكتب الإسلامي/ بيروت في جزئين وهي جيدة جدا. - ذكره

«بكر أبو زيد» ص (٢١٨).

٦- «إغائة اللفان في حكم طلاق الغضبان»:

٦- «إغائة اللفان في حكم طلاق الغضبان»: طبع «الكليات الأزهرية» سنة (١٣٩٦ هـ) بتصحيح و تخريج العلامة/ محمد جمال الدين القاسمي. - ذكره الشيخ «بكر أبو زيد» ص (٢٢٠).

٧- «بدائع الفوائد»:

٧- «بدائع الفوائد»: وهو من أهم و أعظم كتب ابن القيم، طبع «المطبعة المنيرية» بتصحيح الشيخ منير الدمشقي رحمه الله تعالى، و قد راجع أصوله على غير نسخة بعد عرضها على جماعة من أهل العلم و الفهم و الذكاء (٢١٨/٤). - عند «بكر أبو زيد» (٢٢٢).

٨- «التبيان في أقسام القرآن»:

٨- «التبيان في أقسام القرآن»: طبع «دار المعرفة» بتحقيق الشيخ حامد الفقى، و هى طبعه جيدة و لكن كثير من كتب البدائع فى علوم القرآن، ص: ٦٧ ابن القيم تحتاج لإعادة تحقيق. - عند «بكر أبو زيد» (٢٢٥). و هذا الكتاب القيم يصلح لدراسة منهج ابن القيم فى التفسير لاحتوائه كله على تفسيرات لآيات من سور شتى فهو كالتفسير المستقل، و قد ضمنه بدائع التفسير.

٩- «تحفة الودود فى أحكام المولود»:

٩- «تحفة الودود فى أحكام المولود»: طبع «دار الريان للتراث» بتحقيق د/ عبد الغفار سليمان، و هى جيدة، و أعتمدها فى التفسير. - عند «بكر أبو زيد» (٢٢٩). «التفسير القيم»: سبق و وضحت أن هذا الكتاب ليس من تأليفه رحمه الله تعالى.

١٠- «تهذيب سنن مختصر أبى داود»:

١٠- «تهذيب سنن مختصر أبى داود»: طبع «السنة المحمدية» سنة (١٣٦٨ هـ) بتحقيق الشيخ/ حامد الفقى و مشاركة العلامة أحمد شاكر فى الأجزاء الثلاثة الأولى، و قد حققته و يطبع الآن. - عند «بكر أبو زيد» (٢٣٤).

١١- «جلاء الأفهام فى الصلاة و السلام على خير الأنام»:

١١- «جلاء الأفهام فى الصلاة و السلام على خير الأنام»: طبع «المطبعة المنيرية» سنة (١٣٥٧ هـ) و صورت عليها طبعه «دار الطباعة المحمدية» و هى التى وقعت فى يدى أولاً. و هى بتحقيق «الشيخ طه يوسف شاهين» و هى مسروقة حرفياً عن الطبعة المنيرية كلمة كلمة، و لم تزد عن المنيرية إلّا فى التصحيف و التحريف، و هذا مما يؤسف له. ثم أمدنى بعض الأصدقاء بطبعة حديثه جيدة بتحقيق «محيى الدين مستو» و لكن تحتاج لتخريج أدق. - عند «بكر أبو زيد» (٢٣٦).

١٢- «حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح»:

١٢- «حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح»: طبع مكتبة القرآن سنة (١٤٠٨ هـ) و هى المعتمدة، و أيضاً طبعه «مكتبة المتنبى» و الأخيرة رديئة جدا ثم وقع لى طبعه «الأستاذان يوسف على بدوى، و محيى الدين مستو» و هى جيدة. ذكرها «بكر أبو زيد» (٢٣٩). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٦٨

١٣- «الداء و الدواء»:

١٣- «الداء و الدواء»: طبع «مكتبة المدني» بتحقيق الدكتور/ محمد جميل غازي رحمه الله تعالى «١» و هي خالية غالبا من التصحيف، لكن لم تخرج أحاديثها كالعادة، و قد طبع أيضا تحت اسم «الجواب الكافي...». - عند «بكر أبو زيد» (٢٤٤).

١٤- «الرسالة التبوكية»:

١٤- «الرسالة التبوكية»: طبع «مكتبة التوعية» سنة (١٤٠٨ هـ). و هي جيدة. - عند «بكر أبو زيد» (٢٥٠).

١٥- «روضة المحبين و نزهة المشتاقين»:

١٥- «روضة المحبين و نزهة المشتاقين»: طبع «مكتبة التراث» دون تحقيق. - عند «بكر أبو زيد» (٢٤٢).

١٦- «الروح»:

١٦- «الروح»: طبع «دار الندوة الجديدة» دون تحقيق. و قد وصلني محققا في جزئين من عمل د/ بسام العموش، مكتبة ابن تيمية، الرياض، و هي جيدة، و لكن أدخل مقدمته (١/١٦٦) كأنها من أصل الكتاب دون إشارة إلى بداية الكتاب (١/١٦٧). مع عدم فهرسة للجزء الأول و هو مع ذلك اعتمد على مخطوطات جيدة. - عند «بكر أبو زيد» (٢٥٣).

١٧- «زاد المعاد في هدى خير العباد»:

١٧- «زاد المعاد في هدى خير العباد»: طبع بتحقيق الأستاذين شعيب و عبد القادر الأرناؤوط في «خمس أجزاء» و هي أجود ما أخرج من كتب ابن القيم. - عند «بكر أبو زيد» (٦٢٠).
(_____١) كان من كبار الدعاة و أسلم على يديه الكثير، و قاد مركز التوحيد بالعزير بالله بمنطقة الزيتون بالقاهرة حتى وفاته، و كان فصيحاً بليغاً متواضعا، أخذت عنه أشياء في الدعوة و علوم القرآن و التفسير، و له ترجمة جيدة في كتاب العلامة محمد المجذوب (علماء و مفكرون عرفتهم) (٣/١٧٦)، و كانت حياته بين (١٩٣٦-١٩٨٨ م). البدائع في علوم القرآن، ص: ٦٩

١٨- «شفاء العليل في مسائل القضاء و القدر و الحكمة و التعليل»:

١٨- «شفاء العليل في مسائل القضاء و القدر و الحكمة و التعليل»: تصوير دار المعرفة- بيروت- سنة (١٣٩٨ هـ) دون تحقيق، و هي مصورة على الطبعة الأولى للطبعة الحسينية لسنة (١٣٢٣ هـ)، و نصفه الأول على مخطوطة العلامة الألوسي، و النصف الثاني على مخطوطة دار الكتب المصرية كما ورد في آخر الكتاب (٣٠٧). - عند «بكر أبو زيد» (٢٦٦).

١٩- «الصواعق المرسله على الجهمية و المعطله»:

١٩- «الصواعق المرسله على الجهمية و المعطله»: طبع «دار العاصمة» الرياض (١٤٠٨ هـ) بتحقيق الشيخ علي بن محمد، في أربعة أجزاء في طبعة جيدة. و قد عقد مقارنة بين الكتاب الأصلي و بين مختصره للموصلي (١/١١٧)، و أن الكتاب لم يصلنا كاملا، و يدل على

ذلك كلامه عن الطاغوت الثالث والرابع في المختصر، وهذا مما لم يصلنا. - عند «بكر أبو زيد» (٢٨٤).

٢٠- «طريق الهجرتين و باب السعادتين»:

٢٠- «طريق الهجرتين و باب السعادتين»: طبع «المكتبة السلفية» سنة (١٤٠٠ هـ) الطبعة الثالثة بإشراف الأستاذ/ محب الدين الخطيب. و هي دون تحقيق، و هي المعتمدة من أعماله. و قد طبع في دار ابن القيم سنة (١٤٠٩ هـ) على الطبعة الأولى، و امتازت بالتحقيقات. - عند «بكر أبو زيد» (٢٧٢).

٢١- الطرق الحكيمية في السياسة الشرعية»:

٢١- الطرق الحكيمية في السياسة الشرعية»: طبع مكتبة المدني سنة (١٩٨٥ م). بتحقيق الشيخ الدكتور/ محمد جميل غازي رحمه الله تعالى، و هي خالية من التخريج. - عند «بكر أبو زيد» (٢٧٤).

٢٢- «عدة الصابرين و ذخيرة الشاكرين»:

٢٢- «عدة الصابرين و ذخيرة الشاكرين»: طبع «دار ابن كثير» دمشق، الثانية (١٤٠٧ هـ) و هي جيدة لكنها غير محققة. - «بكر أبو زيد» (٢٧٦).

٢٣- «الفروسيه»:

٢٣- «الفروسيه»: طبع دار الصحابة- مصر- سنة (١٤١١ هـ) و هي جيدة و قد طبع بأسماء أخرى. - عند «بكر أبو زيد» (٢٨٠). البدائع في علوم القرآن، ص: ٧٠

٢٤- «الفوائد»:

٢٤- «الفوائد»: طبع المكتبة القيمة بمصر- سنة (١٤٠٠ هـ)، و هي تحتاج لتخريج و تحقيق جديدين. - «بكر أبو زيد» (٢٨٤). * الفوائد المشوق (أنظر آخر هذا الباب).

٢٥- «كتاب الصلاة و حكم تاركها»:

٢٥- «كتاب الصلاة و حكم تاركها»: طبع المكتب الإسلامي/ بيروت سنة (١٤٠١ هـ). الأولى بتحقيق/ تيسير زعتر، و قد أجاد في إخراجها. - عند «بكر أبو زيد» (٢٤٣).

٢٦- «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية»:

٢٦- «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية»: و هي المعروفة بالقصيدة النونية، طبع دار الفاروق الحديثه مصر، و هي كثيرة التحريف. - عند «بكر أبو زيد» (٢٨٧)،

٢٧- «الكلام على مسألة السماع»:

٢٧- «الكلام على مسألة السماع»: طبع «دار العاصمة» الرياض سنة (١٤٠٩ هـ) الطبعة الأولى، تحقيق راشد عبد العزيز الحميد. - عند «بكر أبو زيد» (٢٤٢).

٢٨- «الكلم الطيب و العمل الصالح»:

٢٨- «الكلم الطيب و العمل الصالح»: و هو المعروف باسم «الوابل الصيب...» طبع دار الريان/ بيروت سنة ١٤٠٨ هـ. و طبع المكتبة السلفية/ القاهرة ثم طبع «دار البيان» بتحقيق الأرناءوط، و هي أجودهم. - عند «بكر أبو زيد» (٢٩٣).

٢٩- «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين»:

٢٩- «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين»: و هو من أمتع كتب ابن القيم، و ينبغي الاهتمام بتدريسه خاصة للنشء، لمعرفة السلوك القويم و الطريق الصحيح و المثمر للسائرين إلى الله تعالى. و هو ملء بالنقد العلمي الدقيق المنصف للمؤلف، فهو لم يجامل الهوى أو يتحامل عليه. طبع «السنة المحمدية» سنة (١٣٧٥ هـ) بتحقيق الشيخ/ حامد الفقى رحمه الله تعالى و إليه يرجع الفضل - بعد الله - لإظهار البدائع في علوم القرآن، ص: ٧١ كتب الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، و راجع كلامى على طريقتى فى التحقيق عند مبحث «التفسير القيم». و قد كنت بدأت فى تخريجه منذ سبع سنوات و توقفت بسبب العمل فى التفسير و لعل الله ييسر إخراجة. - عند «بكر أبو زيد» (٢٩٥).

٣٠- «مفتاح دار السعادة و منشور ألوية العلم و الإرادة»:

٣٠- «مفتاح دار السعادة و منشور ألوية العلم و الإرادة»: طبع مكتبة حميد و سنة (١٣٩٩ هـ) بتصحيح محمود حسن ربيع، و للأسف أنه أسوأ الكتب إخراجا من ناحية التحقيق أو التخريج مع أهميته العظمى، و فوائده الجزيلة. - عند «بكر أبو زيد» (٣٠٠)، و قد طبع بتحقيق أخى على حسن عبد الحميد، طبعة جيدة، لدار ابن عفان.

٣١- «المنار المنيف فى الصحيح و الضعيف»:

٣١- «المنار المنيف فى الصحيح و الضعيف»: طبع «مكتبة المطبوعات الإسلامية/ سورية» سنة (١٤٠٣ هـ) بتحقيق الشيخ/ عبد الفتاح أبو غدة، و هي جيدة جدا. - عند «بكر أبو زيد» (٣٠٣).

٣٢- «هداية الحيارى فى أجوبة اليهود و النصارى»:

٣٢- «هداية الحيارى فى أجوبة اليهود و النصارى»: طبع المكتبة القيمة سنة (١٤٠٧ هـ) الرابعة. - عند «بكر أبو زيد» (٣٠٨). هذا ما وصلنا من كتبه رحمه الله تعالى و هي «اثنان و ثلاثون كتابا» من «ثمانية و تسعين» كما ذكر العلامة بكر أبو زيد (٣٠٩). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٧٢

فصل [كتابين منسويين الى ابن القيم

الفوائد المشوق إلى علوم القرآن «١» [و اخبار النساء

الفوائد المشوق إلى علوم القرآن «١» [و أخبار النساء] لقد شكك كثير من أهل العلم في نسبة كتابين إلى ابن القيم: الأول: أخبار النساء. وقد أنكر أو تردد كثير من أهل العلم نسبتهم لابن القيم منهم: ١- الأستاذ المحقق محمد منير الدمشقي، الذي له من الفضل الكثير في نشر كتب علوم الشريعة السمحة. ٢- الأستاذ عبد الغنى عبد الخالق. ٣- الأستاذ أحمد عبيد. ٤- والزركلي. ٥- والعلامة «بكر أبو زيد» وقد فصل ذلك تفصيلا في كتابه الممتع «ابن قيم الجوزية حياته، آثاره، موارده» (٢٠٢-٢٠٨) بما يغني عن ذكره هنا إلّا اختصارا وبتصرف. يقول الأستاذ «بكر أبو زيد»: (ولا يسعنا هنا بعد هذا، وبعد الدراسة والفحص لمادة الكتاب إلّا التقرير بأن كتاب «أخبار النساء» المذكور ليس لابن القيم لأمر: ١- بالتبع لم يذكره أحد من المترجمين في مسرد كتبه. ٢- أنه لم يشر إليه في شيء من كتبه لا سيما «روضه المحبين» مع اشتراك المناسبة و هي: شأن النساء. ٣- عدم إشارته فيه لأحد من شيوخه أو كتبه كعادته غالبا. ٤- غرابه الأسلوب: الوضع، والطريقة، والمنهج في هذا الكتاب، وبعد ذلك على سلوك ابن القيم في التأليف). اه. ثم بين فضيلة الشيخ منشأ هذا الوهم والخطأ إلى عبث الوراقين أو الوهم والغلط في الخلط بين ابن قيم الجوزية وبين ابن الجوزي. ومع هذا يشكك أيضا فضيلة الشيخ في نسبة _____

(١) ولعل فيما جمعناه من «بدائع علوم القرآن» غنية حميدة إن شاء الله تعالى. البدائع في علوم القرآن، ص: ٧٣ الكتاب إلى ابن الجوزي نفسه والفرق بينه وبين أحكام النساء، ولكن هل يختلف الأمر بالنسبة للفوائد المشوق؟ وأحاول جاهدا بيان الصواب في هذه القضية إن شاء الله تعالى وبه التوفيق:

أولا: التعريف بكتاب «الفوائد المشوق»:

أولاً: التعريف بكتاب «الفوائد المشوق»: ١- اسم الكتاب: «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان». ٢- موضوعه: معرفة ما تضمنه الكتاب العزيز من أنواع البيان، وأصناف البديع، وفنون البلاغة و عيون الفصاحة. أى: هو كتاب بلاغى فى المقام الأول. يحتوى الكتاب على مائتين و ستين صفحة، عدا الفهرس. ٣- طبع هذا الكتاب لأول مرة بتصحيح الأستاذ بدر الدين النعسانى و عنه ذكره الأستاذ حامد الفقى و الأستاذ أحمد عبيد «١».

ثانيا: إن وسائل إثبات صحة نسبة الكتاب لمؤلفه، هي عديدة نذكر منها:

ثانيا: إن وسائل إثبات صحة نسبة الكتاب لمؤلفه، هي عديدة نذكر منها: ١- أن يذكر المؤلف مؤلفاته فى ثنايا كتبه، و قد ذكر ابن القيم (٢٢) كتابا لنفسه «٢»، و هذا على الغالب، و إلا- فانتفائه لا ينفى صحة النسبة من طرق أخرى. ٢- أن يذكر مؤلفاته مترجموه خاصة تلامذته المعاصرين له أو القريبين من عصره و بتتبع ذلك يمكن الوقوف على صحة النسبة إليه غالبا «٣». ٣- إيلاف أسلوب المؤلف، من حيث استناده على الكتاب و السنة فى الاستدلال و كذا اللغة، و أى فنون اللغة يغلب على أسلوبه، و مدى تعصبه أو تجرده لمذهبه الفقهى، و مقدار وضوح عقيدة المؤلف و طريقته، كخطا من نسب «دفع شبه التشبيه» لابن القيم، و هو لابن الجوزى. و أيضا موارد المؤلف فى عموم كتبه له دور هام، إلى غير ذلك من الأدوات و الأساليب المرجحة لصحة أو بطلان النسبة. (١) «ابن القيم» لبكر أبو زيد (٢٩٠).

(٢) المصدر نفسه (١٩٧). (٣) و قد وفق فضيلة الشيخ «بكر» للوقوف على ذلك بالنسبة لمؤلفات ابن القيم بقدر يشكر عليه، فقد ذكر من ترجم له و ما ذكره من كتب، فوقف على (٩٨) مؤلفا له كما مرّ من قبل. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٧٤

ثالثا: محاولة تطبيق ما سبق على «الفوائد المشوق»:

ثالثاً: محاولته تطبيق ما سبق على «الفوائد المشوق»: ١- لم يشر ابن القيم قط «للفوائد المشوق» بالاسم، أو بالإشارة إلى موضوعه و هو حري بذلك لشغفه و تطلعه لإنشاء تفسير بديع للقرآن الكريم كما مرّ في المقدمة، و هو كتاب لو صحت نسبته إليه لكان عجا من علوم القرآن. ٢- لم يشر أحد من المترجمين لابن القيم خاصة معاصريه و تلامذته كالصفدي، أو ابن رجب مثلاً، و انظر تفصيل ذلك في كتاب «بكر أبو زيد» (١٨٩-١٩٤) فقد ذكر ستة عشر مترجماً له من الصفدي ت (٧٦٣ هـ) إلى ابن بدران ت (١٣٤٦ هـ) لم يذكر أحدهم «الفوائد المشوق» ضمن كتبه. ٣- يقول الأستاذ بكر أبو زيد (٢٩٠) «... الفوائد المشوق ... طبع لأول مرة بتصحيح الأستاذ محمد بدر الدين النعساني و عنه ذكره الأستاذ حامد الفقي و الأستاذ أحمد عبيد و قال بعد ذكره له: «و ذكر في «كشف الظنون» كتاباً اسمه «الإيجاز» و لعله هذا). و قد قال عن الإيجاز: ص (٢٢١): «الإيجاز»: لم أر من ذكره قبل صاحب «كشف الظنون» (١/٢٠٦). و تبعه البغدادي في «هدية العارفين» (١٥٨/٢) «و لم أره عند غيرهما» اه. و هذا كله في بحث صحة أو بطلان نسبة الكتاب من ناحية «السند» إلى ابن القيم، ثم إليك المزيد و هو هام جدا و عليه مدار الأمر. ٤- و قد كان أن دعاني أخي و حبيبي في الله «عبد الرحمن فودة» المدرس المساعد بكلية دار العلوم لسماع مناقشة رسالة الدكتوراة لأخ كريم هو «زكريا سعيد علي» و كانت المفاجأة أن الرسالة عنوانها «بلاغة القرآن عند المفسرين حتى نهاية القرن السادس» (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م) - و قد كنت قاربت الانتهاء من تحقيق أكثر من نصف الكتاب - و قد تضمنت رسالته دراسة مبدعة حول كتاب «الفوائد المشوق» نلخصها فيما يلي: - ذهب الباحث إلى نقض نسبة الكتاب لابن القيم من ناحية السند قريبا مما ذهب إليه «١».

(١) قد حاولت الحصول على نسخة من الرسالة فلم أستطع، لمدة عام كامل، ثم وقفت عليها في مكتبة الكلية المذكورة و فقهه سريعه لم تمكني من دراسة البحث جيدا، حتى تفضل الأستاذ الباحث مشكورا بإرسال نسخة منها أعدها للطبع و سماها «المقدمة في علم البيان» مقدمة تفسير ابن النقيب، و هذه تحتوى على النصف الأول من الكتاب المتعلق ب «ما يتعلق بالمعاني من المبالغة» و هو إلى القسم الرابع و العشرين من أقسامه. البدائع في علوم القرآن، ص: ٧٥ ب- من ناحية المتن ابتداء الباحث رده صحة هذه النسبة بذكر قضية «المجاز» عند ابن القيم، و أنه في مقام العداء له و وصفه (كما مختصر الصواعق) بأنه الطاغوت الثالث الذي وضعه الجهمية (٢٨٤) و هذا لم يصلنا مع «الصواعق» المطبوع و «الهجوم الضاري» من ابن القيم على مسألة تقسيم الكلام إلى حقيقة و مجاز و هو مما يتنافى تماما مع ما ذكر في «الفوائد المشوق». الذي أخذ حجما ضخما من ص (٩-٨٧) اه. و هذا هام جدا من ناحية مخالفة المنهجين تماما لما يقطع ببطلان هذا التقسيم و بين ما يثبت و يدلل عليه بهذه السعة كما في الفوائد المشوق. و هذا كما مرّ من الأسباب النافية لصحة نسبة كتاب يخالف محتواه العقدي لمؤلف على النقيض من هذه العقيدة. ج- يقول الباحث «و مما لفت نظري في الكتاب الموسوم بالفوائد المشوق عند ذكره للزمخشري أنه يتبع ذلك بصيغة الترحم عليه: رحمه الله و هذا مما لا يمكن أن يصدر عن واحد مثل ابن القيم السلفي المعتمد ... خاصة بالنسبة لواحد من رأس المعتزلة - و هم عنده - من فرق المبتدعة و الضلالة. و هذا الترحم يشعر في كلام السابقين شيئا من الحب و الوفاء في نفس المترحم على المترحم عليه» ص (٨) باختصار يسير. و هذه الفقرة بعينها من أضعف نقاط البحث، و كنت أرجو أن يغض طرف قلمه عن مثل هذا، و تنزيه ابن القيم عن هذا الخلق، مع وقوفنا في خندق واحد معه رحمه الله تعالى، ضد المعتزلة و أمثالهم فيما خالفوا فيه أهل السنة. فقد ذكر ابن القيم للزمخشري في أكثر من خمسة عشر موضعا في المجموع من تفسيره «بدائع التفسير» مثل: (١/٢٦١ و ٢٧٧ و ٣١٠ و ٣٧٨ و ٣٧٨ و ٤٢٨) و (٢/٢٩٧ و ٢٢٣ و ٣١١) و (٣/٢٧ و ١١١) إلخ. و في كثير منها ينقل قولاً له مع تقدير رأيه أو ما ذهب إليه ثم قد ذكر ابن القيم كثيرا من علماء الأمة دون ذكر الترحم فهذا ليس شرطا أو قيدا. و انظر موضع ترجمته في السير (٢٠/١٥١) يقول الذهبي: «الزمخشري العلامة، كبير المعتزلة، ... صاحب الكشاف ... رحل، و سمع، و حج، و جاور و تخرج به أئمة ... أثنى عليه أبو السعادات بن الشجري ... و كان داعية إلى الاعتزال، الله يسامحه» اه. هكذا يكون الإنصاف. و الله أعلم. ثم أحيل أخي الباحث إلى كتاب الأستاذ الدكتور العلامة محمد أبو موسى حفظه الله تعالى: «البلاغة القرآنية في

تفسير الزمخشري» ص (٣٠). ثم سائر الكتاب. و انظر أيضا البدائع في علوم القرآن، ص: ٧٦ من ص (٦٣) و موقف الزمخشري من أهل السنة و تعقيب ورد الشيخ الجليل «أبو موسى». - استشهد صاحب «الفوائد المشوق» بعدة أحاديث لا يخفى و منها عن ابن القيم و هو صاحب «المنار المنيف» و هذه الأحاديث بين الضعيف و الموضوع و لن نتعرض للأحاديث الضعيفة، حيث إن من أهل العلم من يجيز الاحتجاج بها، أما المكذوبة فهو زور و بهتان ... كقوله: «إياكم و خضراء الدمن ...» و قوله: «المعدة بيت الداء ...» فهو من كلام الحارث بن كلدة، و لا- يصح رفعه. أما قوله: «خضراء الدمن» فقد قال الألباني: «ضعيف جدا ...». و قوله: «أصحابي كالنجوم ...» موضوع فهذا مما لا يفوت ابن القيم معرفته ... من (٩- ١١) اه. و هذا من الباحث نظر جيد، و ممن نبه على هذا الأمر- أي هذه العلة في دفع صحة نسبة الكتاب- فضيلة الشيخ «بكر» في كتابه ص (٢٩١). ثم يصل الباحث إلى أهم النقاط التي رجحت عندي صحة ما ذهب إليه في نفي صحة نسبة هذا الكتاب لابن القيم، ثم- و هذا هام جدا- بيان صاحب هذا العمل الممتع. ه- يقول الباحث: (و لمعرفة ذلك هداني الله للإجابة عن السؤال من خيط رفيع جدا، و هو عنوان القسم «الحادي و العشرين» من أقسام فنون المعاني (١٣٦) جعل صاحب الفوائد المشوق عنوانه «الاحتجاج النظري» و قال فيه: و بعض أهل هذا الشأن يسميه «المذهب الكلامي» ... إلخ، و تذكرت أن هذا الكلام قد مرّ بي من قبل في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) عند قوله تعالى: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ... [آل عمران: ١٥٤] يقول أبو حيان: «هذا النوع عند علماء البيان يسمى «الاحتجاج النظري» و هو أن يذكر المتكلم معنى يستدل عليه بضروب من المعقول ...» إلخ. و قد حاولت معرفة من استخدم مصطلح الاحتجاج النظري من علماء البيان، فلم أعر على ذكره إلّا لدى شيخ أبي حيان «ابن النقيب» كما نص السيوطي. يقول: و سمّاه ابن النقيب «الاحتجاج النظري» كما في شرح عقود الجمان في علم البيان للسيوطي ص (١٢٣). و هنا طرقتي السؤال: إذا لم يكن أحد غير ابن النقيب استخدم مصطلح «الاحتجاج النظري» فلم لا- يكون الكتاب المسمى بالفوائد المشوق هو نفسه كتاب «ابن النقيب»؟ و بتتبع ما وصلت إليه يدي من كتب البلاغة التي بين أيدينا اليوم فلم أجد في واحد منها إطلاق تسمية «الاحتجاج النظري» على «المذهب الكلامي» إلّا في «الفوائد المشوق». و- يقول الباحث: «... فلما ذا إذا لا يكون هذا الكتاب إلّا مقدمة ابن النقيب في علم البدائع في علوم القرآن، ص: ٧٧ البيان، و التي ذكرها أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط عند حديثه عن الوجه الثالث من الوجوه التي يكون كلام الله عزّ و جلّ هو «وجه الفصاحة و البلاغة» و يؤخذ ذلك من علم البيان و البديع، و قد صنف الناس في ذلك تصانيف كثيرة، و أجمعها ما جمعه شيخنا الأديب الصالح أبو عبد الله محمد بن سليمان النقيب، و ذلك في مجلدين قدمهما أمام كتابه في التفسير ...» البحر (٢/ ٢٢٧): ز- ثم يقول الباحث ص (١٤): «... قال أبو حيان: و في قوله: أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ [البقرة: ٢٠٦] نوع من البديع يسمى «التميم» و هو إرداف الكلام بكلمة ترفع عنه اللبس و تقربه للفهم ... البحر المحيط (٢/ ١١٧) و هذا التعريف يتطابق مع ما في الفوائد المشوق ص (٩٠). و هذا التعريف للتميم لم أجد في واحد من كتب البلاغة التي بين أيدينا إلّا في الكتاب و في تفسير البحر المحيط). ح- يقول الباحث (١٥): «و من التقارب الكبير بين ما في البحر المحيط و بين ما في «الفوائد المشوق» ما ذكره أبو حيان عند قوله تعالى: وَ قَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ ... [غافر: ٢٨- ٢٩] قال أبو حيان: و قال صاحب التحرير و التحجير: هذا نوع من أنواع علم البيان تسميه علماؤنا «استدراج المخاطب» البحر المحيط (٧/ ٤٦١- ٤٦٢) و قابل بالفوائد المشوق (٢١٣- ٢١٤) و صاحب التحرير و التحجير- هذا- هو نفسه شيخ أبي حيان (ابن النقيب) و التحرير و التحجير تفسيره الكبير للقرآن و اسمه «التحرير و التحجير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير» (كشف الظنون: ١/ ٣٥٨)، و هذا التشابه الكبير بين ما في تفسير البحر المحيط و كتاب «الفوائد المشوق» و انفراد صاحب هذا الكتاب بمصطلح «الاحتجاج النظري» جعلني أطمئن بعض الاطمئنان إلى ما هجست به نفسي أن ما بين يدي من كتاب «الفوائد المشوق» هو نفسه مقدمة شيخ أبي حيان «ابن النقيب» «١»). ط- يقول الباحث (١٧): «غير أن هذا لم يكن كافيا عندي للوصول إلى درجة اليقين، (و قد ذكر غير واحد هذه المقدمة

بالإضافة لأبي حيان، منهم الزركشي، يقول عند حديثه عن «معرفة كون اللفظ و التركيب أحسن و أفصح» يقول الزركشي: «و يؤخذ

ذلك من علم البيان و البديع، و قد صنف الناس في ذلك تصانيف كثيرة، و أجمعها ما جمعه الشيخ شمس الدين محمد ابن النقيب في مجلدين، في مقدمته تفسيره... البرهان في علوم القرآن (١ / ٣١١). و ذكرها أيضا ابن السبكي في مصادره في تأليف «عروس الأفراح» (١ / ٣١). البدائع في علوم القرآن، ص: ٧٨ فعدت ألتمس ذكر «ابن النقيب» و من نقل عنه لعلي أجد فيه ما يشفى. و قد كان بحمد الله و توفيقه، و هو ما وقع من نص عند السيوطي في حديثه عن «التورية» من فنون البديع. يقول السيوطي «حكى بعضهم في التورية قولاً نادراً فقال: هي أن يعلق المتكلم لفظه من الكلام بمعنى، ثم يرددها بعينها، و يعلقها بمعنى آخر، نحو مثلاً ما أوتيت رُسُلَ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعام: ١٢٤] فجاء بلفظ الجلالة مضافاً إليه، ثم جاء به مبتدأ مثل قوله: أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ [التوبة: ١٠٨] الأول: متعلق ب (تقوم)، و الثاني: خبر رجال. كذا أورده الأندلسي نقلاً عن ابن النقيب في تفسيره...». قلت:- السيوطي- الظاهر أن هذا القول تصحف على ناقله، فإن هذا هو النوع المسمى ب «الترديد» السابق في الإطناب فتحرف على الناقل «الترديد» ب «التورية» ثم رأيت في «المصباح» لابن مالك التمثيل بالآية الأولى للترديد فصح ما قلته (اه). شرح عقود الجمان (١١٥). و هذا ما علقت بهامش نسختي على الفوائد المشوق، فرحم الله السيوطي فقد شفى نفسي بكلامه هذا). ي- يقول الباحث: «... و بالبحث تبين أن مراد السيوطي «بالأندلسي»- هنا- أبا جعفر الأندلسي، و أن هذا النص موجود بالفعل في شرحه على بديعة رفيقه ابن جابر الشهيرة ب «بديعة العميان»، فتطلبت هذا الشرح المعروف ب «الحلة السيرا في مدح خير الوري» وجدت له عدة نسخ مخطوطة بدار الكتب المصرية، و عثرت بتوفيق الله على ما نقله السيوطي منها. و ثبت لي أن الأندلسي هذا هو أبو جعفر الأندلسي أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي (ت ٧٧٩ هـ). و بعد أن ساق أبو جعفر حد «التورية» المشهور من «أنها إطلاق لفظ له معنيان: قريب و بعيد، و المراد البعيد»، قال: «و هذا الذي قررناه في حد التورية هو الذي درج عليه الناس، و قد ذكر ابن النقيب في مقدمته تفسيره قولاً نادراً في التورية فقال: «التورية أن يعلق المتكلم لفظه من الكلام بمعنى ثم يرددها بعينها و يعلقها بمعنى آخر... و ذلك نحو قوله: حَيْثُ نُوتِي مِثْلَ مَا أُوتِي... الآية» الحلة السيرا في مدح خير الوري ورقه (١٥٢) مخطوط بدار الكتب المصرية: ٢٨٢ بلاغة (١).

مؤسسه الثقافية- الإسكندرية باسم «طراز الحلة و شفاء الغلة» بتحقيق البدائع في علوم القرآن، ص: ٧٩ و هذا النص الذي سقته يزيد فائدة على نص السيوطي السابق أنه قرر أن ذلك القول في مقدمته تفسير ابن النقيب، فأصبح شبه متقرر عندي أن ما بين يدي من مطبوعة «الفوائد المشوق» ما هي إلّا مقدمة الشيخ ابن النقيب و هذا القول النادر الذي نسبته أبو جعفر الأندلسي إلى ابن النقيب في تعريف التورية في الحقيقة ليس إلّا نتاج تحريف ناسخ مقدمة ابن النقيب، و الصواب كما ذهب إليه السيوطي أنه «الترديد» لا «التورية» فهذا حده المعروف به في كتب علماء البلاغة (١) و أنه تصحف على الناسخ من «الترديد» إلى «التورية» و هذا يكشف لنا عن أن هذا التصحيف في أصل مقدمة ابن النقيب المخطوط كان قديماً جداً من زمن أبي جعفر الأندلسي، و هو تصحيف «مبارك» له من الفضل عليّ في توثيق نسبة هذا الكتاب ما له!! اه. من ص ١٨- ١٩). ١١- ثم اعتمد الباحث أيضا على أن ما ذكره المؤلف للفوائد المشوق كمقدمة لتفسيره، و التصريح بغرضه من الكتاب و هو «إثبات ما وقع في الكتاب العزيز من فنون الفصاحة و عيون البلاغة...» إلخ راجع الفوائد المشوق (٥، ٧، ٨، ٤٦، ٢٢٥). كل هذا يقوى عندي أن هذا مقدمة بين يدي تفسير للقرآن الكريم، و من كل ما سبق أجدني مطمئناً إلى أن ما نشر تحت عنوان «الفوائد المشوق» أو «كنوز العرفان» المنسوب لابن القيم هو في حقيقته مقدمة الشيخ «ابن القيم» في علوم البلاغة و التي جعلها أمام تفسيره الكبير للقرآن الكريم اه (٢). و أخيراً... هذا.. أخي المسلم.. جهدي القليل الذي أسأل الله تعالى البركة فيه بقبوله، يرفع به درجاتي. و البركة فيه بالانتفاع به، و العمل به.

د./ رجاء السيد الجوهرى الأستاذة
المساعدة للأدب بكلية التربية جده «م.ع.س»، و هذا النص في المطبوع برقم (٤٤٨)، و هذه المسألة أوضح أسباب نسبة الكتاب لابن النقيب، و هذا لا- شك قاطع لقول كل خطيب، و هو أقرب لليقين. (١) انظر: تحرير التحبير: (٢٥٣)، و بدائع القرآن: (٩٦)، و البرهان

في علوم القرآن (٣ / ٣٠١)، و الإتيان (٣ / ٢٧٠). (٢) انتهى ما ذكره الباحث ولا تستطل هذا النقل فهو هام بل ضروري للفصل في هذا النزاع، ثم حاولت قدر الاستطاعة نقله كاملا باختصار غير مخل لتعم الفائدة لمن لم يتحصل على نسخة من كتاب الأخ الباحث. البدائع في علوم القرآن، ص: ٨٠ وأشهد الله تعالى، ما صنعت هذا العمل وما سبق وما لحق إن شاء الله تعالى إلّا حبا في الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم و سلف الأمة الصالحين. راجيا أن يكون لبنه صحيحه في بناء عظيم قام عليه كبارنا الأوائل، جعلنا الله تعالى دعاء بناء لا- دعاء هدم، و كل رجاء أن تنالني دعوة بالعمو والعافية. ولا شك أن هناك زلات، أرجو تنبيهي عليها. وهناك هنات أرجو الدعاء لي بالمغفرة والتوبة. سبحانك الله و بحمدك لا إله إلّا أنت. رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين. رب بارك في أهل بيتي و زهور عمري نعمه ربي: «فاطمة و مريم و سلمى». و الحمد لله رب العالمين. و كتبه أبو الزهراء: يسرى السيد محمد الكولى بالهرم. هاتف: ٠١٠١٣٣٤٠٨٠ - أول رجب سنة ١٤٢٣ سبتمبر سنة ٢٠٠٢. البدائع في علوم القرآن، ص: ٨١

ضرورة الوحي

مكانة الوحي

مكانة الوحي لا بد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية، وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطف والموارد الربانية والتنزلات الإلهية، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق «١».

مراتب الوحي النبوي

مراتب الوحي [النبوي مراتب الوحي مراتب عديدة: إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه صلى الله عليه وسلم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح «٢». الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته» «٣». الثالثة: أنه (كان يتمثل له الملك رجلا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له «٤»، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا. الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، فيتلبس به الملك (١) بدائع الفوائد

(١/ ١١٨). (٢) رواه البخاري (٣) في بدء الوحي، باب: (٣)، و مسلم (٢٥٢ / ١٦٠) في الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. (٣) الطبراني في الكبير (٨ / ١٩٤) (٧٦٩٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٤ / ٧٤): «فيه قدامة بن زائدة بن قدامة، و لم أجد من ترجمه، و بقيه رجاله ثقات». و الحديث حسنه الألباني. (٤) مسلم (٨ / ١) في الإيمان، باب: بيان الإيمان و الإسلام و الإحسان، و وجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه و تعالى. البدائع في علوم القرآن، ص: ٨٢ حتى إن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد، و حتى إن راحته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راکبها «١». و لقد جاءه الوحي مرة كذلك، و فخذ على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها «٢». الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحى، و هنا وقع له مرتين كما ذكر الله في سورة النجم [النجم: ٧، ١٣] «٣». السادسة: ما أوحاه الله و هو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة و غيرها. السابعة: كلام الله له منه إليه واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران «٤»، و هذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن، و ثبوتها لنبينا (هو في حديث الإسراء؟). و قد زاد بعضهم مرتبة ثامنة، و هي تكليم الله له كفاحا من غير حجاب، هذا على مذهب من يقول: إنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه تبارك و تعالى «٥»؟.

مراتب الهداية الخاصة والعامة والفرق بين الإلهام والوحي والتحديث

مراتب الهداية الخاصة والعامة والفرق بين الإلهام والوحي والتحديث المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه. وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه، قال الله تعالى: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء: ١٦٤] فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه. وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية. ثم أكد بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر «كلم» وهو «التكليم» رفعا لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام، أو إشارة، أو تعريف للمعنى النفسى بشيء غير التكليم؟ فأكد بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز. قال الفراء: العرب تسمى ما يوصل إلى الإنسان كلاما (١) البخارى (٢) فى بدء الوحي، باب:

(٢)، و مسلم (٢٣٣٣/٨٦) فى الفضائل، باب: عرق النبى صلى الله عليه وسلم فى البرد وحين يأتيه الوحي. (٢) البخارى (٤٥٩٢) فى التفسير، باب: لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [النساء: ٩٥]. (٣) مسلم (٢٨٧/١٧٧) فى الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل: وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَةً أُخْرَى [النجم: ١٣]. (٤) يشير المصنف إلى قوله تعالى: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء: ١٦٤]. (٥) زاد المعاد (١/٧٧-٨٠). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٨٣ بأى طرق وصل. ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة. يقال: فلان أراد إرادة، يريدون حقيقة الإرادة. ويقال: أراد الجدار، ولا يقال: إرادته، لأنه مجاز غير حقيقة، هذا كلامه. وقال تعالى: وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ [الأعراف: ١٤٣] وهذا التكليم غير التكليم الأول الذى أرسله به إلى فرعون. وفى هذا التكليم الثانى سأل النظر، لا فى الأول وفيه أعطى الألواح، وكان عن مواعده من الله له. و التكليم الأول لم يكن عن مواعده، وفيه قال الله له: يا موسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي [الأعراف: ١٤٤] أى بتكليمى لك بإجماع السلف. وقد أخبر- سبحانه- فى كتابه: أنه ناداه وناجاه. فالنداء من بعد، و النجاء من قرب. تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء، أو نجاء. وقال له أبوه آدم فى حاجته: «أنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه، و خط لك التوراة بيده؟» (١). وكذلك يقول له أهل الموقف إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه. وكذلك فى حديث الإسراء فى رؤية موسى فى السماء السادسة أو السابعة، على اختلاف الرواية (٢). قال: «و ذلك بتفضيله بكلام الله»، ولو كان التكليم الذى حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به فى هذه الأحاديث معنى، ولا كان يسمى «كليم الرحمن». وقال تعالى: وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ [الشورى: ٥١] ففرق بين تكليم الوحي، و التكليم بإرسال الرسول، و التكليم من وراء حجاب. فصل المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء، قال الله تعالى: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ [النساء ١٦٣] وقال: وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ الْآيَةَ [الشورى: ٥١] فجعل الوحي فى هذه الآية قسما من أقسام التكليم، وجعله فى آية النساء قسيما للتكليم، وذلك باعتبارين، فإنه قسيم التكليم الخاص الذى هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذى هو إيصال المعنى بطرق متعددة. و الوحي فى اللغة: هو الإعلام السريع الخفى، و يقال فى فعله: وحى، و أوحى، قبال رؤبه:

(١) البخارى (٦٦١٤) فى القدر، باب:

تحتاج آدم و موسى عند الله، و مسلم (٢٦٥٢/١٣) فى القدر، باب: حجاج آدم و موسى عليهما السلام. (٢) البخارى (٣٤٩) فى الصلاة، باب: كيف فرضت الصلوات فى الإسراء، و مسلم (٢٥٩/١٦٢) فى الإيمان، باب: الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات و فرض الصلوات. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٨٤ وحى لها القرار فاستقرت فصل المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكى إلى الرسول البشرى، فيوحى إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه. فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم. ثم هذا الرسول الملكى قد يتمثل للرسول البشرى رجلا، يراه عيانا و يخاطبه. و قد يراه على صورته التى خلق عليها. و قد يدخل فيه الملك، و يوحى

إليه ما يوحيه، ثم يفصم عنه، أى يقلع، و الثلاثة حصلت لنبينا صلى الله عليه و سلم «١». فصل المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث. و هذه دون مرتبة الوحي الخاص، و تكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، كما قال النبي صلى الله عليه و سلم: «إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن فى هذه الأمة فعمرب بن الخطاب» «٢». و سمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية- رحمه الله- يقول: جزم بأنهم كائنون فى الأمم قبلنا. و علق وجودهم فى هذه الأمة ب «إن الشرطية مع أنها أفضل الأمم، تضم لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، و استغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيا و رسالته، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث و لا ملهم، و لا صاحب كشف و لا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة و استغنائها لا لنقصها. و المحدث: هو الذى يحدث فى سره و قلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به. قال شيخنا: و الصديق أكمل من المحدث، لأنه استغنى بكمال صديقيته و متابعتة عن التحديث و الإلهام و الكشف، فإنه قد سلم قلبه كله و سره و ظاهره و باطنه للرسول، فاستغنى به عما منه «٣».

(١) البخارى (٢) فى بدء الوحي، باب:

(٢)، (٣٢١٥) فى بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، و مسلم (٢٣٣٣/٨٧) فى الفضائل، باب: عرق النبي صلى الله عليه و سلم فى البرد و حين يأتيه الوحي. (٢) البخارى (٣٦٨٩) فى فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر بن الخطاب، و مسلم (٢٣٩٨/٢٣) فى فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر رضى الله عنه. (٣) لعل مراده: فاستغنى الصديق بما جاء به النبي صلى الله عليه و سلم من الوحي عما منه هو من التحديث و الله تعالى أعلم. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٨٥ قال: و كان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول، فإن وافقه قبله، تضبط رده، فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث. قال: و أما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات و الجهالات: «حدثنى قلبى عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، و لكن عمّن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حدثنى قلبى عن ربي» كان مسندا الحديث إلى من يعلم أنه حدثه به، و ذلك كذب. قال: و محدث الأمة لم يكن يقول ذلك، و لا نفوه به يوما من الدهر، و قد أعاده الله من أن يقول ذلك، بل كتب كاتبه يوما «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال: «لا، امحه، و اكتب: هذا ما رأى عمر بن الخطاب، فإن كان صوابا فمن الله، و إن كان خطأ فمن عمر، و الله و رسوله منه برىء» و قال فى الكلاله: «أقول فيها برأى، فإن يكن صوابا فمن الله، و إن يكن خطأ فمنى و من الشيطان»، فهذا قول المحدث بشهادة الرسول صلى الله عليه و سلم، و أنت ترى الاتحادي و الحلولى و الإباحى الشطاح، و السماعى مجاهر بالقحة و الفرية، يقول: «حدثنى قلبى عن ربي». فانظر إلى ما بين القائلين و المرتبتين و القولين و الحالين، و أعط كل ذى حقّ حقه، و لا تجعل الزغل و الخالص شيئا واحدا. فصل المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام معناه، قال الله تعالى: وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ عَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَ كَلَّمَّا آتِنَا حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] فذكر هذين النبيين الكريمين، و أثنى عليهما بالعلم و الحكم. و خص سليمان بالفهم فى هذه الواقعة المعينة. و قال على بن أبى طالب و قد سئل: «هل خصكم رسول الله بشيء دون الناس؟» فقال: «لا، و الذى فلق الحبة و برأ النسمة، إلا فهما يؤتية الله عبدا فى كتابه، و ما فى هذه الصحيفة. و كان فيها العقل- و هو الديات- و فكاك الأسير، و ألا يقتل مسلم بكافر». و فى كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعري رضى الله عنه: «و الفهم الفهم فيما أدلى إليك» فالفهم نعمة من الله على عبده، و نور يقذفه الله فى قلبه يعرف به، و يدرك ما لا يدركه غيره و لا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما فى حفظه، و فهم أصل معناه. فالفهم عن الله و رسوله عنوان الصديقية، و منشور الولاية النبوية، و فيه تفاوت مراتب البدائع فى علوم القرآن، ص: ٨٦ العلماء، حتى عد ألف بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، و قد سأله عمر و من حضر من أهل بدر و غيرهم عن سورة إذا جاء نصر الله و الفتح و ما خص به ابن عباس من فهمه منها «أنها نعى الله سبحانه نبيه إلى نفسه و إعلامه بحضور أجله» «١»، و موافقة عمر له على ذلك، و خفائه عن غيرهما من الصحابة، و ابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا، و أين تجد فى هذه السورة الإعلام بأجله، لو لا الفهم الخاص؟ و يدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره، و لا يقع الاستغناء بالنصوص فى حقه مثال الذين يظنون النقص بالشرعية، و أما فى حق

صاحب الفهم فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها. فصل المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام. وهو تبيين الحق و تمييزه من الباطل بأداته و شواهدة و أعلامه، بحيث يصير مشهودا للقلب، كشهدود العين للمرئيات. و هذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحدا و لا يضل إلا بعد وصوله إليها، قال الله تعالى: وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) [التوبة: ١١٥]، فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، و لم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، و ما أضل الله - سبحانه - أحدا قط إلا بعد هذا البيان. و إذا عرفت هذا عرفت سر القدر، و زالت عنك شكوك كثيرة، و شبهات في هذا الباب، و علمت حكمه الله في إضلاله من يضل من عباده. و القرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [الصف: ٥]، وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ يَلِيبُ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: ١٥٥] فالأول: كفر عناد، و الثاني: كفر طبع، و قوله: وَ نَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَدَّرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) [الأنعام فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه و تحققوه، بأن قلب أفئدتهم و أبصارهم فلم يهتدوا له. فتأمل هذا الموضع حق التأمل، فإنه موضع عظيم. و قال تعالى: وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى [فصلت: ١٧] فهذا هدى بعد البيان و الدلالة، و هو شرط لا موجب، فإنه إن يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال

(١) أخرجه البخارى فى التفسير. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٨٧ الاهتداء، و هو هدى التوفيق و الإلهام. و هذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة، و بيان بالآيات المشهودة المرئية، و كلاهما أدلة و آيات على توحيد الله و أسمائه و صفاته و كماله، و صدق ما أخبرت به رسله عنه، و لهذا يدعو عبادة بآياته المتلوة إلى التفكير فى آياته المشهودة و يحضهم على التفكير فى هذه و هذه. و هذا البيان هو الذى بعثت به الرسل، و جعل إليهم و إلى العلماء بعدهم، و بعد ذلك يضل الله من يشاء، قال الله تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) [إبراهيم فالرسل تبيين، و الله هو الذى يضل من يشاء و يهدى من يشاء بعزته و حكمته. فصل المرتبة السابعة: البيان الخاص، و هو البيان المستلزم للهداية الخاصة. و هو بيان تقارنه العناية و التوفيق و الاجتباء، و قطع أسباب الخذلان و موادها عن القلب، فلا تتخلف عن الهداية البتة. قال تعالى فى هذه المرتبة: إِنَّ تَحْرِصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ [النحل: ٣٧] و قال: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [القصص: ٥٦] فالبيان الأول شرط، و هذا موجب. فصل المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع. قال الله تعالى: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) [الأنفال]، و قال تعالى: وَ مَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ (١٩) وَ لَمَّا الظُّلُمَاتُ وَ لَمَّا التُّورُ (٢٠) وَ لَمَّا الظُّلُ وَ لَمَّا الْحُرُورُ (٢١) وَ مَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَ لَمَّا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَ مَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) [فاطر: ١٩-٢٣]، و هذا الإسماع أخص من إسماع الحجة و التبليغ، فإن ذلك حاصل لهم، و به قامت الحجة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان، و هذا إسماع القلوب، فإن الكلام له لفظ و معنى، و له نسبة إلى الأذن و القلب و تعلق بهما. فسماع لفظه حظ الآذان، و سماع حقيقة معناه و مقصوده حظ القلب، فإنه - سبحانه - نفى عن الكفار سماع المقصود و المراد الذى هو حظ القلب، و أثبت لهم سماع الألفاظ الذى هو حظ الأذن فى قوله تعالى: مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُخَدَّتٍ إِلَّا آسَمِعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ [الأنبياء: ٣-٢]، و هذا السماع لا- يفيد السماع لإقيام الحجة عليه، أو تمكنه منها. و أما مقصود السماع و ثمرته و المطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب البدائع فى علوم القرآن، ص: ٨٨ و غفلته و إعراضه، بل يخرج السماع قائلا للحاضر معه: ما ذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم [محمد: ١٦]. و الفرق بين هذه المرتبة و مرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن و مرتبة الإفهام أعم. فهى أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه، و مرتبة الفهم أخص من وجه آخر، و هى أنها تتعلق بالمعنى المراد و لوازمه و تعلقاته و إشاراته، و مرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب و يترتب على هذا السماع سماع القبول. فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن، و سماع القلب، و سماع القبول و الإجابة. فصل المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام. قال تعالى: وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا [الشمس: ٧-٨]، و قال النبى لحصين بن منذر الخزاعى لما أسلم: «اللهم ألهمنى رشدى، و قنى شر

نفسى» (١). وقد جعل صاحب المنازل بين: «الإلهام» هو مقام المحدثين. قال: و هو فوق مقام الفراسة، لأن الفراسة ربما وقعت نادرة، و استصعبت على صاحبها وقتا، أو استعصت عليه، و الإلهام لا يكون إلا فى مقام عتيد. قلت: التحديث أخص من الإلهام، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم، فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذى حصل له به الإيمان. فأما التحديث: فالنبي (قال فيه: «إن يكن فى هذه الأمة أحد فعمر» (٢) يعنى من المحدثين. فالتحديث إلهام خاص، هو الوحي إلى غير الأنبياء إما من المكلفين، كقوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ [القصص: ٧]، و قوله: وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي [المائدة: ١١١] و إما من غير المكلفين، كقوله تعالى: وَ أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ [النحل: ٦٨]، فهذا كله وحي إلهام. فصل قال: و هو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: نبأ يقع وحيا قاطعا مقرونا بسماع. إذ مطلق النبأ الخبر الذى له شأن. (_____١) الترمذى (٣٤٨٣) فى الدعوات،

باب: (٧٠) و قال: «غريب». (٢) سبق تخريجه ص (٥) رقم (٢). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٨٩ فليس كل خبر نبأ، و هو نبأ خبر عن غيب معظم. و يريد بالوحي و الإلهام: الإعلام الذى يقطع من وصل إليه بموجبه، إما بواسطة سمع، أو هو الإعلام بلا واسطة. قلت: أما حصوله لغير الأنبياء، و هو الذى خص به موسى، إذ كان المخاطب هو الحق عزّ و جلّ. و أما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع، فهو من أحد وجوه ثلاثة لا- رابع لها. أعلاها: أن يخاطبه الملك خطابا جزئيا. فإن هذا يقع لغير الأنبياء، فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام، فلما اكتوى تركت خطابه، فلما ترك الكى عاد إليه خطاب الملك. و هو نوعان: أحدهما: خطاب يسمعه بأذنه، و هو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين. و الثانى: خطاب يلقى فى قلبه يخاطب به الملك و روحه، كما فى الحديث المشهور: «إن للملك لمة بقلب ابن آدم، و للشيطان لمة. فلمة الملك: إيعاد بالخير، و تصديق بالوعد، و لمة الشيطان: إيعاد بالشر و تكذيب بالوعد» (١)، ثم قرأ: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَ اللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [البقرة: ٢٦٨]. قيل فى تفسيرها: قروا قلوبهم، و بشروهم بالنصر. و قيل: احضروا معهم للقتال، و القولان حق، فإنهم حضروا معهم القتال، و ثبتوا قلوبهم. و من هذا الخطاب: واعظ الله عزّ و جلّ فى قلوب عباده المؤمنين، كما فى جامع الترمذى و مسند أحمد من حديث النّوّاس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «إن الله تعالى ضرب مثلا: صراطا مستقيما، و على كنفى الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، و على الأبواب ستور مرخاة، و داع يدعو على رأس الصراط، و داع يدعو فوق الصراط، فالصراط المستقيم: الإسلام، و السوران: حدود الله، و الأبواب المفتحة: محارم الله، فلا يقع أحد فى حد من حدود الله حتى يكشف الستر، و الداعى على رأس الصراط: كتاب الله، و الداعى فوق الصراط: واعظ الله فى قلب كل مؤمن» (٢)، فهذا الواعظ فى قلوب المؤمنين هو الإلهام (_____١) الترمذى (٢٩٨٨) فى تفسير

القرآن، باب: و من سورة البقرة، و قال: «حسن غريب» و ضعفه الألبانى، و رواه النسائى فى الكبرى (١١٠٥١) فى التفسير. (٢) الترمذى (٢٢٩٥) فى الأمثال، ما جاء فى مثل الله تعالى لعباده، و صححه الألبانى. - رواه الإمام أحمد (١٦٩٧٦) فى مسند الشاميين. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٩٠ الإلهى بواسطة الملائكة. و أما وقوعه بغير واسطة: فمما لم يتبين بعد، و الجزم فيه بنفى أو إثبات موقوف على الدليل، و الله أعلم. فصل النوع الثانى من الخطاب المسموع: خطاب الهواتف من الجان، و قد يكون المخاطب جنيا مؤمنا صالحا، و قد يكون شيطانا. و هذا أيضا نوعان: أحدهما: أن يخاطبه خطابا يسمعه بأذنه. و الثانى: أن يلقى فى قلبه عند ما يلم به. و منه وعده و تمنيته حين يعد الإنسى و يمينه، و يأمره و ينهاه، كما قال تعالى: يَعْذِبُهُمْ وَ يَمُنِّيهِمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) [النساء]، و قال: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ [البقرة: ٢٦٨]، و للقلب من هذا الخطاب نصيب، و للأذن أيضا منه نصيب، و العصمة منتفية إلا عن الرسل و مجموع الأمة. فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحمانى، أو ملكى؟ بأى برهان؟ أو بأى دليل؟ و الشيطان يقذف فى النفس وحيه. و يلقى فى السمع خطابه، فيقول المغرور المخدوع: «قيل لى، و خوطبت» صدقت، لكن الشأن فى القائل لك و المخاطب. و قد قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لغيلان بن سلمة- و هو من الصحابة- لما طلق نساءه، و قسم ماله بين بنيه: «إنى

لأظن الشيطان- فيما يسترق من السمع- سمع بموتك، فقدفه في نفسك» فمن يأمن القراء بعدك يا شهر؟. فصل النوع الثالث: خطاب حالي، تكون بدايته من النفس، وعوده إليها فيتوهمه من خارج، وإنما هو من نفسه، منها بدأ وإليها يعود. وهذا كثيرا ما يعرض للسالك، فيغلط فيه، ويعتقد أنه خطاب من الله، كلمه به منه إليه. و سبب غلظه: أن اللطيفة المدركة من الإنسان إذا صفت بالرياضة، و انقطعت علقها من الشواغل الكثيفة: صار الحكم لها بحكم استيلاء الروح و القلب على البدن، و مصير الحكم لها. فتتصرف عناية النفس و القلب إلى تجريد المعاني التي هي متصله بهما، و تشتد عناية الروح بها، و تصير في محل تلك العلائق و الشواغل، فتملأ القلب. فتتصرف تلك المعاني إلى المنطق و الخطاب القلبي الروحي بحكم العادة، و يتفق تجرد الروح، فتتشكل تلك البدائع في علوم القرآن، ص: ٩١ المعاني للقوة السامعة بشكل الأصوات المسموعة، و للقوة الباصرة بشكل الأشخاص المرئية، فيرى صورها، و يسمع الخطاب، و كله في نفسه ليس في الخارج منه شيء. و يحلف أنه رأى و سمع، و صدق. لكن رأى و سمع في الخارج، أو في نفسه؟ و يتفق ضعف التمييز، و قلته العلم، و استيلاء تلك المعاني على الروح، و تجردها عن الشواغل. فهذه الوجوه الثلاثة هي وجوه الخطاب، و من سمع نفسه غيرها فإنما هو غرور، و خدع و تليس، و هذا الموضوع مقطع القول، و هو من أجل المواضيع لمن حققه و فهمه، و الله الموفق للصواب. فصل قال: «الدرجة الثانية: إلهام يقع عيانا. و علامة صحته: أنه لا يخرق سترًا، و لا يجاوز حدا، و لا يخطئ أبدا». الفرق بين هذا و بين الإلهام في الدرجة الأولى: أن ذلك علم شبيه بالضرورة الذي لا يمكن دفعه عن القلب. و هذا معانيه و مكاشفته. فهو فوقه في الدرجة، و أتم منه ظهورًا، و نسبتبه إلى القلب نسبة المرئي إلى العين، و ذكر له ثلاث علامات: إحداهما: «أنه لا يخرق سترًا» أي صاحبه إذا كوشف بحال غير المستور عنه لا يخرق ستره و يكشفه، خيرا كان أو شرا، أو أنه لا يخرق ما ستره الله من نفسه عن الناس، بل يستر نفسه، و يستر من كوشف بحاله. الثانية: «أنه لا يجاوز حدا» يحتمل وجهين: احدهما: أنه لا يتجاوز به إلى ارتكاب المعاصي، و تجاوز حدود الله، مثل الكهان، و أصحاب الكشف الشيطاني. الثاني: أنه لا يقع على خلاف الحدود الشرعية، مثل أن يتحسس به على العورات التي نهى الله عن التجسس عليها و تتبعها، فإذا تتبعها وقع عليها بهذا الكشف، فهو شيطاني لا رحمانى. الثالثة: أنه لا يخطئ إلا نادرا، بخلاف الشيطان، فإن خطاه كثير، كما قال النبي صلى الله عليه و سلم لابن صائد: «ما ترى؟» قال: أرى صادقا و كاذبا. قال: «لبس عليك» «١»، فالكشف الشيطاني لا بد أن يكذب، و لا يستمر صدقه البتة.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٢٥ / ٨٧) في الفتن و أشراط الساعة، باب: «ذكر ابن صياد»، و الترمذى (٢٢٤٧) في الفتن، باب: ما جاء في ذكر ابن صائد. البدائع في علوم القرآن، ص: ٩٢ فصل قال «الدرجة الثالثة: إلهام يجلو عين التحقيق صرفا، و ينطلق عن عين الأزل محضا، و الإلهام غاية تمتع الإشارة إليها». عين التحقيق عنده هي الفناء في شهود الحقيقة، بحيث يضمحل كل ما سواها في ذلك الشهود، و تعود الرسوم أعداما محضة، فالإلهام في هذه الدرجة يجلو هذا العين للملمهم صرفا، بحيث لا يمازجها شيء من إدراك العقول و لا الحواس، فإن كان هناك إدراك عقلي أو حسي لم يتمحض جلاء عين الحقيقة. و الناطق عن هذا الكشف: أن كل الخلق عنه في حجاب. و عندهم: أن العلم و العقل و الحال حجب عليه، و أن خطاب الخلق إنما يكون على لسان الحجاب، و أنهم لا يفهمون لغة ما وراء الحجاب من المعنى المحجوب، فلذلك تمتع الإشارة إليه، و العبارة عنه. فإن الإشارة و العبارة إنما يتعلقان بالمحسوس و المعقول، و هذا أمر وراء الحس و العقل. و حاصل هذا الإلهام: أنه إلهام ترتفع معه الوسائط و تضمحل و تعدم، لكن في الشهود لا في الوجود. و أما الاتحادية، القائلون بوحدة الوجود: فإنهم يجعلون ذلك اضمحلالا و عدما في الوجود، و يجعلون صاحب المنازل منهم، و هو برىء منهم عقلا و دينا و حالا و معرفة، و الله أعلم. فصل المرتبة العاشرة من مراتب الهداية: الرؤيا الصادقة. و هي من أجزاء النبوة، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: «الرؤيا الصادقة جزء من ستة و أربعين جزءا من النبوة» «١». و قد قيل في سبب هذا التخصيص المذكور: إن أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصادقة، و ذلك نصف سنه، ثم انتقل إلى وحي اليقظة مدة ثلاث و عشرين سنه، من حين بعث إلى أن توفي - صلوات الله و سلامه عليه - فنسبة مدة الوحي في المنام من ذلك: جزء من ستة و أربعين جزءا. و هذا حسن، لو لا ما جاء في الرواية الأخرى

الصحة: «إنه _____ جزء _____ جزء _____ بعين جزء» (٢).

(١) البخارى (٦٩٨٨) فى التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة و أربعين جزءا من النبوة، و مسلم (٢٢٦٣/٦) فى أول الرؤيا، و أبو داود (٥٠١٨) فى الأدب، باب: ما جاء فى الرؤيا. (٢) رواه مسلم (٤٢٠٥) فى الرؤيا من حديث ابن عمر رضى الله عنهما و ابن ماجه (٣٨٨٧) و راجع: فتح البارى (٣٨٠/١٢) فيه فوائد قيمة. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٩٣ و قد قيل فى الجمع بينهما: إن ذلك بحسب حال الرائي، فإن رؤيا الصديقين من ستة و أربعين، و رؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين، و الله أعلم. و الرؤيا: مبدأ الوحي، و صدقها بحسب صدق الرائي. و أصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثا، و هى عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطئ، كما قال النبى صلى الله عليه و سلم (١). و ذلك لبعده العهد بالنبوة و آثارها، فيتعرض المؤمنون بالرؤيا. و أما فى زمن قوة نور النبوة: ففى ظهور نورها و قوته ما يغنى عن الرؤيا. و نظير هذه الكرامات التى ظهرت بعد عصر الصحابة، و لم تظهر عليهم، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، و احتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. و قد نص أحمد على هذا المعنى. و قال عبادة بن الصامت: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام»، و قد قال النبى صلى الله عليه و سلم: «لم يبق من النبوة إلا-المبشرات» قيل: و ما المبشرات، يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له» (٢). و إذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. و قد قال النبى صلى الله عليه و سلم لأصحابه لما أروا ليلة القدر فى العشر الأواخر قال: «أرى رؤياكم قد تواطأت فى العشر الأواخر، فمن كان منكم متحريها فليتحرها فى العشر الأواخر من رمضان» (٣). و الرؤيا كالكشف، منها رحمانى، و منها نفسانى، و منها شيطانى. و قال النبى صلى الله عليه و سلم: «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، و رؤيا تحزين من الشيطان، و رؤيا مما يحدث به الرجل نفسه فى اليقظة، فيراه فى المنام». و الذى هو من أسباب الهداية: هو الرؤيا التى من الله خاصة. و رؤيا الأنبياء وحي، فإنها معصومة من الشيطان، و هذا باتفاق الأمة، و لهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل - عليه السلام - بالرؤيا. و أما رؤيا غيرهم: فتعرض على الوحي الصريح، فإن وافقته و إلا لم يعمل بها.

(١) مسلم (٦/٢٢٦٣) فى أول الرؤيا، و أحمد (٢/٢٦٩)، و قال الشيخ أحمد شاکر (٧٦٣٠): «إسناده صحيح». (٢) مسلم (٢٠٧/٤٧٩) فى الصلاة، باب: النهى عن قراءة القرآن فى الركوع و السجود، و أبو داود (٨٧٦) فى الصلاة، باب: فى الدعاء فى الركوع و السجود. (٣) البخارى (١١٥٨) فى التهجد، باب: فضل من تعار من الليل فصلى، مسلم (٢٠٧/١١٦٥) فى الصيام، باب: فضل ليلة القدر، و الحث على طلبها. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٩٤ فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة، أو تواطأت؟ قلنا: متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي، بل لا تكون إلا مطابقة له، منبهة عليه، أو منبهة على اندراج قضية خاصة فى حكمه لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك. و من أراد أن تصدق رؤياه فليتحرك الصدق و أكل الحلال، و المحافظة على الأمر و النهى، و لينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة، و يذكر الله حتى تغلبه عيناه، فإن رؤياه لا تكاد تكذب البتة. و أصدق الرؤيا رؤيا الأسحار، فإنه وقت النزول الإلهى، و اقتراب الرحمة و المغفرة، و سكون الشياطين. و عكسه رؤيا العتمة، عند انتشار الشياطين و الأرواح الشيطانية. و قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام». و للرؤيا ملك موكل بها، يريها العبد فى أمثال تناسبه و تشاكله، فيضربها لكل أحد بحسبه. و قال مالك: «الرؤيا من الوحي وحي» و زجر عن تفسيرها بلا علم. و قال: «أ تتلاعب بوحي الله؟». و لذكر الرؤيا و أحكامها و تفاصيلها و طرق تأويلها مظان مخصوصة بها، يخرجها ذكرها عن المقصود. و الله أعلم (١). مسألة فإن قيل: فالله تعالى لا يكلم عباده؟ قيل: بلى، قد كلمهم، فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب منه إليه بلا واسطة، كموسى. و منهم من كلمه على لسان رسوله الملكى، و هم الأنبياء. و كلم الله سائر الناس على ألسنة رسوله، فأنزل عليهم كلامه الذى بلغته رسوله عنه (٢).

(١) مدارج السالكين (١/٣٧ - ٥٢).

قلم تعبير الرؤيا

إشارة

قلم تعبير الرؤيا قلم التعبير: هو كاتب وحى المنام، و تفسيره، و تعبيره، و ما أريد منه، و هو قلم شريف جليل مترجم للوحى المنامى، كاشف له، و هو من الأقلام التى تصلح للدنيا و الدين، و هو يعتمد طهارة صاحبه و نزاهته، و أمانته، و تحريه للصدق، و الطرائق الحميدة، و المناهج السديدة، مع علم راسخ، و صفاء باطن، و حس مؤيد بالنور الإلهى، و معرفة بأحوال الخلق و هياتهم و سيرهم و هو من أطف الأقلام، و أعمها جولانا، و أوسعها تصرفا، و أشدها تشبثا بسائر الموجودات: علويها و سفليها، و بالماضى و الحال و المستقبل، فتصرف هذا القلم فى المنام هو محل ولايته و كرسى مملكته و سلطانه «١». بيان إن من الرؤيا ما يكون من حديث النفس و صورة الاعتقاد، بل كثير من مرائى الناس إنما هى من مجرد صور اعتقادهم المطابق، و غير المطابق. فإن الرؤيا على ثلاثة أنواع: رؤيا من الله، و رؤيا من الشيطان، و رؤيا من حديث النفس.

و الرؤيا الصحيحة أقسام:

و الرؤيا الصحيحة أقسام: منها: إلهام يلقيه الله سبحانه فى قلب العبد، و هو كلام يكلم به الرب عبده فى المنام، كما قال عبادة بن الصامت و غيره. و منها: مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها. و منها: التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله و أقاربه و أصحابه و غيرهم. و منها: عروج روحه إلى الله سبحانه، و خطابها له. و منها: دخول روحه إلى الجنة، و مشاهدتها، و غير ذلك. فالتقاء أرواح الأحياء و الموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحة التى هى عند الناس من جنس المحسوسات «٢».

(١) التبيان (٢١٠ / ٢١١). (٢) الروح (٢١٠ - ٢١١). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٩٦ بيان إن العبد إذا نفذ فيها «١»، و كمل اطلاعه، جاء بالعجائب. و قد شاهدنا نحن و غيرنا من ذلك أمورا عجيبة، يحكم فيها المعبر بأحكام متلازمة صادقة، سريعة و بطيئة، و يقول سامعها: هذه علم غيب. و إنما هى معرفة ما غاب من غيره بأسباب انفرد هو بعلمها، و خفيت على غيره، و الشارح صلوات الله عليه حرم من تعاطى ذلك ما مضرت راحته على منفعتة، أو ما لا منفعة فيه، أو ما يخشى على صاحبه أن يجره إلى الشرك، و حرم بذل المال فى ذلك، و حرم أخذه به، صيانة للأمة عما يفسد عليها الإيمان أو يخدشه، بخلاف علم عبارة الرؤيا، فإنه حق لا باطل، لأن الرؤيا مستندة إلى الوحى المنامى، و هى جزء من أجزاء النبوة، و لهذا كلما كان الرائي أصدق، كانت رؤياه أصدق، و كلما كان المعبر أصدق و أبر و أعلم، كان تعبيره أصح، بخلاف الكاهن و المنجم و أضرابهما ممن لهم مدد من إخوانهم من الشياطين، فإن صناعتهم لا تصح. من صادق و لا بار، و لا متقيد بالشريعة بل هم أشبه بالسحرة الذين كلما كان أحدهم أكذب و أفجر، و أبعد عن الله و رسوله و دينه، كان السحر معه أقوى و أشد تأثيرا، بخلاف علم الشرع و الحق، فإن صاحبه كلما كان أبر و أصدق و أدين، كان علمه به و نفوذه فيه أقوى، و بالله التوفيق «٢».

(١) أى الرؤيا. (٢) زاد المعاد (٥/٥)

(٧٨٩). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٩٧

نزول القرآن الكريم

وقت نزول القرآن

وقت نزول القرآن لما كمل لرسول الله صلى الله عليه و سلم أربعون، أشرق عليه نور النبوة، و أكرمه الله تعالى برسالته، و بعثه إلى

خلقه، و اختصه بكرامته و جعله أمينه بينه و بين عبادته. و لا خلاف أن مبعثه صلى الله عليه و سلم كان يوم الاثنين، و اختلف في شهر المبعث، فقيل: لثمان مضي من ربيع الأول، سنة إحدى و أربعين من عام الفيل، هذا قول الأكثرين. و قيل: بل كان ذلك في رمضان، و احتج هؤلاء بقوله تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ [البقرة: ١٨٥]، قالوا: أول ما أكرم الله تعالى بنبوته، أنزل عليه القرآن، و على هذا ذهب جماعة، منهم يحيى الصرصري، حيث يقول في نونيته: و أتت عليه أربعون فأشرقت شمس النبوة منه في رمضان. و الأولون قالوا: إنما كان إنزال القرآن في رمضان جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة، ثم أنزل منجما بحسب الوقائع في ثلاث و عشرين سنة. و قالت طائفة: أنزل فيه القرآن، أي في شأنه و تعظيمه، و فرض صومه. و قيل: كان ابتداء المبعث في شهر رمضان «١».

أول ما نزل من القرآن

أول ما نزل من القرآن و أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه و سلم من أمر النبوة الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح «٢». قيل: و كان ذلك ستة أشهر، و مدة النبوة ثلاث و عشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة و أربعين جزءا من النبوة، و الله أعلم. ثم أكرم الله تعالى بالنبوة، فجاءه الملك، و هو بغار حراء، و كان يحب الخلوة فيه، فأول ما أنزل عليه: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) [العلق]. هَذَا قَوْلُ عَائِشَةَ وَ الْجَمَاهُورِ. (١) زاد المعاد (١ / ٧٧ ، ٧٨). (٢)

أخرجه البخارى (٣) في بدء الوحي، و مسلم (٢٥٢ / ١٦٠) في الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم. البدائع في علوم القرآن، ص: ٩٨ و قال جابر: أول ما أنزل عليه: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١). و الصحيح قول عائشة لوجه: أحدها: أن قوله: «ما أنا بقارئ» صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئا. الثاني: الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإنذار، فإنه إذا قرأ في نفسه، أنذر بما قرأه، فأمره بالقراءة أولا، ثم بالإنذار بما قرأه ثانيا. الثالث: أن حديث جابر، و قوله: أول ما أنزل من القرآن يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قول جابر، و عائشة أخبرت عن خبره صلى الله عليه و سلم عن نفسه بذلك. الرابع: أن حديث جابر الذي احتج به صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولا- قبل نزول يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)، فإنه قال: «فرغت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء، فرجعت إلى أهلى فقلت: زملونى دثرونى، فأنزل الله: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)، و قد أخبر أن الملك الذى جاءه بحراء أنزل عليه: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)، فدل حديث جابر على تأخر نزول يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)، و الحجّة في روايته، لا فى رأيه، و الله أعلم «١». فصل أول ما أوحى إليه ربه تبارك و تعالى: أن يقرأ باسم ربه الذى خلق، و ذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ فى نفسه، و لم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) فَمَنْ قَانِدِرْ (٢) [المدثر] فنبأه بقوله: (اقرأ)، و أرسله ب (يا أيها المدثر)، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقرين «٢». فصل و أقام ثلاث سنين يدعو إلى الله - سبحانه - مستخفيا، ثم نزل عليه: فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) [الحجر]، فأعلن صلى الله عليه و سلم بالدعوة، و جاهر قومه بالعداوة، و اشتد الأذى عليه، و على المسلمين، حتى أذن الله لهم بالهجرتين «٣». (٢) زاد المعاد (١ / ٨٤ ، ٨٥). (٢) زاد

المعاد (١ / ١٥٨). (٣) زاد المعاد (١ / ٨٦). البدائع في علوم القرآن، ص: ٩٩ مثال لأوقات النزول وقت نزول فرض الحج لما نزل فرض الحج، بادر رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الحج من غير تأخير، فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر، و أما قوله تعالى: وَ اتَّبِعُوا الْحِجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ [البقرة: ١٩٦]، فإنها و إن نزلت سنة ست عام الحديبية، فليس فيها فرضية الحج، و إنما فيها الأمر بإتمامه، و إتمام العمرة بعد الشروع فيهما، و ذلك لا يقتضى وجوب الابتداء. فإن قيل: فمن أين لكم تأخير نزول فرضه إلى التاسعة، أو العاشرة؟ قيل: لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، و فيه قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه و سلم، و صالحهم على أداء الجزية، و الجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع، و فيها نزل صدر (سورة آل عمران)، و ناظر أهل الكتاب، و دعاهم إلى التوحيد، و المباهلة. و يدل عليه أن أهل مكة وجدوا فى نفوسهم على ما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا [التوبة: ٢٨]، فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية. ونزول هذه الآيات و المناداة بها، إنما كان في سنة تسع، و بعث الصديق يؤذن بذلك في مكة في مواسم الحج، و أردفه بعلى رضى الله عنه، و هذا الذى ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف، و الله أعلم «١». وقت نزول سورة براءة [ثبت أنه صلى الله عليه و سلم لم يأخذ من أحد من الكفار جزية إلا بعد نزول سورة (براءة) في السنة الثامنة من الهجرة، فلما نزلت آية الجزية، أخذها من المجوس، و أخذها من أهل الكتاب، و أخذها من النصارى «٢».

(زاد المعاد (٣/ ١٥١). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٠٠)

أسباب النزول

أمثلة من أسباب النزول

من سورة البقرة

من سورة البقرة لما نزل التشديد في أكل مال اليتيم، عزلوا طعامهم عن طعام الأيتام و شرابهم من شرابهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه و سلم فأنزل الله تعالى: وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ [البقرة: ٢٢٠]، فخلطوا طعامهم بطعامهم و شرابهم بشاربهم «١».

من سورة آل عمران

من سورة آل عمران و كان مما نزل من القرآن في يوم أحد ستون آية من آل عمران، أولها: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ [آل عمران: ١٢١] إلى آخر القصة «٢».

من سورة النساء

من سورة النساء في «الصحيحين» عن عائشة رضى الله عنها في قوله: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا [النساء: ١٢٨]، أنزلت في المرأة تكون عند الرجل فتطول صحبتها، فيريد طلاقها، فتقول: لا تطلقني و أمسكني، و أنت في حل من النفقة على و القسم لى، فذلك قوله: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ [النساء: ١٢٨] «٣» «٤».

من سورة المائدة

من سورة المائدة قال ابن سعد: و في هذه الغزوة «٥» سقط عقد لعائشة، فاحتبسوا على طلبه، فنزلت آية التيمم «٦».

(انظر سنن النسائي (٣٦١٠) و أحمد (٢٨٤٥). (٢) زاد المعاد (٣/ ٢١١). (٣) البخارى (٥٢٠٦) فى النكاح، باب: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا [النساء: ١٢٨]، و مسلم (١٣/ ٣٠٢١) فى أول التفسير. (٤) زاد المعاد (٥/ ١٥٠). (٥) أى غزوة المريسيع، و انظر الطبقات لابن سعد (٢/ ٦٥). (٦) المائدة: (٦) و هو المشهور فى سبب نزول الآية و ذكره غير واحد من المحققين. البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٠١ و ذكر الطبرانى فى «معجمه» من حديث محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة قالت: و لما كان من أمر عقدي ما كان، قال أهل الإفك ما قالوا، فخرجت مع النبى صلى الله عليه و سلم فى غزاة أخرى، فسقط

أيضا عقدي حتى حبس التماسه الناس، و لقيت من أبي بكر ما شاء الله، و قال لي: يا نبيه، في كل سفر تكونين عناء و بلاء، و ليس مع الناس ماء، فأنزل الله الرخصة في التيمم «١». و هذا يدل على أن قصة العقد التي نزل التيمم لأجلها بعد هذه الغزوة، و هو الظاهر، و لكن فيها كانت قصة الإفك بسبب فقد العقد و التماسه، فالتبس على بعضهم إحدى القصتين بالأخرى، و نحن نشير إلى قصة الإفك. و ذلك أن عائشة رضی الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله صلى الله عليه و سلم معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها، و كانت تلك عاداته مع نسائه، فلما رجعوا من الغزوة، نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ثم رجعت، ففقدت عقدا لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضوع الذي فقدته فيه، فجاء نفر الذين كانوا يرحلون هودجها، فظنوها فيه، فحملوا الهودج، و لا ينكرون خفته، لأنها رضی الله عنها كانت فتية السن، لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها، و أيضا، فإن نفر لما تساعدوا على حمل الهودج، لم ينكروا خفته، و لو كان الذي حملة واحدا أو اثنين، لم يخف عليهما الحال، فرجعت عائشة إلى منازلهم، و قد أصابت العقد، فإذا ليس بها داع و لا مجيب، فقعدت في المنزل، و ظنت أنهم سيفقدونها، فيرجعون في طلبها، و الله غالب على أمره، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء، فغلبتها عيناها، فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل: إنا لله و إنا إليه راجعون، زوجة رسول الله صلى الله عليه و سلم و كان صفوان قد عرس في أخريات الجيش، لأنه كان كثير النوم- كما جاء عنه في الصحيح «صحيح أبي حاتم» و في «السنن»- فلما رآها عرفها، و كان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع، و أناخ راحلته، فقربها إليها، فركبتها، و ما كلمها كلمة واحدة، و لم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها حتى قدم بها، و قد نزل الجيش في نحر الظهر، فلما رأى ذلك الناس، تكلم كل منهم بشاكلته و ما يليق به، و وجد الخبيث- عدو الله- ابن أبي متنفسا، فتنفس من كرب النفاق و الحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك، و يستوشيه، و يشيعه، و يذيعه، و يجمعه، و يفرقه، و كان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة، أفاض أهل الإفك في الحديث، و رسول الله صلى الله عليه و سلم ساكت لا يتكلم، ثم استشار

(١) الطبراني في الكبير (٢٣ / ١٢١)

(١٥٩). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٠٢ أصحابه في فراقها، فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يفارقها، و يأخذ غيرها تلويحا لا تصریحا، و أشار عليه أسامة و غيره بإمسكها، و ألا- يلتفت إلى كلام الأعداء فعلى لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه، أشار بترك الشك و الريبة إلى اليقين لتخلص رسول الله صلى الله عليه و سلم من الهم و الغم الذي لحقه من كلام الناس، فأشار بحسم الداء، و أسامة لما علم حب رسول الله صلى الله عليه و سلم لها و لأبيها، و علم من عفتها و براءتها، و حصانتها و ديانتها ما هي فوق ذلك، و أعظم منه، و عرف من كرامة رسول الله صلى الله عليه و سلم على ربه و منزلته عنده، و دفاعه عنه، أنه لا يجعل ربه بيته و حبيبته من النساء، و بنت صديقه بالمنزلة التي أنزلها بها أرباب الإفك، و أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أكرم على ربه، و أعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغيا، و علم أن الصديقة حبيبة رسول الله صلى الله عليه و سلم أكرم على ربه أن يتلبها بالفاحشة، و هي تحت رسوله، و من قويت معرفته لله و معرفته لرسوله و قدره عند الله في قلبه، قال كما قال أبو أيوب و غيره من سادات الصحابة، لما سمعوا ذلك: سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ [النور: ١٦]. و تأمل ما في تسييحهم لله، و تنزيههم لهم في هذا المقام من المعرفة به، و تنزيهه عما لا يليق به، أن يجعل لرسوله و خليله و أكرم الخلق عليه امرأة خبيثة بغيا، فمن ظن به سبحانه هذا الظن، فقد ظن به ظن السوء، و عرف أهل المعرفة بالله و رسوله أن المرأة الخبيثة لا تليق إلا بمثلها، كما قال تعالى: الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ [النور: ٢٦]، فقطعوا قطعاً لا يشكون فيه أن هذا بهتان عظيم، و فريضة ظاهرة. فإن قيل: فما بال رسول الله صلى الله عليه و سلم توقف في أمرها، و سأل عنها، و بحث، و استشار، و هو أعرف بالله، و بمنزلته عنده، و بما يليق به، و هلا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم، كما قاله فضلاء الصحابة؟ فالجواب أن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سببها لها، و امتحاناً و ابتلاء لرسوله صلى الله عليه و سلم، و لجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقواما، و يضع بها آخرين، و يزيد الله الذين اهتدوا هدى و إيمانا، و لا يزيد الظالمين إلا خساراً، و اقتضى تمام الامتحان و الابتلاء أن حبس عن رسول الله صلى الله عليه و سلم الوحي شهرا في شأنها، لا- يوحى إليه في ذلك شيء لتتم

حكيمته التي قدرها وقضاها، وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق، وحسن الظن بالله ورسوله، وأهل بيته، والصدّيقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً، ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، وتم نعمه الله عليهم، ولتشتد الفاقة والرغبة منها البدائع في علوم القرآن، ص: ١٠٣ و من أبويها، والافتقار إلى الله والذلّ له، وحسن الظن به، والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتأس من حصول النصر والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا فت هذا المقام حقه، لما قال لها أبوها: قومي إليه، وقد أنزل الله عليه براءتها، فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي. أيضاً: فكان من حكمه حبس الوحي شهراً، أن القضية محصت وتمحضت، واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهل بيته، والصدّيق وأهله، وأصحابه والمؤمنون، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع والطفه، وسروا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على الفور بذلك، لفاتت هذه الحكم وأضعافها بل أضعاف أضعافها. وأيضاً: فإن الله - سبحانه - أحب أن يظهر منزله رسولاً وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه، والرد على أعدائه، ودمهم وأمر لا يكون فيه عمل، ولا ينسب إليه، بل يكون هو وحده المتولى لذلك، الناصر لرسوله وأهل بيته. وأيضاً، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو المقصود بالأذى، والتي رमित زوجته، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه، أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءتها، ولم يظن بها سوءاً قط، وحاشاه، وحاشاها، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: «من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» (١)، فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقه أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لكمال صبره وثباته، ورفقه، وحسن ظنه بربه، وثقته به، وفي مقام الصبر والثبات، وحسن الظن بالله حقه، حتى جاء الوحي بما أقر عينه، وسرّ قلبه، وعظم قدره، وظهر لأمتة احتفال ربه به، واعتناؤه بشأنه. ولما جاء الوحي ببراءتها، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن صرح بالإفك، فحدوا ثمانين ثمانين (١)

البخارى (٤١٤١) في المغازي، باب: حديث الإفك، ومسلم (٥٦ / ٢٧٧٠) في التوبة، باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٠٤ ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبي، مع أنه رأس أهل الإفك، فقيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة، فيكفيه ذلك عن الحد، وقيل: بل كان يستوشى الحديث ويجمعه ويحيكه، ويخرجه في قالب من لا ينسب إليه، وقيل: الحد لا يثبت إلا بالإقرار، أو بالبينة، وهو لم يقر بالقذف، ولا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه، ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين (١). قد ثبت في صحيح مسلم: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أناساً لطلب قلادة أضلتها عائشة، فحضرت الصلاة، فصلوا بغير وضوء، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له، فنزلت آية التيمم (٢) «٣».

من سورة المائدة

من سورة المائدة وعن طرق ابن شهاب قال: جاء يهودى إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، آية تقرأونها في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت ونعلم ذلك اليوم الذي نزلت فيه، لاتخذناه عيداً. قال: أي آية؟ قال: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا [المائدة: ٣]. فقال عمر بن الخطاب: إنني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه، نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة يوم الجمعة، ونحن واقفون معه بعرفة (٤) «٥».

من سورة الأنعام

من سورة الأنعام لما علم بعض علماء أهل الكتاب أن الإيمان بموسى لا يتم مع التكذيب بمحمد أبداً، كفر بالجميع، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، كما قال تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (٩١) [الأنعام، قال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف (١) زاد المعاد (٣/ ٢٥٨). (٢) مسلم

(١٠٩ / ٣٦٧) في الحيض، باب: التيمم. (٣) تهذيب السنن (١ / ٤٨) (٤) رواه البخارى (٤٣) في الإيمان، و مسلم (٥٣٣٢) في التفسير. (٥) زاد المعاد (١ / ٦٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٠٥ يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة أن الله يبغض الجبر السمين؟» (١) و كان حبرا سمينا، فغضب عدو الله و قال: و الله ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له أصحابه الذين معه: ويحك و لا موسى؟ فقال: و الله ما أنزل الله على بشر من شيء. فأنزل الله عز و جل: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ الْآيَةَ [النساء: ١٥٣] (٢). و جاء رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك و لا على موسى و لا على عيسى و لا على أحد شيئا، ما أنزل على بشر من شيء، فحل رسول الله صلى الله عليه وسلم حبوته، و جعل يقول: «و لا على أحد» (٣). و ذهب جماعة - منهم مجاهد - إلى أن الآية نزلت في مشركى قريش، فهم الذين جحدوا أصل الرسالة، و كذبوا بالرسول، و أما أهل الكتاب فلم يجحدوا نبوة موسى و عيسى. و هذا اختيار ابن جرير، قال: و هو أولى الأقاويل بالصواب، لأن ذلك في سياق الخبر عنهم، فهو أشبه من أن يكون خبرا عن اليهود، و لم يجر لهم ذكر يكون هذا به متصلا، مع ما فى الخبر عن من أخبر الله عنه من هذه الآية من إنكاره أن يكون الله أنزل على بشر شيئا من الكتب، و ليس ذلك مما تدين به اليهود، بل المعروف من دين اليهود الإقرار بصحف إبراهيم، و موسى، و زبور داود، و الخبر من أول السورة إلى هذا الموضع خبر عن المشركين من عبدة الأوثان، و قوله: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ موصول به غير مفصول عنه، قلت: و يقوى قوله أن السورة مكية، فهي خبر عن زنادقة العرب المنكرين لأصل النبوة (٤).

من سورة إبراهيم

من سورة إبراهيم قال تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) [إبراهيم قد ثبت فى الصحيح أنها نزلت فى عذاب القبر حين يسأله: «من ربك و ما دينك و من نبيك؟» (٥). و فى الصحيح عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن العبد إذا وضع فى قبره (١) ابن جرير (٧ / ١٧٧)، و الدر

المنثور (٣ / ٢٩). (٢) تفسير ابن جرير (٦ / ٦)، و الدر المنثور (٢ / ٢٣٨). (٣) ابن جرير (٧ / ١٧٧). (٤) هداية الحيارى (٢٧٦، ٢٧٧). (٥) البخارى (١٢٨٠) فى الجنائز، باب: ما جاء فى عذاب القبر، و مسلم (٥١١٧) فى الجنة و صفة نعيم أهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار. البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٠٦ و تولى عنه أصحابه، إنه لسمع قرع نعالهم» (١)، و ذكر الحديث. زاد البخارى: «و أما المنافق و الكافر فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت و لا تليت، و يضرب بمطرقة من حديد يصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين». هكذا فى البخارى: «و أما المنافق و الكافر» بالواو. و قد تقدم فى حديث أبى سعيد الخدرى الذى رواه ابن ماجه و الإمام أحمد: كنا فى جنازة مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا أيها الناس، إن هذه الأمة تبلى فى قبورها، فإذا الإنسان دفن و تولى عنه أصحابه جاء ملك و فى يده مطراق فأقعده فقال: ما تقول فى هذا الرجل؟

فإن كان مؤمنا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فيقول له: صدقت، فيفتح له باب إلى النار، فيقول: هذا منزلتك لو كفرت بربك، وأما الكافر والمنافق فيقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري، فيقال: لا دريت ولا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول له: هذا منزلتك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت فإن الله أبدلكك به هذا، ثم يفتح له باب إلى النار ثم يجمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله إلا الثقلين». فقال بعض الصحابة: يا رسول الله، ما أحد يقوم على رأسه ملك إلا هيل عند ذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يُبْتَتُّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَ يُضَلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) [إبراهيم «٢»]. وفي حديث البراء بن عازب الطويل: «و أما الكافر إذا كان في قبل من الآخرة و انقطع من الدنيا نزل عليه الملائكة من السماء معهم مسوح»، و ذكر الحديث إلى أن قال: «ثم تعاد روحه في جسده في قبره»، و ذكر الحديث، و في لفظ: «فإذا كان كافرا جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه». فذكر الحديث إلى قوله: «ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان: بأسوا أسمائه، فإذا انتهى به إلى سماء الدنيا أغلقت دونه، قال: يرمى به من السماء، ثم قرأ قوله تعالى: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ [الحجج]. قال: «فتعاد روحه في جسده و يأتيه ملكان شديدا الانتهار، فيجلسانه و ينتهرانه، فيقولان: من ربك؟ فيقول: هاه، لا أدري. فيقولان: لا دريت، فيقولان: ما هذا النبي الذي بعث فيكم؟ فيقول: سمعت الناس يقولون ذللك، لا أدري. فيقولان: لــــه: لا دريت»

(١) البخارى (١٢٥٢) فى الجنائز، و مسلم (٥١١٢) فى الجنة و صفة نعيم أهلها. (٢) رواه الإمام أحمد (٣٣٦٧)، و قال الهيثمى فى المجمع (٣ / ٥٠): «رجاله رجال الصحيح». البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٠٧ و ذلك قوله تعالى: وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ [إبراهيم و ذكر الحديث «٢»].

من سورة الأحزاب

من سورة الأحزاب و قد ثبت فى «صحيح مسلم»: عن عائشة رضى الله عنها قالت: جاءت سهيلة بنت سهيل إلى النبي صلى الله عليه و سلم، فقالت: يا رسول الله، إنى أرى فى وجه أبى حذيفة من دخول سالم و هو حليفه، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: «أرضعيه تحرمى عليه» (٣). و فى رواية له عنها قالت: جاءت سهيلة بنت سهيل إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقالت: يا رسول الله، إنى أرى فى وجه أبى حذيفة من دخول سالم و هو حليفه، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: «أرضعيه»، فقالت: و كيف أرضعه و هو رجل كبير؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قال: «قد علمت أنه كبير» (٤). و فى لفظ لمسلم: أن أم سلمة رضى الله عنها قالت لعائشة رضى الله عنها: إنه يدخل عليك الغلام الأيغ الذى ما أحب أن يدخل على، فقالت عائشة رضى الله عنها: أما لك فى رسول الله صلى الله عليه و سلم أسوء؟ إن امرأة أبى حذيفة قالت: يا رسول الله، إن سالما يدخل على و هو رجل، و فى نفس أبى حذيفة منه شىء، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أرضعيه حتى يدخل عليك» (٥). و ساقه أبو داود فى سننه «٦» سياقة تامه مطولة، فرواه من حديث الزهرى، عن عروة، عن عائشة و أم سلمة رضى الله عنهما أن أباه حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس كان تبنى سالما، و أنكحه ابنة أخيه هند بنت الوليد بن عتبة، و هو مولى لامرأة من الأنصار، كما تبنى رسول الله صلى الله عليه و سلم زيدا، و كان تبنى رجلا فى الجاهلية دعاه الناس إليه، و ورث ميراثه، حتى أنزل الله تعالى مع ذلك: اذْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ [الأحزاب: ٥]، فردوا إلى آبائهم فمن لم يعلم له أب كان مولى و أخا فى الدين، فجاءت سهيلة بنت سهيل بن عمرو القرشى، ثم العامرى - و هى امرأة أبى حذيفة - فقالت: يا رسول الله: إنا كنا نرى سالما ولدا، و كان يأوى معى و مع أبى حذيفة فى بيوت واحد، و يرانى فضلا،

(١) رواه أحمد (٢٨٧ / ٤)، و قال

الهيثمي في المجمع (٣/ ٥٣): «رجاله رجال الصحيح» و راجع أحكام الجنائز للألباني (١٥٦). (٢) الروح (٨٤، ٨٥). (٣) مسلم (١٤٥٣/ ٢٦-٢٩) في الرضاع، باب: رضاعة الكبير. (٤) السابق. (٥) مسلم (١٤٥٣/ ٢٩) في الرضاع، باب: رضاعة الكبير. (٦) أبو داود (٢٠٦١) في النكاح، باب: فيمن حرم به. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٠٨ وقد أنزل الله تعالى فيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرضعيه» فأرضعته خمس رضعات، فكان بمنزلة ولدها من الرضاعة، فبذلك كانت عائشة رضي الله عنها تأمر بنات إخوتها، و بنات أخواتها أن يرضعن من أحبت عائشة رضي الله عنها أن يراها و يدخل عليها، و إن كان كبيراً، خمس رضعات، ثم يدخل عليها، و أبت ذلك أم سلمة و سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخلن عليهن أحداً بتلك الرضاعة من الناس حتى يرضع في المهد، و قلن لعائشة: و الله ما ندرى لعلها كانت رخصة من النبي صلى الله عليه وسلم لسالم دون الناس «١».

المعوذتين

المعوذتين قال ابن عباس و عائشة: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدنا إليه اليهود، فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأس النبي صلى الله عليه وسلم و عدة أسنان من مشطه فأعطاهم اليهود، فسحروه فيها، و تولى ذلك لبيد بن الأعصم - رجل من اليهود - فنزلت هاتان السورتان فيه «٢». قال البغوي: و قيل كانت مغرزة بالدبر، فأنزل الله عز و جل هاتين السورتين، و هما أحد عشر آية: سورة الفلق خمس آيات و سورة الناس ست آيات، فكلما قرأ آية انحلت عقده، حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي صلى الله عليه وسلم كأنما أنشط من عقال. قال: و روى أنه لبث فيه ستة أشهر و اشتد عليه ثلاثة أيام، فنزلت المعوذتان «٣». ما نزل من القرآن بموافقة عمر رضي الله عنه قد كان أحدهم «٤» يرى الرأي، فينزل القرآن بموافقة، كما رأى عمر في أسرى بدر أن تضرب أعناقهم، فنزل القرآن بموافقة، و رأى أن تحجب نساء النبي صلى الله عليه وسلم فنزل القرآن بموافقة، و رأى أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلی، فنزل القرآن بموافقة، و قال لنساء النبي صلى الله عليه وسلم لما اجتمعن في الغيرة عليه: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ [التحریم: ٥]، فنزل القرآن بموافقة، و لما توفي عبد الله بن أبي قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه، فقام عمر، فأخذ بثوبه، فقال: يا رسول الله، إنه منافق. فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(١) مسلم (١٤٥٣/ ٢٩) في الرضاع، باب: رضاعة الكبير. (٢) ذكره ابن كثير مطولاً في تفسيره عن الثعلبي، و قال ابن كثير: هكذا أورده بلا إسناد، و فيه غرابة، و في بعض نكارة شديدة ... تفسير ابن كثير (٨/ ٥٣٨) لكن قصة سحره صلى الله عليه وسلم ثابتة صحيحة، في البخاري و غيره، كما سيأتي. (٣) بدائع الفوائد (٢/ ٢٢٤). (٤) أي الصحابة رضي الله عنهم. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٠٩ فأنزل الله عليه: وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَيْدِئًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ [التوبة: ٨٤] «١» «٢». و كذلك: من فراسته التي تفرد بها عن الأمة أنه قال: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلی؟ فنزلت: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى [البقرة: ١٢٥] و قال: يا رسول الله لو أمرت نساء ك أن يحتجن؟ فنزلت آية الحجاب. و اجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه في الغيرة، فقال لهن عمر: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ [التحریم: ٥] فنزلت كذلك. و شاوره رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أسارى يوم بدر، فأشار بقتلهم، و نزل القرآن بموافقة «٣» (١) البخاري (١٣٦٦) في

الجنائز، باب: ما يكره من الصلاة على المنافقين، و الترمذي (٣٠٩٧) في تفسير القرآن، باب: و من سورة التوبة، و النسائي (١٩٦٦) في الجنائز، باب: الصلاة على المنافقين. (٢) إعلام الموقعين (١/ ١٢٠). (٣) الطرق الحكمية (٣٣). البدائع في علوم القرآن، ص: ١١٠

المكي والمدني

مثال المكي

مثال المكي عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ [الأنعام: ١٢١] هذا الحديث له علل: إحداهما: أن عطاء بن السائب اضطرب فيه، فمرة وصله، و مرة أرسله. الثانية: أن عطاء بن السائب اختلط في آخر عمره، و اختلف في الاحتجاج بحديثه، وإنما أخرج له البخاري مقرونا بأبي بشر. الثالثة: أن فيه عمران بن عيينة، أخو سفيان بن عيينة، قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج بحديثه فإنه يأتي بالمناكير. الرابعة: أن سورة الأنعام مكية باتفاق، و مجيء اليهود إلى صلى الله عليه وسلم و مجادلتهم إياه إنما كان بعد قدومه المدينة، و أما مكة فإنما كان جداله مع المشركين عباد الأصنام «١». و منها: قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ وَ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) [يس]. قال أنس و ابن عباس في رواية عكرمة: نزلت في بني سلمة، أرادوا أن ينتقلوا إلى اقرب المسجد، و كانت منازلهم بعيدة فلما نزلت قالوا: بل نمكث مكاننا. و احتج أرباب هذا القول بما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري، قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ [يس: ١٢]. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم» «٢» و قد روى مسلم في (٢) _____ (١) تهذيب السنن (٤ / ١١٣). (٢)

صحيح الترمذي (٣٤٥٦) في تفسير القرآن، باب: و من سورة يس، و قال: «حسن غريب»، و ابن ماجه (٧٨٥). البدائع في علوم القرآن، ص: ١١١ صحيحه نحوه من حديث جابر و أنس «١». و في هذا القول نظر، فإن سورة يس مكية، و قصة بنى سلمة بالمدينة، إلا أن يقال: هذه الآية وحدها مدنية «٢»، و أحسن من هذا أن تكون ذكرت عند هذه القصة و دلت عليها و ذكروا بها عندها، إما من النبي صلى الله عليه وسلم و إما من جبريل فأطلق على ذلك النزول. و لعل هذا مراد من قال في نظائر ذلك: نزلت مرتين. و المقصود أن خطاهم إلى المسجد من آثارهم التي يكتبها الله لهم. قال عمر بن الخطاب: لو كان الله سبحانه تاركا لابن آدم شيئا لترك ما عفت عليه الرياح من أثر. و قال مسروق: ما خطا رجل خطوة إلا كتبت له حسنة أو سيئة «٣». و كذلك و أما قوله: إنه صلى الله عليه وسلم كتب إلى نجران: باسم إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب فلا- أظن ذلك محفوظا، و قد كتب إلى هرقل «بسم الله الرحمن الرحيم»، و هذه كانت سنته في كتبه إلى الملوك، و قد وقع في هذه الرواية هذا، و قال ذلك قبل أن ينزل عليه: طس تلك آيات القرآن و كتاب مُبِينٍ (١) [النمل]. و ذلك غلط على غلط، فإن هذه السورة مكية باتفاق «٤». فصل

مثال المدني

مثال المدني فلما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، و أيده الله بنصره بعباده المؤمنين الأنصار، و أُلِفَ بين قلوبهم بعد العداوة و الإحن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله و كتيبة الإسلام من الأسود و الأحمر، و بذلوا نفوسهم دونه، و قدموا محبته على محبة الآباء و الأبناء و الأزواج، و كان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب و اليهود عن قوس واحدة. و شمروا لهم عن ساق العداوة و المحاربة، و صاحوا بهم من كل جانب، و الله سبحانه يأمرهم بالصبر و العفو و الصفح حتى قويت الشوكة، و اشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال، و لم يفرضه عليهم، فقال تعالى: أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) [الحج]. _____ (١) مسلم (٢٨٠ / ٦٦٥) في المساجد و

مواضع الصلاة، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد. (٢) قال القرطبي: «هي مكية بإجماع، إلا أن فرقة قالت: إن قول الله تعالى: وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ مدنية، (٦ / ٥٤٤٥) و انظر بدائع التفسير (٣ / ٤٦٧). (٣) شفاء العليل (١ / ١١٦ / ١١٧). (٤) زاد المعاد (٣ / ٦٤٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ١١٢ و قد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، و السورة مكية «١». و هذا غلط لوجوه: أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، و لا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة. الثاني: أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، و إخراجهم من ديارهم، فإنه قال: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ [الحج: ٤٠]، و هؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: هَذَانِ خَضَمَانٍ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ [الحج: ١٩]. نزلت في الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين. الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، وَالْخَطَابُ بِذَلِكَ كُلَّهُ مَدْنِي، فأما الخطاب: يَا أَيُّهَا النَّاسُ فمشارك. الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد، وغيره. ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة، فأمر به في مكة بقوله: فَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ أَي: بِالْقُرْآنِ جِهَادًا كَبِيرًا [الفرقان: ٥٢]، فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، والجهاد الحجة، وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف. السادس: أن الحاكم روى في «مستدرکه» (٢) من حديث الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن، فأنزل الله عز وجل: أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا [الحج: ٣٩]، وهي أول آية نزلت في القتال. وإسناده على شرط «الصحيحين»، وسياق السورة يدل على أن فيها المكي والمدني، فإن قصة إلقاء الشيطان في أمية الرسول مكية، والله أعلم (٣).

(١) قال القرطبي رحمه الله تعالى: «وهي مكية سوى ثلاث آيات: من قوله تعالى: هَذَانِ خَضَمَانٍ إِلَى تَمَامِ ثَلَاثِ آيَاتِ [الحج ١٩-٢١]، قاله ابن عباس ومجاهد. وعن ابن عباس أيضا أنهن أربع آيات، إلى قوله تعالى: عَذَابَ الْحَرِيقِ [الحج ٢٤]. وقال ابن عباس والضحاك أيضا هي مدنية- وقاله قتادة أيضا- إلا أربع آيات: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَى قَوْلِهِ: عَذَابٌ يُعْطِيهِمْ فَهَنَ مَكِّيَاتٍ. وعد النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات وقال الجمهور السورة مختلطة، منها مكي ومنها مدني وهذا هو الأرجح؛ لأن الآيات تقتضي ذلك، لأن يَا أَيُّهَا النَّاسُ مكية، و يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مدنية. أ. ه. تفسير القرطبي (٥/٤٣٩٣). انظر كتابي: بدائع التفسير (٣/٢١١). (٢) الحاكم في المستدرک (٣/٧)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». (٣) زاد المعاد (١/٧٠، ٧١). البدائع في علوم القرآن، ص: ١١٣

جمع القرآن الكريم

كتاب الوحي

إشارة

كتاب الوحي كتاب الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وعامر بن فهيرة، وعمرو بن العاص، وأبي بن كعب، وعبد الله بن الأرقم، وثابت بن قيس بن شماس، وحظلة بن الربيع الأسيدي، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص، وقيل: إنه أول من كتب له، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت، وكان ألزمهم لهذا الشأن، وأخصهم به (١).

جمع عثمان رضي الله عنه الناس على مصحف واحد

تحريق عثمان رضي الله عنه المصاحف وجمع الناس على مصحف واحد من أهم السياسات الشرعية

تحريق عثمان رضي الله عنه المصاحف وجمع الناس على مصحف واحد من أهم السياسات الشرعية قال ابن عقيل في «الفنون»: جرى في جواز العمل في السلطنة بالسياسة الشرعية: أنه هو الحزم، ولا يخلو من القول به إمام. (١) زاد المعاد (١/١١٧). (٢) الطرق

الحكمية (٢١). (٣) إغاثة اللهفان (١/٣٦٨). البدائع في علوم القرآن، ص: ١١٤ فقال الشافعي: لا سياسة إلا ما وافق الشرع. فقال ابن

عقيل: السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، و أبعد عن الفساد، و إن لم يضعه الرسول صلى الله عليه و سلم و لا نزل به وحى. فإن أردت بقولك: «إلا ما وافق الشرع» أى: لم يخالف ما نطق به الشرع، فصحيح. و إن أردت: لا سياسة إلا ما نطق به الشرع، فغلط و تغليط للصحابة. فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل و التمثيل ما لا يجحده عالم بالسنن. و لو لم يكن إلا تحريق عثمان المصاحف، فإنه كان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحة الأمة «١».

(الطرق الحكمية (١٤، ١٥). البدائع)

في علوم القرآن، ص: ١١٥

القراءات

القراءة بالأحرف السبعة و غيرها

القراءة بالأحرف السبعة و غيرها لا يجب على الإنسان التقييد بقراءة السبعة المشهورين باتفاق، بل إذا وافقت القراءة رسم المصحف الإمام، و صحت في العربية، و صح سندها، جازت القراءة بها و صحت الصلاة بها اتفاقا، بل لو قرأ بقراءة تخرج عن مصحف عثمان و قد قرأ بها رسول الله صلى الله عليه و سلم و الصحابة بعده جازت القراءة بها و لم تبطل بها، على أصح الأقوال «١».

الجمع بين القراءات

الجمع بين القراءات و كذلك «٢»: أن صاحبها ينبغي أن يستحب للمصلى و التالى أن يجمع بين القراءات المتنوعة في التلاوة في الصلاة و خارجها، قالوا: و معلوم أن المسلمين متفقون على أنه لا يستحب ذلك للقارئ في الصلاة و لا خارجها إذا قرأ قراءة عبادة و تدبر، و إنما يفعل ذلك القراء أحيانا ليمتحن بذلك حفظ القارئ لأنواع القراءات، و إحاطته بها و استحضاره إياها، و التمكن من استحضارها عند طلبها، فذلك تمرين و تدريب لا تعبد مستحب لكل تال و قارئ، و مع هذا ففي ذلك للناس كلام ليس هذا موضعه، بل المشروع في حق التالى أن يقرأ بأى حرف شاء، و إن شاء أن يقرأ بهذا مرة و بهذا مرة جاز ذلك، و كذلك الداعي إذا قال: «ظلمت نفسى ظلما كثيرا» مرة، و مرة قال «كبيراً» جاز ذلك. و كذلك الداعي إذا صلى على النبي صلى الله عليه و سلم مرة بلفظ هذا الحديث، و مرة بلفظ الآخر، و كذلك إذا تشهد، فإن شاء تشهد بتشهد ابن مسعود، و إن شاء بتشهد ابن عباس، و إن شاء بتشهد ابن عمر، و إن شاء بتشهد عائشة رضى الله عنهم أجمعين. و كذلك في الاستفتاح إن شاء استفتح بحديث على، و إن شاء بحديث أبى هريرة، و إن شاء باستفتاح عمر، و إن شاء فعل هذا مرة و هذا مرة و هذا مرة، و كذلك إذا رفع رأسه من الركوع إن شاء قال: «اللهم ربنا لك الحمد»، و إن شاء قال: «ربنا لك الحمد»، و إن شاء قال «ربنا و لك الحمد». و لا يستحب لأحد أن يجمع بين ذلك كله.

(إعلام الموقعين (٣٢٧/٤). (٢) في

الرد على بعض المتأخرين من القائلين باستحباب الجمع بين القراءات. البدائع في علوم القرآن، ص: ١١٦ و قد احتج غير واحد من الأئمة، منهم الشافعى - رحمه الله تعالى - على جواز الأنواع المأثورة في الشهادات و نحوها بالحديث الذى رواه أصحاب الصحيح و السنن و غيرهم عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» «١». فجوز النبي صلى الله عليه و سلم القراءة بكل حرف من تلك الأحرف، و أخبر أنه شاف كاف، و معلوم أن المشروع في ذلك أن يقرأ بتلك الأحرف على سبيل البدل لا على سبيل الجمع، كما كان الصحابة يفعلون «٢».

النهى عن التنطع و الغلو في النطق بالحرف

النهي عن التنطع و الغلو في النطق بالحرف قال محمد بن قتيبة في «مشكل القرآن»: «و قد كان الناس يقرءون القرآن بلغاتهم، ثم خلف من بعدهم قوم من أهل الأمصار و أبناء العجم ليس لهم طبع اللغة، و لا علم التكلف، فهفوا في كثير من الحروف. و زلوا فأخلوا، و منهم رجل ستر الله عليه عند العوام بالصلاح، و قربه من القلوب بالدين. فلم أر فيمن تتبعت في وجوه قراءته أكثر تخليطاً و لا أشد اضطراباً منه، لأنه يستعمل في الحرف ما يدعه في نظيره. ثم يؤصل أصلاً و يخالف إلى غيره بغير علم، و يختار في كثير من الحروف ما لا مخرج له إلا على طلب الحيلة الضعيفة، هذا إلى نبذه في قراءته مذاهب العرب و أهل الحجاز، بإفراطه في المد و الهمز و الإشباع، و إفحاشه في الإضجاع و الإدغام، و حمله المتعلمين على المذهب الصعب، و تعسيره على الأمة ما يسره الله تعالى، و تضييقه ما فسحه. و من العجب أنه يقرئ الناس بهذه المذاهب، و يكره الصلاة بها. ففي أي موضع يستعمل هذه القراءة، إن كانت الصلاة لا تجوز بها؟ و كان ابن عيينة يرى لمن قرأ في صلاته بحرفه، أو ائتمَّ بإمام يقرأ بقراءته أن يعيد، و وافقه على ذلك كثير من خيار المسلمين، منهم بشر بن الحارث، و الإمام أحمد بن حنبل، و قد شغف بقراءته عوام الناس و سوقتهم. و ليس ذلك إلا لما يروونه من مشقتها و صعوبتها، و طول اختلاف المتعلم إلى المقرئ فيها. فإذا رأوه قد اختلف في أم الكتاب عشرًا، و في مائة آية شهرًا، و في السبع الطوال حولًا، و رأوه عند قراءته مائل الشدقين، دار الوريدين، راسح الجبين، توهموا أن ذلك لفضله في القراءة و حذقه بها» (٣) _____ (١) البخاري (٤٩٩٢) في فضائل

القرآن، باب: أنزل القرآن على سبعة أحرف، و مسلم (٢٧٠ / ٨١٨) في المسافرين، باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف، و بيان معناه. (٢) جلاء الأفهام (١٩٠-١٩١). (٣) تأويل مشكل القرآن (٥٩-٦٠) و أشار محققه إلى أنه يقصد حمزة بن حبيب الزيات، و قد قال الذهبي: الإمام القدوة شيخ القراءة، قال الثوري: ما قرأ حمزة حرفاً إلا بأثر، السير (٧ / ٩١). البدائع في علوم القرآن، ص: ١١٧ و ليس هكذا كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لا خيار السلف و لا التابعين، و لا القراء العالمين، بل كانت سهلة رسله. و قال الخلال في «الجامع» عن أبي عبد الله، أنه قال: لا أحب قراءة فلان، يعنى هذا الذي أشار إليه ابن قتيبة، و كرهها كراهية شديدة، و جعل يعجب من قراءته، و قال: لا يعجبني، فإن كان رجل يقبل منك فانه. و حكى عن ابن المبارك، عن الربيع بن أنس، أنه نهاه عنها. و قال الفضل بن زياد: إن رجلاً قال لأبي عبد الله: فما أترك من قراءته؟ قال: الإدغام و الكسر، ليس يعرف في لغة من لغات العرب. و سأله عبد الله - ابنه - عنها، فقال: أكره الكسر الشديد و الإضجاع. و قال في موضع آخر: إن لم يدغم و لم يضجع ذلك الإضجاع فلا بأس به. و سأله الحسن بن محمد بن الحارث: أتكره أن يتعلم الرجل تلك القراءة؟ قال: أكرهه أشد كراهة، إنما هي قراءة محدثة، و كرهها شديداً حتى غضب. و روى عنه ابن سنيده أنه سئل عنها، فقال: أكرهها أشد الكراهة. قيل له: ما تكره منها؟ قال: هي قراءة محدثة، ما قرأ بها أحد. و روى جعفر بن محمد عنه أنه سئل عنها فكراهها، و قال: كرهها ابن إدريس و أراه قال: و عبد الرحمن بن مهدي. و قال: ما أدري إيش هذه القراءة؟ ثم قال: و قراءتهم ليست تشبه كلام العرب. و قال عبد الرحمن بن مهدي: لو صليت خلف من يقرأ بها لأعدت الصلاة. و نص أحمد - رحمه الله - على أنه يعيد، و عنه رواية أخرى: أنه لا يعيد. و المقصود: أن الأئمة كرهوا التنطع و الغلو في النطق بالحرف. و من تأمل هدى رسول الله صلى الله تعالى عليه و آله و سلم، و إقراره أهل كل لسان على قراءتهم تبين له أن التنطع و التشدق و الوسوسة في إخراج الحروف ليس من سنته (١).

مثال للقراءات

مثال للقراءات قال الله تعالى: قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ _____ (١) إغاثة اللهفان (١ / ١٦٠ - ١٦٢).

البدائع في علوم القرآن، ص: ١١٨ و آباءهم حتى نسوا الذكر و كانوا قوماً بوراً (١٨) [الفرقان . و فيها قراءتان: أشهرهما: (تتخذ) بفتح النون و كسر الخاء، على البناء للفاعل، و هي قراءة السبعة. و الثانية: (تتخذ) بضم النون و فتح الخاء، على البناء للمفعول و هي قراءة

الحسن و يزيد بن القعقاع. و على كل واحدة من القراءتين إشكال (١): فأما قراءة الجمهور، فإن الله - سبحانه - إنما سألهم: هل أضلوا المشركين بأمرهم إياهم بعبادتهم، أم هم ضلوا السبيل باختيارهم و أهوائهم؟ و كيف يكون هذا الجواب مطابقا للسؤال؟ فإنه لم يسألهم: هل اتخذتم من دوني أولياء، حتى يقولوا: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء [الفرقان: ١٨]، و إنما سألهم: هل أمرتم عبادي هؤلاء بالشرك، أم هم أشركوا من قبل أنفسهم؟ فالجواب المطابق أن يقولوا: لم نأمرهم بالشرك، و إنما هم آثروه و ارتضوه، أو لم نأمرهم بعبادتنا، كما قال في الآية الأخرى عنها: تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ [القصص: ٤٣]. فلما رأى أصحاب القراءة الأخرى ذلك فروا إلى بناء الفعل للمفعول. و قالوا: الجواب يصح على ذلك، و يطابق. إذ المعنى: ليس يصلح لنا أن نعبد و نتخذ آلهة فكيف نأمرهم بما لا يصلح لنا، و لا يحسن منا؟ و لكن لزم هؤلاء من الإشكال أمر آخر، و هو قوله: مِنْ أَوْلِيَاءٍ، فإن زيادة «من» لا يحسن إلا مع قصد العموم، كما تقول: ما قام من رجل، و ما ضربت من رجل. فأما إذا كان النفي واردا على شيء مخصوص، فإنه لا يحسن زيادة «من» فيه، و هم إنما نفوا عن أنفسهم ما نسب إليهم من دعوى المشركين: أنهم أمرهم بالشرك، فنفوا عن أنفسهم ذلك بأنه لا تحسن منهم، و لا يليق بهم أن يعبدوا، فكيف ندعو عبادك إلى أن يعبدونا؟ فكان الجواب على هذا: أن تقرأ: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ أولياء من دونك، أو من دونك أولياء. - فأجاب أصحاب القراءة الأولى بوجه: أحدها: أن المعنى: ما كان ينبغي لنا أن نعبد غيرك، و نتخذ غيرك وليا و معبودا.

(٢) انظر المحتسب لابن جنى (٢/١)

١١٩ - ١٢٠) و بدائع التفسير (٣/ ٢٨٥). البدائع في علوم القرآن، ص: ١١٩ فكيف ندعو أحدا إلى عبادتنا؟ أى إذا كانوا لا يرون لأنفسهم عبادة غير الله تعالى، فكيف يدعون غيرهم إلى عبادتهم؟ و هذا جواب الفراء. و قال الجرجاني: هذا بالتدرج يصير جوابا للسؤال الظاهر، و هو أن من عبد شيئا فقد تولاه، و إذا تولاه العابد صار المعبود وليا للعابد. يدل على هذا قوله تعالى: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ [سبأ: ٤٠، ٤١] فدل على أن العابد يصير وليا للمعبود. و يصير المعنى كأنهم قالوا: ما كان ينبغي لنا أن نأمر غيرنا باتخاذنا أولياء، و أن نتخذ من دونك وليا يعبدنا، و هذا بسط لقول ابن عباس في هذه الآية. قال: يقولون: ما توليناهم، و لا أحبينا عبادتهم. قال: و يحتمل أن يكون قولهم: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء [الفرقان: ١٨] أن يريدوا معشر العبيد، لا أنفسهم. أى نحن و هم عبيدك، و لا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دونك أولياء. و لكنهم أضافوا ذلك إلى أنفسهم تواضعا منهم. كما يقول الرجل لمن أتى منكرا: ما كان ينبغي لى أن أفعل مثل هذا، أى أنت مثلى عبد محاسب، فإذا لم يحسن من مثلى أن يفعل هذا لم يحسن منك أيضا. قال: و لهذا الإشكال قرأ من قرأ: (تتخذ) بضم النون: و هذه القراءة أقرب فى التأويل. لكن قال الزجاج: هذه القراءة خطأ، لأنك تقول: ما اتخذت من أحد وليا، و لا يجوز: ما اتخذت أحدا من ولي، لأن «من» إنما دخلت لأنها تنفى واحدا من معنى جميع. تقول: ما من أحد قائما، و ما من رجل محبا لما يضره، و لا يجوز: ما رجل من محب لما يضره. قال: و لا وجه عندنا لهذا البتة، و لو جاز هذا لجاز فى: فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) [الحاقة]: ما أحد عنه من حاجزين. فلو لم تدخل «من» لصحت هذه القراءة. قال صاحب النظم: العلة فى سقوط هذه القراءة: أن «من» لا تدخل إلا على مفعول لا مفعول دونه، فإذا كان قبل المفعول مفعول سواه لم يحسن دخول «من»، كقوله: ما كان لله أن يتخذ من ولد سُبْحَانَهُ [مريم: ٣٥]، فقوله مِنْ وَوَلَدٍ لا مفعول دونه سواه، و لو قال: ما كان لله أن يتخذ أحدا من ولد، لم يحسن فيه دخول «من» لأن فعل الاتخاذ مشغول بأحد. و صحح آخرون هذه القراءة لفظا و معنى، و أجروها على قواعد العربية. قالوا: و قد قرأ بها من لا يرتاب فى فصاحته، فقرأ بها زيد بن ثابت، و أبو الدرداء، و أبو جعفر، و مجاهد، و نصر بن علقمة، و مكحول، و زيد بن على، و أبو رجاء، و الحسن، البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٢٠ و حفص بن حميد، و محمد بن على، على خلاف عن بعض هؤلاء. ذكر ذلك أبو الفتح ابن جنى. ثم وجهها بأن يكون «من أولياء» فى موضع الحال، أى ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء. و دخلت «من» زائدة لمكان النفى. كقولك: اتخذت زيدا وكيلا، فإذا نفيت قلت: ما اتخذت زيدا من وكيل. و كذلك أعطيته درهما. و ما أعطيته من

درهم. وهذا في المفعول فيه. قلت: يعني أن زيادتها مع الحال، كزيادتها مع المفعول. ونظير ذلك أن تقول: ما ينبغي لي أن أخدمك متاقلاً، فإذا أكدت، قلت: من متاقل. فإن قيل: فقد صحت القراءة لفظاً ومعنى، فأيهما أحسن؟ قلت: قراءة الجمهور أحسن وأبلغ في المعنى المقصود، والبراءة مما لا يليق بهم، فإنهم على قراءة الضم: يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء، وعلى قراءة الجمهور: يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم، ولا يحسن منهم أن يتخذوا ولياً من دونه، بل أنت وحدك ولينا ومعبودنا، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئاً، فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك؟ وهذا المعنى أجل من الأول وأكبر، فتأمل. والمقصود: أنه على القراءتين: فهذا الجواب من الملائكة، ومن عبد من دون الله من أوليائه، وأما كونه من الأصنام فليس بظاهر «١» (١) إغاثة اللفهان (٣)

٢٣٩-٢٤٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٢١

فواتح السور

بيان دلالات فواتح السور وعظم شأنها

بيان دلالات فواتح السور وعظم شأنها قوله تعالى: ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) [القلم: الصحيح أن «ن» و«ق» و«ص» من حروف الهجاء التي يفتح بها الرب- سبحانه- بعض السور، وهي أحادية، وثنائية، وثلاثية، ورباعية، وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسماً به، وإما مخبراً عنه، ما خلا سورتين: سورة «كهيعص»، و«ن». كقوله: الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ [البقرة]، الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ [آل عمران]، المص (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ [الأعراف] الرِّبِّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) [الرعد] وهكذا إلى آخره. ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالتها، إذ هي مباني كلامه وكتبه، التي تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده، وعرفهم بواسطتها نفسه، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، ووعيده، ووعده، وعرفهم بها الخير والشر، والحسن، والقيح، وأقدرهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم، بأسهل طريق، وقله كلفه ومشقة، وأوصله إلى المقصود، وأدله عليه. وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته. ولهذا عاب- سبحانه- على من عبد إلهاً لا يتكلم، وامتد على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم. فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه، فهي أولى أن يقسم بها من الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والنجوم، وغيرها من المخلوقات. فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته، وحكمته وكمالها، وكلامه، وصدق رسله. وقد جمع- سبحانه- بين الأمرين- أعنى القرآن ونطق اللسان- وجعل تعليمهما من تمام نعمته وامتثانه. كما قال: الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ [الرحمن: ١-٤]، فهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت، وبها البدائع في علوم القرآن، ص: ١٢٢ انتظمت مصالح العبادة في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل، والصحيح من الفاسد، وبها جمعت أشات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان، وكم جلب بها من نعمه، ودفع بها من نقمه؟ وأقيمت بها من حرمة، وهدى بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل؟ فأياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان. ولولا عجائب صنع الله، ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب. فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبه الرثه، فينضم في الحلقوم، ويفرش في أقصى الحلق، ووسطه، وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا، وفي الشفتين، والخيشوم. فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف، فألهم- سبحانه- الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها، ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض، فإذا هي كلام دال على

أنواع المعاني، أمرا ونهيا، وخيرا، واستخبارا ونفيا، وإثباتا، وإقرارا، وإنكارا، وتصديقا، وتكديبا، وإيجابا، واستجابا، وسؤالا، وجوارا، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمه ونثره، وجيزه، ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق «١». كل ذلك صنعته تبارك وتعالى، في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره، في مجاز قد هيئت، وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين، فهذا شأن الحرف المخلوق. وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات فشأنه أعلى، وأجل. وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتح بها السور، كما افتتحت بالأقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوجدانية، فهي دالة على كمال قدرته سبحانه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال رحمته، وعنايته بخلقه، ولطفه وإحسانه. وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدلت بها على المبدأ والمعاد، والخلق والأمر، والتوحيد والرسالة، فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأن القرآن كلام الله، تكلم به حقا وأنزله على رسوله وحيا، وبلغه كما أوحى إليه صدقا، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف، واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها، وباللغة التوفيق «٢».

(١) أصبح البحث في هذا الأمر علما

مستقلا من علوم اللغة تبحث في علم الأصوات الذي بدوره يبحث في الصوت الإنساني ومخارجه وبيان الصامت والمتحرك وأصوات العلة والبر والتقييم إلخ... ومن أشهر علمائه في عصرنا الدكتور رمضان عبد التواب رحمه الله تعالى، انظر له «المدخل إلى علم اللغة». (٢) التبيان (٢٠٣-٢٠٦). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٢٣

مقاصد السور والآيات فصل

إشارة

مقاصد السور والآيات فصل تأمل سر الم كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة، فالألف إذا بدئ بها أولا كانت همزة، وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف أعنى الحلق واللسان والشفيتين. وترتيب «١» في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية. فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجا فيصير منها تسعة وعشرون حرفا عليها مدار كلام الأمم الأولين والآخريين، مع تضمنها سرا عجيبا، وهو أن للألف البداية واللام التوسط، والميم النهاية، فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما، وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسطه فمشمتملة على تخليق العالم وغايته وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر، فتأمل ذلك من البقرة، وآل عمران، وتنزيل السجدة، وسورة الروم. وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن، فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها، وهي الجهر والشدة والاستعلاء والإطباق والإصمات «٢»، والسين مهموس رخو مستفل صفيري منفتح فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف. وتأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحروف فمن ذلك «ق»، والسورة مبنية على الكلمات القافية «٣» من ذكر القرآن، وذكر الخلق، وتكرير القول ومراجعته مرارا، والقرب من ابن آدم، وتلقى الملكين قول العبد،

(١) لعلها: وترتيبها (٢) ذكر المؤلف

أربعة، والإصمات خامس هذه الصفات، إلى جانب صفة القلقلة. (٣) التي تشتمل على حرف «القاف»، وما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله على الغالب، وليس مطردا والله أعلم. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٢٤ وذكر الرقيب، وذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقديم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرون والتنقيب في البلاد، وذكر القليل مرتين، وتشقق الأرض وإلقاء

الرواسى فيها و بسوق النخل و الرزق، و ذكر القوم و حقوق الوعيد، و لو لم يكن إلا تكرار القول و المحاوره، و سر آخر و هو: أن كل معانى هذه السوره مناسبة لما فى حرف القاف من الشده و الجهر و العلو و الانفتاح. و إذا أردت زيادة إيضاح هذا فتأمل ما اشتملت عليه سورة «ص» من الخصومات المتعدده فأولها خصومه الكفار مع النبي صلى الله عليه و سلم. و قولهم: أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاِحْدًا [ص: ٥] إلى آخر كلامهم، ثم اختصاص الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصاص الملائه الأعلى فى العلم، و هو الدرجات و الكفارات، ثم مخاصمه إبليس و اعتراضه على ربه فى أمره بالسجود لآدم، ثم خصامه ثانيا فى شأن بنيه و حلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم، فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السوره غير «ص» و بسوره «ق» غير حرفها، و هذه قطره من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، و الله أعلم «١».

بيان بعض ما تشير إليه دلالة الآيات و السور

دلالة السور و الآيات على الغزوات

إشارة

دلالة السور و الآيات على الغزوات سورة الأنفال (سورة بدر)، و فى أحد آخر سورة (آل عمران) من قوله: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) [آل عمران: ١٢١] إلى قبيل آخرها بيسير، و فى قصه الخندق، و قريظة، و خيبر صدر سورة (الأحزاب)، و سورة (الحشر) فى بنى النضير، و فى قصه الحديبيه و خيبر سورة (الفتح) و أشير فيها إلى الفتح، و ذكر الفتح صريحا فى سورة (النصر).

بعض الحكم و الغايات فى وقعة أحد من خلال سورة آل عمران و بيان مطابقتها أسباب النزول للواقع

بعض الحكم و الغايات فى وقعة أحد من خلال سورة آل عمران و بيان مطابقتها أسباب النزول للواقع قد أشار الله - سبحانه و تعالى - إلى أمهاتهم _____ و أصولهم _____ فى سورة «آل عمران»، حيث _____ (١) بدائع الفوائد (٣ / ١٧٣ - ١٧٤).

البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٢٥ افتتح القصه بقوله: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) [آل عمران: ١٢١]، إلى تمام ستين آيه. فمنها: تعريفهم سوء عاقبه المعصيه، و الفشل و التنازع، و أن الذى أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعِيدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُجْبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَدَقَكُمُ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) [آل عمران: ١٥٢]. فلما ذاقوا عاقبه معصيتهم للرسول، و تنازعهم، و فشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرا و يقظة، و تحرزا من أسباب الخذلان. و منها: أن حكمه الله و سنته فى رسله و أتباعهم، جرت بأن يدالوا مرة، و يدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبه، فإنهم لو انتصروا دائما، دخل معهم المؤمنون و غيرهم، و لم يتميز الصادق من غيره، و لو انتصر عليهم دائما، لم يحصل المقصود من البعثة، و الرساله، فاقتضت حكمه الله أن جمع لهم بين الأمرين، ليميز من يتبعهم و يطيعهم للحق و ما جاءوا به، ممن يتبعهم على الظهور و الغلبه خاصه. و منها: أن هذا من أعلام الرسل، كما قال هرقل لأبى سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: كيف الحرب بينكم و بينه؟ قال: سجال، يدال علينا المره، و ندال عليه الأخرى. قال: كذلك الرسل تبلى، ثم تكون لهم العاقبه «١». و منها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، و طار لهم الصيت، دخل معهم فى الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا، فاقتضت حكمه الله عز و جل أن سبب لعباده محنه ميزت بين المؤمن و المنافق، فأطاع المنافقون رءوسهم فى

هذه الغزوة، و تكلموا بما كانوا يكتمنونه، و ظهرت مخبآتهم، و عاد تلويحهم تصريحاً، و انقسم الناس إلى كافر، و مؤمن، و منافق، انقساماً ظاهراً، و عرف المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دورهم، و هم معهم لا- يفارقونهم، فاستعدوا لهم، و تحرزوا منهم. قال الله تعالى: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَ إِنَّ تُؤْمِنُوا

(أخرجه البخاري (٧) في بدء

الوحي، و مسلم (٧٤ / ١٧٧٣) في الجهاد، باب: كتاب النبي إلى هرقل. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٢٦ وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) [آل عمران: ١٧٩] أى: ما كان الله ليذركم على ما أتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميزهم بالمحنة يوم أحد، و ما كان الله ليطلعكم على الغيب الذي يميز به بين هؤلاء و هؤلاء، فإنهم متميزون في غيبه و علمه، و هو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة. و قوله: وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، سوى الرسل، فإنه يطلعهم على ما يشاء من غيبه، كما قال: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ [الجن: ٢٦-٢٧] فحظكم أنتم و سعادتم في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه رسله، فإن آمنتهم به و أيقنتهم، فلکم أعظم الأجر و الكرامة. و منها: استخراج عبودية أوليائه و حزه في السراء و الضراء، و فيما يحبون و ما يكرهون، و في حال ظفرهم و ظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة و العبودية فيما يحبون و ما يكرهون، فهم عبيده حقا، و ليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء و النعمة و العافية. و منها: أنه سبحانه لو نصرهم دائما، و أظفرهم بعدوهم في كل موطن، و جعل لهم التمكين و القهر لأعدائهم أبدا، لظغت نفوسهم، و شمخت و ارتفعت، فلو بسط لهم النصر و الظفر، لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يصلح عباده إلا السراء و الضراء، و الشدة و الرخاء، و القبض و البسط، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنه بهم خير بصير. و منها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة، و الكسرة، و الهزيمة، ذلوا و انكسروا، و خضعوا، فاستوجبوا منه العز و النصر، فإن خلعه النصر إنما تكون مع ولاية الذل و الانكسار، قال تعالى: وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ [آل عمران: ١٢٣] و قال: وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا [التوبة: ٢٥]، فهو- سبحانه- إذا أراد أن يعز عبده، و يجبره، و ينصره، كسره أولا، و يكون جبره له و نصره على مقدار ذله و انكساره. و منها: أنه- سبحانه- هيا لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، و لم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء و المحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه و امتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها. و منها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة و النصر و الغنى طغيانا و ركونا إلى العاجلة، و ذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله و الدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها البدائع في علوم القرآن، ص: ١٢٧ و مالكها و راحمها كرامته، قيض لها من الابتلاء و الامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء و المحنة بمنزلة الطبيب يسقى العليل الدواء الكريه، و يقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه و لو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه. و منها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، و الشهداء هم خواصه و المقربون من عباده، و ليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، و هو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء، تراق دماؤهم في محبته و مرضاته، و يؤثرون رضاه و محابه على نفوسهم، و لا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو. و منها: أن الله- سبحانه- إذا أراد أن يهلك أعداءه و يحققهم، قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم و محققهم، و من أعظمها- بعد كفرهم- بغيهم، و طغيانهم، و مبالغتهم في أذى أوليائه، و محاربتهم، و قتالهم، و التسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم و عيوبهم، و يزداد بذلك أعداؤه من أسباب محققهم و هلاكهم. و قد ذكر سبحانه و تعالى ذلك في قوله: وَ لَا تَهِنُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَ لِيَمْحُصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمَحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) [آل عمران]، فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم

قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم، وأن ينصرهم على أعدائهم، فقال: وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) [آل عمران]. لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق أو تجاوز لحد، وأن النصره منوطه بالطاعة، قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم، لم يقدرُوا هم على تثبيت أقدام أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا، فوفوا المقامين حقهما: مقام المقتضى، وهو التوحيد والالتجاء إليه - سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصره، وهو الذنوب والإسراف. ثم حذرهم - سبحانه - من طاعة عدوهم، وأخبر أنهم أن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة، وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أحد. ثم أخبر - سبحانه - أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمن والاه فهو المنصور. ثم أخبرهم أنه سيلقى في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهجوم عليهم، البدائع في علوم القرآن، ص: ١٣٠ والإقدام على حربهم، وأنه يؤيد حزبه بجند من الرعب ينتصرون به على أعدائهم، وذلك الرعب بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله، وعلى قدر الشرك يكون الرعب، فالمشرك بالله أشد شيء خوفا ورعبا، والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بالشرك، لهم الأمن والهدى والفلاح، والمشرك له الخوف والضلال والشقاء. ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده في نصرتهم على عدوهم، وهو الصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة، ولزوم أمر الرسول لاستمرت نصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفاقوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصره، فصرفهم عن عدوهم عقوبة وابتلاء وتعريفا لهم بسوء عواقب المعصية، وحسن عاقبة الطاعة. ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، وأنه ذو فضل على عباده المؤمنين. قيل للحسن: كيف يعفوا عنهم، وقد سلط عليهم أعداءهم حتى قتلوا منهم من قتلوا، ومثلوا بهم، ونالوا منهم ما نالوه؟ فقال: لو لا عفوه عنهم، لاستأصلهم، ولكن بعفوه عنهم دفع عنهم عدوهم بعد أن كانوا مجمعين على استئصالهم. - ثم ذكرهم بحالهم وقت الفرار مصعدين، أي: جادين في الهرب والذهاب في الأرض، أو صاعدين في الجبل لا يلوون على أحد من نبيهم ولا أصحابهم، والرسول يدعوهم في أصرهم: إني عباد الله، أنا رسول الله، فأثابهم بهذا الهرب والفرار، غميا بعد غم: غم الهزيمة والكسرة، وغم صرخة الشيطان فيهم بأن محمدا قد قتل. وقيل: جازاكم غما بما غمتمت رسوله بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوه، فالغم الذي حصل لكم جزاء على الغم الذي أوقعتموه بنبيه «١»، والقول الأول أظهر لوجوه: أحدها: أن قوله: لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ [آل عمران: ١٥٣] تنبيه على حكمه هذا الغم بعد الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح، فنسوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصل بالغم الذي يعقبه غم آخر. الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنه حصل لهم غم فوات الغنيمه، ثم أعقبه غم الهزيمة، ثم غم الجراح التي أصابتهم، ثم غم القتل، ثم غم سماعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، ثم غم (١) هذا

القول وإن كان من لطائف الفهم، إلا أنه بعيد، خاصة أن الصحابة رضی الله عنهم لم يكن منهم ذلك عن عمد، ولكن بدر منهم ما يبدر من البشر في مثل هذه الحالة، والله أعلم. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٣١ ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غمين اثنين خاصة، بل غما متتابعاً لتمام الابتلاء والامتحان. الثالث: أن قوله: «بغم»، من تمام الثواب، لا أنه سبب جزاء الثواب، والمعنى: أثابكم غميا متصلا بغم، جزاء على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيهم صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر، وفشلهم، وكل واحد من هذه الأمور يوجب غما يخصه، فترادفت عليهم الغموم كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها، ولو لا - أن تداركها بعفوه، لكان أمرا آخر، ومن لطفه بهم، وأرفته، ورحمته، أن هذه الأمور التي صدرت منهم، كانت من موجبات الطباع، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصره المستقره، فقيض لهم بلطفه أسبابا أخرجاها من القوة إلى الفعل، فترتب عليها آثارها المكروهه، فعملوا حينئذ أن التوبه منها والاحتراز من أمثالها،

و دفعها بأضدادها أمر متعين، لا يتم لهم الفلاح و النصره الدائمه المستقره إلا به، فكانوا أشد حذرا بعدها، و معرفه بالأبواب التي دخل عليهم منها: و ربما صحت الأجسام بالعلل (١) ثم إنه تداركهم - سبحانه - برحمته، و خفف عنهم ذلك الغم، و غيبه عنهم بالنعاس الذي أنزله عليهم أمنا منه و رحمه، و النعاس في الحرب علامه النصره و الأمن، كما أنزله عليهم يوم بدر، و أخبر أن من لم يصبه ذلك النعاس، فهو ممن أهنته نفسه لا دينه و لا نبيه و لا أصحابه، و أنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهليه، و قد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله، بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، و أن أمره يضمحل، و أنه يسلمه للقتل، و قد فسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه و قدره، و لا - حكمه له فيه، ففسر بإنكار الحكمه، و إنكار القدر، و إنكار أن يتم أمر رسوله و يظهره على الدين كله، و هذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون و المشركون به سبحانه و تعالى في «سورة الفتح»، حيث يقول: وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) [الفتح]، و إنما كان هذا ظن السوء، و ظن الجاهليه المنسوب إلى أهل الجهل، و ظن غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنی، و صفاته العلیا، و ذاته المبرأه من كل عيب و سوء، بخلاف ما يليق بحكمته و حمده، و تفرد به بالربوبية (١) عجز بيت للمتنبي، و صدره: لعل

عتبك محمود عواقبه البدائع في علوم القرآن، ص: ١٣٢ و الإلهيه، و ما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه، بكلمته التي سبقت لرسوله أنه ينصرهم و لا يخذلهم، و لجنده بأنهم هم الغالبون. فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، و لا يتم أمره، و لا يؤيده و يؤيد حربه، و يعليهم، و يظفرهم بأعدائه و يظهرهم عليهم، و أنه لا ينصر دينه و كتابه، و أنه يدلل الشرك على التوحيد، و الباطل على الحق إداله مستقره يضمحل معها التوحيد و الحق اضمحل لا يقوم بعده أبدا، فقد ظن بالله ظن السوء، و نسبه إلى خلاف ما يليق بكماله و جلاله، و صفاته و نعوته، فإن حمده و عزته، و حكمته و إلهيته تأبى ذلك، و تأبى أن يذل حربه و جنده، و أن تكون النصره المستقره، و الظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمن ظن به ذلك، فما عرفه، و لا عرف أسمائه و لا عرف صفاته و كماله، و كذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه و قدره، فما عرفه، و لا عرف ربوبيته و ملكه و عظمته، و كذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك و غيره لحكمه بالغه، و غايه محموده يستحق الحمد عليها، و أن ذلك إنما صدر عن مشيئه مجردة عن حكمه، و غايه مطلوبه هي أحب إليه من فوتها، و أن تلك الأسباب المكروهه المفضيه إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب، و إن كانت مكروهه له، فما قدرها سدى، و لا أنشأها عبثا، و لا خلقها باطلا، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار [ص: ٢٧]، و أكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم و فيما يفعله بغيرهم، و لا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله، و عرف أسماءه و صفاته، و عرف موجب حمده و حكمته، فمن قنط من رحمته، و آيس من روحه، فقد ظن به ظن السوء. و من جوز عليه أن يعذب أوليائه مع إحسانهم و إخلاصهم، و يسوى بينهم و بين أعدائه، فقد ظن بهم ظن السوء. و من ظن به أن يترك خلقه سدى، معطلين عن الأمر و النهي، و لا يرسل إليهم رسوله، و لا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملا كالأنعام، فقد ظن به ظن السوء. و من ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب و العقاب في دار يجازى المحسن فيها بإحسانه، و المسىء بإساءته، و يبين لخلق حقيقه ما اختلفوا فيه، و يظهر للعالمين كلهم صدقه و صدق رسوله، و أن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء. و من ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصا لوجهه الكريم على امتثال أمره، و يبطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يعاقبه بما لا صنع فيه، و لا اختيار له، و لا قدره، و لا البدائع في علوم القرآن، ص: ١٣٣ إراداه في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه، و رسله، و يجريها على أيديهم يضلون بها عبادته، و أنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين. و ينعم من استنفد عمره في عداوته و عداوة رسله و دينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، و كلا- الأمرين عنده في الحسن سواء، و لا يعرف امتناع أحدهما و وقوع الآخر إلا بخبر صادق و إلا فالعقل لا يقضى بقبح أحدهما و حسن الآخر، فقد ظن به ظن السوء. و من ظن به أنه أخبر عن نفسه و صفاته و أفعاله بما ظاهره باطل،

و تشبيهه، و تمثيله، و ترك الحق، لم يخبر به، و إنما رمز إليه رموزا بعيدة، و أشار إليه إشارات ملغزة لم يصرح به، و صرح دائما بالتشبيه و التمثيل و الباطل، و أراد من خلقه أن يتبعوا أذهانهم و قواهم و أفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، و تأويله على غير تأويله، و يتطلّبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهه، و التأويلات التي هي بالألغاز و الأحاجي أشبه منها بالكشف و البيان، و أحالهم في معرفة أسمائه و صفاته على عقولهم و آرائهم، لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم و لغتهم، مع قدرته على أى يصرح لهم بالحق الذى يبغي التصريح به، و يريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى و البيان، فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذى عبر به هو و سلفه، فقد ظن بقدرته العجز، و إن قال: إنه قادر و لم يبين، و عدل عن البيان، و عن التصريح بالحق إلى ما يوهم، بل يوقع في الباطل المحال، و الاعتقاد الفاسد، فقد ظن بحكمته و رحمته ظن السوء، و ظن أنه هو و سلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله و رسوله، و أن الهدى و الحق في كلامهم و عباراتهم، و أما كلام الله، فإنما يؤخذ من ظاهرة التشبيه، و التمثيل، و الضلال، و ظاهر كلام المتهوكين «١» الحيارى، هو الهدى و الحق، و هذا من أسوأ الظن بالله، فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، و من الظانين به غير الحق ظن الجاهلية. و من ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء و لا يقدر على إيجاده و تكوينه، فقد ظن به ظن السوء. و من ظن به أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، و لا يوصف حينئذ بالقدرة

(١) التهود: كالتهود، و هو إتيان

الأمر بلا رؤية. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٣٤ على الفعل، ثم صار قادرا عليه بعد أن لم يكن قادرا، فقد ظن به ظن السوء. و من ظن به أنه لا يسمع و لا يبصر، و لا يعلم الموجودات، و لا عدد السموات و الأرض، و لا النجوم، و لا بنى آدم و حركاتهم و أفعالهم، و لا يعلم شيئا من الموجودات فى الأعيان، فقد ظن به ظن السوء. و من ظن أنه لا يسمع له، و لا يبصر، و لا علم له، و لا إرادة، و لا كلام يقول به، و أنه لم يكلم أحدا من الخلق، و لا يتكلم أبدا، و لا قال و لا يقول، و لا له أمر و لا نهى يقوم به، فقد ظن به ظن السوء. و من ظن به أنه فوق سماواته على عرشه بائنا من خلقه، و أن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين، و إلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها، و أنه أسفل، كما أنه أعلى، فقد ظن به أقبح الظن و أسوأه. و من ظن به أنه يحب الكفر، و الفسوق، و العصيان، و يحب الفساد كما يحب الإيمان، و البر، و الطاعة، و الإصلاح، فقد ظن به ظن السوء. و من ظن به أنه لا يحب و لا يرضى، و لا يغضب و لا يسخط، و لا يوالى و لا يعادى، و لا يقرب من أحد من خلقه، و لا يقرب منه أحد، و أن ذوات الشياطين فى القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين و أوليائه المفلحين، فقد ظن به ظن السوء. و من ظن أنه يسوى بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيره واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات فى النار أبد الأبد بنلك الكبيرة، و يحبط بها جميع طاعاته و يخلده فى العذاب، كما يخلد من لا يؤمن به طرفه عين، و قد استنفد ساعات عمره فى مسأخته و معاداة رسله و دينه، فقد ظن به ظن السوء. و بالجملة فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه و وصفه به رسله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه، و وصفته به رسله، فقد ظن به ظن السوء. و من ظن أن له ولدا، أو شريكا أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه و بين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، و يتوسلون بهم إليه، و يجعلونهم وسائط بينهم و بينه، فيدعونهم، و يحبونهم كحبه، و يخافونهم و يرجعونهم، فقد ظن به أقبح الظن و أسوأه. و من ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته و مخالفته، كما يناله بطاعته و التقرب إليه، فقد ظن البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٣٥ به خلاف حكمته و خلاف موجب أسمائه و صفاته، و هو من ظن السوء. و من ظن به أنه إذا ترك لأجله شيئا لم يعوضه خيرا منه، أو من فعل لأجله شيئا لم يعطه أفضل منه، فقد ظن به ظن السوء. و من ظن به أنه يغضب على عبده، و يعاقبه و يحرمه بغير جرم، و لا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة، و محض الإرادة، فقد ظن به ظن السوء. و من ظن به أنه إذا صدقه فى الرغبة و الرهبة، و تضرع إليه، و سأله و استعان به، و توكل عليه أنه يخيبه و لا يعطيه ما سأله، فقد ظن به ظن السوء، و ظن به خلاف ما هو أهله. و من ظن به أنه يثيبه إذا عصاه بما

يشبهه به إذا أطاعه، و سأله ذلك في دعائه، فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته و حمده، و خلاف ما هو أهله و ما لا يفعله. و من ظن به أنه إذا أغضبته، و أسخطه، و أوضع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه وليا، و دعا من دونه ملكا أو بشرا حيا، أو ميتا يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، و يخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السوء، و ذلك زيادة في بعده من الله، و في عذابه. و من ظن به أنه يسلط على رسوله محمد صلى الله عليه و سلم أعداءه تسليطا مستقرا دائما في حياته و في مماته، و ابتلاء بهم لا يفارقونه، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيه، و ظلموا أهل بيته، و سلبوهم حقهم، و أذلّوهم، و كانت العزة و الغلبة و القهر لأعدائه و أعدائهم دائما من غير جرم و لا ذنب لأوليائه، و أهل الحق، و هو يرى قهرهم لهم، و غضبهم إياهم حقهم، و تبديلهم دين نبيهم، و هو يقدر على نصره أوليائه و حزبه و جنده، و لا ينصرهم و لا يديلمهم، بل يدل أعداءهم عليهم أبدا، أو أنه لا يقدر على ذلك، بل حصل هذا بغير قدرته و لا مشيئة، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته، تسلم أمته عليه و عليهم كل وقت كما تظنه الرافضة، فقد ظن به أقبح الظن و أسوأه، سواء قالوا: إنه قادر على أن ينصرهم، و يجعل لهم الدولة و الظفر، أو أنه غير قادر على ذلك، فهم قادحون في قدرته، أو في حكمته و حمده، و ذلك من ظن السوء به، و لا ريب أن الرب الذي فعل هذا بغض إلى من ظن به ذلك غير محمود عندهم، و كان الواجب أن يفعل خلاف ذلك، لكن رفوا هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه، و استجاروا من الرمضاء بالنار. فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، و لا له قدرة على دفعه و نصر أوليائه، فإنه لا يقدر على أفعال عبادته، و لا هي داخله تحت قدرته، فظنوا به ظن إخوانهم المجوس و الثنوية بريهم، و كل مبطل، و كافر، و مبتدع مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن، و أنه أولى بالنصر و الظفر، و العلو من خصومه، فأكثر الخلق، بل البدائع في علوم القرآن، ص: ١٣٦ كلهم - إلا من شاء الله - يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ و أنه يستحق فوق ما أعطاه الله، و لسان حاله يقول: ظلمني ربي، و منعني ما أستحقه، و نفسه تشهد عليه بذلك، و هو بلسانه ينكره و لا يتجاسر على التصريح به، و من فتش نفسه، و تغلغل في معرفه دفائنها و طواياها، رأى ذلك فيها كما نرى كمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، و لو فتشت من فتشته، لرأيت عنه تعبنا على القدر و ملامه له، و اقتراحا عليه خلاف ما جرى به، و أنه كان ينبغي أن يكون كذا و كذا، فمستقل و مستكثر، و فتش نفسك، هل أنت سالم من ذلك؟ فإن تنج منها تنج من ذى عظيمه و إلا فإني لا إخالك ناجيا فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضوع، و ليتب إلى الله تعالى و ليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، و ليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، و منبع كل شر، المركبة على الجهل و الظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، و أعدل العادلين، و أرحم الراحمين، الغنى الحميد، الذى له الغنى التام، و الحمد التام، و الحكمة التامة، و المنزه عن كل سوء فى ذاته و صفاته، و أفعاله و أسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، و صفاته كذلك، و أفعاله كذلك، كلها حكمه و مصلحه، و رحمة و عدل، و أسماءه كلها حسنى. و المقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله: وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ [آل عمران: ١٥٤]، ثم أخبر عن الكلام الذى صدر عن ظنهم الباطل، و هو قولهم: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ [آل عمران: ١٥٤]، و قولهم: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا [آل عمران: ١٥٤]، فليس مقصودهم بالكلمة الأولى و الثانية إثبات القدر، ورد الأمر كله إلى الله، و لو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى لما ذموا عليه، و لما حسن الرد عليه بقوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ [آل عمران: ١٥٤]، و لا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية، و لهذا قال غير واحد من المفسرين: إن ظنهم الباطل هاهنا: هو التكذيب بالقدر، و ظنهم أن الأمر لو كان إليهم، و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه تبعاً لهم يسمعون منهم، لما أصابهم القتل، و لكان النصر و الظفر لهم، فأكذبهم الله عز و جل فى هذا الظن الذى هو ظن الجاهلية، و هو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، فلا يكون إلا ما سبق به قضاءه و قدره، و جرى به علمه و كتابه السابق، و ما شاء الله كان و لا بد، شاء الناس أم أبوا، و ما لم يشأ لم يكن، شاءه الناس أم لم يشأوه، و ما جرى عليكم من الهزيمة و القتل، فبأمره الكونى الذى لا سبيل إلى البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٣٧ دفعه، سواء كان لكم من الأمر شيء، أو لم يكن لكم، و أنكم لو كنتم فى بيوتكم، و قد كتب القتل على بعضكم لخرج الذين كتب عليهم

القتل من يبوتهم إلى مضاجعهم ولا بد، سواء كان لهم من الأمر شيء، أو لم يكن، وهذا من أظهر الأشياء إبطالا لقول القدرية النفاة، الذين يجوزون أن يقع ما لا يشاؤه الله، وأن يشاء ما لا يقع. فصل ثم أخبر- سبحانه- عن حكمة أخرى في هذا التقدير، هي ابتلاء ما في صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيمان والنفاق، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانا وتسليما، والمنافق ومن في قلبه مرض، لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه. ثم ذكر حكمة أخرى: وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصه وتنقيته و تهذيبه، فإن القلوب يخالطها بغلبات الطباع، وميل النفوس، وحكم العادة، وتزين الشيطان، واستيلاء الغفلة ما يصاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة، لم تتخلص من هذه المخالطة، ولم تتمحص منه، فاقضت حكمة العزيز أن قيض لها من المحن والبلايا ما يكون كاللدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خيف عليه من الفساد والهلاك، فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، و قتل من قتل منهم، تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم و ظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا. ثم أخبر- سبحانه و تعالى- عن تولى من تولى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم و ذنوبهم، فاستزلهم الشيطان بتلك الأعمال حتى تولوا، فكانت أعمالهم جنبا عليهم، ازداد بها عدوهم قوة، فإن الأعمال جند للعدو و جند عليه، ولا بد للعدو كل وقت سرية من نفسه تهزمه، أو تنصره، فهو يمد عدوه فأعمال العدو تسوقه قسرا إلى مقتضاها من الخير والشر، والعدو لا يشعر، أو يشعر ويتعاضد، ففرار الإنسان من عدوه، وهو يطيقه إنما هو جند من عمله، بعثه له الشيطان واستزله به. ثم أخبر- سبحانه- أنه عفا عنهم، لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شك، وإنما كان عارضا، عفا الله عنه، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها، ثم كرر عليهم سبحانه: أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم، وبسبب أعمالهم، فقال: **أَوْ لِمَا أَصَابَكُمْ مِصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)** [آل عمران]. و ذكر هذا بعينه فيما هو أعم من ذلك من السور المكية، فقال: **البدائع في علوم القرآن، ص: ١٣٨** **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠)** [الشورى]، وقال: **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ [النساء: ٧٩]**، فالحسنة والسيئة هاهنا: النعمة والمصيبة، فالنعمة من الله من بها عليك، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك، فالأول فضله، والثاني عدله، والعدو يتقلب بين فضله و عدله، جار عليه فضله، ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه و ختم الآية الأولى بقوله: **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** بعد قوله: **قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** إعلاما لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادل قادر، وفي ذلك إثبات القدر والسبب، فذكر السبب، وأضافه إلى نفوسهم، و ذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفي الجبر، والثاني ينفي القول بإبطال القدر، فهو يشاكل قوله: **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨)** **وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)** [التكوير]. وفي ذكر قدرته هاهنا نكتة لطيفة، وهي أن هذا الأمر بيده و تحت قدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصرف عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، ولا- تتكلموا على سواه، وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله: **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ لِلَّهِ [آل عمران: ١٦٦]** وهو الإذن الكوني القدرى، لا الشرعى الدينى كقوله فى السحر: **وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [البقرة: ١٠٢]**. ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان و رؤيه يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تمييزا ظاهرا، و كان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما فى نفوسهم، فسمعه المؤمنون، و سمعوا رد الله عليهم و جوابه لهم، و عرفوا مؤدى النفاق و ما يؤول إليه، و كيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا و الآخرة، فيعود عليه بفساد الدنيا و الآخرة، فله كم من حكمة فى ضمن هذه القصة بالغه، و نعمة على المؤمنين سابغه، و كم فيها من تحذير و تخويف و إرشاد و تنبيه، و تعريف بأسباب الخير و الشر و ما لهما و عاقبتهما. ثم عزى نبيه و أوليائه عن قتل منهم فى سبيله أحسن تعزية، و ألطفها و أدهاها إلى الرضى بما قضاه لها، فقال: **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)** **فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)** [آل عمران]، فجمع لهم الحياة الدائمة منزلة القرب منه، و أنهم عنده، و جريان الرزق المستمر عليهم، و فرحهم بما آتاهم من فضله، و هو فوق الرضا، بل هو كمال الرضا، و

استبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته. وذكرهم سبحانه في أثناء هذه المحنة بما هو من أعظم مننه ونعمه عليهم، التي إن قابلوا بها كل محنة تناولهم البدائع في علوم القرآن، ص: ١٣٩ و بليّة، تلاشت في جنب هذه المنّة والنعمّة، ولم يبق لها أثر البتّة، و هي: منته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم إليهم، يتلو عليهم آياته، و يزيكهم، و يعلمهم الكتاب و الحكمة، و ينقذهم من الضلال الذي كانوا فيه قبل إرساله إلى الهدى، و من الشقاء إلى الفلاح، و من الظلمة إلى النور، و من الجهل إلى العلم. فكل بليّة و محنة تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له أمر يسير جدا في جنب الخير الكثير، كما ينال الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم به من الخير، فأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم، ليحذروا، و أنها بقضائه و قدره ليؤخّدوا و يتكلوا، و لا يخافوا غيره، و أخبرهم بما لهم فيها من الحكم، لئلا يتهموه في قضائه و قدره، و ليتعرف إليهم بأنواع أسمائه و صفاته، و سلّاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدرا، و أعظم خطرا مما فاتهم من النصر و الغنيمّة، و عزّاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه و كرامته، لينافسوهم فيه، و لا يحزنوا عليهم، فله الحمد كما هو أهله، و كما ينبغي لكرم وجهه، و عزّ جلاله «١». باب منه: قال الله تعالى: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفال: ١٧]. قلت: اعتقد جماعة أن المراد بالآية: سلب فعل الرسول صلى الله عليه و سلم عنه، و إضافته إلى الرب تعالى. و جعلوا ذلك أصلا في الجبر، و إبطال نسبة الأفعال إلى العباد. و تحقيق نسبتها إلى الرب وحده، و هذا غلط منهم في فهم القرآن. فلو صح ذلك لوجب طرده في جميع الأعمال. فيقال: ما صليت إذ صليت، و ما صمت إذ صمت، و ما ضحيت إذ ضحيت، و لا فعلت كل فعل إذ فعلته، و لكن الله فعل ذلك. فإن طردوا ذلك لزمهم في جميع أفعال العباد- طاعتهم و معاصيهم- إذ لا فرق. فإن خصوه بالرسول صلى الله عليه و سلم وحده و أفعاله جميعا، أو رمية وحده: تناقضوا، فهؤلاء لم يوفقوا لفهم ما أريد بالآية. و بعد، فهذه الآية نزلت «٢» في شأن رمية صلى الله عليه و سلم المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء، فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته، و معلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ، فكان منه صلى الله عليه و سلم مبدأ الرمي، و هو الحذف، و من الله سبحانه و تعالى نهايته، و هو الإيصال، فأضاف (١) زاد المعاد

(٢) ذكر ذلك ابن إسحاق (٢/ ٤٦) و الطبراني في الكبير (٣/ ٢٠٣) من حديث حكيم ابن حزام رضى الله عنه، و قال الهيثمي «إسناده حسن» (٦/ ٨٤) و رواه في الكبير أيضا (١١/ ٢٨٥) و قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٤٠ إليه رمى الحذف الذي هو مبدؤه، و نفى عنه رمى الإيصال الذي هو نهايته. و نظير هذا: قوله في الآية نفسها: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ [الأنفال: ١٧]، ثم قال: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى فأخبره: هو وحده هو الذي تفرد بقتلهم، و لم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرد بإيصال الحصى إلى أعينهم، و لم يكن ذلك من رسوله. و لكن وجه الإشارة بالآية: أنه- سبحانه- أقام أسبابا ظاهرة، كدفع المشركين، و تولى دفعهم، و إهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس، فكان ما حصل من الهزيمة و القتل و النصر مضافا إليه و به، و هو خير الناصرين. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٤١

الأمثال في القرآن الكريم

قيمة المثل في القرآن

قيمة المثل في القرآن قد أخبر الله- سبحانه- أنه ضرب الأمثال لعباده في غير موضع من كتابه، و أمر باستماع أمثاله، و دعا عباده إلى تعقلها و التفكير فيها، و الاعتبار بها، و هذا هو المقصود بها «١».

حكمة ضرب المثل في القرآن

حكمة ضرب المثل في القرآن ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور التذكير، و الوعظ، و الحث، و الزجر، و الاعتبار، و التقرير، و

تقريب المراد للعقل، و تصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبه للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس و قد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح و الذم، و على الثواب و العقاب، و على تفخيم الأمر، أو تحقيره، و على تحقيق أمر و إبطال أمر، و الله أعلم «٢».

أصول و قواعد من أمثال القرآن الكريم لعلم التعبير

أصول و قواعد من أمثال القرآن الكريم لعلم التعبير أمثال القرآن كلها أصول و قواعد لعلم التعبير لمن حسن الاستدلال بها، و كذلك من فهم القرآن فإنه يعبر به الرؤيا أحسن تعبير، و أصول التعبير الصحيحة إنما أخذت من مشكاة القرآن، فالسفينه: تعبر بالنجاه لقوله تعالى: فَانجِنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ [العنكبوت: ١٥] و تعبر بالتجارة، و الخشب بالمنافقين، و الحجاره بقساوة القلب، و البيض بالنساء و اللباس أيضا بهن، و شرب الماء بالفتنة، و أكل لحم الرجل بغيبته، و المفاتيح بالكسب و الخزائن و الأموال. و الفتح يعبر مرة بالدعاء و مرة بالنصر. و كما لملك يرى في محله لا- عادة له بدخولها يعبر بإذلال أهلها و فسادها، و الحبل يعبر بالعهد و الحق و العضد، و النعاس قد يعبر بالأمن (١) .

الموقعين (١/ ٢٥٢). (٢) بدائع الفوائد (٩/ ٤). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٤٢ و البقل و البصل و الثوم و العدس، يعبر لمن أخذه بأنه قد استبدل شيئا أدنى بما هو خير منه من مال أو رزق أو علم أو زوجة أو دار. و المرض يعبر بالنفاق و الشك و شهوة الزنا، و الطفل الرضيع يعبر بالعدو لقوله تعالى: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا [القصص: ٨]. و النكاح بالبناء. و الرماد بالعمل الباطل لقوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بَرِّئَهُمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ [إبراهيم: ١٨]. و النور يعبر بالهدى، و الظلمة بالضلال، و من هاهنا قال عمر بن الخطاب لحابس ابن سعد الطائي و قد ولاه القضاء، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنى رأيت الشمس و القمر يقتتلان، و النجوم بينهما نصفين، فقال عمر: مع أيهما كنت؟ قال: مع القمر على الشمس، قال: كنت مع الآية الممحوة، اذهب فلست تعمل لى عملا، و لا تقتل إلا فى لبس من الأمر، فقتل يوم صفين. و قيل لعابر: رأيت الشمس و القمر دخلا فى جوفى، فقال تموت، و احتج بقوله تعالى: فَإِذَا بَرَقَ الْبَصُرُ (٧) وَ حَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) [القيامة]. و قال رجل لابن سيرين: رأيت معى أربعة أرغفة خبز، فطلعت الشمس، فقال: تموت إلى أربعة أيام، ثم قرأ قوله تعالى: ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) [الفرقان]، و أخذ هذا التأويل أنه حمل رزق أربعة أيام، و قال له آخر: رأيت كيسى مملوءا أرضه فقال: أنت ميت، ثم قرأ: فَلَمَّا قَضَىٰ نَبَا عَلِيهِ الْمَوْتِ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ [سبأ: ١٤]. و النخلة: تدل على الرجل المسلم و على الكلمة الطيبة، و الحنظلة: تدل على ضد ذلك. و الصنم: يدل على العبد السوء الذى لا ينفع. و البستان: يدل على العمل، و احتراقه: يدل على حبوته لما تقدم فى أمثال القرآن. و من رأى أنه ينقض غزلا أو ثوبا ليعيده مرة ثانية، فإنه ينقض عهدا، و ينكته. و المشى سويا فى طريق مستقيم، يدل على استقامته على الصراط المستقيم. و الأخذ فى بنيات الطريق يدل على عدوله عنه إلى ما خالفه. و إذا عرضت له طريقان ذات يمين و ذات شمال، فسلك أحدهما، فإنه من أهلها، و ظهور عورة الإنسان له ذنب يرتكبه و يفتضح به، و هروبه و فراره من شيء نجاه و ظفر. و غرقه فى الماء: فتنه فى دينه و دنياه. و تعلقه بحبل بين السماء و الأرض: تمسكه بكتاب البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٤٣ الله و عهده و اعتصامه بحبله، فإن انقطع به فارق العصمة، إلا أن يكون ولي أمرا، فإنه قد يقتل أو يموت «١».

فصل تدبر الأمثال التى وقعت فى القرآن «٢»

فصل تدبر الأمثال التي وقعت في القرآن «٢» إن ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون: تشبيه شيء بشيء في حكمه، و تقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، و اعتبار أحدهما بالآخر كقوله تعالى في حق المنافقين: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَزْجَعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ [البقرة: ١٧-١٩]، إلى قوله: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة: ٢٠]، ف ضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلا ناريا، و مثلا ماثيا لما في النار و الماء من الإضاءة و الإشراق و الحياة، فإن النار مادة النور، و الماء مادة الحياة، و قد جعل الله- سبحانه- الوحي الذي أنزله من السماء متضمنا لحياة القلوب و استنارتها، و لهذا سماه: روحا و نورا و جعل قابليه أحياء في النور، و من لم يرفع به رأسا أمواتا في الظلمات. و أخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي، و أنهم بمنزلته من استوقد نارا لتضيء له و ينتفع بها، و هذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به و انتفعوا به و آمنوا به، و خالطوا المسلمين، و لكن لما لم يكن لصحبته مادة من قلوبهم من نور الإسلام طفئ عنهم، و ذهب الله بنورهم و لم يقل بنارهم، فإن النار فيها الإضاءة و الإحراق، و تركهم في ظلمات لا يبصرون فهذا حال من أبصر، ثم عمى، و عرف ثم أنكر، و دخل في الإسلام، ثم فارقه بقلبه، فهو لا يرجع له. و لهذا قال: فَهُمْ لَا يَزْجَعُونَ [البقرة: ١٨]، ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي فشبههم بأصحاب صيب، و هو المطر الذي يصب، أي: ينزل من السماء فيه ظلمات و رعد و برق، فلضعف بصائرهم و عقولهم، اشتدت عليهم زواجر القرآن و وعيده و تهديده و أوامره و نواهي و خطابه الذي يشبه الصواعق، فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة و رعد و برق (_____، ١)

إعلام الموقعين (١/ ٢٥٠-٢٥٢). (٢) رتب هذه الأمثلة المباركة وفق ترتيب سور القرآن العظيم. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٤٤ فلضعفه و خوره جعل إصبعيه في أذنيه و غمض عينيه خشية من صاعقه تصيبه. و قد شاهدنا نحن و غيرنا كثيرا من مخانيث تلاميذ الجهمية و المبتدعة إذا سمعوا شيئا من آيات الصفات و أحاديث الصفات المنافية لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين، كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَزَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) [المدثر]. و يقول مخنثهم: سدوا عنا هذا الباب، اقرءوا شيئا غير هذا، و ترى قلوبهم مولية، و هم يجمعون لثقل معرفة الرب- سبحانه و تعالى- و أسمائه و صفاته على عقولهم و قلوبهم. و كذلك المشركون على اختلاف شركهم إذا جرد لهم التوحيد، و تليت عليهم النصوص المبطله لشركهم اشمأزت قلوبهم، و ثقلت عليهم، و لو وجدوا السبيل إلى سد آذانهم لفعلوا، و لذلك تجد أعداء أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ثقل ذلك عنهم جدا، و أنكرته قلوبهم، و هذا كله شبه ظاهر و مثل محقق من إخوانهم من المنافقين في المثل الذي ضربه لهم بالماء، فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم.

مثل المقلدين

مثل المقلدين و منها قوله تعالى: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَ نِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) [البقرة]، فتضمن هذا المثل ناعقا: أي مصوتا بالغنم و غيرها، و منعوقا به، و هو الدواب، فقيل: الناعق: العابد، و هو الداعي للصنم، و الصنم هو المنعوق به المدعو، و إن حال الكافر في دعائه كحال من ينعق بما لا يسمعه. هذا قول طائفة منهم: عبد الرحمن بن زيد و غيره. و استشكل صاحب «الكشاف» «١»، و جماعة معه هذا القول، و قالوا: قوله: إِلَّا دُعَاءً وَ نِدَاءً لا يساعد عليه، لأن الأصنام لا تسمع دعاء، و لا نداء، و قد أجيب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبة: أحدها: أن «إلا» زائدة، و المعنى بما لا يسمع دعاء و نداء، قالوا: و قد ذكر ذلك الأصمعي في قول الشاعر: حراجيج ما تنفك إلا مناخه «٢» (_____، ١) الزمخشري في تفسيره (١/ ١٠٧).

(٢) الحراجيج: النوق، و الشعر لذي الرمة في وصف إبل، و شطره: على الخسف أو نرمى بها بلدا فقرا البدائع في علوم القرآن، ص: ١٤٥ أي ما تنفك مناخه، و هذا جواب فاسد، فإن «إلا» لا- تزداد في الكلام. الجواب الثاني: أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء، لا في

خصوصيات المدعو. الجواب الثالث: أن المعنى أن مثل هؤلاء في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم كمثل الناقع بغنمه فلا ينتفع بنعيقه بشيء، غير أنه هو في دعاء و نداء، و كذلك المشرك ليس له من دعائه و عبادته إلا العناء، و قيل: المعنى: و مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت، فالراعي هو داعي الكفار، و الكفار هم البهائم المنعوق بها. قال سيبويه «١»: «المعنى: و مثلك يا محمد، و مثل الذين كفروا كمثل الناقع و المنعوق به. و على قوله: فيكون المعنى: و مثل الذين كفروا و داعيهم كمثل الغنم و الناقع بها». و لك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، و أن تجعله من التشبيه المفرق «٢»، فإن جعلته من المركب كان تشبيها للكفار في عدم فقههم و انتفاعهم بالغنم التي ينقع بها الراعي، فلا تفقه من قوله شيئا غير الصوت المجرى الذي هو الدعاء و النداء، و إن جعلته من التشبيه المفرق، فالذين كفروا بمنزلة البهائم، و دعاء داعيهم إلى الطريق و الهدى بمنزلة الذي ينقع بها، و دعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق، و إدراكهم مجرد الدعاء و النداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناقع، و الله أعلم.

مثل المنفقين في سبيل الله

مثل المنفقين في سبيل الله و منها قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (٢٤١) [البقرة]، شبه - سبحانه - نفقة المنفق في سبيله سواء كان المراد به الجهاد، أو جميع سبل الخير من كل بر، كمن بذر بذرا، فأنبتت كل حبة منه سبع سنابل، اشتملت كل سنبل على مائة حبة، و الله يضاعف ذلك بحسب حال المنفق و إيمانه و إخلاصه و إحسانه و نفع نفقته و قدرها و وقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان و الإخلاص، و التثيت عند النفقة، و هو إخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره بإخراجه، و سمحت به نفسه، و خرج من قلبه خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع و لا هلع، و لا متعبه نفسه ترجف يده، و فؤاده، و يتفاوت بحسب نفع الإنفاق و مصارفه بمواقعه، و بحسب طيب المنفق و زكاته.

(١) الكتاب، لسبويه (٢١٢/١) بالفاظ متقاربة. (٢) هو التشبيه الذي وجه الشبه فيه صورة منزعة من متعدد و يسمى التمثيلي، و المركب عكسه. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٤٦ و تحت هذا المثل من الفقه أنه - سبحانه - شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذر ماله في أرض زكية، فمغله بحسب بذره، و طيب أرضه، و تعاهد البذر بالسقى، و نفى الدغل و النبات الغريب عنه. فإذا اجتمعت هذه الأمور و لم تحرق الزرع نار، و لا لحقته جائحة، جاء أمثال الجبل. و كان مثله كمثل جنه برودة، و هي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس و الرياح، فتتربى الأشجار هناك أتم تربيته، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر متتابع، فرواها و نماها، فأتت أكلها ضعفى ما يؤتية غيرها بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل، فطل: مطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها، يزكو على الطل، و ينمى عليه، مع أن في ذكر نوعي الوابل و الطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير و القليل. فمن الناس من يكون إنفاقه وابل، و منهم من يكون إنفاقه طلا، و الله لا يضيع مثقال ذرة. فإن عرض لهذا العامل ما يغرق أعماله، و يبطل حسناته كان بمنزلة رجل له جنه من نخيل و أعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات، و أصابه الكبير، و له ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت. فإن كان يوم استيفاء الأعمال، و إحراز الأجور وجد هذا العامل عمله، قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة، فحسرتة حينئذ أشد من حسرة هذا على جنته. فهذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها و منفعتها، و الذي ذهب عنه قد أصابه الكبير و الضعف، فهو أحوج ما كان إلى نعمته، و مع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدر على نفعه و القيام بمصالحة، بل هم في عياله، فحاجته إلى نعمته حينئذ أشد ما كانت لضعفه و ضعف ذريته، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم، فيه من جميع الفواكه و الثمر، و سلطان ثمره أجل الفواكه و أنفعها. و هو ثمر النخيل و الأعناب، فمغله يقوم بكفايته و كفاية ذريته، فأصبح يوما، و قد وجدته محترقا كله كالصريم، فأى حسرة أعظم من حسرته. قال ابن عباس: هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره. و قال مجاهد: هذا مثل

المفرط في طاعة الله حتى يموت. و قال السدي: هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٤٧ و سأل عمر بن الخطاب الصحابة يوماً عن هذه الآية، فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، و قال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال: قل يا بن أخي، و لا تحقر نفسك، قال: ضرب مثلاً لعمل، قال: «الأي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بالحسنات، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها» (١). قال الحسن: هذا مثل قل و الله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، و كثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، و إن أحدكم و الله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا. فإن عرض لهذا الأعمال من الصدقات ما يبطلها من المن و الأذى و الرياء، فالرياء يمنع انعقادها سبباً للثواب، و المن و الأذى يبطل الثواب الذي كانت سبباً له، فمثل صاحبها و بطلان عمله كمثل صفوان، و هو الحجر الأملس عليه تراب فأصابه وابل، هو المطر الشديد، فتركه صليداً لا شيء عليه. و تأمل أجزاء هذا المثل البليغ و انطباقها على أجزاء الممثل به تعرف عظمة القرآن و جلالته، فإن الحجر في مقابلة قلب هذا المرائي و المان و المؤذي، فقلبه في قسوته عن الإيمان و الإخلاص و الإحسان بمتزلة الحجر، و العمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر، فقسوة ما تحته و صلابته تمنعه من النبات و الثبات عند نزول الوابل فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء، و ينبت الكلاً، و كذلك قلب المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر و النهي و القضاء و القدر، فإذا نزل عليه وابل الوحي انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه، فبرز من تحته حجر صليداً لا نبات فيه، و هذا مثل ضربه الله - سبحانه - لعمل المرائي و نفقته، لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه أحوج ما كان إليه، و بالله التوفيق.

مثل من أنفق ماله في غير طاعة الله عز و جل

مثل من أنفق ماله في غير طاعة الله عز و جل و منها قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ (١) البخاري (٤٩١٨) في التفسير، و انظر الدر المنثور (٢/٤٧). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٤٨ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لَكِنْ أَنْفَسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) [آل عمران] ، هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته و مرضاته، فشبّه - سبحانه - ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم و المفاسد، و كسب الثناء و حسن الذكر، لا يبتغون به وجه الله، و ما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله و اتباع رسله، بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه و خيره، فأصابته ريح شديدة البرد جدا يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع و الثمار، فأهلك ذلك الزرع و أبيسته. و اختلف في الصر، فقيل: البرد الشديد، و قيل: النار، قاله ابن عباس. قال ابن الأباري: و إنما و صفت النار بأنها صر لتصريتها عند الالتهاب. و قيل: الصر: الصوت الذي يصحب الرياح من شدة هبوبها. و الأقوال الثلاثة متلازمة، فهو برد شديد محرق ببسه للحرث، كما تحرقه النار، و فيه صوت شديد: و في قوله: أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ تَبِيهٌ عَلَى أَنْ سَبَبَ إِصَابَتَهَا لِحَرْثِهِمْ: هو ظلمهم، فهو الذي سلط عليهم الرياح المذكورة، حتى أهلكت زرعهم و أبيسته، فظلمهم هو الرياح التي أهلكت أعمالهم، و نفقاتهم، و أتلفتها.

مثل فيمن أنسلخ من آيات الله

مثل فيمن أنسلخ من آيات الله و منها قوله تعالى: وَ أَنْتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْمَازِزِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) [الأعراف] ، فشبّه - سبحانه - من آتاه كتابه، و علمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به، و اتبع هواه، و آثر سخط الله على رضاه، و دنياه على آخرته، و المخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو من أخبث

الحيوانات و أوضعها قدرا و أخسها نفسا. و همته لا تتعدى بطنه، و أشدها شرها و حرصا، و من حرصه أنه لا يمشى إلا و خطمه في الأرض، يتشمم و يستروح حرصا و شرها، و لا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، و إذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، و هو من أمهن الحيوانات، و أحملها للهوان، و أرضاها بالدنيا، و الجيف القذرة المروحة «١» أحب إليه من اللحم الطرى، و العذرة أحب (١) راح الشيء، و أروح:

أنتن. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٤٩ إليه من الحلوى، و إذا ظفر بميته تكفى مائه كلب لم يدع كلبا واحدا يتناول منها شيئا إلا هو عليه و قهره، لحرصه و بخله و شرهه، و من عجيب أمره و حرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثه، و ثياب دنية، و حال رزية نبهه، و حمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له و منازعته قوته، و إذا رأى ذا هيئة حسنة و ثياب جميلة و رئاسة وضع له خطمه بالأرض، و خضع له، و لم يرفع إليه رأسه. و في تشبيه من آثر الدنيا و عاجلها على الله و الدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهته سر بديع: و هو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته، و اتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا، لانقطاع قلبه عن الله، و الدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، و لهفه: نظير لهف الكلب الدائم، و اللهف و اللهث شقيقان، و أخوان في اللفظ و المعنى. قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له: إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث. فهو مثل الذي يترك الهدى، لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع «١». قلت: مراده بانقطاع فؤاده: أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر، و ترك اللهث، و هكذا الذي انسلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، و ترك اللهف عليها، فهذا يلهف على الدنيا من قلة صبره عنها، و هذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبورا عن الماء، و إذا عطش أكل الثرى من العطش، و إن كان فيه صبر على الجوع، و على كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثا، يلهث قائما و قاعدا و ماشيا و واقفا، و ذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده و توجب له دوام اللهث، فهكذا مشبهه: شدة الحرص، و حرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهف فإن حملت عليه بالموعظة و النصيحة، فهو يلهف، و إن تركته و لم تعظه، فهو يلهف. قال مجاهد: و ذلك مثل الذي أوتى الكتاب و لم يعمل به. و قال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، و إن تركته لم يهتد إلى خير، كالكلب إن كان رابضا لهث، و إن طرد لهث. و قال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق، دعى أو لم يدع، و عظ أو لم يعظ، كالكلب يلهث طرد أو ترك. و قال عطاء: ينبح إن حملت عليه، أو لم تحمل عليه. (١) انظر تفسير الطبري (٩ / ١٢٩).

البدائع في علوم القرآن، ص: ١٥٠ و قال أبو محمد بن قتيبة: «كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، و حال الراحة، و حال الصحة، و حال المرض و العطش» «١» فضربه الله مثلا- لمن كذب بآياته، و قال: إن وعظته فهو ضال، و إن تركته فهو ضال كالكلب، إن طردته لهث و إن تركته على حاله لهث. و نظيره قوله سبحانه: وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) [الأعراف .

و تأمل ما في هذا المثل من الحكم و المعنى:

و تأمل ما في هذا المثل من الحكم و المعنى: فمنها: قوله: آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا، فأخبر- سبحانه- أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة، و الله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه. ثم قال: فانسلخ منها، أى خرج منها، كما تنسلخ الحية من جلدها، و فارقها فراق الجلد يسليخ عن اللحم، و لم يقل: فسليخناها منها، لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه. و منها: قوله: سبحانه فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ أى لحقه و أدركه، كما قال في قوم فرعون: فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) [الشعراء]، و كان محفوظا محروسا بآيات الله محمى الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئا إلا على غرة و خطفه، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم، الذي يعرفون الحق، و يعلمون بخلافه كعلماء السوء. و منها: أنه- سبحانه- قال: وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، فأخبر- سبحانه- أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، و إنما هى باتباع الحق و إيثاره، و قصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل

زمانه، و لم يرفعه الله بعلمه، و لم ينفعه به، فنعود بالله من علم لا ينفع. و أخير- سبحانه- أنه هو الذى يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، و إن لم يرفعه الله فهو موضوع، لا يرفع أحد به رأسا، فإن الخافض الرافع- سبحانه- خفضه و لم يرفعه. و المعنى: لو شئنا فضلناه و شرفناه، و رفعا قدره و منزلته بالآيات التى آتيناها: قال ابن عباس: و لو شئنا لرفعناه بعمله بها. و قالت طائفة: الضمير فى قوله: لَرَفَعْنَا عَائِدًا عَلَى الْكُفْرِ، و المعنى: لَو شئنا لرفعنا

(١) تأويل مشكل القرآن (٣٦٩).

البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٥١ عنه الكفر بما معه من آياتنا، قال مجاهد و عطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان و عصمناه. و هذا المعنى حق، و الأول هو مراد الآية، و هذا من لوازم المراد «١». و قد تقدم أن السلف كثيرا ما يبهون على لازم معنى الآية، فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها. و قوله: وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ، قال سعيد بن جبيرة: ركن إلى الأرض. و قال مجاهد: سكن. و قال مقاتل: رضى بالدينا. و قال أبو عبيدة: لزمها و أبطأ. و المخلد من الرجال: هو الذى يبطن مشيته، و من الدواب: التى تبقى ثنياه إلى أن تخرج رباعيته. و قال الزجاج: خلد و أخلد، و أصله من الخلود، و هو الدوام و البقاء، و يقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام به، قال مالك بن نويرة: بأبناء حتى من قبائل مالك و عمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا قلت: و منه قوله تعالى: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) [الواقعة]، أى قد خلقوا للبقاء، لذلك لا- يتغيرون و لا- يكبرون، و هم على سن واحد أبدا. و قيل: هم المقرطون فى آذانهم و المسورون فى أيديهم، و أصحاب هذا القول فسروا اللفظة ببعض لوازمها، و ذلك أمارة التخليد على ذلك السن، فلا تنافى بين القولين. و قوله: وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ، قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور، و ترك معاليها. و قال أبو روق «٢»: اختار الدنيا على الآخرة، و قال عطاء: أراد الدنيا، و أطاع شيطانه، و قال ابن زيد: كان هواه مع القوم، يعنى: الذين حاربوا موسى و قومه، و قال يمان: اتبع امرأته، لأنها هى التى حملته على ما فعل. فإن قيل: الاستدراك ب «لكن» يقتضى أن يثبت بعدها ما نفى قبلها، أو نفى ما أثبت، كما تقول: لو شئت لأعطيته، لكنى لم أعطه، و لو شئت لما فعلت كذا لكنى فعلته. فالاستدراك يقتضى: و لو شئنا لرفعناه بها، و لكننا لم نرفع، و لكنه أخلد، فكيف استدرك بقوله: وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ بعد قوله: وَ لَوِ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا؟ قيل: هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعانى، و ذلك أن مضمون قوله: وَ لَوِ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا أنه لم يتعاط الأسباب التى تقتضى

(١) راجع الطبرى (١٢٧/٩). (٢) أبو

روق، هو عطية بن الحارث، صاحب التفسير، صدوق، انظر تهذيب التهذيب (٢٢٤/٧). البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٥٢ رفعه بالآيات من إثارة الله و مرضاته على هواه، و لكنه آثر الدنيا، و أخلد إلى الأرض، و اتبع هواه. و قال الزمخشري «١»: المعنى: و لو لزم آياتنا، لرفعناه بها، فذكر المشيئة، و المراد ما هى تابعة له، و مسببة عنه، كأنه قيل: و لو لزمها لرفعناه بها، قال: ألا ترى إلى قوله: وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ، فاستدرك المشيئة بإخلاده الذى هو فعله، فوجب أن يكون: وَ لَوِ شِئْنَا فى معنى ما هو فعله، و لو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: وَ لَوِ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ و لكننا لم نشأ» اه. فهذا منه شئنا نعرفها من قدرى ناف للمشيئة العامة، مبعده للنجعة فى جعل كلام الله معتزليا قدريا، فأين قوله: و لو شئنا من قوله: و لو لزمها، ثم إذا كان اللزوم لها موقوفا على مشيئة الله، و هو الحق، بطل أصله. و قوله: «إن مشيئة الله تابعة للزومه الآيات» من أفسد الكلام، و أبطله، بل لزومه لآياته تابع لمشيئة الله، فمشيئة الله- سبحانه- متبوعة لا تابعة، و سبب لا مسبب، و موجب مقتضى لا مقتضى، فما شاء الله و جب وجوده، و ما لم يشأ امتنع وجوده.

مثل الحياة الدنيا

مثل الحياة الدنيا و منها قوله تعالى: إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْيَنْتَ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) [يونس]، شبه- سبحانه- الحياة الدنيا فى أنها تتزين فى عين الناظر، فتروقه بزينتها و تعجبه،

فيميل إليها و يهواها اغترارا بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغيته أحوج ما كان إليها، و حيل بينه و بينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها، فتعشب و يحسن نباتها، و يروق منظرها للناظر، فيغتر به، و يظن أنه قادر عليها مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغيته، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، و تصبح يده صفرا منها. فهكذا حال الدنيا و الواثق بها سواء، و هذا من أبلغ التشبيه و القياس، و لما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات، و الجنة سليمة منها قال: وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ [يونس: ٢٥]، فسماها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا، فعم بالدعوة إليها، و خص بالهداية من يشاء، فذاك عدله، و هذا فضله (١) تفسير الكشاف (٢)

١٠٤). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٥٣

مثل المؤمنين و الكافرين

مثل المؤمنين و الكافرين و منها قوله تعالى: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَ الْأَصْمِ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَمْ لَا تَدَّكُرُونَ [هود: ٢٤]، فإنه - سبحانه - ذكر الكفار و وصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع، و ما كانوا يبصرون، ثم ذكر المؤمنين و وصفهم بالإيمان و العمل الصالح و الإخبات إلى ربهم، فوصفهم بعبودية الظاهر و الباطن و جعل أحد الفريقين كالأعمى و الأصم من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق، أصم عن سماعه، فشبهه بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء، و سمعه أصم عن سماع الأصوات و الفريق الآخر: بصير القلب كبصير العين. و سميع الأذن، فتضمنت الآية قياسين و تمثيلين للفريقين، ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله: هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا.

المثال المائي و الناري في حق المؤمنين

المثال المائي و الناري في حق المؤمنين و قد ذكر الله المثليين المائي و الناري في «سورة الرعد»، و لكن في حق المؤمنين فقال تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَ مِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) [الرعد]، شبه الوحي لحياء القلوب و الأسماع و الأبصار بالماء الذي أنزله لحياء الأرض بالنبات، و شبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرا، و قلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقدرها، و احتملت قلوب من الهدى و العلم بقدرها، و كما أن السيل إذا خالط الأرض و مر عليها احتمل غثاء و زبدا، فكذلك الهدى و العلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات و الشبهات، ليقلعها و يذهبها، كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاط فيتكدر بها شربه، و هي من تمام نفع الدواء فإنه أثارها ليذهب بها فإنه لا يجمعها و لا يشاركها، و هكذا يضرب الله الحق و الباطل. ثم ذكر المثل الناري فقال: وَ مِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ، و هو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب و الفضة و النحاس و الحديد، فتخرجه النار و تميزه و تفصله عن الجوهر الذي ينتفع به، فيرمى و يطرح و يذهب جفاء. فكذلك الشهوات و الشبهات يرميها قلب المؤمن و يطرحها و يجفوها كما يطرح السيل و النار ذلك الزبد و الغثاء البدائع في علوم القرآن، ص: ١٥٤ و الخبث، و يستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي استقى منه الناس و يزرعون و يسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب و جذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه، ينتفع به غيره، و من لم يفقه هذين المثليين و لم يدرهما، و يعرف ما يراد منهما فليس من أهلها، و الله الموفق.

مثل في بطلان أعمار الكفار

مثل في بطلان أعمار الكفار و منها قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ

مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ (١٨) [إبراهيم، فشبّه تعالى أعمال الكفار في بطلانها و عدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف، فشبّه - سبحانه - أعمالهم في حبوطها و ذهابها باطلا كالهباء المنثور، لكونها على غير أساس من الإيمان و الإحسان، و كونها لغير الله - عز و جل - و على غير أمره برماد طيرته الريح العاصف، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه، فلذلك قال: لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثرا من ثواب، و لا فائدة نافعته، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه موافقا لشرعه. و الأعمال أربعة: فواحد مقبول، و ثلاثة مردودة. فالمقبول: الخالص الصواب. فالخالص: أن يكون لله لا لغيره، و الصواب: أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله. و الثلاثة المردودة ما خالف ذلك. و في تشبيهها بالرماد سر بديع، و ذلك للتشابه الذي بين أعمالهم، و بين الرماد في إحراق النار و إذهابها لأصل هذا و هذا، فكانت الأعمال التي لغير الله، و على غير مراده طعمه للنار، و بها تسعر النار على أصحابها، و ينشئ الله - سبحانه - لهم من أعمالهم الباطلة نار عذابا، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيما و روحا، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا، فهم و أعمالهم و ما يعبدون من دون الله وقود النار. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٥٥

مثل في الكلمة الطيبة

مثل في الكلمة الطيبة و منها قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) [إبراهيم، فشبّه تعالى - الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، و الشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع و هذا ظاهر على قول جمهور المفسرين يقولون: الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة و الباطنة، فكل عمل صالح مرض لله ثمرة هذه الكلمة. و في تفسير على بن أبي طلحة عن ابن عباس «١»، قال: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ: شهادة أن لا إله إلا الله كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ وَ هُوَ الْمُؤْمِنُ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ: قول لا - إله إلا الله في قلب المؤمن، وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. و قال الربيع بن أنس: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ: هذا مثل الإيمان، فالإيمان: الشجرة الطيبة، و أصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه، و فرعه في السماء: خشية الله. و التشبه على هذا القول أصح و أظهر و أحسن فإنه سبحانه شبه التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علوا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين. و إذا تأملت هذا التشبيه رأيت مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء «٢». لا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب و محبة القلب لها، و إخلاصه فيها، و معرفته بحقيقتها، و قيامه بحقوقها، و مراعاتها حق رعايتها. فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها - التي هي حقيقتها - و اتصف قلبه بها، و انصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، و يشهد بها لسانه، و تصدقها جوارحه، و نفى تلك الحقيقة و لوازمها عن كل ما سوى الله، و واطأ قلبه لسانه، في هذا النفي و الإثبات، و انقادت جوارحه لمهد لساكنه بالواحدانية طائعه سالكه ساجدا

(١) الطبري (١٣ / ٢٠٣)، السبهي في الأسماء و الصفات (١٣٥) و الطبراني في الدعاء (٣ / ٢٥٧). (٢) انظر الدرر المنثور للسيوطي (٥ / ٢٠). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٥٦ ربه ذللا غير ناكبة عنها، و لا باغية سواها بدلا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا. فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى، و هذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، و هذه الكلمة الطيبة تثمر كلما كثيرا طيبا يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب كما قال تعالى: إِلَيْهِ يَصِيرُ عَدُوُّ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ [فاطر: ١٠] فأخبر - سبحانه - أن العامل الصالح يرفع الكلم الطيب، و أخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملا صالحا كل وقت. و المقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها و حقيقتها نفيا و إثباتا، متصفا

بموجبها، قائما قلبه ولسانه و جوارحه، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، و فروعها متصله بالسماء، و هي مخرجة ثمرتها كل وقت. و من السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، و يدل عليه حديث ابن عمر الصحيح «١». و منهم من قال: هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي عن أبيه، عن ابن عباس قوله: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ يُعْنَى بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الْمُؤْمِنِ، و يعنى بالأصل الثابت في الأرض، و الفرع في السماء ... يكون المؤمن يعمل في الأرض و يتكلم، فيبلغ عمله و قوله السماء، و هو في الأرض. و قال عطية العوفى في قوله: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ قال: ذلك مثل المؤمن لا يزال يخرج منه كلام طيب، و عمل صالح يصعد إلى الله. و قال الربيع بن أنس: أَضْمَلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، قال: ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وحده و عبادته وحده، لا شريك له. أَضْمَلُهَا ثَابِتٌ، قال: أصل عمله ثابت في الأرض، وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، قال: ذكره في السماء، و لا- اختلاف بين القولين. (١) صحیح البخاری - بالفتح - (١)

(١٧٥) في كتاب العلم، عن ابن عمر رضی الله عنه قال: قال رسول الله: «إن من الشجر لشجرة...» الحديث .. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٥٧ و المقصود بالمثل: المؤمن، و النخلة مشبهه به و هو مشبه بها، و إذا كانت النخلة شجرة طيبة، فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك، و من قال من السلف: إنها شجرة في الجنة، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة. و في هذا المثل من الأسرار و العلوم و المعارف ما يليق به، و يقتضيه علم الذي تكلم به و حكمته. فمن ذلك أن الشجرة لا بد لها من عروق و ساق و فروع و ورق و ثمر، كذلك شجرة الإيمان و الإسلام ليطابق المشبه المشبه به، فعروقه العلم و المعرفة و اليقين، و ساقها الإخلاص، و فروعها الأعمال، و ثمرتها ما توجه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة و الصفات الممدوحة، و الأخلاق الزكية و السمات الصالح، و الهدى و الدل المرضي. فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب و ثبوتها فيه بهذه الأمور. فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، و الاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه، و أخبرت به عنه رسله، و الإخلاص قائم في القلب، و الأعمال موافقة للأمر و الهدى، و الدل و السمات مشابهة لهذه الأصول مناسب لها علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت، و فرعها في السماء، و إذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار. و منها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها و تميمها، فإذا قطع عنها السقى أوشك أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعهد صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع، و العمل الصالح، و العود بالتذكر على التفكير على التذكر، و إلا أوشك أن تيبس. و في مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم» «١». و بالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك. و من هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات و عظم رحمته و تمام نعمته و إحسانه إلى عبادته بأن وظيفها عليها، و جعلها مادة لسقى غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم. و منها: أن الغرس و الزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أن يخالطه دغل و نبت (١) عند أحمد من قوله «جددوا

إيمانكم» دون أوله (٨٦٩٥)، و قال الهيثمي في المجمع (١/٥٧): «إسناده جيد و فيه سمير بن نهار و ثقة ابن حبان»، و رواه الحاكم (١/٤) و انظر الصحيحة للألباني (١٥٨٥). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٥٨ غريب ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه و نقاه و قلعه، كمل الغرس و الزرع و استوى، و تم نباته، و كان أوفر لثمرته و أطيب و أزكى. و إن تركه أوشك أن يغلب على الغرس و الزرع و يكون الحكم له، أو يضعف الأصل، و يجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته و قلتها، و من لم يكن له فقه نفس في هذا و معرفة به، فإنه يفوته ربح كبير و هو لا يشعر، فالمؤمن دائما سعيه في شيئين: سقى هذه الشجرة، و تنقية ما حولها، فيسقيها تبقى و تدوم و بتنقية ما حولها تكمل و تتم، و الله المستعان و عليه التكلان. فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار و الحكم، و لعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الواقفة، و قلوبنا المخطئة، و علومنا القاصرة، و أعمالنا التي توجب التوبة و الاستغفار، و إلا فلو طهرت منا

القلوب، و صفت الأذهان، و زكت النفوس، و خلصت الأعمال، و تجردت الهمم للتلقى عن الله و رسوله لشاهدنا من معاني كلام الله و أسرارِهِ و حكمه ما تضحل عنده العلوم، و تتلاشى عنده معارف الخلق، و بهذا تعرف قدر علوم الصحابة و معارفهم، و أن التفاوت الذي بين علومهم، و علوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، و الله أعلم حيث يجعل مواقع فضله، و من يختص برحمته.

مثل الكلمة الخبيثة

مثل الكلمة الخبيثة ثم ذكر - سبحانه - مثل الكلمة الخبيثة، فشبها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا عرق ثابت، و لا فرع عال، و لا ثمرة زاكية، فلا ظل و لا جنى و لا ساق قائم، و لا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مغدق، و لا أعلاها موقن، و لا جنى لها، و لا تعلق بل تعلق، و يقول الله تعالى: وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ [إبراهيم: ٢٦]. و إذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم و كسبهم، و جده كذلك، فالخسران الوقوف معه، و الاشتغال به عن أفضل الكلام و أنفعه. قال الضحاك: ضرب الله مثلا للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: ليس لها أصل و لا فرع و ليس لها ثمرة، و لا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيرا، و لا يقوله، و لا يجعل الله فيه بركة و لا منفعة. و قال ابن عباس: وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ وَ هِيَ الشَّرْكَ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ، يعني: الكافر، البدائع في علوم القرآن، ص: ١٥٩ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر، و لا برهان، و لا يقبل الله مع الشرك عملا، فلا يقبل عمل المشرك، و لا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض و لا فرع في السماء، يقول: ليس له عمل صالح في الدنيا و الآخرة. و قال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله و لا لعمله أصل و لا فرع، و لا يستقر و لا عمله على الأرض، و لا يصعد إلى السماء. و قال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلا - لقي رجلا من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرا، و لا في السماء مصعدا، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى توافي بها القيامة. و قوله: اجْتُثَّتْ أَي: استؤصلت من فوق الأرض، ثم أخبر - سبحانه - عن فضله و عدله في الفريقين: أصحاب الكلم الطيب، و الكلم الخبيث. فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا و الآخرة، و أنه يضل الظالمين - و هم المشركون - عن القول الثابت، فأصل هؤلاء بعدله لظلمهم، و ثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم.

مثل في تثبيت المؤمن

مثل في تثبيت المؤمن تحت قوله: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ [إبراهيم: ٢٧]، كنز عظيم من وفق لمظنته، و أحسن استخراج و اقتناؤه، و أنفق منه فقد غنم، و من حرمه فقد حرم. و ذلك أن العبد لا يستغنى عن تثبيت الله له طرفه عين، فإن لم يثبته و إلا زالت سماء إيمانه و أرضه عن مكانهما، و قد قال تعالى لأكرم خلقه عليه، عبده و رسوله: وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كَدَتِ تَزُكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) [الإسراء]، و قال تعالى لأكرم خلقه: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا [الأنفال: ١٢]. و في الصحيحين من حديث البجلي قال: «و هو يسألهم و يثبتهم» (١): «و قال تعالى لرسوله: وَ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ [هود: ١٢٠].»

(١) لم أجده في الصحيحين، و لكنه في المسند (٢/ ٣٦٨) و عند الترمذی (٢٥٥٧) في صفة الجنة، باب: ما جاء في خلود أهل الجنة و أهل النار، بلفظ: «و هو يأمرهم و يثبتهم» و قال: حسن صحيح، كلاها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه و الله تعالى أعلم. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٦٠ فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، و مخذول بترك التثبيت، و مادة التثبيت أصله و منشؤه من القول الثابت، و فعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولاً و أحسن فعلا كان أعظم تثبيتاً، قال تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيثًا [النساء: ٦٦]. فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً، و القول الثابت: هو القول الحق و الصدق، و هو

ضد القول الباطل الكذب، فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، و باطل لا حقيقة له، و أثبت القول كلمة التوحيد و لوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا و الآخرة. و لهذا ترى الصادق من أثبت الناس، و أشجعهم قلبا، و الكاذب من أمهن الناس و أخبثهم و أكثرهم تلونا و أقلهم ثباتا. و أهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار، و شجاعته و مهابته، و يعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، و لا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة. و سئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: و الله ما فهمت منه شيئا إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل. فما منح العبد منحة أفضل من منحه القول الثابت، و يجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم، و يوم معادهم، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه و سلم: «أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر» (١). و قد جاء هذا مبينا في أحاديث صحاح، فمنها ما في المسند من حديث داود بن أبي هند، عن أبي نصره، عن أبي سعيد قال: كنا مع النبي صلى الله عليه و سلم في جنازة، فقال: «يا أيها الناس، إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فإذا الإنسان دفن، و تفرق عنه أصحابه، جاءه ملك بيده مطراق فأقعدته، فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أشهد أن محمدا عبده و رسوله، فيقول له: صدقت، فيفتح له باب إلى النار، فيقال له: هذا منزلتك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت، فإن الله أبدلك به هذا، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيريد أن ينهض له، فيقال له: اسكن، ثم يفسح له في قبره، و أما الكافر [أو] المنافق: فيقال له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: لا دريت و لا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: هذا منزلتك لو آمنت بربك، فأما

(١) حديث صحيح عند مسلم (٥/١)

(٧٢٢-٧٢٣) و قد سبق تخريجه، فلا تغتر أخى القارئ بكلام الجهال منكرى الأمر، و الذى خالف كل من تكلم في باب العقيدة من أهل السنة، و لا تنسى أنك في زمان كثر فيه القول بلا علم. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٦١ إذ كفرت، فإن الله أبدلك به هذا، ثم يفتح له باب إلى النار، ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعه يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين» (١)، قال بعض أصحابه: يا رسول الله، ما منا من أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هيل (٢) عند ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) [إبراهيم: ٢٧]. و في المسند نحوه من حديث البراء بن عازب (٣). و روى المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ذكر قبض روح المؤمن فقال: «يأتيه آت - يعنى في قبره - فيقول: من ربك، و ما دينك، و من نبيك؟ فيقول: ربي الله، و ديني الإسلام، و نبيي محمد صلى الله عليه و سلم، قال: فتنهه، فيقول: ما ربك و ما دينك؟ و هي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله: يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ، فيقول: ربي الله، و ديني الإسلام و نبيي محمد، فيقال له: صدقت». و هذا حديث صحيح (٤). و قال حماد بن سلمه، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ إِذَا قِيلَ لَهُ فِي الْقَبْرِ: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: ربي الله و ديني الإسلام، و نبيي محمد جاءنا بالبينات من عند الله فآمنت به و صدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشت، و عليه مت، و عليه تبعث (٥). و قال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ذكر قبض روح المؤمن، قال: فترجع روحه في جسده، و يبعث إليه ملكان شديدا الانتهار، فيجلسانه، و ينتهرانه و يقولان: من ربك؟ فيقول: الله، و ما دينك؟ فيقول: الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل أو النبي الذي بعث فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله، (١) أحمد (٣/٣، ٤)، و الحديث رواه

مسلم (٢٨٦٧/٦٧) في الجنة و صفة نعيمها و أهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه و إثبات عذاب القبر و التعوذ منه. (٢) أصابه الخوف و الرعب. (٣) أحمد (٤/٢٨٧، ٢٨٨)، و قال الهيثمي في المجمع (٥/٥٣): «رجال أحمد رجال الصحيح». (٤) سبق تخريجه. (٥) مسلم (٢٨٧٢/٧٥) في الجنة و صفة نعيمها و أهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه و إثبات عذاب القبر

والتعوذ منه. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٦٢ فيقولان له: و ما يدريك؟ قال: فيقول: قرأت كتاب الله، فأمنت به و صدقت، فذلك قول الله تبارك و تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ. رواه ابن حبان في صحيحه، و الإمام أحمد. و في صحيحه أيضا من حديث أبي هريرة يرفعه: قال: «إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، و الزكاة عن يمينه، و كان الصيام عن يساره، و كان فعل الخيرات من الصدقة و الصلة المعروف و الإحسان إلى الناس عند رجله، فيؤتى من عند رأسه، فتقول الصلاة: ما قلبي مدخل، فيؤتى عن يمينه، فتقول الزكاة: ما قلبي مدخل، فيؤتى عن يساره، فيقول الصيام: ما قلبي مدخل، فيؤتى من عند رجله، فيقول فعل الخيرات من الصدقة و الصلة و المعروف و الإحسان إلى الناس: ما قلبي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس من مثلت له الشمس قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك عنه، فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك، فيقول: و عما تسألوني؟ فيقال له: أ رأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ما ذا تقول فيه، و ما ذا تشهد به عليه؟ فيقول: أ محمد صلى الله عليه و سلم؟ فيقال: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، و أنه جاء بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: على ذلك حيت، على ذلك مت، على ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا، و ينور له فيه، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة و سرورا، ثم تجعل نسمة في النسيم الطيب، و هي طير خضر، تعلق بشجر الجنة، و يعاد الجسد إلى ما بدأ منه من التراب» (١)، و ذلك قول الله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ [إبراهيم: ٢٧] و لا- تستطل هذا الفصل المعترض في المفتى، و الشاهد، و الحاكم، بل و كل مسلم أشد ضرورة إليه من الطعام و الشراب و النفس، و بالله التوفيق.

التمثيل بالعبد المملوك

التمثيل بالعبد المملوك و منها قوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ مَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمِيدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) [النحل .

علوم القرآن، ص: ١٦٣ و هذان مثالان متضمنان قياسين من قياس العكس، و هو نفى الحكم بنفى علتها، و موجه. فإن القياس نوعان: قياس طرد: يقتضى إثبات الحكم في الفرع لثبوت علته الأصل فيه، و قياس عكس: يقتضى نفى الحكم عن الفرع لنفى علته الحكم فيه. فالمثل الأول ما ضرب به الله - سبحانه - لنفسه و للأوثان، فالله - سبحانه - هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبده سرا و جهرا، و ليلا- و نهارا يمينه مألئ، لا يغيضها نفقه، سحاء الليل و النهار «١». و الأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لى و يعبدونها من دونى مع هذا التفاوت العظيم و الفرق المبين؟ هذا قول مجاهد و غيره. و قال ابن عباس: هو مثل ضربه الله للمؤمنين و الكفار، و مثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه رزقا حسنا فهو ينفق على نفسه و على غيره سرا و جهرا، و الكافر بمنزلة عبد مملوك، عاجز لا يقدر على شيء، لأنه لا خير عنده، فهل يستوى الرجلان عند أحد العقلاء؟ و القول الأول أشبه بالمراد، فإنه أظهر في بطلان الشرك، و أوضح عند المخاطب، و أعظم في إقامة الحجة، و أقرب نسبا بقوله: وَ يَعْجِبُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئًا وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) [النحل: ٧٣-٧٤]، ثم قال: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ [النحل: ٧٥] و من لوازم هذا المثل و أحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقا حسنا. و الكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا تبه عليه المثل، و أرشد إليه فذكره ابن عباس منبها على إرادته، لا أن الآية اختصت به، فتأمله فإنك تجده كثيرا في كلام ابن عباس، و غيره من السلف في فهم القرآن فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التي لا- معنى لها غيره، فيحكيه قوله. و أما المثل الثاني، فهو مثل ضرب به الله - سبحانه و

تعالى - لنفسه، و لما يعبد من دونه أيضا، فالصنم الذى يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم، لا يعقل، و لا ينطق بل هو أبكم القلب و اللسان، قد عدم النطق القلبى و اللسانى، و مع هذا فهو عاجز لا يقدر على شىء (١) يشير للحديث الصحيح عن أبى

هريرة رضى الله عنه «أنفق ينفق عليك ...» إلخ، رواه البخارى (٤٣١٦) فى التفسير، و مسلم (١٦٥٩) فى الزكاة و رواه غيرهما. و معنى سحاء: أى دائمة العطاء و الفيض، لا حد لما توجد به، سبحانه و تعالى. البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٦٤ البتة؛ و على هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، و لا يقضى لك حاجة، و الله - سبحانه - حى قادر متكلم يأمر بالعدل، و هو على صراط مستقيم، و هذا وصف له بغاية الكمال و الحمد، فإن أمره بالعدل، و هو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به، معلم له، راض به، أمر لعباده به، محب لأهله لا يأمر بسواه، بل تنزه عن ضده الذى هو الجور و الظلم و السفه و الباطل، بل أمره و شرعه عدل كله. و أهل العدل هم أولياؤه و أحباؤه، و هم المجاورون له عن يمينه على منابر من نور، و أمره بالعدل يتناول الأمر الشرعى الدينى، و الأمر القدرى الكونى، و كلاهما عدل لا جور فيه بوجه ما، كما فى الحديث الصحيح: «اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك» (١)، فقضاؤه هو أمره الكونى، فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فلا يأمر إلا بحق و عدل، و قضاؤه قدره القائم به حق و عدل، و إن كان فى المقضى المقدر ما هو جور و ظلم، فالقضاء غير المقضى، و القدر غير المقدر. ثم أخبر - سبحانه - أنه على صراط مستقيم، و هذا نظير قول رسوله شعيب: «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) [هود]، فقوله: ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا نظير قوله: «ناصيتي بيدك»، و قوله: «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، نظير قوله: «عدل في قضاؤك»، فالأول: ملكه، و الثانى: حمده، و هو - سبحانه - له الملك، و له الحمد، و كونه سبحانه - على صراط مستقيم يقتضى أنه لا يقول إلا الحق، و لا يأمر إلا بالعدل، و لا يفعل إلا ما هو مصلح و حكمه و عدل، فهو على الحق فى أقواله و أفعاله فلا يقضى على العبد بما يكون ظالما له به، و لا يأخذ بغير ذنبه، و لا ينقصه من حسناته شيئا، و لا يحمل عليه من سيئات غيره التى لم يعملها، و لم يتسبب إليها شيئا، و لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره، و لا يفعل قط ما لا يحمد عليه، و يثنى به عليه، و يكون له فيه العواقب الحميدة، و الغايات المطلوبة، فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله. قال محمد بن جرير الطبرى: و قوله: «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يقول: إن ربي على (١)»

أخرجه الإمام أحمد (٣٧١٢)، و قال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، و قال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٣٩): «رجال أحمد رجال الصحيح غير أبى سلمة الجهنى و قد وثقه ابن حبان». و رواه الحاكم (١ / ٥٠٩ / ٥١٠) و صححه على شرط مسلم و تعقبه الذهبى و ابن حبان (٢٣٧٢) و أبو يعلى (٩ / ١٩٦). البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٦٥ طريق الحق، يجازى المحسن من خلقه بإحسانه، و المسىء بإساءته، لا يظلم أحدا منهم شيئا، و لا يقبل منهم إلا الإسلام له و الإيمان به «١». ثم حكى عن مجاهد من طريق شبل، عن ابن أبى نجیح عنه: «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، قال: الحق، و كذلك رواه ابن جريج عنه. و قالت فرقة هى مثل قوله: «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (١٤) [الفجر]، و هذا اختلاف عبارة، فإن كونه بالمرصاد، هو مجازاة المحسن بإحسانه و المسىء بإساءته. و قالت فرقة: فى الكلام حذف، تقديره: إن ربي يحثكم على صراط مستقيم، و يحضكم عليه. و هؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التى أريد بها، فليس كما زعموا، و لا دليل على هذا المقدر، و قد فرق سبحانه بين كونه أمرا بالعدل، و بين كونه على صراط مستقيم، و إن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم، فقد أصابوا. و قالت فرقة أخرى: معنى كونه على صراط مستقيم: أن مرد العباد و الأمور كلها إلى الله لا يفوته شىء منها، و هؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية، فليس كذلك، و إن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم، و من مقتضاه و موجهه فهو حق. و قالت فرقة أخرى: معناه: كل شىء تحت قدرته و قهره، و فى ملكه و قبضته، و هذا و إن كان حقا فليس هو معنى الآية، و قد فرق شعيب بين قوله: «ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا»، و بين قوله: «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، فهما معنيان مستقلان. فالقول قول مجاهد، و هو قول أئمة التفسير، و لا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه. و قال جرير «٢»

يمدح عمر بن عبد العزيز: أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم وقد قال تعالى: مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الأنعام: ٣٩]. وإذا كان - سبحانه - هو الذي جعل رسله وأتباعه على الصراط المستقيم في أقوالهم وأفعالهم، فهو - سبحانه - أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله، وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقه أمره، فصراطه الذي هو - سبحانه - عليه هو ما يقتضيه (١) تفسير الطبري (١٢ / ٤١). (٢) ديوان جرير (٥٠٧). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٦٦ حمده وكماله ومجده من قول الحق وفعله، وباللّه التوفيق. وفي الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء، أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، وقد تقدم ما في هذا القول وباللّه التوفيق.

في تشبيه من أعرض عن مثل الشرك

إشارة

في تشبيه من أعرض عن مثل الشرك ومنها قوله تعالى: فَاجْتَبَيُْوا رُجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَبَيُْوا قَوْلَ الزُّورِ حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) [الحج]، فتأمل هذا المثل ومطابقتها لحال من أشرك باللّه، وتعلق بغيره، ويجوز لك في هذا التشبيه أمران: أحدهما: أن تجعله تشبيها مركبا، ويكون قد شبه من أشرك باللّه، وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكاً لا يرجى معه نجاه، فصور حاله بصورة حال من خرّ من السماء، فاخطفته الطير في الهوى، فتمزق مزقا في حواصلها، أو عصفت به الريح، حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة. وعلى هذا لا ينظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابلة من المشبه به. والثاني: أن يكون من التشبه المفرق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطة، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منه، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد، والآلام المتراكمة، والطير الذي تخطف أعضائه، وتمزقه كل ممزق، بالشياطين التي يرسلها الله - سبحانه - تعالى - عليه أزا، وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه. فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوى به في مكان سحيق، هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان، وأبعده من السماء.

قدرة الذين يدعوهم المشركون من دون الله

قدرة الذين يدعوهم المشركون من دون الله ومنها قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاذْمَعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْتَأْذِنُوا لَنْ يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ (٧٣) ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) [الحج]، حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل ويتدبره حق تدبره فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده، وإعدام ما يضره، والآلهة التي البدائع في علوم القرآن، ص: ١٦٧ يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقها، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدر على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئا مما عليهم من طيب ونحوه، فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه، واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟. وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله - سبحانه - في بطلان الشرك وتجهيل أهله، وتقيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات، والمغنى عن جميع المخلوقات، وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللفهات، و

إجابة الدعوات، فأعطوها صوراً و تماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإله الحق، و أذلها و أصغرها و أحقرها، و لو اجتمعوا لذلك و تعاونوا عليه، و أدل من ذلك على عجزهم و انتفاء لإلهيتهم. أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً، و استلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك، و لم يقدرُوا عليه، ثم سَوَى بين العابد و المعبود في الضعف و العجز بقوله: **ضَمَعُ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ**، قيل: الطالب: العابد، و المطلوب: المعبود، فهو عاجز متعلق بعاجز، و قيل: هو تسوية بين السالب و المسلوب، و هو تسوية بين الإله و الذباب في الضعف و العجز، و على هذا فقيل: الطالب الإله الباطل، و المطلوب: الذباب يطلب منه ما استلبه منه، و قيل: الطالب: الذباب، و المطلوب: الإله، فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه. و الصحيح: أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد و المعبود، المستلب و المستلب، فمن جعل هذا إلهاً مع القوى العزيز، فما قدره حق قدره، و لا عرفه حق معرفته، و لا عظمه حق تعظيمه.

تمثيل أعمال الكافرين بالسراب

تمثيل أعمال الكافرين بالسراب و منها قوله تعالى: **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعِهِ يُخْشِبُهُ الظَّمآنُ ماءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَّجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)** أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجْجٍ يَعِشَاهُ مَرْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) [النور]، ذكر - سبحانه - للكافرين مثلين، مثلاً بالسراب، و مثلاً بالظلمات المتركمة. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٦٨ و ذلك لأن المعرضين عن الهدى و الحق نوعان: أحدهما من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، و هذه حال أهل الجهل، و أهل البدع و الأهواء الذين يظنون أنهم على هدى و علم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، و أن عقائدهم و أعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة يرى في عين الناظر ماء و لا حقيقة له. و هكذا الأعمال التي لغير الله و على غير أمره يحسبها العامل نافعة له، و ليست كذلك و هذه هي الأعمال التي قال الله - عزَّ و جلَّ - فيها: **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَثُوراً (٢٣)** [الفرقان]، و تأمل جعل الله - سبحانه - السراب بالقيعة و هي الأرض القفر الخالية من البناء و الشجر و النبات و المعالم. فمحل السراب: أرض قفرة لا شيء بها، و السراب لا حقيقة له، و ذلك مطابق لأعمالهم و قلوبهم التي أقفرت من الإيمان و الهدى. و تأمل ما تحت قوله: **يُخْشِبُهُ الظَّمآنُ ماءً**، و الظمآن الذي قد اشتد عطشه، فرأى السراب، فظنه ماء، فتبعه فلم يجده شيئاً، بل خانه أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول، و لغير الله جعلت كالسراب، فرفعت لهم أظماً ما كانوا، و أحوج ما كانوا إليهم فلم يجدوا شيئاً و وجدوا الله - سبحانه - ثم «١» فجازاهم بأعمالهم و وفاهم حسابهم. و في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه و سلم في حديث التجلي يوم القيامة: «ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها السراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزيراً ابن الله. فيقال: كذبتُم، لم يكن لله صاحبه و لا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا فيتساقطون في جهنم، ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ قالوا نعبد المسيح ابن الله، فيقال: كذبتُم لم يكن لله صاحبه و لا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا، فيقال لهم: اشربوا فيتساقطون» «٢» و ذكر الحديث. و هذه حال كل صاحب باطل، فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه، فإن الباطل لا حقيقة له، و هو كاسمه باطل، فإذا كان الاعتقاد غير مطابق و لا حق كان متعلقه باطلاً. و كذلك إذا كانت غايته العمل باطلاً كالعامل لغير الله، أو على غير أمره بطول العمل

(١) أي هناك. (٢) مسلم (٢٦٧) في الإيمان. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٦٩ ببطلانه، و بحصول ضد ما كان يؤمله فلم يذهب عليه عمله و اعتقاده، لا له و لا عليه، بل صار معذباً بفوات نفعه، و بحصول ضد النفع، فلماذا قال تعالى: **وَ وَّجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**. فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى. النوع الثاني: أصحاب مثل الظلمات المتركمة، و هم الذين عرفوا الحق و الهدى و آثروا عليه ظلمات

الباطل و الضلال، فتراكت عليهم ظلمة الطبع، و ظلمة النفوس، و ظلمة الجهل، حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين، و ظلمة اتباع الغي و الهوى، فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له، و قد غشيه موج، و من فوق ذلك الموج موج، و من فوقه سحب مظلم، فهو في ظلمة البحر، و ظلمة الموج، ظلمة السحاب، و هذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجها الله منها إلى نور الإيمان. و هذان المثالان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة، و هو الماء، و الظلمات المضادة للنور، نظير المثليين اللذين ضربهما الله للمنافقين و المؤمنين، و هو المثل المائي، و المثل الناري، و جعل حظ المؤمنين منهما الحياة و الإشراق، و حظ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور، و الموت المضاد للحياة. فكذلك الكفار في هذين المثليين حظهم من الماء السراب الذي يغر الناظر، و لا حقيقة له، و حظهم من الظلمات المتركمة. و هذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار، و أنهم عدموا مادة الحياة و الإضاءة بإعراضهم عن الوحي، فيكون المثالان صفتين لموصوف واحد. و يجوز أن يكون المراد به تنوع أحوال الكفار، و أن أصحاب المثل الأول هم اللذين عملوا على غير علم و لا بصيرة، بل على جهل و حسن ظن بالأسلاف فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا، و أصحاب المثل الثاني هم اللذين استحبوا الضلالة على الهدى، و آثروا الباطل على الحق، و عموا عنه بعد أن أبصروه و جحدوه بعد أن عرفوه. فهذا حال المغضوب عليهم، و الأول حال الضالين. و حال الطائفتين مخالف حال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالى: *اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ مِصْبَاحٌ فِي زُجَاجَةٍ إِلَى قَوْلِهِ: لِيُجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ يَزُوقُ مِزْنَ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) [النور: ٣٥-٣٨] فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة المنعم عليهم: و هم أهل النور، و الضالين: و هم أصحاب السراب، و المغضوب عليهم: و هم أهل الظلمات المتركمة، و الله أعلم. فالمثل الأول من المثليين: لأصحاب العلم الذي لا ينفع، و الاعتقادات الباطلة، البدائع في علوم القرآن، ص: ١٧٠ و كلاهما مضاد للهدى و دين الحق، و لهذا مثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك و الشبهات و العلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، و أنها أمواج متركمة من فوقها سحب مظلم. و هكذا أمواج الشكوك، و الشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكت عليها سحب الغي و الهوى و الباطل. فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين، و ليطابق بينهما المثليين يعرف عظمة القرآن و جلالته، و أنه تنزيل من حكيم حميد. و أخبر- سبحانه- أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورا، بل تركهم على الظلمة التي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور، فإنه سبحانه ولى الذي آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. و في المسند من حديث عبد الله بن عمرو: أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، و ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، و من أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله» «١». فالله سبحانه خلق الخلق، فمن أراد هدايته جعل له نورا وجوديا يحيا به قلبه و روحه كما يحيى به بدنه بالروح التي ينفخها فيه، فهما حياتان: حياة البدن بالروح، و حياة الروح و القلب بالنور. و لهذا سمي- سبحانه- الوحي روحا لتوقف الحياة الحقيقية عليه، كما قال تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ [النحل: ٢]، و قال: يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ [غافر: ١٥]، و قال تعالى: وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا [الشورى: ٥٢]، فجعل وحيه روحا و نورا، فمن لم يحيه بهذا الروح، فهو ميت، و من لم يجعل نورا منه فهو في الظلمات ما له من نور.

مثل في بيان حال الكفار

مثل في بيان حال الكفار و منها قوله تعالى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) [الفرقان]، فشبهه أكثر الناس بالأنعام، و الجامع بين النوعين التساوي في عدم () رواه الإمام أحمد (٦٨٥٤)، و قال

الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» و الحاكم (٣٠ / ١ - ٣١). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٧١ قبول الهدى و الانقياد، و جعل

الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام، لأن البهيمة يهديها سائقها تهتدي، و تتع الطريق فلا تحيد عنها يمينا و لا شمالا، و الأكثرون يدعوهم الرسل و يهدونهم السبيل، فلا يستجيبون و لا يهتدون، و لا يفرقون بين ما يضرهم و بين ما ينفعهم، و الأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات و الطريق فتجتنبه، و ما ينفعها فتؤثره، و الله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها، و لا ألسنة تنطق بها، و أعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما أعطى و جعل لهم من العقول و القلوب و الألسنة و الأسماع و الأبصار، فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدى إلى الرشد و إلى الطريق مع الدليل أضل و أسوأ حالا ممن لا يهتدى، حيث لا دليل معه.

مثل في الذين اتخذوا أولياء من دون الله تعالى

مثل في الذين اتخذوا أولياء من دون الله تعالى و منها قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)** [العنكبوت، فذكر - سبحانه - أنهم ضعفاء، و أن الذين اتخذوهم أولياء هم أضعف منهم، فهم في ضعفهم، و ما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتا، و هو أوهن البيوت و أضعفها. و تحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفا، كما قال تعالى: **وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)** [مريم، و قال تعالى: **وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)** [يس، و قال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: **وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادَهُمْ غَيْرَ تَتَابُعًا (١٠١)** [هود]. فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به، و يتكبر به و يستنصر به لم يحصل له به إلا - ضد مقصوده. و في القرآن أكثر من ذلك، و هذا من أحسن الأمثال و أدلها على بطلان الشرك، و خسارة صاحبه، و حصوله على ضد مقصوده. فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله: **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ؟** البدائع في علوم القرآن، ص: ١٧٢ فالجواب: أنه - سبحانه - لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، و إنما نفى عنهم بأن اتخذوهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا، فلو علموا ذلك لما فعلوه، و لكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه، يفيدهم عزا و قدرة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه.

مثل في ضلال المشركين

مثل في ضلال المشركين و منها قوله تعالى: **ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)** [الروم، و هذا دليل قياسي احتج الله - سبحانه - به على المشركين، حيث جعلوا له من عبيده و ملكه شركاء، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم، لا - يحتاجون فيها إلى غيرهم، و من أبلغ الحجج أن يأخذ الإنسان من نفسه و يحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها، معلوم لها، فقال: هل لكم مما ملكت أيمانكم من عبيد و إيمانكم شركاء في المال و الأهل. أي: هل يشاركم عبيدكم في أموالكم و أهليكم، فأنتم و هم في ذلك سواء، أ تخافون أن يقاسموكم أموالكم و يشاطروكم إياها، و يستأثرون ببعضها عليكم، كما يخاف الشريك شريكه. و قال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا. و المعنى: هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله و أهله حتى يساويه في التصرف في ذلك، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه، كما يخاف غيره من الشركاء و الأحرار، فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم، فلم عدلتكم بي من خلقى من هو مملوك لى؟ فإن كان هذا الحكم باطلا في فطركم و عقولكم مع أنه جائز عليكم ممكن في حقكم إذ ليس عبيدكم ملكا لكم حقيقة، و إنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، و أنتم و هم عباد لى فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقى مع أن من جعلتموهم لى شركاء عبيدى و ملكى و خلقى؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولى العقول.

مثل الموحد والمشرک

مثل الموحد والمشرک و منها قوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) [الزمر]، هذا مثل ضربه الله - سبحانه - للمشرک البدائع في علوم القرآن، ص: ١٧٣ و الموحد، فالمشرک بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاحنون. و الرجل المتشاكس: الضيق الخلق، فالمشرک لما كان يعبد آلهة شتى شبه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين. و الموحد لما كان يعبد الله وحده، فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلم له و علم مقاصده، و عرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلقاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير منازع فيه، مع رافة مالكه به و رحمته له و شفقتة عليه و إحسانه إليه و توليه لمصالحه، فهل يستوى هذان العبدان؟ و هذا من أبلغ الأمثال، فإن الخالص لمالك واحد، يستحق من معونته و إحسانه و التفاته إليه و قيامه بمصالحه، ما لا يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون.

مثل المغتاب

مثل المغتاب و منها قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) [الحجرات] ، و هذا من أحسن القياس التمثيلي، فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، و لما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته، كأنه بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت. و لما كان المغتاب عاجزا عن دفعه عن نفسه بكونه غائبا عن ذمه، كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه، و لا يستطيع أن يدفع عن نفسه. و لما كان مقتضى الأخوة: التراحم و التواصل و التناصر، فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم و العيب و الطعن، كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه. و الأخوة تقتضى حفظه و صيانتة و الذب عنه، و لما كان المغتاب متمتعا بعرض أخيه، متفكها بغيبته و ذمه، متحليا بذلك، شبه بمن يأكل لحم أخيه بعد تقطيعه، و لما كان المغتاب محبا لذلك معجبا به شبه بمن يحب أكل لحم أخيه ميتا، و محبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه. فتأمل هذا التشبيه و التمثيل، و حسن موقعه، و مطابقتة المعقول فيه المحسوس، و تأمل إخباره عنهم بكرهه أكل لحم الأخ ميتا، و وصفهم بذلك في آخر الآية، و الإنكار عليهم في البدائع في علوم القرآن، ص: ١٧٤ أولها، أن يحب أحدهم ذلك، فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله و نظيره؟ فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، و شبه لهم ما يحبونه بما أكرهه شيء إليهم، و هم أشد شيء نفرة عنه، فلهذا يوجب العقل و الفطرة و الحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة، عما هو نظيره و مشبهه، و بالله التوفيق.

مثل من حمل الكتاب و لم يعمل به

مثل من حمل الكتاب و لم يعمل به و منها قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) [الجمعة]، فقاس من حملة - سبحانه - كتابه، ليؤمن به و يتدبره، و يعمل به، و يدعو إليه ثم خالف ذلك، و لم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر و لا تفهم، و لا اتباع له، و تحكيم له، و عمل بموجبه، كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدرى ما فيها، و حظه منها حملها على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره. فهذا المثل، و إن كان قد ضرب لليهود؛ فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن، فترك العمل به، و لم يؤد حقه، و لم يره حق رعايته.

مثل للكفار و مثان للمؤمنين

مثل في تشبيه من أعرض عن كلامه و تدبره و منها قوله تعالى في تشبيه من أعرض عن كلامه و تدبره: فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَزُتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) [المدرثر]، شبههم في إعراضهم و نفورهم عن القرآن بحمر رأّت الأسد أو الرماء، ففرت منه، و هذا من بديع القياس و التمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر، و هي لا تعقل شيئاً، فإذا سمعت صوت الأسد، أو الرامى نفرت منه أشد النفور، و هذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذى فيه سعادتهم، و حياتهم كنفور الحمر عما يهلكها و يعقرها. و تحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة، فإنها لشدة نفورها، قد استنفر بعضها بعضاً، و حضه على النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدراً زائداً على الفعل المجرد. فكأنها تواصلت بالنفور، و تواطأت عليه، و من قرأها بتفتح الفاء «١» فـالمعنى: أن القسـورة اسـتنفـرها و حملها على النفـور بيأسه و شـدته.

(_____ قرأ نافع و ابن عامر و المفضل عن

عاصم: (مستنفرة) بفتح الفاء، و الباقون بكسر الفاء، انظر السبعة في القراءات لابن مجاهد. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٧٧

فصل في الفوائد و الحكم من ضرب الأمثال

فصل في الفوائد و الحكم من ضرب الأمثال كم في القرآن من مثل عقلى و حسى ينبه به العقول على حسن ما أمر به، و قبح ما نهى عنه. فلو لم يكن في نفسه كذلك لم يكن لضرب الأمثال للعقول معنى، و لكان إثبات ذلك بمجرد الأمر و النهى، دون ضرب الأمثال، و تبين جهة القبح المشهودة بالحس و العقل. و القرآن مملوء بهذا لمن تدبره، كقوله تعالى: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) [الروم يحتج - سبحانه - عليهم بما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكاً له، فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه، و لا يرضى بذلك، فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء تعبدونهم كعبادتى؟ و هذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر فى العقول و الفطر، و السمع نبه العقول و أرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك. و كذلك قوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءٌ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) [الزمر] احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئو الملكة، و حال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له، فهل يصح فى العقول استواء حال العبدین؟ فكذلك حال المشرك و الموحد الذى قد سلمت عبوديته لإلهه الحق، لا يستويان. و كذل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) [البقرة] ممثلاً لقبح الرياء المبطل للعمل، و المن و الأذى المبطل للصدقات ب «صفوان» و هو الحجر الأملس عليه تراب: غبار قد لصق به، فأصابه مطر شديد فأزال ما عليه من التراب «فتركه صلدا»: أملس لا شىء عليه. و هذا المثل فى غاية المطابقة لمن فهمه. ف «الصفوان» و هو الحجر. كقلب المرائى و المان و المؤذى. و «التراب» الذى لصق به ما تعلق به من أثر عمله و صدقته. و «الوابل»: المطر الذى به حياة الأرض. فإذا صادفها لينه قابله: نبت فيها الكلاء، و إذا صادف الصخور و الحجارة الصم: لم ينبت فيها شيئاً، فجاء هذا الوابل إلى التراب الذى على الحجر، فصادفه رقيقاً، فأزاله، فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات. البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٧٨ و هذا يدل على أن قبح «المن، و الأذى، و الرياء» مستقر فى العقول، فلذلك نبهها على شبهه و مثاله. و عكس ذلك قوله تعالى: وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ائْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَ تَبْيِئَةً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) [البقرة] فإن كانت هذه الجنة التى بموضع عال حيث لا تحجب عنها الشمس و الرياح، و قد أصابها مطر شديد. فأخرجت ثمرتها ضعفى ما يخرج غيرها- إن كانت مستحسنة فى العقل و الحس. فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله، لا لجزاء من الخلق، و لا لشكور، بل بثبات من نفسه، و قوة على الإنفاق، لا يخرج النفقة و قلبه يرجف على خروجها، و يدها ترتعشان، و يضعف قلبه، و يخور

حظهم منه الإيمان، و حظ أرباب القلوب المنحرفة عن الصحة الافتتان. و لهذا جعل - سبحانه - إحكام آياته في مقابلة ما يلقي الشيطان بإزاء الآيات المحكمات في مقابلة المتشابهات. فالإحكام هاهنا بمنزلة إنزال المحكمات هناك، و نسخ ما يلقي الشيطان هاهنا في مقابلة رد المتشابه إلى المحكم هناك. و النسخ هاهنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الرب سبحانه. و للنسخ معنى آخر و هو النسخ من أفهام المخاطبين ما فهموه مما لم يردده و لا دل اللفظ عليه و إن أوهمه، كما أطلق الصحابة النسخ على قوله: **وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** [البقرة: ٢٨٤]. فهذا نسخ من الفهم لا نسخ للحكم الثابت، فإن المحاسبة لا تستلزم العقاب في الآخرة و لا في الدنيا أيضا. و لهذا عمهم بالمحاسبة ثم أخبر بعدها أنه يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء. ففهم المؤاخذه التي هي المعاقبة من الآية تحميل لها فوق وسعها، فرفع هذا المعنى من فهمه بقوله: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا [البقرة: ٢٨٦]، إلى آخرها. فهذا رفع لفهم غير المراد من إلقاء الملك، و ذاك رفع لما ألقاه غير الملك، في أسمعهم أو في التمني. و للنسخ معنى ثالث عند الصحابة و التابعين، و هو ترك الظاهر إما بتخصيص عام أو بتقييد مطلق، و هذا كثير في كلامهم جدا. و له معنى رابع، و هو الذي يعرفه المتأخرون، و عليه اصطلاحوا، و هو رفع الحكم بجملته بعد ثبوته بدليل رافع له، فهذه أربعة معان للنسخ «١» (_____).

إغائه للهفان (١/٣٦٨). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٨١

و الإحكام له ثلاثة معان:

و الإحكام له ثلاثة معان: أحدهما: الإحكام الذي في مقابلة المتشابه، كقوله: **مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ** [آل عمران: ٧]. و الثاني: الإحكام في مقابلة نسخ ما يلقي الشيطان كقوله: **فَيَنْسِخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** [الحج: ٥٢] و هذا الإحكام يعم جميع آياته، و هو إثباتها و تقريرها و بيانها، و منه قوله **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ** [هود: ١]. الثالث: إحكام في مقابلة الآيات المنسوخة، كما يقول السلف كثيرا: هذه الآية محكمة غير منسوخة. و ذلك لأن الإحكام تارة يكون في التنزيل، فيكون في مقابلة ما يلقيه الشيطان في أميته ما يلقيه المبلغ أو في سمع المبلغ. فالحكم هنا هو المنزل من عند الله أحكمه الله، أي فصله من اشتباهه بغير المنزل، و فصل منه ما ليس منه بإبطاله. و تارة يكون في إبقاء المنزل و استمراره فلا ينسخ بعد ثبوته. و تارة يكون في معنى المنزل و تأويله، و هو تمييز المعنى المقصود من غيره حتى لا يشبهه به «١».

التحذير ممن يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة

التحذير ممن يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة سألت عائشة رضی الله عنها رسول الله صلى الله عليه و سلم، عن قوله تعالى: **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** [آل عمران: ٧]، فقال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمي الله، فاحذروهم» متفق عليه «٢».

بيان خطأ الأخذ بالمتشابه في رد المحكم

بيان خطأ الأخذ بالمتشابه في رد المحكم ذكر أحمد الاحتجاج على إبطال قول من عارض السنن بظاهر القرآن، و ردها بذلك و هذا فعل الذين يستمسكون بالمتشابه في رد المحكم، فإن لم يجدوا لفظا متشابها غير المحكم يردونه به، استخرجوا من المحكم وصفا متشابها، و ردوه به. فلهذا طريقان في رد السنن: (١) سيأتي الكلام في النسخ قريبا. (٢)

إعلام الموقعين (٤/٤٩٦). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٨٢ أحدهما: ردها بالمتشابه من القرآن أو من السنن. الثاني: جعلهم المحكم

متشابهها، ليعطلوا دلالتة. و أما طريقة الصحابة و التابعين و أئمة الحديث، كالشافعي، و الإمام أحمد، و مالك، و أبي حنيفة، و أبي يوسف، و البخاري، و إسحاق، فعكس هذه الطريقة، و هي أنهم يردون المتشابه إلى المحكم، و يأخذون من المحكم ما يفسر لهم المتشابه، و يبينه لهم. فتتفق دلالتة مع دلالة المحكم، و توافق النصوص بعضها بعضا، و يصدق بعضها بعضا، فإنها كلها من عند الله، و ما كان من عند الله. فلا اختلاف فيه، و لا تناقض. و إنما الاختلاف و التناقض فيما كان من عند غيره، و لنذكر لهذا الأصل أمثلة لشدة حاجة كل مسلم إليه أعظم من حاجته إلى الطعام و الشراب. المثال الأول: رد الجهمية النصوص المحكمة غاية الأحكام، المبينة بأقصى غاية البيان: أن الله موصوف بصفات الكمال، من العلم و القدرة و الإرادة و الحياة و الكلام و السمع و البصر و الوجه و اليدين و الغضب و الرضا و الفرح و الضحك و الرحمة و الحكمة، و بالأفعال كالمجىء و الإتيان و النزول إلى السماء الدنيا، و نحو ذلك. و العلم بمجىء الرسول بذلك، و إخباره به عن ربه إن لم يكن فوق العلم بوجوب الصلاة و الصيام و الحج و الزكاة و تحريم الظلم و الفواحش و الكذب، فليس يقصر عنه، فالعلم الضروري حاصل بأن الرسول أخبر عن الله بذلك، و فرض على الأمة تصديقه فيه فرضا لا يتم أصل الإيمان إلا به. فرد الجهمية ذلك بالمتشابه من قوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى: ١١]، و من قوله: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا [مريم: ٦٥]، و من قوله: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) [الإخلاص: ١]. ثم استخرجوا من هذه النصوص المحكمة المبينة احتمالات و تحريفات جعلوها به من قسم المتشابه «١» (١) في معنى

المحكم و المتشابه أكثر من عشرة أقوال ذكرها السيوطي في الإتيان في الباب الثالث و الأربعين، ثم ذكر الاختلاف في معرفة المتشابه هل مما يمكن الاطلاع عليه أم لا!! و مدار الخلاف على فهم قوله تعالى: وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ هَلْ قَوْلُهُ تَعَالَى وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مَعْطُوفًا، و يقولون «حال أو مبتدأ خبره يقولون و الواو للاستئناف. إلخ ... ثم بين اختيار الجمهور من العلماء إلى أن أولى العلم مما يعلم تأويله، و ذهب إلى ذلك النووي في شرحه على مسلم و قال ابن الحاجب: و هو الأطهر. و في المسألة تفصيل انظرها في موضعه، الإتيان (٢/٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ١٨٣ المثال الثاني: ردهم المحكم المعلوم بالضرورة أن الرسل جاءوا به: من إثبات علو الله على خلقه و استوائه على عرشه بمتشابه قول الله تعالى: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ [الحديد: ٤]، و قوله: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ [ق: ١٦]، و قوله: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا [المجادلة: ٧]، و نحو ذلك، ثم تخللوا و تحملوا، حتى ردوا نصوص العلو و الفوقية بمتشابه. المثال الثالث: رد القدرية النصوص الصريحة المحكمة في قدرة الله على خلقه، و أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن بالمتشابه من قوله: وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف: ٤٩]، وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ [فصلت: ٤٦]، إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الطور: ١٦]، ثم استخرجوا لتلك النصوص المحكمة وجوها آخر أخرجوها به من قسم المحكم، و أدخلوها في المتشابه. المثال الرابع: رد الجبرية النصوص المحكمة في إثبات كون العبد قادرا مختارا فاعلا بمشيئته بمتشابه قوله: وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [الإنسان: ٣٠]، وَ مَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [المدثر: ٥٦]، و قوله: مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الأنعام: ٣٩]، و أمثال ذلك، ثم استخرجوا لتلك النصوص من الاحتمالات التي يقطع السامع أن المتكلم لم يردها ما صيروها به متشابهة. المثال الخامس: رد الخوارج و المعتزلة النصوص الصريحة المحكمة غاية الأحكام في ثبوت الشافعة للعصاة، و خروجهم من النار بالمتشابه من قوله: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) [المدثر]، و قوله: رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ [آل عمران: ١٩٢]، و قوله: وَ مَنِ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا [النساء: ١٤]، و نحو ذلك، و فعلوا فيها فعل من ذكرناه سواء. المثال السادس: رد الجهمية النصوص المحكمة التي قد بلغت في صراحتها و صحتها إلى أعلى الدرجات، في رؤية المؤمنين ربهم تبارك و تعالى في عرصات القيامة. و في الجنة المتشابه من قوله: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ [الأنعام: ١٠٣]، و قوله لموسى لَنْ تَرَانِي [الأعراف: ١٤٣]، و قوله: وَ مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْكَمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ [الشورى: ٥١]، ثم أحوالوا المحكم متشابهها و ردوا الجميع. المثال السابع: رد النصوص الصريحة الصحيحة التي تفوق العدد على ثبوت الأفعال الاختيارية للرب

سبحانه وقيامها به، كقوله: كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ [الرحمن: ٢٩]، و قوله: البدائع في علوم القرآن، ص: ١٨٤ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ [التوبة: ١٠٥]، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) [يس]، و قوله: فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ [النمل: ٨]، و قوله: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا [الأعراف: ١٤٣]، و قوله: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمْزَنَّا مُتْرَفِيهَا فَسَيَقُولُوا فِيهَا [الإسراء: ١٦]، و قوله: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا [أول المجادلة]، و قوله: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ. [آل عمران: ١٨١]. و قوله: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا» (١). و قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ [الأنعام: ١٥٨]. و قوله: «إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، و لم يغضب بعده مثله» (٢)، و قوله: «إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي» الحديث (٣). و أضعاف أضعاف ذلك من النصوص التي تزيد على الألف، فردوا هذا كله مع إحكامه بمتشابه قوله: لا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ [الأنعام: ٧٦]. المثال الثامن: رد النصوص المحكمة الصريحة التي في غاية الصحة و الكثرة على أن الرب سبحانه إنما يفعل ما يفعله لحكمه و غاية محموده، وجودها خير من عدمها، و دخول لام التعليل في شرعه و قدره أكثر من أن يعد فردوها بالمتشابه من قوله: لا يُشِئُ عَمَّا يُفَعَّلُ وَهُمْ يُشِئُونَ (٢٣) [الأنبياء]، ثم جعلوها كلها متشابهة. المثال التاسع: رد النصوص الصحيحة الكثيرة الدالة على ثبوت الأسباب شرعا و قدرا، كقوله: بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [الأعراف: ٤٣]، بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ [يونس: ٥٢]، بِمَا قَدَّمْتُمُ أَيْدِيَكُمْ [الأنفال: ٥١]، بِمَا قَدَّمْتُمُ يَدَاكَ [الحج: ١٠]، بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ [الأنعام: ٩٣]، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ [النحل: ١٠٧]، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) [محمد: ٩]، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا [الجاثية: ٣٥]، و قوله: يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ [المائدة: ١٦]، و قوله: يُصَلِّ بِه كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا [البقرة: ٢٦]، و قوله (١):

البخارى (٦٣٢١) في الدعوات، باب: الدعاء نصف الليل. (٢) البخارى (٣٣٤٠) في الأنبياء، باب: قول الله عز و جل وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ [هود: ٢٥]. (٣) مسلم (٣٨ / ٣٩٥) في الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة و أنه إذا لم يحسن الفاتحة و لا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، و الترمذى (٢٩٥٣) في تفسير القرآن، باب: و من سورة فاتحة الكتاب. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٨٥ وَ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (٩) [ق]، و قوله: فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ [الأعراف: ٥٧]، و قوله: فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَ أَغْنَابٍ [المؤمنون: ١٩]، و قوله: قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ [التوبة: ١٤]، و قوله في العسل: فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ [النحل: ٦٩]، و قوله في القرآن: وَ نَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ [الإسراء: ٨٢]، إلى أضعاف أضعاف ذلك من النصوص المثبتة للسببية، فردوا ذلك كله بالمتشابه من قوله: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ [فاطر: ٣]، و قوله: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفال: ١٧]، و قوله النبي صلى الله عليه و سلم: «ما حملتكم، و لكن الله حملكم» (١) و نحو ذلك. و قوله: «إني لا أعطى أحدا، و لا أمنعه» (٢)، و قوله للذي سأله عن العزول عن أمته: «اعزل عنها، فسيأتيها ما قدر لها» (٣)، و قوله: «لا عدوى و لا طيرة» (٤)، و قوله: «فمن أعدى الأول؟» (٥)، و قوله: «أ رأيت إن منع الله الثمرة» (٦)، و لم يقل: منعها البرد و الآفة التي تصيب الثمار، و نحو ذلك من المتشابه الذي إنما يدل على أن مالك السبب و خالقه يتصرف فيه، بأن يسلبه سببته إن شاء، و يبقها عليه إن شاء، كما سلب النار قوة الإحراق عن الخليل عليه السلام. و يا لله العجب أ ترى من أثبت الأسباب، و قال: إن الله خالقها أثبت خالقا غير الله؟! و أما قوله: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفال: ١٧] فغاب عنهم فقه الآية و فهمها، و الآية من أكبر معجزات النبي صلى الله عليه و سلم، و الخطاب بها خاص لأهل بدر، و كذلك القبض التي رمى بها النبي صلى الله عليه و سلم فأوصلها الله - سبحانه - إلى جميع وجوه المشركين، و ذلك خارج عن قدرته صلى الله عليه و سلم، و هو الرمي الذي نفاه عنه، و أثبت له الرمي الذي هو في محل قدرته و هو الحذف. و كذلك القتل الذي نفاه عنهم، هو قتل لم تباشره أيديهم، و إنما باشرتة أيدي الملائكة، فكان أحدهم يشهد في أثر الفارس، و إذا برأسه قد وقع أمامه من ضربة الملك (١) البخارى (٦٦٢٣)

في الأيمان و النذور، باب: قول الله تعالى: لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ [المائدة: ٨٩]. (٢) البخارى (٨٤٤) فى الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة. (٣) مسلم (١٣٤/١٤٣٩) فى النكاح، باب: حكم العزل. (٤) البخارى (٥٧٧٥) فى الطب، باب: لا عدوى، و مسلم (١٠١/٢٢٢٠) فى السلام، باب: لا عدوى و لا طيرة و لا هامة و لا صفر و لا نوء و لا غول و لا يورد ممرض على مصح. (٥) البخارى (٥٧٧٥) فى الطب، باب: لا عدوى، و مسلم (١٠١/٢٢٢٠) فى السلام، باب: لا عدوى و لا طيرة و لا هامة و لا صفر و لا نوء و لا غول و لا يورد ممرض على مصح. (٦) النسائى (٤٥٢٤) فى البيوع، باب: شراء الثمار قبل أن يبدو صلاحها على أن يقطعها و لا يتركها إلى أوان إدراكها. البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٨٦ و لو كان المراد ما فهمه هؤلاء الذين لا فقه لهم فى فهم النصوص، لم يكن فرق بين ذلك و بين كل قتل و كل فعل من شرب أو زنا أو سرقة أو ظلم، فإن الله خالق الجميع، و كلام الله ينزه عن هذا. و كذلك قوله: «ما أنا حملتكم، و لكن الله حملكم»، لم يرد أن الله حملهم بالقدر، و إنما كان النبى صلى الله عليه و سلم متصرفاً بأمر الله منفذاً له، فالله - سبحانه - أمره بحمله، فنفذ أوامره، فكان الله هو الذى حملهم، و هذا معنى قوله: «و الله إنى لا أعطى أحدا شيئاً و لا أمنعه»، و لهذا قال: «و إنما أنا قاسم»، فالله - سبحانه - هو المعطى على لسانه، و هو يقسم ما قسمه بأمره. و كذلك قوله فى العزل: «فسيأتيها ما قدر لها»، ليس فيه إسقاط الأسباب، فإن الله سبحانه إذا قدر خلق الولد، سبق من الماء ما يخلق منه الولد، و لو كان أقل شىء، فليس من كل الماء يكون الولد، و لكن أين فى السنة أن الوطء لا تأثير له فى الولد البتة، و ليس سبباً له؟ و أن الزوج أو السيد إن وطئ أو لم يطأ، فكلا الأمرين بالنسبة إلى حصول الولد و عدمه على حد سواء كما يقوله منكرو الأسباب؟ المثال العاشر: رد الجهمية النصوص المحكمة الصريحة التى تفوت العد على أن الله - سبحانه - تكلم و يتكلم و كلم و يكلم، و قال و يقول، و أخبر و يخبر، و نبأ و ينبئ، و أمر و يأمر، و نهى و ينهى، و رضى و يرضى، و يعطى، و يبشر و ينذر، و يوصل لعباده القول، و يبين لهم ما يتقون، و نادى و ينادى، و ناجى و يناجى، و وعد و أوعد، و يسأل عباده يوم القيامة و يخاطبهم، و يكلم كلَّ منهم ليس بينه و بينه ترجمان و لا حاجب، و يراجعه عبده مراجعته. و هذه كلها أنواع الكلام و التكليم، و ثبوتها بدون صفة التكلم له ممتنع، فردها الجهمية مع إحكامها صراحتها و تعيينها للمراد منها، بحيث لا تحتمل غيره بالمشابهة من قوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ. المثال الحادى عشر: ردوا محكم قوله: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ [الأعراف: ٥٤] و قوله: وَ لَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي [السجدة: ١٣] و قوله: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ [النحل: ١٠٢] و قوله: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء: ١٦٤] و قوله: إِنِّي اضْطَيْقُتُّكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي [الأعراف: ١٤٤]، و غيرها من النصوص المحكمة بالمشابهة من قوله: خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ [الرعد: ١٦] و قوله: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [التكوير] و الآياتان حجة عليهم، فإن صفات الله جل جلاله داخله فى مسمى اسمه، فليس الله اسماً لذات لا سمع لها، و لا البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٨٧ بصر لها، و لا حياة لها، و لا كلام لها، و لا علم، و ليس هذا رب العالمين، و كلامه تعالى، و علمه و حياته و قدرته و مشيئته و رحمته، داخله فى مسمى اسمه، فهو - سبحانه - بصفاته و كلامه الخالق، و كل ما سواه مخلوق. و أما إضافة القرآن إلى الرسول إضافةً تبليغ محض لا إنشاء. و الرسالة تستلزم تبليغ كلام المرسل، و لو لم يكن للمرسل كلام يبلغه الرسول لم يكن رسولا، و لهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلماً، فقد أنكر رسالته، فإن حقيقة رسالتهم تبليغ كلام من أرسلهم. فالجهمية و إخوانهم ردوا تلك النصوص المحكمة بالمشابهة، ثم صيروا الكل متشابهاً، ثم ردوا الجميع، فلم يثبتوا لله فعلاً. يقوم به يكون به فاعلاً، كما لم يثبتوا له كلاماً يقوم به يكون به متكلماً. فلا كلام له عندهم و لا أفعال، بل كلامه و فعله عندهم مخلوق، منفصل عنه، و ذلك لا يكون صفة له، لأنه سبحانه إنما يوصف بما قام به، لا بما لم يقم به. المثال الثانى عشر: و قد تقدم ذكره مجملًا فنذكره هاهنا مفصلاً: رد الجهمية النصوص المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه، و كونه فوق عباده من ثمانية عشر نوعاً: أحدها: التصريح بالفوقية مقرونه بأداة «من» المعينة لفوقية الذات، نحو: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) [النحل]. الثانى: ذكرها مجردة عن الأداة، كقوله: وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ [الأنعام: ١٨]. الثالث: التصريح بالعروج إليه، نحو: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ [المعارج: ٤]، و قوله النبى صلى الله عليه و سلم: «فيخرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم» (١). الرابع: التصريح بالصعود إليه، كقوله: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ [فاطر: ١٠].

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه، كقوله: **يَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ [النساء: ١٥٨]**، وقوله: **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعِيكَ إِلَيَّ [آل عمران: ٥٥]**. السادس: التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتا و قدرا و شرفا، كقوله: **وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة: ٢٥٥]**، **وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [سبأ: ٢٣]**، **إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٍ [الشورى: ٥١]**. السابع: التصريح بتزليل الكتاب منه، كقوله: **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (١)** أخرجه البخارى

(٥٢٢) في مواقيت الصلاة، و مسلم (١٠٠١) في المساجد، و رواه غيرهما. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٨٨ [النحل: ١٠٢]. و هذا يدل على شيئين: على أن القرآن ظهر منه لا- من غيره، و أنه الذى تكلم به لا- غيره. الثانى: على علوه على خلقه، و أن كلامه نزل به الروح الأمين من عنده، من أعلى مكان إلى رسوله. الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، و أن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله: **فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ [فصلت: ٣٨]** و قوله: **وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ لَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) [الأنبياء]**، ففرق بين من له عموما، و من عنده من ممالئكه و عبيده خصوصا، و قوله النبى صلى الله عليه و سلم فى الكتاب الذى كتبه الرب تعالى على نفسه «أنه عنده على العرش» (١). التاسع: التصريح بأنه- سبحانه فى السماء، و هذا عند أهل السنة على أحد وجهين، إما أن تكون «فى» بمعنى «على»، و ما أن يراد بالسماء العلو، لا- يختلفون فى ذلك، و لا- يجوز حمل النص على غيره. العاشر: التصريح بالاستواء مقرونا بأداة «على»، مختصا بالعرش الذى هو أعلى المخلوقات، مصاحبا فى الأكثر لأداة «ثم» الدالة على الترتيب و المهملة، و هو بهذا السياق صريح فى معناه الذى لا يفهم المخاطبون غيره من العلو و الارتفاع، و لا يحتمل غيره البتة. الحادى عشر: التصريح برفع الأيدي إلى الله- سبحانه- كقوله صلى الله عليه و سلم: «إن الله يستحى من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرا» (٢). الثانى عشر: التصريح بنزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا (٣)، و النزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى أسفل. الثالث عشر: الإشارة إليه حسا إلى العلو، كما أشار إليه من هو أعلم به، و ما يجب له و يمتنع عليه من أفراخ الجهمية و المعتزلة و الفلاسفة، فى أعظم مجمع على وجه الأرض يرفع إصبعه إلى السماء، و يقول: «اللهم اشهد» ليشهد الجميع أن الرب الذى أرسله، و دعوا إليه، و استشهد به هـو الذى فوق سماواته على عرشه.

(١) أخرجه البخارى (٢٩٥٥) فى بدء

الخلق، و مسلم (٤٩٣١) فى التوبة. (٢) حديث صحيح، رواه غير واحد بألفاظ متقاربة، رواه أبو داود- الصحيح- (١٣٣٧) و ابن ماجه (٣١١٧) و غيرهما. (٣) سبق تخريجه. البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٨٩ الرابع عشر: التصريح بلفظ «الآين»، الذى هو عند الجهمية بمنزلة «متى» فى الاستحالة، و لا فرق بين اللفظين عندهم البتة، فالقائل: أين الله؟ و متى كان الله؟ عندهم سواء، كقول أعلم الخلق به، و أنصحهم لأمتهم و أعظمهم بيانا عن المعنى الصحيح، بلفظ لا- يوهم باطلا- بوجه: «أين الله؟» (١) فى غير موضع. الخامس عشر: شهادته- التى هى أصدق شهادة عند الله و ملائكته و جميع المؤمنين- لمن قال: إن ربه فى السماء بالإيمان، و شهد عليه أفراخ جهم بالكفر، و صرح الشافعى بأن هذا الذى وصفته- من أن ربه فى السماء- إيمان، فقال فى كتاب فى باب: عتق الرقبة المؤمنة، و ذكر حديث الأمة- السوداء التى سودت وجوه الجهمية، و بيضت وجوه المحمدية- فلما و صفت الإيمان قال: «أعتقها، فإنها مؤمنة»، و هى إنما و صفت كون ربه فى السماء، و أن محمدا عبده و رسوله، فقرنت بينهما فى الذكر، فجعل الصادق المصدق مجموعها هو الإيمان. السادس عشر: إخباره- سبحانه- عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى، فيكذبه فيما أخبره به من أنه فوق السموات، فقال: **يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْ حَا لَعْلَى أَبْلُغِ الْأَشْبَابَ (٣٦) أَشْيَابَ السَّمَاوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا (٣٧) [غافر: ٣٦، ٣٧]**، فكذب فرعون موسى فى إخباره إياه بأن ربه فوق السماء. و عند الجهمية: لا فرق بين الإخبار بذلك، و بين الإخبار بأنه يأكل و يشرب، و على زعمهم يكون فرعون قد نزه الرب عما لا يليق به، و كذب موسى فى إخباره بذلك، إذ من قال عندهم: إن ربه فوق السموات فهو كاذب، فهم فى هذا التكذيب موافقون لفرعون، مخالفون لموسى و لجميع الأنبياء. و لذلك سماهم أئمة السنة: فرعونية، قالوا: و هم شر من الجهمية، فإن الجهمية يقولون: إن الله فى كل مكان بذاته، و هؤلاء عطلوه بالكلية، و أوقعوا عليه الوصف

المطابق للعدم المحض. فأى طائفة من طوائف بنى آدم أثبت الصانع على أى وجه، كان قولهم خيرا من قولهم. السابع عشر: إخباره صلى الله عليه وسلم أنه تردد بين موسى، وبين الله، ويقول له موسى: «ارجع إلى ربك، فسله التخفيف» (٢)، فيرجع إليه ثم ينزل إلى موسى، فيأمره بالرجوع إليه - سبحانه -

(١) يشير إلى حديث معاوية بن الحكم السلمي و صفعه لجاريتته فأراد أن يعتقها فأتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فسألها: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال من أنا، قالت: أنت رسول الله ... إلخ. أخرجه مسلم (٨٣٦) في المساجد، و رواه غير واحد من أئمة الحديث. (٢) مسلم (٢٥٩ / ١٦٢) في الإيمان، باب: الإسرائء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات و فرض الصلوات. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٩٠ فيصعد إليه - سبحانه - ثم ينزل من عنده إلى موسى عدة مرار. الثامن عشر: إخباره تعالى عن نفسه، و إخبار رسوله عنه أن المؤمنين يرونه عيانا جهره كروية الشمس في الظهيرة و القمر ليله البدر. و الذى تفهمه الأمم على اختلاف لغاتها و أوهاها من هذه الرؤية رؤية المقابلة و المواجهة، التى تكون بين الرائي و المرئى فيها مسافة محدودة غير مفرطة فى البعد، فتمتع الرؤية، و لا فى القرب، فلا- تمكن الرؤية، لا- تعقل الأمم غير هذا. فإما أن يروه سبحانه من تحتهم - تعالى الله - أو من خلفهم، أو من أمامهم، أو عن أيانهم أو عن شمائلهم أو من فوقهم، و لا بد من قسم من هذه الأقسام إن كانت الرؤية حقا، و كلها باطل سوى رؤيتهم له من فوقهم، كما فى حديث جابر الذى فى المسند و غيره: «بيننا أهل الجنة فى نعيمهم، إذ سطر لهم نور، فرفعوا رءوسهم، فإذا الجبار قد أشرف عليهم من فوقهم، و قال: يا أهل الجنة، سلام عليكم» (١)، ثم قرأ قوله: سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ (٨٥) [يس ثم يتوارى عنهم، و تبقى رحمته و بركته عليهم فى ديارهم. و لا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية، و لهذا طرد الجهمية أصلهم، و صرحوا بذلك، و ركبوا النفيين معا، و صدق أهل السنة بالأمرين معا، و أقروا بهما، و صار من أثبت الرؤية، و نفى علو الرب على خلقه، و استواءه على عرشه، مذبذبا بين ذلك لا إلى هؤلاء، و لا إلى هؤلاء. فهذه أنواع من الأدلة السمعية المحكمة، و إذا بسطت أفرادها كانت ألف دليل على علو الرب على خلقه و استوائه على عرشه. فترك الجهمية ذلك كله و ردوه بالمتشابه من قوله: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ [الحديد: ٤]، و رده زعيمهم المتأخر بقوله: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)، و بقوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى: ١١]. ثم ردوا تلك الأنواع كلها متشابهة، فسلطوا المتشابه على المحكم، و ردوه به، ثم ردوا المحكم متشابهها، فتارة يحتجون به على الباطل، و تارة يدفعون به الحق، و من له أدنى بصيرة يعلم أنه لا- شىء فى النصوص أظهر، و لا- أيين دلالة من مضمون هذه النصوص، فإذا كانت متشابهة، فالشريعة كلها متشابهة، و ليس فيها شىء محكم البتة! و لازم هذا القول - لزوما لا محيد عنه - أن ترك الناس بدونها خير لهم من إنزالها إليهم فإنها أوهمتهم، و أفهمتهم غير المراد، و أوقعتهم فى اعتقاد الباطل، و لم يتبين لهم ما هو (١) ابن ماجه (١٨٤) فى المقدمة،

باب: فيما أنكرت الجهمية، و ضعفه الألبانى، و قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ١٠٠، ١٠١): «رواه البزار و فيه الفضل بن عيسى الرقاشى و هو ضعيف»، و يغنى عنه الأحاديث الصحيحة فى هذا الباب كما سبق. البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٩١ الحق فى نفسه، بل أحيلوا فيه على ما يستخرجونه بعقولهم و أفكارهم و مقاييسهم. فنسأل الله مثبت القلوب - تبارك و تعالى - أن يثبت قلوبنا على دينه، و ما بعث به رسوله من الهدى و دين الحق، ألما يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، إنه قريب مجيب. المثال الثالث عشر: رد الراضة النصوص الصحيحة الصريحة المحكمة المعلومة عند خاص الأمة و عامتها بالضرورة فى مدح الصحابة و الثناء عليهم، و رضاء الله عنهم، و مغفرته، و تجاوزه عن سيئاتهم، و وجوب محبة الأمة، و اتباعهم لهم و استغفارهم لهم، و اقتدائهم بهم بالمتشابه من قوله: «لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» (١)، و نحوه. كما ردوا المحكم الصريح من أفعالهم و إيمانهم و طاعتهم بالمتشابه من أفعالهم، كفعل إخوانهم من الخوارج، حين ردوا النصوص الصحيحة المحكمة فى موالاته المؤمنين و محبتهم، و إن ارتكبوا بعض الذنوب التى تقع مكفرة بالتوبة النصوح و الاستغفار، و الحسنات الماحية، و المصائب المكفرة، و دعاء المسلمين لهم فى حياتهم و بعد موتهم، و بالامتحان فى البرزخ، و فى موقف القيامة، و بشفاعته من يأذن الله له فى الشفاعه، و بصدق التوحيد، و برحمه أرحم

الراحمين. فهذه عشرة أسباب تحقق أثر الذنوب، فإن عجزت هذه الأسباب عنها، فلا بد من دخول النار، ثم يخرجون منها. فتركوا ذلك كله بالمتشابه من نصوص الوعيد وردوا المحكم من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم الذي يحتمل أن يكونوا قصدوا به طاعة الله، فاجتهدوا، فأداهم اجتهادهم إلى ذلك، فحصلوا فيه على الأجر المنفرد، و كان حظ أعدائهم منه تكفيرهم و استحلال دمائهم و أموالهم، و إن لم يكونوا قصدوا ذلك كان غايتهم أن يكونوا قد أذنبوا، و لهم من الحسنات و التوبة و غيرها ما يرفع موجب الذنب، فاشتركوا هم و الرافضة في رد المحكم من النصوص، و أفعال المؤمنين بالمتشابه منها، فكفروهم و خرجوا عليهم بالسيف يقتلون أهل الإيمان و يدعون أهل الأوثان، ففساد الدنيا و الدين من تقديم المتشابه على المحكم، و تقديم الرأي على الشرع، و الهوى على الهدى، و بالله التوفيق. المثال الرابع عشر: رد المحكم الصريح الذي لا يحتمل إلا وجهاً واحداً من وجوب الطمأنينة و توقف أجزاء الصلاة، و صحتها عليها، كقوله: «لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها» (١) أخرجه البخاري (١٧٣٩) في

الحج، باب: الخطبة أيام منى، و مسلم (١٦٧٩ / ٢٩) في القسام، باب: تغليب تحريم الدماء و الأعراض و الأموال. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٩٢ صلبة في ركوعه و سجوده «١»، و قوله لمن تركها: «وصل فإنك لم تصل» «٢» و قوله: «ثم اركع حتى تطمئن راکعاً» «٣»، فنفي أجزاءها بدون الطمأنينة، و نفى مسماها الشرعي بدونها، و أمر بالإتيان بها، فرد هذا المحكم الصريح بالمتشابه من قوله: اركعوا و اسجدوا [الحج: ٧٧]. المثال الخامس عشر: رد المحكم الصريح من تعيين التكبير للدخول في الصلاة بقوله: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر» «٤»، و قوله: «تحريمها التكبير» «٥»، و قوله: «لا يقبل الله صلاة أحدكم، حتى يضع الوضوء مواضعه، ثم يستقبل القبلة، و يقول: الله أكبر» «٦»، و هي نصوص في غاية الصحة، فردت بالمتشابه من قوله: و ذكر اسم ربك فصلّى (١٥). [الأعلى]. المثال السادس عشر: رد النصوص المحكمة الصريحة الصحيحة في تعيين قراءة فاتحة الكتاب فرضاً، بالمتشابه من قوله: فأقرأ ما تيسر من القرآن [المزمل: ٢٠]، و ليس ذلك في الصلاة، و إنما هو بدل عن قيام الليل، و بقوله للأعرابي: «ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن» «٧»، و هذا يحتمل: أن يكون قبل تعيين الفاتحة للصلاة، و أن يكون الأعرابي لا يحسنها، و أن يكون لم يسئ في قراءتها فأمره أن يقرأ معها ما تيسر من القرآن، و أن يكون أمره بالاكْتفاء بما تيسر عنها، فهو متشابه يحتمل هذه الوجوه، فلا يترك له المحكم الصريح. (١) أبو داود (٨٥٥) في الصلاة، باب:

صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع و السجود، و الترمذى (٢٦٥) في الصلاة، باب: ما جاء فيمن لا يقيم صلبه في الركوع و السجود. (٢) البخاري (٧٩٣) في الأذان، باب: أمر النبي صلى الله عليه و سلم الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، و مسلم (٣٩٧ / ٤٥) في الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة. (٣) سبق تخريجه في الحاشية السابقة. (٤) أبو داود (٦١) في الطهارة، باب: فرض الوضوء، و الترمذى (٢٣٨) في أبواب الصلاة، باب: ما جاء في تحريم الصلاة و تحليلها، و قال: «حسن». (٥) رواه أبو داود (٨٥٧) في الصلاة، باب: من لا يقيم صلبه، و ضعفه الألباني رحمه الله تعالى. (٦) سبق تخريجه. (٧) إعلام الموقعين (٢ / ٣٠٤ - ٣٢٠) البدائع في علوم القرآن، ص: ١٩٣

الناسخ و المنسوخ

حكمة النسخ في القرآن

إشارة

حكمة النسخ في القرآن إذا كان الرب تعالى لا حجر عليه بل يفعل ما يشاء، و يحكم ما يريد و يتلى عباده بما يشاء و يحكم و لا يحكم عليه، فما الذي يحيل عليه و يمنعه أن يأمر أمه بأمر من أوامر الشريعة، ثم ينهى أمه أخرى عنه، أو يحرم محرماً على أمه و يبيحه

لأمة أخرى. بل أى شيء يمنعه سبحانه أن يفعل ذلك في الشريعة الواحدة في وقتين مختلفين بحسب المصلحة وقد بين ذلك سبحانه وتعالى: ما نَنْسُخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) [البقرة: ١٠٦] فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء ويثبت ما يشاء، كما أنه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء ويثبت «١» فهكذا أحكامه الدينية الأمرية، ينسخ منها ما يشاء ويثبت منها ما يشاء. فمن أكفر الكفر وأظلم الظلم: أن يعارض الرسول الذي جاء بالبينات والهدى وتدفع نبوته وتجحد رسالته؛ بكونه أتى بإباحة بعض ما كان محرماً على من قبله أو تحريم بعض ما كان مباحاً لهم، وبالله التوفيق يضل من يشاء ويهدي من يشاء. ومن العجب أن هذه الأمة الغضبية «٢» تحجر على الله تعالى أن ينسخ ما يشاء من شرائعه، وقد تركوا شريعة موسى عليه السلام في أكثر ما هم عليه، وتمسكوا بما شرعه لهم أبحارهم وعلماؤهم فمن ذلك: أنهم يقولون في صلاتهم ما ترجمته هكذا: اللهم اضرب ببوق عظيم ليفينا واقبضنا جميعاً من أربعة أقطار الأرض إلى قـدسك سـبحانك يـا جـامع شـعـرات قـوم إـسـرائيل.

(١) قال تعالى: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ

يُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) [الرعد: ٣٩] وهي مذكورة بعد بيان أن الرسل لا تأتي بشيء من نفسها إنما بالوحي، وأن الآجال مقدرة في كتابه يقول تعالى عن ذلك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب [الرعد: ٣٨] فهذا المحور إما لكتب الآجال أو نسخ ما في شرائع والله أعلم. (٢) يعني اليهود لعنهم الله تعالى. البدائع في علوم القرآن، ص: ١٩٤ ويقولون كل يوم ما ترجمته هكذا: اردد حكامنا كالأولين ومسراتنا كالأبتداء وابن أورشليم قرية قدسك وأعزنا بابتنائها سبحانه يا باني يورشليم. فهذا قولهم في صلاتهم مع علمهم بأن موسى وهارون عليهما السلام لم يقولوا شيئاً من ذلك ولكنها فصول لفقوها بعد زوال دولتهم. وكذلك صيامهم كصوم إحراق بيت المقدس، و صوم أحصا و صوم كدليا التي جعلوها فرضاً لم يصمها موسى، ولا يوشع بن نون، وكذلك صوم صلب هامان، ليس شيء من ذلك في التوراة، وإنما وضعوها لأسباب اقتضت وضعها عندهم. هذا مع أن في التوراة ما ترجمته: لا تزيدوا على الأمر الذي أنا موصيكم به شيئاً، ولا تنقصوا منه شيئاً «١».

حكم نسخ القرآن بالسنة

حكم نسخ القرآن بالسنة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة» «٢»: هذا الحكم متفق عليه بين الأمة، حتى عند من قال: إن الزيادة على النص نسخ «٣»، و القرآن لا ينسخ بالسنة، فإنه اضطر إلى قبول هذا الحكم وإن كان زائداً على ما في القرآن، سواء سماه نسخاً أو لم يسمه. كما اضطر إلى تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، وبينها وبين خالتها، مع أنه زيادة على نص القرآن، وذكرها هذا مع حديث أبي القعيس في تحريم لبن الفحل على أن المرضعة والزوج صاحب اللبن قد صارا أبوين للطفل، و صار الطفل ولداً لهما، فانتشرت الحرمة من هذه الجهات الثلاث، فأولاد الطفل وإن نزلوا أولاد ولدهما، وأولاد كل واحد من المرضعة والزوج من الآخر ومن غيره، إخوته وأخواته من الجهات الثلاث، فأولاد أحدهما من الآخر إخوته وأخواته لأبيه وأمه، وأولاد الزوج من غيرها إخوته وأخواته من أبيه، وأولاد المرضعة من غيره إخوته وأخواته لأمه، و صار آباؤها أجداده وجداته، و صار إخوة المرأة وأخواتها أخواله وخالاته، وإخوة صاحب اللبن وأخواته أعمامه وعماته فحرمة الرضاع تنتشر من هذه الجهات الثلاث فقط «٤» (١) إغاثة اللهفان [٢/

٣٢٧، ٣٢٦]. (٢) البخارى (٥٠٩٩) فى النكاح، باب: وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ [النساء: ٢٣]، و مسلم (١٤٤٤/٢) فى الرضاع، باب: يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة. (٣) انظر ما كتبناه فى المقدمة عن مسألة النسخ. (٤) زاد المعاد (٥/٥٥٦). البدائع فى علوم

أمثلة على النسخ

أمثلة على النسخ [١] قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) [البقرة]، فأمرهم تعالى أن يتركوا ما بقي من الربا وهو ما لم يقبض و لم يأمرهم برد المقبوض، لأنهم قبضوه قبل التحريم فأقرهم عليه، بل أهل قباء صلوا إلى القبلة المنسوخة بعد بطلانها و لم يعيدوا ما وصلوا، بل استداروا في صلاتهم و أتموها، لأن الحكم لم يثبت في حقهم إلا بعد بلوغه إليهم، و في هذا الأصل ثلاثة أقوال للفقهاء و هي لأصحاب أحمد، هذا أحدها و هو أصحابها، و هو اختيار شيخنا رضى الله عنه. و الثانى: أن الخطاب إذا بلغ طائفة ترتب في حق غيرهم و لزمهم كما لزم من بلغه، و هذا اختيار كثير من أصحاب الشافعى و غيرهم. الثالث: الفرق بين الخطاب الابتدائى و الخطاب الناسخ، فالخطاب الابتدائى يعم ثبوته من بلغه و غيره، و الخطاب الناسخ لا يترتب في حق المخاطب إلا بعد بلوغه، و الفرق بين الخطابين أنه في الناسخ مستصحب لحكم مشروع مأمور به، بخلاف الخطاب الابتدائى، ذكره القاضى أبو يعلى في بعض كتبه «١». و نصوص القرآن و السنة تشهد للقول الأول، و ليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة و إنما أشرنا إليها إشارة. قال أبو القاسم «٢»: و في الحديث دليل على أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يصلى بمكة إلى بيت المقدس، و هو قول ابن عباس يعنى قوله للبراء: «لقد كنت على قبلة» «٣». و قالت طائفة: ما صلى إلى بيت المقدس إلا منذ قدم المدينة عشيرة عشيرة شبرا أو سبعة عشر شهرًا.

(١) هو الإمام العلامة شيخ الحنابلة، محمد بن الحسن بن محمد بن خلف البغدادى الحنبلى صاحب التصانيف المبهرة منها «مسائل الإيمان» و «العدة» فى أصول الفقه و انظر منه (٣/ ٧٨٠) و ما بعدها. - انظر السير (١٨/ ٨٩)، و طبقات الحنابلة (٢/ ١٩٣ - ٢٣٠). (٢) هو العلامة السهيلي، انظر الروض الأنف (٤/ ١١٣ - ١١٤). (٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٨٦ - ٨٨)، و الحديث فى كنز العمال معزولا لأبى نعيم (٨/ ٢٨). و انظر الإصابة (١/ ٢٣٨). البدائع فى علوم القرآن، ص: ١٩٦ فعلى هذا يكون فى القبلة نسخان، نسخ سنة بسنة، و نسخ سنة بقرآن، و قد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف فى هذه المسألة، فروى عنه من طرق صحاح أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان إذا صلى بمكة استقبل بيت المقدس و جعل الكعبة بينه و بين بيت المقدس «١»، فلما كان صلى الله عليه و سلم يتحرى القبلتين جميعا لم بين توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة، و لذلك - و الله أعلم - قال الله تعالى فى الآية الناسخة: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ [البقرة: ١٥٠]، أى من أى جهة جئت إلى الصلاة و خرجت إليها فاستقبل الكعبة مستدبرا بيت المقدس أو لم تكن، لأنه كان بمكة يتحرى فى استقباله بيت المقدس أن تكون الكعبة بين يديه. قال و تدبر قوله: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ و قال لأمته: وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [البقرة: ١٥٠]، و لم يقل: «حيث ما خرجتم»، و ذلك لأنه صلى الله عليه و سلم كان إمام المسلمين، فكان يخرج إليهم فى كل صلاة ليصلى بهم، و كان ذلك واجبا عليه إذ كان الإمام المقتدى به، فأفاد ذكر الخروج فى خاصته هذا المعنى و لم يكن غيره هكذا يقتضى الخروج، و لا سيما النساء و من لا جماعة عليه. قلت: و يظهر فى هذا معنى آخر و هو أن قوله: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ و حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [البقرة: ١٥٠]، خطاب عام له و لأمته، يقتضى أمرهم بالتوجه إلى المسجد الحرام فى أى موضع كانوا من الأرض و قوله: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ خطاب بصيغة الإفراد و المراد هو و الأمة كقوله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ [الأحزاب: ١]، و نظائره. و هو يفيد الأمر باستقبالها من أى جهة و مكان خرج منه و قوله: وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ يفيد الأمر باستقبالها فى أى موضع استقر فيه و هو تعالى لم يقيد الخروج بغاية، بل أطلق غايته كما عم مبدأه، فمن حيث خرج إلى أى مخرج كان من صلاة أو غزو أو حج أو غير ذلك فهو مأمور باستقبال المسجد هو و الأمة، و فى أى بقعة كانوا من الأرض فهو مأمور هو و الأمة باستقباله. فتناولت الآيتان أحوال الأمة كلها، فى مبدأ تنقلهم من حيث خرجوا و فى غايته إلى حيث انتهوا و فى حال استقرارهم حيثما كانوا، فأفاد ذلك عموم الأمر بالاستقبال فى الأحوال الثلاث التى لا ينفك منها العبد، فتأمل هذا المعنى و وازن بينه و بين ما أبداه أبو

(١) راجع تفسير الطبرى (٢ / ١٩).

البدائع في علوم القرآن، ص: ١٩٧ القاسم يتبين لك الرجحان، والله أعلم بما أراد من كلامه، وإنما هو كد أفهام أمثالنا من القاصرين. فقله: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ يَتَنَاوَلْ مَبْدَأُ الْخُرُوجِ وَغَايَتُهُ لَهُ وَ لِلْأُمَّةِ وَ كَانَ أَوْلَىٰ بِهَذَا الْخَطَابِ لِأَنَّ مَبْدَأَ التَّوْجِهِ عَلَىٰ يَدَيْهِ كَانَ، وَ كَانَ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَى التَّحْوِيلِ. وَ قَوْلُهُ: وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ يَتَنَاوَلْ أَمَاكِنَ الْكُونِ كُلِّهَا لَهُ وَ لِلْأُمَّةِ، وَ كَانُوا أَوْلَىٰ بِهَذَا الْخَطَابِ لِتَعَدُّدِ أَمَاكِنِ أَكْوَانِهِمْ وَ كَثْرَتِهَا بِحَسَبِ كَثْرَتِهِمْ وَ اخْتِلَافِ بِلَادِهِمْ وَ أَقْطَارِهِمْ، وَ اسْتِدَارَتِهَا حَوْلَ الْكَعْبَةِ شَرْقًا وَ غَرْبًا وَ يَمَنًا وَ عِرَاقًا، فَكَانَ الْأَحْسَنُ فِي حَقِّهِمْ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ أَىٰ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ فِي شَرْقِهَا وَ غَرْبِهَا وَ سَائِرِ جِهَاتِهَا، وَ لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ أَدْخَلَ فِي هَذَا الْخَطَابِ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، فَتَأَمَّلْ هَذِهِ النَّكْتَةَ الْبَدِيعَةَ فَلَعَلَّكَ لَا تَتَضَرَّبُ بِهَا فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ هَذَا، وَ اللَّهُ أَعْلَمُ. قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ: وَ كَرَّرَ الْبَارِي تَعَالَى الْأَمْرَ بِالتَّوْجِهِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ، لِأَنَّ الْمُنْكَرِينَ لِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ كَانُوا ثَلَاثَةً أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ: الْيَهُودَ لِأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ بِالنَّسْخِ فِي أَصْلِ مَذْهَبِهِمْ، وَ أَهْلَ الرِّيبِ وَ النِّفَاقِ اشْتَدَّ انْكَارُهُمْ لَهُ، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ نَسْخِ نَزْلِ، وَ كَفَّارِ قَرِيْشٍ قَالُوا: نَدِمْنَا مُحَمَّدًا عَلَى فِرَاقِ دِينِنَا فَسِيرْجِعْ إِلَيْهِ كَمَا رَجَعْنَا إِلَى قِبْلَتِنَا. وَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَحْتَجُونَ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ يَدْعُونَا إِلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ، وَ قَدْ فَارَقَ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ آثَرَ عَلَيْهَا قِبْلَةَ الْيَهُودِ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ حِينَ أَمَرَهُ بِالصَّلَاةِ إِلَى الْكَعْبَةِ: لِنَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ الْمَنْقُوعِ، أَى لَكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ وَ لَا يَهْتَدُونَ، وَ قَالَ: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) [البقرة] أَى مِنَ الَّذِينَ شَكُّوا وَ امْتَرَوْا. وَ مَعْنَى الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ أَى الَّذِي أَمَرَكَ بِهِ مِنَ التَّوْجِهِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَكَ فَلَا تَمْتَرُ فِي ذَلِكَ. فَقَالَ: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ [البقرة: ١٤٤]، وَ قَالَ: وَ إِنَّ قَرِيبًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ [البقرة: ١٤٦] أَى يَكْتُمُونَ مَا عَلِمُوا أَنَّ الْكَعْبَةَ هِيَ قِبْلَةُ الْأَنْبِيَاءِ. ثُمَّ سَأَلَ مِنْ طَرِيقِ أَبِي دَاوُدَ فِي كِتَابِ «النَّاسِخِ وَ الْمَنْسُوخِ»، قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ حَدَّثَنَا عَنَسَةُ عَنْ يُونُسَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: كَانَ سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لَا يَعْظُمُ إِلَيْهَا كَمَا يَعْظُمُهَا أَهْلُ بَيْتِهِ، قَالَ: فَسَرْتُ مَعَهُ وَ هُوَ وَ لِي عَهْدٌ، قَالَ: وَ مَعَهُ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ فَقَالَ سَلِيمَانُ وَ هُوَ جَالِسٌ فِيهِ: وَ اللَّهُ إِنْ فِي هَذِهِ الْقِبْلَةِ الَّتِي صَلَّى إِلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ وَ النَّصَارَى لِعَجْبًا - كَذَا رَأَيْتَهُ، وَ الصَّوَابُ الْيَهُودِ - قَالَ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ: أَمَا وَ اللَّهُ إِنْ لَأَقْرَأُ الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ الْبَدَائِعِ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ، ص: ١٩٨ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ، وَ أَقْرَأُ التَّوْرَةَ، فَلَمْ تَجِدْهَا الْيَهُودَ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَكِنَ تَابَوْتُ السَّكِينَةَ كَمَا كَانَ عَلَى الصَّخْرَةِ، فَلَمَّا غَضِبَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ رَفَعَهُ، فَكَانَتْ صَلَاتُهُمْ إِلَى الصَّخْرَةِ عَنْ مَشَاوَرَةٍ مِنْهُمْ. وَ رَوَى أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا أَنَّ يَهُودِيًّا خَاصِمًا أَبَا الْعَالِيَةَ فِي الْقِبْلَةِ، فَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةَ: إِنْ مُوسَى كَانَ يَصَلِّي عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَ يَسْتَقْبِلُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَكَانَتْ الْكَعْبَةُ قِبْلَتَهُ، وَ كَانَتْ الصَّخْرَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ. وَ قَالَ الْيَهُودِيُّ: بَيْنِي وَ بَيْنَكَ مَسْجِدُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ. فَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةَ: فَإِنِّي صَلَّيْتُ فِي مَسْجِدِ صَالِحٍ وَ قِبْلَتَهُ الْكَعْبَةُ، انْتَهَى. قُلْتُ: وَ قَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْفَصْلُ فَائِدَةً جَلِيلَةً، وَ هِيَ: أَنَّ اسْتِقْبَالَ أَهْلِ الْكِتَابِ لِقِبْلَتِهِمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ وَ التَّوْفِيقِ مِنَ اللَّهِ، بَلْ كَانَ عَنْ مَشُورَةٍ مِنْهُمْ وَ اجْتِهَادٍ. أَمَا النَّصَارَى فَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ وَ لَا فِي غَيْرِهِ بِاسْتِقْبَالِ الْمَشْرِقِ أَبَدًا. وَ هُمْ مَقْرُونُونَ بِذَلِكَ وَ مَقْرُونُونَ أَنْ قِبْلَةَ الْمَسِيحِ كَانَتْ قِبْلَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ هِيَ الصَّخْرَةُ. إِنَّمَا وَضَعَهُ لَهُمْ شَيْوْخُهُمْ وَ أَسْلَافُهُمْ هَذِهِ الْقِبْلَةَ، وَ هُمْ يَعْتَذِرُونَ عَنْهُمْ بِأَنَّ الْمَسِيحَ فَوَّضَ إِلَيْهِمُ التَّحْلِيلَ وَ التَّحْرِيمَ وَ شَرَعَ الْأَحْكَامَ، وَ أَنَّ مَا حَلَّلُوهُ وَ حَرَمُوهُ فَقَدَحَ اللَّهُ هُوَ وَ حَرَمَهُ فِي السَّمَاءِ. فَهَمَّ مَعَ الْيَهُودِ مَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَشْرَعْ اسْتِقْبَالَ الْمَشْرِقِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ أَبَدًا، وَ الْمُسْلِمُونَ شَاهِدُونَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ. وَ أَمَا قِبْلَةُ الْيَهُودِ فَلَيْسَ فِي التَّوْرَةِ الْأَمْرُ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ الْبَتَّةِ، إِنَّمَا كَانُوا يَنْصَبُونَ التَّابُوتَ وَ يَصَلُّونَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ خَرَجُوا، فَإِذَا قَدَّمُوا نَصَبُوهُ عَلَى الصَّخْرَةِ وَ صَلُّوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَفَعَ صَلُّوا إِلَى مَوْضِعِهِ وَ هُوَ الصَّخْرَةُ. وَ أَمَا السَّامِرَةُ فَإِنَّهُمْ يَصَلُّونَ إِلَى طُورِ لَهُمْ بِأَرْضِ الشَّامِ يَعْظُمُونَهُ وَ يَحْجُونَ إِلَيْهِ، وَ رَأَيْتُهُ أَنَا وَ هُوَ فِي بَلَدِ نَابِلِسَ وَ نَاطَرْتُ فَضْلَاءَهُمْ فِي اسْتِقْبَالِهِ. وَ قُلْتُ: هُوَ قِبْلَةُ بَاطِلَةٍ مُبْتَدَعَةٍ، فَقَالَ مُشَارٌ إِلَيْهِ فِي دِينِهِمْ: هَذِهِ هِيَ الْقِبْلَةُ الصَّحِيحَةُ، وَ الْيَهُودُ أَخْطَئُوهَا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ فِي التَّوْرَةِ بِاسْتِقْبَالِهِ عَيْنًا، ثُمَّ ذَكَرَ نَصَا يَزْعُمُهُ مِنَ التَّوْرَةِ فِي اسْتِقْبَالِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا خَطَأٌ قَطَعَا عَلَى التَّوْرَةِ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا أَنْزَلَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَهَمَّ الْمُخَاطَبُونَ بِهَا وَ أَنْتُمْ فَرَعْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا، وَ إِنَّمَا تَلَقَّيْتُمُوهَا

عنهم، وهذا النص ليس في التوراة التي بأيديهم وأنا رأيتها وليس هذا فيها، فقال لي: صدقت، إنما هو في تورانا خاصة، قلت له: فمن المحال أن يكون أصحاب التوراة المخاطبون بها وهم الذين تلقوها عن الكليم وهم متفرون في أقطار الأرض قد البدائع في علوم القرآن، ص: ١٩٩ كتموا هذا النص و أزالوه و بدلوا القبلة التي أمروا بها و حفظتموها أنتم و حفظتم النص بها! فلم يرجع إلى الجواب. قلت: وهذا كله مما يقوى أن يكون الضمير في قوله تعالى: وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُّهَا رَاجِعًا إِلَىٰ وَلِكُلِّ أَى هُوَ مُوَلِّيُّهَا وَجْهَهُ، ليس المراد أن الله موليه إياها لوجوه هذا أحدها. الثانى: أنه لم يتقدم لاسمه تعالى ذكر يعود الضمير عليه فى الآية و إن كان مذكورا فيما قبلها، ففى إعادة الضمير إليه دون «كل» رد الضمير إلى غير من هو أولى به، و منعه من القريب منه اللاحق به. الثالث: أنه لو عاد الضمير عليه تعالى لقال: هو موليه إياها، هذا وجه الكلام كما قال تعالى: نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى [النساء: ١١٥] فوجه الكلام أن يقال: و لاه القبلة، لا يقال: و لى القبلة إياه، فتأمل. و قول أبى القاسم: أنه تعالى كرر ذكر الأمر باستقبالها ثلاثا ردا على الطوائف الثلاث، ليس بالبين و لا فى اللفظ إشعار بذلك. و الذى يظهر فيه أنه أمر به فى كل سياق لمعنى يقتضيه فذكره أول مرة ابتداء للحكم و نسخا للاستقبال الأول فقال: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [البقرة: ١٤٤]، ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا هو الحق من ربهم، حيث يجدونه فى كتبهم كذلك. ثم أخبر عن عبادتهم و كفرهم، و أنه لو أتاهم بكل آية ما تبعوا قبلته، و لا هو أيضا يتابع قبلتهم، و لا بعضهم يتابع قبله بعض، ثم حذرهم من اتباع أهوائهم، ثم كرر معرفة أهل الكتاب به، كمعرفتهم بأبنائهم، و أنهم ليكنتمون الحق عن علم. ثم أخبر أن هذا هو الحق من ربه، فلا يلحقه فيه امتراء. ثم أخبر أن لكل من الأمم وجهه هو مستقبلها و موليا وجهه، فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون الخيرات. ثم أعاد الأمر باستقبالها من حيث خرج فى ضمن هذا السياق الزائد على مجرد النسخ، ثم أعاد الأمر به غير مكرر له تكرر محضا، بل فى ضمنه أمرهم باستقبالها حيثما كانوا، كما أمرهم باستقبالها أولا حيثما كانوا عند النسخ و ابتداء شرع الحكم، فأمرهم باستقبالها حيثما كانوا عند شرع الحكم و ابتداءه و بعد. المحاجة و المخاصمة و الحكم لهم و بيان عنادهم و مخالفتهم مع علمهم فذكر الأمر البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٠٠ بذلك فى كل موطن لاقتضاء السياق له فتأمل، و الله أعلم «١». [٢] عن البراء - و هو ابن عازب - قال: كان الرجل إذا صام فنام لم يأكل إلى مثلها، و إن صرمة بن قيس الأنصارى أتى امرأته، و كان صائما، فقال: عندك شىء؟ قالت: لا، لعلى أذهب فأطلب لك شيئا، فذهبت، و غلبته عينه، فجاءت فقالت: خيبة لك، فلم ينتصف النهار حتى غشى عليه، و كان يعمل يومه فى أرضه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه و سلم، فنزلت: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ قَرَأَ إِلَىٰ قَوْلِهِ: مِنَ الْفَجْرِ [البقرة: ١٨٧] «٢». و أخرجه البخارى و الترمذى و النسائى «٣». و قد اختلف السلف فى هذه الآية على أربعة أقوال: أحدها: أنها ليست بمنسوخة، قاله ابن عباس. الثانى: أنها منسوخة، كما قاله سلمة و الجمهور. و الثالث: أنها مخصوصة، خص منها القادر الذى لا عذر له، و بقيت متناولة للمرضع و الحامل. الرابع: أن بعضها منسوخ، و بعضها محكم «٤». [٣] قال صالح بن أحمد: قال أبى: لا تجوز شهادة أهل الذمة إلا فى السفر، الذى قال الله تعالى فيه: أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ [المائدة: ١٠٦]، فأجازها أبو موسى الأشعري، و قد روى عن ابن عباس «أو آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»، و هذا موضع ضرورة؛ لأنه فى سفر، و لا نجد من يشهد من المسلمين، و إنما جاءت فى هذا المعنى. اه. و قال إسماعيل بن سعيد الشالنجى: سألت أحمد - فذكر هذا المعنى - قلت: فإن كان

- (١) بدائع الفوائد (٤ / ١٦٨ - ١٧٣).
- (٢) أبو داود (٢٣١٤) فى الصوم، باب: مبدأ فرض الصيام. - البخارى و الترمذى (٢٨٩٤). - و النسائى (٢١٣٩). - و أبو داود (١٩٧٠).
- (٣) فى تفسير القرآن، باب: و من سورة البقرة. (٤) تهذيب السنن (٣ / ٢٠٨، ٢٠٧). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٠١ ذلك على وصية المسلمين هل تجوز شهادتهم؟ قال: نعم، إذا كان على الضرورة، قلت: أليس يقال: هذه الآية منسوخة؟ قال: من يقول؟ و أنكرك، و قال: هل يقول ذلك إلا إبراهيم؟ و قال فى رواية ابنه عبد الله و حنبل: تجوز شهادة النصرانى و اليهودى فى الميراث، على ما أجاز أبو موسى فى السفر، و أحلفه. و قال فى رواية أبى الحارث: لا تجوز شهادة اليهودى و النصرانى فى شىء إلا فى الوصية فى

السفر، إذا لم يكن يوجد غيرهم. قال الله تعالى: «أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ، فلا تجوز شهادتهم إلا في هذا الموضع، وهذا مذهب قاضي العلم والعدل شريح، وقول سعيد بن المسيب، وحكاة أحمد عن ابن عباس، وأبي موسى الأشعري. قال المروزي: حدثنا ابن نصير قال: حدثني يعلى بن الحارث، عن أبيه، عن غيلان بن جامع، عن إسماعيل بن خالد عن عامر قال: شهد رجلان من أهل دقوقا على وصية مسلم، فاستحلفهما أبو موسى بعد العصر: ما اشترينا به ثمننا قليلا. ولا كتمنا شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين، ثم قال: إن هذه القضية ما قضى فيها مذمات رسول الله إلى اليوم. وذكر محمد بن إسحاق عن أبي النضر، عن باذان «١» - مولى أم هانئ - عن ابن عباس، عن تميم الداري في قوله عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ [المائدة: ١٠٦]»، قال: برئ الناس منها غيري وغير عدى بن بداء، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام، فأتيا الشام، وقدم زيد بن أبي مريم - مولى بني سهم - ومعه جام من فضة، وهو أعظم تجارتها، فمرض فأوصى إليهما. قال تميم: فلما مات أخذنا الجاه فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدى بن بداء، فلما قدمنا ماله إلى أهله فسألوا عن الجاه؟ فقلنا: ما دفع إلينا غير هذا، فلما أسلمت تأثمت من ذلك فأتيت أهله، فأخبرتهم الخبر، وأديت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فأتوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسألهم البيه فلم يجيبوا، فأحلفهم بما يعظم به على أهل دينهم، فأنزل الله عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ [المائدة: ١٠٦]»، فحلف عمرو بن _____ (١) هو محمد بن السائب الكلبي

وضاع. - والحديث عند الترمذي (٢٤١ / ٥) (٣٠٥٩). وقال غريب، ولا يصح إسناده. - وانظر الطبري (١٠٠ / ٧) وابن كثير (١٢٠ / ٢) و «بدائع التفسير» (١٢٥ / ٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٠٢ العاص وأخو سهم، فترعت الخمسمائة درهم من عدى بن بداء «١». و روى يحيى بن أبي زائدة، عن محمد بن القاسم، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان تميم الداري وعدى بن بداء يختلفان إلى مكة بالتجارة، فخرج معهم رجل من بني سهم، فتولى بأرض ليس فيها مسلم فأوصى إليهما، فدفع تركته إلى أهله، وحسبا جاما من فضة مخصوصا بالذهب، فتفقده أولياؤه، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحلفهما: ما كتمنا، ولا أضعنا، ثم عرف الجاه بمكة، فقالوا: اشتريناه من تميم وعدى، فقام رجلان من أولياء السهمي، فحلفا بالله: إن هذا لجاه السهمي، و لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا، إنا إذا لمن الظالمين، فأخذنا الجاه، وفيهما نزلت هذه الآية «٢». والقول بهذه الآية هو قول جمهور السلف، قالت عائشة رضي الله عنها: سورة المائدة آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها حلالا - فحلوه، وما وجدتم حراما فحرموه. و صح عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية «٣»: هذا لمن مات وعنده المسلمون، فأمر الله أن يشهد في وصيته عدلين من المسلمين، ثم قال تعالى: «أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْمَأْرُضِ [المائدة: ١٠٦]»، فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين، فأمر الله عز وجل أن يشهد رجلين من غير المسلمين، فإن ارتبب بشهادتهما استحلوا بعد الصلاة بالله: لا نشترى بشهادتنا ثمننا، وقد تقدم أن أبا موسى حكم بذلك. وقال سفيان الثوري: عن أبي إسحاق السبيعي، عن عمرو بن شرحبيل، قال: لم ينسخ من سورة المائدة شيء. وقال وكيع: عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب: «أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ»، قال: من أهل الكتاب. وفي رواية صحيحة عنه: من غير أهل ملتكم. و صح عن شريح قال: لا تجوز شهادة المشركين على المسلمين إلا في الوصية، ولا تجوز في الوصية إلا أن يكون مسافرا. و صح عن إبراهيم النخعي: (من غيركم): من غير أهل ملتكم. و صح عن سعيد بن جبير: (أو آخران من غيركم)، قال: إذا كان في أرض الشرك، فأوصى إلى رجلين من أهل _____ (١) - أخرجه البخاري (٤٨٠ / ٥) في

الوصايا، - و الترمذي (٢٤٢ / ٥). - و أبو داود (١٠٠ / ١٦) (التحفة). (٢) الحاكم في المستدرک (٣١١ / ٢) و صححه و وافقه الذهبي. (٣) الطبري (١٠٨ / ٧). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٠٣ الكتاب، فإنهما يحلفان بعد العصر، فإن اطلع بعد حلفهما على أنهما خانا، حلف أولياء الميت أنه كذا وكذا، واستحقوا. و صح عن الشعبي: «أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ»، قال: من اليهود والنصارى. و صح ذلك عن مجاهد قال: من غير أهل الملة. و صح عن يحيى مثله، و صح عن ابن سيرين ذلك. فهؤلاء أئمة المؤمنين: أبو موسى الأشعري، وابن

عباس، و روى نحو ذلك عن علي رضي الله عنه، و ذكر ذلك أبو محمد بن حزم (١)، و ذكره أبو يعلى عن ابن مسعود، و لا مخالف لهم من الصحابة. و من التابعين: عمرو بن شرحبيل، و شريح، و عبيدة، و النخعي، و الشعبي، و السعيدي، و أبو مجلز، و الأوزاعي. و بعد هؤلاء: كأبي عبيد، و أحمد بن حنبل، و جمهور فقهاء أهل الحديث، و هو قول جميع أهل الظاهر. و خالفهم آخرون. ثم اختلفوا في تخريج الآية على ثلاث طرق: أحدها: أن المراد بقوله: مِنْ غَيْرِكُمْ، أى من غير قبيلتكم، و روى ذلك عن الحسن، و روى عن الزهري أيضا. و الثانى: أن الآية منسوخة، و هذا مروى عن زيد بن أسلم و غيره. و الثالث: أن المراد بالشهادة فيها: إيمان الوصى - بالله تعالى - للورثة، لا الشهادة المعروفة. قال القائلون بها: أما دعوى النسخ فباطلة، فإنه يتضمن أن حكمها باطل، لا يحل العمل به، و أنه ليس من الدين، و هذا ليس بمقبول إلا بحجة صحيحة لا معارض لها و لا يمكن أحدا قط أن يأتي بنص صحيح صريح متأخر عن هذه الآية مخالف لها، و لا يمكن الجمع بينه و بينها، فإن وجد إلى ذلك سبيلا صح النسخ، و إلا فما معه إلا مجرد الدعوى الباطلة، ثم قد قالت أعلم نساء الصحابة بالقرآن: إنه لا منسوخ فى المائدة، و قاله غيرها أيضا من السلف، و عمل بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم بعده. و لو جاز قبول دعوى النسخ بلا - حجة لكان لكل من احتج عليه بنص يقول: هو (المحلى ١/ ٩ - ٤٠٥ - ٤٠٦). البدائع

فى علوم القرآن، ص: ٢٠٤ منسوخ، و كأن القائل لذلك لم يعلم أن كون النص منسوخا: أن الله سبحانه حرم العمل به، و أبطل كونه من الدين و الشرع و دون هذا مفاوز تنقطع فيها الأعناق. قالوا: و أما قول من قال: المراد بقوله: (من غيركم)، أى: من غير قبيلتكم، فلا يخفى بطلانه و فساده، فإنه ليس فى أول الآية خطاب لقبيلة دون قبيلة، بل هو خطاب عام لجميع المؤمنين فلا يكون غير المؤمنين إلا من الكفار، هذا مما لا شك فيه، و الذى قال من غير قبيلتكم، زلة عالم غفل عن تدبر الآية (١). [٤] قال الله تعالى فى سورة المائدة و هى من آخر القرآن نزولا و ليس فيها منسوخ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ لَا الْهَدْيَ وَ لَا الْقَلَائِدَ [المائدة: ٢]، و قال فى سورة البقرة: يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَيْدٌ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [البقرة: ٢١٧]، فهاتان آيتان مدينتان، بينهما فى النزول نحو ثمانية أعوام، و ليس فى كتاب الله و لا سنن رسوله ناسخ لحكهما، و لا أجمعت الأمة على نسخه، و من استدل على نسخه بقوله تعالى: وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً [التوبة: ٣٦] و نحوها من العمومات، فقد استدل على النسخ بما لا يدل عليه، و من استدل عليه بأن النبى صلى الله عليه و سلم: «بعث أبا عامر فى سرية إلى «٢» أوطاس فى ذى القعدة»، فقد استدل بغير دليل، لأن ذلك كان من تمام الغزوة التى بدأ فيها المشركون بالقتال، و لم يكن ابتداء منه لقتالهم فى الشهر الحرام (٣). [٥] عن عبد الله - و هو ابن مسعود - قال: من شاء لاعنته، لأنزلت سورة النساء القصرى بعد الأربعة الأشهر و عشرة (٤)، و أخرجه النسائي و ابن ماجه (٥). و هذا يدل على أن ابن مسعود يرى نسخ الآية فى البقرة بهذه الآية، التى فى الطلاق و هى قوله: وَ أَوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ [الطلاق: ٤]، و هذا على عرف السلف فى (الطرق الحكيمية ١٩٢ - ١٩٥).

انظر تنمة الأقوال فى الآية فى بدائع التفسير (٢/ ١٢٩). (٢) فى عام أوطاس، و هو عام الفتح، و غزوة أوطاس متصله بفتح مكة و هو موضع بين مكة و الطائف. و قيل هى غزوة حنين، انظر زاد المعاد (٣/ ٤٦٥). (٣) زاد المعاد (٣/ ٣٤١). (٤) أبو داود (٢٣٠٧) فى الطلاق، باب: فى عدة الحامل. (٥) ابن ماجه (٢٠٣٠) فى الطلاق، باب: الحامل و المتوفى عنها زوجها.... البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٠٥ النسخ، فإنهم يسمون التخصيص و التقييد نسخا، و فى القرآن ما يدل على تقديم آية الطلاق فى العمل بها، و هو أن قوله تعالى أَجْلُهُنَّ مضاف إليه، و هو يفيد العموم، أى هذا مجموع أجلهن، لا أجل لهن غيره، و أما قوله: يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ [البقرة: ٢٣٤]، فهو فعل مطلق لا عموم له، فإذا عمل به فى غير الحامل كان تقييدا بآية الطلاق، فالحديث مطابق للمفهوم من دلالة القرآن. و الله أعلم.

الاستدلال في القرآن الكريم

الاستدلال على الله تعالى بالآيات الأفقية والنفسية

الاستدلال على الله تعالى بالآيات الأفقية والنفسية إن الله سبحانه أخبر- وخبره الصدق وقوله الحق- أنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته رسله حق (١). فقال تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت: ٥٣] أي القرآن. فإنه هو المتقدم في قوله: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ [فصلت: ٥٢] ثم قال: أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [فصلت فشهد- سبحانه- لرسوله بقوله: أن ما جاء به حق، و وعده أن يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضا. ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك و أجل، و هو شهادته- سبحانه- على كل شيء، فإن من أسمائه «الشهيد» الذي لا يغيب عنه شيء، و لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله. و هذا استدلال بأسمائه و صفاته، و الأول استدلال بقوله و كلماته، و الاستدلال بالآيات الأفقية و النفسية استدلال بأفعاله و مخلوقاته. فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته و الاستدلال بمخلوقاته، فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه و صفاته، فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا و كتبنا؟. قلت: أجل هو لعمر الله كما ذكرت، و شأنه أجل و أعلى، فإن الرب تعالى هو المدلول عليه، آياته هي الدليل و البرهان. فاعلم أن الله- سبحانه- في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته، فهو الدليل (٢) لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات و الآيات، و قد أودع في الفطر السنتي لـــــــ تتجسس بــــالتعطيل

(_____١) انظر ما كتبناه في المقدمة عن

التفسير العلمي، و إعجاز القرآن الكريم. (٢) انظر تعليقنا الآتي على وصفه تعالى بالكمال. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٠٧ و الجحود: أنه- سبحانه- الكامل في أسمائه و صفاته، و أنه الموصوف بكل كمال (١)، المنتزه عن كل عيب و نقض. فالكمال كله، و الجمال و الجلال و البهاء، و العزة و العظمة و الكبرياء؛ كله من لوازم ذاته، يستحيل أن يكون على غير ذلك. فالحياء كلها له، و العلم كله له، و القدرة كلها له، و السمع و البصر و الإرادة، و المشيئة و الرحمة و الغنى، و الجود و الإحسان و البر، كله خاص له قائم به. و ما خفى على الخلق كماله أعظم و أعظم مما عرفوه منه، بل لا- نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه. و من كماله المقدس: اطلاعه على كل شيء، و شهادته عليه، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، و لا ذرة من ذراته، باطنا و ظاهرا، و من هذا شأنه: كيف يليق بالعباد أن يشركوا به و أن يعبدوا معه غيره؟ و أن يجعلوا معه إلهًا آخر؟ و كيف يليق بكمال أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، و يخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه. ثم ينصره على ذلك و يؤيده، و يعلى كلمته، و يرفع شأنه، و يجيب دعوته، و يهلك عدوه، و يظهر على يديه من الآيات و البراهين و الأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر، و هو- مع ذلك- كاذب عليه مفتر، ساع في الأرض بالفساد. و معلوم أن شهادته- سبحانه- على كل شيء، و قدرته على كل شيء، و حكمته و عزته و كماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء. و من ظن به، و جوزه عليه؛ فهو من أبعد الخلق من معرفته، و إن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة، و صفة المشيئة. و القرآن مملوء من هذه الطريق، و هي طريق الخاصة، بل خاصة الخاصة هم الذين يستدلون بالله على أفعاله، و ما يليق به أن يفعله و ما لا يفعله. و إذا تدبرت القرآن رأيته ينادى على ذلك، فيديده و يعبده لمن له فهم و قلب واع عن الله، قال الله تعالى: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) [الحاقة] أ فلا تراه كيف يخبر- سبحانه- أن كماله و حكمته و قدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل؟ بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه. و قال تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ

(_____١) يجرى على السنة بعض المسلمين

قولهم: «الكمال لله تعالى» و إن كان المعنى حق و صدق- كما بين ابن القيم هنا- إلا إن لفظه الكمال لم أوقف عليها في السنة أو عند

سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى وإن دلت جميع الأسماء والصفات على معناها كالحكيم والعليم... والله تعالى أعلم. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٠٨ يَخْنَمُ عَلَى قَلْبِكَ [الشورى: ٢٤] هاهنا انتهى جواب الشرط. ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق: أَنَّهُ وَيَمِخُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيَجِئُ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [الشورى: ٢٤]، وقال تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ [الأنعام: ٩١]، فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره، ولا عرفه كما ينبغي، ولا عظمه كما يستحق، فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفترى عليه ويؤيده؟ ويظهر على يديه الآيات والأدلة؟ وهذا في القرآن كثير جداً، يستدل بكماله المقدس، وأوصافه وجلاله على صدق رسله، وعلى وعده وعيده. ويدعو عباده إلى ذلك، كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته، وعلى بطلان الشرك، كما في قوله: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) [الحشر] وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن.

الاستدلال بأسماء الله وصفاته على بطلان وصفه تعالى بما لا يليق

الاستدلال بأسماء الله وصفاته على بطلان وصفه تعالى بما لا يليق - يستدل - سبحانه - بأسمائه وصفاته على بطلان ما نسب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة، وأن كماله المقدس يمنع من شرعها، كقوله: وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) [الأعراف]، وقوله عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش والقول عليه بلا- علم: كُلُّ ذَلِكُمْ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) [الإسراء]، فأعلمك أن ما كان سيئاً في نفسه فهو يكرهه، وكماله يأبى أن يجعله شرعاً له وديناً. فهو - سبحانه - يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله وأمر به، وما يحبه ويبغضه، ويثيب عليه ويعاقب عليه. ولكن هذه الطريق لا يصل إليها إلا خاصة الخاصة. فلذلك كانت طريقة الجمهور الدلالات بالآيات المشاهدة، فإنها أوسع تناولاً - والله - سبحانه - يفضل بعض خلقه على بعض، ويرفع درجات من يشاء، وهو العليم الحكيم. فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فإنه هو الدعوة والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه، وهو الشاهد والمشهود، وهو الحكم والدليل، وهو الدعوى والبينة، قال تعالى: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتِيئَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ [هود: ١٧] أى من ربه، وهو القرآن. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٠٩ وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسله أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) [العنكبوت فأخبر - سبحانه - أن الكتاب الذي أنزله على رسوله يكفى عن كل آية؛ ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله - سبحانه - أرسل به رسله، وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، وينجيه من العذاب. ثم قال: (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والأرض) فإذا كان الله - سبحانه - عالماً بجميع الأشياء، كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها، فإنها شهادة بعلم تام، محيط بالمشهود به. فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم، وهو - سبحانه - يذكر علمه عند شهادته، وقدرته وملكه عند مجازاته، وحكمته عند خلقه وأمره، ورحمته عند ذكر إرسال رسوله، وحمله عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم، وسمعه عند ذكر دعائهم ومسألته، وعزته وعلمه عند قضائه وقدره. فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر، والثواب والعقاب.

الاستدلال على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

الاستدلال على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هذا قوله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسِلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) [الرعد]، فاستشهد على رسالته بشهادة الله له. ولا بد أن تعلم هذه الشهادة، وتقوم بها الحجة على المكذبين له، وكذلك قوله: قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ [الأنعام: ١٩]، وكذلك قوله: لَكِنَّ اللَّهَ

يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (١٦٦) [النساء]، وكذلك قوله يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) [يس]، وقوله: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) [البقرة]، وقوله: وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ [المنافقون: ١]، وقوله: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ [الفتح: ٢٩]، فهذا كله شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان، بحيث قطع العذر بينه وبين عبادته، وأقام الحجة عليهم. فكونه - سبحانه - شاهداً لرسوله، معلوم بسائر أنواع الأدلة؛ عقليها ونقلها وفطريها وضروريها ونظريها. ومن نظر في ذلك وتأمله، علم أن الله - سبحانه - شهد لرسوله أصدق الشهادة. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢١٠ وأعدلها وأظهرها؛ وصدقه بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عبادته، من الإقرار بكماله، وتزييه عن القبائح، وعملاً لا يليق به. وفي كل وقت يحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد. ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة، هو الذي أُرْسِلَ رَسُولُهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (٢٨) [الفتح]، فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجة، والبيان، والدلالة. وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة، والتأييد، حتى يظهره على مخالفه. ويكون منصوراً. وقوله: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (١٦٦) [النساء]، فما فيه من الخبر عن علم الله الذي لا يعلمه غيره، من أعظم الشهادة بأنه هو الذي أنزله. كما قال في الآية الأخرى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنْ اسْتَبْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَهِمُ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) [هود]، وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله - وهو معلوم له، كما يعلم سائر الأشياء، فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل - وإنما المعنى: أنزله مشتقاً على علمه «١». فتزوله مشتقاً علمه، هو آية كونه من عنده، وأنه حق وصدق. ونظير هذا قوله: قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غُفُوراً رَحِيماً [الفرقان: ٦]، ذكر ذلك - سبحانه - تكديماً ورداً على من قال: افْتَرَاهُ [الفرقان: ٤] «٢».

(١) وقال في الصواعق المرسله «أنزله وفيه علم لا يعلمه البشر» (٣/ ٨٧٧). (٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٦٦ - ٤٧١). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢١١

من أساليب القرآن الكريم

التحدى

التحدى قوله تعالى: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) [البقرة]: إن حصل لكم ريب في القرآن وصدق من جاء به وقلتم: إنه مفتعل، فأتوا ولو بسورة واحدة تشببهه. وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك. حتى إن الذي راموا معارضته كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحى العقلاء من سماعه ويحكمون بسماجته وقبح ركاكته وخسته. فهو كمن أظهر طيباً لم يشم أحد مثل ريحه قط، وتحدى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله، فاستحى العقلاء وعرفوا عجزهم، وجاء الحمقان بعدرة منتنة خبيثة، وقالوا: قد جئنا بمثل ما جئت به، فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهاناً وعظمة وجلالة؟! وأكد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال: وَ ادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [البقرة: ٢٣] كما يقول المعجز لمن يدعى مقاومته: اجهد على بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك وأوليائك، ولا تبق منهم أحداً حتى تستعين به، فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلاً إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه، أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم

أوثقهم بما يقوله. و النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية و أمثالها على أصناف الخلائق؛ أميهم و كتابيهم و عربهم و عجمهم، و يقول: لن تستطيعوا ذلك و لن تفعلوه أبداً فيعدلون معه إلى الحرب بقتل المحاربة الأحياء، فلو قدروا على الإتيان بصورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار أيتام الأولاد، و قتل النفوس، و الإقرار بالعجز عن معارضته. و تقرير النبوة بهذه الآية و جوه متعددة، هذا أحدها. و ثانياً: إقدامه صلى الله عليه وسلم على هذا الأمر و إسماله على الخلائق إسمالاً عاماً إلى يوم القيامة البدائع في علوم القرآن، ص: ٢١٢ أنهم لن يفعلوا ذلك أبداً. فهذا لا يقدم عليه و يخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك مستند إلى وحى من الله تعالى، و إلا فعلم البشر و قدرته يضعفان عن ذلك. و ثالثهما: النظر إلى نفس ما تحدى به و ما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله، الذي فصاحته و نظمه و بلاغته فرد من أفراد إعجازه. و هذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه و تأمله و فهمه، و بالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره و لو لم يفهمه و لم يتأمله. فتأمل هذا الموضوع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور من المتكلمين، و تقصيرهم في بيان إعجازه، و أنهم لن يوفوه معشار حقه، حتى قصر بعضهم الإعجاز على صرف «١» الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها، و بعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته و بلاغته، و بعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام، و بعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب، إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة التي لا تشفى و لا تجدى «٢»، و إعجازه فوق ذلك و وراء ذلك كله، فإذا ثبت النبوة بهذه الحجّة القاطعة فقد وجب على الناس تصديق الرسول في خبره و طاعته أمره، و قد أخبر عن الله تعالى و أسمائه و صفاته و أفعاله و عن المعاد و الجنة و النار فتثبت صحة ذلك يقيناً «٣».

(١) انظر المقدمة في هذه المسألة. (٢)

لكن هذه الأنواع من أنواع الإعجاز حق و ما ذهب إليه ابن القيم من إن إعجاز القرآن فوق كل هذا حق أيضاً، و فوق كل ذي علم عليم. (٣) بدائع الفوائد (١٣٤/٤ - ١٣٦). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢١٣

القرآن الكريم محكم جامع

إشارة

القرآن الكريم محكم جامع سمي النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية جامعة فاذة: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) [الزلزلة] و من هذا قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) [المائدة]، فدخل في الخمر كل مسكر، جامداً كان أو مائعاً، من العنب أو من غيره، و دخل في الميسر كل أكل مال بالباطل، و كل عمل محرم يوقع العداوة و البغضاء، و يصد عن ذكر الله و عن الصلاة. و دخل في قوله: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) [التحریم: ٢] كل يمين منعقدة. و دخل في قوله: يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ [المائدة: ٤] كل طيب «١» من المطاعم و المشارب و الملابس و الفروج. و دخل في قوله: وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا [الشورى: ٤٠] فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ [البقرة: ١٩٤]، ما لا تحصى أفراد من الجنایات و عقوباتها، حتى اللطمة و الضربة و الكسعة «٢» كما فهم الصحابة. و دخل في قوله: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبُغْيَ بغيرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) [الأعراف تحریم كل فاحشة، ظاهرة و باطنة، و كل ظلم و عدوان في مال أو نفس أو عرض، و كل شرك بالله، و إن دق في قول أو عمل أو إرادة، بأن يجعل لله عدلاً بغيره في اللفظ أو القصد أو الاعتقاد، و كل قول على الله لم يأت به نص عنه، و لا عن رسوله في تحریم أو تحليل، أو إيجاب أو إسقاط، أو خبر عنه باسم أو صفة، نفيًا أو إثباتًا أو خبرًا عن فعله، فالقول عليه بلا علم حرام في أفعاله و صفاته و دينه.

(١) و الطيب هو ما أحله الشرع و

الخيث ما حرمه. (٢) الكسعة: الحمير والكسع: الضرب باليد أو الرجل إنسانا أو غيره. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢١٤ و دخل في قوله: وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ [المائدة: ٤٥] وجوبه في كل جرح يمكن القصاص منه، وليس هذا تخصيصا، بل هو مفهوم من قوله: قِصَاصٌ، وهو المماثلة. و دخل في قوله: وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ [البقرة: ٢٣٣] وجوب نفقة الطفل و كسوته و نفقة مرضعته، على كل وارث قريب أو بعيد. و دخل في قوله: وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ [البقرة: ٢٢٨] جميع الحقوق التي للمرأة، و عليها، و أن مرد ذلك إلى ما يتعارفه الناس بينهم، و يجعلونه معروفا لا منكرا، و القرآن و السنة كفيلا بهذا أتم كفالته «١» «٢».

بيان فساد إضافة الشر إلى الله تعالى

بيان فساد إضافة الشر إلى الله تعالى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «لييك و سعديك و الخير في يديك و الشر ليس إليك» «٣» معناه أجل و أعظم من قول من قال: و الشر لا يتقرب به إليك، و قول من قال: و الشر لا يصعد إليك، و أن هذا الذي قالوه و إن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه و التقرب به إليه، فلا يتضمن تنزيهه في ذاته و صفاته و أفعاله عن الشر، بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق، فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته تبارك و تعالى عن نسبة الشر إليه بوجه ما لا في صفاته و لا في أفعاله و لا في أسمائه، و إن دخل في مخلوقاته كقوله: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) [الفلق] ، و تأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه و من قام به، كقوله: وَ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة]، و قوله: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [التوبة]، و قوله: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا [النساء: ١٦٠] و قوله: ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ [الأنعام: ١٤٦] و قوله: وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ [الزخرف] و هو في القرآن أكثر من أن يذكر هاهنا عشر معشاره، و إنما المقصود التمثيل، و تارة يحذف فاعله، كقوله تعالى حكاية عن مؤمن الجن: وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) [الجن فحذفوا فاعل الشر و مريده، و صرحوا بمريد الرشيد. و نظيره في الفاتحة: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَسَا الضَّالِّينَ] (١) و هذا كله يدخل تحت قوله

تبارك و تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [الإسراء: ٩] و قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ [المائدة: ٣] و قوله تعالى: مَا فَزَّنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ [الأنعام: ٣٨]. (٢) إعلام الموقعين (١/ ٤١٢، ٤١٣). (٣) بدائع الفوائد (٢/ ٢١٥، ٢١٤). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢١٥ [الفاتحة: ٧]، فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه، و الضلال منسوباً إلى من قام به، و الغضب محذوفاً فاعله. و مثله قول الخضر في السفينة: فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا [الكهف: ٧٩] و في الغلامين: فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [الكهف: ٨٢] مثل قوله: وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ [الحجرات: ٧]، فنسب هذا التزيين المحبوب إليه، و قال: زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ النَّبِيِّينَ [آل عمران: ١٤]، فحذف الفاعل المزين. و مثله قول الخليل: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) [الشعراء] فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال، و نسب إلى نفسه النقص منها و هو المرض و الخطيئة. و هذا كثير في القرآن، ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب «الفوائد الملكية»، و بينا هناك السر في مجيء الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، و الفرق بين الموضوعين و أنه حديث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعا في سياق المدح، و حيث حذفه كان من أوتيه واقعا في سياق الذم أو منقسما، و ذلك من أسرار القرآن. و مثله: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اضْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا [فاطر: ٣٢] و قال: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنْ يَشْكُرُوا مِنْهُ مُرِبٍ [الشورى: ١٤]، و قوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى [الأعراف: ١٦٩] و بالجملة فالذي يضاف إلى الله تعالى كله خير و حكمه و مصلحته و عدل و الشر ليس إليه «١».

التدرج في التكليف

التدرج في التكليف تأمل الحكمة في التشديد في أول التكليف، ثم التيسير في آخره بعد توطين النفس على العزم والامتثال، فيحصل للعبد الأمران: الأجر على عزمه و توطين نفسه على الامتثال و التيسير و السهولة بما خفف الله عنه. فمن ذلك أمر الله تعالى و رسوله بخمسين صلاة ليلة الإسراء ثم خففها و تصدق بجعلها خمسا «٢». و من ذلك: أنه أمر أولا بصبر الواحد إلى العشرة، ثم خفف عنهم ذلك إلى الاثنين «٣» (١) بدائع الفوائد (٢/ ٢١٥، ٢١٤). (٢) سبق تخريجه ص (١١٨). (٣) في سورة الأنفال (٦٥-٦٦). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢١٦ و من ذلك: أنه حرم عليهم في الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع، ثم خفف عنهم بإباحة ذلك إلى الفجر «١». و من ذلك: أنه أوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسوله صلى الله عليه و سلم، فلما وطنوا له أنفسهم على ذلك، خففه عنهم «٢». و من ذلك تخفيف الاعتداد بالحوال بأربعة أشهر و عشرة «٣». و هذا كما قد يقع في الابتلاء بالأوامر، فقد يقع في الابتلاء بالقضاء و القدر؛ يشدد على العبد أولا ثم يخفف عنه و حكمه تسهيل الثاني بالأول و تلقى الثاني بالرضا و شهود المنه و الرحمة. و قد يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريبا من هذا، فهؤلاء المصادرون يطلب منهم الكثير جدا، الذي ربما عجزوا عنه ثم يحطون إلى ما دونه لتطوع لهم أنفسهم بذلة و يسهل عليهم. و قد يفعل بعض الحماليين قريبا من هذا، فيزيدون على الحمل شيئا لا يحتاجونه إليها، ثم يحط تلك الأشياء، فيسهل حمل الباقي عليهم. و المقصود أن هذا الباب من الحكمة خلقا و أمرا، و يقع في الأمر و القضاء و القدر أيضا ضد هذا، فينقل عباده بالتدرج من اليسير إلى ما هو أشد منه؛ لئلا يفجأ هذا التشديد بغيته فلا تحمله و لا تنقاد له. و هذا كتدريجهم في الشرائع شيئا بعد شيء دون أن يؤمروا بها كلها و هلة واحدة، و كذلك المحرمات. و من هذا أنهم أمروا بالصلاة أولا ركعتين ركعتين، فلما ألفوها زيد فيها ركعتين أخريين في الحضر. و من هذا أنهم أمروا بالصيام و خيروا فيه بين الصوم عينا و بين التخيير بينه و بين الفدية، فلما ألفوه أمروا بالصوم عينا. و من هذا أنهم أذن لهم بالجهد أولا من غير أن يوجه عليهم، فلما توطنت نفوسهم و باشروا حسن عاقبته و ثمرته أمروا به فرضا. و كذلك يقع مثل هذا في قضائه و قدره مقدر على عبده بل لا بد منه اقتضاء حمده و حكمته فيبتليه بالأخف أولا، ثم يرقبه إلى ما هو فوقه حتى يستكمل ما كتب عليه منه. و لهذا قد يسعى العبد في أول البلاء في دفعه و زواله و لا يزداد إلا شدة؛ لأنه كالمرض في أوله و تزايد، فالعاقل يستكين له أولا و ينكسر و يذل لربه، و يمد عنقه خاضعا ذليلا لعزته، حتى إذا مر به معظمه و عمرته و أذن ليله بالصباح، فإذا سعى في زواله ساعده الأسباب.

(١) سبق بيانه. (٢) سورة المجادلة (١٢). (٣) آية التخفيف في سورة البقرة (٢٣٤) و الآية المنسوخة (٢٤٠). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢١٧ و من تأمل هذا في الخلق انتفع به انتفاعا عظيما و لا حول و لا قوة إلا بالله «١».

العطف في القرآن الكريم

الكلام على واو الثمانية «٢»:

الكلام على واو الثمانية «٢»: قولهم: إن الواو تأتي لثمانية ليس عليه دليل مستقيم، و قد ذكروا ذلك في مواضع، فلتكلم عليها واحدا واحدا. الموضع الأول: قوله تعالى: **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الَّذِينَ يَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النََّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ** [التوبة: ١١٢] فقيل: الواو في **وَالنَّاهُونَ** و **وَالنَّاهُونَ** و **وَالنَّاهُونَ** بعد استيفاء الأوصاف السبعة، و ذكروا في الآية وجوها آخر، منها: أن هذا من التفنن في الكلام أن يعطف بعضه، و يترك بعضه. و منها: أن الصفات التي قبل هاتين الصفتين صفات لازمة متعلقة بالعامل، و هاتان الصفتان متعدتان متعلقتان بالغير فقطعتا عما قبلها بالعطف. و منها: أن المراد التنبية على أن الموصوفين بالصفات المتقدمة هم

الآمرون بالمعروف و الناهون عن المنكر. و كل هذه الأجوبة غير سديده، و أحسن ما يقال فيها: إن الصفات إذا ذكرت في مقام التعداد، فتارة يتوسط بينها حرف العطف لتغيرها في نفسها، و للإيدان بأن المراد ذكر كل صفة بمفردها. و تارة لا يتوسطها العطف لاتحاد موصوفها و تلازمها في نفسها، و للإيدان بأنها في تلازمها كالصفة الواحدة. و تارة يتوسط العطف بين بعضها و يحذف مع بعض، بحسب هذين المقامين، فإذا كان المقام مقام تعداد الصفات من غير نظر إلى جمع أو انفراد، حسن إسقاط حرف العطف، و إن أريد الجمع بين الصفات أو التنبية على تغيرها، حسن إدخال حرف العطف. فمثال الأول: التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ [التوبة: ١١٢] و قوله: مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ [التحریم: ٥]، و مثال الثاني قوله تعالى: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ [الحديد: ٣]. و تأمل كيف اجتمع النوعان في قوله تعالى: حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الْقُدْرَةِ الْبَاطِنِ [الحديد: ٣].

(٢) انظر تحقيق المسألة و الأقوال فيها في كلامنا على جزء اللغة لابن القيم، و راجع المغنى لابن هشام (٤٠٢) و الواو المزيده للعلائي (١٤٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢١٨ الطَّوْلِ [غافر: ١-٣]، فأتى بالواو في الوصفين الأولين و حذفها في الوصفين الأخيرين؛ لأن غفران الذنب و قبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما فمن غفر الذنب قبل التوب، فكان في عطف أحدهما على الآخر، ما يدل على أنهما صفتان و فعلان متغيران، و مفهومان مختلفان لكل منهما حكمه. أحدهما يتعلق بالإساءة و الاعتراض و هو المغفرة. و الثاني يتعلق بالإحسان و الإقبال على الله، و الرجوع إليه و هو التوبة، فتقبل هذه الحسنه و تغفر تلك السيئه، و حسن العطف هاهنا هذا التغير الظاهر و كلما كان التغير أبين، كان العطف أحسن، و لهذا جاء العطف في قوله: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ [الحديد: ٣]، و ترك في قوله: الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ [غافر: ٣]، فترك العطف بينهم لكتبه بديعه، و هي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته- سبحانه- و أنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، و طوله لا ينافي شدة عقابه، بل هما مجتمعان له بخلاف الأول و الآخر فإن الأوليه لا تجامع الآخريه، و لهذا فسرها النبي صلى الله عليه و سلم بقوله: «أنت الأول فليس قبلك شيء، و أنت الآخر فليس بعدك شيء» (١). فأوليته و آخريته أبديته. فإن قلت فما تصنع بقوله: وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ فَإِنَّ الظهوره تعالى ثابت مع بطونه، فيجتمع في حقه الظهور و البتون، و النبي صلى الله عليه و سلم فسر الظاهر بأنه الذي ليس فوقه شيء، و الباطن الذي ليس دونه شيء، و هذا العلو و الفوقية مجامع لهذا القرب و الدنو و الإحاطة. قلت: هذا سؤال حسن، و الذي حسن دخول الواو هاهنا أن هذه الصفات متقابلة متضادة، و قد عطف الثاني منهما على الأول للمقابلة التي بينهما، و الصفتان الأخريان كأوليين في المقابلة، و نسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة الآخر إلى الأول، فكما حسن العطف بين الأولين حسن بين الأخيرين. فإذا عرف هذا فالآية التي نحن فيها يتضح بما ذكرناه معنى العطف و تركه فيها؛ لأن كل صفة لم تعطف على ما قبلها، كان فيه تنبيه على أنها في اجتماعها كالوصف الواحد لموصوف واحد، فلم يحتج إلى عطف، فلما ذكر الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و هما متلازمان مستمدان من مادة واحدة، حسن العطف ليتبين أن كل وصف منهما قائم على حدته، مطلوب تعيينه، لا يكتفى فيه بحصول الوصف الآخر، بل لا بد أن يظهر أمر بالمعروف بصريحه و نهيه عن المنكر بصريحه، و أيضا فحسن العطف هاهنا ما تقدم من التضاد، فلما كان

(١) مسلم (٢٧١٣ / ٦١) في الذكر و الدعاء و التوبة و الاستغفار، باب: ما يقول عند النوم و أخذ المضجع. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢١٩ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ضددين؛ أحدهما طلب الإيجاد، و الآخر طلب الإعدام، كانا كالتوعين المتغارين المتضادين فحسن لذلك العطف. الموضع الثاني: قوله تعالى: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مَسْلَمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ، إلى قوله: تَبَيَّنَاتٍ وَأَبْكَارًا [التحریم: ٥]، فقيل: هذه واو الثمانية، لمجيئها بعد الوصف السابع، و ليس كذلك، و دخول الواو هاهنا متعين؛ لأن الأوصاف التي قبلها المراد اجتماعها في النساء، و أما وصفا البكارة و الثوبه فلا يمكن اجتماعهما، فتعين العطف لأن المقصود أن يزوجه بالتوعين: التبيات و الإبكار. الموضع الثالث: قوله تعالى: سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ

[الكهف: ٢٢] قيل: المراد إدخال الواو هاهنا لأجل الثمانية. وهذا يحتمل أمرين: أحدهما: هذا. والثاني: أن يكون دخول الواو هاهنا إيذانا بتمام كلامهم عند قولهم: سبعة ثم ابتداء قوله: وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ، وذلك يتضمن تقرير قولهم (سبعة)، كما إذا قال لك: زيد فقيه فقلت: ونحوي، وهذا اختيار السهيلي. وقد تقدم الكلام عليه وأن هذا إنما يتم إذا كان قوله: وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ليس داخلا في المحكى بالقول، والظاهر خلافه. والله أعلم. الموضوع الرابع: قوله تعالى: وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا [الزمر: ٧١]، لما كانت سبعة. وهذا في غاية البعد، ولا دلالة في اللفظ على الثمانية حتى تدخل الواو لأجلها، بل هذا من باب حذف الجواب لنكتة بديعة، وهي أن تفتيح أبواب النار كان حال موافاة أهلها، ففتحت في وجوههم، لأنه أبلغ في مفاجأة المكروه. وأما الجنة فلما كانت ذات الكرامة وهي مآدبة الله، وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرع لهم أبوابها، ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب، أتى بالواو العاطفة هنا الدالة على أنها جاءوها بعد ما فتحت أبوابها، وحذف الجواب تفخيما لشأنه وتعظيما لقدره، كعادتهم في حذف الأجوبة «١». وكذلك القاعدة أن الشيء لا يعطف على نفسه؛ لأن حروف العطف بمنزلة تكرار العامل، لأنك إذا قلت: قام زيد وعمرو، فهي بمعنى قام زيد وقام عمرو. والثاني غير الأول فإذا وجدت مثل قولهم: كذبا ومينا، فهو لمعنى زائد في اللفظ الثـ_____انى وإن خفى عنـ_____ك. ولهـ_____ذا (١) بدائع الفوائد (٣ / ٥١ - ٥٥).

البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٢٠ يبعد جدا أن يجيء في كلامهم: جاءني عمر وأبو حفص، ورضى الله عن أبي بكر وعتيقه، فإن الواو إنما تجمع بين الشيئين لا بين الشيء الواحد، فإذا كان في الاسم الثاني فائدة زائدة على معنى الاسم الأول كنت مخيرا في العطف وتركه، فإن عطف فمن حيث قصدت تعداد الصفات وهي متغايرة وإن لم تعطف فمن حيث كان في كل منهما ضمير هو الأول فعلى الوجه الأول تقول: زيد فقيه شاعر كاتب. وعلى الثاني: فقيه وشاعر وكاتب. كأنك عطفت بالواو الكتابة على الشعر. وحيث لم تعطف اتبعت الثاني الأول، لأنه هو من حيث اتحد الحامل للصفات. وأما في أسماء الرب تبارك وتعالى فأكثر ما يجيء في القرآن بغير عطف نحو: السَّمِيعُ البَصِيرُ العَزِيزُ الحَكِيمُ الغُضُورُ الرَّحِيمُ المَلِكُ القُدُوسُ السَّلَامُ، إلى آخرها. وجاءت معطوفة في موضعين: أحدهما في أربعة أسماء، وهي: الأَوَّلُ وَالأَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ والثاني في بعض الصفات بالاسم الموصول، مثل قوله: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ المُرْجَى (٤) [الأعلى، ونظيره: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا [الزخرف: ١٠-١٢]. فأما ترك العطف في الغالب فلتناسب معاني تلك الأسماء، وقرب بعضها من بعض وشعور الذهن بالثاني منها شعوره بالأول. ألا ترى أنك إذا شعرت بصفة المغفرة، انتقل ذهنك منها إلى الرحمة؟ وكذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن إلى البصر، وكذلك: الخالق البارئ المصور [الحشر: ٢٤]. وأما تلك الأسماء الأربعة فهي ألفاظ متباينة المعاني متضادة الحقائق في أصل موضوعها، وهي متفقة المعاني متطابقة في حق الرب تعالى لا يبقى منها حقه. فكان دخول الواو صرفا لوهم المخاطب قبل التفكير والنظر عن توهم المحال واحتمال الأضداد؛ لأن الشيء لا يكون ظاهرا باطنا من وجه واحد، وإنما يكون ذلك باعتبارين، فكان العطف هاهنا أحسن من تركه لهذه الحكمة، هذا جواب السهيلي. وأحسن منه أن يقال: لما كانت هذه الألفاظ دالة على معاني متباينة، وأن الكمال في الاتصاف بها على تباينها أتى بحرف العطف الدال على التباين بين المعطوفات، إيذانا بأن هذه المعاني مع تباينها فهي ثابتة للموصوف بها. ووجه آخر وهو أحسن منها: وهو أن الواو تقتضى تحقيق الوصف المتقدم، وتقريره يكون في الكلام متضمنا لنوع من التأكيد، من المزيد التقرير. وبيان ذلك بمثال نذكره مرقاة البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٢١ إلى فهم ما نحن فيه: إذا كان لرجل مثلا- أربع صفات: هو عالم وجواد وشجاع وغنى، وكان المخاطب لا يعلم ذلك أو لا يقر به، ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجل فإذا قلت: زيد عالم، وكان ذهنه استبعد ذلك، فنقول: وجواد، أى: وهو مع ذلك جواد. فإذا قدرت استبعاده لذلك، قلت: وشجاع، أى وهو مع ذلك شجاع وغنى، فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد، لا يحصل بدونه، تدرأ به

توهم الإنكار. و إذا عرفت هذا فالوهم قد يعتره إنكار لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد؛ فإذا قيل: هو الأول ربما سرى الوهم إلى أن كونه أولاً- يقتضى أن يكون الآخر غيره لأن الأولى و الآخريه من المتضائفات. و كذلك الظاهر و الباطن إذا قيل: هو ربما سرى الوهم إلى أن الباطن مقابله، فقطع هذا الوهم بحرف العطف، الدال على أن الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخريه، فكأنه قيل: هو الأول و هو الآخر و هو الظاهر و هو الباطن لا سواه، فتأمل ذلك، فإنه من لطيف العريبه و دقيقها. و الذى يوضح لك ذلك أنه إذا كان للبد مثلًا قاض و خطيب و أمير فاجتمعت في رجل، حسن أن تقول: زيد هو الخطيب و القاضى و الأمير، و كان لعطف هنا مزيه ليست للنعته المجرد، فعطف الصفات هاهنا أحسن، قطعاً لوهم متوهم أن الخطيب غيره و أن الأمير غيره. و أما قوله تعالى: **غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) [غافر: ٣]**، فعطف في الاسمين الأولين دون الآخريين. فقال السهيلي: إنما حسن العطف بين الاسمين الأولين لكونهما من صفات الأفعال، فعله- سبحانه- في غيره لا في نفسه، فدخل حرف العطف للمغايرة الصحيحة بين المعنيين و لتزلهما منزلة الجملتين؛ لأنه يريد تنبيه العباد على أنه يفعل هذا ليرجوه و يؤملوه، ثم قال: **شَدِيدُ الْعِقَابِ** بغير واو؛ لأن هذه راجعه إلى معنى القوة و القدرة و هو معنى خارج عن صفات الأفعال، فصار بمنزلة قوله: **العَزِيزِ الْعَلِيمِ** و كذلك قوله: **ذِي الطُّوْلِ** لأن لفظ: «ذى» عبارة عن ذاته، هذا جوابه «١»، و هو كما ترى غير شاف و لا كاف، فإن شدة عقابه من صفات الأفعال، و طوله من صفات الأفعال، و لفظه «ذى» فيه لا تخرجه عن كونه صفة فعل، كقوله: **عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**، بل لفظ الوصف بغافر و قابل أدل على الذات من الوصف بذى لأنها بمعنى صاحب كذا. فالوصف المشتق أدل على الذات من الوصف بهما فالوصف يشتم على جـوابه بـ زاد السـؤال سؤالاً

(١) قد يكون غير شاق أو كاف بما

يراه ابن القيم، لكن نظر جيد هذا كلام العلامة السهيلي رحمه الله تعالى. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٢٢ فاعلم أن هذه الجملة مشتملة على ستة أسماء كل اثنين منها قسم، فابتدأها ب **العَزِيزِ الْعَلِيمِ** و هما اسمان مطلقان و صفتان من صفات ذاته و هما مجردان عن العطف. ثم ذكر بعدهما اسمين من صفات أفعاله، فأدل بينهما العطف. ثم ذكر اسمين آخرين بعدهما و جردهما من العاطف، فأما الأولان فتجردهما من العاطف؛ لكونهما مفردين صفتين جاريتين على اسم الله، و هما متلازمان فتجردهما عن العطف هو الأصل، و هو موافق لبيان ما في الكتاب العزيز من ذلك ك **العَزِيزِ الْعَلِيمِ** و **السَّمِيعِ الْبَصِيرِ** و **الْعَفُورِ الرَّحِيمِ**. و أما **غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ**، فدخل العاطف بينهما؛ لأنهما في معنى الجملتين، و إن كان مفردين لفظاً، فهما يعطيان معنى يغفر الذنب و يقبل التوب، أى: هذا شأنه و وصفه في كل وقت. فأتى الاسم الدال على أن هذا وصفه و نعته المتضمن لمعنى الفعل الدال على أنه لا يزال يفعل ذلك، فعطف أحدهما على الآخر على نحو عطف الجمل بعضها على بعض و لا كذلك الاسمان الأولان، و لما لم يكن الفعل ملحوظاً في قوله: **شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ**؛ إذ لا- يحسن وقوع الفعل فيهما، و ليس في لفظ: (ذى) ما يصاغ منه فعل، جرى مجرى المقردين من كل وجه، و لم يعطف أحدهما على الآخر كما لم يعطف في **العَزِيزِ الْعَلِيمِ**، فتأمله فإنه واضح. و أما العطف في قوله: **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢)** و **الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) [الأعلى]**، فلما كان المقصود الثناء عليه بهذه الأفعال، و هى جملة، دخلت الواو عاطفة جملة على جملة و إن كانت الجملة مع الموصول في تقدير المفرد، فالفعل مراد مقصود، و العطف يصير كلاً منها جملة مستقلة مقصودة بالذكر، بخلاف ما لو أتى بها في خبر موصول واحد فقيل: **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا [الزخرف: ١٠-١٢]** كانت كلها في حكم جملة واحدة، فلما غاير بين الجمل بذكر الاسم الموصول مع كل جملة دل على أن المقصود وصفه بكل من هذه الجمل على حدتها «١»

بدائع الفوائد (١/ ١٨٩-١٩٣). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٢٣

تقديم بعض الكلام على بعض قال سيبويه «١»: الواو لا تدل على الترتيب ولا التعقيب، تقول: صمت رمضان و شعبان، وإن شئت شعبان و رمضان، بخلاف «الفاء» و «ثم»، إلا أنهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم، و هم بيانه أعنى، و إن كان جميعا يهمنهم و يغنيانهم. هذا لفظه. قال السهيلي: و هو كلام مجمل يحتاج إلى بسط و تبين، فيقال: متى يكون أحد الشيتين أحق بالتقدم، و يكون المتكلم بيانه أعنى قال: و الجواب: أن هذا الأصل يجب الاعتناء به؛ لعظم منفعته في كتاب الله و حديث رسوله، إذ لا بد من الوقوف على الحكمة في تقديم ما قدم و تأخير ما أخر نحو: السَّمِيعُ البَصِيرُ و الظُّلْمَاتِ و التُّورَ و اللَّيْلِ و النَّهَارِ و الْجَنِّ و الْإِنْسِ في الأكثر. و في بعضها الإنس و الجن و تقديم السماء على الأرض في الذكر، و تقديم الأرض عليها في بعض الآي و نحو سَمِيعٌ عَلِيمٌ، و لم يجيء «عليم سميع» و كذلك «عزيز حكيم» و «غفور رحيم» و في موضع واحد «الرحيم الغفور» إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر، و ليس شيء من ذلك يخلو عن فائدة و حكمة لأنه كلام الحكيم الخبير، و سنقدم بين يدي الخوض في هذا الغرض أصلاً يقف بك على الطريق الأوضح، فنقول: ما تقدم من الكلم فتقدمه في اللسان على حساب تقدم المعاني في الجنان، و المعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء: إما بالزمان، و إما بالطبع، و إما بالرتبة، و إما بالسبب، و إما بالفضل و الكمال. فإذا سبق معنى من المعاني إلى الخفة و الثقل بأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق، و كان ترتب الألفاظ بحسب ذلك، نعم؛ و ربما كان ترتب الألفاظ بحسب الخفة و الثقل، لا بحسب المعنى كقولهم: ربيعه، و مضر، و كان تقديم مضر أولى من جهة الفضل، و لكن آثروا أخفاه. لأنك لو قدمت مضر في اللفظ كـ

(١) _____ الكتاب لسيبويه و انظر «الواو

المزيدة». البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٢٤ الحركات و توات، فلما أخرت، وقف عليها بالسكون، قلت: و من هذا النحو الجن و الإنس، فإن لفظ الإنس أخف، لمكان النون الخفيفة و السين المهموسة، فكان الأثقل أولى بأول الكلام من الأخف لنشاط المتكلم جماعة «١». و أما في القرآن فلحكمة أخرى سوى هذه: قدم الجن على الإنس في الأكثر الأغلب، و سنشير إليها في آخر الفصل إن شاء الله. أما تقدم بتقدم الزمان، فكعاد و ثمود، و الظلمات و النور، فإن الظلمة سابقة للنور في المحسوس و المعقول، و تقدمها في المحسوس معلوم بالخبر المنقول، و تقدم الظلمة المعقولة معلوم بضرورة العقل، قال سبحانه: وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ [النحل: ٧٨]، فالجهل ظلمة معقولة، و هي متقدمة بالزمان على نور العلم؛ و لذلك قال تعالى: فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ [الزمر: ٦] فهذه ثلاث محسوسات: ظلمة الرحم، و ظلمة البطن، و ظلمة المشيمة «٢». و ثلاث معقولات و هي عدم الإدراكات الثلاثة المذكورة في الآية المتقدمة، إذ لكل آية ظهر و بطن، و لكل حرف حد، و لكل حد مطلع، و في الحديث: «إن الله خلق عباده في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره» «٣». و من المتقدم بالطبع نحو مَثْنَى وَ ثَلَاثَ وَ رُبَاعَ [النساء: ٣]، و نحو: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمُ الْآيَةَ [المجادلة: ٧] و ما يتقدم من الأعداد بعضها على بعض إنما يتقدم بالطبع. كتقدم الحيوان على الإنسان، و الجسم على الحيوان. و من هذا الباب تقدم العَزِيزُ على الْحَكِيمِ لأنه عز، فلما عز حكم، و ربما كان هذا من تقدم السبب على المسبب، و مثله كثير في القرآن نحو يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [البقرة] لأن التوبة سبب الطهارة، و كذلك كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) [الشعراء] لأن الإفك سبب الإثم، و كذلك كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ [المطففين: ١٢]. و أما ما تقدم «هماز» على «مشاء بنميم» فالرتبة لأن المشى مرتب على القعود في المكان، و الهماز: هو العياب، و ذلك لا يفتقر إلى حركة و انتقال من موضعه، بخلاف النيمية. و أما تقدم «مناع للخير» على «معتد» فالرتبة أيضاً؛ لأن المناع يمنع من نفسه،

(١) _____ أي راحته. (٢) يقول الأطباء أن

الأقرب لمعنى الكلمات الثلاث: - ظلمة البطن ثم الرحم ثم ما يسمى بالكيس الأميني (CAS CITONIMA) و هو المحيط بالطفل و يحتوى على ماء، أما المشيمة فيها مجموعة أوعية دموية تشبه الطحال تنقل الغذاء للطفل و الله أعلم. (٣) أحمد (٢/ ١٧٦)، و الترمذى (٢٦٤٢) في الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة، و قال: «حسن». البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٢٥ و المعتدى يعتدى على غيره

و نفسه قبل غيره، و من المتقدم بالرتبة يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ [الحج: ٢٧] لأن الذي يأتي راجلا يأتي من المكان القريب، و الذي يأتي على الضامر يأتي من المكان البعيد، على أنه قد روى عن ابن عباس أنه قال: وددت أني حججت راجلا؛ لأن الله قدم الرجاله على الركبان في القرآن، فجعله ابن عباس من باب تقدم الفاضل على المفضول. و المعنيان موجودان. و ربما قدم الشيء لثلاثة معان و أربعة و خمسة، و ربما قدم لمعنى واحد من الخمسة. و مما قدم للفضل و الشرف فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ [المائدة: ٦]، و قوله النَّبِيِّينَ وَ الصَّادِقِينَ [النساء: ٦٩]، و منه تقديم السَّمِيعِ عَلَى الْبَصِيرِ وَ سَمِيعٌ عَلَى بَصِيرٍ. و منه تقديم الْجَنِّ عَلَى الْإِنْسِ فِي أَكْثَرِ الْمَوَاضِعِ؛ لأن الجن تشتمل على الملائكة، و غيرهم مما اجتن عن الأبصار، قال تعالى: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا [الصافات: ١٥٨]. و قال الأعشى: و سخر من جن الملائك شيعة قيما لديه يعملون بلا أجر و أما قوله تعالى: لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا جَانٌّ [الرحمن: ٥٦]، و قوله: لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لَا جَانٌّ [الرحمن: ٣٩]، و قوله: طَنَّنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا [الجن: ٥] فإن لفظ الجن هاهنا لا يتناول الملائكة بحال، لنزاهتهم عن العيوب و أنهم لا يتوهم عليهم الكذب و لا سائر الذنوب، فلما لم يتناولهم عموم لفظ لهذه القرينة، بدأ بلفظ الإنس لفضلهم و كمالهم. و أما تقديم السماء على الأرض فبالرتبة أيضا و بالفضل و الشرف. و أما تقديم الأرض في قوله: وَ مَا يَعْرُجُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مَثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ [يونس: ٦١] فبالرتبة أيضا، لأنها منتظمة بذكر ما هي أقرب إليه و هم المخاطبون بقوله: وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ [يونس: ٦١] فاقترضى حسن النظم تقديمها مرتبة في الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها بخلاف الآية التي في سبأ فإنها منتظمة بقوله: عَالِمِ الْغَيْبِ [الجن: ٢٦]. و أما تقديمه المال على الولد في كثير من الآي فلأن الولد بعد وجود المال نعمة و مسرة، و عند الفقر و سوء الحال هم و مضرة، فهذا من باب تقديم السبب على المسبب؛ لأن المال سبب تمام النعمة بالولد. و أما قوله: حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ النَّبِيِّينَ [آل عمران: ١٤] فتقديم النساء على البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٢٦ البين بالسبب، و تقدم الأموال على البنين بالرتبة. و مما تقدم بالرتبة ذكر السمع و العلم حيث وقع، فإنه خبر يتضمن التخويف و التهديد، فبدأ بالسمع لتعلقه بما قرب كالأصوات و همس الحركات، فإن من سمع حَسِيكًا وَ صَوْتِكَ، أقرب إليك في العادة ممن يقول لك: إنه يعلم، و إن كان علمه تعالى متعلقا بما ظهر و بطن و واقعا على ما قرب و شطن، و لكن ذكر «السميع» أوقع في باب التخويف من ذكر «العليم» فهو أولى بالتقديم. و أما تقديم «الغفور» على «الرحيم»، فهو أولى بالطبع؛ لأن المغفرة سلامة، و الرحمة غنيمه و السلامة تطلب قبل الغنيمه. و في الحديث: أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لعمر بن العاص: «أبعثك وجهها يسلمك الله فيه و يغنمك، و أرغب لك رغبة من المال». فهذا من الترتيب البديع بدأ بالسلامة قبل الغنيمه، و بالغنيمه قبل الكسب. و أما قوله: وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغُفُورُ فِي سَبَأٍ، فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة، فإما الفضل و الكمال و إما بالطبع؛ لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين و غيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم و المغفرة تخصهم و العموم بالطبع قبل الخصوص، كقوله: فَالْكَيْهِيُّ وَ النَّخْلُ وَ رُمَّانٌ [الرحمن: ٦٨]، و كقوله: وَ مَلَائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلُ وَ مِيكَالُ [البقرة: ٩٨]، و مما قدم بالفضل قوله: وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ [آل عمران: ٤٣]؛ لأن السجود أفضل و «أقرب ما يكون العبد من ربه و هو ساجد» (١)، فإن قيل: فالركوع قبله بالطبع و الزمان و العادة، لأنه انتقال من علو إلى انخفاض و العلو بالطبع قبل الانخفاض، فهلا قدم الركوع؟ الجواب أن يقال: انتبه لمعنى الآية من قوله: وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ، و لم يقل: اسجدي مع الساجدين، فإنما عبر بالسجود عن الصلاة و أراد صلاتها في بيتها؛ لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها مع قومها، ثم قال لها: وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ أَي صَلَّى مَعَ الْمُصَلِّينَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، و لم يرد أيضا الركوع وحده دون أجزاء الصلاة، و لكنه عبر بالركوع عن الصلاة، كما تقول: ركعت ركعتين و أربع ركعات، يريد الصلاة لا الركوع بمجرده. فصارت الآية متضمنة لصلاتين صلاتها وحدها عبر عنها بالسجود. لأن السجود أفضل حالات العبد، و كذلك صلاة المرأة في بيتها أفضل لها، ثم صلاتها في المسجد عبر

(١) مسلم (٢١٥ / ٤٨٢) في الصلاة، باب: ما يقال في الركوع و السجود. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٢٧ عنها بالركوع لأنه في الفضل دون السجود، و كذلك صلاتها

مع المصلين دون صلاتها وحدها في بيتها و محرابها، وهذا نظم بديع و فقه دقيق، و هذه نبد تشير لك إلى ما وراء أو سدل و أنت صحيح «١». قالوا: و مما ذكره بهذا الباب قوله: طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ [البقرة: ١٢٥]، بدأ بالطائفين للرتبة و القرب من البيت المأمور بتطهيره من أجل الطوافين، و جمعهم جمع السلامة؛ لأن جمع السلامة أدل على لفظ الفعل الذي هو علة تعلق بها حكم التطهير و لو كان مكان الطائفين الطواف، لم يكن في هذا اللفظ من بيان قصد الفعل ما في قوله للطائفين، ألا ترى أنك تقول: تطوفون، كما تقول: طائفون، فاللفظان متشابهان. فإن قيل: فهلا أتى بلفظ الفعل بعينه فيكون أبين، فيقول: و طهرا بيتي للذين يطوفون. قيل: إن الحكم يعلل بالفعل لا بدوات الأشخاص، و لفظ الذين ينبئ عن الشخص و الذات و لفظ الطواف بخفى معنى الفعل و لا يبينه، فكان لفظ الطائفين أولى بهذا الموطن ثم يليه في الترتيب القائمين؛ لأنه في معنى العاكفين، و هو في معنى قوله: إلاً ما دُمت عَلَيْهِ قَائِماً [آل عمران: ٧٥]، أى مثابرا ملازما و هو كالطائفين في تعلق حكم التطهير به، ثم يليه بالرتبة لفظ الراكع؛ لأن المستقبلين البيت بالركوع لا يختصون بما قرب منه كالطائفين و العاكفين؛ و لذلك لم يتعلق حكم التطهير بهذا الفعل الذي هو ركوع، و أنه لا يلزم أن يكون في البيت و لا عنده؛ فلذلك لم يجئ بلفظ جمع السلامة؛ لأنه لا يحتاج فيه إلى بيان لفظ الفعل، كما احتج فيما قبله، ثم وصف الركع بالسجود و لم يعطف بالواو كما عطف ما قبله؛ لأن الركع هم السجود و الشيء لا يعطف بالواو على نفسه. و لفائدة أخرى و هو أن السجود أغلب ما يجيء عبارة عن المصدر و المراد به هنا الجمع، فلو عطف بالواو لتوهم أنه يريد السجود الذي هو المصدر دون الاسم الذي هو النعت. و فائدة ثالثة: أن الراكع إن لم يسجد فليس براكع في حكم الشريعة فلو عطف هاهنا بالواو لتوهم أن الركوع حكم يجرى على حياله. فإن قيل: فلم قال: السجود على وزن «فعلول»، و لم يقل: السجود كالركع و في آية (١) هكذا العبارة في الأصل و فيها

مقصودة و لعل مقصوده: و هذه نبذة تشير إلى ما وراء الألفاظ و ما أسدل عليها، تنتفع بها لو تيقظت أو ما شابه و لله أعلم. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٢٨ أخرى: رُكِعًا سَجِدًا، و لم جمع «ساجد» على «السجود»، و لم يجمع «راكع» على «ركوع»؟. فالجواب: إن السجود في الأصل مصدر كالخشوع و الخضوع، و هو يتناول السجود الظاهر و الباطن و لو قال: «السجد» في جمع «ساجد»، لم يتناول إلا المعنى الظاهر، و كذلك الركع، ألا تراه يقول: تَرَاهُمْ رُكِعًا سَجِدًا [الفتح: ٢٩]، و هذه رؤية العين و هي لا تتعلق إلا بالظاهر. و المقصود هنا الركوع الظاهر؛ لعطفه على ما قبله مما يراد به قصد البيت، و البيت لا يتوجه عليه إلا بالعمل الظاهر، و أما الخشوع و الخضوع الذي تناوله لفظ الركوع دون لفظ اركع، فليس مشروطا بالتوجه إلى البيت، و أما السجود فمن حيث أنبأ عن المعنى الباطن جعل وصفا للركع و متمما لمعناه؛ إذا لا يصح الركوع الظاهر إلا بالسجود الباطن، و من حيث تناول لفظه أيضا السجود الظاهر الذي يشترط فيه التوجه إلى البيت حسن انتظامه أيضا مع ما قبله مما هو معطوف على الطائفين الذي ذكرهم بذكر البيت، فمن لحظ هذه المعاني بقلبه و تدبر هذا النظم البديع بلبه، ارتفع في معرفة الإعجاز عن التقليد، و أبصر بعين اليقين أنه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت: ٤٢]. تم كلامه «١». قلت: و قد تولج رحمة الله مضايق تضايق عنها أن تولجها الإبر و أتى بأشياء حسنة، و بأشياء غيرها أحسن منها، فأما تعليقه تقديم ربيعة على مضر، ففي غاية الحسن، و هذان الاسمان لتلازمهما في الغالب صار كاسم واحد، فحسن فيهما ما ذكره. و أما ما ذكره في تقديم الجن على الإنس من شرف الجن، فمستدرك عليه، فإن الإنس أشرف من الجن من وجوه عديدة قد ذكرناها في غير هذا الموضوع. و أما قوله: إن الملائكة منهم أو هم أشرف فالمقدمتان ممنوعتان، أما الأول فلأن أصل الملائكة و مادتهم التي خلقوا منها هي النور، كما ثبت ذلك مرفوعا عن النبي صلى الله عليه و سلم في صحيح مسلم «٢». و أما الجن فمادتهم النار بنص القرآن، و لا يصح التفريق بين الجن و الجان لغة و لا شرعا و لا عقلا. و أما المقدمة الثانية: و هي كون الملائكة خيرا و أشرف من الإنس فهي المسألة المشهورة و هي تفضيل الملائكة أو البشر؟. و الجمهور على تفضيل البشر «٣»، و الذين فضلوا الملائكة (١) أي السهيلي رحمه الله تعالى، و

قد أبدع إبداعا. (٢) مسلم (٢٩٩٦/٦٠) في الزهد و الرقائق، باب: في أحاديث متفرقة. (٣) كما في حادي الأرواح و غيره. البدائع في

علوم القرآن، ص: ٢٢٩ هم المعتزلة و الفلاسفة و طائفة ممن عداهم، بل الذى ينبغى أن يقال فى التقديم هنا: إنه تقديم الزمان؛ لقول تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) [الحجر]. و أما تقديم الإنس على الجن فى قوله: لَمْ يَطْمِئْتُنَّ إِِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا- حَيَّانُ [الرحمن: ٥٦]، فلحكمة أخرى سوى ما ذكر، و هو: أن النفى تابع لما تعقله القلوب من الإثبات، فيرد النفى عليه و علم النفوس بطمئ الإنس و نفرتها ممن طمئها الرجال هو المعروف، فجاء النفى على مقتضى ذلك، و كان تقديم الإنس فى هذا النفى أهم. و أما قوله: وَ أَنَا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) [الجن فهذا يعرف سره من السياق، فإن هذا حكاية كلام مؤمنى الجن حين سماع القرآن، كما قال تعالى: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) الآيات [الجن]. و كان القرآن أول ما خوطب به الإنس و نزل على نبيهم، و هم أول من بدأ بالتصديق و التكذيب قبل الجن، فجاء قول مؤمنى الجن: وَ أَنَا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) [الجن بتقديم الإنس لتقدمهم فى الخطاب بالقرآن، و تقديمهم فى التصديق و التكذيب. و فائدة ثالثة، و هى: أن هذا حكاية كلام مؤمنى الجن لقومهم، بعد أن رجعوا إليهم فأخبروهم بما سمعوا من القرآن و عظمتة و هدايته إلى الرشد، ثم اعتذروا عما كانوا يعتقدونه أولاً بخلاف ما سمعوه من الرشد، بأنهم لم يكونوا يظنون أن الإنس و الجن يقولون على الله كذبا، فذكرهم الإنس هنا فى التقديم أحسن فى الدعوة و أبلغ فى عدم التهمة، فإنهم خالفوا ما كانوا يسمعون من الإنس و الجن لما تبين لهم كذبهم، فبدأت تهم بذكر الإنس أبلغ فى نفي الغرض و التهمة، و ألا- يظن بهم قومهم أنهم ظاهروا الإنس عليهم، فإنهم أول ما أقروا بتقولهم الكذب على الله، و هذا من أطف المعانى و أدقها، و من تأمل مواقعه فى الخطاب عرف صحته. و أما تقديم «عاد» على «ثمود» حيث وقع فى القرآن فما ذكره من تقدمهم بالزمان، فصحيح و كذلك الظلمات و النور، و كذلك «مثنى» و بابه. و أما تقديم «العزیز» على «الحكيم» فإن كان من الحكم و هو الفصل و الأمر، فما ذكره من المعنى صحيح، و إن كان من الحكمة و هى كمال العلم و الإرادة، لمتضمنين اتساق صنعه و جريانه على أحسن الوجوه. و أكملها و وضعه الأشياء مواضعها و هو الظاهر من هذا (١) و هى من مسائل الخلاف الشهيرة. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٣٠

الاسم، فيكون وجه التقديم أن العزة كمال القدرة و الحكمة كمال العلم و هو- سبحانه- الموصوف من كل صفة كمال بأكملها و أعظمها و غايتها، فتقدم وصف القدرة، لأن متعلقه أقرب إلى مشاهدة الخلق و هو مفعول-ته تعالى و آياته، و أما الحكمة فمتعلقها بالنظر و الفكر و الاعتبار غالبا و كانت متأخرة عن متعلق القدرة. و وجه ثان: أن النظر فى الحكمة بعد النظر فى المفعول و العلم به، فينتقل منه إلى النظر فيما أودعه من الحكم و المعانى. و وجه الثالث: أن الحكمة غاية الفعل، فهى متأخرة عنه تأخر الغايات عن وسائلها، فالقدرة تتعلق بإيجاده، و الحكمة تتعلق بغايته، فقدم الوسيلة على الغاية؛ لأنها أسبق فى الترتيب الخارجى. و أما قوله تعالى: يُحِبُّ النَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [البقرة: ٢٢٢]، ففيه معنى آخر سوى ما ذكره، هو أن الطهر طهران: طهر بالماء من الأحداث و النجاسات، و طهر بالتوبة من الشرك و المعاصى. و هذا الطهور أصل لظهور الماء، و ظهور الماء لا ينفع بدونه، بل هو مكمل له معد مهياً بحصوله، فكان أولى بالتقديم؛ لأن العبد أول ما يدخل فى الإسلام فقد تطهر بالتوبة من الشرك ثم يتطهر بالماء من الحدث. و أما قوله: كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ (٢٢٢) [الشعراء: ٢٢٢]، فالإفك: هو الكذب و هو فى القول، و الإثم: هو الفجور و هو فى الفعل، و الكذب يدعو إلى الفجور، كما فى الحديث الصحيح: «أن الكذب يدعو إلى الفجور و أن الفجور يدعو إلى النار» (١)، فالذى قاله صحيح. و أما كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ [المطففين: ١٢] ففيه معنى ثان غير ما ذكره، و هو أن العدوان مجاوزة الحد الذى حد للعبد، فهو ظلم فى القدر و الوصف، و أما الإثم فهو محرم الجنس، و من تعاطى تعدى الحدود، تخطف إلى الجنس الآخر و هو الإثم. و معنى ثالث، و هو أن المعتدى الظالم لعباد الله عدوانا عليهم، و الأثيم الظالم لنفسه بالفجور، فكان تقديمه هنا على الأثيم أولى؛ لأنه فى سياق ذمه و النهى عن طاعته، فمن كان معتديا على العباد ظالما لهم فهوى أخرى بأن لا- يطيعه و يوافق. و فيه معنى رابع، و هو أنه قدمه على الأثيم ليقترن بمما قبله و هو وصـف المنـوع للخير،

(١) مسلم (٢٦٠٧/ ١٠٣) فى البر و

الصلة، باب: قبح الكذب، و حسن الصدق، و فضله. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٣١ فوصفه بأنه لا خير فيه للناس و أنه مع ذلك معتد عليهم فهو متأخر عن المناخ، لأنه يمنع خيره أولاً ثم يعتدى عليهم ثانياً؛ و لهذا يحمده الناس من يوجد لهم الراحة و يكف عنهم الأذى و هذا هو حقيقة التصوف «١»، و هذا لا راحة يوجد لها و لا أذى يكفه. و أما تقديم «هماز» على «مشاء بنميم» فيه معنى آخر غير ما ذكره، و هو أن همزه عيب للمهموز و إزراء به و إظهار لفساد حالة في نفسه فإن قاله يختص بالمهموز لا يتعداه إلى غيره، و المشى بالنميمة يتعداه إلى من ينم عنده، فهو ضرر متعدد، و الهمز ضرره لازم للمهموز إذا شعر به ما ينتقل من الأذى اللازم إلى الأذى المتعدى المنتشر. و أما تقديم «الرجال» على «الركبان» فيه فائدة جلية و هي أن الله شرط في الحج الاستطاعة و لا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج، لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، و قدم الرجال اهتماماً بهذا المعنى و تأكيداً، و من الناس من يقول: قدمهم جبراً لهم؛ لأن نفوس الركبان تزدر بهم و توبخهم، و تقول: إن الله لم يكتب عليكم و لم يرده منكم، و ربما توهموا أنه غير نافع لهم، فبدأ بهم جبراً لهم و رحمة. و أما تقديم غسل الوجه ثم اليد، ثم مسح الرأس ثم الرجلين في الوضوء، فمن يقول: إن هذا الترتيب واجب و هو الشافعي و أحمد و من وافقهما، فالآية عندهم اقتضت التقديم وجوباً لقرائن عديدة: أحدها: أنه أدخل ممسوحاً بين مغسولين، وقع النظير عن نظيره، و لو أريد الجمع المطلق، لكان المناسب أن يذكر المغسولات متسقة في النظم، و الممسوح بعدها، فلما عدل إلى ذلك، دل على وجوب ترتيبها على الوجه الذي ذكره الله. الثاني: أن هذه الأفعال هي أجزاء فعل واحد مأمور به، و هو الوضوء فدخلت الواو لأجزاء بعضها على بعض، و الفعل الواحد يحصل من ارتباط أجزاء بعضها ببعض، فدخلت بعضها على بعض، و الفعل الواحد يحصل من ارتباط أجزاء بعضها ببعض، فدخلت الواو بين الأجزاء للربط فأفادت الترتيب؛ إذ هو الربط المذكور في الآية و لا يلزمه من كونها لا تفيد الترتيب بين الأفعال لا ارتباط بينهما، نحو: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ [البقرة: ١١٠]، ألا- تفيد بين أجزاء فعل مرتبطة بعضها ببعض، فتأمل هذا الموضع و لطفه، و هذا أحد

(١) هذا من إنصاف العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى حيث ينصف في أقواله و يأخذ الفائدة و الحكمة حيث وجدت و من تصفح مدارج السالكين وجد من ذلك الكثير، و انظر مقدمة «بدائع التفسير». البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٣٢ الأقوال الثلاثة في إفادة الواو للترتيب. و أكثر الأصوليين لا يعرفونه و لا يحكونه و هو قول ابن أبي موسى- من أصحاب أحمد- و لعله أرجح الأقوال «١». الثالث: أن لبداءة الرب تعالى بالوجه دون سائر الأعضاء خاصة فيجب مراعاتها ألا تلغى و تهدر، فيهدر ما اعتبره الله، و يؤخر ما قدمه الله. و قد أشار النبي صلى الله عليه و سلم إلى أن «ما قدمه الله فإنه ينبغي تقديمه و لا يؤخر» «٢»، بل يقدم ما قدمه الله و يؤخر ما أخره الله، فلما طاف بين الصفا و المروة بدأ بالصفاء و قال: «بدأ بما بدأ الله به». و في رواية للنسائي: «أبدءوا بما بدأ الله به» «٣» على الأمر، فتأمل بداءته بالصفاء معللاً ذلك بكون الله بدأ به فلا ينبغي تأخيره، و هكذا يقول المرتبون للوضوء سواء: نحن نبدأ بما بدأ الله به، و لا يجوز تأخير ما قدمه الله، و يتعين البداءة بما بدأ الله به و هذا هو الصواب؛ لمواظبة المبين عن الله مراده على الوضوء المرتب، فاتفق جميع من نقل عنه وضوءه كلهم على إيقاعه مرتباً، و لم ينقل عنه أحد قط أنه أدخل بالترتيب مرة واحدة فلو كان الوضوء المنكوس مشروعاً لفعله و لو في عمره مرة واحدة، لتبين جوازه لأتمته هذا بحمد الله أوضح «٤». و أما تقديم «النبين» على «الصديقين» فلما ذكره، و لكون الصديق تابعاً للنبي، فإنما استحق اسم «الصديق» بكمال تصديقه للنبي، فهو تابع محض، و تأمل تقديم الصديقين على الشهداء؛ لفضل الصديقين عليهم، و تقديم «الشهداء» على «الصالحين»؛ لفضلهم عليهم. و أما تقديم «السمع» على «البصر»، فهو متقدم عليه حيث وقع في القرآن مصدراً أو فعلاً أو اسماً، فالأول كقوله تعالى: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصِيرَ وَ الْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا [الإسراء: ٣٦]. الثاني: كقوله تعالى: إِنِّي مَعَكُمْ أَشِيمٌ وَ أَرَى [طه: ٤٦]. و الثالث: كقوله تعالى: سَمِيعٌ بَصِيرٌ [الحج: ٦١] إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الإسراء: ١] وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا [النساء: ١٣٤] فاحتج بهذا من يقول: إن السمع أشرف من البصر، و هذا قول

(١) انظر المقدمة. (٢) مسلم (١٢١٨)

(١٤٧) في الحج: باب: حجة النبي صلى الله عليه وسلم، و أبو داود (١٩٠٥) في الحج، باب: أمر الصفا و المروة. (٣) النسائي (٢٩٧٠) في الحج، باب: ذكر الصفا و المروة. (٤) و لو تأمل أهل التحقيق هذه المسألة، لكان كثير من الخلاف قد اضمحل، و كثير من النزاع تلاشى و لكن هي الآراء التي أفسدت كثيرا من الأحوال و لا حول و لا قوة إلا بالله. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٣٣ الأكثرين، و هو الذى ذكره أصحاب الشافعى، و حكوا هم و غيرهم عن أصحاب أبى حنيفة أنهم قالوا: البصر أفضل. و نصبوا معهم الخلاف، و ذكروا الحجاج من الطرفين و لا- أدرى ما يترتب على هذا المسألة من الأحكام حتى تذكر فى كتب الفقه، و كذلك القولان للمتكلمين و المفسرين «١». و حكى أبو المعالى عن ابن قتيبة تفضيل البصر، ورد عليه، و احتج مفضلو السمع بأن الله تعالى يقدمه فى القرآن حيث وقع، و بأن بالسمع تنال سعادة الدنيا و الآخرة، فإن السعادة بأجمعها فى طاعة الرسل و الإيمان بما جاءوا به، و هذا إنما يدرك بالسمع؛ و لهذا فى الحديث الذى رواه أحمد و غيره من حديث الأسود بن سريع: «ثلاثة كلهم يدلى على الله بحجته يوم القيامة» فذكر منهم رجلا أصم يقول: «يا رب، لقد جاء الإسلام و أنا لا أسمع شيئا» «٢». و احتجوا بأن العلوم الحاصلة من السمع أضعاف أضعاف العلوم الحاصلة من البصر، فإن البصر لا يدرك إلا بعض الموجودات المشاهدة بالبصر القريب، و السمع يدرك الموجودات و المعدومات، و الحاضر و الغائب، و القريب و البعيد، و الواجب و الممكن و الممتنع، فلا نسبة لإدراك البصر إلى إدراكه. و احتجوا بأن فقد السمع ثلم القلب و اللسان، و لهذا كان الأطرش خلقه .. لا ينطق فى الغالب، و أما فقد البصر فربما كان معينا على قوة إدراك البصيرة و شدة ذكائها، فإن نور البصر ينعكس إلى البصيرة باطنا فيقوى إدراكها و يعظم؛ و لهذا تجد كثيرا من العميان أو أكثرهم عندهم من الذكاء الوقاد، و الفطنة، و ضياء الحس الباطن، ما لا- تكاد تجده عند البصير، و لا ريب أن سفر البصر فى الجهات و الأقطار و مباشرته للمبصرات على اختلافها يوجب تفرق القلب و تشتيته؛ و لهذا كان الليل أجمع للقلب و الخلو و أعون على إصابة الفكرة، قالوا: فليس نقص فاقد السمع كنقص فاقد البصر. و لهذا كثير فى العلماء و الفضلاء و أئمة الإسلام، من هو أعمى و لم يعرف فيهم واحد أطرش، بل لا يعرف فى الصحابة أطرش، فهذا و نحوه من احتجاجهم على تفضيل البصر. قال منازلهم: يفصل بيننا و بينكم أمران: أحدهما: أن مدرك البصر النظر إلى وجهه الله تعالى فى المدار الآخرة، و هو نعيم أهل

(١) انظر هامش (٣) فى الصفحة السابقة، و رحم ابن القيم صاحب الفقه الحى، لا- الآراء التى هى كالشوك فى خلق العلم و أهله. (٢) أحمد (٢٤/٤)، و قال الهيثمى فى المجمع (٢١٨/٧، ٢١٩): «رجال أحمد رجال الصحيح». البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٣٤ الجنة إليهم، و لا- شىء أكمل من المنظور إليه- سبحانه- فلا حاسة فى العبد أكمل من حاسة تراه بها. الثانى: أن هذا النعيم و هذا العطاء إنما نالوه بواسطة السمع، فكان السمع كالوسيلة لهذا المطلوب الأ-عظم، فتفضيله عليه كفضيلة الغايات على وسائلها. و أما ما ذكرتم من سعة إدراكاته و عمومها، فيعارضه كثرة الخيانة فيها و وقوع الغلط، فإن الصواب فيما يدركه السمع بالإضافة إلى كثرة المسموعات قليل فى كثير، و يقابل كثير مدركاته صحة مدركات البصر و عدم الخيانة، و أن ما يراه و يشاهده لا يعرض فيه من الكذب ما يعرض فيه فيما يسمعه، و إذا تقابلت المرتبتان بقى الترجيح بما ذكرناه. و قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية- قدس الله روحه و نور ضريحه-: و فصل الخطاب أن إدراك السمع أعم و أشمل، و إدراك البصر أتم و أكمل، فهذا له التمام و الكمال، و ذاك له العموم و الشمول، فقد ترجح كل منهما على الآخر بما اختص به، تم كلامه «١». و قد ورد فى الحديث المشهور: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر و عمر: «هذان السمع و البصر» «٢». و هذا يحتمل أربعة أوجه: أحدها: أن يكون المراد أنهما منى بمنزلة السمع و البصر. و الثانى: أن يريد أنهما من دين الإسلام بمنزلة السمع و البصر من الإنسان، فيكون الرسول صلى الله عليه وسلم بمنزلة القلب و الروح، و هما بمنزلة السمع و البصر من الدين. و على هذا فيحتمل وجهين، أحدهما: التوزيع، فيكون أحدهما بمنزلة السمع و الآخر بمنزلة البصر. و الثانى: الشراكة، فيكون هذا التنزيل و التشبيه بالحاستين ثابتا لكل واحد منهما، فكل منهما بمنزلة السمع و البصر. فعلى احتمال التوزيع و التقسيم تكلم الناس أيهما هو السمع و أيهما هو البصر، و بنوا ذلك على أى الصفتين أفضل، فهى صفة الصديق. و التحقيق أن صفة

البصر للصديق و صفة السمع للفاروق. و يظهر لك هذا من كون عمر محدثا كما قال النبي صلى الله عليه و سلم: «قد كان في الأمم قبلكم محمداً، فإني يكفون في هذه الأمم» (١) و هذا الكلام من فتح الله تعالى

عليه، رحمه الله، و حسمه للمسألة إرشاد للباحث إلى وسائل قطع النزاع. (٢) مجمع الزوائد (٥٥ / ٩)، و قال: «رواه الطبراني، و فيه فرات بن السائب و هو متروك». البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٣٥ فعمر «١». و التحديث المذكور هو ما يلقي في القلب من الصواب و الحق و هذا طريقة السمع الباطن، و هو بمنزلة التحديث و الإخبار في الأذن، و أما الصديق فهو الذي كمل مقام الصديقية لكمال بصيرته، حتى كأنه قد باشر بصره مما أخبر به الرسول، ما باشر قلبه، فلم يبق بينه و بين إدراك البصر إلا حجاب الغيب، فهو كأنه ينظر إلى ما أخبر به من الغيب من وراء ستوره. و هذا لكمال البصيرة، و هذا أفضل مواهب العبد، و أعظم كراماته التي يكرم بها، و ليس بعد درجة النبوة إلا هي، و لهذا جعلها - سبحانه - بعدها فقال: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدُقِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ [النساء: ٦٩] و هذا هو الذي سبق به الصديق لا بكثرة صوم و لا بكثرة صلاة، و صاحب هذا يمشى رويدا و يجيء في الأول. و لقد تعناه من لم يكن سيره على هذا الطريق و تشميره إلى هذا العلم، و قد سبق من شمر إليه و إن كان يزحف زحفا و يحبو حبوا. و لا تستطل هذا الفصل فإنه أهم مما قصد بالكلام. فليعد إليه. فقيل: تقديم السمع على البصر له سببان، أحدهما: أن يكون السياق يقتضيه، بحيث يكون ذكرها بين الصفتين، متضمنا للتهديد و الوعيد، كما جرت عادة القرآن بتهديد المخاطبين و تحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضى الحذر و الاستقامة، كقوله: «فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) [البقرة]»، و قوله: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) [النساء]. و القرآن مملوء من هذا، و على هذا فيكون في ضمن ذلك أني أسمع ما يردون به عليك و ما يقابلون به رسالاتي، و أبصر ما يفعلون، و لا ريب أن المخاطبين بالرسالة بالنسبة إلى الإجابة و الطاعة نوعان: أحدهما: قابلوها بقولهم: صدقت ثم عملوا بموجها. و الثاني: قابلوها بالتكذيب، ثم عملوا بخلافها، فكانت مرتبة المسموع منهم قبل مرتبة البصر، فقدم ما يتعلق به على ما يتعلق بالمبصر، و تأمل هذا المعنى في قوله تعالى لموسى: «إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَ أَرَى [طه: ٤٦]، هو يسمع ما يجيبهم و يرى ما يصنعه. و هذا لا يعم سائر المواضيع، بل يختص منها بما هذا شأنه. و السبب الثاني: أن إنكار الأوهام الفاسدة لسمع الكلام، مع غاية البعد بين السامع و المسموع، أشد من إنكارها لرؤيته مع بعده. و في «الصحيحين» عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: ثقفيان و قرشي، أو قرشيان و ثقفى، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما

المناقب، و مسلم (٤٦) و رواه غيرهما. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٣٦ نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا و لا يسمع إن أخفينا، فقال الثالث: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا. و لم يقولوا: أترون الله يرانا، فكان تقديم السمع أهم، و الحاجة إلى العلم به أمس. و سبب ثالث: و هو أن حركة اللسان بالكلام أعظم حركات الجوارح و أشدها تأثيرا في الخير و الشر و الصلاح و الفساد، بل عامة ما يترتب في الوجود من الأفعال إنما ينشأ بعد حركة اللسان، فكان تقديم الصفة المتعلقة به أهم و أولى، و بهذا يعلم تقديمه على العليم، حيث وقع. و أما تقديم السماء على الأرض ففيه معنى آخر غير ما ذكره و هو أن غالبا تذكر السموات و الأرض في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته و ربوبيته، و معلوم أن الآيات في السموات أعظم منها في الأرض لسعتها و عظمتها و ما فيها من كواكبها و شمسها و قمرها و بروجها و علوها و استغنائها عن عمد تفلها أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها التي تعتبر الأرض و ما فيها كقطرة في سعتها، و لهذا أمر - سبحانه - بأن يرجع الناظر البصر فيها كرة بعد كرة، و يتأمل استواءها و اتساقها و براءتها من الخلل و الفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض و في كل شيء له آية سبحانه و بحمده. و أما تقديم الأرض عليها في قوله: «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ [يونس: ٦١]»، و تأخيرها عنها في «سبأ» فتأمل كيف وقع هذا الترتيب في «سبأ» في

ضمن قول الكفار: لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يغرب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض [سبأ: ٣]، كيف قدم السموات هنا؟ لأن الساعة إنما تأتي من قبلها وهي غيب فيها ومن جهتها تبتدئ وتنشأ، ولهذا قدم صعق أهل السموات على أهل الأرض عندها، فقال تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ [الزمر: ٦٨]. وأما تقديم الأرض على السماء في سورة يونس [الآية ٦١]، فإنه لما كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر وإعلامهم أنه - سبحانه - عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها، وأنه لا يغيب عنه منها شيء، اقتضى ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السماء، فتبارك من أودع كلامه من الحكم والأسرار والعلوم ما يشهد أنه كلام الله، وأن مخلوقا لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبدا. وأما تقديم المال على الولد فلم يطرده في القرآن بل قد جاء مقدا كذلك في قوله: وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ [سبأ: ٣٧]، وقوله: أَمَّا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ [التغابن: ١٥]، وقوله: لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ [المنافقون: ٩] وجاء البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٣٧ ذكر البنين مقدا كما في قوله: قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا [التوبة: ٢٤]، وقوله: زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ [آل عمران: ١٤]. فأما تقديم الأموال في تلك المواضع الثلاثة، فلأنها ينتظمها معنى واحد، وهو التحذير من الاشتغال بها والحرص على تحصيلها، حتى يفوته حظه من الله والدار الآخرة، نهى «١» في موضع عن الالتئام بها، وأخبر في موضع أنها فتنة، وأخبر في موضع آخر أن الذي يقرب عباده إليه إيمانهم وعملهم الصالح لا أموالهم ولا أولادهم، ففي ضمن هذا النهي عن الاشتغال بها عما يقرب إليه. ومعلوم أن اشتغال الناس بأموالهم والتلاهي بها، أعظم من اشتغالهم بأولادهم. وهذا هو الواقع حتى إن الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحة ولده وعن معاشرته وقربه. وأما تقديمهم على الأموال في تينك الآيتين فلحكمه باهرة، وهي أن «براءة» متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها، أحب إليه من الجهاد في سبيل الله، ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وأولاده وآبائه وإخوانه وعشيرته، تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعه مفارقتهم ماله، فإن تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر، ولا يكاد عند هذا التصور يخطر له مفارقتهم ماله، بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال. وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته، فبدأ أولا بذكر أصول العبد، وهم آباؤه المتقدمون طبعا وشرفا ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم عن آبائهم ومنازلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبى الذرية، ولا يشهدون على آبائهم بالكفر والنقيصة، ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم. ثم ذكر الفروع وهم الأبناء لأنهم يتلونهم في الرتبة، وهم أقرب أقاربهم إليهم وأعلق بقلوبهم وأصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة. ثم ذكر الإخوان وهم الكلاله وحواشى النسب، فذكر الأصول أولا ثم الفروع ثانيا، ثم النظراء ثالثا، ثم الأزواج رابعا؛ لأن الزوجة أجنبيته عنده، ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها (١).

في المطبوعة «فهى». البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٣٨ وهي إنما تراد للشهوة. وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم، ويرادون للنصرة والدفاع، وذلك مقدم على مجرد الشهوة. ثم ذكر القرابة البعيدة خامسا وهي العشيرة وبنو العم؛ فإن عشائرهم كانوا بنى عمتهم غالبا وإن كانوا أجناب فأولى بالتأخير. ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب سادسا، ووصفها بكونها مقترفة أى مكتسبة؛ لأن القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل وله أحب وبقدرة أعرف لما حصل له فيه من التعب والمشقة، بخلاف مال جاء عفوا بلا كسب من ميراث أو هبة أو وصية، فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه على بقائه أعظم من الثانى، والحس شاهد بهذا، وحسبك به. ثم ذكر التجارة سابعا؛ لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التى يحصله بها، فالتجارة عنده وسيلة إلى المال المقترف، فقدم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشى كسادها، وهذا يدل على شرفها وخطرها، وأنه قد بلغ قدرها إلى أنها مخوفة الكساد. ثم ذكر الأوطان ثامنا آخر المراتب؛ لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ما تقدم، فإن الأوطان تتشابه، وقد يقوم الوطن الثانى مقام الأول من كل وجه ويكون خيرا منه، فمنها عوض. وأما الآباء والأبناء و

الأقارب والعشائر فلا يتعوض منها غيرها، فالقلب وإن كان يحن إلى وطنه الأول، فحينه إلى آباءه وأبنائه وزوجاته أعظم، فمحبته الوطن آخر المراتب، وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إيثار البعيد على القريب فذلك جزئي لا كلي فلا تناقض به، وأما عند عدم العوارض، فهذا هو الترتيب المناسب والواقع. وأما آية آل عمران، فإنها لما كانت في سياق الإخبار بما زين للناس من الشهوات التي آثروها على ما عند الله واستغنوا بها، قدم ما تعلق الشهوة به أقوى والنفس إليه أشد سعرا وهو النساء، التي فتنهن أعظم فتن الدنيا، وهي القيود التي حالت بين العباد وبين سيرهم إلى الله، ثم ذكر البنين المتولدين منهن، فالإنسان يشتهي المرأة للذة والولد، وكلاهما مقصود له لذاته، ثم ذكر شهوة الأموال، لأنها تقصد لغيرها فشهوته شهوة الوسائل، وقدم أشرف أنواعها، وهو الذهب، ثم الفضة بعده، ثم ذكر الشهوة المتعلقة بالحيوان الذي لا يعاشر عشرة النساء والأولاد، فالشهوة المتعلقة به دون الشهوة المتعلقة بها. وقدم أشرف هذا النوع وهو الخيل، فإنها حصون القوم ومعاقلمهم وعزهم وشرفهم، فقدمها على الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم، ثم ذكر الأنعام وقدمها على الحرث؛ لأن الجمال بها البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٣٩ والانتفاع أظهر وأكثر من الحرث كما قال تعالى: **وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرِحُونَ (٦) [النحل]**. والانتفاع بها أكثر من الحرث، فإنها ينتفع بها ركوبا وأكلا وشربا ولباسا وأمتعة وأسلحة ودواء وقنية، إلى غير ذلك من وجوه الانتفاع، وأيضا فصاحبها أعز من صاحب الحرث وأشرف وهذا هو الواقع فإن صاحب الحرث لا بد له من نوع مذلة؛ ولهذا قال بعض السلف - وقد رأى سكة: ما دخل هذا دار قوم إلا دخلهم الذل، فجعل الحرث في آخر المراتب وضاع له في موضعه. ويتعلق بهذا نوع آخر من التقديم لم يذكره، وهو تقديم الأموال على النفس في الجهاد حيث ما وقع في القرآن إلا في موضع واحد وهو قوله: **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [التوبة: ١١١]**، وأما سائر المواضع فقدم فيها المال نحو قوله: **وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ [الصف: ١١]** وقوله: **وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ [التوبة: ٢٠]**، وهو كثير فما الحكمه في تقديم المال على النفس، وما الحكمه في تأخيرها في هذا الموضع وحده؟ وهذا لم يتعرض له السهيلي رحمه الله. فيقال أولا: هذا دليل على وجوب الجهاد بالمال، كما يجب بالنفس، فإذا دهم العدو وجب على القادر الخروج بنفسه، فإن كان عاجزا وجب عليه أن يكتري بماله، وهذا إحدى الروايتين عن الإمام أحمد، والأدلة عليها أكثر من أن تذكر هنا. ومن تأمل أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته في أصحابه وأمرهم بإخراج أموالهم في الجهاد قطع بصحة هذا القول، والمقصود تقديم المال في الذكر، وإن ذلك مشعر بإنكار، وهم من يتوهم أن العاجز بنفسه إذا كان قادرا على أن يغزى بماله لا يجب عليه شيء، فحيث ذكر الجهاد قدم ذكر المال فكيف يقال: لا يجب به، ولو قيل: إن وجوبه بالمال أعظم وأقوى من وجوبه بالنفس، لكان هذا القول أصح من قول من قال: لا يجب بالمال، وهذا بين وعلى هذا فتظهر الفائدة في تقديمه في الذكر. وفائدة ثانية على تقدير عدم الوجوب، وهي: أن المال محبوب النفس ومعشوقها التي تبذل ذاتها في تحصيله وترتكب الأخطار وتعرض للموت في طلبه، وهذا يدل على أنه هو محبوبها ومعشوقها، فندب الله تعالى محبيه المجاهدين في سبيله، إلى بذل معشوقهم ومحبوبهم في مرضاته فإن المقصود أن يكون الله هو أحب شيء إليهم، ولا يكون في الوجود شيء أحب إليهم منه، فإذا بذلوا محبوبهم في حبه، نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها، وهي البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٤٠ بذل نفوسهم له. فهذا غاية الحب فإن الإنسان لا شيء أحب إليه من نفسه، فإذا أحب شيئا بذل له محبوبه من نفعه وماله، فإذا آل الأمر إلى بذل نفسه ضمن بنفسه وآثرها على محبوبه. وهذا هو الغالب وهو مقتضى الطبيعة الحيوانية والإنسانية؛ ولهذا يدافع الرجل عن ماله وأهله ولده، فإذا أحس بالمغلوبية والوصول إلى مهجته ونفسه، فر وتركهم فلم يرض الله من محبيه بهذا، بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسهم بعد أن بذلوا له محبوباتها. وأيضا فبذل النفس آخر المراتب، فإن العبد يبذل ماله أولا يبقى به نفسه، فإذا لم يبق له مال بذل نفسه، فكان تقديم المال على النفس في الجهاد مطابقا للواقع. وأما قوله: **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ [التوبة: ١١١]** فكان تقديم النفس هو الأولى لأنها هي المشتراة في الحقيقة وهي مورد العقد وهي السلعة التي استامها ربها وطلب شراءها لنفسه وجعل ثمن هذا العقد رضاء وجنته، فكانت هي المقصود بعقد الشراء، والأموال تبع لها؛ فإذا ملكها مشتريها ملك مالها، فإن العبد وما

يملكه لسيدته ليس له فيه شيء، فالمالك الحق إذا ملك النفس ملك أموالها و متعلقاتها، فحسن تقديم النفس على المال في هذه الآية حسناً لا مزيد عليه. فلنرجع إلى كلام السهيلي - رحمه الله - و أما ما ذكره من تقديم الغفور على الرحيم فحسن جدا. و أما تقديم الرحيم على الغفور في موضع واحد و هو «أول سبأ»، ففيه معنى غير ما ذكره، يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى، و أسمائه الحسنى، في أول السورة إلى قوله: وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغُفُورُ، فإنه ابتداء - سبحانه - السورة بحمده الذى هو أعم المعارف و أوسع العلوم، و هو متضمن لجميع صفات كماله و نعوت جلاله، مستلزم لها كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله و أوامره، فهو المحمود على كل حال و على كل ما خلقه و شرعه، ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد، فقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابت له في الآخرة غير منقطع أبدا، فإنه حمد يستحقه لذاته و كمال أوصافه، و ما يستحقه لذاته دائم بدوامه لا يزول أبدا، و قرن بين الملك و الحمد على عادته تعالى في كلامه، فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه و كمال و من حمده و كمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصا، و الحمد بلا ملك يستلزم عجزا، و الحمد مع الملك غاية الكمال، و نظير هذا العزة و الرحمة، و العفو و القدرة، و الغنى و الكرم. فوسط الملك بين الجملتين، فجعله البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٤١ محفوفا بحمد قبله و حمد بعده، ثم عقب هذا الحمد و الملك باسم الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ الدالين على كمال الإرادة و أنها لا تتعلق بمراد إلا لحكمة بالغة و على كمال العلم، و أنه يتعلق بظواهر المعلومات فهو متعلق بواطنها التي لا تدرك إلا بخبرة، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهر و الحكمة باطنه، و العلم ظاهر و الخبرة باطنه، فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، و كمال العلم أن يكون كاشفا عن الخبرة، فالخبرة باطن العلم و كماله و الحكمة باطن الإرادة و كمالها. فتضمنت الآية إثبات حمده و ملكه، و حكمته و علمه على أكمل الوجود. ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر و ما بطن في العالم العلوى و السفلى، فقال: يَلْعَلُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا [الحديد: ٤] ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه، و هما الرحمة و المغفرة، فيجلب لهم الإحسان و النفع على أتم الوجوه برحمته، و يعفو عن زلتهم، و يهب لهم ذنوبهم و لا- يؤاخذهم بها بمغفرته، فقال: وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغُفُورُ [سبأ: ٢]، فتضمنت هذه الآية سعة علمه و رحمته و مغفرته، و هو- سبحانه - يقرن بين سعة العلم و الرحمة كما يقرن بين العلم و الحلم، فمن الأول قوله: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا [غافر: ٧]؛ و من الثانى: وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ [النساء: ١٢] فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، و من رحمة إلى علم. و حملته العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا و بحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، و اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا و بحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك «١». فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم و الرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، و كذلك الحلم و الرحمة إنما يحسنان مع العلم، و قدم الرحيم فى هذا الموضع لتقدم صفة العلم فحسن ذكر «الرحيم» بعده ليقترن به فيطابق قوله: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا [غافر: ٧] ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر و تضمن ما قبلها جلب الخير، و لما كان دفع الشر مقديما على جلب الخير، قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع. و لما كان فى هذا الموضع تعارض يقتضى تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور. و أما قوله تعالى: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ أَشْرَ الْجُدَى وَ أَزْكَى مَعَ الرَّاحِيَةِ نَ (٤٣) [آل عمران] فقد

(١) انظر الدرر المنتور للسيوطى (٧)

(٢٧٤) عن هارون بن رثاب بلفظ «حملته العرش ثمانية» و قال: أخرجه ابن المنذر و أبو الشيخ و البيهقى فى الشعب. و ذكره ابن كثير (٧٨ / ٤) عن شهر بن حوشب. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٤٢ أبعد النجعة فيما تعسفه من فائدة التقديم، و أتى بما ينبو اللفظ عنه. و قال غيره: السجود كان فى دينهم قبل الركوع، و هذا قائل ما لا علم له به. و الذى يظهر فى الآية- و الله أعلم بمراده من كلامه- أنها اشتملت على مطلق العبادة و تفصيلها، فذكر الأعم ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص. فذكر القنوت أولا و هو الطاعة الدائمة فيدخل فيه القيام و الذكر و الدعاء، و أنواع الطاعة. ثم ذكر ما هو أخص منه و هو السجود الذى يشرع وحده كسجود الشكر و

عن نوح وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ [هود: ٣٤] وهذا ظاهر في أن الشرط الثاني شرط في الشرط الأول، والمعنى: إن أراد الله أن يغويكم لم ينفعكم نصحي إن أردته، وهذا يشهد لصحة ما قال الشيخ أبو إسحاق. الموضوع الثاني: قوله تعالى وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ [الأحزاب: ٥٠]. قالوا: فهذه الآية ظاهرة في قول المالكية؛ لأن إرادة رسول الله صلى الله عليه وسلم متأخرة عن هبتها، فإنها تجرى مجرى القبول في هذا العقد، والإيجاب هو هبتها. ونظير هذا أن يقول: إن وهب لي شيئا إن أردت قبوله أخذته، فإرادة القبول متأخرة عن الهبة، فلا يكون شرطا فيها. قال الأولون: يجوز أن تكون إرادة رسول الله صلى الله عليه وسلم متقدمة، فلما فهمت المرأة منه ذلك وهبت نفسها له، فيكون كالأية الأولى. وهذا غير صحيح، والقصة تأباه؛ فإن المرأة قامت وقالت: يا رسول الله، إني وهبت لك نفسي. فصعد فيها النظر و صوبه، ثم لم يتزوجها وزوجها غيره «١». الموضوع الثالث: قوله تعالى: فَلَوْ لَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) [الواقعة]. المعنى: فلو لا- ترجعونها، أي تردون الروح إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مربوبين مملوكين إن كنتم صادقين. وهنا: الثاني شرط للأول، والمعنى: إن كنتم صادقين في قولكم فهلا تردونها إن كنتم غير مدنيين. ويدل عليه قول الشاعر، أنشده عبد الله بن مالك (١) البخاري (٥٦٣٥) في

النكاح، باب: السلطان ولي، و مسلم (٧٦/١٤٢٥) في النكاح، باب: الصداق و جواز كونه تعليم قرآن و خاتم حديد. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٤٥ إن تستغيثوا بنا إن تدعروا تجنوا منا معاقل عز زانها الكرم و معلوم أن الاستغاثة إنما تكون بعد الذعر، فالذعر شرط فيها. و من هذا قول الدردي: فإن عثرت بعدها إن والت نفسي من هاتا فقولاً لا لعا و معلوم أن العثور مرة ثانية إنما يكون بعد النجاة من الأولى، ف «والت» شرط في الشرط الثاني. و على هذا فإذا ذكرت الشرطين و أتيت بالجواب كان جواباً للأول خاصة، و الثاني جرى معه مجرى الفضلة و التتمة كالحال و غيرها من الفضلات، قاله ابن مالك. و أحسن من هذا أن يقال: ليس الكلام بشرطين يستدعيان جوابين، بل هو شرط واحد و تعليق واحد اعتبر في شرطه قيد خاص جعل شرطاً فيه، و صار الجواب للشرط المقيد فهو جواب لهما معاً بهذا الاعتبار. و إيضاحه أنك إذا قلت: إن كلمت زيدا إن رأيت فأنت طالق. جعلت الطلاق جزاء على كلام مقيد بالرؤية لا على كلام مطلق، و كأنه قال: إن كلمته ناظرة إليه فأنت طالق، و هذا يبين لك حرف المسألة، و يزيل عنك إشكالها جملة، و بالله التوفيق «١» (١) بدائع الفوائد (٣/ ٢٤٥-٢٤٨) .. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٤٦

الروابط بين الجملتين

الروابط بين الجملتين الروابط بين الجملتين هي الأدوات التي تجعل بينهما تلازماً لم يفهم قبل دخولها و هي أربعة أقسام: أحدها: ما يوجب تلازماً مطلقاً بين الجملتين، إما بين ثبوت و ثبوت أو بين نفى و نفى أو بين نفى و ثبوت و عكسه في المستقبل خاصة و هو حرف الشرط البسيط ك «إن»، فإنها تلازم بين هذه الصور كلها تقول: إن اتقيت الله أفلحت، و إن لم تتق الله لم تفلح، و إن أطعت الله لم تخب، و إن لم تطع الله خسرت؛ و لهذا كانت أمّ الباب و أعم أدواته تصرفاً. القسم الثاني: أداة تلازم بين هذه الأقسام الأربعة تكون في الماضي خاصة و هي «لما» تقول: لما قام أكرمه، و كثير من النحاة يجعلها ظرف زمان. و تقول: إذا دخلت على الفعل الماضي فهي اسم، و إن دخلت على المستقبل فهي حرف. و نص سيبويه على خلاف ذلك، و جعلها من أقسام الحروف التي تربط بين الجملتين. و مثال الأقسام الأربعة: لما قام أكرمه، و لما لم يقم أكرمه، و لما لم يقم أكرمه، و لما قام لم أكرمه. القسم الثالث: أداة تلازم بين امتناع الشيء لامتناع غيره، و هي «لو»، نحو: لو أسلم الكافر نجا من عذاب الله. القسم الرابع: أداة تلازم بين امتناع الشيء و وجود غيره، و هي «لولا»، نحو: لو لا أن هدانا الله لضللنا، و تفصيل هذا الباب يرسم عشر مسائل: المسألة الأولى: المشهور أن الشرط و الجزاء لا يتعلقان إلا بالمستقبل، فإن كان ماضياً للفظ كان مستقبل المعنى، كقولك: إن مت على الإسلام دخلت الجنة. ثم

للنحاة فيه تقديران، أحدهما: أن الفعل ذو تغير في اللفظ، و كان الأصل: إن تمت مسلما تدخل الجنة. فغير لفظ المضارع إلى الماضي، تنزيلا- له منزلة المحقق. والثاني: أنه ذو تغير في المعنى و أن حرف الشرط لما دخل عليه قلب معناه إلى الاستقبال و بقي لفظه على حاله. و التقدير الأول أفقه في العربية، لموافقته تصرف العرب في إقامتها الماضي مقام البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٤٧ المستقبل، و تنزيلا المنتظر منزلة الواقع المتيقن، نحوى أتى أمر الله [النحل: ١] وَ نَبِّحْ فِي الصُّورِ [الزمر: ٦٨] و نظائره، فإذا تقرر ذلك في الفعل المجرد، فليفهم مثله المقارن لأداة الشرط. و أيضا فإن تغيير الألفاظ أسهل عليهم من تغيير المعاني؛ لأنهم يتلاعبون بالألفاظ مع محافظتهم على المعنى. و أيضا فإنهم إذا أعربوا الشرط أتوا بأداته، ثم أتبعوها فعله يتلوه الجزاء، فإذا أتوا بالأداة جاءوا بعدها بالفعل، و كان حقه أن يكون مستقبلا لفظا و معنى، فعدلوا عن لفظ المستقبل إلى الماضي لما ذكرنا، فعدلوا عن صيغة إلى صيغة. و على التقدير الثاني، كأنهم وضعوا فعل الشرط و الجزاء أولا ماضيين، ثم أدخلوا عليهما الأداة فانقلبا مستقبلين، و الترتيب و القصد يأبى ذلك فتأمله. المسألة الثانية: قال تعالى عن عيسى عليه الصلاة و السلام: **إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ** [المائدة: ١١٦] فهذا شرط دخل على ماضى اللفظ، و هو ماضى المعنى قطعاً؛ لأن المسيح إما أن يكون صدر هذا الكلام منه بعد رفعه إلى السماء، أو يكون حكاية ما يقوله يوم القيامة. و على التقديرين: فإنما تعلق الشرط و جزؤه بالماضى. و غلط على الله من قال: إن هذا القول وقع منه في الدنيا قبل رفعه، و التقدير: إن أكن أقول هذا، فإنك تعلمه. و هذا تحريف للآية؛ لأن هذا الجواب إنما صدر منه بعد سؤال الله له عن ذلك، و الله لم يسأله، و هو بين أظهر قومه و لا اتخذه و أمه إلهين إلا بعد رفعه بمئين من السنين، فلا يجوز تحريف كلام الله انتصارا لقاعدة نحوية، هدم مائة أمثالها أسهل من تحريف معنى الآية. و قال ابن السراج في «أصوله»: يجب تأويلهما بفعلين مستقبلين، تقديرهما: إن ثبت في المستقبل أنى قلته في الماضي، يثبت أنك علمته، و كل شيء تقرر في الماضي كان ثبوته في المستقبل، فيحسن عليه. و هذا الجواب أيضا ضعيف جدا، و لا ينبئ عنه اللفظ، و ليت شعري ما يصنعون بقول النبي صلى الله عليه و سلم: «**إِنْ كُنْتُ أَلَمْتُ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَ تَوْبِي إِلَيْهِ**» (١) هل يقول عاقل: إن الشرط هنا مستقبل؟ أما التأويل الأول فمنتف هنا قطعاً، و أما الثاني فلا يخفى وجه التعسف فيه، و أنه لم يقصد أنه يثبت في المستقبل أنك أذبت في الماضي فتوبى، و لا قصد هذا المعنى، و إنما المقصود المراد ما دل عليه الكلام: **إِنْ كَانَ صَدْرُ مَنْكَ ذَنْبٍ فِيمَا مَضَى فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَ تَوْبِي إِلَيْهِ**، لم يرد إلا هذا الكلام.

(١) البخارى (٤٧٥٠) فى التفسير، باب: **وَلَوْ لَا إِذِ سَجَعْتُمْوه قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** [النور: ١٦]، و مسلم (٢٧٧٠/٥٦) فى التوبة، باب: فى حديث الإفك و قبول توبة القاذف. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٤٨ و إذا ظهر فساد الجوابين فالصواب أن يقال: جملة الشرط و الجزاء تارة تكون تعليقا محضا غير متضمن جوابا لسائل: هل كان كذا؟ و لا يتضمن لنفى قول من قال: قد كان كذا، فهذا يقتضى الاستقبال و تارة يكون مقصوده و مضمونه جواب سائل: هل وقع كذا؟ أو رد قوله: قد وقع كذا؟ فإذا علق الجواب هنا على شرط، لم يلزم أن يكون مستقبلا لفظا و لا معنى، بل لا يصح فيه الاستقبال بحال، كمن يقول لرجل: هل أعتقت عبدك؟ فيقول: إن كنت قد أعتقته، فقد أعتقه الله، فما للاستقبال هنا معنى قط. و كذلك إذا قلته لمن قال: صحبت فلانا؟ فيقول: إن كنت صحبتته فقد أصبت بصحبته خيرا. و كذلك إذا قلت له: هل أذبت؟ فيقول: إن كنت قد أذبت فإنى قد تبت إلى الله و استغفرتة، و كذلك إذا قال: هل قلت لفلان كذا؟ و هو يعلم أنه علم بقوله له، فيقول: إن كنت قلته فقد علمته. فقد عرفت أن هذه المواضع كلها، مواضع ماض لفظا و معنى، ليطابق السؤال الجواب، و يصح التعليق الخبرى لا الوعدى، فالتعليق الوعدى يستلزم الاستقبال، و أما التعليق الخبرى فلا يستلزمه. و من هذا الباب قوله تعالى: **إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** * **وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ** (٢٧) [يوسف]، و تقول: إن كانت البيئة شهدت بكذا و كذا فقد صدقت. و هذه دقيقة خلت عنها كتب النحاة و الفضلاء، و هى كما ترى و وضوحا و برهانا، و لله الحمد. المسألة الثالثة: المشهور عند النحاة و الأصوليين و الفقهاء أن أداة «**إِنْ**» لا يعلق عليها إلا محتمل الوجود و العدم، كقولك: إن تأتني أكرمك. و لا يعلق عليها محقق الوجود، فلا نقول: إن طلعت الشمس أتيتك. بل نقول:

إذا طلعت الشمس أتيتك. و «إذا» يعلق عليها النوعان، و استشكل هذا بعض الأصوليين فقال: قد وردت «إن» في القرآن في معلوم الوقوع قطعاً، كقوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا [البقرة: ٢٣]، و هو - سبحانه - يعلم أن الكفار في ريب منه. و قوله: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ [البقرة: ٢٤]، و معلوم قطعاً انتفاء فعلهم. و أجب عن هذا بأن قال: إن الخصائص الإلهية لا تدخل في الأوضاع العريية، بل الأوضاع العريية مبنية على خصائص الخلق. و الله تعالى أنزل القرآن بلغه العرب و على منوالهم، فكل ما كان في عادة العرب حسناً أنزل القرآن على ذلك الوجه، أو قبيحاً لم ينزل في القرآن، فكل ما كان شأنه أن يكون في العادة مشكوكاً فيه بين الناس حسن تعليقه ب «إن» من قبل الله و من قبل غيره، سواء كان معلوماً للمتكلم أو للسامع أم لا. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٤٩ و كذلك يحسن من الواحد منا أن يقول: إن كان زيد في الدار فأكرمه مع علمه بأنه في الدار، لأن حصول زيد في الدار شأنه أن يكون في العادة مشكوكاً فيه فهذا هو الضابط لما تعلق على «إن» فاندفع الإشكال. قلت: هذا السؤال لا يرد، فإن الذي قاله القوم أن الواقع و لا- بد لا- يعلق ب «إن» و أما ما يجوز أن يقع و يجوز ألا- يقع، فهو الذي يعلق بها و إن كان بعد وقوعه متعين الوقوع. و إذا عرفت هذا فتدبر قوله تعالى: وَ إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرَحَّ بِهَا وَ إِن تَصِبْهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ [الشورى: ٤٨] كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى، «بإذا» و أتى في إصابته السيئة «بإن»، فإن ما يعفو الله عنه أكثر، و أتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق الدال على تحقيق الوقوع، و في حصول السيئة بالمستقبل الدال على أنه غير محقق و لا بد، و كيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاعة الدال على مباشرة الرحمة لهم، و أنها مذوقة لهم و الذوق هو أخص أنواع الملابس و أشدها، و كيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافاً إليه، فقال: مِنَّا رَحْمَةً [الشورى: ٤٨] و أتى في السيئة بباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم؟ و كيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاعة الرحمة بحرف «إن» دون الجملة الثانية. و أسرار القرآن كثر و أعظم من أن تحيط بها عقول البشر. و تأمل قوله تعالى: وَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا [الإسراء: ٦٧]، كيف أتى بإذا هاهنا لما كان مس الضر لهم في البحر محققاً؛ بخلاف قوله: لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانَ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَ إِن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسِّسْ قَتَوْتُ (١) [فصلت]، فإنه لم يقيد مس الشر هنا بل أطلقه، و لما قيده بالبحر الذي هو متحقق فيه ذلك أتى بأداة «إذا». و تأمل قوله تعالى: وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُوسِّسًا (٨٣) [الإسراء]، كيف أتى هنا بإذا المشعرة بتحقيق الوقوع المستلزم لليأس، فإن اليأس إنما حصل عند تحقق مس الشر له، فكان الإتيان بإذا هاهنا أدل على المعنى المقصود من «إن»، بخلاف قوله: وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ، فإنه بقله صبره و ضعف احتمالته متى توقع الشر أعرض و أطال في الدعاء، فإذا تحقق وقوعه كان يئوساً (١) في المطبوعة «و إن مسه

الشر فذو دعاء عريض». (٢) في المطبوعة «و إن». البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٥٠ و مثل هذه الأسرار في القرآن لا يرقى إليها إلا بموهبة من الله و فهم يؤتاه عبداً في كتابه. فإذا قلت: فما تصنع بقوله تعالى: إِنْ أَمْرٌؤُ هَلَكَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفٌ مَا تَرَكَ [النساء: ١٧٦]، و الهلاك محقق؟ قلت: التعليق ليس على مطلق الهلاك بل على هلاك مخصوص و هو هلاك لا عن ولد. فإن قلت: فما تصنع بقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) [البقرة: ١٧٢] و قوله: فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) [الأنعام] و تقول العرب: إن كنت ابني فأطعني. و في الحديث في السلام على الموتى: «و إنا إن شاء الله بكم لاحقون» (١) و اللاحق محقق و في قول الموصي: إن مت فثلث مالي صدقه. قلت: أما قوله إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، الذي حسن مجيء «إن» هاهنا الاحتجاج و الإلزام، فإن المعنى: إن عبادتكم لله تستلزم شكركم له، بل هي الشكر نفسه، فإن كنتم ملتزمين لعبادته داخلين في جملتها، فكلوا من رزقه و اشكروه على نعمه، و هذا كثيراً ما يورد في الحجاج كما تقول للرجل: إن كان الله ربك و خالقك فلا تعصه. و إن كان لقاء الله حقاً فتأهب له. و إن كانت الجنة حقاً فتزود إليها. و هذا أحسن من جواب من أجب بأن «إن» هنا قامت مقام «إذا»، و كذا قوله: إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ وَ كذا قولهم: إن كنت ابني فأطعني، و نظائر ذلك. و أما قوله: «إنا إن شاء الله بكم لاحقون» فالتعليق هنا ليس لمطلق الموت، و إنما هو للحاقهم بالمؤمنين و مصيرهم إلى حيث صاروا. و أما قول

الموصى: إن مت فثلث مالى صدقة؛ فلأن الموت وإن كان محققاً، لكن لما لم يعرف تعين وقته وطال الأمد وانفردت مسافة أمنيّة الحياة، نزل منزلة المشكوك، كما هو الواقع الذى يدل عليه أحوال العباد. فإن عاقلاً لا يتيقن الموت ويرضى بإقامته على حال لا يحب الموت عليها أبداً، كما قال بعض السلف: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت. وعلى هذا حمل بعض أهل المعاني: **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)** [المؤمنون فأكد الموت باللام، وأتى فيه باسم الفاعل الـمدال على الثبوت، وأتى فى البعث بالفعول و لـم يؤكده. (١) مسلم (١٠٢/٩٧٤) فى الجنائز،

باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٥١ المسألة الرابعة: قد تعلق الشرط بفعل محال ممتنع الوجود، فيلزمه محال آخر وتصدق الشرطية دون مفرديتها، أما صدقها فلاستلزام المحال المحال، وأما كذب مفرديتها فلاستحالتها، و عليه: **قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) [الزخرف: ٨١]**، ومنه قوله **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [الأنبياء: ٢٢]**. ومنه: **قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) [الإسراء]** ونظائره كثيرة. وفائدة الربط بالشرط فى مثل هذا أمران؛ أحدهما: بيان استلزام إحدى القضيتين للأخرى. والثانى: أن اللزوم منتف فـالملزوم كذلك، فقد تبين من هذا الشرط تعلق به المحقق الثبوت والممتنع الثبوت والممكن الثبوت. المسألة الخامسة: اختلف سيبويه و يونس فى الاستفهام الداخلى على الشرط؛ فقال سيبويه: يعتمد على الشرط و جوابه، فيتقدم عليهما ويكون بمنزلة القسم، ونحو قوله: **أَفَإِنْ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) [الأنبياء]** وقوله: **أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ [آل عمران: ١٤٤]**. وقال يونس: يعتمد على الجزاء، فتقول: إن مت أفأنت خالد. والقرآن مع سيبويه والقياس أيضاً كما يتقدم القسم ليكون جملة الشرط والجزاء مقسماً عليها ومستفهما عنها، ولو كان كما قال يونس، لقال: فإن مت أفهم الخالدون. المسألة السادسة: اختلف الكوفيون والبصريون فيما إذا تقدم أداء الشرط جملة تصلح أن تكون جزاء، ثم ذكر فعل الشرط ولم يذكر له جزاء، نحو: أقوم إن قمت. فقال ابن السراج: الذى عندى أن الجواب محذوف يبنى عنه الفعل المتقدم، قال: وإنما يستعمل هذا على وجهين؛ إما أن يضطر إليه شاعر، وإما أن يكون المتكلم به محققاً بغير شرط ولا نية. فقال: أجيئك، ثم يبدو له ألا- يجيئه إلا- بسبب، فيقول: إن جئتني، فيشبه الاستثناء و يبنى عن الجواب ما تقدم. وهذا قول البصريين، وخالفهم أهل الكوفة، وقالوا: المتقدم هو الجزاء، والكلام مرتبط به. وقولهم فى ذلك هو الصواب، وهو اختيار الجرجاني، قال: الدليل على أنك إذا قلت: آتيك إن أتيتنى كان الشرط متصلاً «بآتيك»، وأن الذى يجرى فى كلامهم لا بد من إضمار الجزاء ليس على ظاهره، وأما إن عملنا على ظاهره وتوقفنا أن الشرط متقدم فى النفس على الجزاء، صار من ذلك شيئان ابتداء كلام ثان. ثم اعتقاد ذلك يؤدى إلى إبطال ما اتفق عليه العقلاء فى الإيمان، من افتراق الحكم بين أن يصل الشرط فى نطقه، وبين أن يقف ثم يأتى بالشرط، وأنه إذا قال لعبده: أنت حر إن البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٥٢ شاء الله، فوصل، لم يعتق، ولو وقف ثم قال: إن شاء الله، فإنه يعتق. فإذا سمعت ما قلنا عرفنا خلاف المسألة، فالمشهور من مذهب البصريين امتناع تقديم الجزاء على الشرط، هذا كلامه. قلت: ولم يكن به حاجة فى تقرير الدليل إلى الوقف بين الجملة الأولى و جملة الشرط، فالدلالة قائمة ولو وصل، فإنه إذا قال: أنت حر، فهذه جملة خبرية ترتب عليها حكمها عند تمامها، وقوله: إن شاء الله، ليس تعليقاً لها عندكم، فإن التعليق إنما يعمل فى الجزاء، وهذه ليست بجزاء، وإنما هى خبر محض والجزاء عندكم محذوف. فلما قالوا: إنه لا يعتق، دل على أن المتقدم نفسه جزاء معلق. هذا تقرير الدلالة ولكن ليس هذا باتفاق، فقد ذهب طائفة من السلف والخلف إلى أن الشرط إنما يعمل فى تعليق الحكم إذا تقدم على الطلاق، فتقول: إن شاء الله فأنت طالق. فأما إن تقدم الطلاق ثم عقبه بالتعليق فقال: أنت طالق إن شاء الله، طلقت ولا ينفع التعليق، وعلى هذا فلا يبقى فيما ذكر حجة. ولكن هذا المذهب شاذ والأكثر على خلافه، وهو الصواب، لأنه إما جزاء لفظاً ومعنى قد اقتضاه التعليق على قول الكوفيين، إما أن يكون جزاء فى المعنى، وهو نائب الجزاء المحذوف و دل عليه، فالحكم تعلق به على التقديرين، والمتكلم إنما بنى كلامه عليه. وأما قول ابن السراج: إنه قصد الخبر جزماً، ثم عقبه بالجزاء. فليس كذلك بل بنى كلامه على الشرط كما لو

قال له: على عشرة إلا درهما. فإنه لم يقر بالعشرة ثم أنكر درهما. ولو كان كذلك لم ينفعه الاستثناء. و من هنا قال بعض الفقهاء: إن الاستثناء لا ينفع في الطلاق؛ لأنه إذا قال: أنت طالق ثلاثا إلا واحدة، فقد أوقع الثلاثة ثم رفع منها واحدة. وهذا مذهب باطل؛ فإن الكلام مبني على آخره مرتبط أجزاءه ببعضها ببعض، كارتباط التوابع من الصفات وغيرها بمتبوعاتها، والاستثناء لا يستقل بنفسه فلا يقبل إلا بارتباطه بما قبله، فجرى مجرى الصفة والعطف. و يلزم أصحاب هذا المذهب ألا ينفع الاستثناء في الإقرار؛ لأن المقرب لا يرفع ثبوته، و في إجماعهم على صحته دليل على إبطال هذا المذهب، و إنما احتاج الجرجاني إلى ذكر الفرق بين أن يقف أو يصل؛ لأنه إذا وقف عتق العبد و لم ينفعه الاستثناء و إذا وصل لم يعتق، فدل على أن الفرق بين وقوع العتق و عدمه هو السكوت، و الوصل هو المؤثر في البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٥٣ الحكم لا تقدم الجزاء و تأخره، فإنه لا تأثير له بحال كما ذكره ابن السراج: أنه إنما يأتي في الضرورة، ليس كما قال - فقد جاء في أفصح الكلام و هو كثير جدا، كقوله تعالى: وَ أَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [البقرة: ١٧٢] و قوله: فَكَلِمَاتٍ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) [الأنعام: ١١٨] و قوله: قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) [آل عمران و هو كثير، فالصواب المذهب الكوفي، و التقدير إنما يصر إليه عند الضرورة، بحيث لا يتم الكلام إلا به، فإذا كان الكلام تاما بدونه فأى حاجة بنا إلى التقدير؟ و أيضا، فتقديم الجزاء ليس بدون تقديم الخبر و المفعول و الحال و نظائرها. فإن قيل: الشرط له التصدير و صفا، فتقديم الجزاء عليه يخل بتصديره، قلنا هذه هي الشبهة التي منعت القائلين بعدم تقديمه. و جوابها: إنكم إن عنيتم بالتصدير أنه لا يتقدم معموله عليه، و الجزاء معمول له فيمتنع تقديمه فهو نفس المتنازع فيه، فلا يجوز إثبات الشيء بنفسه، و إن عنيتم به أمرا آخر لم يلزم منه امتناع التقديم، ثم نقول: الشرط و الجزاء جملتان قد صارتا بأداة الشرط جملة واحدة، و صارتا الجملتان بالأداة كأنهما مفردان فأشبهها الفردين في باب الابتداء و الخبر، فكما لا يمتنع تقديم الخبر على المبتدأ فكذلك تقديم الجزاء، و أيضا فالجزاء هو المقصود و الشرط قيد فيه و تابع له، فهو من هذا الوجه رتبته التقديم طبعاً، و لهذا كثيرا ما يجيء الشرط متأخرا عن المشروط؛ لأن المشروط هو المقصود و هو الغاية، و الشرط وسيلة، فتقديم المشروط هو تقديم الغايات على وسائلها و رتبته التقديم ذهنا و إن تقدمت الوسيلة وجوداً، فكل منهما له التقدم بوجه، و تقدم الغاية أقوى، فإذا وقعت في مرتبتها فأى حاجة إلى أن نقدرها متأخرة؟ و إذا انكشف الصواب فالصواب أن تدور معه حيثما دار. المسألة السابعة: «لو» يؤتى بها للربط لتعلق ماض بماض، كقولك: لو زرتني لأكرمتك؛ و لهذا لم تجزم إذا دخلت على مضارع، لأن الموضع للماضي لفظاً و معنى، كقولك: لو يزورني زيد لأكرمته فهي في الشرط نظير «إن» في الربط بين الجملتين لا- في العمل و لا- في الاستقبال، و كان بعض فضلاء المتأخرين و هو تاج الدين الكندي ينكر أن تكون «لو» حرف شرط، و غلط الزمخشري في عدها في أدوات الشرط. قال الأندلسي في «شرح المفصل»: فحكيت ذلك لشيخنا أبي البقاء، فقال: غلط تاج الدين في هذا التغليظ، فإن «لو» تربط شيئاً بشيء كما تفعل إن. قلت: و لعل النزاع لفظي، فإن أريد بالشرط الربط المعنوي الحكمي، فالصواب ما قاله البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٥٤ أبو البقاء و الزمخشري، و إن أريد بالشرط ما يعمل في الجزءين فليست من أدوات الشرط «١». المسألة الثامنة: المشهور أن «لو» إذا دخلت على ثبوتين نفتهما، أو نفيين أثبتتهما أو نفلي و ثبوت، أثبتت المنفي و نفت المثبت، و ذلك لأنها تدل على امتناع الشيء لامتناع غيره، و إذا امتنع النفي صار إثباتاً فجاءت الأقسام الأربعة، و أورد على هذا أمور. أحدها: قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ وَ مقتضى ما ذكرتم أن تكون كلمات الله تعالى قد نفذت، و هو محال؛ لان الأول ثبوت و هو كون أشجار الأرض أقلاماً و البحار مدادا لكلماته، و هذا منتف، و الثاني و هو قوله: ما نفذت كلمات الله فيلزم أن يكون ثبوتاً. الثاني: قول عمر: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، فعلى ما ذكرتم يكون الخوف ثابتاً لأنه منفي، و المعصية كذلك لأنها منفية أيضاً. و قد اختلف أجوبة الناس عن ذلك، فقال أبو الحسن بن عصفور: «لو» في الحديث بمعنى «إن» لمطلق الربط، فلا يكون نفيها إثباتاً، و لا إثباتاً نفيها، فاندفع الإشكال. و في هذا الجواب ضعف بين، فإنه لم يقصد في الحديث مطلق الربط كما قال، و إنما قصد ارتباط متضمن لنفي الجزاء و لا سيق الكلام إلا لهذا، ففي الجواب إبطال خاصية «لو» التي فارقت بها سائر أدوات الشرط. و قال غيره: «لو» في اللغة لمطلق

الربط، وإنما اشتهرت في العرف في انقلاب ثبوتها نفياً وبالعكس، والحديث إنما ورد بمعنى اللفظ في اللغة حكى هذا الجواب القرافي، وهو أفسد من الذي قبله بكثير، فإن اقتضاء «لو» لنفي الثابت بعدها وإثبات المنفي متلقى من أصل وضعها لا من العرف الحادث، كما أن معاني سائر الحروف من نفي أو تأكيد أو تخصيص أو بيان أو ابتداء أو انتهاء، إنما هو متلقى من الوضع لا من العرف فما قاله ظاهر البطلان. الجواب الثالث: جواب الشيخ أبي محمد بن عبد السلام وغيره، وهو أن الشيء الواحد قد يكون له سبب واحد فينتفى عند انتفائه، وقد يكون له سببان فلا يلزم من عدم أحدهما عدمه؛ لأن السبب الثاني يخلف السبب الأول كقولنا في زوج: هو ابن عم. لو لم يكن زوجاً لورث أي بالتعصيب، فإنهما سببان لا يلزم من عدم أحدهما عدم الآخر. وكذلك الناس هاهنا في الغالب، إنما لم يعصوا لأجل الخوف، فإذا ذهب الخوف عنهم عصوا

(١) انظر مناقشة ذلك في جزء اللغة

من الموسوعة. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٥٥ لاتحاد السبب في حقهم. فأخبر عمر أن صهيباً اجتمع له سببان يمنعان المعصية الخوف والإجلال فلو انتفى الخوف في حقه، لانتفى العصيان للسبب الآخر وهو الإجلال. وهذا مدح عظيم له. قلت: وبهذا الجواب بعينه يجاب عن قوله صلى الله عليه وسلم في ابنة حمزة: «إنها لو لم تكن ربيتي في حجري لما حلت لها ابنة أخي من الرضاة» (١)، أي فيها سببان يقتضيان التحريم فلو قدر انتفاء أحدهما لم ينتف التحريم للسبب الثاني، وهذا جواب حسن جداً. الجواب الرابع: ذكره بعضهم بأن قال: جواب «لو» محذوف، وتقديره لو لم يخف الله لعصمه فلم يعصه بإجلاله ومحبه إياه، فإن الله يعصم عبده بالخوف تارة والمحبة والإجلال تارة، وعصمة الإجلال والمحبة أعظم من عصمة الخوف، لأن الخوف يتعلق بعقابه والمحبة والإجلال يتعلقان بذاته وما يستحقه تبارك وتعالى (٢)، فأين أحدهما من الآخر. ولهذا كان دين الحب أثبت وأرسخ من دين الخوف، و أمكن وأعظم تأثيراً وشاهد ما نراه من طاعة المحب لمحبوبه، وطاعة الخائف لمن يخافه، كما قال بعض الصحابة: إنه ليستخرج حبه مني من الطاعة ما لا يستخرجه الخوف، وليس هذا موضع بسط هذا الشأن العظيم القدر وقد بسطته في كتاب «الفتوحات القدسية». الجواب الخامس: أن «لو» أصلها أن تستعمل للربط بين شيئين كما تقدم، ثم أنها قد تستعمل لقطع الربط فتكون جواباً لسؤال محقق أو متوهم وقع فيه ربط، فقطعه أنت لاعتقادك بطلان ذلك الربط، كما لو قال القائل: إن لم يكن زيد زوجاً لم يرث. فتقول أنت: لو لم يكن زوجاً لورث زيد. إن ما ذكره من الربط بين عدم الزوجية وعدم الإرث ليس بحق فمقصودك قطع ربط كلامه لا ربطه، وتقول: لو لم يكن عالماً لأكرم، أي لشجاعته جواباً لسؤال سائل يتوهم أنه لو لم يكن عالماً لما أكرم، فتربط بين عدم العلم والإكرام، فقطع أنت ذلك الربط وليس مقصودك أن تربط بين عدم العلم والإكرام؛ لأن ذلك ليس بمناسب ولا من أغراض العقلاء، ولا يتجه كلامك إلا على عدم الربط، كذلك الحديث لما كان الغالب على الناس أن يرتبط عصيانهم بعدم خوفهم، وإن ذلك في الأوهام قطع عمر هذا الربط، وقال: لو لم يخف الله لم يعصه، وكذلك لما كان الغالب على

(١) البخاري (٥١٠١) في النكاح،

باب: وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ، و مسلم (١٥/١٤٤٩) في الرضاع، باب: تحريم الربيبة وأخت المرأة. (٢) كذا الأصل، ولعل في الكلام حذفاً تقديره: لذاته أعظم مما يستحقه بعقابه (من هامش المطبوعة). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٥٦ الأوهام أن الشجر كلها إذا صارت أقلاماً، والبحار المذكورة كلها تكتب به الكلمات الإلهية، فلعل الوهم يقول: ما يكتب بهذا شيء إلا نفذ كائناً ما كان، فقطع الله تعالى هذا الربط، ونفى هذا الوهم، وقال: ما نفذت. قلت: ونظير هذا في الحديث أن زوجته لما توهمت أن ابنة عمه حمزة تحل له، لكونها بنت عمه، فقطع هذا الربط بقوله: إنها لا تحل، وذكر للتحريم سببين: الرضاة، وكونها ربيبة له. وهذا جواب القرافي، قال: وهو أصلح من الأجوبة المتقدمة من وجهين، أحدهما: شموله للحديث والآية وبعض الأجوبة لا تنطبق على الآية. والثاني: أن ورود «لو» بمعنى «إن» خلاف الظاهر، وما ذكره لا يتضمن خلاف الظاهر. قلت: وهذا الجواب فيه ما فيه، فإنه إن ادعى أن «لو» وضعت أو جيء بها لقطع الربط فغلط، فإنها حرف من حروف الشرط التي مضمونها ربط السبب بمسببه والملزوم بلازمه، ولم

يؤت بها لقطع هذا الارتباط، ولا وضعت له أصلاً فلا يفسر الحرف بضم موضوعه. ونظير هذا قول من يقول: إن «إلا» قد تكون بمعنى الواو، وهذا فاسد، فإن الواو للتشريك والجمع، و«إلا» للإخراج و قطع التشريك، ونظائر ذلك. وإن أراد أن قطع الربط الموهوم مقصود للمتكلم من أدله، فهذا حق، ولكن لم ينشأ هذا من حرف «لو»، وإنما جاء من خصوصية ما صاحبها من الكلام المتضمن لنفي ما توهمه القائل أو ادعاه، ولم يأت من قبل «لو» فهذا كلام هؤلاء الفضلاء في هذه المسألة، وإنما جاء الإشكال سؤالاً وجواباً من عدم الإحاطة بمعنى الحرف ومقتضاه وحقيقته، وأنا أذكر حقيقة هذا الحرف ليتبين سر المسألة بعون الله. فاعلم أن «لو» حرف وضع للملازمة بين أمرين يدل على أن الحرف الأول منهما ملزوم، والثاني لازم هذا وضع هذا الحرف وطبيعته وموارده في هذه الملازمة أربعة، فإنه ما أن يلزم بين نفيين أو ثبوتين، أو بين ملزوم مثبت ولازم منفي أو عكسه ونعني بالثبوت والنفي هنا الصوري اللفظي لا المعنوي. فمثال الأول: قُلْ لَوْ أَنَّهُمْ تَمَلَّكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ [الإسراء: ١٠٠] وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَعْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَعْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا [النساء: ٦٤] وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا [النساء] ونظائره. ومثال الثاني: لو لم تكن ربيتي في حجري لما حلت لي، ولو لم يخف الله لم يعصه. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٥٧ ومثال ثالث: وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ [لقمان: ٢٧]. ومثال الرابع: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم». فهذه صورة وردوها على النفي والإثبات. وأما حكم ذلك فأمران، أحدهما: نفي الأول لنفي الثاني لأن الأول ملزوم، والثاني لازم والملزوم عدم عند عدم لازمه. والثاني: تحقق الثاني لتحقيق الأول؛ لأن تحقق الملزوم يستلزم تحقق لازمه. فإذا عرفت هذا فليس في طبيعة «لو» ولا وضعها ما يؤذن بنفي واحد من الجزئين ولا إثباته، وإنما طبعها وحققتها الدلالة على التلازم المذكور، لكن إنما يؤتى بها للتلازم المتضمن نفي اللازم أو الملزوم أو تحققها، ومن هنا نشأت الشبهة فلم يؤت بها لمجرد التلازم مع قطع النظر عن ثبوت الجزئين أو نفيهما، فإذا دخلت على جزئين متلازمين قد انتفى اللازم منهما، استنفذ نفي الملزوم من قضية اللزوم لا من نفس الحرف. وبيان ذلك أن قوله تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [الأنبياء: ٢٢] لم يستفد نفي الفساد من حرف «لو»، بل الحرف دخل على أمرين قد علم انتفاء أحدهما حساً، فلازمت بينه وبين من يريد نفيه من تعدد الآلهة - وقضية الملازمة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه - فإذا كان اللازم منتفياً قطعاً وحساً، انتفى ملزومه لانتفائه، لا من حيث الحرف. فهنا أمران، أحدهما: الملازمة التي فهمت من الحرف، والثاني: انتفاء اللازم المعلوم بالحس. فعلى هذا الوجه ينبغي أن يفهم انتفاء اللازم والملزوم ب «لو» فمن هنا قالوا: إن دخلت على مثبتين صاروا منتفيين، بمعنى: أن الثاني منهما قد علم انتفاؤه من خارج، فينتفى الأول لانتفائه. وإذا دخلت على منفيين أثبتتهما لذلك أيضاً؛ لأنها تدخل على ملزوم محقق الثبوت من خارج فيتحقق ثبوت ملزومه، كما في قوله: «لو لم تذنبوا» (١). فهذا الملزوم - وهو صدور الذنب - متحقق في الخارج من البشر فتحقق لازمه وهو بقاء النوع الإنساني وعدم الذهاب به؛ لأن الملازمة وقعت بين عدم الذنب وعدم البقاء، لكن عدم الذنب منتفياً قطعاً، فانتفى لازمه وهو عدم الذهاب بنا فثبت الذنب وثبت البقاء وكذلك نفيه الأقسام الأربعة يفهم على هذا الوجه (١) مسلم (٢٧٤٩).

(١) في التوبة، باب: سقوط الذنوب بالاستغفار توبة. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٥٨ وإذا عرف هذا، فاللازم الواحد قد يلزم ملزومات متعددة كالحيوانية اللازمة للإنسان والفرس وغيرهما، فيقصد المتكلم إثبات الملازمة بين بعض تلك الملزومات واللازم على تقدير انتفاء البعض الآخر، فيكون مقصوده أن الملازمة حاصله على تقدير انتفاء ذلك الملزوم الآخر، فلا يتوهم المتوهم انتفاء اللازم عند نفي ملزوم معين، فإن الملازمة حاصله بدونه، وعلى هذا يخرج: لو لم يخف الله لم يعصه، ولو لم تكن ربيتي لما حلت لي. فإن عدم المعصية له ملزومات فهي الخشية والمحبة والإجلال، فلو انتفى بعضها وهو الخوف مثلاً - لم يبطل اللازم؛ لأن له ملزومات آخر غيره. وكذلك لو انتفى كون البنت ربيبة لما انتفى التحريم؛ لحصول الملازمة بينه وبين وصف آخر وهو الرضاع، وذلك الوصف ثابت. وهذا القسم إنما يأتي في لازم له ملزومات متعددة فيقصد المتكلم تحقق الملازمة على تقدير نفي ما نفاها منها.

و أما قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ [لقمان: ٢٧]، فإن الآية سقت لبيان أن أشجار الأرض لو كانت أقلاما و البحار مدادا فكتبت بها كلمات الله، لنفدت البحار، و الأقلام و لم تنفذ كلمات الله، فالآية سقت لبيان الملازمة بين عدم نفاذ كلماته و بين كون الأشجار أقلاما و البحار مدادا يكتب بها، فإذا كانت الملازمة ثابتة على هذا التقدير الذي هو أبلغ تقدير يكون في نفاذ المكتوب، فثبوتها على غيره من التقادير أولى. و نوضح هذا بضرب مثل يرتقى منه إلى فهم مقصود الآية. إذا قلت لرجل لا يعطى أحدا شيئا: لو أن لك الدنيا بأسرها ما أعطيت أحدا منها شيئا. فإنك إذا قصدت أن عدم إعطائه ثابت على أعظم التقادير التي تقتضى الإعطاء، فلازمت بين عدم إعطائه و بين أعظم أسباب الإعطاء، و هو كثرة ما يملكه. فدل هذا على أن عدم إعطائه ثابت على ما هو دون هذا التقدير، و إن عدم الإعطاء لازم لكل تقدير. فافهم نظير هذا المعنى في الآية، و هو عدم نفاذ كلمات الله تعالى، على تقدير أن الأشجار أقلام، و البحار مداد يكتب بها، فإذا لم تنفذ على هذا التقدير كان عدم نفاذها لازما له، فكيف بما دونه من التقديرات؟ فافهم هذه النكتة التي لا يسمح بمثلها كل وقت، و لا تكاد تجدها في الكتب، و إنما هي من فتح الله و فضله، فله الحمد و المنه و نسأله المزيد من فضله. فانظر كيف اتفقت القاعدة العقلية مع القاعدة النحوية، و جاءت النصوص بمقتضاها معا من غير خروج عن موجب عقل و لا لغة و لا تحريف لنص، و لو لم يكن في هذا التعليق البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٥٩ إلا هذه الفائدة لسأوت رحله، فكيف و قد تضمن من غرر الفوائد ما لا ينفق إلا على تجارة، و أما من ليس هناك فإنه يظن الجوهرة زجاجة، و الزجاجه المستديرة المثقوبة جوهرة، و يزرى على الجوهري و يزعم أنه لا يفرق بينهما، و الله المعين. المسألة التاسعة: في دخول الشرط على الشرط و نذكر فيه ضابطا مزيلا- للإشكال إن شاء الله، فنقول: الشرط الثاني تارة يكون معطوفا على الأول، و تارة لا يكون، و المعطوف تارة يكون معطوفا على فعل الشرط وحده، و تارة يعطف على الفعل مع الأداة. فمثال غير المعطوف: إن قمت إن قعدت فأنت طالق. و مثال المعطوف على فعل الشرط وحده: إن قمت و قعدت. و مثال المعطوف على الفعل مع الأداة: إن قمت و إن قعدت فهذه الأقسام الثلاثة أصول الباب، و هي عشر صور. أحدها: إن خرجت و لبست، فلا يقع المشروط إلا بهما كيفما اجتماعا. الثانية: إن لبست فخرجت، لم يقع المشروط إلا- بالخروج بعد اللبس، فلو خرجت ثم لبست، لم يحدث. الثالثة: إن لبست ثم خرجت، فهذا مثل الأول و إن كان ثم للتراخي فإنه لا يعتبر هنا إلا حيث يظهر قصده. الرابعة: إن خرجت لا إن لبست، فيحتمل هذا التعليق أمرين، أحدهما: جعل الخروج شرطا و نفى اللبس أن يكون شرطا. الثانية: أن يجعل الشرط هو الخروج المجرد عن اللبس، و المعنى: إن خرجت لا لابسة، أي غير لابسة. و يكون المعنى: إن كان منك خروج لا مع اللبس، فعلى هذا التقدير الأول يحدث بالخروج وحده، و على الثاني لا يحدث إلا بخروج لا- لبس معه. الخامسة: إن خرجت بل إن لبست، و يحتمل هذا التعليق أمرين، أحدهما: أن يكون الشرط هو اللبس دون الخروج فيختص الحث به لأجل الإضراب، و الثاني: أن يكون كل منهما شرطا فيحدث بأيهما وجد و يكون الإضراب عن الاقتصار، فيكون إضراب اقتصار لا إضراب إلغاء كما تقول: أعطه درهما بل درهما آخر. السادسة: إن خرجت أو إن لبست، فالشرط أحدهما، أيهما كان. السابعة: إن لبست لكن إن خرجت، فالشرط الثاني وقع، لغا الأول لأجل الاستدراك ولكن. الثامنة: أن يدخل الشرط على الشرط، و يكون الثاني معطوفا بالواو نحو: إن لبست و إن البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٦٠ خرجت. فهذا يحدث بأحدهما. فإن قيل: فكيف لم تحتثوه في صورة العطف على الفعل وحده إلا بهما و حثتموه هاهنا بأيهما كان؟ قيل: لأن هناك جعل الشرط مجموعهما، و هنا جعل كل واحد منهما شرطا برأسه، و جعل لهما جوابا واحدا. و فيه رأيان، أحدهما: أن الجواب لهما جميعا، و هو الصحيح. و الثاني: أن جواب أحدهما حذف لدلالة المذكور عليه، و هي أخت مسألة الخبر عن المبتدأ بجزئين. التاسعة: أن يعطف الشرط الثاني بالفاء نحو قوله تعالى: فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى [طه: ١٢٣] فالجواب المذكور جواب الشرط الثاني و هو و جوابه جواب الأول، فإذا قال: إن خرجت فإن كلمت أحدا فأنت طالق، لم تطلق حتى تخرج و تكلم أحدا. العاشرة: و هي أن المسألة التي تكلم فيها الفقهاء دخول الشرط على الشرط بلا عطف، نحو: إن خرجت إن لبست. و اختلف أقوالهم فيها: فمن قائل: إن المؤخر في اللفظ مقدم في المعنى، و أنه لا يحدث حتى يتقدم اللبس على الخروج. و من قائل: بل المقدم لفظا هو المقدم معنى و ذكر كل منهم حججا لقوله. و ممن نص

على المسألة الموقف الأندلسي في شرحه، فقال: إذا دخل الشرط على الشرط وعيد حرف الشرط توقف وقوع الجزاء على وجود الشرط الثاني قبل الأول، كقولك: إن أكلت إن شربت فأنت طالق، فلا تطلق حتى يوجد الشرب منها قبل الأكل، لأنه تعلق على أكل معلق على شرب. وهذا الذي ذكره أبو إسحاق في «المهذب». وحكى ابن شاس في «الجواهر» عن أصحاب مالك عكسه. والوجهان لأصحاب الشافعي، ولا بد في المسألة من تفصيل، وهو أن الشرط الثاني إن كان متأخرا في الوجود عن الأول، كان مقدرًا بالفاء و تكون الفاء جواب الأول، والجواب المذكور جواب الثاني. مثاله: إن دخلت المسجد إن صليت فيه، لك أجر. تقديره: فإن صليت فيه، وحذفت الفاء لدلالة الكلام عليها. وإن كان الثاني متقدما في الوجود على الأول، فهو في نية التقدم وما قبله جوابه، والفاء مقدرة فيه. ومثله قوله عز وجل: وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصِيحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ [هود: ٣٤] أى فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي. وتقول: إن دخلت المسجد إن توضأت فصل ركعتين. تقديره: إن توضأت فإن دخلت المسجد فصل ركعتين، فالشرط الثاني هنا متقدم، وإن لم يكن أحدهما متقدما في الوجود على الآخر، بل كان محتملا للتقدم والتأخر لم يحكم على أحدهما بتقدم ولا تأخر، بل يكون الحكم راجعا إلى تقدير المتكلم و نيته، البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٤١ فأيهما قدر شرطا كان الآخر جوابا له، وكان مقدرًا بالفاء، تقدم في اللفظ أو تأخر، وإن لم يظهر نيته ولا تقديره احتمال الأمرين، فمما ظهر فيه تقديم المتأخر قول الشاعر: إن تستغيثوا بنا إن تدعروا تجدوا منا معاقل عز زانها الكرم لأن الاستغاثة لا تكون إلا بعد الدعر، ومنه قول ابن دريد: فإن عثرت بعدها إن والت نفسى من هاتا فقولاً لا لعا و معلوم أن العثور مرة ثانية إنما يكون بعد الدعر. ومن المحتمل قوله تعالى: وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ [الأحزاب: ٥٠]، يحتمل أن تكون الهبة شرطا، ويكون فعل الإرادة جوابا له، ويكون التقدير إن وهبت نفسها للنبي فإن أراد النبي أن يستنكحها فخالصة له، و يحتمل أن تكون الإرادة شرطا والهبة جوابا له، والتقدير: إن أراد النبي أن يستنكحها فإن وهبت نفسها، فهي خالصة له. يحتمل الأمرين، فهذا ما ظهر لى من التفصيل فى هذه المسألة و تحقيقها، واللّه أعلم «١».

(١) بدائع الفوائد (١ / ٤٣ - ٦٠).

البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٤٢

القسم في القرآن

من أحكام القسم

من أحكام القسم وهو - سبحانه - يقسم بأمر على أمور، وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته، وآياته المستلزمة لذاته و صفاته، و إقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته. فالقسم إما على جملة خبرية - وهو الغالب - كقوله تعالى: فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ [الذاريات: ٢٣]، وإما على جملة طلبية، كقوله تعالى: فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر: ٩٢-٩٣]. مع أن هذا قد يراد به تحقيق المقسم عليه فيكون من باب الخبر، وقد يراد به تحقيق القسم. و المقسم عليه يراد بالقسم توكيده و تحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك، كالأمر الغائبة و الخفية إذا أقسم على ثبوتها. فأما الأمور الظاهرة المشهورة، كالشمس، و القمر، و الليل، و النهار، و السماء، و الأرض، فهذه يقسم بها و لا يقسم عليها. و ما أقسم عليه الرب فهو من آياته، فيجوز أن يكون مقسما به و لا ينعكس. و هو - سبحانه - يذكر جواب القسم تارة - وهو الغالب - و تارة يحذفه، كما يحذف جواب (راجع البدائع) لو كثيرا، كقوله تعالى: كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) [التكاثر] و قوله: وَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا سَيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قَطَّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ [الرعد: ٣١]، وَ لَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ [الأنفال: ٥٠] وَ لَوْ تَرَى إِذِ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ [سبأ: ٥١] وَ لَوْ تَرَى إِذِ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ [الأنعام: ٣٠] و مثل هذا حذفه من أحسن الكلام؛ لأن المراد أنك لو رأيت ذلك لرأيت هولا عظيما، فليس في ذكر الجواب زيادة على ما دل عليه

الشرط. وهذه عادة الناس في كلامهم، إذا رأوا أمورا عجيبة و أرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها يقول أحدهم: لو رأيت ما جرى يوم كذا بموضع كذا؟ ومنه قوله تعالى: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (البقرة) [١٦٥] فالمعنى في أظهر الوجهين: لو يرى الذين ظلموا في الدنيا إذ يرون العذاب في الآخرة، والجواب محذوف، ثم قال: أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، كما قال تعالى: وَ لَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ [سبأ: ٥١]، البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٦٣ وَ لَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ [الأنفال: ٥٠] أى لو ترى ذلك الوقت و ما فيه. و أما القسم، فإن الحالف قد يحلف على الشيء ثم يكرر القسم، فلا يعيد المقسم عليه؛ لأنه قد عرف ما يحلف عليه. فيقول: و الله إن لى عليه ألف درهم، ثم يقول: و رب السموات و الأرض، و الذى نفسى بيده، و حق القرآن العظيم، و لا يعيد المقسم عليه؛ لأنه قد عرف المراد. و القسم لما كان يكثر فى الكلام اختصر، فصار فعل القسم يحذف و يكتب بالباء، ثم عوض من الباء الواو فى الأسماء الظاهرة و التاء فى أسماء الله، كقوله: وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ [الأنبياء: ٥٧] و قد نقل: ترب الكعبة، و أما الواو فكثيرة (١).

أمثلة من قسم القرآن

أمثلة من قسم القرآن من ذلك قوله فى قصة لوط عليه السلام و مراجعته قومه له: قالوا أ و لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هُوَ لِأَنْ بَنَيْتَ إِِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) [الحجر: ٧٠-٧٢] أكثر المفسرين من السلف و الخلف- بل لا يعرف عن السلف فيه نزاعا، أن هذا قسم من الله ب حياة رسوله صلى الله عليه و سلم. و هذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز و جل بحياته، و هذه مزية لا تعرف لغيره. و لم يوافق «٢» الزمخشري على ذلك، فصرف القسم إلى أنه ب حياة لوط، و أنه من قول الملائكة فقال: هو على إرادة القول، أى قالت الملائكة لوط عليه الصلاة و السلام: لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون، و ليس فى اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين، بل ظاهر اللفظ و سياقه إنما يدل على ما فهمه السلف لا أهل التعطيل و الاعتزال. قال ابن عباس رضى الله عنهما: لعمرك، أو حياتك، قال: و ما أقسم الله تعالى ب حياة نبي غيره. و العمر و العمر واحد، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح؛ لإثبات الألف، لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم، و أيضا فإن العمر حياة مخصوصة. فهو عمر شريف عظيم أهل أن يقسم به؛ لمزيتة على كل من أعمار بنى آدم. و لا ريب أن عمره و حياته صلى الله عليه و سلم من أعظم النعم و الآيات، فهو أهل أن يقسم به. و القسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات (٣).

(١) التبيان (١ - ٣). (٢) قال

الزمخشري: و قيل الخطاب- يعنى فى الآية- لرسول الله صلى الله عليه و سلم و أنه أقسم بحياته و ما أقسم ب حياة أحد قط كرامه له ... الكشف (٣١٧/٢ - ٣١٨). و انظر الطبرى (١٤/٤٤). (٣) التبيان (٤٢٩). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٦٤ باب منه: و من ذلك قوله- سبحانه: فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُسِ (١٦) وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسَيْتَ (١٧) وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) [التكوير]، أقسم- سبحانه- بالنجوم فى أحوالها الثلاثة، من طلوعها، و جريانها، و غروبها. هذا قول على، و ابن عباس، و عامة المفسرين. و هو الصواب. و الخنس جمع خانس، و الخنس الانقباض و الاختفاء، و منه سمى الشيطان خانسا، لانقباضه و انكماشه حين يذكر العبد ربه، و منه قول أبى هريرة: فانخنست. و الكنس جمع كانس، و هو الداخلى فى كناسه، أى فى بيته، و منه تكنست المرأة إذا دخلت فى هودجها و منه كنس الأطباء، إذا أوت إلى أكناسها. و الجوارى جمع جارية، كغاشية و غواش. قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: النجوم تخنس بالنهار و تظهر بالليل، و هذا قول مقاتل و عطاء و قتادة، و غيرهم، قالوا: الكواكب تخنس بالنهار، فتختفى و لا ترى، و تكنس فى وقت غروبها. و معنى تخنس- على هذا القول- تتأخر عن البصر، و تتوارى عنه بإخفاء النهار لها. و فيه قول آخر، و هو أن خنوسها رجوعها، و هى حركتها الشرقية، فإن لها حركتين حركة بفعلها و حركة بنفسها، فخنوسها حركتها بنفسها راجعة. و على هذا فهو قسم بنوع من الكواكب، و هى السيارة و هذا قول الفراء. و فيه قول ثالث، و هو أن خنوسها و كنوسها اختفاؤها وقت مغيبها، فتغيب فى مواضعها التى

تغيب فيها، وهذا قول الزجاج. ولما كان للنجوم حال ظهور، وحال اختفاء، وحال جريان، وحال غروب - أقسم - سبحانه - بها في أحوالها كلها. ونبه بخنوسها على حال ظهورها؛ لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لا يزال مختفياً: إنه قد خنس. فذكر - سبحانه - جريانها وغروبها صريحا، وخنوسها وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع، فالطولع أول جريانها. فتضمن القسم طلوعها، وغروبها، وجريانها، واختفاءها، وذلك من آيات ودلائل ربوبيته. وليس قول من فسرها بالظباء بقر الوحش بالظاهر لوجوه البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٦٥ أحدها: أن هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة. والثاني: اشترك أهل الأرض في معرفته بالمشاهدة والعيان «١». الثالث: أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفى فيها عن العيان مطلقا، بل لا تزال ظاهرة في الفلوات. الرابع: أن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء، قال الواحدى: هو من الخنس فى الأنف، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبه، والبقر والظباء أنوفهن خنس، والبقره خنساء، والظبى أخنس. ومنه سميت الخنساء «٢» لخنس أنفها. ومعلوم أن هذا أمر خفى يحتاج إلى تأمل، وأكثر الناس لا يعرفونه. وآيات الرب التى يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية، يشترك فى معرفتها الخلائق، وليس الخنس فى أنف البقره والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال فى أنف ابن آدم، فالآية فيه أظهر. الخامس: أن كنوسها فى أكتنيتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات فى بيته الذى يأوى فيه، ولا أظهر منه، حتى يتعين للقسم. السادس: أنه لو كان جمعا للظبى لقال الخنس - بالتسكين - لأنه جمع أخنس، فهو كأحمر وحمر، ولو أريد به جمع بقره خنساء، لكان على وزن «فعلاء» أيضا، كحمراء وحمر، فلما جاء جمعه على «فعل» - بالتشديد - استحال أن يكون جمعا لواحد من الظباء والبقر. وتعين أن يكون جمعا لخناس، كشاهد وشهد، وصائم وصوم، وقائم وقوم، ونظائرها. السابع: أنه ليس بالبين إقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته. وإنما يقسم - سبحانه - من كل جنس بأعلاه، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهى النفس الإنسانية. ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله، وهو القرآن. ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهى السماء، وشمسها وقمرها، ونجومها. ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه، وهو الليالى العشر، وإذا أراد - سبحانه - أن يقسم بغير ذلك أدرجه فى العموم، كقوله: فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) [الحاقه] وقوله: الذَّكْرَ وَالْأُنثَى [القيامة]: ٣٩] فى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك.

(١) انظر المقدمة فى الكلام عن

«الإعجاز فى القرآن» فى العلوم الطبيعية. (٢) هى تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة الصحابية. توفيت سنة ٢٤ هـ. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٦٦ الثامن: أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم، وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح فى قسم واحد. وبهذا احتج أبو إسحاق على أنها النجوم، فقال: هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش. التاسع: أنه لو أراد ذلك - سبحانه - لبيته وذكر ما يدل عليه، كما أنه لما أراد بالجوارى السفن، قال وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) [الشورى] وهنا ليس فى اللفظ ولا فى السياق ما يدل على أنها البقر والظباء. وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التى ذكرناها وغيرها.

العاشر: أن الارتباط الذى بين النجوم التى هى هداية للسالكين ورجوم للشياطين وبين المقسم عليه - وهو القرآن، الذى هو هدى للعالمين، وزينه للقلوب، وداحض لشبهات الشيطان - أعظم من الارتباط الذى بين البقر والظباء والقرآن، والله أعلم «١». باب منه: فكم من قسم فى القرآن بها كقوله: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْجُبُوجِ (١) [البروج]، وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) [الطارق]، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) [الشمس]، وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) [الطارق]، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) [الشمس]، وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) [النجم]، النَّجْمِ الثَّاقِبِ (٣) [الطارق]، فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) [التكوير]، وهى الكواكب التى تكون خنسا عند طلوعها. جواريا فى مجراها ومسيرها، كنسا عند غروبها، فأقسم بها فى أحوالها الثلاثة، ولم يقسم فى كتابه بشىء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر. وهو - سبحانه - يقسم بما يقسم به من مخلوقاته، لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكلما كان أعظم آية وأبلغ فى الدلالة، كان إقسامه به أكثر من غيره - ولهذا يعظم - سبحانه - هذا القسم، كقوله: فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسِيمٌ لِّمَنْ تَعَلَّمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)

[الواقعة]، وأظهر القولين، أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء، فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها، وأيضاً فإنه لم تجر عاداته - سبحانه - باستعمال النجوم في آيات القرآن ولا في موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية، وجرت عاداته باستعمال النجوم في الكواكب في جميع القرآن. وأيضاً فإن نظير الإقسام بمواقعها هنا، إقسامه بهوى النجوم في قوله: وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) [النجم] (١) التبيان (١١٥ - ١١٨).

البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٦٧ وأيضاً فإن هذا قول جمهور أهل التفسير، وأيضاً فإنه - سبحانه - يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده. هذه طريقة القرآن قال الله تعالى: ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) [ص، يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) [يس، ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) [ق، حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) [الدخان، ونظائره. والمقصود أنه - سبحانه - إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته و وحدانيته «١» (١) «١».

مفتاح دار السعادة (٢/٥). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٦٨

ألفاظ القرآن ومقاصدها

بيان الوجوه التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن

بيان الوجوه التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن الوجوه التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن عشرة أقسام: القسم الأول: تعريفه - سبحانه - لعباده بأسمائه، و صفات كماله، و نعوت جلاله و أفعاله مثال (إن ربكم الله)، وأنه واحد لا شريك له، و ما يتبع ذلك. القسم الثاني: ما استشهد به على ذلك من آيات قدرته، و آثار حكمته فيما خلق و ذرأ في العالم الأعلى و الأسفل من أنواع بريته و أصناف خليقته؛ محتجا به على من ألد في أسمائه و توحيده، و عطله عن صفات كماله و عن أفعاله، و كذلك البراهين العقلية التي أقامها على ذلك، و الأمثال المضروبة، و الأقيسة العقلية التي تقدمت الإشارة إلى الشيء اليسير منها. القسم الثالث: ما اشتمل عليه بدء الخلق، و إنشأؤه، و مادته، و ابتداعه له، و سبق بعضه على بعض، و عدد أيام التخليق، و خلق آدم، و إسجاد الملائكة، و شأن إبليس و تمرده و عصيانه، و ما يتبع ذلك. القسم الرابع: ذكر المعاد و النشأة الأخرى، و كيفيته و صورته، إحالة الخلق فيه من حال إلى حال، و إعادتهم خلقا جديدا. القسم الخامس: ذكر أحوالهم في معادهم، و انقسامهم إلى شقى و سعيد، و مسرور بمنقلبه و مثبور به، و ما يتبع ذلك. القسم السادس: ذكر القرون الماضية و الأمم الخالية، و ما جرى عليهم، و ذكر أحوالهم مع أنبيائهم، و ما نزل بأهل العناد و التكذيب منهم من المثالات، و ما حل بهم من العقوبات؛ ليكون ما جرت عليه أحوال الماضيين عبرة للمعاندین فيحذروا سلوك سبيلهم في التكذيب و العصيان. القسم السابع: الأمثال التي ضربها لهم، و المواعظ التي وعظهم بها، ينبههم بها على قدر الدنيا، و قصر مدتها و آفاقها؛ ليزهدوا فيها، و يتركوا الإخلاق إليها، و يرغبوا فيما أعد لهم في الآخرة من نعيمها المقيم و خيرها الدائم. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٦٩ القسم الثامن: ما تضمنه من الأمر و النهي و التحليل و التحريم و بيان ما فيه طاعته و معصيته، و ما يحبه من الأعمال و الأقوال و الأخلاق، و ما يكرهه، و يبغضه منها، و ما يقرب إليه، و يدنى من ثوابه، و ما يبعد منه، و يدنى من عقابه، و قسم هذا القسم إلى فروض فرضها، و حدود حدها و زواجر زجر عنها، و أخلاق و شيم رغب فيها. القسم التاسع: ما عرفهم إياه من شأن عدوهم و مداخله عليهم، و مكايده لهم، و ما يريد به، و عرفهم إياه من طريق التحصن منه و الاحتراز من بلوغ كيدهم منهم، و ما يتداركون به ما أصيبوا به في معركة الحرب بينهم و بينه، و ما يتبع ذلك. القسم العاشر: ما يختص بالسفير بينه و بين عباده عن أوامره و نواهيه، و ما اختص به، من الإباحة و التحريم، و ذكر حقوقه على أمته، و ما يتعلق بذلك. فهذه عشرة أقسام عليها مدار القرآن، و إذا تأملت الألفاظ المتضمنة لها وجدتها ثلاثة أنواع: أحدها: ألفاظ في غاية العموم، فدعوى التخصيص فيها: يبطل مقصودها، و فائدة الخطاب بها. الثاني: ألفاظ في غاية الخصوص، فدعوى العموم فيها لا سبيل إليه. الثالث: ألفاظ متوسطة بين العموم و الخصوص «١».

من أنواع استعمال القرآن لبعض الألفاظ

من أنواع استعمال القرآن لبعض الألفاظ إن في القرآن الكريم ألفاظا استعملت في معان لم تكن تعرفها العرب؛ وهى أسماء الشريعة؛ كالصلاة والزكاة، والصيام والاعتكاف ونحوها. و الأسماء الدينية كالإسلام والإيمان والكفر والنفاق ونحوها. و أسماء مجملية لم يرد ظاهرها، كالسارق والسارقة، والزانى والزانية، ونحوه. و أسماء مشتركة كالقرء، و «عسعس»، و نحوهما، فهذه الأسماء لا تفيد اليقين بالمراد منها. فيقال: هذه الأسماء جارية في القرآن ثلاثة أنواع: نوع بيانه معه، فهو مع بيانه يفيد اليقين بالمراد منه، و نوع بيانه فى آية أخرى، فيستفاد اليقين بالمراد من مجموع الاثني، و نوع بيانه موكل إلى الرسول صلى الله عليه و سلم، فيستفاد اليقين من المراد منه ببيان الرسول (١) الصواعق

المرسلة (٢/ ٦٤٨-٦٨٦). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٧٠ و لم نقل نحن و لا أحد من العقلاء: إن كل لفظ فهو مفيد لليقين بالمراد منه بمجرد من غير احتياج إلى لفظ آخر، متصل به، أو منفصل عنه، بل نقول: إن مراد المتكلم يعلم من لفظه المجرد تارة، و المقرون تارة و منه و من لفظ آخر يفيدان اليقين بمراده تارة و منه و من بيان آخر بالفعل أو القول يحيل المتكلم عليه تارة، و ليس فى القرآن خطاب أريد منه العلم بمدلوله إلا و هو داخل فى هذه الأقسام (١).

خطأ تحميل اللفظ فوق ما يحتمله

خطأ تحميل اللفظ فوق ما يحتمله العلم بمراد المتكلم يعرف تارة: من عموم لفظه، و تارة من عموم علتة، و الحوالة على الأول أوضح لأرباب الألفاظ، و على الثانى أوضح لأرباب المعانى و الفهم و التقدير. و قد يعرض لكل من الفريقين ما يخل بمعرفة مراد المتكلم، فيعرض لأرباب الألفاظ التقصير بها عن عمومها و هضمها تارة، و تحميلها فوق ما أريد بها تارة، و يعرض لأرباب المعانى فيها نظير ما يعرض لأرباب الألفاظ. فهذه أربع آفات هى منشأ غلط الفريقين، و نحن نذكر بعض الأمثلة لذلك ليعتبر به غيره، فتقول: قال الله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) [المائدة]، فلفظ الخمر عام فى كل مسكر، فأخراج بعض الأشرطة المسكرة عن شمول اسم الخمر لها تقصير به، و هضم لعمومه، بل الحق ما قاله صاحب الشرع: «كل مسكر خمر». و إخراج بعض أنواع الميسر عن شمول اسمها لها تقصير أيضا به، و هضم لمعناه، فما الذى جعل النرد الخالى عن العوض من الميسر، و أخرج الشطرنج عنه مع أنه من أظهر أنواع الميسر، كما قال غير واحد من السلف: إنه ميسر، و قال على كرم الله وجهه: هو ميسر العجم. و أما تحميل اللفظ فوق ما يحتمله، فكما حمل لفظ قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ [النساء: ٢٩] و قوله فى آية البقرة إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ [البقرة: ٢٨٢] مسألة العينة «٢» التى هى ربا بحيلة و جعلها من التجارة، و لعمر الله إن الربا الصريح تجارة للمرابى، و أى تجارة. (١) الصواعق المرسلة (٢ / ٧٥٣-

(٧٥٤). (٢) هى أن يشتري من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى، ثم يبيعه له بأقل من الثمن الذى اشتراها به. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٧١ و كما حمل قوله تعالى: فلا تَجِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ [البقرة: ٢٣٠] على مسألة التحليل، و جعل التيسر المستعار الملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه و سلم، داخلا فى اسم الزوج، و هذا فى التجارة يقابل الأول فى التقصير. و لهذا كان معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصل العلم، و قاعدته و آخيته، التى يرجع إليها، فلا تخرج شيئا من معانى ألفاظه عنها، و لا يدخل فيها ما ليس منها، بل يعطيها حقها و يفهم المراد منها. و من هذا لفظ الأيمان و الحلف، أخرجت طائفة منه الأيمان الالتزامية التى يلتزم صاحبها بها إيجاب شىء أو تحريمه، و أدخلت طائفة فيها التعليق المحض الذى لا يقتضى حضا و لا منعا، الأول: نقص من المعانى، و الثانى: تحميل له فوق معناه. و من ذلك لفظ الربا أدخلت فيه طائفة ما لا دليل على تناول اسم الربا كبيع الشيرج بالسهم،

والدبس بالعنب، والزيت بالزيتون، وكل ما استخرج من ربوى، وعمل منه بأصله، وإن خرج عن اسمه، ومقصوده وحقيقته. وهذا لا دليل عليه يوجب المصير إليه، لا من كتاب، ولا من سنة، ولا إجماع، ولا ميزان صحيح. وأدخلت فيه مسائل: مد عجوؤ ما هو أبعد شيء عن الربا، وأخرجت طائفة أخرى منه ما هو من الربا الصحيح حقيقة قصداً وشرعاً كالحيل الربوية التي هي أعظم مفسدة من الربا الصريح، ومفسدة الربا البحت التي لا يتوصل إليه بالسلايم أقل بكثير، وأخرجت منه طائفة بيع الرطب بالتمر، وإن كان كونه من الربا أخفى من كون الحيل الربوية منه، فإن التماثل موجود فيه في الحال دون المال، وحقيقته الربا في الحيل الربوية أكمل، وأتم منها في العقد الربوي الذي لا حيلة فيه. ومن ذلك لفظ البيئة قصرت بها طائفة. فأخرجت منه الشاهد واليمين وشهادة العبيد العدول الصادقين المقبولي القول على الله ورسوله، وشهادة النساء منفردات في المواضع التي لا يحضرهن فيه الرجال كالأعراس والحمامات. وشهادة الزوج في اللعان إذا نكلت المرأة، وأيمان المدعين الدم إذا ظهر اللوث، ونحو ذلك مما يبين الحق أعظم من بيان الشاهدين. وشهادة القاذف، وشهادة الأعمى على ما يتيقنه، وشهادة أهل الذمة على الوصية في السفر إذا لم يكن هناك مسلم، وشهادة الحال في تداعي الزوجين متاع البيت، وتداعي النجار والخياط آلتهما ونحو ذلك. وأدخلت فيه طائفة ما ليس منه كشهادة مجهول الحال الذي لا يعرف بعدالة، ولا فسق، البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٧٢ وشهادة وجوه الأجر ومعاهد القمط ونحو ذلك. والصواب: أن كل ما بين الحق فهو بينه، ولم يعطل الله ولا رسوله حقاً بعد ما تبين بطريق من الطرق أصلاً، بل حكم الله ورسوله الذي لا حكم له سواه أنه متى ظهر الحق، ووضح بأى طريق كان، وجب تنفيذه، ونصره وحرمة تعطيله وإبطاله. وهذا باب يطول استقصاؤه، ويكفي المستبصر التنبيه عليه، وإذا فهم هذا في جانب اللفظ فهم نظيره في جانب المعنى سواء (١).

من الألفاظ المكروهة

من الألفاظ المكروهة منها: أن يسمى أدلة القرآن والسنة ظواهر لفظية ومجازات، فإن هذه التسمية تسقط حرمتها من القلوب، ولا سيما إذا أضاف إلى ذلك تسمية شبه المتكلمين والفلاسفة قواطع عقلية.. فلا إله إلا الله، كم حصل بهاتين التسميتين من فساد في العقول، والأديان، والدنيا والدين (٢). وكذلك: ويحذر كل الحذر من طغيان «أنا»، «ولي»، «وعندي»، فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلى بها إبليس، وفرعون، وقارون، قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ [الأعراف: ١٢] لإبليس، و لِي مُلْكٌ مِصْرَ [الزخرف: ٥١] لفرعون، و إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي [القصص: ٧٨] لقارون. وأحسن ما وضعت «أنا» في قول العبد: أنا العبد المذنب، المخطئ، المستغفر، المعترف ونحوه. «ولي»، في قوله: لي الذنب، ولي الجرم، ولي المسكنة، ولي الفقر والذل: «وعندي» في قوله «اغفر لي جدي، وهزلي، وخطئي، وعمدي، وكـ _____ لـ ذل _____ كـ عندي» (٣) (٤).

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٨٢ - ٢٨٥).

(٢) زاد المعاد (٢/ ٤٧٣). (٣) البخاري (٦٣٩٩) في الدعوات، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت»، ومسلم (٧٠ / ٢٧١٩) في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل. (٤) زاد المعاد (٢/ ٤٧٥). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٧٣

بعض ألفاظ القرآن الكريم ومقاصدها كالطبع والختم والغشاوة والغطاء وغيرها

إشارة

بعض ألفاظ القرآن الكريم ومقاصدها كالطبع والختم والغشاوة والغطاء وغيرها قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) [البقرة]. وقال تعالى:

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) [الجنائية]. وقال تعالى: وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: ١٥٥]. وقال تعالى: كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [الأعراف: ١٠١]. وقال تعالى: وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ [الأعراف: ١٠٠]. وقال تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا (٢٤) [محمد: ٢٤]. وقال: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سِدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سِدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسِوَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْ نَذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) [يس]. وقد دخل هذه الآيات ونحوها طائفتا القدرية والجبرية، فحرفها القدرية بأنواع من التحريف المبطل لمعانيها وما أريد منها. وزعمت الجبرية أن الله أكرهها على ذلك؛ وقهرها عليه، وأجبرها من غير فعل منها، ولا إرادة، ولا اختيار، ولا كسب البتة، بل حال بينها وبين الهدى ابتداء من غير ذنب، ولا سبب من العبد يقتضى ذلك، بل أمره، وحال مع أمره بينه وبين الهدى، فلم ييسر إليه سيلا، ولا أعطاه عليه قدرة، ولا مكنه منه بوجه. وأراد بعضهم: بل أحب له الضلال والكفر والمعاصي ورضيه منه. فهدى أهل السنة، والحديث وأتباع الرسول لما اختلف فيه هاتان الطائفتان من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٧٤ قالت القدرية: لا يجوز حمل هذه الآيات على أنه منعهم من الإيمان، وحال بينهم وبينه، إذ يكون لهم الحجة على الله، ويقولون كيف يأمرنا بأمر، ثم يحول بيننا وبينه، ويعاقبنا عليه، وقد منعنا من فعله؟ وكيف يكلفنا بأمر لا قدرة لنا عليه؟ وهل هذا إلا بمثابة من أمر عبده بالدخول من باب ثم سد عليه الباب سدا محكما لا يمكنه الدخول معه البتة ثم عاقبه أشد العقوبة على عدم الدخول؟، وبمنزلة من أمره بالمشى إلى مكان ثم قيده بقيد لا يمكنه معه نقل قدمه، ثم أخذ يعاقبه على ترك المشى؟ وإذا كان هذا قبيحا في حق المخلوق الفقير المحتاج، فكيف ينسب إلى الرب تعالى مع كمال غناه، وعلمه، وإحسانه، ورحمته؟ قالوا: وقد كذب الله - سبحانه - الذين قالوا قلوبنا غلف، وفي أكنه، وإنها قد طبع عليها، وذهم على هذا القول فكيف ينسب إليه تعالى؟ ولكن القوم لما أعرضوا، وتركوا الاهتداء بهداه الذي بعث به رسله حتى صار ذلك الإعراض والنفار كالإلف، والطبيعة، والسجية أشبه حالهم حال من منع عن الشيء وصد عنه، وصار هذا وقرا في آذانهم، وختما على قلوبهم، وغشاوة على أعينهم، فلا يخلص إليها الهدى. وإنما أضاف الله تعالى ذلك إليه؛ لأن هذه الصفة قد صارت في تمكنها، وقوة ثباتها كالخلق التي خلق عليها العبد. قالوا: ولهذا قال تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) [المطففين]. وقال: بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: ١٥٥] وقال: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [الصف: ٥]. وقال: فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) [التوبة]. ولعمر الله إن الذي قاله هؤلاء، حقه أكثر من باطله وصحيحه أكثر من سقيم، ولكن لم يوفوه حقه؛ وعظموا الله من جهه، وأخلوا بتعظيمه من جهه؛ فعظموه بتزييه عن الظلم؛ وخلاف الحكمة، وأخلوا بتعظيمه من جهه التوحيد، وكمال القدرة ونفوذ المشيئة. والقرآن يدل على صحه ما قالوه في الران، والطبع، والختم من وجه، وبطلانه من وجه. وأما صحته فإنه سبحانه جعل ذلك عقوبة لهم، وجزاء على كفرهم وإعراضهم عن الحق بعد البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٧٥ أن عرفوه، كما قال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [الصف: ٥]. وقال: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) [المطففين]. وقال: وَنُقِلَبَ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) [الأنعام]. وقال: ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [التوبة: ١٢٧]. وقد اعترف بعض القدرية بأن ذلك خلق الله - سبحانه - ولكنه عقوبة على كفرهم وإعراضهم السابق، فإنه سبحانه يعاقب على الضلال المقذور بإضلال بعده ويثب على الهدى بهدى بعده، كما يعاقب على السيئه بسيئه مثلها، ويثب على الحسنه بحسنه مثلها. قال تعالى: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) [محمد]. وقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ [الأحزاب: ٧٠-٧١]. وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ [الأنفال: ٢٩]. ومن الفرقان الهدى الذي يفرق به بين الحق والباطل. قال في ضد ذلك: فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنِينَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا [النساء: ٨٨]. وقال: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا [البقرة: ١٠]. وقال: ثُمَّ

انصُرُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [التوبة: ١٢٧]. وهذا الذي ذهب إليه هؤلاء حق، و القرآن دل عليه، وهو موجب العدل، - والله سبحانه - ماض في العبد حكمه، عدل في عبده قضاؤه، فإنه إذا دعا عبده إلى معرفته، ومحبته، وذكره، وشكره فأبى العبد إلا إعراضاً وكفراً قضى عليه؛ بأن أغفل قلبه عن ذكره، و صدّه عن الإيمان به، و حال بين قلبه و بين قبول الهدى، و ذلك عدل منه فيه، و تكون عقوبته بالختم، و الطبع و الصد عن الإيمان، كعقوبته له بذلك في الآخرة مع دخول النار، كما قال: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) [المطففين]. فحجابه عنهم إضلال لهم، و صد عن رؤيته، و كمال معرفته كما عاقب قلوبهم في هذه الدار بصددها عن الإيمان. و كذلك عقوبته لهم بصددهم عن السجود له يوم القيامة مع الساجدين هو جزاء امتناعهم من السجود له في الدنيا. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٧٦ و كذلك عماهم عن الهدى في الآخرة عقوبته لهم على عماهم في الدنيا، لكن أسباب هذه الجرائم في الدنيا كانت مقدورة لهم واقعة باختيارهم، و إرادتهم و فعلهم، فإذا وقعت عقوبات لهم تكن مقدورة، بل قضاء جار ماض عدل فيهم. و قال تعالى: وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) [الإسراء]. و من هاهنا يفتح للعبد باب واسع عظيم النفع جدا، في قضاء الله المعصية و الكفر و الفسوق على العبد، و أن ذلك محض عدل فيه. و ليس المراد بالعدل ما يقوله الجبرية: إنه الممكن، فكل ما يمكن فعله بالعبد فهو عندهم عدل، و الظلم هو الممتنع لذاته، فهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب الكلام في الأسباب و الحكم. و لا- المراد به ما يقوله القدرية النفاة: إنه إنكار عموم قدرة الله و مشيئته على أفعال عباده، و هدايتهم و إضلالهم، و عموم مشيئته لذلك، و إن الأمر إليهم لا- إليه. و تأمل قول النبي صلى الله عليه و سلم: «ماض في حكمك، عدل في قضاؤك» (١)، كيف ذكر العدل في القضاء مع الحكم النافذ، و في ذلك رد لقول الطائفتين القدرية و الجبرية، فإن العدل الذي أثبتته الجبرية مناف للحكمة و الرحمة، و لحقيقة العدل. و العدل الذي هو اسمه و صفته و نعتة- سبحانه- خارج عن هذا و هذا، و لم يعرفه إلا الرسل و أتباعهم. و لهذا قال هود- عليه الصلاة و السلام- لِقَوْمِهِ إِنِّي تُوكَلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) [هود]. فأخبر عن عموم قدرته، و نفوذ مشيئته، و تصرفه في خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرف و الحكم على صراط مستقيم. و قال أبو إسحاق: أي: هو سبحانه، و إن كانت قدرته تنالهم بما شاء؛ فإنه لا يشاء إلا العدل. و قال ابن الأنباري، لما قال: هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، كان في معنى: لا يخرج من قبضته، و أنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابة فأتبعه قوله: إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. قال: و هذا نحو كلام العرب إذا وصفوا بحسن السيرة و العدل و الإنصاف؛ قالوا: فلان على طريقه حسنة، و ليس ثم طريق، ثم ذكر وجهاً آخر فقال: لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ سُلْطَانَهُ قَد قَهَرَ كُلَّ

(١) رواه الإمام أحمد (١ / ٣٩١)، و قال الهيثمي في المجمع (١٠ / ١٣٩): «رجال أحمد الصحيح غير أبي سلمة الجهني و قد وثقه ابن حبان»، و صحح إسناده الشيخ أحمد شاكر (٣٧١٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٧٧ دابة، أتبع هذا قوله: إن ربي على صراط مستقيم، أي: لا تخفى عليه مشيئته، و لا يعدل عنه هارب، فذكر الصراط المستقيم و هو يعني به: الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال: إِنَّ رَبَّكَ لَبَلَمُرْصِدٍ (١٤) [الفجر]. قلت: فعلى هذا القول الأول يكون المراد: أنه في تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل، و مجازاة المحسن بإحسانه، و المسيء بإساءته، و لا يظلم مثقال ذرة، و لا يعاقب أحدا بما لم يجنه، و لا يهضمه ثواب ما عمله، و لا يحمل عليه ذنب غيره، و لا يأخذ أحداً بجريئة أحد، و لا يكلف نفساً ما لا تطيقه، فيكون من باب: لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ [التغابن: ١]. و من باب: «ماض في حكمك، عدل في قضاؤك» (١). و من باب: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) [الفاتحة]، أي: كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته و مشيئته، فهو المحمود على هذا التصرف، و له الحمد على جميعه. و على القول الثاني، المراد به: التهديد و الوعيد، و أن مصير العباد إليه و طريقهم عليه لا يفوته منهم أحد، كما قال تعالى: قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) [الحجر]. قال الفراء: يقول مرجعهم إلى فأجازيهم، كقوله: إِنَّ رَبَّكَ لَبَلَمُرْصِدٍ (١٤) [الفجر]. قال: و هذا كما تقول في الكلام: طريقك علي، و أنا على طريقك، لمن أوعده. و كذلك قال الكلبى و الكسائى، و مثل قوله: وَ عَلَى اللَّهِ قَصِيدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِزٌ [النحل: ٩] على أحد القولين في الآية. و قال مجاهد: الحق

يرجع إلى الله و عليه طريقته، و «منها» أى: و من السبيل ما هو جائز عن الحق و لَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ [النحل: ٩]. فأخبر عن عموم مشيئته، و أن طريق الحق عليه موصلة إليه، فمن سلكه فإليه يصل، و من عدل عنها فإنه يضل عنه. و المقصود: أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى و توحيده، و الله يتصرف فى خلقه بملكه، و حمده و عدله، و إحسانه فهو على صراط مستقيم فى قوله و فعله و شرعه و قدره و ثوابه و عقابه، يقول الحق، و يفعل العدل، و الله يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ [الأحزاب: ٤]. فهذا العدل و التوحيد اللذان دل عليهما القرآن لا— يتناقضان، و أما توحيد أهل القدر و الجبر، و عدلهم فكل منهما يبطل الآخر، و يناقضه.

(١) جزء من حديث صحيح سبق

تخريجه ص (٢٠٢). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٧٨

فصل

فصل و من سلكت من القدرية هذه الطريق فقد توسط بين الطائفتين، لكنه يلزمه الرجوع إلى مثبتى القدر قطعا، و إلا تناقض أبين تناقض. فإنه زعم أن الضلال، و الطبع، و الختم، و القفل، و الورق، و ما يحول بين العبد و بين الإيمان مخلوق لله، و هو واقع بقدرته و مشيئته، فقد أعطى: أن أفعال العباد مخلوقة، و أنها واقعة بمشيئته، فلا فرق بين الفعل الابتدائى و الفعل الجزائى إن كان هذا مقدورا لله واقعا بمشيئته، و الآخر كذلك، و إن لم يكن ذلك مقدورا و لا يصح دخوله تحت المشيئة، فهذا كذلك. و التفريق بين النوعين تناقض محض. و قد حكى هذا الفريق عن بعض القدرية: أبو القاسم الأنصارى فى «شرح الإرشاد»، فقال: و لقد اعترف بعض القدرية بأن الختم و الطبع تابع غير أنها عقوبات من الله لأصحاب الجرائم، قال: و ممن صار إلى هذا المذهب عبد الواحد بن زيد البصرى، و بكر ابن أخته، قال: و سبيل المعاقبين بذلك سبيل المعاقبين بالنار، و هؤلاء قد بقى عليهم درجة واحدة، و قد تحيزوا إلى أهل السنة و الحديث.

فصل

فصل و قالت طائفة منهم: الكافر هو الذى طبع على قلبه بنفسه فى الحقيقة و ختم على قلبه، و الشيطان أيضا فعل ذلك، و لكن لما كان الله— سبحانه— هو الذى أقدر العبد و الشيطان على ذلك نسب الفعل إليه؛ لإقداره للفاعل على ذلك لأنه هو الذى فعله. قال أهل السنة و العدل: هذا الكلام فيه حق و باطل، فلا يقبل مطلقا و لا يرد مطلقا. فقولكم: إن الله— سبحانه— أقدر الكافر و الشيطان على الطبع، و الختم كلام باطل، فإنه لم يقدر إلا على التزيين و الوسوسة، و الدعوة إلى الكفر، و لم يقدره على خلق ذلك فى قلب العبد البتة، و هو أقل من ذلك و أعجز. و قد قال النبى صلى الله عليه و سلم: «بعثت داعيا و مبلغا؛ و ليس إلى من الهداية شىء، و خلق إبليس مزيئا، و ليس إليه من الضلالة شىء» (١). فمقدور الشيطان أن يدعو العبد إلى فعل الأسباب التى إذا فعلها ختم الله على قلبه

(١) انظر الضعفاء الكبير للعقيلي (٢/١)

(٩)، و ضعفه الألبانى فى الضعيف الجامع (٢٣٣٨). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٧٩ و سمعه، و طبع عليه، كما يدعوه إلى الأسباب التى إذا فعلها عاقبه الله بالنار، فعاقبه بالنار كعاقبه بالختم و الطبع، و أسباب العقاب فعله، و تزيينها و تحسينها: فعل الشيطان، و الجميع مخلوق لله. و أما ما فى هذا الكلام من الحق فهو أن الله— سبحانه— أقدر العبد على الفعل الذى أوجب الطبع و الختم على قلبه، فلو لا إقدار الله على ذلك لم يفعله. و هذا حق، لكن القدرية لم توف هذا الموضوع حقه. و قالت: أقداره قدرة تصلح للضدين، فكان فعل أحدهما باختياره و مشيئته التى لا— تدخل تحت مقدور الرب، و إن دخلت قدرته الصالحة لها تحت مقدوره سبحانه، فمشيئته، و اختياره، و فعله غير واقع تحت مقدور الرب. و هذا من أبطل الباطل، فإن كل ما سواه تعالى مخلوق له داخل تحت قدرته، واقع بمشيئته، و لو لم يشأ لم يكن. قالت القدرية: لما عرضوا عن التدبر، و لم يصغوا إلى التذكر، و كان ذلك مقارنا لإيراد الله— سبحانه—

حجته عليهم أضيفت أفعالهم إلى الله؛ لأن حدوثها إنما اتفق عند إيراد الحجّة عليهم. قال أهل السنة: هذا من أمحل المحال، أن يضيف الرب إلى نفسه أمراً لا يضاف إليه البتة لمقارنته ما هو من فعله. و من المعلوم: أن الضد يقارن الضد، فالشر يقارن الخير، و الحق يقارن الباطل، و الصدق يقارن الكذب، و هل يقال إن الله يحب الكفر و الفسوق و العصيان؛ لمقارنتها ما يحبه من الإيمان و الطاعة، و إنه يحب إبليس؛ لمقارنته وجوده لوجود الملائكة؟ فإن قيل: قد ينسب الشيء إلى الشيء لمقارنته له، و إن لم يكن له فيه تأثير، كقوله تعالى: وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَآمَنَ الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَآمَنَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) [التوبة]. و معلوم: أن السورة لم تحدث لهم زيادة رجس، بل قارن رجسهم نزولها، فنسب إليها. قيل: لم ينحصر الأمر في هذين الأمرين اللذين ذكرتموهما، و هما إحداث السورة الرجس، و الثاني مقارنته لنزولها، بل هاهنا أمر ثالث، و هو أن السورة لما أنزلت اقتضى نزولها الإيمان بها، و التصديق، و الإذعان لأوامرها و نواهيها و العمل بما فيها. فوطن المؤمنون أنفسهم على ذلك فزادوا إيماناً بسببها؛ فنسبت زيادة الإيمان إليها؛ إذ هي السبب في زيادته. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٨٠ و كذب بها الكافرون و جحدوها، و كذبوا من جاء بها، و وطنوا أنفسهم على مخالفة ما تضمنته و إنكاره؛ فزادوا بذلك رجساً فنسب إليها؛ إذ كان نزولها و وصولها إليهم هو السبب في تلك الزيادة. فأين هذا من نسبة الأفعال القبيحة عندكم التي لا تجوز نسبتها إلى الله، عند دعوتهم إلى الإيمان و تدبر آياته. على أن أفعالهم القبيحة لا تنسب إلى الله سبحانه، و إنما هي منسوبة إليهم، و المنسوب إليه سبحانه أفعاله الحسنة الجميلة المتضمنة للغايات المحمودة، و الحكم المطلوبة. و الختم، و الطبع، و القفل، و الإضلال أفعال حسنة من الله وضعها في ألقى المواضع بها؛ إذ لا يليق بذلك المحل الخبيث غيرها. و الشرك و الكفر و المعاصي و الظلم أفعالهم القبيحة التي لا تنسب إلى الله فعلا، و إن نسبت إليه خلقاً، فخلقها غيرها و الخلق غير المخلوق، و الفعل غير المفعول، و القضاء غير المقضى، و القدر غير المقدر. و ستمر بك هذه المسألة مستوفاة- إن شاء الله- في باب اجتماع الرضا بالقضاء، و سخط الكفر و الفسوق و العصيان- إن شاء الله. قال القدرية: لما بلغوا في الكفر إلى حيث لم يبق طريق إلى الإيمان لهم إلا بالقسر و الإلجاء، و لم تقتض حكمته- تعالى- أن يقسروهم على الإيمان، لئلا تزول حكمته التكليف، عبر عن ترك الإلجاء و القسر بالختم و الطبع إعلاماً لهم بأنهم انتهوا في الكفر و الاعتراض إلى حيث لا ينتهون عنه إلا بالقسر. و تلك الغاية في وصف لجاجهم، و تماديهم في الكفر. قال أهل السنة: هذا كلام باطل فإنه- سبحانه- قادر على أن يخلق فيهم مشيئة الإيمان، و إرادته، و محبته فيؤمنون بغير قسر و لا- إلجاء، بل إيمان اختيار و طاعة، كما قال تعالى: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً [يونس: ٩٩]. و إيمان القسر و الإلجاء لا يسمى إيماناً، و لهذا يؤمن الناس كلهم يوم القيامة، و لا يسمى ذلك إيماناً؛ لأنه عن إلجاء و اضطرار، قال تعالى: وَ لَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا [السجدة: ١٣]. و ما يحصل للنفس من المعرفة و التصديق بطريق الإلجاء و الاضطرار و القسر لا يسمى هدى، و كذلك قوله: أَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً [الرعد: ٣١]. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٨١ فقولكم لم يبق طريق إلى الإيمان إلا بالقسر باطل، فإنه بقي إلى إيمانهم طريق لم يرههم الله إياه، و هو مشيئته و توفيقه و إلهامه، و إمالة قلوبهم إلى الهدى، و إقامتها على الصراط المستقيم. ذلك أمر لا يعجز عنه رب كل شيء و مليكه، بل هو القادر عليه، كقدرته على خلقه ذواتهم و صفاتهم و ذرياتهم، و لكن منعهم ذلك؛ لحكمته و عدله فيهم، و عدم استحقاتهم و أهليتهم لبذل ذلك لهم، كما منع السفيل خصائص العلو، و منع الحار خصائص البارد، و منع الخبيث خصائص الطيب. و لا يقال فلم يليق فعل هذا؟ فإن ذلك من لوازم ملكه، و ربوبيته، و من مقتضيات أسمائه و صفاته، و هل يليق بحكمته أن يسوى بين الطيب و الخبيث، و الحسن و القبيح، و الجيد و الرديء؟ و من لوازم الربوبية خلق الزوجين، و تنوع المخلوقات و أخلاقها. فقول القائل لم خلق الرديء و الخبيث و اللثيم؟ سؤال جاهل بأسمائه و صفاته، و ملكه و ربوبيته. و هو سبحانه فرق بين خلقه أعظم تفريق، و ذلك من كمال قدرته، و ربوبيته، فجعل منه ما يقبل جميع الكمال الممكن، و منه ما لا يقبل شيئاً منه، و بين ذلك درجات متفاوتة لا يحصيها إلا الخلاق العليم. و هدى كل نفس إلى حصول ما هي قابلة له، و القابل و المقبول كله مفعوله و مخلوقه، و أثر فعله و خلقه. و هذا هو الذى

ذهب عن الجبرية والقدرية، ولم يهتدوا إليه، والله التوفيق. قالت القدرية: الختم الطبع هو شهادته سبحانه عليهم بأنهم لا يؤمنون، و على أسماعهم، و على قلوبهم. قال أهل السنة: هذا هو قولكم: بأن الختم و الطبع هو الإخبار عنهم ذلك، و قد تقدم فساد هذا بما فيه كفاية، و أنه لا يقال في لغة من لغات الأمم لمن أخبر عن غيره بأنه مطبوع على قلبه، و إن عليه ختما، و إنه قد طبع على قلبه و ختم عليه، بل هذا كذب على اللغات، و على القرآن. و كذلك قول من قال إن ختمه على قلوبهم اطلاعه على ما فيها من الكفر. و كذلك قول من قال إنه إحصاؤه عليهم حتى يجازيهم به، و قول من قال: إنه إعلامها بعلامه تعرفها بها الملائكة، و قد بينا بطلان ذلك بما فيه كفاية « ١) (١) سبق ذلك في فصل

تحميل اللفظ ما لا يحتمل (٢١٣).. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٨٢ قالت القدرية: لا يلزم من الطبع و الختم و القفل أن تكون مانعة من الإيمان، بل يجوز أن يجعل الله فيهم من غير أن يكون منعهم من الإيمان، بل يكون ذلك من جنس الغفلة، و البلادة، و العشا في البصر فيورث ذلك إعراضا عن الحق و تعميما عنه، و لو أنعم النظر، و تفكر و تدبر لما أثر على الإيمان غيره. و هذا الذي قاله يجوز أن يكون في أول الأمر فإن تمكن و استحكم من القلب و رسخ فيه امتنع معه الإيمان، و مع هذا فهو أثر فعله، و إعراضه و غفلته و إثارة شهوته و كبره على الحق و الهدى، فلما تمكن فيه و استحكم صار صفة راسخة، و طبعا، و ختما و قفلا، و رينا، فكان مبدؤه حائلا بينهم و بين الإيمان، و الإيمان ممكن معه لو شاءوا لآمنوا مع مبادئ تلك الموانع فلما استحكمت لم يبق إلى الإيمان سبيل. و نظير هذا أن العبد يستحسن ما يهواه فيميل إليه بعض الميل، ففي هذه الحال يمكن صرف الداعية له؛ إذ الأسباب لم تستحكم، فإذا استمر على ميله، و استدعى أسبابه و استمكنت لم يمكنه صرف قلبه عن الهوى، و المحبة فيطبع على قلبه، و يختم عليه فلا يبقى فيه محل لغير ما يهواه و يحبه، و كان الانصراف مقدورا له في أول الأمر، فلما تمكنت أسبابه لم يبق مقدورا له كما قال الشاعر: تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق رأى لجة ظننها موجه فلما تمكن منها غرق فلو أنهم بادروا في مبدأ الأمر إلى مخالفة الأسباب الصادة عن الهدى لسهل عليهم، و لما استعصى عليهم، و لقدروا عليه. و نظير ذلك المبادرة إلى إزالة العلة قبل استحكام أسبابها، و لزومها للبدن لزوما لا ينفك منها، فإذا استحكمت العلة و صارت كالجزء من البدن عز على الطبيب استنفاذ العليل منها. و نظير ذلك المتوكل في حمأة، فإنه ما لم يدخل تحتها فهو قادر على التخلص، فإذا توسط معظمها عز عليه و على غيره إنقاذه، فمبادئ الأمور مقدورة للعبد، فإذا استحكمت أسبابها و تمكنت لم يبق الأمر مقدورا له. فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه من أنفع الأشياء في باب القدر، و الله الموفق للصواب. و الله - سبحانه - جاعل ذلك كله، و خالقه فيهم بأسباب منهم، و تلك الأسباب قد تكون أمورا عدمية يكفي فيها عدم مشيئة أضعافها، فلا يشاء - سبحانه - أن يخلق للعبد أسباب البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٨٣ الهدى فيبقى على العدم الأصلي، و إن أراد من عبده الهداية فهي لا تحصل حتى يريد من نفسه إعانته و توفيقه، فإذا لم يرد - سبحانه - من نفسه ذلك لم تحصل الهداية.

فصل

فصل و مما ينبغي أن يعلم أنه لا - يمتنع مع الطبع و الختم و القفل حصول الإيمان، بأن يفك الذي ختم على القلب، و طبع عليه، و ضرب عليه القفل ذلك الختم و الطابع و القفل، و يهديه بعد ضلاله، و يعلمه بعد جهله، و يرشده بعد غيه، و يفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه التي هي بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوة و الكفر لم يمتنع أن يمحوها، و يكتب عليه السعادة و الإيمان. و قرأ قارئ عند عمر بن الخطاب أ فلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها (٢٤) [محمد]، و عنده شاب فقال: اللهم عليها أفعالها و مفاتيحها بيدك لا يفتحها سواك؛ فعرّفها له عمر و زادته عنده خيرا. و كان عمر يقول في دعائه: اللهم إن كنت كتبتني شقيا فامحني و اكتبني سعيدا فإنك تمحو ما تشاء و تثبت. فالرب تعالى فعال لما يريد، لا حجر عليه. و قد ضل هاهنا فريقان: القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدرا للرب، و لا يدخل تحت فعله؛ إذ لو كان مقدورا له، و منعه العبد لناقض جوده و لطفه. و الجبرية حيث زعمت أنه - سبحانه - إذا قدر، أو علم شيئا فإنه لا يغيره بعد هذا، و لا يتصرف فيه بخلاف ما قدره و علمه. و الطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجر

أحد أصلا، وجميع خلقه تحت حجره شرعا و قدرا. وهذه المسألة من أكبر مسائل القدر، و المقصود: أنه مع الطبع و الختم و القفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم و الطابع، و فتح ذلك القفل، يفتحه من بيده مفاتيح كل شىء، و أسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه. و إن كان فك الختم، و فتح القفل غير مقدور له، كما أن شرب الدواء مقدور له، و زوال العلة و حصول العافية غير مقدور، فإذا استحكمت به المرض و صار صفة لازمة له لم يكن له عذر فى تعاطى ما إليه من أسباب الشفاء، و إن كان غير مقدور له. و لكن لما ألفت العلة و ساكنها، و لم يحب زوالها، و لا أثر ضدها عليها مع معرفته بما البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٨٤ بينها و بين ضدها من التفاوت فقد سد على نفسه باب الشفاء بالكلية. و الله - سبحانه - يهدى عبده إذا كان ضالا، و هو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه؛ لمحبهته و ملاءمته لنفسه. فإذا عرف الهدى فلم يجبه، و لم يرض به و أثر عليه الضلال مع تكرر تعريفه منفعة هذا و خيره، و مضرة هذا و شره فقد سد على نفسه باب الهدى بالكلية، فلو أنه فى هذه الحال تعرض و افتقر إلى من يده هداه، و علم أنه ليس إليه هدى نفسه، و أنه إن لم يهده الله فهو ضال، و سأل الله أن يقبل قلبه، و أن يقيه شر نفسه و فقه و هداه. بل لو علم الله منه كراهية لما هو عليه من الضلال، و أنه مرض قاتل إن لم يشفه منه أهلكه، لكانت كراهته و بغضه إياه مع كونه مبتلى به من أسباب الشفاء و الهداية. و لكن من أعظم أسباب الشقاء و الضلال محبته له، و رضاه به، و كراهته الهدى و الحق، فلو أن المطبوع على قلبه المختوم عليه كره ذلك، و رغب إلى الله فى فك ذلك عنه، و فعل مقدوره لكان هداه أقرب شىء إليه، و لكن إذا استحكمت الطبع و الختم حال بينه و بين كراهة ذلك و سؤال الرب فكه و فتح قلبه.

فصل

فصل فإن قيل: فإذا جوزتم أن يكون الطبع و الختم و القفل عقوبة و جزاء على الجرائم و الإعراض و الكفر السابق على فعل الجرائم - قيل: هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس، و يظنون بالله - سبحانه - خلاف موجب أسمائه و صفاته. و القرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع، و الختم، و الغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبد من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بينه له، و إنما فعله بعد تكرار الدعوة منه - سبحانه - و التأكيد فى البيان و الإرشاد و تكرار الإعراض منهم و المبالغة فى الكفر و العناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم و يختم عليها فلا تقبل الهدى بعد ذلك. و الإعراض و الكفر الأول لم يكن مع ختم و طبع، بل كان اختيارا، فلما تكرر منهم صار طبيعته و سجية، فتأمل هذا المعنى فى قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) [البقرة]. و معلوم أن هذا ليس حكما يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا و صدقوا الرسل كان البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٨٥ أكثرهم كفارا قبل ذلك، و لم يختم على قلوبهم، و على أسماعهم. فهذه الآيات فى حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم فى الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قرده و خنازير، و بعضهم بالطمس على أعينهم. فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين، و هو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، و قد يعاقب به إلى وقت ثم يعافى عبده و يهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك.

فصل

فصل و هنا عدة أمور عاقب بها الكفار بمنعهم عن الإيمان، و هى: الختم، و الطبع، و الأكنة و الغطاء، و الغلاف، و الحجاب، و الوقر، و الغشاوة، و الران، و الغل، و السد، و القفل، و الصمم، و البكم، و العمى، و الصد، و الصرف، و الشد على القلب، و الضلال، و الإغفال، و المرض، و تقليب الأفتدة، و الحول بين المرء و قلبه، و إزاحة القلوب، و الخذلان، و الإركاس، و التشييط، و الترتين، و عدم إرادة هداهم و تطهيرهم، و إماتة قلوبهم بعد خلق الحياة فيها فتبقى على الموت الأصلى، و إمساك النور عنها فتبقى فى الظلمة الأصلية، و

جعل القلب قلبا قاسيا لا ينطبع فيه مثال الهدى و صورته، و جعل الصدر ضيقا حرجا لا يقبل الإيمان. و هذه الأمور منها ما يرجع إلى القلب: كالختم، و الطبع، و القفل، و الأكنة، و الإغفال و المرض و نحوها. و منها ما يرجع إلى رسوله الموصول إليه الهدى كالصمم و الوقر. و منها ما يرجع إلى طبيعته و رائده كالعمى و العشا. و منها ما يرجع إلى ترجمانه و رسوله المبلغ عنه كالبيكم النطقى، و هو نتيجة البيكم القلبى، فإذا بيكم القلب بيكم اللسان. و لا تصغ إلى قول من يقول: إن هذه مجازات و استعارات، فإنه قال بحسب مبلغه من العلم و الفهم عن الله و رسوله. و كأن هذا القائل حقيقة القفل عنده أن يكون من حديد، و الختم أن يكون بشمع أو طين، و المرض أن يكون حمى بنافض «١»، أو قولنا «ج ٢» أو غيرهما من أمراض البسطن،

(١) نافض: حمى الرعدة. (٢) و قد تكسر لامه أو هو مكسور اللام و يفتح القاف و يضم: مرض معوى مؤلم، يعسر معه خروج الثفل و الريح. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٨٦ و الموت: هو مفارقة الروح للبدن ليس إلا، و العمى: ذهاب ضوء العين الذى تبصر به. و هذه الفرقة من أغلظ الناس حجابا، فإن هذه الأمور إذا أضيفت إلى محالها كانت بحسب تلك المحال، فنسبة قفل القلب إلى القلب كنسبة قفل الباب إليه، و كذلك الختم، و الطابع الذى هو عليه هو بالنسبة إليه كالختم، و الطابع الذى على الباب و الصندوق و نحوهما، و كذلك نسبة الصمم و العمى إلى الأذن و العين، و كذلك موته و حياته نظير موت البدن و حياته، بل هذه الأمور ألزم للقلب منها للبدن. فلو قيل: إنها حقيقة فى ذلك مجاز فى الأجسام المحسوسة لكان مثل قول هؤلاء و أقوى منه، و كلاهما باطل، العمى فى الحقيقة و البيكم و الموت و القفل للقلب، ثم قال تعالى: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: ٤٦]. و المعنى: أنه معظم العمى و أصله، و هذا كقوله صلى الله عليه و سلم: «إنما الربا فى النسب» (١). و قوله: «إنما الماء من الماء» (٢). و قوله: «ليس الغنى عن كثرة العرض» (٣) إنما الغنى غنى النفس» (٤). و قوله: «ليس المسكين الذى ترده اللقمة و اللقمتان و التمرة و التمرتان إنما المسكين الذى لا يجد ما يغنيه و لا يفظن له فيتصدق عليه» (٥). و قوله: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» (٦). و لم يرد نفى الاسم عن هذه المسميات، إنما أراد أن هؤلاء أولى بهذه الأسماء، و أحق ممن يسمونه بها، فهكذا قوله: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ. و قريب من هذا قوله: لَيْسَ السَّيِّئُ أَنْ تُؤَلِّمُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

(١) البخارى (٢١٧٨ ، ٢١٧٩) فى البيوع، باب: بيع الدينار بالدينار نساء، و مسلم (١٥٩٦ / ١٠١) فى المساقاة، باب: بيع الطعام مثلا- بمثل. (٢) مسلم (٣٤٣ / ٨٠) فى الحيض، باب: إنما الماء من الماء. (٣) العرض: هو ما يتموله الإنسان و يقتنيه من المال و غيره. (٤) البخارى (٦٤٤٦) فى الرقاق، باب: الغنى غنى النفس، و مسلم (١٠٥١ / ١٢٠) فى الزكاة، باب: ليس الغنى عن كثرة العرض. (٥) البخارى (١٤٧٦) فى الزكاة، باب: قول الله تعالى: لَا يَسْتَكْبِرُونَ النَّاسَ إِلَّا حُفَاً، و مسلم (١٠٣٩ / ١٠١) فى الزكاة، باب: المسكين الذى لا يجد غنى، و لا يفظن له فيتصدق عليه. (٦) البخارى (٦١١٤) فى الأدب، باب: الحذر من الغضب، و مسلم (٢٦٠٩ / ١٠٧) فى البر و الصلة، باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب، و بأى شىء يذهب الغضب. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٨٧ و الْيَوْمِ الْآخِرِ الْآيَةُ [البقرة: ١٧٧]. و على التقديرين فقد أثبت للقلب عمى حقيقة، و هكذا جميع ما نسب إليه. و لما كان القلب ملك الأعضاء، و هى جنوده، و هو الذى يحركها و يستعملها، و الإرادة و القوى و الحركة الاختيارية تنبعث كانت هذه الأمثال أصلا و للأعضاء تبعا. فلنذكر هذه الأمور مفصلة و مواقعها فى القرآن، فقد تقدم الختم، قال الأزهرى: و أصله التغطية، و ختم البذر فى الأرض إذا غطاه. قال أبو إسحاق: معنى ختم و طبع فى اللغة واحدة، و هو التغطية على الشىء و الاستيثاق منه فلا يدخله شىء، كما قال تعالى: أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [محمد: ٢٤]، و كذلك قوله: طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ [محمد: ١٦]. قلت: الختم و الطبع يشتركان فيما ذكر و يفترقان فى معنى آخر، و هو أن الطبع ختم يصير سحبية و طبيعته، فهو تأثير لازم لا يفارق. و أما الأكنة ففى قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ [الأنعام: ٢٥]، و هى جمع كنان، كعنان و أعنة، و أصله من الستر و التغطية، و يقال: كنه و أكنه و ليسا بمعنى واحد، بل بينهما فرق، فأكنه إذا ستره و أخفاه، كقوله تعالى: أَوْ

أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ [البقرة: ٢٣٥]، وكنه إذا صانه و حفظه، كقوله: يَبِضُّ مَكُونٌ [الصفافات: ٤٩]، و يشتركان في الستر. و الكنان ما أكن الشيء و ستره و هو كالغلاف، و قد أقرؤا على أنفسهم بذلك فقالوا: قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ [فصلت: ٥]، فذكروا غطاء القلب؛ و هي الأكنة، و غطاء الأذن؛ و هو الوقر، و غطاء العين؛ و هو الحجاب. و المعنى: لا نفقه كلامك و لا نسمعه و لا نراك، و المعنى: أنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ما تقول، و لا يراك. قال ابن عباس: قلوبنا في أكنة مثل الكنانة التي فيها السهام، و قال مجاهد: كجعبة النبل، و قال مقاتل: عليها غطاء فلا نفقه ما تقول.

فصل

فصل و أما الغطاء فقال تعالى: وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَ كَانُوا لَا يَشْعُرُونَ سَمْعًا (١٠١) [الكهف]. و هذا يتضمن معنيين: أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله، و أدلة توحيده، و عجائب قدرته. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٨٨ و الثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن، و تدبره و الاهتداء به، و هذا الغطاء للقلب أولاً ثم يسرى منه إلى العين.

فصل

فصل و أما الغلاف فقال تعالى: وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ [البقرة: ٨٨]، و قد اختلف في معنى قولهم: قُلُوبُنَا غُلْفٌ فقالت طائفة: المعنى: قلوبنا أوعية للحكمة و العلم، فما بالها لا- تفهم عنك ما أتيت به أو لا تحتاج إليك. و على هذا فيكون غلف جمع غلاف، و الصحيح قول أكثر المفسرين: إن المعنى: قلوبنا لا تفقه و لا تفهم ما تقول، و على هذا فهو جمع أغلف كأحمر و حمر. قال أبو عبيدة: كل شيء في غلاف فهو أغلف، كما يقال: سيف أغلف، و قوس أغلف، و رجل أغلف غير مختون. قال ابن عباس و قتادة و مجاهد: على قلوبنا غشاوة، فهي في أوعية فلا تعي، و لا تفقه ما تقول. و هذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن كقولهم: قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةٍ [فصلت: ٥]، و قوله تعالى: كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي [الكهف: ١٠١]، و نظائر ذلك. و أما قول من قال: هي أوعية للحكمة فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة، و ليس له في القرآن نظير يحمل عليه، و لا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم و الحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، و قلوب المؤمنين العالمين غلف، أي أوعية للعلم؟ و الغلاف قد يكون وعاء للجيد و الرديء، فلا يلزم من كون القلب غلافاً أن يكون داخله العلم و الحكمة. و هذا ظاهر جداً، فإن قيل: فالإضراب ب «بل» على هذا القول الذي قويتموه ما معناه؟ و أما على القول الآخر فظاهر، أي ليست قلوبكم محلا للعلم و الحكمة، بل مطبوع عليها. قيل: وجه الإضراب في غاية الظهور، و هو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول و معرفته، بل جعل قلوبهم داخله في غلف فلا تفقهه، فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ و كأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٨٩ الإيمان، فكذبهم الله و قال: بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: ١٥٥]، و في الآية الأخرى: بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ [البقرة: ٨٨]. فأخبر- سبحانه- أن الطبع و الإبعاد عن توفيقه و فضله، إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم و آثروه على الإيمان فعاقبهم عليه بالطبع و اللعنة، و المعنى: لم نخلق قلوبهم غلفاً لا تعي و لا تفقه ثم نأمرهم بالإيمان و هم لا يفقهونه و لا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالاً عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب، و الختم عليها.

فصل

فصل و أما الحجاب ففي قوله- تعالى- كحكاية عنهم: وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ [فصلت: ٥]. و قوله: وَ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَشِيئُورًا (٤٥) [الإسراء] على أصح القولين، و المعنى: جعلنا بين القرآن إذا قرأته و بينهم حجاباً

فإن قيل: فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب فكيف ذكر الغل الذي في العنق؟ قيل: لما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب ذكر محلله، والمراد به: القلب، كقوله تعالى: وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ [الإسراء: ١٣] و من هذا قولهم: إثمى في عنقك، وهذا في عنقك. و من هذا قوله: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ [الإسراء: ٢٩] شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق. و من هذا قال الفراء: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا، حبسناهم عن الإنفاق. قال أبو إسحاق: و إنما يقال للشيء اللزوم: هذا في عنق فلان، أى: لزومه كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق، قال أبو علي: هذا مثل قولهم: طوقتك كذا و قلدتك كذا، و منه: قلده السلطان كذا، أى صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة و مكان الطوق. قلت: و من هذا قولهم: قلدت فلانا حكم كذا و كذا، كأنك جعلته طوقا في عنقه. و قد سمي الله التكليف الشاقاة أغلالا- في قوله: وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ [الأعراف: ١٥٧]، فشبها بالأغلال لشدتها، و صعوبتها. قال الحسن: هي الشدائد التي كانت في العبادة كقطع أثر البول، و قتل النفس في التوبة، و قطع الأعضاء الخاطئة، و تتبع العروق من اللحم. و قال ابن قتيبة: هي تحريم الله- سبحانه- عليهم كثيرا مما أطلقه لأمة محمد صلى الله عليه و سلم، و جعلها أغلالا لأن التحريم يمنع كما يقض الغل اليد. و قوله: فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ، قالت طائفة: الضمير يعود إلى الأيدي و إن لم تذكر، لدلالة السياق عليها، قالوا: لأن الغل يكون في العنق فتجمع إليه اليد، و لذلك سمي جامعة، و على هذا فالمعنى: فأيديهم، أو فأيمانهم مضمومة إلى أذقانهم هذا قول الفراء و الزجاج. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٩٢ و قالت طائفة: الضمير يرجع إلى الأغلال، و هذا هو الظاهر، و قوله: فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ أى: واصله و ملزوزة إليها، فهو غل عريض قد أحاط بالعنق حتى وصل إلى الذقن. و قوله: فَهُمْ مُقْمَحُونَ قال الفراء و الزجاج: المقمح: هو الغاض بصره بعد رفع رأسه، و معنى الإقمح في اللغة: رفع الرأس و غض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه و قمح. و قال الأصمعي: بعير قامح إذا رفع رأسه عن الحوض، و لم يشرب. قال الأزهرى: لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم، و رءوسهم سعدا، كالإبل الرافعة رءوسها، انتهى. فإن قيل: فما وجه التشبيه بين هذا و بين حبس القلب عن الهدى و الإيمان؟ قيل أحسن وجه و أبينه، فإن الغل إذا كان في العنق، و اليد مجموعة إليها منع اليد عن التصرف و البطش، فإذا كان عريضا قد ملأ العنق و وصل إلى الذقن، منع الرأس من تصويبه، و جعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه لا- يستطيع له حركة، ثم أكد هذا المنع و الحبس بقوله: وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سِدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سِدًّا [يس: ٩]. قال ابن عباس: منعهم من الهدى؛ لما سبق في علمه. و السد الذي جعل من بين أيديهم و من خلفهم هو الذي سد عليهم طريق الهدى، فأخبر- سبحانه- عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم، و مثلها بأحسن تمثيل و بغلله. و ذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم و ضمت أيديهم إليها، و جعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما، و أغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئا. و إذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق، و تبين له، ثم جرده و كفر به، و عاداه أعظم معاداة و جدت المثل مطابقا له أتم مطابقة، و أنه قد حيل بينه و بين الإيمان كما حيل بين هذا و بين التصرف، و الله المستعان.

فصل

فصل و أما القفل فقال تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) [محمد] قال ابن عباس: يريد على قلوب هؤلاء أقفال. و قال مقاتل: يعنى: الطبع على القلب، و كأن القلب بمنزلة الباب المرتج الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب و الوصول إلى ما وراءه، و كذلك ما لم يرفع الختم و القفل عن القلب لم يدخل الإيمان و القرآن. البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٩٣ و تأمل تنكير القلب و تعريف الأقفال، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء و قلوب من هم بهذه الصفة، و لو قال: أم على القلوب أقفالها، لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة. و فى قوله: أَقْفَالُهَا بالتعريف: نوع تأكيد، فإنه لو قال: «أقفال» لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الإسم فلما أضافها إلى القلوب علم أن المراد بها ما هو للقلب منزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيرها، و الله أعلم.

فصل

فصل و أما الصمم و الوقر ففى قوله تعالى: صُمُّ بُكْمٌ عُمَى [البقرة: ١٨، ١٧١] وقوله: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) [محمد]. وقوله: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) [الأعراف]. وقوله: وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ [فصلت: ٤٤]. قال ابن عباس: فى آذانهم صمم عن استماع القرآن، و هو عليهم عمى: أعمى الله قلوبهم فلا يفقهون، أولئك ينادون من مكان بعيد مثل البهيمة التى لا تفهم إلا دعاء و نداء. و قال مجاهد: بعيد من قلوبهم. و قال الفراء: نقول للرجل الذى لا يفهم: كذلك أنت تنادى من مكان بعيد. قال: و جاء فى التفسير كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون، انتهى. المعنى: أنهم لا يسمعون و لا يفهمون كما أن من دعى من مكان بعيد لم يسمع و لم يفهم.

فصل

فصل و أما البكم فقال تعالى: صُمُّ بُكْمٌ عُمَى [البقرة ١٨، ١٧١] و البكم: جمع أبكم، و هو الذى لا ينطق. و البكم نوعان: بكم القلب، و بكم اللسان، كما أن النطق نطقان: نطق القلب، و نطق اللسان، و أشدهما بكم القلب، كما أن عماه و صممه أشد من عمى العين، و صمم الأذن، فوصفهم سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق، و لا تنطلق به ألسنتهم. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٩٤ و العلم يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب، من سمعه و بصره و قلبه، و قد سدت عليهم هذه الأبواب الثلاثة، فسد السمع بالصمم، و البصر بالعمى، و القلب بالبكم. و نظيره قوله تعالى: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا [الأعراف: ١٧٩]. و قد جمع - سبحانه - بين الثلاثة فى قوله: وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ [الأحقاف: ٢٦]. فإذا أراد الله - سبحانه - هداية عبد فتح قلبه و سمعه و بصره، و إذا أراد ضلاله أصمه و أعماه و أبكمه و بالله التوفيق.

فصل

فصل و أما الغشاوة فهو غطاء العين كما قال تعالى: وَ جَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غِشَاوَةً [الجاثية: ٣٣]. و هذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب، فإن ما فى القلب يظهر على العين من الخير الشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه. و أنت إذا أبغضت رجلا بغضا شديدا، أو أبغضت كلامه و مجالسته، تجد على عينك غشاوة عند رؤيته و مخالطته، فتلك أثر البغض و الإعراض عنه، و غلظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم و نفورهم عن الرسول. و جعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته، كالعمامة، و لما عشوا عن ذكره الذى أنزله صار ذلك العشا غشاوة على أعينهم فلا تبصر مواقع الهدى.

فصل

فصل و أما الصد فقال تعالى: وَ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ سُوءِ عَمَلِهِ وَ صِيْدٌ عَنِ السَّبِيلِ [غافر: ٣٧]. قرأ أهل الكوفة على البناء للمفعول، حملا- على زين، و قرأ الباقون (و صدّ) بفتح الصاد، و يحتمل وجهين أحدهما: أعرض، فيكون لازما، و الثانى: صد غيره، فيكون متعديا، و القراءتان كالآيتين لا تتناقضان «١». و أما الشد على القلب ففى قوله تعالى: وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ

(و صدّ) بضم الصاد. و قرأ ابن كثير و نافع و أبو عمر و ابن عامر: (و صدّ) بفتح الصاد. «السبعة فى القراءات» لابن مجاهد. البدائع فى علوم

القرآن، ص: ٢٩٥ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضَاعَمُوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرْوُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) [يونس فهذا الشد على القلب هو الصد وال منع، ولهذا قال ابن عباس: يريد امنعها، والمعنى قسها و اطبع عليها حتى لا تلين و لا تتشرح للإيمان. و هذا مطابق لما في التوراة أن- الله سبحانه و تعالى- قال لموسى: اذهب إلى فرعون فإنى سأقسى قلبه فلا يؤمن حتى تظهر آياتى و عجائبي بمصر. و هذا الشد و التقسية من كمال عدل الرب- سبحانه- فى أعدائه، جعله عقوبة لهم على كفرهم و إعراضهم كعقوبته لهم بالمصائب، و لهذا كان محمودا عليه. فهو حسن منه و أقبح شئى منهم، فإنه عدل منه و حكمه، و هو ظلم منهم و سفه. فالقضاء و القدر فعل عادل حكيم غنى عليم يضع الخير و الشر فى أليق المواضع بهما، و المقضى المقدر يكون ظلما و جورا و سفها هو فعل جاهل ظالم سفیه.

فصل

فصل و أما الصرف فقال تعالى: وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) [التوبة]. فأخبر- سبحانه- عن فعلهم و هو الانصراف، و عن فعله فيهم و هو صرف قلوبهم عن القرآن و تدبره؛ لأنهم ليسوا أهلا له، فالمحل غير صالح، و لا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، و حسن قصد، و هؤلاء قلوبهم لا تفقه، و قصدهم سيئ. و قد صرح- سبحانه- بهذا فى قوله: وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) [الأنفال]. فأخبر- سبحانه- عن عدم قابلية الإيمان فيهم، و أنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، و إن سمعوه سماعا تقوم به عليهم حجة، فسماع الفهم الذى سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم. ثم أخبر- سبحانه- عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، و هو الكبر و التولى و الإعراض، فالأول مانع من الفهم، الثانى مانع من الانقياد و الإذعان، فأفهام سيئ، و قصود رديئة، و هذه نسخة الضلال، و علم الشقاء كما أن نسخة الهدى، و علم السعادة فهم صحيح و قصد صالح. و الله المستعان. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٢٩٦ و تأمل قوله سبحانه: ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [التوبة: ١٢٧] كيف جعل هذه الجملة الثانية سواء كانت خبرا أو إعادة عقوبة؛ لانصرافهم فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول، فإن انصرافهم كان لعدم إرادته- سبحانه- و مشيئته لإقبالهم. لأنه لا صلاحية فيهم و لا قبول، فلم ينلهم الإقبال و الإذعان فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل و الظلم عن القرآن- فجازاهم على ذلك صرفا آخر غير الصرف الأول كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول كما قال: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ [الصف: ٥]. و هكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه فلا يمكنه من الإقبال عليه. و لتكن قصة إبليس منك على ذكره تنتفع بها أتم انتفاع، فإنه لما عصى ربه تعالى و لم ينقذ لأمره، و أصر على ذلك عاقبه بأن جعله داعيا إلى كل معصية، فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعيا إلى كل معصية، و فروعها صغيرها و كبيرها. و صار هذا الإعراض و الكفر منه عقوبة لذلك الإعراض و الكفر السابق، فمن عقاب السيئة السيئة بعدها، كما أن من عقاب الحسنه الحسنه بعدها. فإن قيل: فكيف يلتئم إنكاره- سبحانه- عليهم الانصراف و الإعراض عنه، و قد قال تعالى: فَأَنَّى تُصِرُّونَ [يونس: ٣٢]. و قال فَأَنَّى تُؤْفِكُونَ [الأنعام: ٩٥] و قال: فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) [المدثر: ٤٩]. فإذا كان هو الذى صرفهم و جعلهم معرضين و مأفوكين فكيف ينفى ذلك عليهم؟ قيل: هم دائرون بين عدله و حجته عليهم، فمكنتهم، و فتح لهم الباب، و نهج لهم الطريق و هيا لهم الأسباب، فأرسل إليهم رسله و أنزل عليهم كتبه، و دعاهم على السنه رسله، و جعل لهم عقولا تميز بين الخير و الشر، و النافع و الضار، و أسباب الردى و أسباب الفلاح، و جعل لهم أسماعا و أبصارا، فأثروا الهوى على التقوى و استحجوا العمى على الهدى، و قالوا: معصيتك آثر عندنا من طاعتك، و الشرك أحب إلينا من توحيدك، و عبادة سواك أنفع لنا فى ديانا من عبادتك، فأعرضت قلوبهم عن ربهم و خالقهم و ملكهم، و انصرفت عن طاعته و محبته. فهذا عدله فيهم، و تلك حجته عليهم، فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم و اختيارا فسد عليهم اضطرارا، فخلاهم، و ما اختاروا لأنفسهم و ولاهم ما تولوه، و مكنتهم فيما ارتضوه، و أدخلهم

من الباب الذي استبقوا إليه، و أعلق عنهم الباب الذي تولوا عنه البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٩٧ و هم معرضون، فلا أقيح من فعلهم، و لا- أحسن من فعله، و لو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة، و لأنشأهم على غير هذه النشأة، و لكنه سبحانه خالق العلو و السفلى، و النور و الظلمة، و النافع و الضار، الطيب و الخبيث، و الملائكة و الشياطين، و الشاء و الذناب، و معطيها آلاتها و صفاتها، و قواها و أفعالها، و مستعملها فيما خلقت له، فبعضها بطباعها، و بعضها بإرادتها و مشيئتها، و كل ذلك جار على وفق حكمته، و هو موجب حمده و مقتضى كماله المقدس، و ملكه التام، و لا- نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ما خفى عليهم بوجه ما، إن هو إلا كنفرة عصفور من البحر

فصل

فصل و أما الإغفال فقال تعالى: وَ لَا تُطْعَمَنَّ أَغْفَلْنَا قَلْبُهُ عَنَّا ذِكْرِنَا وَ اتَّبِعْ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا [الكهف: ٢٨]. سئل أبو العباس ثعلب عن قوله: أَغْفَلْنَا قَلْبُهُ عَنَّا ذِكْرِنَا [الكهف: ٢٨] فقال: جعلناه غافلا، قال: و يكون في الكلام «أغفلته سميته غافلا، و وجدته غافلا». قلت: الغفل: الشيء الفارغ، و الأرض الغفل: التي لا علامة بها، و الكتاب الغفل: الذي لا شكل عليه، فأغفلناه: تركناه غفلا عن الذكر فارغا منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي؛ لأنه- سبحانه- لم يشأ له الذكر فبقى غافلا، فالغفلة وصفه، و الإغفال فعل الله فيه بمشيئته، و عدم مشيئته لتذكرة، فكل منهما مقتضى لغفله، فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، و إذا شاء غفلته امتنع منه الذكر. فإن قيل: فهل تضاف الغفلة و الكفر و الإعراض و نحوها إلى عدم مشيئته الرب أضدادها أم إلى مشيئته لوقوعها؟ قيل: القرآن قد نطق بهذا، و بهذا قال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ [المائدة: ٤١]. و قال: وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا [المائدة: ٤١] وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ [الأنعام: ١٢٥]. فإن قيل: فكيف يكون عدم السبب المقتضى موجبا للأثر؟ قيل: الأثر و إن كان وجوديا فلا بد له من مؤثر وجودي، و أما العدم فيكفي فيه عدم سببه و موجبه فيبقى على العدم الأصلي، فإذا أضيف إليه كان من باب إضافته الشيء إلى البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٩٨ دليله، فعدم السبب دليل على عدم المسبب، و إذا سمي موجبا و مقتضيا بهذا الاعتبار فلا مشاحة في ذلك، و أما أن يكون العدم أثرا و مؤثرا فلا. و هذا الإغفال ترتب عليه اتباع هواه و تفریطه في أمره، قال مجاهد: كان أمره فرطا أي ضياعا. و قال قتادة: أضاع أكبر الضيعة. و قال السدي: هلاكاً. و قال أبو الهيثم: أمر فرط أي متهاون به مضيع، التفریط تقديم العجز. قال أبو إسحاق: من قدم العجز في أمر أضاعه و أهله. قال الليث: الفرط: الأمر الذي يفرط فيه، يقال: كل أمر فلان فرط. قال الفراء: فرطا متروكا يفرط فيما لا ينبغي التفریط فيه و اتبع ما لا ينبغي اتباعه و غفل عما لا يحسن الغفلة عنه.

فصل

فصل و أما المرض فقال تعالى: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا [البقرة: ١٠] و قال: فَلَا تَخْضَعَنَّ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ [الأحزاب: ٣٢]. و قال: يَزْتَابِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا [المدثر: ٣١]. و مرض القلب خروج عن صحته و اعتداله، فإن صحته أن يكون عارفا بالحق محبا له مؤثرا له على غيره، فمرضه إما بالشك فيه، و إما بإيثار غيره عليه. فمرض المنافقين مرض شك و ريب، و مرض العصاة مرض غي، و شهوة. و قد سمي الله سبحانه كلا منهما مرضا. قال ابن الأنباري: أصل المرض في اللغة: الفساد، مرض فلان: فسد جسمه و تغيرت حاله، و مرضت الأرض: تغيرت و فسدت. قالت ليلي الأخيلية: إذا هبط الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاهها و قال آخر: ألم تر أن الأرض أضحت مريضة لفقده الحسين و البلاد اقشعرت و المرض يدور على أربعة أشياء: فساد، و ضعف، و نقصان، و ظلمة، و منه مرض الرجل في الأمر إذا ضعف فيه و لم يبالغ، و عين مريضة النظر أي: فاترة ضعيفة، و ريح مريضة: إذا هب هبوبها، كما قال: راحت لأربعك الرياح مريضة البدائع في علوم القرآن، ص: ٢٩٩ أي: لينه ضعيفة حتى لا يعفى أثرها. و قال ابن الأعرابي: أصل المرض النقصان، و منه بدن مريض

أى: ناقص القوة، و قلب مريض: ناقص الدين، و مرض فى حاجتى إذا نقصت حركته. و قال الأزهري: عن المنذرى عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة و اضطرابها بعد صفائها. قال: و المرض: الظلمة، و أنشد: و ليلة مرضت من كل ناحية فلا يضىء لها شمس و لا- قمر هذا أصله فى اللغة، ثم الشك و الجهل و الحيرة و الضلال و إرادة الغى و شهوة الفجور فى القلب تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض فيعاقبه الله بزيادة المرض لإيثاره أسبابه و تعاطيه لها.

فصل

فصل و أما تقلب الأفتدة فقال تعالى: وَ نَقَلَبُ أَفْتِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) [الأنعام: ١١٠]. و هذا عطف على أنها إذا جاءت لا- يؤمنون، أى نحول بينهم و بين الإيمان، و لو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون. و اختلف فى قوله: كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ [الأنعام: ١١٠] فقال كثير من المفسرين: المعنى نحول بينهم و بين الإيمان لو جاءتهم الآية، كما حلنا بينهم و بين الإيمان أول مرة. قال ابن عباس، و فى رواية عطاء عنه: و نقلب أفتدتهم و أبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمى. قال: و هذا كقوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ [الأنفال: ٧٧]. و قال آخرون: المعنى: و نقلب أفتدتهم و أبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة فعاقبناهم بتقلب أفتدتهم و أبصارهم. و هذا معنى حسن، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل كقوله: وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ [القصص: ٧٧]. و قوله: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يَزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكَرُكُمْ [البقرة: ١٥١-١٥٢]. و الذى حسن اجتماع التعليل و التشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل فى الخير و الشر. و التقلب: تحويل الشىء من وجه إلى وجه، و كان الواجب من مقتضى إنزال الآية البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٠٠ و وصولهم إليها، كما سألوا أن يؤمنوا إذا جاءتهم؛ لأنهم رأوها عياناً، و عرفوا أدلتها و تحققوا صدقها، فإذا لم يؤمنوا كان ذلك تقلباً لقلوبهم و أبصارهم عن وجهها الذى ينبغى أن تكون عليه. و قد روى مسلم فى صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء»، ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» (١). و روى الترمذى من حديث أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك و بما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء» (٢). قال: هذا حديث حسن. و روى حماد عن أيوب و هشام و يعلى بن زياد عن الحسن قال: قالت عائشة رضى الله عنها: دعوة كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكثر أن يدعو بها: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»، فقلت: يا رسول الله، دعوة كثيراً ما تدعو بها، قال: «إنه ليس من عبد إلا و قلبه بين إصبعين من أصابع الله فإذا شاء أن يقيمه أقامه، و إذا شاء أن يزيغه أزاغه» (٣). و قوله: وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأنعام: ١١٠]. قال ابن عباس: أخذهم و أدعهم فى ضلالهم يتمادون.

فصل

فصل و أما الخذلان فقال تعالى: إِنَّ يَنْصُرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ [آل عمران: ١٦٠]. و أصل الخذلان: الترك و التخليء، و يقال للبقرة و الشاة إذا تخلفت مع ولدها فى المرعى و تركت صواحباتها: خذول. قال محمد بن إسحاق فى هذه الآية: إن ينصررك الله فلا غالب لك من الناس و لن ينصررك خذلان من خذلك، و إن يخذلك فلن ينصررك الناس، أى لا تترك أمرى للناس، و ارفض الناس لأمرى. و الخذلان: أن يخلى الله تعالى بين العبد و بين نفسه و يكله إليها، و التوفيق ضده: ألا يدعه و نفسه، و لا يكله إليها بل يصنع له و يلطف به، و يعينه و يدفع عنه، و يكله كلاءة الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه، فمن خلى بينه و بين نفسه فقد هلك كل الهلاك؛ و لهذا كان من دعائه صلى الله عليه و سلم: «يا حى يا قيوم يا بديع السموات و الأرض،

يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفه عين، ولا إلى أحد من خلقك» (١). فالعبد مطروح بين الله، وبين عدوه إبليس، فإن تولاه الله لم يظفر به عدوه، وإن خذله، وأعرض عنه افترسه الشيطان كما يفترس الذئب الشاة. فإن قيل: فما ذنب الشاة إذا خلى الراعى بين الذئب وبينها، وهل يمكنها أن تقوى على الذئب وتنجو منه؟

(١) أبو داود (٥٠٩٠) في الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، وأحمد (٤/ ٤٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٠٢ قيل: لعمر الله إن الشيطان ذئب الإنسان كما قاله الصادق المصدوق، ولكن لم يجعل الله لهذا الذئب اللعين على هذه الشاة سلطانا مع ضعفها، فإذا أعطت بيدها وسالمت الذئب ودعاها فلبت دعوته وأجابت أمره ولم تتخلف، بل أقبلت نحوه سريعة مطيعة، وفارقت حمى الراعى الذى ليس للذئب عليه سبيل، ودخلت فى محل الذئب الذى من دخله كان صيدا لهم - فهل الذئب كل الذئب إلا على الشاة! فكيف والراعى يحذرهما ويخوفها وينذرهما، وقد أراها مصارع الشاة التى انفردت عن الراعى ودخلت وادى الذئب؟! قال أحمد بن مروان المالكي فى كتاب «المجالسة»: سمعت ابن أبى الدنيا يقول: إن لله سبحانه من العلوم ما لا يحصى، ويعطى كل واحد من ذلك ما لا يعطى غيره. لقد حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن سعيد القطان، ثنا عبيد الله بن بكر السهمي عن أبيه أن قوما كانوا فى سفر فكان فيهم رجل يمر بالطائر، فيقول: أتدرون ما تقول هؤلاء؟ فيقولون: لا، فيقول: تقول: كذا وكذا، فيحيلنا على شىء لا ندرى أصادق فيه هو أم كاذب، إلى أن مروا على غنم، وفيها شاة قد تخلفت على سخلة لها فجعلت تحنو عنقها إليها وتغفو، فقال: أتدرون ما تقول هذه الشاة؟ قلنا: لا، قال: تقول للسخلة؟ الحقى لا - يأكلك الذئب كما أكل أخاك عام أول فى هذا المكان. قال: فانتبهينا إلى الراعى فقلنا له: ولدت هذه الشاة قبل عامك هذا؟ قال: نعم، ولدت سخلة عام أول فأكلها الذئب بهذا المكان. ثم أتينا على قوم فيهم ظعينة على جمل لها وهو يرغو، ويحنو عنقه إليها فقال: أتدرون ما يقول هذا البعير؟ قلنا: لا، قال: فإنه يلعن ركبته ويزعم أنها رحلته على مخيط وهو فى سنامه. قال: فانتبهينا إليهم فقلنا: يا هؤلاء إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن ركبته، ويزعم أنها رحلته على مخيط، وأنه فى سنامه، قال: فأناخوا البعير وخطوا عنه فإذا هو كما قال. فهذه شاة قد حذرت سخلتها من الذئب مرة فحذرت. وقد حذر الله - سبحانه - ابن آدم من ذئبه مرة بعد مرة، وهو يابى إلا أن يستجيب له إذا دعاه، ويبيت معه ويصبح: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) [إبراهيم: ٢٢]. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٠٣

فصل

فصل

فصل وأما الشيطان فقال تعالى: وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) [التوبة]. والشيطان: رد الإنسان عن الشىء الذى يفعله، قال ابن عباس: يريد خذلهم وكسلهم عن الخروج. وقال فى رواية أخرى: حبسهم، قال مقاتل: وأوحى إلى قلوبهم اقعدوا مع القاعدتين. وقد بين - سبحانه - حكمته فى هذا الشيطان والخذلان قبل وبعد فقال: إِنَّمَا يَشِيتُ تَأْذِنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) [التوبة: ٤٥] وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) [التوبة: ٤٦]. فلما تركوا الإيمان به وبلقائه وارتابوا بما لا ريب فيه ولم يريدوا الخروج فى طاعة الله، ولم يستعدوا له ولا أخذوا أهبة ذلك كره - سبحانه - انبعث من هذا شأنه، فإن من لم يرفع البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٠٤ به، و برسوله، أو كتابه رأسا، ولم يقبل هديته التى أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه و أكرمهم عليه، ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها، بل بدلها كفرًا، فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله - سبحانه - فثبطه

لثلا يقع ما يكره من خروجه وأوحى إلى قلبه قدرا وكونا أن يقعد مع القاعدين. ثم أخير- سبحانه- عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تشييط هؤلاء عنهم فقال: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا [التوبة: ٤٧]. و الخبال: الفساد والاضطراب، فلو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرهم، فأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف. قال ابن عباس: ما زادوكم إلا- خبالا وعجزا وجبنا، يعني: يجبنوهم عن لقاء العدو بتحويل أمرهم، وتعظيمهم في صدورهم. ثم قال: وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ أَي: أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد. قال ابن عباس: يريد: ضعفوا شجاعتكم، يعني: بالتفريق بينهم لتفريق الكلمة فيجبوا عن العدو. وقال الحسن: لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات اليمين. وقال الكلبي: ساروا بينكم يبعثونكم العيب، قال امرؤ القيس: أرانا موضعين لحتم غيب ونسحر بالطعام والشراب أي مسرعين، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة: تبا لهن بالعرفان لما عرفنني وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا أي: أسرع حتى كلت مطيته: يَبْعَثُونَكَ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ [التوبة: ٤٧]. قال قتادة: وفيكم من يسمع كلامهم، ويطيعهم. وقال ابن إسحاق: وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم. ومعناه على هذا القول: وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو صاحبهم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم. قلت: فتضمن «سماعين» معنى «مستجيبين». وقال مجاهد وابن زيد والكلبي: المعنى: وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم، أي: جواسيس. والقول هو الأول، كما قال تعالى: سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ [المائدة: ٤١] أي: قابلون له، ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين، فإن المنافقين، كانوا مختلطين بالمؤمنين، ينزلون معهم ويرحلون ويصلون معهم ويجالسونهم، ولم يكونوا متحيزين عنهم قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم، فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفة، البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٠٥ ولم يخالطها وأرصد بينهم عيوننا له. فالقول قول قتادة، وابن إسحاق. والله أعلم. فإن قيل انبعثهم إلى طاعته طاعة له فكيف يكرهها؟ وإذا كان- سبحانه- يكرهها فهو يحب ضدها لا محالة إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر، فيكون قعودهم محبوبا له فكيف يعاقبهم عليه؟ قيل: هذا سؤال له شأن، وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب، وأجوبة الطوائف على حسب أصولهم. فالجبرية تجيب عنه بأن أفعاله لا تعلق بالحكم والمصالح، وكل ممكن فهو جائز عليه، ويجوز أن يعذبهم على فعل ما يحبه ويرضاه وترك ما يبغضه ويسخطه، والجميع بالنسبة إليه سواء، وهذه الفرقة قد سدت على نفسها باب الحكمة والتعليل. والقدرية تجيب عنه على أصولها بأنه- سبحانه- لم يشطهم حقيقة، ولم يمنعهم بل هم منعوا أنفسهم، وثبطوها عن الخروج، وفعلوا ما لا يريد، ولما كان في خروجهم المفسدة التي ذكرها الله- سبحانه- ألقى في نفوسهم كراهة الخروج مع رسوله- قالوا: وجعل- سبحانه- إلقاء كراهة الانبعاث في قلوبهم كراهة مشيئة من غير أن يكره هو سبحانه انبعثهم، فإنه أمرهم به، قالوا: وكيف يأمرهم بما يكرهه. ولا يخفى على من نور الله بصيرته، فساد هذين الجوابين وبعدهما من دلالة القرآن. فالجواب الصحيح: أنه- سبحانه- أمرهم بالخروج؛ طاعة له ولأمره، واتباعا لرسوله صلى الله عليه وسلم ونصرة له وللمؤمنين وأحب ذلك منهم ورضيه لهم ديننا، وعلم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع على هذا الوجه، بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين فكان خروجهم يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه، ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه، فكان مكروها من هذا الوجه، ومحبوبا له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه. وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه إليه فكرهه وعاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه، لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه. وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة، حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه ولم يرضه منهم. وهذا الخروج المكروه له ضدان: أحدهما: الخروج المرضي المحبوب، وهذا الضد هو الذي يحبه، والثاني: التخلف عن رسوله، والقعود عن الغزو معه. وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضا، وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٠٦ فنقول للسائل: قعودهم مبغوض له، لكن هاهنا أمران مكروهان له سبحانه وأحدهما أكره له من الآخر؛ لأنه أعظم مفسدة. فإن قعودهم مكروه له، وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه، ولم يكن لهم بد من أحد المكروهين إليه- سبحانه- فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى، فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه، فإن مفسدة قعودهم تختص بهم، ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين، فتأمل هذا الموضوع. فإن قلت: فهلا وفقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه، وهو الذي خرج

عليه المؤمنون؟ قلت: قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مرارا. وإن حكمته- سبحانه- تأبى أن يضع التوفيق في غير محله، و عن غير أهله، فالله أعلم حيث يجعل هداه و توفيقه و فضله. و ليس كل محل يصلح لذلك، و وضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته. فإن قلت: و على ذلك فهلا جعل المحال كلها صالحه؟ قلت: ياباه كمال ربوبيته و ملكه، و ظهور أسمائه و صفاته، و في الخلق و الأمر. و هو- سبحانه- لو فعل ذلك لكان محبوبا له، فإنه يجب أن يذكر، و يشكر، و يطاع، و يوحد، و يعبد، و لكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة و الإيمان، و هو محبته لجهاد أعدائه، و الانتقام منهم، و إظهار قدر أوليائه و شرفهم، و تخصيصهم بفضله و بذل نفوسهم له في معاداة من عاداه، و ظهور عزته و قدرته و سطوته و شدة أخذه و أليم عقابه، و أضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق و لو تناهوا في العلم و المعرفة- إلى الإحاطة بها، و نسبة ما عقلوه منها إلى ما خفى عليهم كنفرة عصفور في بحر.

فصل

فصل و أما التزيين فقال تعالى: كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ [الأنعام: ١٠٨]. و قال أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [فاطر: ٨]. و قال: وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام: ٤٣]. أضاف التزيين إليه منه- سبحانه- خلقا- و مشيئة و حذف فاعله تارة- و نسبة إلى سببه و من أجراه على يده تارة. و هذا التزيين منه- سبحانه- حسن، إذ هو ابتلاء و اختبار بعيد؛ ليميز المطيع منهم من العاصي، و المؤمن من الكافر، كما قال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) [الكهف]. و هو من الشيطان قبيح. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٠٧ و أيضا فتزيينه- سبحانه- للعبد عمله السيئ عقوبة منه له على إعراضه عن توحيد و عبوديته، و إثارة سيئ العمل على حسنه، فإنه لا بد أن يعرفه- سبحانه- المسيء من المحسن، فإذا آثر القبيح، و اختاره، و أحبه و رضيه لنفسه زينه الله له، و أعماه عن رؤية قبيحه بعد أن رآه قبيحا. و كل ظالم و فاجر و فاسق لا بد أن يريه الله تعالى ظلمه و فجوره و فسقه قبيحا، فإذا تمادى عليه ارتفعت رؤية قبحه من قلبه فربما رآه حسنا عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه، و هو حجة الله عليه، فإذا تمادى في غيئه و ظلمه ذهب ذلك النور فلم يرقب قبحه في ظلمات الجهل و الفسوق و الظلم. و مع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة و بالتعريف الأول، فتزيين الرب تعالى عدل و عقوبته حكمه، و تزيين الشيطان إغواء و ظلم، و هو السبب الخارج عن العبد، و السبب الداخلة فيه حبه و بغضه. و إعراضه. و الرب- سبحانه- خالق الجميع- و الجميع واقع بمشيئته و قدرته، و لو شاء لهدى خلقه أجمعين. و المعصوم من عصمه الله، و المخذول من خذله الله ألا له الخلق و الأثر تبارك الله رب العالمين [الأعراف: ٥٤].

فصل

فصل و أما عدم مشيئته سبحانه و إرادته فكما قال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ [المائدة: ٤١]. و قال: وَ لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا [السجدة: ١٣] وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ [يونس: ٩٩] و عدم مشيئته للشيء مستلزم لعدم وجوده، كما أن مشيئته تستلزم وجوده، فما شاء الله وجب وجوده، و ما لم يشأ امتنع وجوده. و قد أخبر- سبحانه- أن العباد لا يشاءون إلا بعد مشيئته- و لا يفعلون شيئا إلا بعد مشيئته. فقال: وَ مَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [الإنسان: ٣٠]، وَ مَا يَدْعُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [المدثر: ٥٦]. فإن قيل: فهل يكون الفعل مقدورا للعبد في حال عدم مشيئته الله له أن يفعله؟ قيل: إن أريد بكونه مقدورا سلامة آلة العبد التي يتمكن بها من الفعل، و صحة أعضائه، البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٠٨ و وجود قواه، و تمكينه من أسباب الفعل، و تهيئته طريق فعله، و فتح الطريق له فنعم هو مقدور بهذا الاعتبار. و إن أريد بكونه مقدورا القدرة المقارنة للفعل، و هي الموجبة له التي إذا وجدت لم يتخلف عنها الفعل فليس بمقدور بهذا الاعتبار. و تقرير ذلك أن القدرة نوعان: قدرة مصححة و هي قدرة الأسباب و الشروط و سلامة الآلة، و

هي مناط التكليف، وهذه متقدمة على الفعل غير موجبة له. و قدره مقارنة للفعل مستلزمة له لا يتخلف الفعل عنها، وهذه ليست شرطا في التكليف فلا- يتوقف صحته و حسنه عليها، فإيمان من لم يشأ الله إيمانه، و طاعة من لم يشأ الله طاعته مقدور بالاعتبار الأول غير مقدور بالاعتبار الثاني. و بهذا التحقيق تزول الشبهة في تكليف ما لا يطاق، كما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى. فإذا قيل: هل خلق لمن علم أنه لا يؤمن قدرة على الإيمان، أم لم يخلق له قدرة؟ قيل: خلق له قدرة مصححة متقدمة على الفعل هي مناط الأمر و النهي، و لم يخلق له قدرة موجبة للفعل مستلزمة له لا يتخلف عنها، فهذه فضله يؤتیه من يشاء، و تلك عدله التي تقوم بها حجة على عبده. فإن قيل: فهل يمكنه الفعل: و لم يخلق هذه القدرة؟ قيل: هذا هو السؤال السابق بعينه، و قد عرفت جوابه، و بالله التوفيق.

فصل

فصل و أما إماتة قلوبهم ففي قوله: إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى [النمل: ٨٠] وقوله: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا [الأنعام: ١٢٢]. وقوله: لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا [يس: ٧٠]. وقوله: وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ [فاطر: ٢٢]. فوصف الكافر بأنه ميت، و أنه بمنزلة أصحاب القبور، و ذلك أن القلب الحي هو الذي يعرف الحق، و يقبله و يحبه و يؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس و لا- تمييز البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٠٩ بين الحق و الباطل، و لا إرادة للحق و كراهة للباطل، بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام و الشراب و ألم فقدهما. و كذلك وصف- سبحانه و تعالى- كتابه و وحيه بأنه روح؛ لحصول حياة القلب به، فيكون القلب حيا و يزداد حياة بروح الوحي، فيحصل له حياة على حياة، و نور على نور، نور الوحي على نور الفطرة قال: يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ [غافر: ١٥]. و قال: وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا [الشورى: ٥٢]. فجعله روحا؛ لما يحصل به من الحياة، و نورا لما يحصل به من الهدى و الإضاءة، و ذلك نور و حياة زائدة على نور الفطرة و حياتها، فهو نور على نور، و حياة على حياة. و لهذا يضرب- سبحانه- لمن عدم ذلك مثلا بمستوقد النار التي ذهب عنه ضوءها، و بصاحب الصيب الذي كان حظه منه الصواعق، و الظلمات و الرعد و البرق، فلا استنار بما أوقد من النار، و لا حيي بما في الصيب من الماء. و لذلك ضرب هذين المثلين في سورة الرعد لمن استجاب له فحصل على الحياة و النور و لمن لم يستجب له، و كان حظه الموت و الظلمة، فأخبر عن أمسك عنه نوره بأنه في الظلمة ليس له من نفسه نور، فقال تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضَيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [النور: ٣٥]. ثم ذكر من أمسك عنه هذا النور: و لم يجعله له فقال: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسِيرَابٍ بَقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَ وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) [النور]. و في المسند من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى و من أخطأه ضل فلذلك أقفول جوف القلب هم على علم الله» «١».

(١) أحمد (١٧٦ / ٢)، و قال الشيخ

أحمد شاكر (٦٤٤٤): «إسناده صحيح». البدائع في علوم القرآن، ص: ٣١٠ و قال تعالى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَ مَنْ يَشَأُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) [الأنعام]. و هذه الظلمات ضد الأنوار التي يتقلب فيها المؤمن فإن نور الإيمان في قلبه، و مدخله نور، و مخرجه نور، و علمه نور، و مشيئته في الناس نور، و كلامه نور، و مصيره إلى نور، و الكافر بالضد. و لما كان النور من أسمائه الحسنی و صفاته، كان دينه نوا، و رسوله نورا، و كلامه نورا، و داره نورا يتلأأ، و النور يتوقد في قلوب

عباده المؤمنين، و يجرى على ألسنتهم و يظهر على وجوههم. و كذلك لما كان الإيمان صفته، و اسمه المؤمن لم يعطه إلا أحب خلقه إليه. و كذلك الإحسان صفته، و هو المحسن و يحب المحسنين، و هو صابر يحب الصابرين، شاكِر يحب الشاكِرين، عفو يحب أهل العفو، حيي يحب أهل الحياء، ستير يحب أهل الستر، قوى يحب أهل القوة من المؤمنين، عليم يحب أهل العلم من عباده، جواد يحب أهل الجود، جميل يحب المتجملين، بر يحب الأبرار، رحيم يحب الرحماء، عدل يحب أهل العدل، رشيد يحب أهل الرشد، و هو الذى جعل من يحبه من خلقه كذلك، و أعطاه من الصفات ما شاء، و أمسكها عن يبعضه و جعله على أضدادها، فهذا عدله، و ذاك فضله، و الله ذو الفضل العظيم.

فصل

فصل و أما جعله القلب قاسيا فقال تعالى: فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ [المائدة: ١٣]. و القسوة: الشدة و الصلابة فى كل شىء، يقال: حجر قاس، و أرض قاسية لا تنبت شيئا، قال ابن عباس: قاسية عن الإيمان، و قال الحسن: طبع عليها. و القلوب الثلاثة «١»: قلب قاس؛ و هو اليابس الصلب الذى لا يقبل صورة الحق، و لا

موقوفا (القلوب أربعة: قلب مصفح فذلك قلب المنافق، و قلب أغلف فذلك قلب الكافر، و قلب أجرد كأن فيه سراج يزهو فذاك قلب المؤمن، و قلب فيه نفاق و إيمان، فمثله مثل قرحة يحددها قيح و دم، و مثله شجرة يسقيها ماء خبث و طيب، فأىما غلب عليها غلب) المسند (١٠٧٠٥) عن أبى سعيد و فى كنز العمال و أشار إلى أنه رواه أحمد و الطبرانى فى الأوسط، و ابن أبى شيبه عن حذيفة، موقوفا، و ابن أبى حاتم عن سلمان موقوفا. كنز العمال (١/ ٢٤٤). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣١١ تنطبع فيه، و ضده القلب اللين المتماسك، و هو السليم من المرض الذى لا يقبل صورة الحق بلىنه، و يحفظه بتماسكه، بخلاف المريض الذى لا يحفظ ما ينطبع فيه لمعانه و رخاوته كالمائع الذى إذا طبعت فيه الشىء قبل صورته بما فيه من اللين و لكن رخاوته تمنعه من حفظها، فخير القلوب القلب الصلب الصافى اللين، فهو يرى الحق بصفائه و يقبله بلىنه، و يحفظه بصلابته. و فى المسند و غيره عن النبى صلى الله عليه و سلم: «القلوب آنية الله فى أرضه، فأحبها إليه أصلبها و أرقدها و أصفها» «١». و قد ذكر - سبحانه - أنواع القلوب فى قوله: لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفى شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ [الحج: ٥٣- ٥٤]. فذكر القلب المريض، و هو الضعيف المنحل الذى لا تثبت فيه صورة الحق، و القلب القاسى اليابس الذى لا يقبلها و لا تنطبع فيه، فهذان القلبان شقيان معذبان. ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه، و هو الذى ينتفع بالقرآن و يزكو به. قال الكلبي: فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ فترق للقرآن قلوبهم. و قد بين - سبحانه - حقيقة الإخبات، و وصف المخبتين فى قوله: وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) [الحج: ٣٤- ٣٥]. فذكر للمخبتين أربع علامات؛ و جل قلوبهم عند ذكره - و الوجل: خوف مقرون بهيبه و محبة - و صبرهم على أقداره، و إتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهرا و باطنا، و إحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم. و هذا إنما يتأتى للقلب المخبت، قال ابن عباس: «المخبتين»: المتواضعين، و قال مجاهد: المطمئنين إلى الله، و قال الأخفش: الخاشعين. و قال ابن جرير: الخاضعين. و قال الزجاج: اشتقاقه من الخبت و هو المنخفض من الأرض، و كل مخبت متواضع، فالإخبات سكون الجوارح على وجه التواضع و الخشوع لله. فإن قيل: فإذا كان معناه التواضع و الخشوع فكيف عدى بآلى فى قوله: وَ أَحْبَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ [هود: ٢٣]

(١) انظر حلية الأولياء (١ / ٧٩)، لم نقف إلا على أوله فى أحمد (١٧٧ / ٢). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣١٢ قيل: ضمن معنى أنابوا، و اطمأنوا و تابوا، و هذه عبارات السلف فى هذا الموضوع. و المقصود: أن القلب المخبت ضد القاسى و المريض، و هو سبحانه الذى جعل بعض القلوب مخبتا إليه، و

بعضها قاسيا، وجعل للقسوة آثارا وللإخبات آثارا. فمن آثار القسوة: تحريف الكلم عن مواضعه، وذلك من سوء الفهم، وسوء القصد، وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب، ومنها نسيان ما ذكر به، وهو ترك ما أمر به علما وعملا. ومن آثار الإخبات: وجل القلوب لذكره سبحانه، والصبر على أقداره، والإخلاص في عبوديته، والإحسان إلى خلقه.

فصل

فصل و أما تضيق الصدر، وجعله حرجا لا يقبل الإيمان فقال تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ [الأنعام: ١٢٥]. والحرج: هو الشديد الضيق في قول أهل اللغة جميعهم، يقال: رجل حرج و حرج أى: ضيق الصدر، قال الشاعر: لا حرج الصدر ولا عنيف وقال عبيد بن عمير: قرأ ابن عباس هذه الآية فقال: هل هنا أحد من بنى بكر؟ قال رجل: نعم، ما الحرجة فيكم؟ قالوا: الوادى الكثير الشجر الذى لا طريق فيه. فقال ابن عباس: كذلك قلب الكافر. و قرأ عمر بن الخطاب الآية فقال: ايتونى رجلا- من كنانة، وجعلوه راعيا فأتوه به، فقال عمر: يا فتى ما الحرجة فيكم؟ فقال: الشجرة تحدث بها الأشجار الكثيرة فلا- تصل إليها راعية ولا وحشية، فقال عمر: كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شىء من الخير. قال ابن عباس: يجعل صدره ضيقا حرجا، إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه، وإن ذكر شىء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك. ولما كان القلب محلا للمعرفة والعلم والمحبة والإنابة، وكانت هذه الأشياء إنما تدخل فى القلب إذا اتسع لها، فإذا أراد الله هداية عبد وسع صدره و شرحه فدخلت فيه وسكنته، وإذا أراد ضلاله ضيق صدره، وأحرجه فلم يجد محلا يدخل فيه فيعدل عنه، ولا يساكنه. وكل إناء فارغ إذا دخل فى الشىء ضاق به، وكلما أفرغت فيه الشىء ضاق، إلا القلب البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣١٣ اللين، فكلما أفرغ الإيمان والعلم اتسع وانفسح، وهذا من آيات قدرة الرب تعالى. وفى الترمذى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم: «إذا دخل النور القلب انفسح و انشرح» قالوا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله» «١». فشرح الصدر من أعظم أسباب الهدى، وتضييقه من أسباب الضلال، كما أن شرحه من أجل النعم، وتضييقه من أعظم النقم، فالمؤمن منشرح الصدر منفسحه فى هذه الدار على ما ناله من مكروهها، وإذا قوى الإيمان وخالطت بشاشته القلوب كان على مكارها أشرح صدر منه على شهواتها ومحابها. فإذا فارقها كان انفساح روحه والشرح الحاصل له لفراقها أعظم بكثير، كحال من خرج من سجن ضيق إلى فضاء واسع موافق له، فإنها سجن المؤمن، فإذا بعثه الله يوم القيامة رأى من انشراح صدره وسعته ما لا نسبة لما قبله إليه، فشرح الصدر كما أنه سبب الهداية فهو أصل كل نعمة، وأساس كل خير. وقد سأل كلهم الرحمن موسى بن عمران ربه أن يشرح له صدره؛ لما علم أنه لا يتمكن من تبليغ رسالته والقيام بأعبائها إلا إذا شرح له صدره. وقد عدد- سبحانه- من نعمه على خاتم أنبيائه ورسله شرح صدره له، وأخبر عن أتباعه أنه شرح صدورهم للإسلام. فإن قلت: فما الأسباب التى تشرح الصدر و التى تضييقه؟ قلت: السبب الذى يشرح الصدر: النور الذى يقذفه الله فيه، فإذا دخله ذلك النور أثار و انشرح. فإن قلت: فهل يمكنه اكتساب هذا النور أم هو وهبى؟ قلت: هو وهبى وكسبى: واكتسابه أيضا مجرد موهبة من الله تعالى فالأمر كله لله والحمد كله له و الخير كله بيديه، وليس مع العبد من نفسه شىء البتة، بل الله واهب الأسباب ومسبباتها وجاعلها أسبابا، ومانحها من يشاء، و مانعها من يشاء، إذا أراد بعبده خيرا وفقه لاستفراغ وسعته، وبذل جهده فى الرغبة، والرغبة إليه؛ فإنهما مادتا التوفيق فبقدر قيام الرغبة والرغبة فى القلب يحصل التوفيق. فإن قلت: فالرغبة والرغبة بيده لا بيد العبد.

(١) انظر: الدرر المنتور (٣/ ٤٤) و عزاه لعبد بن حميد، و لم نقف عليه فى الترمذى. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣١٤ قلت: نعم والله، وهما مجرد فضله و منته، وإنما يجعلهما فى المحل الذى يليق بهما و يحبسهما عن لا يصلح لهما، فإن قلت: فما ذنب من لا يصلح؟ قلت: أكثر ذنوبه أنه لا يصلح؛ لأن صلاحيته بما اختاره لنفسه و أثره و أحبه من الضلال و الغى على بصيرة من أمره، فأثر هواه على حق ربه و مرضاته، استحسب

العمى على الهدى، و كان كفر المنعم عليه بصنوف النعم و جحد إلهيته و الشرك به و السعى في مساخطه أحب إليه من شكره و توحيدده و السعى في مرضاته، فهذا من عدم صلاحيته لتوفيق خالقه و مالكة، و أى ذنب فوق هذا؟ فإذا أمسك الحكم العدل توفيقه عن هذا شأنه كان قد عدل فيه و انسدت عليه أبواب الهداية، و طرق الرشاد فأظلم قلبه فضاقت عن دخول الإسلام و الإيمان فيه، لو جاءت كل آية لم تزده إلا ضلالا و كفرا. و إذا تأمل من شرح الله صدره للإسلام و الإيمان هذا الآية، و ما تضمنته من أسرار التوحيد و القدر و العدل و عظمة شأن الربوبية صار لقلبه عبودية أخرى، و معرفة خاصة، و علم أنه عبد من كل وجه و بكل اعتبار، و أن الرب تعالى رب كل شىء و مليكه من الأعيان و الصفات الأفعال، و الأمر كله بيده و الحمد له و أزمنة الأمور بيده و مرجعها كلها إليه. و لهذه الآية شأن فوق عقولنا و أجل من أفهامنا، و أعظم مما قال فيها المتكلمون الذين ظلموها معناها، و أنفسهم كانوا يظلمون تالله لقد غلظ عنها حجابهم و كثفت عنها أفهامهم، و منعتهم من الوصول إلى المراد بها أصولهم التي أصلوها و قواعدهم التي أسسوها. فإنها تضمنت إثبات التوحيد و العدل الذى بعث الله به رسله و أنزل به كتبه، لا التوحيد و العدل الذى يقوله معطلو الصفات، و نفاة القدر. و تضمنت إثبات الحكمة و القدرة و الشرع و القدر و السبب و الحكم و الذنب و العقوبة ففتحت للقلب الصحيح بابا واسعاً من معرفة الرب تعالى بأسمائه، و صفات كماله، و نعوت جلاله، و حكمته فى شرعه، و قدره، و عدله فى عقابه، و فضله فى ثوابه. و تضمنت كمال توحيدده و ربوبيته و قيوميته و إلهيته، و أن مصادر الأمور كلها عن محض إرادته و مردها إلى ممال حكمته، و أن المهدى من خصه الله بهدايته- و شرح صدره لدينه و شريعته، و أن الضال من جعل صدره ضيقاً حرجاً عن معرفته، و محبته، كأنما يتصاعد فى السماء، و ليس ذلك فى قدرته، و أن ذلك عدل فى عقوبته لمن لم يقدره حق قدره و جحد كمال ربوبيته، و كفر بنعمته، و آثر عبادة الشيطان على عبوديته، فسد عليه باب توفيقه و هدايته البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣١٥ و فتح عليه أبواب غيه و ضلاله فضاقت صدره، و قسا قلبه و تعطلت من عبودية ربها جوارحه، و امتلأت بالظلمة جوانحه. و الذنب له حيث أعرض عن الإيمان، و استبدل به الكفر و الفسوق و العصيان، و رضى بموالاة الشيطان، و هانت عليه معاداة الرحمن، فلا يحدث نفسه بالرجوع إلى مولاه، و لا يعزم يوماً عن إقلاعه عن هواه، قد ضاد الله فى أمره، بحب ما يبغضه و يبغض ما يحبه، و يوالى من يعاديه، و يعادى من يواليه، يغضب إذا رضى الرب، و يرضى إذا غضب. هذا و هو يتقلب فى إحسانه، و يسكن فى داره، و يتغذى برزقه، و يتقوى على معاصيه بنعمه، فمن أعدل منه- سبحانه- عما يصفه به الجاهلون و الظالمون إذا جعل الوحي على أمثال هذا من الذين لا يؤمنون.

فصل

فصل و إذا شرح الله صدر عبده بنوره الذى يقذفه فى قلبه أراه فى ضوء ذلك النور حقائق الأسماء و الصفات التى تضل فيها معرفة العبد إذ لا يمكن أن يعرفها العبد على ما هى عليه فى نفس الأمر. و أراه فى ضوء ذلك النور حقائق الإيمان، و حقائق العبودية، و ما يصحها، و ما يفسدها، و تفاوتت معرفة الأسماء و الصفات، و الإيمان و الإخلاص و أحكام العبودية بحسب تفاوتهم فى هذا النور. قال تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا [الأنعام: ١٢٢]. و قال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ [الحديد: ٢٨]. فيكشف لقلب المؤمن فى ضوء ذلك النور عن حقيقة المثل الأعلى مستويا على عرش الإيمان فى قلب العبد المؤمن، فيشهد بقلبه ربا عظيما قاهرا قادرا أكبر من كل شىء فى ذاته و فى صفاته و فى أفعاله. السموات السبع قبضة إحدى يديه، و الأرضون السبع قبضة اليد الأخرى، يمسك السموات على إصبع، و الأرضين على إصبع، و الجبال على إصبع و الشجر على إصبع، و الثرى على إصبع، ثم يهزهن ثم يقول: «أنا الملك» (١) البخارى

(٧٥١٣) فى التوحيد، باب: كلام الرب عز و جل يوم القيامة مع الأنبياء و غيرهم، و مسلم (١٩ / ٢٧٨٦) فى صفات المنافقين، باب: صفة القيامة و الجنة و النار. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣١٦ فالسموات السبع فى كفه كخردلة فى كف العبد، يحيط و لا يحاط به، و

يحصر خلقه ولا- يحصرونه، و يدركهم ولا- يدركونه، لو أن الناس من لدن آدم إلى آخر الخلق قاموا صفا واحدا ما أحاطوا به- سبحانه. ثم يشهده في علمه فوق كل عليم، و في قدرته فوق كل قدير، و في جوده فوق كل جواد، و في رحمته فوق كل رحيم، و في جماله فوق كل جميل، حتى لو كان جمال الخلائق كلهم على شخص واحد منهم ثم أعطى الخلق كلهم مثل ذلك الجمال لكانت نسبتبه إلى جمال الرب- سبحانه- دون نسبة سراج ضعيف إلى ضوء الشمس. و لو اجتمعت قوى الخلائق على شخص واحد منهم ثم أعطى كل منهم مثل تلك القوة لكانت نسبتها إلى قوته- سبحانه- دون نسبة قوة البعوضة إلى حمله العرش. و لو كان جودهم على رجل واحد، و كل الخلائق على ذلك الجود لكانت نسبتبه إلى جوده دون نسبة قطرة إلى البحر. و كذلك علم الخلائق إذا نسب إلى علمه كان كنفرة عصفور من البحر. و كذلك سائر صفاته كحياته و سمعه و بصره و إرادته، فلو فرض البحر المحيط بالأرض مدادا تحيط به سبعة أبحر، و جميع أشجار الأرض شيئا بعد شيء أقلاما لفنى ذلك المداد و الأقلام و لا تفنى كلماته و لا تنفذ، فهو أكبر في عمله من كل عالم، و في قدرته من كل قادر، و في جوده من كل جواد، و في غناه من كل غني، و في علوه من كل عال، و في رحمته من كل رحيم. استوى على عرشه، و استولى على خلقه، منفرد بتدبير مملكته، فلا قبض، و لا بسط و لا منع، و لا هدى، و لا ضلال، و لا سعادة، و لا شقاوة، و لا موت، و لا حياة، و لا نفع و لا ضرر إلا بيده، لا مالك غيره، و لا مدبر سواه، لا يستقل أحد معه بملك مثقال ذرة في السموات و الأرض، و لا- له شركة في ملكها. و لا- يحتاج إلى وزير، و لا ظهير، و لا معين، و لا يغيب فيخلفه غيره، و لا يعي فيعيه سواه، و لا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه لمن شاء و فيمن شاء. فهو أول مشاهد المعرفة ثم يترقى منه إلى مشهد فوقه لا يتم إلا به، و هو مشهد الإلهية فيشهد- سبحانه- متجليا في كماله بأمره و نهييه- و وعده و وعيده، و ثوابه و عقابه، و فصله في ثوابه، فيشهد ربا قيوما، متكلمنا آمرا ناهيا، يحب و يبغض، و يرضى و يغضب. قد أرسل رسله، و أنزل كتبه، و أقام على عباده الحجة البالغة، و أتم عليهم نعمته السابعة، يهدي من البدائع في علوم القرآن، ص: ٣١٧ يشاء منه نعمه و فضلا، و يضل من يشاء حكمه منه و عدلا، ينزل إليهم أوامره، و تعرض عليه أعمالهم. لم يخلقهم عبثا، و لم يتركهم سدى، بل أمره جار عليهم في حركاتهم و سكناتهم و ظواهرهم و بواطنهم، فله عليهم حكم و أمر في كل تحريكه و تسكينه و لحظه و لفظه. و ينكشف له في هذا النور عدله و حكمته و رحمته و لطفه و إحسانه، و بره في شرعه و أحكامه، و أنها أحكام رب رحيم محسن لطيف حكيم، قد بهرت حكمته العقول، و أقرت بها الفطر، و شهدت لمنزلها بالوحدانية، و لمن جاء بها بالرسالة و النبوة. و ينكشف له في ضوء ذلك النور إثبات صفات الكمال و تنزيهه، سبحانه- عن النقص و المثال، و أن كل كمال في الوجود فمعطيه و خالقه أحق به أولى، و كل نقص و عيب فهو- سبحانه- منزّه متعال عنه. و ينكشف له في ضوء هذا النور حقائق المعاد و اليوم الآخر، و ما أخبر به الرسول عنه حتى كأنه يشاهده عيانا، و كأنه يخبر عن الله و أسمائه و صفاته و أمره و نهييه و وعده و وعيده إخبار من كأنه قد رأى و عاين و شاهد ما أخبر به. فمن أراد- سبحانه- هدايته شرح صدره لهذا فاتسع له و انفسح، و من أراد ضلالته جعل صدره من ذلك في ضيق و حرج لا يجد فيه مسلكا، و لا- منفذا، و الله الموفق المعين. و هذا الباب يكفى اللبيب في معرفة القدر و الحكمة، و يطلعه على العدل و التوحيد اللذين تضمنهما قوله: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) [آل عمران ١٨].

السلطان في القرآن

السلطان في القرآن قال ابن عباس رضى الله عنه: كل سلطان في القرآن فهو حجة، و هذا كقوله تعالى: قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) [يونس]، يعنى: ما عندكم من حجة بما قلتم إن هو إلا قول على الله بلا علم؛ و قال تعالى: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ [النجم: ٢٣]، يعنى ما أنزل بها حجة و لا- برهاننا بل هي من تلقاء أنفسكم و آبائكم؛ و قال تعالى: أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا

بِكْتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) [الصفات] . يعني حجة واضحة فأتوا بها إن كنتم صادقين في دعواكم. إلا- موضعا
(١) شفاء العليل (١ / ٢٢٥ - ٢٨١).

البدائع في علوم القرآن، ص: ٣١٨ واحدا اختلف فيه و هو قوله: ما أَعْنَى عَنَى مَالِيَهُ (٢٨) هَلَكَ عَنَى سُلْطَانِيَهُ (٢٩) [الحاقه]، فقيل:
المراد به القدرة و الملك أى: ذهب عنى مالى و ملكى فلا مال لى و لا سلطان. و قيل: هو على بابه أى: انقطعت حجتى و بطلت فلا
حجة لى. و المقصود أن الله- سبحانه- سمي علم الحجة سلطانا لأنها توجب تسلط صاحبها و اقتداره فله بها سلطان على الجاهلين بل
سلطان العلم أعظم من سلطان اليد؛ و لهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب و أما اليد فإنما ينقاد لها
البدن، فالحجة تأسر القلب و تقوده و تذل المخالف و إن أظهر العناد المكابرة، فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها، بل سلطان
الجاه إن لم يكن معه علم يستاس به فهو بمنزلة سلطان السباع و الأسود، و نحوها قدرة بلا علم و لا رحمة، بخلاف سلطان الحجة فإنه
قدرة بعلم و رحمة و حكمه، و من لم يكن له اقتدار فى علمه فهو إما لضعف حجته و سلطانه و إما لقهر سلطان اليد و السيف له، و إلا
فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له «١». و أيضا لما كان الغضب مركب الشيطان، فتعاون النفس الغضبية و الشيطان على
النفس المطمئنة التى تأمر بدفع الإساءة بالإحسان، أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه. فتمد الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة
جيش النفس الغضبية، و يأتى مدد الصبر الذى يكون النصر معه، و جاء مدد الإيمان و التوكل، فأبطل سلطان الشيطان، ف إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ
سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) [النحل] . قال مجاهد و عكرمة و المفسرون: ليس له حجة. و الصواب: أن يقال:
ليس له طريق يتسلط به عليهم، و لا من جهة الحجة، و لا من جهة القدرة. و القدرة داخله فى مسمى السلطان، و إنما سميت الحجة
سلطانا لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده، قد أخبر- سبحانه- أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين و المتوكلين،
فقال فى سورة الحجر: قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قال هذا
صراطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) [الحجر]. و قال فى سورة النحل: إِنَّهُ لَيْسَ
لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩)

(١) مفتاح دار السعادة (٦٣ - ٦٤).

البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣١٩ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) [النحل] . فتضمن ذلك أمرين:
أحدهما: نفى سلطانه و إبطاله على أهل التوحيد و الإخلاص و الثانى: إثبات سلطانه على أهل الشرك و على من تولاه. و لما علم
عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد و الإخلاص قال: قَالَ فِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [ص:
٨٢-٨٣]. فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله، عز و جل، و أخلص له و توكل عليه، لا- يقدر على إغوائه و إضلاله، و إنما يكون له
السلطان على من تولاه و أشرك مع الله، فهؤلاء رعيته فهو وليهم و سلطانهم و متبوعهم. فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه فى
هذا الموضع، فكيف ينفى فى قوله: وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيْقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) و ما كان له عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا
لِنَعْلَمَ مَنْ يَأْتِيهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ [سبأ: ٢٠-٢١]. و قيل: إن كان الضمير فى قوله: و ما كان له عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ عائدا
على المؤمنين فالسؤال ساقط، و يكون الاستثناء منقطعا: أى لكن امتحانهم بإبليس، لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك، و
إن كان عائدا على ما عاد عليه فى قوله: وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ وَ هُوَ الظاهر، ليصح الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفى،
و يكون المعنى: و ما سلطناه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة. قال ابن قتيبة: إن إبليس لما سأل الله تعالى النظره فأنظره قال: لأغوينهم
و لأضلنهم و لآمرنهم بكذا، و لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا «١» و ليس هو فى وقت هذه المقالة. مستيقنا أن ما قدره فيه يتم، و
إنما قال طانا، فلما اتبعوا و أطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم، فقال تعالى: و ما كان تسلطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكين، يعنى
نعلمهم موجودين ظاهرين فيحق القول و يقع الجزاء. و على هذا فيكون السلطان هاهنا على من لم يؤمن بالآخرة و شك فيها، و هم
الذين تولوه و أشركوا به، فيكون السلطان ثابتا لا- منفيًا، فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات.

(١) قال تعالى في سورة النساء: إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمْرُنُهُمْ فَالْيَتَكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَأَمْرُنُهُمْ فَلَيَعْيُرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩).

البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٢٠ فإن قيل: فما تصنع بالتي في سورة إبراهيم، حيث يقول لأهل النار وما كان لي عليكم من سلطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي [إبراهيم: ٢٢]، وهذا وإن كان قوله فالله - سبحانه - أخبر به عنه مقررًا له، لا - منكرًا، فدل على أنه كذلك. قيل: هذا سؤال جيد، و جوابه: أن السلطان المنفي في هذا الموضوع: هو الحجّة و البرهان، أي: ما كان لي عليكم من حجّة و برهان أحتج به عليكم، كما قال ابن عباس: ما كان لي من حجّة أحتج بها عليكم. أي: ما أظهرت لكم حجّة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، و صدقتم مقاتلي، و اتبعتموني بلا برهان و لا حجّة. و أما السلطان الذي أثبتته في قوله: إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ فهو تسلطه عليهم بالإغواء و الإضلال و تمكنه منهم، بحيث يؤزهم إلى الكفر و الشرك و يزعجهم إليه، و لا يدعهم يتركونه، كما قال تعالى أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) [مريم: ٨٣] قال ابن عباس: تغريهم إغراء. و في رواية: تسليهم إشلاء «١». و في لفظ: تحرضهم تحريضا. و في آخر: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجا. و في آخر: توقدهم: أي تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته. قال الأئمة: توهجهم. و حقيقة ذلك أن (الأز) هو التحريك و التهيج، و منه يقال لغيلان القدر: الأزيز: لأن الماء يتحرك عند الغليان. و منه الحديث: «لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء» «٢» قال أبو عبيدة: «الأزيز» الانتهاب و الحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال أزدرك، أي ألهب تحتها بالنار؛ و أيزت القدر إذا اشتد غليانها، فقد حصل للأز معنيان: أحدهما: التحريك، و الثاني: الإيقاد و الإلهاب، و هما متقاربان فإنه تحريك خاص بإزعاج و إلهاب. فهذا من السلطان الذي له على أوليائه و أهل الشرك، و لكن ليس له على ذلك حجّة و برهان، و إنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم، لما وافقت أهواءهم و أغراضهم فهم الذين أعانوا على أنفسهم و مكثوا عدوهم من سلطانه عليهم، بموافقتهم و متابعتهم فلما أعطوا بأيديهم و استأسروا له سلط عليهم، عقوبة لهم. و بهذا يظهر معنى قوله سبحانه: وَ لَئِنْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا [النساء: ١٤١].

(١) قال ابن جرير قال ابن زيد: تَوَزُّهُمْ أَزًّا فقرا: وَ مِمَّنْ يَعْتَشُرُ عَيْنَ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهَيَّوْ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) قال تَوَزُّهُمْ أَزًّا: تسليهم إشلاء على معاصي الله تبارك و تعالى و تغريهم عليها كما يغري الإنسان الآخر على الشيء ا. ه. في القاموس: أشلى دابته: أراها المخلاة لتأنيه، و النافق: دعاها للحلب. (٢) رواه الإمام أحمد و أبو داود و النسائي و الترمذي - و صححه - و ابن حبان و ابن خزيمة: عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: رأيت النبي صلى الله عليه و سلم يصلي و صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٢١ فالآية على عمومها و ظاهرها، و إنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية و المخالفة التي تضاد الإيمان، ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تسببوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسببوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول و مخالفته. و الله - سبحانه - لم يجعل للشيطان على العبد سلطانا، حتى جعل له العبد سبيلا إليه بطاعته و الشرك به، فجعل الله حينئذ له عليه تسلط و قهرا، فمن وجد خيرا فليحمد الله تعالى، و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. فالتوحيد و التوكل و الإخلاص يمنع سلطانه، و الشرك و فروعه يوجب سلطانه، و الجميع بقضاء من أزمة الأمور بيده، و مردها، و له الحجّة البالغة، فلو شاء لجعل الناس أمه واحدة، و لكن أبت حكمته و حمده و ملكه إلا ذلك: فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) [الباقية] «١».

السمع في القرآن

السمع في القرآن و السمع يراد به إدراك الصوت، و يراد به فهم المعنى، و يراد به القبول و الإجابة. و الثلاثة في القرآن. فمن الأول:

قوله: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) [المجادلة]. وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع لله، ذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل، سمع و يسمع وهو سميع وله السمع، كما قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في جانب البيت، وإنه ليخفي عليّ بعض كلامها، فأنزل الله: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا (٢). والثاني: سمع الفهم، كقوله: وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ أَى: لأفهمهم وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) [الأنفال] لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق، ففيهم آفتان، إحداهما: أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم، ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب (١) إغاثة اللهفان (١).

٩٨ - ١٠١). (٢) البخارى معلقا (الفتح ١٣ / ٣٧٢) فى التوحيد، باب: وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا، والنسائي (٣٤٦٠) فى الطلاق، باب: الظهار، و ابن ماجه (١٨٨) فى المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، أحمد (٤٦ / ٦). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٢٢ والثالث: سمع القبول والإجابة: كقوله تعالى: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) [التوبة: ٤٧]، أى قابلون مستجيبون، ومنه قوله: سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ [المائدة: ٤٢] أى قابلون له مستجيبون لأهله، ومنه قول المصلى: «سمع الله لمن حمد»، أى أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه. وقول النبى صلى الله عليه وسلم: «إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمد، فقولوا: ربنا ولك الحمد، يسمع الله لكم» (١) أى يجيبكم (٢).

الصبر فى القرآن

الصبر فى القرآن قال الإمام أحمد - رحمه الله: ذكر الله - سبحانه - الصبر فى القرآن فى تسعين موضعا. ونحن نذكر الأنواع التى سيق فيها الصبر، وهى عدة أنواع: أحدها: الأمر به كقوله: وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ [النحل: ١٢٧]. وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ [الطور: ٤٨]. الثانى: النهى عما يضاده، كقوله: وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا [آل عمران: ١٣٩]، وقوله: وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ [القلم: ٤٨]. وبالجملة فكل ما نهى عنه فإنه يضاد الصبر المأمور به. الثالث: تعليق الفلاح به كقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا [آل عمران: ٢٠٠] فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور. الرابع: الإخبار عن مضاعفة أجر الصابرين على غيره كقوله: أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا [القصص: ٥٤]، وقوله: إِنَّمَا يُؤَفِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [الزمر: ١٠] قال سليمان بن القاسم: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله تعالى: إِنَّمَا يُؤَفِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [الزمر: ١٠]، قال: كالماء المنهمر. الخامس: تعليق الإمامة فى الدين به وباليقين، قال الله تعالى: وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) [السجدة] فبالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين.

(١) البخارى (٧٩٦) فى الأذان، باب: فضل: «اللهم ربنا لك الحمد» و مسلم (٧١ / ٤٠٩) فى الصلاة، باب: التسمع والتحميد والتأمين. (٢) مفتاح دار السعادة (٨٥ - ٨٦). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٢٣ السادس: ظفرهم بمعية الله - سبحانه - لهم، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [الأنفال: ٤٦]. قال أبو على الدقاق: فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله معيته. السابع: أنه جمع للصابرين ثلاثة أمور لهم يجمعها لغيرهم، وهى: الصلاة منه عليهم، و رحمته لهم، و هدايته إياهم؛ قال تعالى: وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) [البقرة]. قال بعض السلف: و قد عزی على مصيبة نالته، فقال: ما لى لا أصبر و قد وعدنى الله على الصبر ثلاث خصال كل خصلة منها خير من الدنيا و ما عليها. الثامن: أنه - سبحانه - جعل الصبر عونا و عدة، و أمر بالاستعانة به، فقال، وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ [البقرة: ٤٥]، فمن لا صبر له لا عون له. التاسع: أنه سبحانه - علق النصر بالصبر و التقوى، فقال تعالى: بلى إن تصبروا و تقفوا و يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة

مُسَوِّمِينَ (١٢٥) [آل عمران] قال النبي صلى الله عليه وسلم: «واعلم أن النصر مع الصبر». العاشر: أنه - سبحانه - جعل الصبر والتقوى جنه عظيمه من كيد العدو ومكره، فما استجن العبد من ذلك جنه أعظم منهما، قال تعالى: وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَإِيَّائِكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا [آل عمران: ١٢٠]. الحادى عشر: أنه - سبحانه - أخبر أن ملائكته تسلم عليهم فى الجنة بصبرهم كما قال: وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) [الرعد]. الثانى عشر: أنه - سبحانه - أباح لهم أن يعاقبوا على ما عوقبوا به، ثم أقسم قسما مؤكدا غاية التأكيد أن صبرهم خير لهم فقال: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) [النحل]. فتأمل هذا التأكيد بالقسم المدلول عليه بالواو ثم باللام بعده ثم باللام التى فى الجواب. الثالث عشر: أنه - سبحانه - رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) [هود]. وهؤلاء ثنية الله «١» من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة، والفرح والفخر عند النعمة، ولا - خلاص من هذا الذم إلا - بالصبر والعمل الصالح، كما لا - تنال المغفرة والأجر الكبير إلا - بهما. (١) ثنية الله: أى الذين استثناهم الله.

البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٢٤ الرابع عشر: أنه - سبحانه - جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور، أى مما يعزم من الأمور التى إنما يعزم على أجلها وأشرفها فقال: وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) [الشورى]، وقال لقمان لابنه: وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [لقمان: ١٧]. الخامس عشر: أنه - سبحانه - وعد المؤمنين بالنصر والظفر، وهى كلمته التى سبقت لهم وهى الكلمة الحسنى، وأخبر أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر، فقال تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا [الأعراف: ١٣٧]. السادس عشر: أنه - سبحانه - علق محبته بالصبر وجعلها لأهله فقال: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) [آل عمران]. السابع عشر: أنه سبحانه - قال عن خصال الخير: إنه لا يلقاها إلا الصابرون، فى موضعين من كتابه، فى سورة القصص فى قصة قارون، وأن الذين أوتوا العلم قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتى: وَيُؤْتِيكُمْ ثَوَابَ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) [القصص: ٨٠]. وفى سورة حم السجدة، حيث أمر العبد أن يدفع بالتى هى أحسن، فإذا فعل ذلك صار الذى بينه وبينه عداوة حبيب قريب، ثم قال: وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) [فصلت]. الثامن عشر: أنه - سبحانه - أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور، فقال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) [إبراهيم: ٥]، وقال تعالى فى لقمان ألم تر أن الفلک تجرى فى البحر ينعمت الله ليربيكم من آياته إن فى ذلك لآيات لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) [لقمان]، وقال فى قصة سبأ: فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْفَأَهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [سبأ: ١٩]، وقال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنَّ يَشَأُ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) [الشورى]. فهذه أربع مواضع فى القرآن تدل على أن آيات الرب إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر. التاسع عشر: أنه أثنى على عبده أيوب بأحسن الثناء على صبره فقال: إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ [ص: ٤٤]، فأطلق عليه نعم العبد بكونه وجده صابرا. وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلى فإنه بش العبد. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٢٥ العشرون: أنه - سبحانه - حكم بالخسران حكما عاما على كل من لم يؤمن من أهل الحق والصبر، وهذا يدل على أنه لا رابح سواهم فقال تعالى: وَالْعَصِيرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) [سورة العصر]. ولهذا قال الشافعى: لو فكر الناس كلهم فى هذه الآية لوسعتهم، وذلك أن العبد كماله فى تكميل قوته: قوة العلم وقوة العمل، وهما الإيمان والعمل الصالح، وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره، وهو التواصى بالحق والتواصى بالصبر وأخيه ذلك وقاعدته وساقه الذى يقوم عليه إنما هو الصبر. الحادى والعشرون: أنه - سبحانه - خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بهما غيرهم، فقال تعالى: ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا

بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) [البلد]. وهذا حصر لأصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصفان، و الناس بالنسبة إليهما أربعة أقسام هؤلاء خير الأقسام، و شرهم من لا صبر له و لا رحمة فيه، و يليه من له صبر و لا رحمة عنده، و يليه القسم الرابع و هو من له رحمة و رقة و لكن لا صبر له. الثاني و العشرون: أنه- سبحانه- قرن الصبر بأركان الإسلام و مقامات الإيمان كلها، فقرنه بالصلاة، كقوله: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ [البقرة: ٤٥]. و قرنه بالأعمال الصالحة عموماً، كقوله: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ [هود: ١١] و جعله قرين التقوى، كقوله: إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ [يوسف: ٩٠]. و جعله قرين الشكر كقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [إبراهيم: ٥] و جعله قرين الحق، كقوله: وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ [العصر: ٣]. و جعله قرين الرحمة، كقوله: وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ [البلد: ١٧]. و جعله قرين اليقين كقوله: لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ [السجدة: ٢٤]. و جعله قرين الصدق كقوله: وَالصَّادِقِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ [الأحزاب: ٣٥]. و جعله سبب محبته و معيته و نصره و عونه و حسن جزائه، و يكفي بعض ذلك شرفاً و فضلاً، و الله أعلم «١».

(١) عدة الصابرين (٧١-٧٦). البدائع

في علوم القرآن، ص: ٣٢٦

صلاة الله عز و جل على عباده في القرآن

صلاة الله عز و جل على عباده في القرآن صلاة الله سبحانه نوعان: عامة، و خاصة: أما العامة: فهي صلاته على عباده المؤمنين قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ [الأحزاب: ٤٣] و منه دعاء النبي صلى الله عليه و سلم بالصلاة على آحاد المؤمنين كقوله: «اللهم صل على آل أبي أوفى» «١» و في حديث آخر أن امرأة قالت له: صل على و علي زوجي. قال: «صلى الله عليك و علي زوجك» «٢». النوع الثاني: صلاته الخاصة: على أنبيائه و رسله خصوصاً على خاتمهم و خيرهم محمد صلى الله عليه و سلم. فاختلف الناس في معنى الصلاة منه سبحانه على أقوال: أحدها: أنها رحمته. قال إسماعيل: حدثنا نصر بن علي، حدثنا محمد بن سواء، عن جوير، عن الضحاك قال: صلاة الله رحمته، و صلاة الملائكة: الدعاء. و قال المبرد: أصل الصلاة الرحمة، فهي من الله رحمة، و من الملائكة رحمة، و استدعاء الرحمة من الله. و هذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين. و القول الثاني: أن صلاة الله مغفرته. قال إسماعيل: ثنا محمد بن أبي بكر، ثنا محمد بن سواء، عن جوير، عن الضحاك هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ، قال: صلاة الله مغفرته، و صلاة الملائكة الدعاء- و هذا القول هو من جنس الذي قبله و هما ضعيفان لوجوه: أحدها: أن الله- سبحانه- فرق بين صلاته على عباده و رحمته فقال: وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٥٧) [البقرة] فعطف الرحمة على الصلاة فافتضى ذلك تغايرهما، هذا أصل العطف و أما قولهم: و ألقى قولها كذبا و مينا (١)

البخارى (٦٣٥٩) في الدعوات، باب: هل يصلى على غير النبي صلى الله عليه و سلم. (٢) أبو داود (١٥٣٣) في الصلاة، باب: الصلاة على غير النبي صلى الله عليه و سلم. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٢٧ فهو شاذ نادر لا يحمل عليه أفصح الكلام مع أن المين أخص من الكذب. الوجه الثاني: أن صلاة الله- سبحانه- خاصة بأنبيائه و رسله و عباده المؤمنين، و أما رحمته فوسعت كل شيء، فليست الصلاة مرادفة للرحمة، لكن الرحمة من لوازم الصلاة و موجباتها و ثمراتها، فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمرتها و مقصودها، و هذا كثيرا ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن، و الرسول صلى الله عليه و سلم يفسر اللفظة بلازمها و جزء معناها كتفسير الريب بالشك، و الشك جزء مسمى الريب، و تفسير المغفرة بالستر، و هي جزء مسمى المغفرة، و تفسير الرحمة بإرادة الإحسان، و هو لازم الرحمة و نظائر ذلك كثيرة قد ذكرناها في أصول التفسير «١».

الفاجر في عرف القرآن

الفاجر في عرف القرآن واسم الفاجر في عرف القرآن والسنة يتناول الكافر قطعاً، كقوله، تعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) [الانفطار] وقوله تعالى: كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) [المطففين]، وفي لفظ آخر في حديث البراء: «إن الكافر إذا كان في الآخرة و انقطع من الدنيا نزل إليه ملائكة شداد غضاب معهم ثياب نار و سراويل من قطران فيحتوشونه، فتترع روحه كما يترع السفود الكثير الشعب من صفوف المبتل، فإذا أخرجت لعنه كل ملك بين السماء والأرض و كل ملك في السماء» (٢) «٣».

القضاء والحكم والإرادة والكتابة والأمر والإذن والجعل والكلمات والبعث والإرسال والتحريم والإنشاء في القرآن و بيان انقسامها إلى كوني و ديني

القضاء والحكم والإرادة والكتابة والأمر والإذن والجعل والكلمات والبعث والإرسال والتحريم والإنشاء في القرآن و بيان انقسامها إلى كوني و ديني ما كان من الكوني فهو متعلق بربوبيته و خلقه. و ما كان من الديني فهو متعلق بالهيته؟ و شرعه. و هو كما أخبر عن نفسه- سبحانه- له الخلق و الأمر، فالخلق قضاءؤه و قدره و فعله. و الأمر شرعه و دينه، فهو الذي خلق و شرع و أمر و أحكامه جارِيه على خلقه قـدرا و شرعا، و لا— خروج لأحد عن حكمه الكـوني القـدري.

(١) جلاء الإفهام (٨٢، ٨٣). (٢) أبو داود (٤٧٥٣) في السنة، باب: في المسائل في القبر و في عذاب القبر، و أحمد (٢٨٧ /٤)، و قال الهيثمي في المجمع (٥٣ /٥): «رجال أحمد رجال صحيح». (٣) الروح (٨٥). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٢٨ و أما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار و الفساق، و الأمران غير متلازمين. فقد يقضى و يقدر ما لا يأمره به و لا يشرعه، و قد يشرع و يأمر بما لا يقضيه و لا يقدره. و يجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده و إيمانهم، و ينتفى الأمران عما لم يقع من المعاصي و الفسق و الكفر. و ينفرد القضاء الديني و الحكم الشرعي في ما أمر به و شرعه و لم يفعله المأمور، و ينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي. إذا عرف ذلك فالقضاء في كتاب الله نوعان: كوني قدري، كقوله تعالى: فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ [سبأ: ١٤]، و قوله: وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [الزمر: ٦٩] و شرعي ديني، كقوله: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء: ٢٣] أى أمر و شرع. و لو كان قضاء كونيا لما عبد غير الله. و الحكم أيضا نوعان: فالكوني كقوله: قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ [الأنبياء: ١١٢]، أى افعل ما تنصر به عبادك و تخذل به أعداءك. و الديني كقوله: ذَلِكَم حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ [المتحنه: ١٠]، و قوله: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ [المائدة: ١]. و قد يرد بالمعنيين معا كقوله: وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا [الكهف: ٢٦]. فهذا يتناول حكمه الكوني، و حكمه الشرعي. و الإرادة أيضا نوعان: فالكونية كقوله تعالى: فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ [هود: ١٠٧]، و قوله: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً [الإسراء: ١٦]، و قوله: إِنَّ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْوِيَكُمْ [هود: ٣٤]، و قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ [القصص: ٥]. و الدينية كقوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [البقرة: ١٨٥]، و قوله: وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ [النساء: ٢٧]، فلو كانت هذه الإرادة كونية لما حصل العسر لأحد منا، و لوقعت التوبة من جميع المكلفين. و بهذا التفصيل يزول الاشتباه في مسألة الأمر و الإرادة هل هما متلازمان أم لا؟ فقالت القدرية: الأمر يستلزم الإرادة، و احتجوا بحجج لا تندفع. و قالت المثبتة: الأمر لا يستلزم الإرادة، و احتجوا بحجج لا تندفع. و الصواب: أن الأمر يستلزم الإرادة الدينية و لا يستلزم الإرادة الكونية، فإنه لا- يأمر إلا بما يريده شرعا و دينا، و قد يأمر بما لا يريده كونا و قدرا، كإيمان من أمره، و لم يوفقه البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٢٩ للإيمان مراد له دينا و لا كونا. و كذلك أمر خليله بذبح ابنه و لم يرده كونا و قدرا. و أمر رسوله بخمسين صلاة و لم يرد ذلك كونا و قدرا. و بين هذين الأمرين و أمر من لم يؤمن بالإيمان فرق فإنه سبحانه- لم يحب من إبراهيم ذبح ولده، و إنما أحب منه عزمه على الامتثال و أن يوطن نفسه عليه. و كذلك أمره محمدا صلى الله عليه و سلم ليلة الإسراء بخمسين صلاة. و أما أمره

تكافأت الأحاديث. فأصحها إسنادا أولاها، وليس المنقطع بشيء، ما عدا منقطع سعيد بن المسيب، ولا يقاس أصل على أصل، ولا يقال لأصل: لم؟ وكيف؟ وإنما يقال للفرع: لم؟ فإذا صح قياسه على الأصل وقامت به الحجة، رواه الأصم عن ابن أبي حاتم.

(١) أعلام الموقعين (٤/١٠٧). (٢)

بدائع الفوائد (١/١٥). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٣٦

رأى الجويني في الكف عن التأويل

رأى الجويني في الكف عن التأويل وقال أبو المعالي الجويني في «الرسالة النظامية، في الأركان الإسلامية»: ذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى. والذي نرتضيه رأيا، وندين الله به عقد اتباع سلف الأمة: فالأولى: الاتباع، وترك الابتداع، والدليل السمعى القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة، وقد درج صحب الرسول صلى الله عليه وسلم، ورضى عنهم على ترك التعرض لمعانيها، ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام، والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهدا في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها. ولو كان تأويل هذه الظواهر مسوغا أو محتوما، لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين لهم على الإضراب عن التأويل، كان ذلك قاطعا بأنه الوجه المتبع. فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزيه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب تعالى. وعند إمام القراء وسيدهم الوقوف على قوله تعالى: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ [آل عمران: ٧] من العزائم، ثم الابتداء بقوله: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ [آل عمران: ٧]. ومما استحسنت من كلام مالك أنه سئل عن قوله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه: ٥] كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فلتجر آية الاستواء والمعجىء، وقوله: لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [ص: ٧٥]، وقوله: وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ [الرحمن: ٢٧]، وقوله: تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا [القمر: ١٤] وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا، انتهى كلامه.

رأى الغزالي في التأويل

رأى الغزالي في التأويل وقال أبو حامد الغزالي: الصواب للخلف سلوك مسلك السلف في الإيمان المرسل والتصديق المجمل، وما قاله الله ورسوله، بلا- بحث وفتيش. وقال في كتاب «التفرقة»: الحق: الاتباع والكف عن تغيير الظاهر رأسا، والحذر عن اتباع تأويلات لم يصرح بها الصحابة، وحسم باب السؤال رأسا، والزجر عن الخوض في الكلام والبحث... البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٣٧ إلى أن قال: ومن الناس من يبادر إلى التأويل ظنا لا قطعا، فإن كان فتح هذا الباب والتصريح به يؤدي إلى تشويش قلوب العوام بدع صاحبه، وكل ما لم يؤثر عن السلف ذكره، وما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من يغير الظواهر بغير برهان قاطع. وقال أيضا: كل ما يحتمل التأويل في نفسه، وتواتر نقله، ولم يتصور أن يقوم على خلافه برهان، فمخالفته تكذيب محض، وما تطرق إليه احتمال تأويل ولو بمجاز بعيد، فإن كان برهانه قاطعا وجب القول به، وإن كان البرهان يفيد ظنا غالبا، ولا يعظم ضرره في الدين فهو بدعة، وإن عظم ضرره في الدين فهو كفر. قال: ولم تجر عادة السلف بهذه المجادلات، بل شددوا القول على من يخوض في الكلام، ويشغل بالبحث والسؤال. وقال أيضا: الإيمان المستفاد من الكلام ضعيف. والإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل في قلوبهم في الصبا بتواتر السماع، وبعد البلوغ بقرائن يتعذر التعبير عنها. قال: وقال شيخنا أبو المعالي: يحرص الإمام ما أمكنه على جمع عامة الخلق على سلوك سبيل السلف في ذلك. انتهى. وقال بعض أهل العلم: كيف لا يخشى الكذب على الله ورسوله، من يحمل كلامه على التأويلات المستكرهة والمجازات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أولى منها بالبيان والهداية؟ و

هل يأمن على نفسه أن يكون ممن قال الله فيهم: وَ لَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ [الأنبياء: ١٨]. قال الحسن: هي والله لكل واصف كذبا إلى يوم القيامة، هل يأمن أن يتناول قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ [الأعراف: ١٥٢]. قال ابن عيينة: هي لكل مفتر من هذه الأمة إلى يوم القيامة، وقد نزه سبحانه نفسه عن كل ما يصفه به خلقه إلا المرسلين فإنهم إنما يصفونه بما أذن لهم أن يصفوه به؛ فقال تعالى: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) [الصفافات، و قال تعالى: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (١٦٠) [الصفافات. و يكفي المتأولين كلام الله و رسوله بالتأويلات التي لم يرددها، و لم يدل عليها كلام الله أنهم قالوا برأيهم على الله، و قدموا آراءهم على نصوص الوحي، و جعلوها عيارا على كلام الله و رسوله، و لو علموا أي باب شر فتحو على الأمة بالتأويلات الفاسدة. و أي بناء للإسلام هدموا بها، و أي معاقل و حصون استباحوها؛ لكان أحدهم أن يخبر من السماء إلى البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٣٨ الأرض أحب إليه من أن يتعاطى شيئا من ذلك. فكل صاحب باطل قد جعل ما تأوله المتأولون عذرا له فيما تأوله هو، و قال: ما الذي حرم على التأويل و أباحه لكم؟ فتأولت الطائفة المنكرة للمعاد نصوص المعاد، و كان تأويلهم من جنس تأويل منكرو الصفات، بل أقوى منه لوجوه عديدة يعرفها من وازن بين التأويلين، و قالوا: كيف نحن نعاقب على تأويلنا. و تؤجرون أنتم على تأويلكم؟ قالوا: و نصوص الوحي بالصفات أظهر و أكثر من نصوصه بالمعاد، و دلالة النصوص عليها أبين فكيف يسوغ تأويلها بما يخالف ظاهرها و لا يسوغ لنا تأويل نصوص المعاد؟ و كذلك فعلت الرفضة في أحاديث فضائل الخلفاء الراشدين و غيرهم من الصحابة (رضى الله عنهم)، و كذلك فعلت المعتزلة في تأويل أحاديث الرؤية و الشفاعة، و كذلك القدرية في نصوص القدر، و كذلك الحرورية و غيرهم من الخوارج في النصوص التي تخالف مذاهبهم، و كذلك القرامطة و الباطنية طردت الباب، و طمت الوادي على القرى «١»، و تأولت الدين كله. فأصل خراب الدين و الدنيا إنما هو من التأويل الذي لم يردده الله و رسوله بكلامه، و لا دل عليه أنه مراده، و هل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل؟ و هل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل؟ فمن بابه دخل إليها، و هل أريق دم المسلم في الفتن إلا بالتأويل؟

التأويل عدو كل الأديان

التأويل عدو كل الأديان و ليس هذا مختصا بدين الإسلام فقط، بل سائر أديان الرسل لم تزل على الاستقامة و السداد حتى دخلها التأويل، فدخل عليها من الفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد. و قد تواترت البشارات بصحة نبوة محمد صلى الله عليه و سلم في الكتب المتقدمة، و لكن سلطوا عليها التأويلات فأفسدوها، كما أخبر سبحانه عنهم من التحريف و التبديل و الكتمان. فالتحريف تحريف المعاني بالتأويلات التي لم يرددها المتكلم بها، و التبديل تبديل لفظ بلفظ آخر، و الكتمان جحده. و هذه الأدواء الثلاثة منها غيرت الأديان و الملل، و إذا تأملت دين المسيح وجدت النصراني إنما تطرقوا إلى إفساده بالتأويل بما لا يكاد يوجد قط مثله في شيء من (١) طم الماء: غمر، و طم الإناء: ملأه، و القرى كغنى: ميل من التلاع، أو موقعه من الربو في الروضة. (مصدر). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٣٩ الأديان، و دخلوا إلى ذلك من باب التأويل. و كذلك زنادقة الأمم جميعهم إنما تطرقوا إلى إفساد ديانات الرسل - صلوات الله و سلامه عليهم - بالتأويل، و من بابه دخلوا، و على أساسه بنوا، و على نقطه خطوا.

أصناف المتأولة

أصناف المتأولة و المتأولون أصناف عديدة، بحسب الباعث لهم على التأويل، و بحسب قصور أفهامهم و وفورها. و أعظمهم توغلا في التأويل الباطل من فسد قصده و فهمه، فكلما ساء قصده و قصر فهمه كان تأويله أشد انحرافا. فمنهم من يكون تأويله لنوع هوى من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق. و منهم من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أخفت عليه الحق. و منهم من يكون تأويله

لنوع هدى من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق. ومنهم من يجتمع له الأمران: الهوى في القصد، والشبهة في العلم.

فتنة التأويل وبعض ما أحدثت

فتنة التأويل وبعض ما أحدثت وبالجملة فافتراق أهل الكتائبين، وافتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إنما أوجبه التأويل، وإنما أريقت دماء المسلمين يوم الجمل وصفين والحرّة وفتنة ابن الزبير، وهلم جرا بالتأويل. وإنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والباطنية والإسماعيلية والنصيرية من باب التأويل. فما امتحن الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل. فإن محنته إما من المتأولين، وإما أن يسلط عليهم الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل، وخالفوا ظاهر التنزيل وتعللوا بالأباطيل. فما الذى أراق دماء بنى جذيمة وقد أسلموا غير التأويل! حتى رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وتبرأ إلى الله من فعل المتأول بقتلهم وأخذ أموالهم؟ وما الذى أوجب تأخر الصحابة رضى الله عنهم يوم الحديبية عن موافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم غير التأويل، حتى اشتد غضبه لتأخرهم عن طاعته حتى رجعوا عن ذلك التأويل؟ وما الذى سفك دم أمير المؤمنين عثمان ظلما وعدوانا، وأوقع الأمة فيما وقعها فيه حتى الآن غير التأويل؟ وما الذى سفك دم على رضى الله عنه، وابنه الحسين، وأهل بيته رضى الله تعالى عنهم غير التأويل؟ البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٤٠ وما الذى أراق دم عمار بن ياسر وأصحابه غير التأويل؟ وما الذى أراق دم ابن الزبير، وحجر بن عدى، وسعيد بن جبير وغيرهم من سادات الأمة غير التأويل؟ وما الذى أريقت عليه دماء العرب في فتنة أبي مسلم غير التأويل؟ وما الذى جرد الإمام أحمد بين العقابين، وضرب السياط حتى عجت الخليفة إلى ربها تعالى غير التأويل؟ وما الذى قتل الإمام أحمد بن نصر الخزاعى، وخذل خلقا من العلماء فى السجن حتى ماتوا غير التأويل؟ وما الذى سلط سيوف التتار على دار الإسلام حتى ردوا أهلها غير التأويل؟ وهل دخلت طائفة الإلحاد من أهل الحلول والاتحاد إلا من باب التأويل؟ وهل فتح باب التأويل إلا مضادة ومناقضة لحكم الله فى تعليمه عبادة البيان الذى امتن الله فى كتابه على الإنسان بتعليمه إياه؛ فالتأويل بالألغاز والأحاجى والأغلوطنات أولى منه بالبيان والتبيين. وهل فرق بين دفع حقائق ما أخبرت به الرسل عن الله وأمرت به بالتأويلات الباطلة المخالفة له وبين رده وعدم قبوله، ولكن هذا رد جحود ومعاندة، وذاك رد خداع ومصانعة.

رأى ابن رشد فى التأويل

رأى ابن رشد فى التأويل قال أبو الوليد بن رشد المالكي فى كتابه المسمى ب «الكشف عن مناهج الأدلة». وقد ذكر التأويل و جانيته على الشريعة، إلى أن قال: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ [آل عمران: ٧]، وهؤلاء أهل الجدل والكلام، وأشد ما عرض على الشريعة من هذا الصنف أنهم تأولوا كثيرا مما ظنوه ليس على ظاهره، وقالوا: إن هذا التأويل هو المقصود به، وإنما أمر الله به فى صورة المتشابه ابتلاء لعباده واختبارا لهم، ونعوذ بالله من سوء الظن بالله بل نقول: إن كتاب الله العزيز إنما جاء معجزا من جهة الوضوح والبيان. فما أبعد من مقصد الشارع من قال فيما ليس بمتشابه: إنه متشابه، ثم أول ذلك المتشابه بزعمه، وقال لجميع الناس: إن فرضكم هو اعتقاد هذا التأويل، مثل ما قالوه فى آية الاستواء على العرش وغير ذلك مما قالوا: إن ظاهره متشابه، ثم قال: وبالجملة فأكثر التأويلات التى زعم القائلون بها أنها المقصود من الشرع إذا تأملت وجدت ليس يقوم عليها برهان. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٤١

مثل من أول شيئا من القرآن

مثل من أول شيئا من القرآن إلى أن قال: ومثل من أول شيئا من الشرع وزعم أن ما أوله هو الذى قصده الشرع: مثال من أتى إلى دواء قد ركبته طيب ماهر ليحفظ صحة جميع الناس أو أكثرهم، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء الأعظم لرداءة مزاج كان به، ليس

يعرض إلا- للأقل من الناس، فزعم أن بعض تلك الأدوية التي صرح باسمها الطبيب الأول في ذلك الدواء العام المنفعة لم يرد به ذلك الدواء العام الذي جرت العادة في اللسان أن يدل بذلك الاسم عليه، وإنما أراد به دواء آخر، مما يمكن أن يدل عليه بذلك باستعارة بعيدة، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم، وجعل فيه بدله الدواء الذي ظن أنه قصده الطبيب، وقال للناس: هذا هو الذي قصده الطبيب الأول، فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول، ففسدت أمزجة كثير من الناس. فجاء آخرون فشعروا بفساد أمزجة الناس من ذلك الدواء المركب، فراموا إصلاحه بأن بدلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول؛ فعرض من ذلك للناس نوع من المرض غير النوع الأول. فجاء ثالث فتأول في أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني؛ فعرض للناس من ذلك نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين. فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة فعرض منه للناس نوع رابع من المرض غير الأمراض المتقدمة، فلما طال الزمان بهذا الدواء المركب الأعظم، وسلط الناس التأويل على أدويته، وغيروها وبدلوها عرض منه للناس أمراض شتى، حتى فسدت المنفعة المقصودة بذلك الدواء المركب في حق أكثر الناس وهذه هي حالة الفرق الحادثة في هذه الشريعة مع الشريعة، وذلك أن كل فرقة منهم تأولت غير التأويل الذي تأولته الفرقة الأخرى، وزعمت أنه هو الذي قصده صاحب الشرع حتى تمزق الشرع كل ممزق، وبعد جدا عن موضوعه الأول، ولما علم صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أن مثل هذا يعرض - ولا بد- في شريعته قال صلى الله عليه وسلم: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة» (١) يعني بالواحدة: التي سلكت ظاهر الشرع ولم تؤوله.

(١) أبو داود (٤٥٩٧) في السنة، باب:

شرح السنة، و الترمذى (٢٦٤١) في الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة، وقال: «هذا حديث غريب ... إلخ»، وابن ماجه (٣٩٩٢) في الفتن، باب: افتراق البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٤٢ و أنت إذا تأملت ما عرض في هذه الشريعة في هذا الوقت من الفساد العارض فيها من قبل التأويل تبين أن هذا المثال صحيح. وأول من غير هذا الدواء الأعظم هم الخوارج، ثم المعتزلة بعدهم، ثم الأشعرية، ثم الصوفية، ثم جاء أبو حامد (١) فطم الوادى على القرى. هذا كلامه بلفظه. ولو ذهبنا نستوعب ما جناه التأويل على الدنيا والدين، وما نال الأمم قديما وحديثا بسببه من الفساد؛ لاستدعى ذلك عدة أسفار، والله المستعان (٢). وأيضا إن بلاء الإسلام ومحنته عظمت من هاتين الطائفتين: أهل المكر والمخادعة، والاحتيال في العمليات، وأهل التحريف والفسطحة والقرمطة في العمليات، وكل فساد في الدين - بل و الدنيا - فممنشؤه من هاتين الطائفتين. فبالتأويل الباطل قتل عثمان رضى الله عنه و عاتت الأمة في دمايتها، وكفر بعضها بعضا، وتفرقت على بضع وسبعين فرقة، فجرى على الإسلام من تأويل هؤلاء، وخداع هؤلاء ومكرهم ما جرى، واستولت الطائفتان، وقويت شوكتهما، وعاقبوا من لم يوافقهم وأنكر عليهم، ويأبى الله إلا أن يقيم لدينه من يذب عنه، ويبين أعلامه وحقائقه، لكيلا تبطل حجج الله وبياناته على عباده (٣).

أمثلة للتأويل الفاسد

أمثلة للتأويل الفاسد [١] من هذا إخباره - سبحانه - بأنه طبع على قلوب الكافرين، وختم عليها وأنه أصمها عن الحق وأعمى أبصارها عنه، كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ [البقرة] والوقف التام هنا ثم قال: وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ [البقرة: ٧] كقوله: أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غِشَاوَةً [الجاثية: ٢٣]. وقال تعالى: وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: ١٥٥].

الأعم، وفي الزوائد: «إسناده حديث عوف بن مالك فيه مقال إلخ»، وأحمد (١٤٥/٣). (١) يعنى الغزالي. (٢) إعلام الموقعين (٤/٣٠٥ - ٣١٥). (٣) إغاثة اللهفان (٢/

١٢٠، ١٢١). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٤٣ وقال تعالى: كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [الأعراف: ١٠١]، كَذَلِكَ نَطْبَعُ

عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ [يونس: ٧٤]، وَ نَطَّعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ [الأعراف: ١٠٠]. وأخبر- سبحانه- أن على بعض القلوب أقبالا تمنعها من أن تفتح لدخول الهدى إليها، وقال: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءً وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى [فصلت: ٤٤]. فهذا الوقر والعمى حال بينهم وبين أن يكون لهم هدى و شفاء. وقال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا [الكهف: ٥٧]. وقال تعالى: وَ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ [غافر: ٣٧] قرأها الكوفيون «و صد» بضم الصاد، حملا- على (زين). وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ [غافر]. وقال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [الأحقاف: ١٠]، و معلوم أنه لم ينف هدى البيان و الدلالة الذي تقوم به الحجة فإنه حجته على عباده. و القدرية ترد هذا كله إلى المتشابه، و تجعله من متشابه القرآن، و تتأوله على غير تأويله، بل تتأوله بما يقطع بطلانه و عدم إرادة المتكلم له، كقول بعضهم: «المراد من ذلك تسمية العبد مهتديا و ضالا» فجعلوا هداة و إضلاله مجرد تسمية العبد بذلك، و هذا مما يعلم قطعا أنه لا يصح حمل هذه الآيات عليه، و أنت تأملتها وجدتها لا تحتمل ما ذكره البتة. و ليس في لغة أمة من الأمم، فضلا عن أفصح اللغات و أكملها، «هداه» بمعنى سماه مهتديا، «و أضله» سماه ضالا، و هل يصح أن يقال: «علمه» إذا سماه عالما، و «فهمه» إذا سماه فهما؟! و كيف يصح هذا في مثل قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقرة: ٢٧٢]. فهل فهم أحد غير القدرية المحرفة للقرآن من هذا: ليس عليك تسميتهم مهتدين، و لكن الله يسمي من يشاء مهتديا. و هل فهم أحد قط من قوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ [القصص: ٥٦] لا تسميه مهتديا و لكن الله يسميه بهذا الاسم؟! و هل فهم أحد من قول الداعي: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) [الفاتحة] و قوله: «اللهم اهدني من عندك» و نحوه، اللهم: سمني مهتديا؟ البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٤٤ و هذا من جنائز القدرية على القرآن، و معناه نظير جنائز إخوانهم من الجهمية «١» على نصوص الصفات و تحريفها عن مواضعها، و فتحوا للزنادقة و الملاحدة جنائزهم على نصوص المعاد و تأويلها بتأويلات إن لم تكن أقوى من تأويلاتهم لم تكن دونها، و فتحوا للقرامطة و الباطنية تأويل نصوص الأمر و النهي بنحو تأويلاتهم. فتأويل التحريف الذي سلسلته هذه الطوائف أصل فساد الدين و خراب العالم، و سنفرد إن شاء الله كتابا نذكر فيه جنائز المتأولين على الدنيا و الدين. و أنت إذا وازنت بين تأويلات القدرية و الجهمية و الراضية لم تجد بينها و بين تأويلات الملاحدة و الزنادقة من القرامطة و الباطنية و أمثالهم كبير فرق. و التأويل الباطل يتضمن تعطيل ما جاء به الرسول، و الكذب على المتكلم أنه أراد ذلك المعنى، فتضمن إبطال الحق و تحقيق الباطل، و نسبة المتكلم إلى ما لا يليق به من التلبيس و الإلغاز مع القول عليه بلا- علم: إنه أراد هذا المعنى. فالتأول عليه أن يبين صلاحية اللفظ للمعنى الذي ذكره أولا، و استعمال المتكلم له في ذلك المعنى في أكثر المواضع حتى إذا استعمله فيما يحتمل غيره حمل على ما عهد منه استعماله فيه. و عليه أن يقيم دليلا سالما عن المعارض على الموجب لصرف اللفظ عن ظاهره و حقيقته إلى مجازه و استعارته، و إلا كان ذلك مجرد دعوى منه فلا تقبل. و تأول بعضهم هذه النصوص على أن المراد بها هداية البيان و التعريف لا خلق الهدى في القلب، فإن الله سبحانه لا يقدر على ذلك عند هذه الطائفة، و هذا التأويل من أبطل الباطل «٢». [٢] الذي عليه أهل الحديث و السنة قاطبة، و الفقهاء كلهم، و جمهور المتكلمين، و الصوفية- أنه سبحانه- يكره بعض الأعيان و الأفعال و الصفات، و إن كانت واقعة بمشيئته، فهو يبغضها و يمتقتها كما يبغض ذات إبليس و ذوات جنوده، و يبغض أعمهم، و لا- يح- ذلك

(١) الجهمية: هم أصحاب جهنم بن

صفوان الذي أظهر نفى الصفات و التعطيل آخذا ذلك عن الجعد بن درهم الذي قتله خالد القسري يوم الأضحى، و مما انفرد به جهنم قوله: إن الجنة و النار تفتيان و إن الإيمان المعرفة فقط، و إن الإنسان مجبور، و إن ما تنسب إليه الأفعال على سبيل المجاز فقط، قتله سالم بن أحوز بمرور في آخر ملك بني أمية. (٢) شفاء العليل (١/ ٢١٦- ٢١٩). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٤٥ و إن وجد بمشيئته. قال تعالى: وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ [البقرة: ٢٠٥]، و قال: وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [آل عمران: ٥٧]، و قال: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ [لقمان: ١٨]، و قال: لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ [النساء: ١٤٨]، و قال: وَ لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ

[المائدة: ٨٧]، وقال: **إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ [الزمر: ٧]**. فهذا إخبار عن عدم محبته لهذه الأمور ورضاه بها بعد وقوعها. فهذا صريح في إبطال قول من تأول النصوص على أنه لا يحبها ممن لم تقع منه، و يحبها إذا وقعت، فهو يحبها ممن وقعت منه، و لا- يحبها ممن لم تقع منه. وهذا من أعظم الباطل والكذب على الله، بل هو- سبحانه- يكرهها و يبغضها قبل وقوعها، و حال وقوعها، و بعد وقوعها؛ فإنها قبائح و خباثت، و الله منزه عن محبة القبيح و الخبيث، بل أكره شيء إليه. قال الله تعالى: **كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) [الإسراء]**. و قد أخبر- سبحانه أنه يكره طاعات المنافقين، و لأجل ذلك يبغضهم عنها، فكيف يحب نفاقهم و يرضاه و يكون أهله محبوبين له مصطفين عنده مرضيين؟ و من هذا الأصل الباطل نشأ قولهم باستواء الأفعال بالنسبة إلى الرب- سبحانه- و أنها لا تنقسم في نفسها إلى حسن و قبيح، فلا فرق بالنسبة إليه- سبحانه- بين الشكر و الكفر، و لذلك قالوا: لا يجب شكره على نعمه عقلا. فمن هذا الأصل قالوا: إن مشيئته هي عين محبته، و إن كل ما شاءه فهو محبوب له و مرضى له و مصطفى و مختار. فلم يمكنهم بعد تأصل هذا الأصل أن يقولوا: إنه يبغض الأعيان و الأفعال التي خلقها و يحب بعضها، بل كل ما فعله و خلقه فهو محبوب له، و المكروه المبعوض ما لم يشأه و لم يخلقه. و إنما أصلوا هذا الأصل محافظة منهم على القدر، فحثوا به على الشرع و القدر، و التزموا لأجله لوازم شوشوا بها القدر و الحكمة، و كابروا لأجلها صريح العقل، و سوا بين أقبح القبائح و أحسن الحسنات في نفس الأمر، و قالوا هما سواء لا فرق بينهما إلا بمجرد الأمر و النهي، فالكذب عندهم و الظلم و البغي و العدوان مسار للصدق و العدل و الإحسان في نفس الأمر. ليس في هذا ما يقتضى حسنه، و لا في هذا ما يقتضى قبحه، و جعلوا هذا المذهب شعار لأهل السنة، و القول بخلاف قول أهل البدع من المعتزلة و غيرهم. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٤٦ و لعمر الله إنه لمن أبطل الأقوال و أشدها منافاة للعقل و الشرع، و لفطرة الله التي فطر عليها خلقه، و قد بينا بطلانه من أكثر من خمسين وجها في كتاب المفتاح (١). و المقصود أنه لما انضم القول به إلى القول بأنه سبحانه لا يحب شيئا و يبغض شيئا بل كل موجود فهو محبوب له، و كل معدوم فهو مكروه له، و انضم إلى هذين الآخرين إنكار الحكم و الغايات المطلوبة في أفعاله- سبحانه- و أنه لا يفعل شيئا لمعنى البتة، و انضم إلى ذلك إنكار الأسباب، و أنه لا يفعل شيئا بشيء و إنكار القوى و الطبايع و الغرائز، و أن تكون أسبابا أو يكون لها أثر، انسد عليهم باب الصواب في مسائل القدر و التزموا هذه الأصول الباطلة لوازم هي أظهر بطلانها و فسادها، و هي من أدل شيء على فساد هذه الأصول و بطلانها، فإن فساد اللازم من فساد ملزومه. فإن قيل: الكراهة و المحبة ترجع إلى المنافرة و الملاءمة للطبع، و ذلك محال في حق من لا يوصف بطبع و لا منافرة و لا ملاءمة. قيل: قد دلت النصوص التي لا تدفع على وصفه تعالى بالمحبة و الكراهة، فتبينكم حقائق ما دلت عليه بالتعبير عنها بملاءمة الطبع و منافرة باطل، و هو كنفى كل مبطل حقائق أسمائه و صفاته بالتعبير عنها بعبارات اصطلاحية توصل بها إلى نفى وصف به نفسه، كتسمية الجهمية المعطلة صفاته إعراضا، ثم توصلوا بهذه التسمية إلى نفيا. و سمو أفعاله القائمة به حوادث، ثم توصلوا بهذه التسمية إلى نفيه، و قالوا: لا تحله الحوادث، كما قالت المعطلة و لا تقوم به الأعراض. و سمو علوه على خلقه، و استواءه على عرشه، و كونه قاهرا فوق عبادته، تحيزا و تجسما، ثم توصلوا بنفى ذلك إلى نفى علوه عن خلقه و استوائه على عرشه. و سمو ما أخبر به عن نفسه من الوجه و اليدين و الإصبع جوارح و أعضاء، ثم نفوا ما أثبتته لنفسه بتسميتهم له بغير تلك الأسماء، **إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى (٢٣) [النجم]**. فتوصلوا بالتشبيه و التجسيم و التركيب و الحوادث و الأعراض و التحيز إلى تعطيل صفات كماله و نعوت جلاله و أفعاله، و أدخلوا تلك الأسماء من معانيها و عطلوها من حقائقها. فيقال لمن نفى محبته و كراهته لاستلزامهما ميسل الطبع و نفرتهم: **مما الفرق بينك و بين من**

(١) مفتاح دار السعادة. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٤٧ نفى كونه مريدا لاستلزام الإرادة حركة النفس إلى جلب ما ينفعها بالمسموع و المبصر، و انطباع صورة المرئي في الرائي و حمل الهواء الصوت المسموع إلى أذن السامع (١). [٣] ظن كثير من الجهال أن الفاحشة بالمملوك كالمباحة، أو مباحة،

أو أنهما أيسر من ارتكابها من الحر، وتأولت هذه الفرقة القرآن على ذلك، وأدخلت المملوك في قوله: **إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ** أو ما **مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** (٦) [المؤمنون: ٣٠]، حتى إن بعض النساء لتمكن عبدها من نفسها، وتناول القرآن على ذلك، كما رفع إلى عمر بن الخطاب امرأة تزوجت عبدها، وتأولت هذه الآية، ففرق عمر رضى الله عنه بينهما، وأدبها، وقال: ويحك، إنما هذا للرجال لا للنساء. ومن تأول هذه الآية على وطء الذكران من المماليك فهو كافر باتفاق الأمة. قال شيخنا: ومن هؤلاء من يتأول قوله تعالى: **وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ** **وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ** [البقرة: ٢٢١] على ذلك، قال: وقد سألتني بعض الناس عن هذه الآية، وكان ممن يقرأ القرآن، فظن أن معناها في إباحة ذكران العبيد المؤمنين «٢». [٤] إن إثبات الصفات دل عليها الوحي الذي جاء من عند الله على لسان رسوله، والحس الذي شاهد به البصير آثار الصنعة؛ فاستدل بها على صفات صانعها، والعقل الذي طابت حياته بزرع الفكر، والقلب الذي حيى بحسن النظر بين التعظيم والاعتبار. فأما الرسالة: فإنها جاءت بإثبات الصفات إثباتاً على وجه أزال الشبهة، وكشف الغطاء، وحصل العلم اليقيني، ورفع الشك والريب، فتلجت له الصدور، واطمأنت به القلوب، واستقر به الإيمان في نصابه، ففصلت الرسالة الصفات والنوع والأفعال أعظم من تفصيل الأمر والنهي، وقررت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ، وأبعده من الإجمال والاحتمال، وأمنه من قبول التأويل. وكذلك كان تأويل آيات الصفات وأحاديثها بما يخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد وأخباره، بل أبعده منه لوجه كثيرة، ذكرتها في كتاب «الصواعق المرسله على الجهمية والمعطله»، بل تأويل آيات الصفات بما

(١) شفاء العليل (١/ ٣٢٣-٣٢٥). (٢)

إغائه اللهم (٢/ ١٤٥). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٤٨ يخرجها عن حقائقها، كتأويل آيات الأمر والنهي سواء، فالباب كله باب واحد، ومصدره واحد، ومقصوده واحد، وهو إثبات حقائقه والإيمان بها. وكذلك سطا على تأويل آيات المعاد قوم، وقالوا: فعلنا فيها كفعل المتكلمين في آيات الصفات، بل نحن أعذر، فإن اشتمال الكتب الإلهية على الصفات والعلو وقيام الأفعال أعظم من نصوص المعاد للأبدان بكثير؛ فإذا ساغ لكم تأويلها، فكيف يحرم علينا نحن تأويل آيات المعاد؟ وكذلك سطا قوم آخرون على تأويل آيات الأمر والنهي، وقالوا: فعلنا فيها كفعل أولئك في آيات الصفات، مع كثرتها وتنوعها، وآيات الأحكام لا تبلغ زيادة على خمسمائة آية. قالوا: وما يظن أنه معارض من العقلية لنصوص الصفات، فعندنا معارض عقلية لنصوص المعاد، من جنسه أو أقوى منه. وقال متأولو آيات الأحكام على خلاف حقائقها وظواهرها: الذي سوغ لنا هذا التأويل القواعد التي اصطلمتوها لنا، وجعلتموها أصلاً نرجع إليه، فلما طردناها كان أن الله ما تكلم بشيء قط ولا يتكلم، ولا يأمر ولا ينهى، ولا له صفة تقوم به، ولا يفعل شيئاً، و طرد هذا الأصل لزوم تأويل آيات الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب. وقد ذكرنا في كتاب «الصواعق» أن تأويل آيات الصفات وأخبارها- بما يخرجها عن حقائقها- هو أصل فساد الدنيا والدين، وزوال الممالك، وتسلط أعداء الإسلام عليه إنما كان بسبب التأويل، ويعرف هذا من له اطلاع وخبرة بما جرى في العالم؛ ولهذا يحرم عقلاء الفلاسفة التأويل مع اعتقادهم لصحته؛ لأنه سبب لفساد العالم، وتعطيل الشرائع. ومن تأمل كيفية ورود آيات الصفات في القرآن والسنة علم قطعاً بطلان تأويلها بما يخرجها عن حقائقها، فإنها وردت على وجه لا يحتمل معه التأويل بوجه. فانظر إلى قوله تعالى: **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ** [الأنعام: ١٥٨] هل يحتمل هذا التقسيم والتنوع تأويل إتيان الرب جل جلاله بإتيان ملائكته أو آياته؟ وهل يبقى مع هذا السياق شبهة أصلاً أنه إتيانه بنفسه؟ وكذلك قوله: **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ** إلى أن قال: **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** [النساء: ١٦٣، ١٦٤] ففرق بين الإيحاء العام، والتكليم الخاص، وجعلهما نوعين، ثم أكد فعل التكليم بالمصدر الرفع لتوهم ما يقوله المحرفون، وكذلك قوله: **وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا** [الشورى: ٥١]، فنوع تكليمه إلى: تكليم البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٤٩ بواسطة، وتكليم بغير واسطة، وكذلك قوله لموسى عليه السلام **إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي** [الأعراف: ١٤٤] ففرق بين الرسالة والكلام، والرسالة إنما هي بكلامه. وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون القمر ليلة البدر في الصحو، ليس دونه سحب، وكما ترون

الشمس في الظهيرة صحوا ليس دونها سحاب» (١)، و معلوم أن هذا البيان و الكشف و الاحتراز ينافي إرادة التأويل قطعاً، و لا يرتاب في هذا من له عقل و دين «٢» (١) .
 البخارى (٦، ٨) في الأذان، باب: فضل السجود، و الترمذى (٢٥٥٤) في صفة الجنة، باب: رقم (١٧) و قال: «حسن صحيح غريب .. إلخ». (٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٥٢-٣٥٤). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٥٠

التفسير بالرأى

إشارة

التفسير بالرأى الرأى فى الأصل مصدر، رأى الشئ يراه رأياً، ثم غلب استعماله على المرئى نفسه من باب استعمال المصدر فى المفعول. كالهوى فى الأصل مصدر هويه يهواه هوى، ثم استعمل فى الشئ الذى يهوى، فيقال: هذا هوى فلان، و العرب تفرق بين مصادر فعل الرؤية بحسب محالها، فتقول: رأى كذا فى النوم رؤياً، و رآه فى اليقظة رؤيته، و رأى كذا لما يعلم بالقلب، و لا يرى بالعين رأياً، و لكنهم خصوه بما يراه القلب، بعد فكر و تأمل و طلب لمعرفة وجه الصواب، مما تتعارض فيه الأمارات، فلا يقال لمن رأى أمراً غائباً عنه مما يحس به أنه رأيه، و لا- يقال أيضاً للأمر المعقول الذى لا تختلف فيه العقول، و لا تتعارض فيه الأمارات أنه رأى، و إن احتاج إلى فكر و تأمل كدقائق الحساب و نحوها.

أقسام الرأى

إشارة

أقسام الرأى و إذا عرف هذا فالرأى ثلاثة أقسام: رأى باطل بلا ريب، و رأى صحيح، و رأى هو موضع الاشتباه. و الأقسام الثلاثة قد أشار إليها السلف، فاستعملوا الرأى الصحيح، و عملوا به، و أفتوا به، و سوغوا القول به. و ذموا الباطل، و منعوا من العمل و الفتيا و القضاء به، و أطلقوا ألسنتهم بدمه و ذم أهله. و القسم الثالث سوغوا العمل و الفتيا و القضاء به عند الاضطرار إليه، حيث لا يوجد منه بدو لم يلزموا أحداً العمل به، و لم يحرموا مخالفته، و لا جعلوا مخالفه مخالفاً للدين، بل غايته أنهم خيروا بين قبوله و رده، فهو بمنزلة ما أبيض للمضطر من الطعام و الشراب الذى يحرم عند عدم الضرورة إليه. كما قال الإمام أحمد: سألت الشافعى عن القياس فقال لى: عند الضرورة. و كان استعمالهم لهذا النوع بقدر الضرورة لم يفرطوا فيه و يفرعوه و يولدوه و يوسعوه كما صنع المتأخرون بحيث اعتاضوا به عن النصوص و الآثار، و كان أسهل عليهم من حفظها. كما يوجد كثير من الناس يضبط قواعد الإفتاء لصعوبة النقل عليه، و تعسر حفظه، فلم البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٥١ يتعدوا فى استعماله قدر الضرورة، و لم يبغوا بالعدل إليه مع تمكنهم من النصوص و الآثار، كما قال الله تعالى فى المضطر إلى الطعام المحرم: **فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (١٧٣) [البقرة]؛ فالباغى الذى يتبغى الميتة مع قدرته على التوصل إلى المذكى، و العادى الذى يتعدى قدر الحاجة بأكلها.

فالرأى الباطل أنواع:

فالرأى الباطل أنواع: أحدها: الرأى المخالف للنص: و هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام فساده و بطلانه، و لا تحل الفتيا به، و لا القضاء و إن وقع فيه من وقع بنوع تأويل و تقليد. النوع الثانى: هو الكلام فى الدين بالحرص و الظن مع التفريط و التقصير فى معرفة النصوص و فهمها، و استنباط الأحكام منها. فإن من جهلها و قاس برأيه، فما سئل عنه بغير علم، بل لمجرد قدر جامع بين الشئيين الحق أحدهما بالآخر أو لمجرد قدر فارق يراه بينهما، يفرق بينهما فى الحكم من غير نظر إلى النصوص و الآثار، فقد وقع فى الرأى المذموم

الباطل. فصل و أصل النوع الثالث: الرأى المتضمن تعطيل أسماء الرب و صفاته و أفعاله بالمقاييس الباطلة، التى وضعها أهل البدع و الضلال من الجهمية و المعتزلة و القدرية، و من ضاهاهم. حيث استعمل أهله قياساتهم الفاسدة، و آراءهم الباطلة، و شبههم الداحضة فى رد النصوص الصحيحة الصريحة، فردوا لأجلها ألفاظ النصوص التى وجدوا السبيل إلى تكذيب رواتها، و تخطتتهم، و معانى النصوص التى لم يجدوا إلى رد ألفاظها سبيلا، فقابلوا النوع الأول بالتكذيب، و النوع الثانى بالتحريف و التأويل. فأنكروا لذلك رؤية المؤمنين لربهم فى الآخرة، و أنكروا كلامه و تكليمه لعباده، و أنكروا مباينته للعالم، و استواءه على عرشه، و علوه على المخلوقات و عموم قدرته على كل شىء، بل أخرجوا أفعال عباده من الملائكة و الأنبياء و الجن و الإنس عن تعلق قدرته و مشيئته و تكوينه لها. و نفوا لأجلها حقائق ما أخبر به عن نفسه و أخبر به رسوله من صفات كماله و نعوت جلاله، و حرفوا لأجلها النصوص عن مواضعها، و أخرجوها عن معانيها و حقائقها بالرأى المجرد الذى حقيقته: أنه ذبالة الأذهان، و نخالة الأفكار، و عفارة الآراء، و وساوس الصدور، فملثوا به الأوراق سوادا، و القلوب شكوكا و العالم فسادا. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٥٢ و كل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم و خرابه إنما نشأ من تقديم الرأى على الوحى، و الهوى على العقل. و ما استحکم هذان الأصلان الفاسدان فى قلب إلا استحکم هلاكه، و فى أمة إلا و فسد أمرها أتم فساد، فلا إله إلا الله! كما نفى بهذه الآراء من حق، و أثبت بها من باطل، و أميت بها من هدى، و أحيى بها من ضلالة، و كم هدم بها من معقل الإيمان، و عمر بها من دين الشيطان. و أكثر أصحاب الجحيم. هم أهل هذه الآراء الذين لا-سمع لهم، و لا-عقل بل هم شر من الحر، و هم الذين يقولون يوم القيامة: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ [الملوك: ١٠]. النوع الرابع: الرأى الذى أحدثت به البدع، و غيرت به السنن، و عم به البلاء و تربى عليه الصغير، و هرم فيه الكبير، فهذه الأنواع الأربعة من الرأى الذى اتفق سلف الأمة و أئمتها، على ذمه و إخراجها من الدين. النوع الخامس: ما ذكره أبو عمر بن عبد البر عن جمهور أهل العلم أن الرأى المذموم فى هذه الآثار عن النبى صلى الله عليه و سلم، و عن أصحابه و التابعين رضى الله عنهم، أنه القول فى أحكام شرائع الدين بالاستحسان و الظنون، و الاشتغال بحفظ المعضلات و الأغلوطات، و رد الفروع بعضها على بعض قياسا دون ردها على أصولها، و النظر فى عللها و اعتبارها، فاستعمل فيها الرأى قبل أن ينزل، و فرعت و شقت قبل أن تقع، و تكلم فيها قبل أن يكون بالرأى المضارع للظن، قالوا: و فى الاشتغال بهذا و الاستغراق فيه تعطيل السنن و البعث على جهلها، و ترك الوقوف على ما يلزم الوقوف عليه منها، و من كتاب الله عز و جلّ و معانيه، احتجوا على ما ذهبوا إليه بأشياء. ثم ذكر من طريق أسد بن موسى: ثنا شريك عن ليث عن طاوس عن ابن عمر قال: لا تسألوا عما لم يكن؛ فإنى سمعت عمر يلعن من يسأل عما لم يكن. ثم ذكر من طريق أبى داود، ثنا إبراهيم بن موسى الرازى، ثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعى عن عبد الله بن سعد عن الصنابحى عن معاوية أن النبى صلى الله عليه و سلم نهى عن الأغلوطات. و قال أبو بكر بن أبى شيبة: ثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعى بإسناده مثله، و قال: فسره الأوزاعى: يعنى صعاب المسائل. و قال الوليد بن مسلم عن الأوزاعى عن عبد الله بن سعد عن عبادة بن قيس الصنابحى عن معاوية بن أبى سفيان أنهم ذكروا المسائل عنده، فقال: أ تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه و سلم نهى عن عضل المسائل؟ قال أبو عمر: و احتجوا أيضا بحديث سهل و غيره: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كره المسائل البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٥٣ و عابها، و بأنه صلى الله عليه و سلم قال: «إن الله يكره لكم قيل و قال: و كثرة السؤال...» «١». و قال ابن أبى خيثمة. ثنا أبى، ثنا عبد الرحمن بن مهدي، ثنا مالك عن الزهرى عن سهل بن سعد قال: لعن رسول الله صلى الله عليه و سلم المسائل و عابها، قال أبو بكر: هكذا ذكره أحمد بن زهير بهذا الإسناد، و هو خلاف لفظ «الموطأ». قال أبو عمر: و فى سماع أشهب سئل مالك عن قول رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أنهاكم عن قيل و قال، و كثرة السؤال». فقال: أما كثرة السؤال، فلا أدرى أ هو ما أتمت فيه مما أنهاكم عنه من كثرة المسائل فقد كره رسول الله صلى الله عليه و سلم المسائل و عابها. و قال الله عز و جل: لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ [المائدة: ١٠١] فلا أدرى أ هو هذا أم السؤال فى مسألة الناس فى الاستعطاء. و قال الأوزاعى عن عبدة بن أبى لبابة: وددت أن حظى من أهل هذا الزمان أن لا أسألهم عن شىء، و لا يسألونى، و يتكاثرون بالمسائل كما يتكاثرون أهل الدراهم بالدراهم. قال: و احتجوا

أيضا بما رواه ابن شهاب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص أنه سمع أباه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين، فحرم عليهم من أجل مسألتهم» (٢). وروى ابن وهب أيضا قال: حدثني ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «ذروني مما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء، فخذوا منه ما استطعتم» (٣). وقال سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن طاوس قال: قال عمر بن الخطاب وهو على المنبر: «أحرج بالله على كل امرئ سأل عن شيء لم يكن فإن الله قد بين ما هو كائن». وقال أبو عمر: وروى جرير بن عبد الحميد، ومحمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: ما رأيت قوما خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة، حتى قبض صلى الله عليه وسلم كلهم في القرآن: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ (١) البخارى (٢٤٠٨) في كتاب

الاستقراض، باب: ما ينهى عن إضاعة المال، وأحمد (٣٢٧/٢)، (٢) البخارى (٧٢٨٩) في الاعتصام، باب: ما يكره من كثرة السؤال ... إلخ، ومسلم (١٣٢/٢٣٥٨) في الفضائل، باب: توقيره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله ... إلخ (٣) مسلم (٣٢٤٤/٤١٢) في الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، والترمذى (٢٦٧٩) في العلم، باب: الانتهاء عما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحمد (٢٤٧/٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٥٤ [البقرة: ٢٢٢]، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ [البقرة: ٢١٧]، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى [البقرة: ٢٢٠] (١) ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم. قال أبو عمر: ليس في الحديث من الثلاث عشرة مسألة إلا ثلاث. قلت: ومراد ابن عباس بقوله ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة، المسائل حكاها الله في القرآن عنهم، وإلا فالمسائل التي سألوه عنها، وبين لهم أحكامها بالسنة لا تكاد تحصى، ولكن إنما كانوا يسألون عما ينفعهم من الواقعات، ولم يكونوا يسألونه عن المقدرات والأغلوطات، وعضل المسائل، ولم يكونوا يشتغلون بتفريع المسائل وتوليدها، بل كانت همهم مقصورة على تنفيذ ما أمرهم به، فإذا وقع بهم أمر سألوا عنه، فأجابهم. وقد قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَشْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) [المائدة]. وقد اختلف في هذه الأشياء المستول عنها: هل هي أحكام قدرية أو أحكام شرعية؟ على قولين، فقيل: إنها أحكام شرعية، عفا الله عنها، أى: سكت على تحريمها فيكون سؤالهم عنها سبب تحريمها، ولو لم يسألوا، لكانت عفوا. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الحج: أفى كل عام؟ فقال: «لو قلت نعم لوجبت، ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم» (٢). و يدل على هذا التأويل حديث أبي ثعلبة المذكور: «إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما» الحديث (٣)، ومنه الحديث الآخر: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان، فلا تبحثوا عنها» (٤)، وفسرت بسؤالهم عن أشياء من الأحكام القدرية، كقول عبد الله ابن حذافة: من أبى يا رسول الله؟ (٥) وقول آخر: أيمن أبى رسول الله؟ قال: «فى النصار» (٦).

قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/١٦٤): «فيه عطاء بن السائب، وهو ثقة ولكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات». (٢) سبق تخريجهما فى الصفحة السابقة، هامش (٢، ٣). (٣) سبق تخريجهما فى الصفحة السابقة، هامش (٢، ٣). (٤) البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/١٢)، و الحاكم فى المستدرک (٤/١١٥) وسكت عنه هو و الذهبى. (٥) البخارى (٩٢) فى العلم، باب: الغضب فى الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره، ومسلم (١٣٨/٦٠٧٨) فى الفضائل، باب: توقيره صلى الله عليه وسلم وترك إكثار سؤاله ... إلخ. (٦) مسلم (٣٤٧/٢٠٣) فى الإيمان، باب: بيان أن من مات على الكفر فهو فى النار ... إلخ. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٥٥ والتحقيق أن الآية تعم النهى عن النوعين، وعلى هذا فقوله تعالى: إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَشْؤُكُمْ [المائدة: ١٠١] أما فى أحكام الخلق والقدر فإنه يسوؤهم أن يبدو لهم ما

يكرهونه، مما يسألون عنه، و أما في أحكام التكليف، فإنه يسوؤهم أن يبدو لهم ما يشق عليهم تكليفه مما سألوا عنه. وقوله تعالى: وَ إِنْ تَسْتَأْذِنُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ فِيهِ قَوْلَان: أحدهما: أن القرآن إذا نزل بها ابتداء بغير سؤال، فسألتم عن تفصيلها و علمها، أبدى لكم، و بين لكم، و المراد بحين النزول: زمنه المتصل به لا- الوقت المقارن للنزول، و كأن في هذا إذنا لهم في السؤال عن تفصيل المنزل و معرفته بعد إنزاله، ففيه رفع لتوهم المنع من السؤال عن الأشياء مطلقا. و القول الثاني: أنه من باب التهديد و التحذير، أى ما سألتم عنها فى وقت نزول الوحي جاءكم ما سألتم عنه بما يسوؤكم، و المعنى: لا- تتعرضوا للسؤال عما يسوؤكم بيانه، و إن تعرضتم له فى زمن الوحي أبدى لكم. و قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْهَا أى عن بيانها خيرا و أمرا، بل طوى بيانها عنكم رحمة و مغفرة و حلما و الله غفور رحيم، فعلى القول الأول: عفا الله عن التكليف بها توسعة عليكم، و على القول الثاني عفا الله عن بيانها؛ لثلا يسوؤكم بيانها. و قوله: قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) [المائدة] أراد نوع تلك المسائل لا أعيانها، أى قد تعرض قوم من قبلكم لأمثال هذه المسائل، فلما بينت لهم كفروا بها، فاحذروا مشابهتهم، و التعرض لما تعرضوا له، و لم ينقطع حكم هذه الآية بل لا ينبغي للعبد أن يتعرض للسؤال عما إن بدا له ساءه، بل يستعفى ما أمكنه و يأخذ بعفو الله؛ و من هاهنا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: يا صاحب الميزاب، لا- تخبرنا، لما سأله رفيقه عن مائه أ طاهر، أم لا؟ و كذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يبدى له من أحواله و عاقبته ما طواه عنه و ستره، فلعله يسوؤه، إن أبدى له، فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله؛ فإنه- سبحانه- يكره إبداءها، و لذلك سكت عنها، و الله أعلم.

الآثار عن التابعين فى ذم الرأى

الآثار عن التابعين فى ذم الرأى قالوا: و من تدبر الآثار المروية فى ذم الرأى وجدها لا تخرج عن هذه الأنواع المذمومة، و نحن نذكر آثار التابعين، و من بعدهم بذلك؛ ليتبين مرادهم، قال الخشنى: ثنا البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٥٦ محمد بن بشار، ثنا يحيى. بن سعيد القطان، عن مجالد، عن الشعبى. قال: لعن الله أ رأيت، قال: يحيى بن سعيد: و ثنا صالح بن مسلم، قال: سألت الشعبى عن مسألة من النكاح، فقال إن أخبرتك برأى قبل عليه. قالوا: فهذا قول الشعبى فى رأيه، و هو من كبار التابعين، و قد لقي مائة و عشرين من الصحابة، و أخذ عن جمهورهم. و قال الطحاوى: ثنا سليمان بن شعيب، ثنا عبد الرحمن بن خالد، ثنا مالك بن مغول، عن الشعبى قال: ما جاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم فخذوه، و ما كان رأيهم، فاطرحوه فى الحش «١». و قال البخارى: حدثنا سنيد بن داود، ثنا حماد بن زيد، عن زيد، عن عمرو بن دينار قال: قيل لجابر بن زيد إنهم يكتبون ما يسمعون منكم، قال: إنا لله و إنا إليه راجعون، يكتبونه و أنا أرجع عنه غدا! قال إسحاق بن راهويه: قال سفيان بن عيينة: اجتهد الرأى هو مشاورة أهل العلم، لا أن يقول هو برأيه. و قال ابن أبى خيثمة: ثنا الحوطى، ثنا إسماعيل بن عياش، عن سواده بن زياد و عمرو بن المهاجر، عن عمر بن عبد العزيز: أنه كتب إلى الناس أنه لا رأى لأحد مع سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم. قال أبو بصيرة: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول للحسن البصرى: بلغنى أنك تفتى برأيك، فلا تفت برأيك إلا أن يكون سنة عن رسول الله. و قال البخارى: حدثنى محمد بن محبوب، ثنا عبد الواحد، ثنا ابن الزبير بن عبد الله الأسيدى أن أبا وائل شقيق بن سلمة قال: إياك و مجالسة من يقول: أ رأيت أ رأيت. و قال أبان بن عيسى بن دينار، عن أبيه، عن ابن القاسم، عن مالك عن ابن شهاب، قال: دعوا السنة تمضى لا تعرضوا لها بالرأى. و قال يونس عن أبى الأسود، و هو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل سمعت عروة بن الزبير يقول: ما زال أمر بنى إسرائيل معتدلا، حتى نشأ فيها المولىدون أبناء سببا الأمام،

(١) الحش بضم الحاء و فتحها و كسرهما: البستان و المخرج أيضا؛ لأنهم كانوا يقضون حوائجهم فى البساتين. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٥٧ فأخذوا فيها بالرأى، فأصلوهم. و ذكر ابن وهب عن ابن شهاب أنه قال و هو يذكر ما وقع فيه الناس من هذا الرأى، و تركهم السنن، فقال: إن اليهود و

النصارى إنما انسلخوا من العلم الذى بأيديهم حين اتبعوا الرأى، و أخذوا فيه. و قال ابن وهب: حدثنى ابن لهيعة أن رجلا سأل سالم بن عبد الله بن عمر عن شىء فقال: لم أسمع فى هذا شيئاً، فقال له الرجل: فأخبرنى أصلحك الله برأيك، فقال: لا، ثم أعاد عليه: إنى أرضى برأيك، فقال سالم: إنى لعلى إن أخبرتك برأىي ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيا غيره، فلا أجدك. و قال البخارى: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأويسى، ثنا مالك بن أنس، قال: كان ربيعة يقول لابن شهاب: إن حالى ليس يشبه حالك أنا أقول برأىي، من شاء أخذه و عمل به، و من شاء تركه. و قال الفريانى: ثنا أحمد بن إبراهيم الدورقى، قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: سمعت حماد بن زيد يقول: قيل لأيوب السخيتانى: مالك لا تنظر فى الرأى؟ فقال: أيوب: قيل للحمار: مالك لا تجتر؟ قال: أكره مضغ الباطل! و قال الفريانى: ثنا العباس بن الوليد بن مزيد: أخبرنى أبى، قال سمعت الأوزاعى يقول: عليك بآثار من سلف، و إن رفضك الناس، و إياك و آراء الرجال و إن زخرفوا لك القول. و قال أبو زرعة: ثنا أبو مسهر، قال: كان سعيد بن عبد العزيز إذا سئل لا يجيب حتى يقول: لا حول و لا قوة إلا بالله، هذا الرأى، و الرأى يخطئ و يصيب. و قد روى أبو يوسف، و الحسن بن زياد، كلاهما عن أبى حنيفة أنه قال: علمنا هذا رأى، و هو أحسن ما قدرنا عليه، و من جاءنا بأحسن منه قبلناه منه. و قال الطحاوى: ثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، ثنا أشهب بن عبد العزيز، قال: كنت عند مالك، فسئل عن البتة «١». فأخذت ألواحى، لأكتب ما قال، فقال لى مالك: لا تفعل، فعسى فى العشى أقول: إنها واحدة. و قال معن بن عيسى الفزاز: سمعت مالكا يقول: إنما أنا بشر أخطئ و أصيب، فانظروا فى قولى، فكل ما وافق الكتاب و السنة فخذوا به، و ما لم يوافق الكتاب و السنة، فاتركوه. فرضى الله عن أئمة الإسلام، و جزاهم عن نصيحتهم خيرا، و لقد امتثل وصييتهم، و سلك سبيلهم أهل العلم و الدين من أتباعهم.

(١) طلقها بتة و بتاتا أى بآئنة. البدائع

فى علوم القرآن، ص: ٣٥٨

موقف أهل الرأى من السنة

موقف أهل الرأى من السنة و أما المتعصبون فإنهم عكسوا القضية و نظروا فى السنة فما وافق أقوالهم منها قبلوه، و ما خالفها تحيلوا فى رده أو رد دلالتة، و إذا جاء نظير ذلك أو أضعف منه سندا و دلالة، و كان يوافق قولهم قبلوه و لم يستجيزوا رده، و اعترضوا به على منازعتهم، و أشاحوا و قرروا الاحتجاج بذلك السند و دلالتة، فإذا جاء ذلك السند بعينه أو أقوى منه، و دلالتة كدلالة ذلك أو أقوى منه فى خلاف قولهم، دفعوه و لم يقبلوه، و سنذكر من هذا إن شاء الله طرفا عند ذكر غائلة التقليد و فساده، و الفرق بينه و بين الاتباع.

كلام أئمة الفقهاء عن الرأى

كلام أئمة الفقهاء عن الرأى و قال بقى بن مخلد: ثنا سحنون و الحارث بن مسكين، عن القاسم، عن مالك، أنه كان يكثر أن يقول: **إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَ مَا نَعْنُ بِمُشَيِّقِينَ** [الجائية: ٣٢]. و قال القعنبي: دخلت على مالك بن أنس فى مرضه الذى مات فيه، فسلمت عليه، ثم جلست، فرأيتة يبكى، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن، ما الذى يبكيك؟ فقال لى: يا ابن قعنب، و ما لى لا أبكى، و من أحق بالبكاء منى؟ و الله لو ددت أنى ضربت بكل مسألة أفيتت فيها بالرأى سوطا، و قد كانت لى السعة فيما قد سبقت إليه، وليتنى لم أفث بالرأى. و قال ابن أبى داود: ثنا أحمد بن سنان، قال: سمعت الشافعى يقول: مثل الذى ينظر فى الرأى، ثم يتوب منه مثل المجنون الذى عولج حتى برأ، فأعقل ما يكون قد هاج به. و قال ابن أبى داود: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: سمعت أبى يقول: لا تكاد ترى أحدا نظر فى الرأى إلا و فى قلبه دغل. و قال عبد الله بن أحمد أيضا: سمعت أبى يقول: الحديث الضعيف أحب إلنى من الرأى، فقال عبد الله: سألت أبى عن الرجل يكون ببلد، لا يجد فيه إلا صاحب حديث، لا يعرف صحيحه من سقيمته، و أصحاب رأى، فتنزل به النازلة، فقال أبى: يسأل أصحاب الحديث، و لا يسأل أصحاب الرأى، ضعيف الحديث أقوى من الرأى «١».

النهى عن تفسير القرآن بمجرد الاحتمال النحوى الإعرابى

النهى عن تفسير القرآن بمجرد الاحتمال النحوى الإعرابى لا- يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل و يفسر بمجرد الاحتمال النحوى الإعرابى الذى يحتمله (_____ (١) إعلام الموقعين (١/١٠٣-١١٤). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٥٩ تركيب الكلام، و يكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن. فإنهم يفسرون الآية و يعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، و يفهم من ذلك التركيب أى معنى اتفق. و هذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره و إن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى فى سياق آخر و كلام آخر، فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن. مثل قول بعضهم فى قراءة من قرأ: وَ الْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا [النساء] بالجر أنه قسم. و مثل قول بعضهم فى قوله تعالى: وَ صَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ [البقرة: ٢١٧] أن المسجد مجرور بالعطف على الضمير المجرور فى «به». و مثل قول بعضهم فى قوله تعالى: لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ [النساء: ١٦٢] أن المقيمين مجرور بواو القسم، و نظائر ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا و أوهى بكثير. بل للقرآن عرف خاص و معان معهودة لا يناسبه تفسيره غيرها و لا يجوز تفسيره بغير عرفه و المعهود من معانيه، فإن نسبة معانيه إلى المعانى كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ و أجلها و أفصحها و لها من الفصاحة أعلى مراتبها التى يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعانى و أعظمها و أفخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعانى التى لا تليق به، بل غيرها أعظم منها و أجل و أفخم، فلا- يجوز حمله على المعانى القاصرة بمجرد الاحتمال النحوى الإعرابى. فتدبر هذه القاعدة، و لتكن منك على بال، فإنك تنتفع بها فى معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين و زيفها، و تقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه. و سنزيد هذا إن شاء الله تعالى بيانا و بسطا فى الكلام على أصول التفسير، فهذا أصل من أصوله بل هو أهم أصوله «١».

(_____ (١) بدائع الفوائد (٣/٢٧، ٢٨) البدائع

فى علوم القرآن، ص: ٣٦٠

من فوائد الإخبار عن المحسوس الواقع

إشارة

من فوائد الإخبار عن المحسوس الواقع إخبار الرب- تبارك و تعالى- عن المحسوس الواقع له عدة فوائد، منها: أن يكون توطئة و تقدمة لإبطال ما بعده. و منها: أن يكون موعظة و تذكيرا. و منها: أن يكون شاهدا على ما أخبر به من توحيده و صدق رسوله و إحياء الموتى. و منها: أن يذكر فى معرض الامتنان. و منها: أن يذكر فى معرض اللوم و التوبيخ. و منها: أن يذكر فى معرض المدح و الذم. و منها: أن يذكر فى معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه، و غير ذلك من الفوائد «١».

«عسى» من الله واجب

«عسى» من الله واجب فى حديث أبا «٢» لبابة لما بلغ النبى صلى الله عليه و سلم ارتباطه، قال: «لو أتانى لاستغفرت له، و إذا فعل فلست أطلقه حتى يطلقه الله» «٣»؛ فأنزل الله تعالى: وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ [التوبة: ١٠٢] إلى قوله: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ [التوبة: ١٠٢]، فأطلقه النبى صلى الله عليه و سلم حينئذ. و فى هذا ما يدل على صحة قول المفسرين: إن عسى من الله واجب، و فيه أن فاطمة جاءت تحله فقال: لا، إلا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: «فاطمة بضعة منى» «٤» فإن قيل: فهل يبر الحالف بمثل هذا لو اتفق

اليوم؟ قيل: لا، إما لأنه مختص بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإما لأن فاطمة بضعة منه قطعاً، والله أعلم «٥».

(١) بدائع الفوائد (٤ / ١٠). (٢) هذا على لغة القصر، وعلى لغة التمام (أبي). (٣) دلالات النبوة للبيهقي (٥ / ٢٧١، ٢٧٢). (٤) البخاري (٣٧١٤) في فضائل الصحابة ن باب: مناقب قرابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٥) بدائع الفوائد (٣ / ٢١٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٦١

تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد

تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد استدلال على تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد، بتخصيص آية الميراث بقوله: «لا نورث، ما تركناه صدقة» «١»، والصديق أول من خصصه. قال ابن عقيل: وهذه بلاهة من هذا المستدل؛ فإن الصديق لم يخصه إلا بما سمعه شفاهاً من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو قطعي وليس النزاع فيه «٢».

هل نقل من القرآن آحاداً؟

هل نقل من القرآن آحاداً؟ الكلام فيما نقل من القرآن آحاداً في فصلين: أحدهما: كونه من القرآن، والثاني: وجوب العمل به، ولا ريب أنهما حكمان متغايران؛ فإن الأول يوجب انعقاد الصلاة به و تحريم مسه على المحدث، و قراءته على الجنب، وغير ذلك من أحكام القرآن؛ فإذا انتفت هذه الأحكام لعدم التواتر لم يلزم انتفاء العمل به، فإنه يكفي فيه الظن. وقد احتج كل واحد من الأئمة الأربعة به في موضع، فاحتج به الشافعي وأحمد في هذا الموضع، واحتج به أبو حنيفة في وجوب التتابع في صيام الكفارة بقراءة ابن مسعود: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». واحتج به مالك والصحابة قبله في فرض الواحد من ولد الأم، أنه السدس بقراءة أبي: وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ [النساء: ١٢]، فالناس كلهم احتجوا بهذه القراءة، ولا مستند للإجماع سواها. قالوا: وأما قولكم إما أن يكون نقله قرآناً أو خبراً، قلنا: بل قرآناً صريحاً. قولكم: فكان يجب نقله متواتراً، قلنا: حتى إذا نسخ لفظه، أو بقي، أما الأول: فممنوع، والثاني: مسلم، وغاية ما في الأمر أنه قرآن نسخ لفظه و بقي حكمه؛ فيكون له حكم قوله: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما» «٣»، مما اكتفى بنقله آحاداً، وحكمه ثابت، وهذا مما لا جواب عنه «٤».

(١) البخاري (٦٧٢٤) في الفرائض،

باب: قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا نورث ما تركناه صدقة»، و مسلم (٤٩ / ٤٥٥٢) في الجهاد والسير، باب: حكم الفيء، وأحمد (٤ / ١). (٢) بدائع الفوائد (٤ / ٤٤). (٣) ابن ماجه (٢٥٥٣) في الحدود، باب: الرجم، وأحمد (٥ / ١٨٣). (٤) زاد المعاد (٥ / ٥٧٣).

البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٦٢

تفسير القرآن بالسنة

إشارة

تفسير القرآن بالسنة و سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفسرة للقرآن و مترجمه عنه، و على هذا أكثر الأحكام، كقوله: «لا وصية لوارث» «١»، و «الرجم على المحصن» «٢»، و «النهي عن نكاح المرأة على عمتها و خالتها» «٣»، و «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» «٤»، و «قطع الموارثة بين أهل الإسلام و أهل الكفر» «٥»، و «إيجابه على المطلقة ثلاثاً: مسيس الزوج الآخر» «٦» في شرائع كثيرة، لا يوجد لفظها في ظاهر الكتاب، و لكنها سنن شرعها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فعلى الأمة اتباعها، كاتباع الكتاب. و كذلك الشاهد و اليمين لما قضى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهما. و إنما في الكتاب: فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتَانِ [البقرة: ٢٨٢] علم أن

ذلك إذا وجدنا، فإذا عدت ما قامت اليمين مقامهما، كما علم حين مسح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الخفين أن قوله تعالى: وَ أَرْجُلُكُمْ [المائدة: ٦] معناه: أن تكون الأقدام بادية. وكذلك لما رجم المحصن في الزنا: علم أن قوله: فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً [النور: ٢] للبركين. وكذلك كل ما ذكرنا من السنن على هذا فما بال الشاهد واليمين ترد من بينهما، وإنما هي ثلاث منازل في شهادات الأموال اثنتان بظاهر الكتاب وواحدة بتفسير السنة له. فالمنزلة الأولى: الرجال. (١) البخارى (٢٧٤٧) في الوصايا،

باب: لا وصية لوارث و أبو داود (٣٥٦٥) في البيوع، باب: في تضمين العارية، و الترمذى (٢١٢٠) في الوصايا، باب: ما جاء لا وصية لوارث. (٢) البخارى (٦٨٢٥) في الحدود، باب: سؤال الإمام المقر: هل أحصنت؟ و مسلم (١٥/٤٣٩٤) في الحدود، باب: رجم الثيب في الزنا. (٣) البخارى (٥١٠٩) في النكاح، باب: لا تنكح المرأة على عمتها، و مسلم (٣٣/٣٤٢٢) في النكاح، باب: تحريم الجمع بين المرأة و عمتها أو خالتها في النكاح. (٤) البخارى (٢٦٤٥) في الشهادات، باب: الشهادة على الأنساب ... إلخ، و مسلم (٩/١٤٤٥) في الرضاع، باب: تحريم الرضاعة من ماء الفحل. (٥) أبو داود (٢٩٠٩) في الفرائض، باب: هل يرث المسلم الكافر؟ و الترمذى (٢١٠٧) في الفرائض، باب: ما جاء في إبطال الميراث بين المسلم و الكافر، و قال «حسن صحيح»، و أحمد (١٧٨/٢). (٦) البخارى (٥٢٦٥) في الطلاق، باب: من قال لامرأته: أنت على حرام، و أحمد (٢١٤/١). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٦٣ و الثانية: الرجل و المرأتان. و الثالثة: الرجل و اليمين. فمن أنكر هذه لزمه إنكار كل شيء ذكرناه لا يجد من ذلك بدا حتى يخرج من قول العلماء. قال أبو عبيدة: يقال لمن أنكر الشاهد و اليمين، و ذكر أنه خلاف القرآن: ما تقول في الخصم يشهد له الرجل و المرأتان، و هو واجد لرجلين يشهدان له؟ فإن قالوا: الشهادة جائزة. قيل: ليس هذا أولى بالخلاف، و قد اشترط القرآن فيه ألا يكون للمرأتين شهادة إلا مع فقد أحد الرجلين. فإنه سبحانه قال: فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتَانِ [البقرة: ٢٨٢]، و لم يقل: و استشهدوا شهيدين من رجالكم أو رجلا و امرأتين: فيكون فيه الخيار، كما جعله في الفدية كما قال تعالى: فَفِدْيَةٌ مِنْ صَيَّامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ [البقرة: ١٩٦]، و مثل ما جعله في كفارة اليمين بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فهذه أحكام الخيار. و لم يقل ذلك في آية الدين. ولكنه قال فيها كما قال في آية الفرائض: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرَثَةٌ أَبَوَاهُ فَلِأُمَّهِ الثُّلُثُ [النساء: ١١]. و كذلك الآية التي بعدها فقوله هاهنا: «إن لم يكن» كقوله في آية الشهادة: «إن لم يكونا» كذلك قال في آية الطهور: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَيِّمًا طَيِّبًا [المائدة: ٦] و في آية الظهار: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَّةً يَوْمَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ [المجادلة: ٤] و كذلك في متعة الحج و كفارة اليمين: أن الصوم لا يجزى الواحد: فأى الحكمين أولى بالخلاف: هذا أم الشاهد و اليمين، الذى ليس فيه من الله اشتراط منع، إنما سكت عنه، ثم فسرتة السنة؟ قال أبو عبيدة: و قد وجدنا في حكمهم ما هو أعجب من هذا، و هو قولهم في رضاع اليتيم الذى لا مال له، و له خال و ابن عم موسران: إن الخال يجبر على رضاعه، لأنه محرم و إنما اشترط التنزيل غيره. فقال: وَ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ [البقرة: ٢٣٣]، و قد أجمع المسلمون أن لا ميراث للخال مع ابن العم. ثم نجد هذا الحكم في السنة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و لا عن أحد من سلف العلماء. و قد وجدنا الشاهد و اليمين في آثار متواترة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و عن غير واحد من الصحابة و من التابعين. و قال الربيع: قال الشافعى: قال بعض الناس فى اليمين مع الشاهد قولاً أسرف فيه على نفسه، قال: أرد حكم من حكم بها، لأنه خالف القرآن. فقلت له: الله تعالى أمر بشاهدين أو شاهد و امرأتين؟ قال: نعم. فقلت: أ حتم من الله ألا يجوز أقل من شاهدين؟ قال: فإن قلته؟ قلت: فقله، قال: قد قلته، قلت: و تحد فى الشاهدين اللذين أمر الله بهما حدا؟ قال: البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٦٤ نعم، حران مسلمان بالغان عدلان. قلت: و من حكم بدون ما قلت خالف حكم الله؟ قال: نعم، قلت له: إن كان كما زعمت، خالفت حكم الله. قال: و أين؟ قلت: أجزت شهادة أهل الذمة، و هم غير الذين شرط الله أن تجوز شهادتهم و أجزت شهادة القابلة وحدها على الولادة، و هذان وجهان أعطيت بهما من جهة الشهادة، ثم أعطيت بغير شهادة فى القسامة و غيرها. قلت: و القضاء باليمين مع الشاهد ليس يخالف حكم الله، بل هو موافق لحكم الله، إذ فرض الله تعالى طاعة رسوله، فإن اتبعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعن الله - سبحانه - قبلت، كما

قلت عن رسوله. قال: أفيوجد لهذا نظير في القرآن؟ قلت: نعم، أمر الله - سبحانه - في الوضوء بغسل القدمين، أو مسحهما فمسخنا على الخفين بالسنة. وقال تعالى: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا يَهُ [الأنعام: ١٤٥] فحرمنا نحن و أنت كل ذى ناب من السباع بالسنة. وقال: وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ [النساء: ٢٤]. فحرمنا نحن و أنت الجمع بين المرأة و عمتها، و بينها و بين خالتها. و ذكر الرجم و نصاب السرقة، قال: و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم المبين عن الله معنى ما أراد خاصا و عاما. و قال شيخ الإسلام ابن تيمية: القرآن لم يذكر الشاهدين، و الرجل و المرأتين فى طرق الحكم التى يحكم بها الحاكم. و إنما ذكر النوعين من البيئات فى الطرق التى يحفظ بها الإنسان حقه. فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسِيْرَ تَطِيْعٌ أَنْ يُمْلَلْ هُوَ فْلْيَمْلَلْ وَتِيْهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ [البقرة: ٢٨٢]. فأمرهم - سبحانه - بحفظ حقوقهم بالكتاب. و أمر من عليه الحق أن يملى الكاتب فإن لم يكن ممن يصح إملاؤه أملى عنه و ليه. ثم أمر من له الحق أن يستشهد على حقه رجلين، فإن لم يجد فرجل و امرأتان. ثم نهى الشهود المحتملين للشهادة عن التخلف عن إقامتها إذا طلبوا لذلك. ثم رخص لهم فى التجارة الحاضرة: ألا يكتبوها. ثم أمرهم بالإشهاد عند التبائع. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٦٥ ثم أمرهم إذا كانوا على سفر - و لم يجدوا كاتباً - أن يستوثقوا بالرهان المقبوضة. كل هذا نصيحة لهم، و تعليم و إرشاد لما يحفظون به حقوقهم. و ما تحفظ به الحقوق شىء و ما يحكم به الحاكم شىء. فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين و المرأتين، فإن الحاكم يحكم بالنكول و اليمين المردودة. و لا ذكر لهما فى القرآن. فإن كان الحكم بالشاهد الواحد و اليمين مخالفا لكتاب الله، فالحكم بالنكول، و الرد اشد مخالفة. و أيضا، فإن الحاكم يحكم بالقرعة بكتاب الله و سنة رسوله الصريحة الصحيحة. و يحكم بالقافة بالسنة الصريحة الصحيحة التى لا معارض لها. و يحكم بالقسامه بالسنة الصحيحة الصريحة. و يحكم بشاهد الحال إذا تداعى الزوجان أو الصانعان متاع البيت و الدكان. و يحكم - عند من أنكر الحكم بالشاهد و اليمين - بوجود الأجر فى الحائط، فيجعله للمدعى إذا كانت إلى جهته. و هذا كله ليس فى القرآن، و لا حكم به رسول الله صلى الله عليه و سلم و لا - أحد من أصحابه. فكيف ساغ الحكم به، و لم يجعل مخالفا لكتاب الله، ورد ما حكم به رسول الله صلى الله عليه و سلم و خلفاؤه الراشدون و غيرهم من الصحابة، و يجعل مخالفا لكتاب الله؟ بل القول ما قاله أئمة الحديث: إن الحكم بالشاهد و اليمين: حكم بكتاب الله، فإنه حق، و الله - سبحانه - أمر بالحكم بالحق، فهاتان قضيتان ثابتتان بالنص. أما الأولى: فلأن رسول الله صلى الله عليه و سلم و خلفاء من بعده حكموا به و لا يحكمون بباطل. و أما الثانية: فلقوله تعالى: وَ أَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ [المائدة: ٤٩]. و قوله: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ [النساء: ١٠٥] فالحكم بالشاهد و اليمين مما أراد الله إياه قطعا. و قوله: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ [الشورى: ١٥]. و هذا مما حكم به، فهو عدل مأمور به من الله و لا بد. و الذين ردوا هذه المسألة لهم طرق: الطريق الأول: أنها خلاف كتاب الله، فلا تقبل. و قد بين الأئمة - كالشافعى و أحمد البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٦٦ و أبى عبيد و غيرهم - أن كتاب الله لا يخالفها بوجه، و إنها لموافقة لكتاب الله. و أنكر الإمام أحمد و الشافعى على من رد أحاديث رسول الله صلى الله عليه و سلم، لزعمه أنها تخالف ظاهر القرآن، و للإمام أحمد فى ذلك كتاب مفرد سماه: (كتاب طاعة الرسول). و الذى يجب على كل مسلم اعتقاده: أنه ليس فى سنن رسول الله صلى الله عليه و سلم الصحيحة سنة واحدة تخالف كتاب الله، بل السنن مع كتاب الله على ثلاث منازل: المنزلة الأولى: سنة موافقة شاهدة بنفس ما شهد به الكتاب المنزل. المنزلة الثانية: سنة تفسر الكتاب، و تبين مراد الله منه، و تقيده مطلقه. المنزلة الثالثة: سنة متضمنة لحكم سكت عنه الكتاب فتبينه بيانا مبتدأ. و لا يجوز رد واحدة من هذه الأقسام الثلاثة. و ليس للسنة مع كتاب الله منزلة رابعة. و قد أنكر الإمام أحمد على من قال: «السنة تقضى على الكتاب» فقال: بل السنة تفسر الكتاب و تبينه. و الذى يشهد الله و رسوله به: أنه لم تأت سنة صحيحة واحدة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم تناقض كتاب الله و تخالفه البتة.

كيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبين لكتاب الله، و عليه أنزل، و به هداه الله، و هو مأمور باتباعه، و هو أعلم الخلق بتأويله و مراده؟ و لو ساغ رد سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فهمه الرجل من ظاهر الكتاب، لردت بذلك أكثر السنن، و بطلت بالكلية. فما من أحد يحتج عليه بسنة صحيحة تخالف مذهبه و نحلته، إلا و يمكنه أن يتشبهت بعموم آية أو إطلاقها و يقول: هذه السنة مخالفة لهذا العموم و الإطلاق فلا تقبل. حتى إن الرافضة- قبهم الله- سلكوا هذا المسلك بعينه في رد السنن الثابتة المتواترة، فردوا قوله صلى الله عليه وسلم: «لا نورث ما تركناه صدقة» (١)، و قالوا: هذا حديث يخالف كتاب الله، قال تعالى: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي كَرِهَ مِثْلُ هَٰذَا لِلَّذِينَ نَحْنُ بِالْكَافِرِينَ [النساء: ١١]. و ردت الجهمية ما شاء الله من الأحاديث الصحيحة في إثبات الصفات بظاهر قوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى: ١١]. و ردت الخوارج من الأحاديث الدالة على الشفاعة و خروج أهل الكبائر من الموحدين (١) سبق تخريجه ص ٣٦١. البدائع في

علوم القرآن، ص: ٣٦٧ من النار، بما فهموه من ظاهر القرآن. و ردت الجهمية أحاديث الرؤية- مع كثرتها و صحتها- بما فهموه من ظاهر القرآن في قوله تعالى: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ [الأنعام: ١٠٣]. و ردت القدرية أحاديث القدر الثابتة بما فهموه من ظاهر القرآن. و ردت كل طائفة ما ردت من السنة بما فهموه من ظاهر القرآن. فإما أن يطرد الباب في رد هذه السنن كلها، و إما أن يطرد الباب في قبولها و لا- يرد شيء منها لما يفهم من ظاهر القرآن. أما أن يرد و يقبل بعضها- و نسبة المقبول إلى ظاهر القرآن كنسبة المردود- فتناقض ظاهر، و ما من أحد رد سنة بما فهمه من ظاهر القرآن إلا و قد قبل أضعافها مع كونها كذلك. و قد أنكر الإمام أحمد و الشافعي و غيرهما على من رد أحاديث تحريم كل ذى ناب من السباع بظاهر قوله تعالى: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا إِلَّا [الأنعام: ١٢٥]. و قد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من رد سنته التي لم تذكر في القرآن و لم يدع معارضة القرآن لها، فكيف يكون إنكاره على من ادعى أن سنته تخالف القرآن و تعارضه؟ (١)

منزلة السنة من القرآن

منزلة السنة من القرآن و السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه: أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه، فيكون توارد القرآن و السنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة و تضافرها. الثاني: أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن، و تفسيراً له. الثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمة لما سكت عن تحريمه، و لا تخرج عن هذه الأقسام. فلا تعارض القرآن بوجه ما، فما كان منها زائداً على القرآن، فهو تشريع مبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم تجب طاعته فيه، و لا تحل معصيته و ليس هذا تقديماً لها على كتاب الله، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله، و لو كان رسوله الله صلى الله عليه وسلم لا يطاع في هذا القسم، لم يكن لطاعته معنى (١) الطرق الحكيمة (٧٧-٨٤).

البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٦٨ و سقطت طاعته المختصة به، و إنه إذا لم تجب إلا فيما وافق القرآن، لا فيما زاد عليه، لم يكن له طاعة خاصة تختص به، و قال الله تعالى: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ [النساء: ٨٠]. و كيف يمكن أحداً من أهل العلم ألا- يقبل حديثاً زائداً على كتاب الله، فلا يقبل حديث تحريم المرأة على عمتها، و لا على خالتها، و لا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرم من النسب، و لا حديث خيار الشرط، و لا أحاديث الشفعة، و لا حديث الرهن في الحضر مع أنه زائد على ما في القرآن، و لا حديث ميراث الجدة، و لا- حديث تخيير الأمة إذا عتقت تحت زوجها، و لا حديث منع الحائض من الصوم و الصلاة، و لا حديث وجوب الكفارة على من جامع في نهار رمضان، و لا أحاديث إحداد المتوفى عنها زوجها مع زيادتها على ما في القرآن من العدة. فهلا قلت: إنها نسخ للقرآن، و هو لا ينسخ بالسنة، و كيف أوجبتم الوتر، مع أنه زيادة محضة على القرآن بخبر مختلف فيه، و كيف زدتم على كتاب الله فجوزتم الوضوء بنيذ التمر بخبر ضعيف؟ و كيف زدتم على كتاب الله، فشرطتم في الصداق أن يكون أقله عشرة دراهم بخبر لا يصح البتة، و هو زيادة محضة على القرآن؟ و قد أخذ الناس بحديث: «لا يرث المسلم الكافر و لا الكافر المسلم» (١)، و هو

زائد على القرآن و أخذوا بحديث توريثه صلى الله عليه و سلم بنت الابن السدس مع البنت، و هو زائد على ما في القرآن، و أخذ الناس كلهم بحديث استبراء المسيبة بحيضة، و هو زائد على ما في كتاب الله، و أخذوا بحديث: «من قتل قتيلًا فله سلبه» (٢)، و هو زائد على ما في القرآن من قسمة الغنائم، و أخذوا كلهم بقضائه صلى الله عليه و سلم الزائد على ما في القرآن من أن أعيان بنى الأبوين يتوارثون دون بنى العلات (٣)، الرجل يرث أخاه لأبيه، و أمه دون أخيه لأبيه. و لو تتبعنا هذا لطلال جدا. فسنن رسول الله صلى الله عليه و سلم أجل في صدورنا، و أعظم، و أفض علينا ألا-نقبلها إذا كانت زائدة على ما في القرآن، بل على الرأس و العينين. و كذلك فرض على الأمة الأخذ بحديث القضاء بالشاهد و اليمين، و إن كان زائدا على ما في القرآن، و قد أخذ به أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم و سلفهم و جمهور التابعين و الأئمة، و العجب ممن (١) سبق تخريجه (٣٦٢). (٢) أبو داود

(٢٧١٧) في الجهاد، باب: في السلب يعطى القتال، و أحمد (٣/١١٤). (٣) بنو العلات: بنو أمهات من رجل واحد. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٦٩ يرده؛ لأنه زائد على ما في كتاب الله. ثم يقضى بالنكول، و معاهد القمط، و وجوه الآجر (١) في الحائط، و ليست في كتاب الله، و لا سنة رسوله، و أخذتم أنتم و جمهور الأمة بحديث: «لا يقاد الوالد بالولد» (٢) مع ضعفه، و هو زائد على ما في القرآن، و أخذتم أنتم و الناس بحديث أخذ الجزية من المجوس، و هو زائد على ما في القرآن، و أخذتم مع سائر الناس بقطع رجل السارق في المرة الثانية، مع زيادته على ما في القرآن، و أخذتم أنتم و الناس بحديث النهى عن الاقتصاص من الجرح قبل الاندمال، و هو زائد على ما في القرآن، و أخذت الأمة بأحاديث الحضانه، و ليست في القرآن، و أخذتم أنتم و الجمهور باعتداد المتوفى عنها في منزلها، و هو زائد على ما في القرآن و أخذتم مع الناس بأحاديث البلوغ بالسن و الإنبات، و هي زائدة على ما في القرآن إذ ليس فيه الاحتلام، و أخذتم مع الناس بحديث: «الخراج بالضمآن» (٣) مع ضعفه، و هو زائد على القرآن، و بحديث النهى عن بيع الكالئ بالكالئ و هو زائد على ما في القرآن، و أضعاف أضعاف ما ذكرنا. بل أحكام السنة التي ليست في القرآن إن لم تكن أكثر منها لم تنقص عنها فلو ساغ لنا رد كل سنة زائدة كانت على نص القرآن، لبطلت سنن رسول الله صلى الله عليه و سلم كلها إلا سنة دل عليها القرآن، و هذا هو الذي أخبر النبي صلى الله عليه و سلم بأنه سيقع، و لا بد من وقوع خبره. فإن قيل: السنن الزائدة على ما دل عليه القرآن تارة تكون بياننا له، و تارة تكون منشئه لحكم لم يتعرض القرآن له، و تارة تكون مغيرة لحكمه، و ليس نزاعنا في القسمين الأولين فإنهما حجة باتفاق، و لكن النزاع في القسم الثالث و هو ترجمته بمسألة الزيادة على النص. و قد ذهب الشيخ أبو الحسن الكرخي، و جماعة كثيرة من أصحاب أبي حنيفة إلى أنها نسخ، و من هاهنا جعلوا إيجاب التغريب مع الجلد نسخا، كما لو زاد عشرين سوطا على الثمانين في حد القذف. و ذهب أبو بكر الرازي إلى أن الزيادة إن وردت بعد استقرار حكم النص منفردة عنه، كانت ناسخة، و إن وردت متصله بالنص قبل استقرار حكمه لم تكن ناسخة، و إن وردت و لا (١) اللبن المحرق المعد للبناء. (٢)

الترمذى (١٤٠٠) في الدييات، باب: ما جاء في الرجل يقتل ابنه يقاد منه أم لا، و ابن ماجه (٢٦٦٢) في الدييات، باب: لا يقتل الوالد بولده. (٣) الترمذى (١٢٨٥) في البيوع، باب: ما جاء فيمن يشتري العبد و يستغله... إلخ، و قال: «حسن صحيح»، و أبو داود (٣٣٦٥) في البيوع، باب: فيمن اشترى عبدا فاستعمله ثم وجد به عيبا. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٧٠ يعلم تاريخها، فإن وردت من جهة ثبت النص بمثلها، فإن شهدت الأصول من عمل السلف أو النظر على ثبوتها معا أثبتناهما، و إن شهدت بالنص منفردا عنها أثبتناه دونها، و إن لم يكن في الأصول دلالة على أحدهما، فالواجب أن يحكم بورودهما معا، و يكونان بمنزلة الخاص و العام، و إذا لم يعلم تاريخها، و لم يكن في الأصول دلالة على وجوب القضاء بأحدهما على الآخر، فإنهما يستعملان معا، و إن كان ورود النص من جهة توجب العلم كالكتاب و الخبر المستفيض، و ورود الزيادة من جهة أخبار الآحاد لم يجز إلحاقها بالنص، و لا العمل بها. و ذهب أصحابنا إلى أن الزيادة إن غيرت حكم المزيد عليه تغييرا بحيث إنه لو فعل على حد ما كان يفعل قبلها لم يكن معتدا به بل

يجب استثنائه، كان نسخا نحو ضم ركعة إلى ركعتي الفجر، وإن لم يغير حكم المزيد عليه، بحيث لو فعل على حد ما كان يفعل قبلها كان معتدا به، ولا يجب استثنائه، لم يكن نسخا، ولم يجعلوا إيجاب التغريب مع الجلد نسخا، وإيجاب عشرين جلدة مع الثمانين نسخا، وكذلك إيجاب شرط منفصل عن العبادة، لا يكون نسخا كإيجاب الوضوء بعد فرض الصلاة، ولم يختلفوا أن إيجاب زيادة عبادة على عبادة كإيجاب الزكاة بعد إيجاب الصلاة لا يكون نسخا، ولم يختلفوا أيضا أن إيجاب صلاة سادسة على الصلوات الخمس لا يكون نسخا.

الكلام عن الزيادة المغيّرة لحكم شرعي

الكلام عن الزيادة المغيّرة لحكم شرعي فالكلام معكم في الزيادة المغيّرة في ثلاثة مواضع: في المعنى والاسم والحكم. أما المعنى: فإنها تفيد معنى النسخ؛ لأنه الإزالة. والزيادة تزيل حكم الاعتداد بالمزيد عليه، وتوجب استثنائه بدونها، وتخرجه عن كونه جميع الواجب، وتجعله بعضه، وتوجب التأثيم على المقتصر عليه، بعد أن لم يكن إثما، وهذا معنى النسخ، وعليه يرتب الاسم، فإنه تابع للمعنى؛ فإن الكلام في زيادة شرعية مغيّرة للحكم الشرعي بدليل شرعي، متراخ عن المزيد عليه، فإن اختلف وصف من هذه الأوصاف، لم يكن نسخا، فإن لم تغير حكما شرعيا، بل رفعت حكم البراءة الأصلية لم تكن نسخا، كإيجاب عبادة بعد أخرى، وإن كانت الزيادة مقارنة للمزيد عليه، فإن اختلف وصف من هذه الأوصاف، لم يكن نسخا، فإن لم تغير حكما شرعيا، بل رفعت حكم البراءة الأصلية لم تكن نسخا، كإيجاب عبادة بعد أخرى، وإن كانت الزيادة مقارنة للمزيد عليه، لم تكن نسخا، وإن غيرته، بل تكون تقييدا، أو تخصيصا. وأما الحكم فإن كان النص المزيد عليه ثابتا بالكتاب، أو السنة المتواترة لم يقبل خبر البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٧١ الواحد بالزيادة عليه، وإن كان ثابتا بخبر الواحد قبلت الزيادة، فإن اتفقت الأمة على قبول خبر الواحد في القسم الأول علمنا أنه ورد مقارنا للمزيد عليه، فيكون تخصيصا لا نسخا. قالوا: وإنما لم يقبل خبر الواحد بالزيادة على النص؛ لأن الزيادة لو كانت موجودة معه لنقلها إلينا من نقل النص؛ إذ غير جائز أن يكون المراد إثبات النص معقودا بالزيادة، فيقتصر النبي صلى الله عليه وسلم على إبلاغ النص منفردا عنها، فواجب إذا أن يذكرها معه، ولو ذكرها لنقلها إلينا من نقل النص، فإن كان النص مذكورا في القرآن، والزيادة واردة من جهة السنة، فغير جائز أن يقتصر النبي صلى الله عليه وسلم على تلاوة الحكم المنزل في القرآن، دون أن يعقبها بذكر الزيادة؛ لأن حصول الفراغ من النص الذي يمكننا استعماله بنفسه يلزمنا اعتقاد مقتضاه من حكمه، كقوله: الزَّائِيَةُ وَالزَّائِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ [النور: ٢] فإن كان الحد هو الجلد والتغريب، فغير جائز أن يتلو النبي صلى الله عليه وسلم الآية على الناس عارية من ذكر النفي عقبها؛ لأن سكوته عن ذكر الزيادة معها يلزمنا اعتقاد موجبها، وأن الجلد هو كمال الحد، فلو كان معه تغريب لكان بعض الحد لا كماله، فإذا أخلى التلاوة من ذكر النفي عقبها، فقد أراد منا اعتقاد أن الجلد المذكور في الآية هو تمام الحد و كماله، فغير جائز إلحاق الزيادة معه إلا على وجه النسخ. ولهذا كان قوله: «و اغد يا أنيس على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها» (١) ناسخا لحديث عبادة بن الصامت: «الطيب بالثيب؛ جلد مائة، والرجم» (٢)، وكذلك لما رجم ماعزا، ولم يجلدته كذلك يجب أن يكون قوله: الزَّائِيَةُ وَالزَّائِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ [النور: ٢] ناسخا لحكم التغريب في قوله: «البكر بالبكر جلد مائة و تغريب عام» (٣) والمقصود أن هذه الزيادة لو كانت ثابتة مع النص لذكرها النبي صلى الله عليه وسلم عقيب التلاوة، ولنقلها إلينا من نقل المزيد عليه؛ إذ غير جائز عليهم أن يعلموا أن الحد مجموع الأمرين، وينقلوا بعضه دون بعض، وقد سمعوا الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الأمرين، فامتنع حينئذ العمل بالزيادة إلا من الجهة التي ورد منها الأصل، فإذا وردت من جهة الأحاد، فإن كانت قبل

(١) البخاري (٧٢٦٠) في أول أخبار الآحاد، و مسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨ / ٢٥) في الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنى. (٢) مسلم (١٦٩٠ / ١٢) في الحدود، باب: حد الزنى، و أبو داود (٤٤١٦) في الحدود، باب: في الرجم، و الترمذي (١٤٣٤) في الحدود، باب ما جاء في الرجم على الثيب، و ابن ماجه

(٢٥٥٠) في الحدود، باب: حد الزنى. (٣) مسلم (١٣/١٦٩٠) في الحدود، باب: حد الزنى، و أبو داود (٤٤١٥) في الحدود، باب: في الرجم، و الترمذى (١٤٣٤) في الحدود، باب: ما جاء في الرجم على الشيب. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٧٢ النص فقد نسخها النص المطلق عاريا من ذكرها، و إن كانت بعده، فهذا يوجب نسخ الآية بخبر الواحد و هو ممتنع، فإن كان المزيد عليه ثابتا بخبر الواحد جاز إلحاق الزيادة بخبر الواحد على الوجه الذى يجوز نسخ به، فإن كانت واردة مع النص فى خطاب واحد لم تكن نسخا، و كانت بيانا.

فالجواب من وجوه:

فالجواب من وجوه: أحدها: أنكم أول من نقض هذا الأصل الذى أصلمتموه، فإنكم قبلتم خبر الوضوء بنيذ التمر، و هو زائد على ما فى كتاب الله، مغير لحكمه؛ فإن الله سبحانه جعل حكم عدم الماء التيمم، و الخبر يقتضى أن يكون حكمه الوضوء بالنيذ، فهذه الزيادة بهذا الخبر الذى لا يثبت رافعه لحكم شرعى غير مقارنه له، و لا مقاومة بوجه. و قبلتم خبر الأمر بالوتر مع رفعه لحكم شرعى، و هو اعتقاد كون الصلاة الخمس هى جميع الواجب، و رفع التأثيم بالافتصار عليها، و إجراء الإتيان فى التعبد بفريضة الصلاة، و الذى قال هذه الزيادة هو الذى قال سائر الأحاديث الزائدة على ما فى القرآن، و الذى نقلها إلينا هو الذى نقل تلك بعينه، أو أوثق منه، أو نظيره، و الذى فرض علينا طاعة رسوله، و قبول قوله فى تلك الزيادة هو الذى فرض علينا طاعته، و قبول قوله فى هذه، و الذى قال لنا: و ما آتاكم الرسول فخذوه [الحشر: ٧] هو الذى شرع لنا هذه الزيادة على لسانه، و الله سبحانه و لاه منصب التشريع عنه ابتداء، كما و لاه منصب البيان لما أراه بكلامه، بل كلامه كله بيان عن الله، و الزيادة بجميع وجوهها لا تخرج عن البيان بوجه من الوجوه. بل كان السلف الصالح الطيب إذا سمعوا الحديث عنه، وجدوا تصديقه فى القرآن، و لم يقل أحد منهم قط فى حديث واحد أبدا: إن هذا زيادة على القرآن، فلا نقبله، و لا نسمعه، و لا نعمل به. و رسول الله صلى الله عليه و سلم أجل فى صدورهم، و سنته أعظم عندهم من ذلك و أكبر، و لا فرق أصلا بين مجيء السنة بعدد الطواف، و عدد ركعات الصلاة، و مجيئها بفرض الطمأنينة و تعيين الفاتحة و النية؛ فإن الجميع بيان لمراد الله أنه أوجب هذه العبادات على عباده على الوجه هذا. فهذا هو الوجه المراد، فجاءت السنة بيانا للمراد فى جميع وجوهها، حتى فى التشريع المبتدأ، فإنها بيان لمراد الله من عموم الأمر بطاعته و طاعة رسوله، فلا فرق بين بيان هذا المراد، و بين المراد من الصلاة و الزكاة و الحج و الطواف و غيرها، بل هذا بيان المراد من شىء، و ذاك بيان المراد من أعم منه. فالتغريب بيان محض للمراد من قوله: أو يجعل الله لهن سبيلا [النساء: ١٥]، و قد البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٧٣ صرح النبى صلى الله عليه و سلم بأن التغريب بيان لهذا السبيل المذكور فى القرآن، فكيف يجوز رده بأنه مخالف للقرآن، معارض له. و يقال: لو قبلناه لأبطلنا به حكم القرآن، و هل هذا إلا- قلب للحقائق، فإن حكم القرآن العام و الخاص يوجب علينا قبوله فرضا، لا يسعنا مخالفته، فلو خالفناه لخالفنا القرآن، و لخرجنا عن حكمه و لا بد، و لكان فى ذلك مخالفة للقرآن و الحديث معا. يوضحه الوجه الثانى: أن الله- سبحانه- نصب رسول الله صلى الله عليه و سلم منصب المبلغ المبين عنه، فكل ما شرعه للأمم فهو بيان منه عن الله أن هذا شرعه و دينه، و لا فرق بين ما يبلغه عنه من كلامه المتلو، و من وحيه الذى هو نظير كلامه فى وجوب الاتباع، و مخالفة هذا كمخالفة هذا. يوضحه الوجه الثالث: أن الله- سبحانه- أمرنا بإقام الصلاة و إيتاء الزكاة، و حج البيت، و صوم رمضان، و جاء البيان عن رسول الله صلى الله عليه و سلم بمقادير ذلك و صفاته و شروطه، فوجب على الأمة قبوله؛ إذ هو تفصيل لما أمر الله به، كما يجب علينا قبول الأصل المفصل، و هكذا أمر الله- سبحانه- بطاعته و طاعة رسوله، فإذا أمر الرسول بأمر كان تفصيلا، و بيانا للطاعة المأمور بها، و كان فرض قبوله كفر فرض قبول الأصل المفصل، و لا فرق بينهما.

أنواع بيان الرسول صلى الله عليه و سلم

أنواع بيان الرسول صلى الله عليه و سلم يوضحه الوجه الرابع: أن البيان من النبى صلى الله عليه و سلم أقسام: أحدها: بيان نفس الوحي

بظهوره على لسانه بعد أن كان خفياً. الثاني: بيان معناه و تفسيره لمن احتاج إلى ذلك، كما بين أن الظلم المذكور في قوله: وَ لَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ [الأنعام: ٨٢] هو الشرك، و أن الحساب اليسير هو العرض، و أن الخيط الأبيض و الأسود هما بياض النهار و سواد الليل، و أن الذي رآه نزلهُ أُخرى عند سدرة المنتهى: هو جبريل. كما فسر قوله: أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ [الأنعام: ١٥٨] أنه طلوع الشمس من مغربها. و كما فسر قوله: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ [إبراهيم: ٢٤] بأنها النخلة. و كما فسر قوله: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ الْبَدَائِعِ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ، ص: ٣٧٤ [إبراهيم: ٢٧] أن ذلك في القبر حين يسأل من ربك، و ما دينك؟ و كما فسر الرعد بأنه ملك من الملائكة موكل بالسحاب، و كما فسر اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم و رهبانهم أرباباً من دون الله بأن ذلك باستحلال ما أحلوه من الحرام، و تحريم ما حرموه عليهم من الحلال، و كما فسر «القوة» التي أمر الله أن نعدّها لأعدائه بالرمي، و كما فسر قوله مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ [النساء: ١٢٣] بأنه ما يجزى به العبد في الدنيا من النصب و الهم و الخوف و اللأواء. و كما فسر الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم «١» و كما فسر «الدعاء» في قوله: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ [غافر: ٦٠] بأنه العبادة، و كما فسر «إدبار النجوم» بأنه الركعتان قبل الفجر، و «أدبار السجود» بالركعتين بعد المغرب، و نظائر ذلك. الثالث: بيانه بالفعل كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله. الرابع: بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن، فنزل القرآن ببيانها، كما سئل عن قذف الزوجة، فجاء القرآن باللعان و نظائره. الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحي، و إن لم يكن قرآناً، كما سئل عن رجل أحرم في جبهه بعد ما تضحّج بالخلق «٢» فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبهه، و يغسل أثر الخلق. السادس: بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال، كما حرم عليهم لحوم الحمر، و المتعة، و صيد المدينة، و نكاح المرأة على عمتها و خالتها، و أمثال ذلك. السابع: بيانه للأمور جواز الشيء بفعله هو له، و عدم نهيمهم عن التأسى به. الثامن: بيانه جواز الشيء بإقراره لهم على فعله، و هو يشاهده، أو يعلمهم يفعلونه. التاسع: بيانه إباحه الشيء عفواً بالسكوت عن تحريمه، و إن لم يأذن فيه نطقاً. العاشر: أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه، أو إباحته، و يكون لذلك الحكم شروط و موانع و قيود و أوقات مخصوصه، و أحوال و أوصاف، فيحيل الرب سبحانه و تعالى على رسوله في بيانها كقوله تعالى: وَ أَجْرٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ [النساء: ٢٤]، فالحل موقوف

(١) يعني التي وردت في قوله سبحانه و تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَ زِيَادَةٌ وَ قَدْ ذَكَرْنَا تَفْسِيرَهُ بِذَلِكَ فِي حَدِيثِ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَ مُسْلِمٌ وَ ابْنُ جَرِيرٍ وَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. (٢) ضرب من الطيب. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٧٥ على شروط النكاح، و انتفاء موانعه، و حضور وقته و أهليه المحل، فإذا جاءت السنة ببيان ذلك كله لم يكن شيء منه زائداً على النص، فيكون نسخاً له، و إن كان رفعا لظاهر إطلاقه، فهكذا كل حكم منه صلى الله عليه و سلم زائداً على القرآن هذا سبيله سواء بسواء؛ و قد قال تعالى: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَى [النساء: ١١]، ثم جاءت السنة بأن القاتل و الكافر و الرقيق لا يرث، و لم يكن نسخاً للقرآن مع أنه زائد عليه قطعاً، أعني في موجبات الميراث؛ فإن القرآن أوجبه بالولادة وحدها، فزادت السنة مع وصف الولادة اتحاد الدين، و عدم الرق و القتل. فهلا قلتم: إن هذا زيادة على النص، فيكون نسخاً، و القرآن لا ينسخ بالسنة، كما قلتم ذلك في كل موضع تركتم فيه الحديث؛ لأنه زائد على القرآن. و الوجه الخامس: أن تسميتكم للزيادة المذكورة نسخاً لا توجب، بل لا تجوز مخالفتها، فإن تسمية ذلك نسخاً اصطلاحاً منكم، و الأسماء المتواضع عليها التابعة للاصطلاح منكم لا توجب رفع أحكام النصوص، فأين سمى الله و رسوله ذلك نسخاً، و أين قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا جاءكم حديثي زائداً على ما في كتاب الله فردوه، و لا تقبلوه، فإنه يكون نسخاً لكتاب الله؟ و أين قال الله: إذا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا جاءكم حديثي زائداً على القرآن، فلا تقبلوه، و لا تعملوا به، و ردوه؟ و كيف يسوغ رد سنن رسول الله صلى الله عليه و سلم بقواعد قعدتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان؟! الوجه السادس: أن يقال: ما تعنون بالنسخ الذي تضمنته الزيادة بزعمكم؟ أ تعنون أن حكم المزيد عليه من الإيجاب و التحريم و الإباحه بطل بالكلية؟ أم تعنون به تغير وصفه بزيادة شيء عليه من شرط، أو قيد، أو حال أو مانع، أو ما هو أعم من ذلك؟ فإن عنيتم الأول، فلا ريب أن الزيادة لا تتضمن ذلك، فلا تكون ناسخة، و إن عنيتم

الثاني، فهو حق، و لكن لا يلزم منها بطلان حكم المزيد عليه، و لا رفعه، و لا معارضته، بل غايتها مع المزيد عليه كالشرط و الموانع و القيود و المخصصات، و شيء من ذلك لا يكون نسخا يوجب إبطال الأول و رفعه رأسا. و إذا كان نسخا بالمعنى الذى يسميه السلف نسخا، و هو رفع الظاهر بتخصيص، أو تقييد، أو شرط، أو مانع، فهذا كثير من السلف يسميه نسخا حتى سمي الاستثناء نسخا، فإن أردتم هذا المعنى، فلا— مشاحة «١» فى الاسم، و لكن ذلك لا— يسوغ رد السنن الناسخة (_____١) لا— مجادلة. البدائع فى علوم

القرآن، ص: ٣٧٦ للقرآن بهذا المعنى، و لا ينكر أحد نسخ القرآن بالسنة بهذا المعنى، بل هو متفق عليه بين الناس، و إنما تنازعا فى جواز نسخه بالسنة النسخ الخاص الذى هو رفع أصل الحكم و جملة، بحيث يبقى بمنزلة ما لم يشرع البتة، و إن أردتم بالنسخ ما هو أعم من القسمين، و هو رفع الحكم بجملة تارة، و تقييد مطلقه، و تخصيص عامه، و زيادة شرط، أو مانع تارة كنتم قد أدرجتم فى كلامكم قسمين: مقبولا، و مردودا كما تبين، فليس الشأن فى الألفاظ فسموا الزيادة ما شئتم؛ فإبطال السنن بهذا الاسم مما لا سبيل إليه. يوضحه الوجه السابع: أن الزيادة لو كانت ناسخة لما جاز اقترانها بالمزيد، لأن الناسخ لا يقارن المنسوخ، و قد جوزتم اقترانها به، و قلت: تكون بيانا أو تخصيصا، فهلا— كان حكمها مع التأخير كذلك، و البيان لا— يجب اقترانه بالمبين، بل يجوز تأخيره إلى وقت حضور العمل، و ما ذكرتموه من إيهام اعتقاد خلاف الحق، فهو منتقض بجواز، بل وجوب تأخير الناسخ، و عدم الإشعار بأنه سينسخه، و لا محذور فى اعتقاد موجب النص، ما لم يأت ما يرفعه، أو يرفع ظاهره، فحينئذ يعتقد موجه كذلك، فكان كل من الاعتقادين فى وقته هو المأمور به؛ إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. يوضحه الوجه الثامن: أن المكلف إنما يعتقد على إطلاقه و عمومه مقيدا بعدم ورود ما يرفع ظاهره، كما يعتقد المنسوخ مؤيدا اعتقادا مقيدا بعدم ورود ما يبطله، و هذا هو الواجب عليه الذى لا يمكنه سواه. الوجه التاسع: أن إيجاب الشرط الملحق بالعبادة بعدها لا يكون نسخا، و إن تضمن رفع الأجزاء بدونه، كما صرح بذلك بعض أصحابكم و هو الحق، فكذلك إيجاب كل زيادة، بل أولى ألا تكون نسخا، فإن إيجاب الشرط يرفع أجزاء المشروط عن نفسه، و عن غيره، و إيجاب الزيادة إنما يرفع أجزاء المزيد عن نفسه خاصة. الوجه العاشر: أن الناس متفقون على أن إيجاب عبادة مستقلة بعد الثانية لا يكون نسخا، و ذلك أن الأحكام لم تشرع جملة واحدة، و إنما شرعها أحكم الحاكمين شيئا بعد شيء، و كل منها زائد على ما قبله، و كان ما قبله جميع الواجب، و الإثم محطوط عن اقتصر عليه، و بالزيادة تغير هذان الحكمان، فلم يبق الأول جميع الواجب، و لم يحط الإثم عن اقتصر عليه، و مع ذلك فليس الزائد ناسخا للمزيد عليه؛ إذ حكمه من الوجوب و غيره باق. فهذه الزيادة المتعلقة بالمزيد، لا تكون نسخا له، حيث لم ترفع حكمه بل هو باق على حكمه و قد ضم إليه غيره. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٧٧ يوضحه الوجه الحادى عشر: أن الزيادة إن رفعت حكما خطابيا كانت نسخا، و زيادة التغريب و شروط الحكم و موانعه و حرايق لا ترفع حكم الخطاب، و إن رفع حكم الاستصحاب. يوضحه الوجه الثانى عشر: أن ما ذكره من كون الأول جميع الواجب، و كونه مجزئا وحده، و كون الإثم محطوطا عن اقتصر عليه، إنما هو من أحكام البراءة الأصلية، فهو حكم استصحابى لم نستفده من لفظ الأمر الأول، و لا أريد به، فإن معنى كون العبادة مجزئة: أن الذمة بريئة بعد الإتيان بها، و حط الذم عن فاعلها معناه: أنه قد خرج من عهده الأمر، فلا يلحقه ذم، و الزيادة— و إن رفعت هذه الأحكام— لم ترفع حكما دل عليه لفظ المزيد.

هل يجوز تخصيص كلام الله بحديث؟

هل يجوز تخصيص كلام الله بحديث؟ يوضحه الوجه الثالث عشر: أن تخصيص القرآن بالسنة جائز كما أجمعت الأمة على تخصيص قوله تعالى: وَ أُخِـلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ [النساء: ٢٤] بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا— تنكح المرأة على عمتها و لا على خالتها» «١» و عموم قوله تعالى: يُوَصِّـيْكُمْ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ [النساء: ١١] بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يرث المسلم الكافر» «٢»، و عموم قوله تعالى: وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا [المائدة: ٣٨] بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا قطع فى ثمر و لا كثر» «٣»، و نظائر ذلك كثيرة، فإذا

جاز التخصيص و هو رفع بعض ما تناوله اللفظ، و هو نقصان من معناه، فلأن تجوز الزيادة التي لا تتضمن رفع شيء من مدلوله، و لا نقصانه بطريق الأولى و الأخرى.

عودة إلى حجج أن الزيادة لا توجب نسخا

عودة إلى حجج أن الزيادة لا توجب نسخا الوجه الرابع عشر: أن الزيادة لا توجب رفع المزيد لغه، و لا شرعا و لا عرفا و لا عقلا، و لا تقول العقلاء لمن ازداد خيره، أو ماله، أو جاهه، أو علمه، أو ولده إنه قد ارتفع شيء مما في الكيس. بل تقول في الوجه الخامس عشر: أن الزيادة قررت حكم المزيد، و زادته بيانا و تأكيدا، فهي كزيادة العلم و الهدى و الإيمان، قال تعالى و قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) [طه، و قال () _____: (١) سبق تخريجه

ص (٣٦٢). (٢) سبق تخريجه ص (٣٦٢). (٣) الترمذى (١٤٤٩) في الحدود، باب: ما جاء لا- قطع في الثمر و لا- كثر، و ابن ماجه (٢٥٩٣) في الحدود، باب: لا يقطع في ثمر و لا كثر. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٧٨ و ما زادهم إلا إيماناً و تسليمًا [الأحزاب: ٢٢]، و قال: و زِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) [الكهف، و قال: و يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى [مریم: ٧٦]، فكذلك زيادة الواجب على الواجب إنما يزيده قوة و تأكيدا و ثبوتا، فإن كانت متصله به اتصال الجزاء و الشرط، كان ذلك أقوى له و أثبت و أكد، و لا ريب أن هذا أقرب إلى المعقول و المنقول، و الفطرة من جعل الزيادة مبطله للمزيد عليه ناسخه له. الوجه السادس عشر: أن الزيادة لم تتضمن النهى عن المزيد، و لا المنع منه، و ذلك حقيقة النسخ، و إذا انتفت حقيقة النسخ استحال ثبوته. الوجه السابع عشر: أنه لا بد في النسخ من تنافى النسخ و المنسوخ، و امتناع اجتماعهما، و الزيادة غير منافية للمزيد عليه، و لا اجتماعهما ممتنع. الوجه الثامن عشر: أن الزيادة لو كانت نسخا لكانت إما نسخا بانفرادها عن المزيد، أو بانضمامها إليه، و القسمان محال، فلا يكون نسخا، أما الأول فظاهر فلأنها لا حكم لها بمفردها البتة، فإنها تابعة للمزيد عليه في حكمه. و أما الثاني فكذلك أيضا؛ لأنها إذا كانت ناسخة بانضمامها إلى المزيد، كان الشيء ناسخا لنفسه، و مبطلا لحقيقته، و هذا غير معقول. و أجاب بعضهم عن هذا: بأن النسخ يقع على حكم الفعل دون نفسه و صورته، و هذا الجواب لا يجدى عليهم شيئا، و الالتزام قائم بعينه، فإنه يوجب أن يكون المزيد عليه قد نسخ حكم نفسه، و جعل نفسه إذا انفرد عن الزيادة غير مجزئ بعد أن كان مجزئا. الوجه التاسع عشر: أن النقصان من العبادة لا يكون نسخا لما بقى منها، فكذلك الزيادة عليها لا تكون نسخا لها، بل أولى لما تقدم. الوجه العشرون: أن نسخ الزيادة للمزيد عليه، إما أن يكون نسخا لوجوبه أو لإجزائه، أو لعدم وجوب غيره، أو لأمر رابع، و هذا كزيادة التغريب مثلا على المائة جلدة، لا يجوز أن تكون ناسخة لوجوبها؛ فإن الوجوب بحاله، و لا لإجزائها، لأنها مجزئة عن نفسها، و لا لعدم وجوب الزائد، لأنه رفع حكم عقلي، و هو البراءة الأصلية، فلو كان رفعها نسخا كان كلما أوجب الله شيئا بعد الشهادتين، قد نسخ به ما قبله، و الأمر الرابع غير متصور و لا معقول، فلا يحكم عليه. فإن قيل: بل هاهنا أمر رابع معقول، و هو الاقتصار على الأول؛ فإنه نسخ بالزيادة، و هذا غير الأقسام الثلاثة. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٧٩ فالجواب: أنه لا- معنى للاقتصار غير عدم وجوب غيره، و كونه جميع الواجب، و هذا هو القسم الثالث بعينه غير تم التعبير عنه، و كسوتموه عبارة أخرى. الوجه الحادى و العشرون: أن النسخ و المنسوخ لا بد أن يتواردا على محل واحد يقتضى المنسوخ ثبوته، و النسخ رفعه، أو بالعكس، و هذا غير متحقق في الزيادة على النص. الوجه الثانى و العشرون: أن كل واحد من الزائد و المزيد عليه دليل قائم بنفسه، مستقل بإفاده حكمه، و قد أمكن العمل بالدليلين، فلا يجوز إلغاء أحدهما و إبطاله، و إلقاء الحرب بينه و بين شقيقه و صاحبه، فإن كل ما جاء من عند الله فهو حق يجب اتباعه، و العمل به و لا يجوز إلغاؤه، و إبطاله إلا حيث أبطله الله و رسوله بنص آخر ناسخ له، لا يمكن الجمع بينه و بين المنسوخ، و هذا بحمد الله منتف في مسألتنا، فإن العمل بالدليلين ممكن، و لا- تعارض بينهما، و لا تناقض بوجه، فلا- يسوغ لنا إلغاء ما اعتبره الله و رسوله، كما لا يسوغ لنا اعتبار ما ألغاه. و بالله التوفيق. الوجه الثالث و العشرون: أنه إن كان القضاء بالشاهد و اليمين نسخا للقرآن و إثبات التغريب نسخا للقرآن، فالوضوء بالنيذ أيضا ناسخ للقرآن و لا فرق بينهما البتة، بل

القضاء بالنكول و معاهد القمط يكون ناسخا للقرآن، و حينئذ فنسخ كتاب الله بالسنة الصحيحة الصريحة التي لا مطعن فيها أولى من نسخه بالرأى و القياس و الحديث الذي لا يثبت «١». و إن لم يكن ناسخا للقرآن لم يكن هذا نسخا له، و أما أن يكون هذا نسخا و ذاك ليس بنسخ، فتحكم باطل، و تفريق بين متماثلين. الوجه الرابع و العشرون: أن ما خالفتموه من الأحاديث التي زعمتم أنها زيادة على نص القرآن إن كانت تستلزم نسخه، فقطع رجل السارق في المرة الثانية نسخ؛ لأنه زيادة على القرآن و إن لم يكن هذا نسخا فليس ذلك نسخا. الوجه الخامس و العشرون: أنكم قلت: لا يكون المهر أقل من عشرة دراهم «٢»، و ذلك

(١) لا ينسخ شيء من كتاب الله بهذا، و لا- بذاك، فهو المهيم على كل كتاب، و كل كلام. (٢) أخرج مسلم عن أبي الزبير قال: سمعت جابرا يقول: كنا نستمتع بالقبض من التمر و الدقيق الأيام على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم. قال البيهقي و هذا و إن كان في نكاح المتعة، و نكاح المتعة صار منسوخا وإنما نسخ منه شرط الأجل، فأما ما يجعلونه صداقا، فإنه لم يرد فيه نسخ. و في حديث رواه الجماعة: «أن النبي صلى الله عليه و سلم رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة، فقال: «ما هذا؟» قال: تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب. قال: «بارك الله لك، أو لم و لو بشاة»، و جزم الخطابى أنها كانت تساوى خمسة دراهم، و اختاره الأزهرى، و نقله عياض عن أكثر العلماء. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٨٠ زيادة على ما في القرآن، فإن الله سبحانه أباح استحلال البضع بكل ما يسمى مالا، و ذلك يتناول القليل و الكثير، فزدم على القرآن بقياس في غاية الضعف، و بخير في غاية البطلان، فإن جاز نسخ القرآن بذلك فلم لا يجوز نسخه بالسنة الصحيحة الصريحة؟ و إن كان هذا ليس بنسخ لم يكن الآخر نسخا. الوجه السادس و العشرون: أنكم أوجبتم الطهارة للطواف بقوله: «الطواف بالبيت صلاة» و ذلك زيادة على القرآن، فإن الله إنما أمر بالطواف، و لم يأمر بالطهارة، فكيف لم تجعلوا ذلك نسخا للقرآن، و جعلتم القضاء بالشاهد و اليمين و التغريب في حد الزنا نسخا للقرآن. الوجه السابع و العشرون: أنكم مع الناس أوجبتم الاستبراء في جواز وطء المسيية بحديث ورد زائدا على كتاب الله، و لم تجعلوا ذلك نسخا له، و هو الصواب بلا شك، فهلا فعلتم ذلك في سائر الأحاديث الزائدة على القرآن. الوجه الثامن و العشرون: أنكم وافقتم على تحريم الجمع بين المرأة و عمتها، و بينها و بين خالتها بخبر الواحد، و هو زائد على كتاب الله تعالى قطعاً، و لم يكن ذلك نسخا، فهلا فعلتم ذلك في خبر القضاء بالشاهد و اليمين و التغريب، و لم تعدوه نسخا، و كل ما تقولونه في محل الوفاق يقوله لكم منازعوكم في محل النزاع حرفا بحرف. الوجه التاسع و العشرون: أنكم قلت: لا- يفطر المسافر، و لا- يقصر في أقل من ثلاثة أيام، و الله تعالى قال: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ [البقرة: ١٨٤]، و هذا يتناول الثلاثة و ما دونها، فأخذتم بقياس ضعيف، أو أثر لا يثبت في التحديد بالثلاث، و هو زيادة على القرآن، و لم تجعلوا ذلك نسخا، فكذلك الباقي. الوجه الثلاثون: أنكم منعتم قطع من سرق ما يسرع إليه الفساد من الأموال، مع أنه سارق حقيقة و لغه و شرعا، لقوله: «لا- قطع في ثمر و لا كثر» «١» و لم تجعلوا ذلك نسخا للقرآن و هو زائد عليه. الوجه الحادى الثلاثون: أنكم رددتم السنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم في المسح على العمامة، و قلت: إنها زائدة على نص القرآن، فتكون ناسخة له، فلا- تقبل، ثم ناقضتم فأخذتم بأحاديث المسح على الخفين و هي زائدة على القرآن، و لا- فرق بينهما، و اعتذرت

(١) أبو داود (٤٣٨٨) في الحدود، باب: ما لا يقطع فيه، و الترمذى (١٤٤٩) في الحدود، باب: ما جاء لا قطع في ثمر و لا كثر. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٨١ بالفرق بأن أحاديث المسح على الخفين متواترة، بخلاف المسح على العمامة، و هو اعتذار فاسد؛ فإن من له اطلاع على الحديث لا يشك في شهرة كل منهما، و تعدد طرقها، و اختلاف مخارجها و ثبوتها عن النبي صلى الله عليه و سلم قولا و فعلا. الوجه الثانى و الثلاثون: أنكم قبلتم شهادة المرأة الواحدة على الرضاع و الولادة، و عيوب النساء مع أنه زائد على ما في القرآن، و لم يصح الحديث به صحته بالشاهد و اليمين، و رددتم هذا و نحوه بأنه زائد على القرآن. الوجه الثالث و الثلاثون: أنكم رددتم السنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم في أنه لا يحرم أقل من خمس رضعات، و لا تحرم الرضعة و الرضعتان، و قلت: هي زائدة على القرآن، ثم أخذتم بخبر

لا يصح بوجه ما في أنه لا قطع في أقل من عشرة دراهم، أو ما يساويها، و لم تروه زيادة على القرآن، و قلت: هذا بيان للفظ السارق، فإنه مجمل، و الرسول بينه بقوله: «لا تقطع اليد في أقل من عشرة دراهم» (١) «فيا لله العجب كيف كان هذا بيانا، و لم يكن حديث التحريم بخمس رضعات بيانا لمجمل قوله: «وَأَمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ» [النساء: ٢٣] و لا تأتون بعذر في آية القطع إلا كان مثله، أو أولى منه في آية الرضاع سواء بسواء! الوجه الرابع و الثالثون: أنكم رددتم السنة الثابتة، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسح على الجوربين، و قلت: هي زائدة على القرآن، و جوزتم الوضوء بالخمر المحرمة من نبيذ التمر المسكر بخبر لا يثبت، و هو بخلاف القرآن. الوجه الخامس و الثالثون: أنكم رددتم السنة الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصوم عن الميت و الحج عنه، و قلت هو زائد على قوله تعالى: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» (٣٩) [النجم: ٣٩]، ثم جوزتم أن تعمل أعمال الحج كلها عن المغمى عليه، و لا- تروه زائدا على قوله: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» (٣٩)، و أخذتم بالسنة الصحيحة، و أصبتم في حمل العاقلة الدينة عن القاتل خطأ، و لم تقولوا هو زائد على قوله: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» (٢) «وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا» [الأنعام: ١٦٤] و اعتذاركم بأن الإجماع ألبأكم إلى ذلك لا (١)

مسلم (٢/١٦٨٤) في الحدود، باب: حد السرقة و نصابها، و النسائي (٤٩١٧) في قطع السارق، باب: ذكر الاختلاف على الزهري، و ابن ماجه (٢٥٨٥) في الحدود، باب: حد السارق، و أحمد (١٠٤/٦). (٢) في الأنعام: ١٦٤، و الإسراء: ١٥، و فاطر: ١٨، و الزمر: ٧، أما في النجم: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٨٢ يفيد؛ لأن عثمان البتي، و هو من فقهاء التابعين يرى أن الدينة على القاتل و ليس على العاقلة منها شيء، ثم هذا حجة عليكم أن تجمع الأمة على الأخذ بالخبر، و إن كان زائدا على القرآن. الوجه السادس و الثالثون: أنكم رددتم السنة الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اشتراط المحرم أن يحل حيث حبس، و قلت: هو زائد على القرآن، فإن الله أمر بإتمام الحج و العمرة، و الإحلال خلاف الإتمام، ثم أخذتم و أصبتم بحديث تحريم لبن الفحل، و هو على ما في القرآن قطعا. الوجه السابع و الثالثون: ردكم السنة الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوضوء من مس الفرج، و أكل لحوم الإبل، و قلت: ذلك زيادة على القرآن؛ لأن الله تعالى إنما ذكر الغائط، ثم أخذتم بحديث ضعيف في إيجاب الوضوء من أكل القهقهة، و خبر ضعيف في إيجابه من القيء، و لم يكن إذ ذاك زائدا على ما في القرآن، إذ هو قول متبوعكم. فمن العجب، إذا قال من قلدتموه قولاً زائدا على ما في القرآن قبلتموه، و قلت ما قاله لا بدليل، و سهل عليكم مخالفة ظاهر القرآن حينئذ، و إذا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولاً زائدا على ما في القرآن، قلت: هذا زيادة على النص و هو نسخ، و القرآن لا ينسخ بالسنة، فلم تأخذوا به، و استعصيتم خلاف ظاهر القرآن، فهان خلافه إذا وافق قول من قلدتموه، و صعب خلافه إذا وافق قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! الوجه الثامن و الثالثون: أنكم أخذتم بخبر ضعيف لا يثبت في إيجاب المضمضة و الاستنشاق في الغسل من الجنابة، و لم تروه زائدا على القرآن، و رددتم السنة الصحيحة الصريحة في أمر المتوضى بالاستنشاق، و قلت: هو زائد على القرآن، فهاتوا لنا الفرق بين ما يقبل من السنن الصحيحة و ما يرد منها، فإما أن تقبلوها كلها، و إن زادت على القرآن، و إما أن تردوها كلها إذا كانت زائدة على القرآن، و أما التحكم في قبول ما شئتم منها، ورد ما شئتم منها، فما لم يأذن به الله و لا رسوله، و نحن نشهد الله شهادة يسألنا عنها يوم نلقاه أنا لا نرد لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة واحدة صحيحة أبدا إلا بسنة صحيحة مثلها نعلم أنها ناسخة لها. الوجه التاسع و الثالثون: أنكم رددتم السنة الصحيحة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القسم للبكر سبعا، يفضلها بها على من عنده من النساء، و للثيب ثلاثا إذا أعرس بهما، و قلت: هذا زائد على العدل المأمور به في القرآن، و مخالف له فلو قبلنا كنا قد نسخنا به القرآن، ثم أخذتم بقياس فاسد واه لا- يصح في جواز نكاح الأمة لو وجد الطول غير خائف العنت، و إذا لم تكن تحته حرة، و هو خلاف ظاهر القرآن، و زائد عليه قطعا. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٨٣ الوجه الأربعون: ردكم السنة الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإسقاط نفقة المبتوتة و سكتها، و قلت: هو مخالف للقرآن، فلو قبلناه كان نسخا للقرآن به، ثم أخذتم بخبر ضعيف لا يصح أن عدة الأمة قرءان، و طلاقها طلقان مع كونه زائدا على ما في القرآن قطعا. الوجه الحادي و الأربعون: ردكم السنة الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الله عليه و سلم في تخيير ولى الدم بين الديه، أو القود، أو العفو بقولكم: إنها زائده على ما في القرآن، ثم أخذتم بقياس من أفسد القياس أنه لو ضربه بأعظم دبوس يوجد حتى ينثر دماغه على الأرض، فلا قود عليه و لم تروا ذلك مخالفا لظاهر القرآن، و الله تعالى يقول: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ [المائدة: ٤٥]، و يقول: فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ [البقرة: ١٩٤]. الوجه الثاني و الأربعون: أنكم رددتم السنه الثابته عن رسول الله صلى الله عليه و سلم بقوله: «لا يقبل مسلم بكافر» (١) و قوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» (٢) و قلت: هذا خلاف ظاهر القرآن؛ لأن الله تعالى يقول: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ و أخذتم بخبر لا يصح عن رسول الله بأنه: «لا قود إلا بالسيف» (٣) و هو مخالف لظاهر القرآن، فإنه سبحانه قال: وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا [الشورى: ٤٠]، و قال: فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ [البقرة: ١٩٤]. الوجه الثالث و الأربعون: و قال أنكم أخذتم بخبر لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه و سلم في أنه: «لا جمعة إلا في مصر جامع»، و هو مخالف لظاهر القرآن قطعا، و زائد عليه، و رددتم الخبر الصحيح الذي لا شك في صحته عند أحمد من أهل العلم في أن كل بيعين، فلا بيع بينهما حتى يتفرقا و قلت: هو خلاف ظاهر القرآن في وجوب الوفاء بالعقد. الوجه الرابع و الأربعون: أنكم أخذتم بخبر ضعيف: «لا تقطع الأيدي في الغزو»، و هو زائد على القرآن، و عدتموه إلى سقوط الحدود على من فعل أسبابها في دار الحرب، و تركتم الخبر الصحيح الذي لا ريب في صحته في المصراه، و قلت: هو خلاف ظاهر القرآن من عدة أوجه. الوجه الخامس و الأربعون: أنكم أخذتم بخبر ضعيف بل باطل في أنه لا يؤكل الطافي (١) البخارى (١١١) في العلم، باب:

كتابة العلم، و أحمد (٧٩ / ١). (٢) أبو داود (٢٧٥١) في الجهاد، باب: في السرية [ترد على أهل العسكر]، و ابن ماجه (٢٦٨٣) في الديات، باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم، و أحمد (١١٩ / ١). (٣) ابن ماجه (٢٦٦٧) في الديات، باب: لا قود إلا بالسيف، و في الزوائد «في إسناده جابر الجعفي، و هو كذاب» و ضعفه الألبانى. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٨٤ من السمك، و هو خلاف القرآن، إذ يقول تعالى: أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَ طَعَامَهُ [المائدة: ٩٦]، فصيده ما صيد منه حيا و طعامه قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم: هو ما مات فيه، صح ذلك عن الصديق و ابن عباس و غيرهما، ثم تركتم الخبر الصحيح المصرح بأن ميتته حلال، مع موافقته لظاهر القرآن. الوجه السادس و الأربعون: أنكم أخذتم و أصبتم بحديث تحريم كل ذى ناب من السباع، و مخلب من الطير، و هو زائد على ما في القرآن، و لم تروه ناسخا، ثم تركتم حديث حل لحوم الخيل الصحيح الصريح، و قلت: و هو مخالف لما في القرآن زائد عليه و ليس كذلك. الوجه السابع و الأربعون: أنكم أخذتم بحديث المنع من توريث القتال مع أنه زائد على القرآن، و حديث عدم القود على قاتل ولده، و هو زائد على ما في القرآن مع أن الحديثين ليسا في الصحة بذاك، و تركتم الأخذ بحديث إعتاق النبي صلى الله عليه و سلم لصفية، و جعل عتقها صداقها، فصارت بذلك زوجة، و قلت: هذا خلاف ظاهر القرآن، و الحديث في غاية الصحة. الوجه الثامن و الأربعون: أنكم أخذتم بالحديث الضعيف الزائد على ما في القرآن، و هو: «كل طلاق جائز إلا طلاق المعتوه» (١)، فقلت: هذا يدل على وقوع طلاق المكره و السكران، و تركتم السنه الصحيحه التي لا ريب في صحتها فيمن وجد متاعه بعينه عند رجل قد أفلس، فهو أحق به و قلت: و هو خلاف ظاهر القرآن بقوله: لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ [النساء: ٢٩] و العجب أن ظاهر القرآن مع الحديث متوافقان متطابقان، فإن منع البائع من الوصول إلى الثمن، و إلى عين ماله إطعام له بالباطل الغرماء، فخالفتم ظاهر القرآن من السنه الصحيحه الصريحه. الوجه التاسع و الأربعون: أنكم أخذتم بالحديث الضعيف و هو: «من كان له إمام فقراءه الإمام قراءه له» (٢) و لم تقولوا: هو زائد على القرآن في قوله: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) [النجم] و تركتم الحديث الصحيح في بقاء الإحرام بعد الموت، و أنه لا ينقطع به، و قلت: هو خلاف ظاهر القرآن في قوله: هَيْلٌ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [النمل: ٩٠] (١) الترمذى (١١٩١) في الطلاق،

باب: ما جاء في طلاق المعتوه، و قال: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث عطاء بن عجلان، و عطاء بن عجلان ضعيف، ذاهب الحديث». (٢) أحمد (٣٣٩ / ٣). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٨٥ و خلاف ظاهر قوله صلى الله عليه و سلم: «إذا مات ابن آدم انقطع

منه عمله إلا من ثلاث» (١). الوجه الخمسون: رد السنة الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجوب الموالاة حيث أمر الذي ترك لمعة (٢) من قدمه بأن يعيد الوضوء والصلاة، وقالوا: هو زائد على كتاب الله، ثم أخذوا بالحديث الضعيف الزائد على كتاب الله في أن أقل الحيض ثلاثة أيام، وأكثره عشرة. الوجه الحادي والخمسون: رد الحديث الثابت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في: «أنه لا نكاح إلا بولي» (٣) وأن من أنكحت نفسها فنكاحها باطل، وقالوا: هو زائد على كتاب الله، فإن الله تعالى يقول: فَلَا تَعْضُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ [البقرة: ٢٣٢]، وقال فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنَّ بالمعروف [البقرة: ٢٣٤]، ثم أخذوا بالحديث الضعيف الزائد على القرآن قطعا في اشتراط الشهادة في صحة النكاح، والعجب أنهم استدلوا على ذلك بقوله «لا نكاح إلا بولي مرشد، وشاهد عدل» (٤)، ثم قالوا: لا يفتقر إلى حضور الولي، ولا عدالة الشاهدين، فهذا طرف من بيان تناقض من رد السنن بكونها زائدة على القرآن، فتكون ناسخة فلا تقبل. الوجه الثاني والخمسون: أنكم تجوزون الزيادة على القرآن بالقياس الذي أحسن أحواله أن يكون للأمة فيه قولان: أحدهما: أنه باطل مناف للدين، والثاني: أنه صحيح مؤخر على الكتاب والسنة، فهو في المرتبة الأخيرة، ولا تختلفون في جواز إثبات حكم زائد على القرآن به، فهلا قلتم: إن ذلك يتضمن نسخ الكتاب بالقياس. فإن قيل: قد دل القرآن على صحة القياس واعتباره وإثبات الأحكام به، فما خرجنا عن موجب القرآن، ولا زدنا على ما في القرآن إلا بما دلنا عليه القرآن. قيل: فهل قلتم مثل هذا سواء في السنة الزائدة على القرآن، و كان قولكم ذلك في السنة أسعد وأصلح من القياس الذي هو محل آراء المجتهدين، وعرضة للخطأ، بخلاف قول من ضمننا لنا العصمة في أقواله، وفرض الله علينا اتباعه وطاعته.

(١) مسلم (١٤ / ١٦٣١) في الوصية،

باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، وأبو داود (٣٨٨٠) في الوصايا، باب: في الصدقة عن الميت، والترمذي (١٣٧٦) في الأحكام، باب: في الوقف. (٢) بقعة يسيرة من جسده لن ينلها الماء. (٣) أبو داود (٢٠٨٥) في النكاح، باب: في الولي، والترمذي (١١٠١) في النكاح باب: ما جاء لا نكاح إلا بولي، وابن ماجه (١٨٨١) في النكاح، باب: لا نكاح إلا بولي. (٤) موارد الظمان (١٢٤٧) في النكاح، باب: ما جاء في الولي والشهود، بدون لفظ مرشد. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٨٦ فإن قيل: القياس: بيان لمراد الله ورسوله من النصوص، وأنه أريد بها إثبات الحكم في المذكور في نظيره، وليس ذلك زائدا على القرآن، بل تفسير له و تبيين. قيل: فهلا قلتم أن السنة بيان لمراد الله من القرآن تفصيلا لما أجمله، و تبيينا لما سكت عنه، و تفسيراً لما أبهمه؛ فإن الله سبحانه أمر بالعدل والإحسان والبر والتقوى، ونهى عن الظلم والفواحش والعدوان والإثم، وأباح لنا الطيبات، وحرم علينا الخبائث، فكل ما جاءت به السنة، فإنها تفصيل لهذا الأمر به، والمنهى عنه، والذي أحل لنا هو الذي حرم علينا. وهكذا يتبين بالمثل التاسع عشر، وهو أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر في حديث النعمان بن بشير أن يعدل بين الأولاد في العطيء، فقال: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» (١). وفي حديث: «إني لأشهد على جور» (٢) فسماه جوراً، وقال: «أشهد على هذا غيري» (٣) تهديداً له، وإلا فمن الذي يطلب هذا من المسلمين أن يشهد على ما حكم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه جور، وأنه لا يصلح، وأنه على خلاف تقوى الله، وأنه خلاف العدل؟ وهذا الحديث من تفاصيل العدل الذي أمر الله به في كتابه، وقامت به السموات والأرض وأسست عليه الشريعة، فهو أشد موافقة للقرآن من كل قياس عن وجه الأرض، وهو محكم الدلالة غاية الأحكام، فرد بالمشابهة من قوله: «كل أحد أحق بماله من ولده ووالده والناس أجمعين» (٤) فكونه أحق به يقتضى جواز تصرفه كما يشاء، وقياس متشابهة على إعطاء الأجانب. ومن المعلوم بالضرورة أن هذا المتشابهة من العموم والقياس لا يقاوم هذا المحكم المبين غاية البيان (٥).

تخصيص القرآن بالسنة

تخصيص القرآن بالسنة عن أبي إسحاق - وهو السبيعي - قال: كنت في المسجد الجامع مع الأسود، فقال: أتت فاطمة بنت قيس عمر بن الخطاب، فقال: ما كنا لنندع كتاب ربنا و سنة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقول امرأة، لا ندرى أحفظت أم لا؟ (٦).

(١) البخارى (٢٥٨٧) فى الهبة، باب: الإِشهاد فى الهبة، و مسلم (١٣/١٦٢٣) فى الهبات، باب: كراهة تفضيل بعض الأولاد فى الهبة. (٢) مسلم (١٤/١٦٢٣) فى الهبات، باب: كراهة تفضيل بعض الأولاد فى الهبة، و أحمد (٤/٢٦٨). (٣) مسلم (١٧/١٢٦٨) فى الهبات، باب: كراهة تفضيل بعض الأولاد فى الهبة، و أحمد (٤/٢٦٩). (٤) البيهقى فى الكبرى (٧/٤٨١)، و الدار قطنى (٤/٢٣٦). (٥) إعلام الموقعين (٢/٣٢٣ - ٣٤٨). (٦) البيهقى فى الكبرى (٧/٤٧٥)، و الدار قطنى (٤/٢٧). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٨٧ قال أبو داود فى «المسائل»: سمعت أحمد بن حنبل، و ذكر له قول عمر: لا ندع كتاب ربنا و سنة نبينا لقول امرأة. فلم يصحح هذا عن عمر، و قال الدارقطنى: هذا الكلام لا يثبت عن عمر، يعنى قوله: سنة نبينا. ثم ذكر أحاديث الباب، ثم قال بعد انتهاء آخر الباب: اختلف الناس فى المبتوتة، هل لها نفقة، أو سكنى؟ على ثلاثة مذاهب، و على ثلاث روايات عن أحمد: أحدها: أنه لا سكنى لها و لا نفقة، و هو ظاهر مذهبه، و هذا قول على بن أبى طالب، و عبد الله بن عباس، و جابر، و عطاء، و طاوس، و الحسن، و عكرمة، و ميمون ابن مهران، و إسحاق بن راهويه، و داود بن على، و أكثر فقهاء الحديث، و هو مذهب صاحبة القصة فاطمة بنت قيس، و كانت تناظر عليه. و الثانى: و يروى عن عمر و عبد الله بن مسعود: أن لها السكنى و النفقة. و هو قول أكثر أهل العراق، و قول ابن شبرمة، و ابن أبى ليلى، و سفيان الثورى، و الحسن بن صالح، و أبى حنيفة و أصحابه، و عثمان البتى، و العبرى، و حكاه أبو يعلى القاضى فى «مفرداته» روايه عن أحمد، و هى غريبه جدا. و الثالث: أن لها السكنى دون النفقة، و هذا قول مالك و الشافعى و فقهاء المدينة السبعة، و هو مذهب عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها. و أسعد الناس بهذا الخبر من قال به، و أنه لا نفقة لها، و لا سكنى، و ليس مع رده حجة تقاومه، و لا تقاربه. قال ابن عبد البر: أما من طريق الحجة و ما يلزم منها، فقول أحمد بن حنبل و من تابعه أصح و أرجح؛ لأنه ثبت عن النبى صلى الله عليه و سلم نصا صريحا، فأى شىء يعارض هذا إلا مثله عن النبى صلى الله عليه و سلم، الذى هو المبين على الله مراده؟ و لا شىء يدفع ذلك، و معلوم أنه أعلم بتأويل قول الله تعالى: **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ [الطلاق: ٦]**. و أما قول عمر و من وافقه، فقد خالفه على و ابن عباس و من وافقهما. و الحجج معهم، و لو لم يخالفهم أحد منهم لما قبل المخالف لقول رسول الله صلى الله عليه و سلم، فإن قول رسول الله صلى الله عليه و سلم حجة على عمر و على غيره. و لم يصح عن عمر أنه قال: لا ندع كتاب ربه و سنة نبينا لقول امرأة، فإن أحمد أنكره، و قال: أما هذا فلا، و لكن قال: لا نقبل فى ديننا قول امرأة. و هذا أمر يرد الإجماع على قبول قول المرأة فى الرواية، فأى حجة فى شىء يخالفه الإجماع؛ و ترده السنه، و يخالفه فيه علماء الصحابة؟ البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٨٨ و قال إسماعيل بن إسحاق: نحن نعلم أن عمر لا يقول: «لا ندع كتاب ربنا» إلا لما هو موجود فى كتاب الله تعالى، و الذى فى الكتاب أن لها النفقة إذا كانت حاملا، لقوله تعالى: **وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ [الطلاق: ٦]** و أما غير ذوات الحمل فلا- يدل الكتاب إلا- على أنهم لا- نفقة لهم، لا- شرطه الحمل فى الأمر بالإنفاق، آخر كلامه. و الذين ردوا كلام فاطمة هذا ظنوه معارضا للقرآن، فإن الله تعالى قال: **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ [الطلاق: ٦]** و قال: **لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ [الطلاق: ١]**، و هذا لو كان كما ظنوه لكان فى السكنى خاصة، و أما إيجاب النفقة لها فليس فى القرآن إلا ما يدل على أنه لا نفقة لهم، كما قال القاضى إسماعيل؛ لأن الله- سبحانه و تعالى- شرط فى وجوب الإنفاق أن يكن من أولات الحمل، و هو يدل على أنها إذا كانت حائلا «١» فلا- نفقة لها، كيف و إن القرآن لا- يدل على وجوب السكنى للمتبوبة بوجه ما؟ فإن السياق كله إنما هو فى الرجعية. و يبين ذلك قوله تعالى: **لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثْ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) [الطلاق: ١]** و قوله: **فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ [الطلاق: ٢]** و هذا فى البائن مستحيل، ثم قال: **أَسْكِنُوهُنَّ وَ اللَّاتِي قَالَ فِيهِنَّ: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ [الطلاق: ٢]** قال فيهن: **أَسْكِنُوهُنَّ [الطلاق: ٦]** و لا- تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ [الطلاق: ١]، و هذا ظاهر جدا. و شبهه من ظن أن الآية فى البائن قوله تعالى: **وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ [الطلاق: ٦]**. قالوا: و معلوم أن الرجعية لها النفقة؛ حاملا كانت أم حائلا، و هذا لا حجة فيه، فإنه إذا أوجب نفقتها حاملا لم يدل ذلك على أنه لا

نفقة لها إذا كانت حائلا، بل فائدة التقييد بالحمل التنبيه على اختلاف جهة الإنفاق بسبب الحمل قبل الوضع وبعده، فقبل الوضع لها النفقة حتى تضعه، فإذا وضعت صارت النفقة بحكم الإجارة ورضاعة الولد، وهذه قد يقوم غيرها مقامها فيه فلا تستحقها، لقوله تعالى: وَإِنْ تَعَايَرْتُمْ فَسْتَزْبِغْ لَهُ أُخْرَى [الطلاق: ٦]، وأما نفقة حال الحمل فلا يقوم غيرها مقامها فيه، بل هي مستمرة حتى تضعه، فجهة الإنفاق مختلفة. وأما الحائل فنفتها معلومة من نفقة الزوجات، فإنها زوجة ما دامت في العدة، فلا حاجة إلى بيان وجوب نفقتها.

(١) في المطبوعة «حاملًا». البدائع في

علوم القرآن، ص: ٣٨٩ وأما الحامل فلما اختلفت جهة النفقة عليها قبل الوضع وبعده، ذكر سبحانه الجهتين والسبيين. وهذا من أسرار القرآن ومعانيه التي يختص الله بفهمها من شاء. وأيضا، فلو كان قوله تعالى: وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فِي الْبَوَائِنِ لَكَانَ دَلِيلًا ظَاهِرًا عَلَى أَنَّ الْحَائِلَ الْبَائِنَ لَا نَفَقَةَ لَهَا؛ لاشتراط الحمل في وجوب الإنفاق، والحكم المعلق بالشرط يعدم عند عدمه، وأما آية السكنى، فلا يقول أحد: إنها مختصة بالبائن؛ لأن السياق يخالفه، ويبين أن الرجعية مرادة منها، فإما أن يقال: هي مختصة بالرجعية كما يدل عليه سياق الكلام، وتتحد الضمائر، ولا تختلف مفسراتها، بل يكون مفسر قوله: فَأَمْسِكُوهُنَّ هو مفسر قوله: أَسِيكُوهُنَّ وعلى هذا فلا حجة في سكنى البائن. وإما أن يقال: هي عامة للبائن والرجعية. وعلى هذا فلا يكون حديث فاطمة منافيا للقرآن، بل غايته: أن يكون مخصصا لعمومه، وتخصيص القرآن بالسنة جازم واقع، هذا لو كان قوله: أَسِيكُوهُنَّ عاما، فكيف لا يصح فيه العموم، لما ذكرناه؟ وقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا نَفَقَةَ لَكَ وَلَا سَكْنَى» (١) وقوله في اللفظ الآخر: «إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها الرجعة» (٢) رواه الإمام أحمد والنسائي، وإسناده صحيح، وفي لفظ لأحمد: «إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها الرجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى» (٣)، وهذا يبطل كل ما تأولوا به حديث فاطمة، فإن هذا فتوى عامة، وقضاء عام في حق كل مطلقة، فلو لم يكن لشأن فاطمة ذكر في الميمين لكان هذا اللفظ العام مستقلا بالحكم، لا معارض له بوجه من الوجوه. فقد تبين أن القرآن لا يدل على خلاف هذا الحديث، بل إنما يدل على موافقته، كما قالت فاطمة: بيني وبينكم القرآن. ولما ذكر لأحمد قول عمر: لا ندع كتاب ربنا لقول امرأة تبسم أحمد وقال: أي شيء في القرآن خلاف هذا (٤) (١) البخاري (٥٣٢٣)،

(٢) في الطلاق، باب: قصة فاطمة بنت قيس، ومسلم (٣٧/١٤٨٠) في الطلاق، باب: المطلقة ثلاثا لا نفقة لها. (٢) النسائي (٣٤٠٣) في الطلاق، باب: الرخصة في الطلاق الثلاث، وأحمد (٦/٣٧٣). (٣) أحمد (٦/٤١٧). (٤) تهذيب السنن (٣/١٩٠-١٩٣). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٩٠

من تفسيرات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقرآن

إشارة

من تفسيرات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقرآن سئل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قوله تعالى: يَا أُخْتِ هَارُونَ [مريم: ٢٨]، فقال: «كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين من قومهم» (١). وفي الترمذي أنه سئل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قوله تعالى: وَرَأْسُنَا إِلَى مَائَةٍ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) [الصفات: ١٤٧]: كم كانت الزيادة؟ قال: «عشرة آلاف» (٢). وسأله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو ثعلبة عن قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ [المائدة: ١٠٥] فقال: «اتمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودينا مؤثرا، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بنفسك ودع عنك العوام؛ فإن من ورائكم أياما، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين يعملون مثل عملكم» (٣). ذكره أبو داود (٤). باب: منه قد فسر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء بالأطهار، فلا التفات بعد ذلك إلى شيء خالفه، بل كل تفسير يخالف هذا فباطل (٥).

تفسير الصحابة للقرآن والأقوال في الاحتجاج به

تفسير الصحابة للقرآن والأقوال في الاحتجاج به وقد اختلف في تفسير الصحابي، هل له حكم المرفوع، أو الموقوف، على قولين: الأول: اختبار أبي عبد الله الحاكم، والثاني: هو الصواب، ولا نقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم نعلم أنه قاله «٦».

(١) مسلم (٩ / ٢١٣٥) في الأدب، باب:

النهى عن التكنى بأبي القاسم، والترمذى (٣١٥٥) في تفسير القرآن، باب: ومن سورة مريم وقال: «صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس». (٢) الترمذى (٣٢٢٩) في تفسير القرآن، باب: من سورة الصافات، وقال: «حديث غريب»، وضعفه الألبانى. (٣) أبو داود (٤٣٤١) في الملاحم، باب: الأمر والنهى، وضعفه الألبانى. (٤) إعلام الموقعين (٤ / ٤٩٦). (٥) زاد المعاد (٥ / ٦٢٠). (٦) طريق الهجرتين (٣٨٣). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٩١ لا ريب أن أقوالهم في التفسير أصوب من أقوال من بعدهم، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن تفسيرهم في حكم المرفوع. قال أبو عبد الله الحاكم في «مستدرکه»: «وتفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع. ومراده أنه في حكمه في الاستدلال به والاحتجاج، لا أنه إذا قال الصحابي في الآية قولاً فلنا أن نقول: هذا القول قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله وجه آخر، وهو أن يكون في حكم المرفوع بمعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لهم معاني القرآن، وفسره لهم كما وصفه تعالى بقوله: لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ [النحل: ٤٤]، فبين لهم القرآن بيانا شافيا كافيا. وكان إذا أشكل على أحد منهم معنى سأله عنه فأوضحه له، وكما سأله الصديق عن قوله: مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ [النساء: ١٢٣] فبين له المراد، وكما سأله الصحابة عن قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ [الأنعام: ٨٢]، فبين لهم معناها. وكما سأله أم سلمة عن قوله تعالى: فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) [الانشقاق]، فبين لها أنه العرض، وكما سأله عمر عن الكلاله فأحاله على آية الصيف «١» التي في آخر السورة، وهذا كثير جدا. فإذا نقلوا لنا تفسير القرآن فتارة ينقلونه عنه بلفظه؛ وتارة بمعناه، فيكون ما فسروا بألفاظهم من باب الرواية بالمعنى، كما يروون عنه السنة تارة بلفظها وتارة بمعناها، وهذا أحسن الوجهين، والله أعلم.

بعض تفسير الصحابة يخالف الأحاديث

بعض تفسير الصحابة يخالف الأحاديث فإن قيل: فنحن نجد لبعضهم أقوالا في التفسير تخالف الأحاديث المرفوعة الصحاح، وهذا كثير. كما فسر ابن مسعود الدخان بأنه الأثر الذي حصل عن الجوع الشديد والقحط، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دخان يأتي قبل يوم القيامة يكون من أشرطة الساعة مع الدابة والدجال، وطلوع الشمس من مغربها. وفسر عن عمر بن الخطاب قوله تعالى: أَسَدٍ كُنُوهٌ مِّنْ حَيْثُ سَيَكُنْتُمْ مِّنْ وُجْدِكُمْ [الطلاق: ٦]، بأنها اللبائنة والرجعية، حتى قال: لا ندع كتاب ربنا لقول امرأة، مع أن السنة الصحيحة في البسائين تخالف هذا التفسير.

(١) هي آية الكلاله التي في آخر النساء لأنها نزلت في الصيف، أما الأولى فنزلت في الشتاء. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٩٢ وفسر على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - قوله تعالى: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا [البقرة: ٢٣٤] أنها عامه في الحامل والحائل، فقال: تعتد بعد الأجلين، والسنة الصحيحة بخلافه. وفسر ابن مسعود قوله: وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ [النساء: ٢٣]، بأن الصفة لنسائكم الأولى والثانية، فلا تحرم أم المرأة حتى يدخل بها. والصحيح خلاف قوله، وأن أم المرأة تحرم بمجرد العقد على ابنتها والصفة راجعة إلى قوله: وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ، وهو قول جمهور الصحابة. وفسر ابن عباس: «السجل» بأنه كتاب للنبي صلى الله عليه وسلم يسمى السجل، وذلك وهم، وإنما السجل الصحيفة المكتوبة، واللام مثلها في قوله تعالى: وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ [الصافات: ١٠٣]، وفي قول الشاعر: فخر صريعا للدين وللهم «١»

أى يطوى السماء كما يطوى السجل على ما فيه من الكتاب: وهذا كثير جدا. فكيف يكون تفسير الصحابي حجة في حكم المرفوع؟ قيل: الكلام في تفسيره كالكلام في فتواه سواء، و صورة المسألة هنا كصورتها هناك سواء بسواء؛ و صورتها ألا يكون في المسألة نص يخالفه، و يقول في الآية قولاً لا يخالفه فيه أحد من الصحابة، سواء علم استشهاده أو لم يعلم، و ما ذكر من هذه الأمثلة فقد فيه الأمان، و هو نظير ما روى عن بعضهم من الفتاوى التي تخالف النص و هم مختلفون فيها سواء. فإن قيل: لو كان قوله حجة بنفسه لما أخطأ، و لكان معصوماً؛ لتقوم الحجة بقوله، فإذا كان يفتى بالصواب تارة و بغيره أخرى، و كذلك تفسيره فمن أين لكم أن هذه الفتوى المعينة و التفسير المعين من قسم الصواب؟ إذ صورة المسألة أنه لم يتم على المسألة دليل غير قوله، و قوله ينقسم، فما الدليل على أن هذا القول المعين من القسمين و لا بد؟ قيل: الأدلة المتقدمة تدل على انحصار الصواب في قوله في الصورة المفروضة الواقعة، و هو أن من الممتنع أن يقولوا في كتاب الله الخطأ المحض، و يمسك الباقون عن

(١) هذا عجز بيت، و صدره: ضمنت

إليه بالسنان قميصه. مغنى اللبيب (١/ ٢٣٨) تحقيق: محى الدين. البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٩٣ الصواب فلا يتكلمون به، و هذه الصورة المذكورة و أمثالها قد تكلم فيها غيرهم بالصواب، و المحذور إنما هو خلو عصرهم عن ناطق بالصواب، و اشتماله على ناطق بغيره فقط، فهذا هو المحال؛ و بهذا خرج الجواب عن قولكم: لو كان قول الواحد منهم حجة لما جاز عليه الخطأ، فإن قوله لم يكن بمجرد حجة؛ بل بما انضاف إليه مما تقدم ذكره من القرائن (١).

ما أشكل على بعض الصحابة

ما أشكل على بعض الصحابة و أنكر على عائشة إذ فهمت من قوله تعالى: فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) [الانشقاق معارضته لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «من نوقش الحساب عذب» (٢)»، و بين لها أن الحساب اليسير، هو العرض، أى حساب العرض، لا- حساب المناقشة. و أنكر على من فهم من قوله تعالى: مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ [النساء: ١٢٣] أن هذا الجزاء إنما هو فى الآخرة، و أنه لا يسلم أحد من عمل السوء، و بين أن هذا الجزاء قد يكون فى الدنيا بالهم و الحزن و المرض و النصب، و غير ذلك من مصائبها، و ليس فى اللفظ تقييد الجزاء بيوم القيامة. و أنكر على من فهم من قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) [الأنعام أنه ظلم النفس بالمعاصى، و بين أنه الشرك، و ذكر قول لقمان لابنه: إِنَّ الشُّرْكَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) [لقمان مع أن سياق اللفظ عند إعطائه حقه من التأمل يبين ذلك، فإن الله سبحانه لم يقل، و لم يظلموا أنفسهم بل قال: وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ، و لبس الشيء بالشيء: تغطيته به و إحاطته به من جميع جهاته، و لا يغطي الإيمان و يحيط به و يلبسه إلا الكفر. و من هذا قوله تعالى: بلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) [البقرة]، فإن الخطيئة لا تحيط بالمؤمن أبداً، فإن إيمانه يمنع من إحاطة الخطيئة به، و مع أن سياق قوله: وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا- تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) [الأنعام]، ثم حكم الله أعدل حكم و أصدقه أن من آمن، و لم يلبس إيمانه بظلم فهو أحق بالأمن و الهدى، فمدل على أن الظلم: الشرك.

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٩٥-١٩٨).

(٢) مسلم (٢٨٧٦/ ٧٩) فى الجنة و صفة نعيمها و أهلها، باب: إثبات الحساب. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٩٤ و سأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الكلاله و راجعه فيها مرارا، فقال «تكفيك آية الصيف» (١): و اعترف عمر بأنه خفى عليه فهمها، و فهمها الصديق. و قد نهى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عن لحوم الحمر الأهلية، ففهم بعض الصحابة من نهيه أنه لكونها لم تحمس، و فهم بعضهم أن النهى لكونها كانت حمولة القوم و ظهرهم، و فهم بعضهم أنه لكونها كانت جوال القرية. و فهم على بن أبى طالب- كرم الله وجهه فى الجنة- و كبار الصحابة ما قصده رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بالنهى، و صرح بعلته من كونها رجسا. و فهمت المرأة

من قوله تعالى: وَآتَيْنَاكُمْ إِحْدَاهُنَّ فِطْرًا [النساء: ٢٠] جواز المغالاة في الصداق، فذكرته لعمر، فاعترف به. و فهم ابن عباس من قوله تعالى: وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا [الأحقاف: ١٥] مع قوله: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَيْنَ مِنْ أَوْلَادِهِنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ [البقرة: ٢٣٣] أن المرأة قد تلد لسته أشهر، و لم يفهمه عثمان فهم برجم امرأة ولدت لها، حتى ذكره ابن عباس، فأقر به. و لم يفهم عمر من قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها» [٢] قتال مانعي الزكاة، حتى بين له الصديق فأقر به. و فهم قدامة بن مظعون من قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا [المائدة: ٩٣] رفع الجناح عن الخمر، حتى بين له عمر أنه لا يتناول الخمر، و لو تأمل سياق الآية لفهم المراد منها، فإنه إنما رفع الجناح عنهم فيما طعموه متقين له فيه، و ذلك إنما يكون باجتناح ما حرمه من المطاعم، فالآية لا تتناول المحرم بوجه ما. و قد فهم من قوله تعالى: وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقرة: ١٩٥] انغماس الرجل في العدو، حتى بين له أبو أيوب الأنصاري أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاة الله، و أن الإلقاء بيده إلى التهلكة هو ترك الجهاد، و الإقبال على الدنيا و عمارتها. و قال الصديق رضى الله عنه: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية، و تضعونها على غير مواضعها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ [المائدة: ١٠٥]، و إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أو شكك أن يعمهم الله بالعقاب

(باب: ميراث الكلاله. (٢) البخارى (١٣٩٩) فى الزكاة، باب: وجوب الزكاة، و مسلم (٣٣/٢١) فى الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ... إلخ. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٩٥ من عنده» [١] فأخبرهم أن يضعونها على غير مواضعها فى فهمهم منها خلاف ما أريد بها. و أشكل على ابن عباس أمر الفرقة الساكنة التى لم ترتكب ما نهيت عنه من اليهود: هل عذبوا أو نجوا، حتى بين له مولاة عكرمة دخولهم فى الناجين دون المعذبين، و هذا هو الحق؛ لأنه سبحانه قال عن الساكنين: وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا [الأعراف: ١٦٤]، فأخبر أنهم أنكروا فعلهم، و غضبوا عليهم و إن لم يواجهوهم بالنهى، فقد واجههم به من أدى الواجب عنهم، فإن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، فرض كفاية، فلما قام به أولئك سقط عن الباقيين، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم. و أيضا، فإن الله - سبحانه - إنما عذب الذين نسوا ما ذكروا به، و عتوا عما نهوا عنه، و هذا لا يتناول الساكنين قطعا، فلما بين عكرمة لابن عباس أنهم لم يدخلوا فى الظالمين المعذبين كسائه برده و فرح به. و قد قال عمر بن الخطاب للصحابة: ما تقولون فى: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) السورة؟ قالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره، فقال لابن عباس ما تقول أنت؟ قال: هو أجل رسول الله أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها غير ما تعلم. و هذا من أدق الفهم و أطفه، و لا يدركه كل أحد، فإنه - سبحانه - لم يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو - سبحانه - من نعمة فتحه على رسوله، و دخول الناس فى دينه، و هذا ليس بسبب للاستغفار. فعلم أن سبب الاستغفار غيره، و هو حضور الأجل الذى من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح و الاستغفار بين يديه ليلقى ربه طاهرا من كل ذنب، فيقدم عليه مسرورا راضيا عنه، و يدل عليه أيضا قوله: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ [النصر: ٣]، و هو صلى الله عليه و سلم كان يسبح بحمده دائما، فعلم أن الأمور به من ذلك التسييح بعد الفتح، و دخول الناس فى الدين أمر أكبر من ذلك المتقدم، و ذلك مقدمة بين يدي انتقاله إلى الرفيق الأعلى، و أنه قد بقيت عليه من عبودية التسييح و الاستغفار التى ترقيه إلى ذلك المقام بقيه، فأمره بتوفيتها. و يدل عليه أيضا أنه سبحانه شرع التوبة و الاستغفار فى خواتيم الأعمال، فشرعها فى خاتمة الحج و قيام الليل، و كان النبى صلى الله عليه و سلم إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثا، و شرع للمتوضى بعد كمال وضوئه أن يقول: «اللهم اجعلنى من التوابين» (باب: الأمر و النهى، و الترمذى (٢١٦٨) فى الفتن، باب: ما جاء فى نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، و أحمد (٥/١). البدائع فى علوم

القرآن، ص: ٣٩٦ و اجعلنى من المتطهرين» (١)، فعلم أن التوبة مشروعة عقيب الأعمال الصالحة، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة و الجهاد فى سبيله حين دخل الناس فى دينه أفواجا، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها، و أداها، فشرع له الاستغفار عقيبها (٢) (الترمذى (٥٥) فى الطهارة، باب: فيما يقال بعد الوضوء، و قال: «فى إسناده اضطراب و لا يصح عن النبى صلى الله عليه و سلم ... إلخ». و قال الشيخ أحمد شاكر: «و قد أخطأ الترمذى فيما زعم من اضطراب الإسناد فى هذا الحديث، و من أنه لا يصح فى الباب كبير شىء. و أصل الحديث صحيح مستقيم الإسناد، و إنما جاء الاضطراب فى الأسانيد التى نقلها الترمذى - منه أو ممن حدثه بها» و بعد أن ذكر عدة روايات للحديث قال: كل الروايات التى ذكرنا ليس فيها قوله: «اللهم اجعلنى من التوابين و اجعلنى من المتطهرين» إلا - فى رواية الترمذى وحدها. و لا يكفى ذلك فى صحتها، لما علمت من الاضطراب و الخطأ فيها، و إنما جاءت فى حديث بهذا المعنى عن ثوبان مرفوعا، نقله الهيتمى فى مجمع الزوائد (٢٣٩ / ١) و قال: «رواه الطبرانى فى الأوسط و الكبير باختصار، و قال فى الأوسط: تفرد به مسور بن مورع، و لم أجد من ترجمه، و فيه أحمد بن سهيل الوراق، ذكره ابن حبان فى الثقات. و فى إسناد الكبير: أبو سعيد البقال، و الأ- كثر على تضعيفه، و وثقه بعضهم». و انظر تخريج الحديث مفصلا فى الإرواء رقم (٩٦). (٢) إعلام الموقعين (١ / ٤٣٣ - ٤٣٧).

البدائع فى علوم القرآن، ص: ٣٩٧

فضائل القرآن

مكانة القرآن بين الكتب المنزلة

مكانة القرآن بين الكتب المنزلة إذا تأملت التوراة و الإنجيل و الكتب، و تأملت القرآن وجدته كالتفصيل لمجملها و التأويل لأمثالها و الشرح لرموزها، و هذا حقيقة قول المسيح عليه السلام: «أجيئكم بالأمثال و يجيئكم بالتأويل، و يفسر لكم كل شىء» و إذا تأملت قوله: «و كل شىء عدده الله لكم به» و تفاصيل ما أخبر به من الجنة و النار و الثواب و العقاب، تيقنت صدق الرسولين الكريمين، و مطابقت الأخبار المفصلة من محمد صلى الله عليه و سلم للخبر المجمل من أخيه المسيح (١).

القرآن كثير الخير عظيم النفع

القرآن كثير الخير عظيم النفع قال تعالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فوصفه بما يقتضى حسنه، و كثرة خيره، و منافعه، و جلالته، فإن الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم النفع، و هو من كل شىء أحسنه و أفضله، و الله - سبحانه - و وصف نفسه بالكريم، و وصف به كلامه، و وصف به عرشه، و وصف به ما كثر خيره، و حسن منظره: من النبات، و غيره. و لذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الكلبي: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)، أى حسن كريم على الله. و قال مقاتل: كرمه الله و أعزه، لأنه كلامه. و قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، و الله كريم جميل الفعال، و إنه لقرآن كريم يحمد، لما فيه من الهدى و البيان و العلم و الحكمة. و بالجملة فالكريم الذى من شأنه أن يعطى الخير الكثير بسهولة و يسر (٢).

القرآن كفيلا بمصالح العباد فى المعاش و المعاد

القرآن كفيلا بمصالح العباد فى المعاش و المعاد لما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، و العمل الصالح، و هما الهدى و دين الحق، و بتكميله لغيره فى هذين الأمرين، كما قال تعالى: وَ الْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)

(١) هداية الحيارى (١٠٨). (٢) التبيان

(٢٢٥). البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٩٨ إِيَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) [سورة العصر] أقسم- سبحانه- أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، و كمل غيره بالتوصية بالحق و الصبر عليه، فالحق هو الإيمان و العمل، و لا يتمان إلا بالصبر عليهما، و التواصي بهما- كان حقيقا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره- بل أنفاسه- فيما ينال به المطالب العالیه، و يخلص به من الخسران المبین، و ليس ذلك إلا- بالإقبال على القرآن و تفهمه و تدبره و استخراج كنوزه و إثارة دفائنه، و صرف العناية إليه، و العكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد، في المعاش و المعاد. و الموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة و الطريقة، و الأذواق و المواجهيد الصحيحة، كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، و لا تستثمر إلا من شجراته «١».

القرآن باب الله الأعظم الذي منه الدخول

القرآن باب الله الأعظم الذي منه الدخول فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته، و طريقه الموصلة لسالكها إليه، و نوره المبين الذي أشرقت له الظلمات، و رحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات، و السبب الواصل بينه و بين عبادته، إذا انقطعت الأسباب، و بابه الأعظم الذي منه الدخول، فلا يغلق إذا غلقت الأبواب. و هو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء، و الذكر الحكيم الذي لا تزيع به الأهواء، و النزول الكريم الذي لا يشيع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، و لا تقلع سحائبه، و لا تنقض آياته، و لا تختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملا و تفكرا زادا هداية و تبصيرا، و كلما بجمت معينه فجر لها ينابيع الحكمة تفجيرا. فهو نور البصائر من عماها، و شفاء الصدور من أدوائها و جواها، و حياة القلوب، و لذة النفوس، و رياض القلوب، و حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، و المنادى بالمساء و الصباح: يا أهل الفلاح، حي على الفلاح. نادى منادى الإيمان على رأس الصراط المستقيم: يا قَوْمًا أَجِئُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمَنُوا بِهِ يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) [الأحقاف]. أسمع- و الله- لو صادف آذانا واعية، و بصير لو صادف قلوبا من الفساد خالية. لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء فأطفت مصابيحها، و تمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبوابها و أضاعت مفاتيحها، و ران عليها كسبها فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذا، و تحكمت فيها أسقام الجهل فلم تنتفع معها بصلاح العمل.

(١) مدارج السالكين (١ / ٦ ، ٧).

البدائع في علوم القرآن، ص: ٣٩٩ وا عجا لها! كيف جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا- تسمن و لا تغنى من جوع، و لم تقبل الاغتذاء بكلام رب العالمين، و نصوص حيث نبيه المرفوع؟ أم كيف اهتدت في ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطأ و الصواب، و خفى عليها ذلك في مطالع الأنوار من السنة و الكتاب؟. وا عجا! كيف ميزت بين صحيح الآراء و سقيمها، و مقبولها و مردودها، و راجحها و مرجوحها، و أقرت على أنفسها بالعجز عن تلقي الهدى و العلم من كلام من كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و هو الكفيل بإيضاح الحق مع غاية البيان؟ و كلام من أوتى جوامع الكلم، و استولى كلامه على الأقصى من البيان. كلا، بل هي- و الله- فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدتها، و حيرت العقول عن طرائق قصدها، يربى فيها الصغير، و يهرم فيها الكبير. و ظنت خفافيش البصائر أنها الغاية التي يتسابق إليها المتسابقون، و النهاية التي تنافس فيها المنافسون، و تراحموا عليها، و هيهات، أين السهى من شمس الضحى؟، و أين الثرى من كواكب الجوزاء؟، و أين الكلام الذي لم تضمن لنا عصمة قائله بدليل معلوم، من النقل المصدق عن القائل المعصوم؟، و أين الأقوال التي أعلى درجاتها: أن تكون سائغة الاتباع، من النصوص الواجب على كل مسلم تقديمها و تحكيمها و التحاكم إليها في محل النزاع؟ و أين الآراء التي نهى قائلها عن تقليدها فيها و حذر، من النصوص التي فرض على كل عبد أن يهتدى بها و يتبصر؟، و أين المذاهب التي إذا مات أربابها «١»؛ فهي من جملة الأموات، من النصوص التي لا- تزول إذا زالت الأرض و السموات؟ سبحانه الله! ما ذا حرم المعرضون عن نصوص الوحي، و اقتباس العلم من مشكاته من كنوز الذخائر؟!، و ما ذا فاتهم من حياة القلوب و استنارة البصائر؟ قنعوا بأقوال استنبطتها معاول الآراء فكرا، و تقطعوا أمرهم بينهم لأجلها زبرا، و أوحى بعضهم

إلى بعض زخرف القول غرورا، فاتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورا. درست معالم القرآن في قلوبهم فليسوا يعرفونها. و دثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، و وقعت ألويته و أعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها، و أفلت كواكبه النيرة من آفاق نفوسهم فلذلك لا— يجوبنها. و كسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم و عقدها فليسوا يبصرونها.

(أربابها). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٠٠ خلعوا نصوص الوحي عن سلطان الحقيقة، و عزلوها عن ولاية اليقين. و شنوا عليها غارات التأويلات الباطلة. فلا يزال يخرج عليها من جيوشهم كمين بعد كمين. نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لثام، فعاملوها بغير ما يليق بها من الإجلال و الإكرام، و تلقوها من بعيد، و لكن بالدفع في صدورها و الأعجاز. و قالوا: مالك عندنا من عبور، و إن كان و لا بد، فعلى سبيل الاجتياز: أنزلوا النصوص منزلة الخليفة في هذا الزمان، له السكة و الخطبة و ما له حكم نافذ و لا سلطان. المتمسك عندهم بالكتاب و السنة صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول، و المقلد للآراء المتناقضة المتعارضة و الأفكار المتهافئة لديهم هو الفاضل المقبول، و أهل الكتاب و السنة، المقدمون لنصوصها على غيرها، جهال لديهم منقوصون: و إذا قيل لَهُمْ أَمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أ نُوْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَ لَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (٣١) [البقرة: ١٣]. حرما— و الله— الوصول، بعدولهم عن منهج الوحي و تضييعهم الأصول، و تمسكوا بأعجاز لا صدور لها فخانتهم أحرص ما كانوا عليها، و تقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها. حتى إذا بعث ما في القبور، و حصل ما في الصدور، و تميز لكل قوم حاصلهم الذي حصلوه، و انكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه، و قدموا على ما قدموه، و بدأ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [الزمر: ٤٧]. و سقط في أيديهم عند الحصاد لما عاينوا غلة ما بذروه. فيا شدة الحسرة عند ما يعاين المبطل سعيه و كده هباء منثورا!، و يا عظم المصيبة عند ما يتبين بوارق أمانيه خلبا و آماله كاذبة غرورا. فما ظن من انطوت سريرته على البدعة و الهوى و التعصب للآراء بره يوم تبلى السرائر؟، و ما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره في يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذر؟ أفيظن المعرض عن كتاب ربه و سنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث و الجدل، و ضروب الأقيسة و تنوع الأشكال؟، أو بالإشارات و الشطحات، و أنواع الخيال؟ هيهات و الله، لقد ظن أكذب الظن، و منته نفسه أبين المحال. و إنما ضمنت النجاة لمن حكم هدى الله على غيره، و تزود التقوى، و ائتم بالدليل، و سلك الصراط المستقيم، و استمسك من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها و الله سميع عليم «١».

(١) مدارج السالكين (١ / ٣ - ٦).

البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٠١

القرآن حق و صدق

القرآن حق و صدق و من شهادته أيضا: ما أودعه في قلوب عباده: من التصديق الجازم، و اليقين الثابت، و الطمأنينة بكلامه و وحيه. فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب، و الافتراء على رب العالمين، و الإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه و صفاته. بل ذلك يوقع أعظم الريب و الشك. و تدفعه الفطر و العقول السليمة، كما تدفع الفطر— التي فطر عليها الحيوان— الأغذية الخبيثة الضارة التي لا تغذى. كالأبوال و الأنتان. فإن الله— سبحانه— فطر القلوب على قبول الحق و الانقياد له، و الطمأنينة به، و عدم السكون إليه. و لو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه، و لما سكنت إلا— إليه، و لا اطمأنت إلا به، و لا أحببت غيره. و لهذا ندب الله عز و جل عباده إلى تدبر القرآن، فإن كل من تدبره أوجب له تدبره علما ضروريا و يقينا جازما: أنه حق و صدق. بل أحق كل حق، و أصدق كل صدق. و أن الذي جاء به أصدق خلق الله، و أبرهم، و أكملهم علما و عملا، و معرفة. كما قال تعالى: أ فَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) [محمد] فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن، و استنارت فيها مصابيح الإيمان. و علمت علما ضروريا

يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية- من الفرح، والألم، والحب، والخوف- أنه من عند الله، تكلم به حقاً، وبلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد، و به احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. فقال له: وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في قوله: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ [العنكبوت: ٤٩]، وقوله: وَ لِيَعْلَمَ «١» الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ [الحج: ٥٤]، وقوله: وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) [سبأ]، وقوله: أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى [الرعد: ١٩]، وقوله: (١) في المطبوعة: (و يرى) و هو خطأ.

البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٠٢ وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا- أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ (٢٧) [الرعد] يعنى: أن الآية التي يقترحونها لا توجب هدايته، بل الله هو الذى يهدى و يضل. ثم نبههم على أعظم آية و أجلها، و هى: طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذى أنزله، فقال: الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَى: بكتابه و كلامه، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [الرعد: ٢٨] طمأنينة القلوب الصحيحة، و الفطرة السليمة به، و سكونها إليه: من أعظم الآيات؛ إذ يستحيل فى العادة: أن تطمئن القلوب و تسكن إلى الكذب و الافتراء و الباطل «١».

القرآن ذكر الله الأكبر

القرآن ذكر الله الأ-كبر و أما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شىء فكقوله تعالى: اتل ما أوحى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَ أقمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) [العنكبوت و فيها أربعة «٢» أقوال: أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شىء. فهو أفضل الطاعات؛ لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره، فهو سر الطاعات و روحها. الثانى: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، و على الأول: مضاف إلى المذكور. الثالث: أن المعنى: و لذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة و منكر، بل إذا تم الذكر: محق كل خطيئة و معصية، هذا ما ذكره المفسرون. و سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- يقول: معنى الآية: أن فى الصلاة فائدتين عظيمتين: إحداهما: نهىها عن الفحشاء و المنكر. و الثانية: اشتغالها على ذكر الله و تضمينها له، و لما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهىها عن الفحشاء «٣» و المنكر «٤» (١) مدارج السالكين (٣ / ٤٧١،

٤٧٢). (٢) هكذا فى المطبوعة، و ذكر ثلاثة فقط. (٣) و لعل فى الآية معنى آخر: أن الصلاة هى أكبر الذكر. فقد قال الله: وَ أقمِ الصَّلَاةَ لِتَذَكَّرَ [طه: ١٤]. و هى أكبر و أقوى و أشد ناه عن الفحشاء و المنكر. (٤) مدارج السالكين (٢ / ٤٢٦). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٠٣

القرآن فضل الله و رحمته

القرآن فضل الله و رحمته قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) [يونس]. قال أبو سعيد الخدرى: (فضل الله): القرآن، و (رحمته): أن جعلكم من أهله. و قال هلال بن يساف: بالإسلام الذى هداكم إليه، و بالقرآن الذى علمكم إياه، و هو خير مما تجمعون من الذهب و الفضة، و كذلك قال: ابن عباس و الحسن و قتادة: فضله: الإسلام، و رحمته: القرآن، و قالت طائفة من السلف: فضله: القرآن، و رحمته: الإسلام «١». باب منه و أغنانا بالفرح بفضله و رحمته- هما القرآن و الإيمان- عن الفرح بما يجمعه أهل الدنيا من المتاع، و العقار، و الأثمان، فقال تعالى: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) [يونس «٢»].

القرآن ذكر للعباد

القرآن ذكر للعباد أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين، وفي موضع آخر تذكرة للمتقين، وفي موضع آخر ذكر لرسوله صلى الله عليه وسلم ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق، وفي موضع آخر ذكر مبارك، وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر. ويجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكرا عاما و خاصا، و كونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم و معادهم، و يذكرهم بالمبدأ و المعاد، و يذكرهم بالرب تعالى و أسمائه و صفاته و أفعاله، و حقوقه على عباده، و يذكرهم بالخير ليقصدوه، و بالشر ليجتنبوه. و يذكرهم بنفوسهم، و أحوالها و آفاتها، و ما تكمل به، و يذكرهم بعدوهم و ما يريد منهم، و بما ذا يحترزون من كيد، و من أى الأبواب و الطرق يأتى إليهم. و يذكرهم بفاقتهم و حاجتهم إليه، و أنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفسا واحدا. و يذكرهم بنعمه عليهم، و يدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها و يذكرهم بأسه و شدة بطشه، و انتقامه ممن عصى أمره، و كذب رسله و يذكرهم بشوابه و عقابه (١) .

اللهمان (١ / ٣١). (٢) إغائته اللهمان (٢ / ٧٠). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٠٤ و لهذا يأمر - سبحانه - عباده أن يذكر ما فى كتابه، كما قال: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [البقرة: ٦٣]، و إذا كان كذلك فأحق و أولى و أول من كان ذاكر له من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين و حيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره «١».

القرآن تبصرة للعباد

القرآن تبصرة للعباد قال تعالى عن أوليائه: رَبَّنَا لَا تَرِخْ قُلُوبَنَا بَعِيدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) [آل عمران] ، و قال تعالى: وَ لَمَّا سَكَتَ عَنِ مُوسَى الْغَضِبِ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَ فِي سُجُودِهَا هُدًى وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ (١٥٤) [الأعراف] ، و قال تعالى: هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) [الجاثية]، و قال تعالى: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَ لَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) [يوسف] ، و قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) [يونس] . فقلوه هذا بصائر من ربكم عام مطلق، و قوله: وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ خاص بأهل اليقين. و نظير ذلك قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧). و نظيره أيضا، قوله هذا بيان للناس وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) [آل عمران] و قد أخبر أنه هدى عام لجميع المكلفين. فقال: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْهُدَى [النجم: ٢٣]. فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس، و البصائر جمع بصيرة، و هى فعلية بمعنى مفعلة، أى مبصرة لمن تبصر، و منه قوله تعالى: وَ آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً [الإسراء: ٥٩] أى مبينة موجبة للتبصر. و فعل الإبصار يستعمل لازما و متعديا. يقال: أبصرت، بمعنى أريت، و أبصرت، بمعنى رأيت. فمبصرة فى الآية: بمعنى مرئية لا- بمعنى رائية، و الذين ظنوها بمعنى رائية غلطوا فى الآية، و تحيروا فى معناها. (١) التبيان (١٢٨ - ١٢٩). البدائع فى

علوم القرآن، ص: ٤٠٥ فإنه يقال: بصر به، و أبصره، فيعدى بالباء تارة، و الهمزة تارة. ثم يقال: أبصرت كذا، أى أريت إياه، كما يقال بصرته به، و بصر هو به. فهاهنا بصيرة، و تبصرة، و مبصرة. فالبصيرة: التى تبصر، و التبصرة مصدر، مثل التذكرة، و سمي بها ما يوجب التبصرة، فيقال: هذا الآية تبصرة، لكونها آله التبصر، و موجه. فالقرآن بصيرة و تبصرة، و هدى و شفاء، و رحمة، بمعنى عام، و بمعنى خاص. و لهذا يذكر الله - سبحانه - هذا و هذا، فهو هدى للعالمين، و موعظة للمتقين، و هدى للمتقين، و شفاء للعالمين، و شفاء للمؤمنين، و موعظة للعالمين، و موعظة للمتقين فهو فى نفسه هدى و رحمة، و شفاء و موعظة. فمن اهتدى به و اتعظ و اشتفى، كان

بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء فهو دواء له بالفعل، وإن لم يستعمله فهو دواء له بالقوة، وكذلك الهدى. فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يهتد به، وإنما يهتدى به ويرحم ويتعظ المتقون الموقنون. والهدى في الأصل: مصدر هدى يهdy هدى. فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتدياً، كما في الأثر: «من ازداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله تعالى إلا بعداً» ولكن يسمى هدى، لأن من شأنه أن يهdy. وهذا أحسن من قول من قال: إنه هدى، بمعنى هاد، فهو مصدر بمعنى الفاعل، كعدل بمعنى العادل، وزور بمعنى الزائر، ورجل صوم أى بمعنى صائم، فإن الله - سبحانه - قد أخبر أنه يهdy به. فالله الهادى، وكتابه الهدى الذى يهdy به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. فهنا ثلاثه أشياء: فاعل، وقابل، وآلة. فالفاعل: هو الله تعالى. والقابل: قلب العبد، والآلة: هو الذى يحصل به الهدى، وهو الكتاب المنزل، والله سبحانه يهdy خلقه هدى، كما يقال: دلهم دلالة، و أرشدهم إرشاداً، وبين لهم بيانا «١».

محتوى خطاب القرآن

محتوى خطاب القرآن تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله وله الحمد كله، أزممة الأمور كلها بيده (١) إغاثة اللهفان (٢ / ١٦٩ - ١٧١).

البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٠٦ ومصدرها منه ومردّها إليه، مستويا على سرير ملكه لا تخفى عليه خافية فى أقطار مملكته، عالماً بما فى نفوس عبيده، مطلعاً على أسرارهم وعلانياتهم، منفرداً بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطى ويمنع، ويشب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيى، ويقدر ويقضى ويدبر. الأمور نازلة من عنده دقيقة وجليلها، وصاعدة إليه لا تتحرك فى ذرة إلا بإذنه ولا تسقط ورقة إلا بعلمه. فتأمل كيف تجده يثنى على نفسه ويمجد نفسه ويحمد نفسه وينصح عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته ويتجيب إليهم بنعمه وآياته. فيذكرهم بنعمه عليهم ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نعمة، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعلم لهم من العقوبة إن عصوه. ويخبرهم بصنعه فى أوليائه وأعدائه وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء. ويثنى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسئ أعمالهم وقبيح صفاتهم. ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين، ويحجب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهdy السبيل. ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكر عبادة فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه وأنهم لا غنى لهم عنه طرفه عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغنى بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضلته ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته. ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه أطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيم أعتابهم ومصلح فسادهم والدافع عنهم، والمحامى عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجى لهم من كل كرب، والموفى لهم بوعدته. وأنه وليهم الذى لا ولى لهم سواه فهو مولاهم الحق ونصيرهم على عدوهم، فنعمة المولى ونعم النصير. فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً رحيماً جواداً جميلاً، هذا شأنه، فكيف لا تحبه وتنافس فى القرب منه وتنفق أنفاسها فى التودد إليه ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه أثر عندها من رضا كل ما سواه؟ وكيف لا تلهج بذكره ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها بحيث إن فقــــدت ذلــــك فــــمــــت و هلكــــت و لــــم تتنفس حيايتها؟ «١».

(١) الفوائد (٣٠). البدائع فى علوم

فضل قارئ القرآن

فضل قارئ القرآن ثبت في الصحيح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب، وريحها طيب» (١). في الأترج منافع كثيرة، وهو مركب من أربعة أشياء: قشر، ولحم، وحمض، وبزر، ولكل واحد منها مزاج يخصه؛ فقشره حار يابس، ولحمه حار رطب، وحمضه بارد يابس، وبزره حار يابس. ومن منافع قشره: أنه إذا جعل في الثياب منع السوس، ورائحته تصلح فساد الهواء والوباء، ويطيب النكهة إذا أمسكه في الفم، ويحلل الرياح. وإذا جعل في الطعام كالأبازير أعان على الهضم، قال صاحب «القانون»: وعصارة قشره تنفع من نهش الأفاعي شربا، وقشره ضمادا، وحقاقه قشره طلاء جيد للبرص. انتهى. وأما لحمه: فملطف لحرارة المعدة، نافع لأصحاب المرة الصفراء، قانع للبخارات الحارة. وقال الغافقي: أكل لحمه ينفع البواسير. انتهى. وأما حمضه: فقابض كاسر للصفراء، ومسكن للخفقان الحار، نافع من اليرقان شربا واكله، قاطع للقيء الصفراوي، مشه للطعام، عاقل للطبيعة، نافع من الإسهال الصفراوي، وعصارة حمضه يسكن غلظة النساء، وينفع طلاء من الكلف، ويذهب بالقوباء (٢) ويستدل على ذلك من فعله في الحبر إذا وقع في الثياب قلعه، وله قوة تلطف وتقطع، وتبرد، وتطفئ حرارة الكبد، وتقوى المعدة، وتمنع حدة المرة الصفراء، وتزيل الغم العارض منها، وتسكن العطش. وأما بزره: فله قوة محللة مجففة. وقال ابن ماسويه (٣): خاصية حبه النفع من السموم القاتلة إذا شرب منه وزن مثقال مقشرا بماء فاتر، وطلاء مطبوخ. وإن دق ووضع على موضع اللسعة نفع، وهو ملين للطبيعة، مطيب للنكهة، وأكثر هذا

(١) البخاري (٥٠٢٠) في فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام، ومسلم (٢٤٣/٧٩٧) في صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة حافظ القرآن. (٢) القوباء: داء في الجسد يتقشر منه الجلد، ويعرف عند العامة بالحزاز. (٣) هو يوحنا بن ماسويه البغدادي، طبيب سرياني، نشأ في بغداد، واتصل بهارون الرشيد، وعهد إليه بترجمة الكتب الطبية، وكان طبيب البلاط العباسي من أيام الرشيد حتى المتوكل، توفي بسامراء (٢٤٣) هـ، تاريخ الحكماء (٣٨٠-٣٩١) للقفطي. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٠٨ الفعل موجود في قشره، وقال غيره: خاصية حبه النفع من لسعات العقارب إذا شرب منه وزن مثقالين مقشرا بماء فاتر، وكذلك إذا دق ووضع على موضع اللدغة. وقال غيره: حبه يصلح للسموم كلها، وهو نافع من لدغ الهوام كلها. وذكر أن بعض الأكاسرة غضب على قوم من الأطباء، فأمر بحبسهم، وخيرهم أدما لا يزيد لهم عليه، فاختروا الأترج، فقيل لهم: لم اخترتموه على غيره؟ فقالوا: لأنه في العاجل ريحان، ومنظره مفرح، وقشره طيب الرائحة، ولحمه فاكهة، وحمضه آدم، وحبه ترياق، وفيه دهن. وحقيق بشيء هذه منافعه أن يشبهه به خلاصة الوجود، وهو المؤمن الذي يقرأ القرآن، وكان بعض السلف يحب النظر إليه لما في منظره من التفريح (١).

النهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو

النهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو إنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو (٢)، فإنه ذريعة إلى أن تناله أيديهم (٣).

القرآن متضمن لأدوية القلب، وعلاجه من جميع أمراضه

القرآن متضمن لأدوية القلب، وعلاجه من جميع أمراضه قال الله عز وجل: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ [يونس: ٥٧] وقال تعالى: وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [الإسراء: ٨٢]. وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات. والقرآن شفاء للنوعين، وفيه من البيّنات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض

الشبه المفسدة للعلم و التصور و الإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه. و ليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين و الآيات على المطالب العالية: من التوحيد، و إثبات الصفات، و إثبات المعاد و النبوات، و رد النحل الباطلة و الآراء الفاسدة، مثل القرآن. فإنه كفيلاً بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه و أحسنها، و أقربها إلى العقول و أفصحها بياناً. فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه و الشكوك، و لكذلك من ذلك موكوف على فهمه (١) زاد المعاد (٢٨٣/٤ - ٢٨٥). (٢)

البخارى (٢٩٩٠) في الجهاد، باب: كراهية السفر بالمصاحف إلى أرض العدو، و مسلم (١٨٦٩) في الإمارة، باب: النهى أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار ... إلخ. (٣) إعلام الموقعين (٣/٢٠١). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٠٩ و معرفة المراد منه. فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق و الباطل عياناً بقلبه، كما يرى الليل و النهار، و علم أن ما عداه من كتب الناس و آرائهم و معقولاتهم: بين علوم لا ثقة بها، و إنما هي آراء و تقليد، و بين ظنون كاذبة لا تغنى عن الحق شيئاً، و بين أمر صحيحة لا منفعة للقلب فيها؛ و بين علوم صحيحة قد و عروا الطريق إلى تحصيلها، و أطالوا الكلام في إثباتها، و مع قلة نفعها. فهي: «لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، و لا سمين فينتقل» (١). و أحسن ما عند المتكلمين و غيرهم فهو في القرآن أصح تقريراً و أحسن تفسيراً، فليس عندهم إلا التكليف و التطويل و التعقيد، كما قيل: لو لا التنافس في الدنيا لما وضعت كتب التناظر، لا المغنى و لا العمدة يحللون بزعم منهم عقداً و بالذی وضعوه زادت العقد فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذی وضعوه الشبه و الشكوك، و الفاضل الذكي يعلم أن الشبه و الشكوك زادت بذلك، و من المحال ألا يحصل الشفاء و الهدى؛ و العلم و اليقين من كتاب الله تعالى و كلام رسوله، و يحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين، الذين أخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم، حيث يقول: نهاية إقدام العقول عقاب و أكثر سعى العالمين ضلال و أرواحنا في وحشة من جسوننا و حاصل دنيانا أذى و وبال و لم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل و قالوا لقد تأملت الطرق الكلامية، و المناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفى عيلاً، و لا تروى غليلاً. و رأيت أقرب الطرق طريقه القرآن، أقرأ في الإثبات: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) [طه]، إِلَيْهِ يَصِيَّعُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ [فاطر: ١٠]، و أقرأ في النفي: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى: ١١]، وَ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) [طه: ١١٠]. و من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، فهذا إنشاده و ألفاظه في آخر كتبه. و هو أفضل أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام و الفلسفة، و كلام أمثاله في مثل ذلك كثير جداً، فقد ذكرنا في كتاب «الصواعق» و غيره.

(١) من وصف المرأة الأولى لزوجها

في حديث أم زرع الذي رواه البخارى (٥١٨٩) في النكاح، باب: حسن المعاشرة مع الأهل. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤١٠ و ذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء: آخر أمر المتكلمين الشك، و آخر أمر المتصوفين الشطح. و القرآن يوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد، و لذلك أنزله من تكلم به، و جعله شفاء لما في الصدور، و هدى و رحمة للمؤمنين. و أما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة و الموعظة الحسنة بالترغيب و الترهيب، و التزهيد في الدنيا، و الترغيب في الآخرة، و الأمثال و القصص التي فيها أنواع العبر و الاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه و معاده، و يرغب عما يضره، فيصير القلب محباً للرشد، مبغضاً للغي، فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، و يعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته و صلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن. و عاد الفتى كالطفل ليس بقابل سوى المحض شيئاً و استراحت عواذله (١). فيتغذى القلب من الإيمان و القرآن بما يزيه و يقويه، و يؤيده، و يسره و ينشطه، و يثبت ملكه، كما يتغذى البدن بما ينميه و يقويه. و كل من القلب و البدن محتاج إلى أن يتربى فينمو و يزيد، حتى يكمل و يصلح، فكما أن البدن محتاج إلى أن يترك بالأغذية المصلحة له و الحمية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه، و منع ما يضره فكذلك القلب لا يترك و لا ينمو، و لا يتم صلاحه إلا بذلك، و لا

سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نزر يسير، لا يحصل له به تمام المقصود، وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين، فحينئذ يقال: زكا الزرع و كمل «٢».

الآيات والسور التي يعتصم بها العبد من الشيطان ويستدفع بها شره ويحترز بها منه

العلاج بالقرآن

العلاج بالقرآن ورأى جماعة من السلف أن تكتب له الآيات من القرآن، ثم يشربها. قال مجاهد: لا بأس أن يكتب القرآن، و يغسله، و يسقيه المريض، و مثله عن أبي قلابه. و يذكر عن ابن عباس: أنه أمر أن يكتب لامرأة تعسر عليها ولادها أثر من القرآن ثم يغسل و تسقى. و قال أيوب: رأيت أبا قلابه كتب كتابا من القرآن، ثم غسله بماء، و سقاه رجلا كان به وجع «٢».

هدية صلى الله عليه وسلم في رقية اللديغ بالفاتحة

هدية صلى الله عليه وسلم في رقية اللديغ بالفاتحة أخرجها في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدرى، قال: انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها حتى نزلوا على حى من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحى، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ، و سعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: (٢) زاد المعاد (٤ / ١٠١).

المعاد (٤ / ١٧٠). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤١٤ نعم و الله و إنى لأرقى، و لكن استصفناكم، فلم تضيفونا، فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جعلاء فصالحوهم على قطع من الغنم فانطلق يتفل عليه، و يقرأ: الحمد لله رب العالمين، فكأنما أنشط من عقال، فانطلق يمشى و ما به قلبه، قال: فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذى رقى: لا تفعلوا حتى نأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذى كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكروا له ذلك، فقال: «و ما يدريك أنها رقية؟»، ثم قال: «قد أصبتم، اقسما و اضربوا لى معكم سهما» (١). و قد روى ابن ماجه فى «سننه» من حديث على قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير الدواء القرآن» (٢). و من المعلوم أن بعض الكلام له خواص و منافع مجرّبه، فما الظن بكلام رب العالمين، الذى فضله على كل كلام كفضل الله على خلقه الذى هو الشفاء التام، و العصمة النافعة، و النور الهادى، و الرحمة العامة، الذى لو أنزل على جبل لتصدع من عظمتة و جلالته. قال تعالى: وَ نَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ [الإسراء: ٨٢] «و من» هاهنا لبيان الجنس لا للتبويض «هذا أصح القولين كقوله تعالى: وَ عَيَّدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا [الفتح: ٢٩]، و كلهم من الذين آمنوا و عملوا الصالحات. فما الظن بفاتحة الكتاب التى لم ينزل فى القرآن، و لا فى التوراة، و لا فى الإنجيل، و لا فى الزبور مثلها، المتضمنة لجميع معانى كتب الله، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب - تعالى - و مجامعها، و هى: الله، و الرب، و الرحمن، و إثبات المعاد، و ذكر التوحيدين: توحيد الربوبية، و توحيد الإلهية، و ذكر الافتقار إلى الرب - سبحانه - فى طلب الإعانة و طلب الهداية، و تخصيصه - سبحانه - بذلك، و ذكر أفضل الدعاء على الإطلاق و أنفعه و أفرضه، و ما العباد أحوج شيء إليه، و هو الهداية إلى صراطه المستقيم، المتضمن كمال معرفته و توحيده و عبادته بفعل ما أمر به، و اجتناب ما نهى عنه، و الاستقامة عليه إلى الممات، و يتضمن ذكر أصناف الخلائق و انقسامهم إلى: منعم عليه بمعرفة الحق و العمل به و محبته و إثارة، و مغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له، و ضال بعدم معرفته له. و هؤلاء

(١) البخارى (٥٧٤٩) فى الطب، باب

النفث في الرقية، و مسلم (٢٢٠١ / ٦٥) في السلام، باب: جواز أخذ الأجر على الرقية بالقرآن والأذكار. (٢) ابن ماجه (٣٥٠١) في الطب، باب: الاستشفاء بالقرآن، و في الزوائد: «في إسناد الحارث الأعور، و هو ضعيف». البدائع في علوم القرآن، ص: ٤١٥ أقسام الخليفة مع تضمنها لإثبات القدر، و الشرع، و الأسماء، و الصفات، و المعاد، و النوات، و تركية النفوس، و إصلاح القلوب، و ذكر عدل الله و إحسانه، و الرد على جميع أهل البدع و الباطل، كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير «مدارج السالكين» في شرحها. و حقيق بسورة هذا بعض شأنها، أن يستشفى بها من الأدواء، و يرقى بها اللديغ. و بالجملة، فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية و الشاء على الله، و تفويض الأمر كله إليه، و الاستعانة به، و التوكل عليه، و سؤاله مجامع النعم كلها، و هي الهداية التي تجلب النعم، و تدفع النقم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية. و قد قيل: إن موضع الرقية منها: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** (٥) [الفاتحة]، و لا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء، فإن فيهما من عموم التفويض و التوكل، و الالتجاء و الاستعانة، و الافتقار و الطلب، و الجمع بين أعلى الغايات، و هي عبادة الرب وحده، و أشرف الوسائل و هي الاستعانة به على عبادته ما ليس في غيرها، و لقد مر بي وقت بمكة سقمت فيه، و فقدت الطبيب و الدواء، فكنت أتعالج بها، آخذ شربة من ماء زمزم، و أقرؤها عليه مرارا، ثم أشربه، فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتد ذلك عند كثير من الأوجاع، فانتفع بها غاية الانتفاع. و في تأثير الرقي بالفاتحة و غيرها في علاج ذوات السموم سر بديع، فإن ذوات السموم أثرت بكيفيات نفوسها الخبيثة و سلاحها حمايتها التي تلدغ بها، و هي لا تلدغ حتى تغضب، فإذا غضبت، ثار فيها السم، فتقذفه بآلتها، و قد جعل الله - سبحانه - لكل داء دواء، و لكل شيء ضدا، و نفس الراقي تفعل في نفس المرقى، فيقع بين نفسيهما فعل و انفعال، كما يقع بين الداء و الدواء، فتقوى نفس الراقي و قوته بالرقية على ذلك الداء، فيدفعه بإذن الله، و مدار تأثير الأدوية و الأدواء على الفاعل و الانفعال، و هو كما يقع بين الداء و الدواء الطبيعيين، يقع بين الداء و الدواء الروحانيين، و الروحاني، و الطبيعي، و في النفث و التفل استعانة بتلك الرطوبة و الهواء، و النفس المباشر للرقية، و الذكر و الدعاء، فإن الرقية تخرج من قلب الراقي و فمه، فإذا صاحبها شيء من أجزاء باطنه من الريق و الهواء و النفس كانت أتم تأثيرا، و أقوى فعلا و نفوذا، و يحصل بالازدواج بينهما كيفية مؤثرة شبيهة بالكيفية الحادثة عند تركيب الأدوية. و بالجملة: فنفس الراقي تقابل تلك النفوس الخبيثة، و تزيد بكيفية نفسه، و تستعين بالرقية و بالنفث على إزالة ذلك الأثر، و كلما كانت كيفية نفس الراقي أقوى، كانت الرقية أتم، و استعانتة بنفثه كاستعانة تلك النفوس الرديئة بلسعها. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤١٦ و في النفث سر آخر، فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة و الخبيثة، و لهذا تفعله السحرة كما يفعل أهل الإيمان. قال تعالى: **وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) [الفلق]؛ و ذلك لأن النفس تتكيف بكيفية الغضب و المحاربة، و ترسل أنفاسها سهامها لها، و تمدها بالنفث و التفل الذي معه شيء من الريق مصاحب لكيفية مؤثرة، و السواحر تستعين بالنفث استعانة بينة، و إن لم تتصل بجسم المسحور، بل تنفث على العقدة و تعقدها، و تتكلم بالسحر، فيعمل ذلك في المسحور بتوسط الأرواح السفلية الخبيثة، فتقابلها الروح الزكية الطيبة بكيفية الدفع و التكلم بالرقية، و تستعين بالنفث، فأيهما قوى كان الحكم له، و مقابلة الأرواح بعضها لبعض، و محاربتها و آلتها من جنس مقابلة الأجسام، و محاربتها و آلتها سواء، بل الأصل في المحاربة و التقابل للأرواح و الأجسام آلتها و جندها، و لكن من غلب عليه الحس لا- يشعر بتأثيرات الأرواح و أفعالها و انفعالاتها لاستيلاء سلطان الحس عليه، و بعده من عالم الأرواح، و أحكامها، و أفعالها. و المقصود أن الروح إذا كانت قوية و تكيفت بمعاني الفاتحة، و استعانت بالنفث و التفل، قابلت ذلك الأثر الذي حصل من النفوس الخبيثة، فأزالته، و الله أعلم «١».**

هدية صلى الله عليه و سلم في علاج لدغة العقرب بالرقية

هدية صلى الله عليه و سلم في علاج لدغة العقرب بالرقية روى ابن أبي شيبه في «مسنده»، من حديث عبد الله بن مسعود، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه و سلم يصلي، إذ سجد فلدغته عقرب في إصبه، فانصرف رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال: «لعن الله العقرب ما تدع نبيا و لا غيره»، قال: ثم دعا بإناء فيه ماء و ملح، فجعل يضع موضع اللدغة في الماء و الملح، و يقرأ قل هو الله أحد

(١)، و المعوذتين حتى سكنت «٢». ففي هذا الحديث العلاج بالدواء المركب من الأمرين: الطبيعي و الإلهي، فإن في سورة الإخلاص من كمال التوحيد العلمي الاعتقادي، و إثبات الأحديّة لله، المستلزمة نفى كل شركة عنه، و إثبات الصمديّة المستلزمة لإثبات كل كمال له مع كون الخلائق تصمد إليه في حوائجها، أي تقصده الخليقة، و تتوجه إليه، علويها و سفليها، و نفى الوالد و الولد و الكفاء عنه، المتضمن لنفى الأصل و الفرع و النظير، و المائل مما اختصت به و صارت تعدل ثلث

(١) زاد المعاد (٤/١٧٦ - ١٨٠). (٢)

الأحكام النبويّة في الصناعة الطبيّة للكحال (١/٦٥)، و بلفظ قريب السلسلة الصحيحة للألباني رقم (٥٤٧). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤١٧ القرآن، ففي اسمه الصمد إثبات كل الكمال، و في نفى الكفاء التنزيه عن الشبيه و المثال. و في الأحد نفى كل شريك لدى الجلال، و هذه الأصول الثلاثة هي مجامع التوحيد. و في المعوذتين الاستعاذة من كل مكروه جملة و تفصيلا فإن الاستعاذة من شر ما خلق تعم كل شر يستعاذ منه، سواء كان في الأجسام أو الأرواح، و الاستعاذة من شر الغاسق، و هو الليل، و آيته و هو القمر إذا غاب، تتضمن الاستعاذة من شر ما ينتشر فيه من الأرواح الخبيثة التي كان نور النهار يحول بينها و بين الانتشار، فلما أظلم الليل عليها و غاب القمر، انتشرت و عاثت. و الاستعاذة من شر النفثات في العقد تتضمن الاستعاذة من شر السواحر و سحرهن. و الاستعاذة من شر الحاسد تتضمن الاستعاذة من النفوس الخبيثة المؤذية بحسدها نظرها. و السورة الثانية: تتضمن الاستعاذة من شر شياطين الإنس و الجن، فقد جمعت السورتان الاستعاذة من كل شر، و لهما شأن عظيم في الاحتراس و التحصن من الشرور قبل وقوعها؛ و لهذا أوصى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقبه بن عامر بقراءة تعهما عقب كل صلاة، ذكره الترمذي في «جامعه» (١) و في هذا سر عظيم في استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة. و قال: «ما تعوذ المتعوذون بمثلها» (٢). و قد ذكر أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سحر في إحدى عشرة عقدة، و أن جبريل نزل عليه بهما، فجعل كلما قرأ آية منهما انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، و كأنما أنشط من عقال. و أما العلاج الطبيعي فيه، فإن في الملح نفعا لكثير من السموم، و لا سيما لدغة العقرب، قال صاحب «القانون»: يضمده به مع بزر الكتان للسع العقرب، و ذكره غيره أيضا. و في الملح من القوة الجاذبة المحللة ما يجذب السموم و يحللها، و لما كان في لسعها قوة نارية تحتاج إلى تبريد و جذب و إخراج جمع بين الماء المبرد لنار اللسعة، و الملح الذي فيه جذب و إخراج، و هذا أتم ما يكون من العلاج و أيسره و أسهله، و فيه تنبيه على أن علاج هذا الداء بالتبريد و الجذب و الإخراج، و الله أعلم. و قد روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، ما لقيت من عقرب لدغتنى البارحة فقال: «أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ (١) الترمذي (٢٩٠٣)

في فضائل القرآن، باب: ما جاء في المعوذتين، و قال: «حسن غريب». (٢) النسائي (٥٤٢٩) في الاستعاذة، باب: (١). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤١٨ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم تضرك» (١). و اعلم أن الأدوية الطبيعىة الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله، و تمنع من وقوعه، و إن وقع لم يقع وقوعا مضرا، و إن كان مؤذيا. و الأدوية الطبيعىة إنما تنفع بعد حصول الداء، فالتعوذات و الأذكار، أما أن تمنع وقوع هذه الأسباب، و إما أن تحول بينها و بين كمال تأثيرها بحسب كمال التعوذ و قوته و ضعفه، فالرقى و العوذ تستعمل لحفظ الصحة، و لإزالة المرض. أما الأول: فكما في «الصحيحين» من حديث عائشة كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) و المعوذتين، ثم يمسح بهما وجهه، و ما بلغت يده من جسده «٢». و كما في حديث عوذة أبي الدرداء المرفوع: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت عليك توكلت و أنت رب العرش العظيم»، و فيه: «من قالها أول نهاره لم تصبه مصيبة حتى يسمي، و من قالها آخر نهاره لم تصبه مصيبة حتى يصبح» (٣). و كما في «الصحيحين»: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» (٤). و كما في «صحيح مسلم» عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» (٥). و كما في «سنن أبي داود» أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في السفر يقول بالليل: «يا أرض، ربي و ربك الله، أعوذ بالله من شرك و شر ما فيك، و شر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد و أسود،

ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد» «٦». و أما الثاني: فكما تقدم من الرقية بالفاتحة، و الرقية للعقرب و غيرها (_____). (١) مسلم (٢٧٠٩ / ٥٥) في الذكر و الدعاء، باب: في التعوذ من سوء القضاء و درك الشقاء و غيره. (٢) البخارى (٦٣١٩) فى الدعوات، باب: التعوذ و القراءة عند المنام، و مسلم (٢١٩٢ / ٥٠) فى السلام، باب: رقية المريض بالمعوذات و النفث. (٣) انظر: الأذكار للنووى ص (١٠٨، ١٠٩) رقم (٢٢١)، و عزاء لابن السنن. (٤) البخارى (٥٠٠٩) فى فضائل القرآن، باب: فضل سورة البقرة، و مسلم (٨٠٨ / ٢٥٦) فى صلاة المسافرين و قصرها، باب: فضل الفاتحة و خواتيم سورة البقرة. (٥) مسلم (٢٧٠٨ / ٥٤) فى الذكر و الدعاء و التوبة و الاستغفار، باب: فى التعوذ من سوء القضاء و درك الشقاء و غيره. (٦) أبو داود (٢٦٠٣) فى الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا نزل المنزل. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤١٩

فضل سورة الفاتحة

فضل سورة الفاتحة هي فاتحة الكتاب، و أم القرآن، و السبع المثاني و الشفاء التام و الدواء النافع، و الرقية التامة، و مفتاح الغنى و الفلاح، و حافظه القوة، و دافعه الهم و الغم و الخوف و الحزن لمن عرف مقدارها، و أعطاها حقها، و أحسن تنزيلها على دائه، و عرف وجه الاستشفاء و التداوى بها، و السر الذى لأجله كانت. و لما وقع بعض الصحابة على ذلك، رقى بها اللديغ، فبرأ لوقته، فقال له النبى صلى الله عليه و سلم: «و ما أدراك أنها رقية؟» «١». و من ساعده التوفيق، و أعين بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة، و ما اشتملت عليه من التوحيد، و معرفة الذات و الأسماء و الصفات و الأفعال، و إثبات الشرع و القدر و المعاد، و تجريد توحيد الربوبية و الإلهية، و كمال التوكل و التفويض إلى من له الأمر كله، و له الحمد كله، و بيده الخير كله، و إليه يرجع الأمر كله، و الافتقار إليه فى طلب الهداية التى هي أصل سعادة الدارين، و علم ارتباط معانيها بجلب مصالحها، و دفع مفسدها، و أن العافية المطلقة التامة، و النعمة الكاملة منوطه بها، موقوفه على التحقيق بها أغنته عن كثير من الأدوية و الرقى، و استفتح بها من الخير أبوابه، و دفع بها من الشر أسبابه. و هذا أمر يحتاج استحداث فطرة أخرى، و عقل آخر، و إيمان آخر، و تالله لا يجد مقالة فاسدة، و لا بدعة باطلة إلا و فاتحة الكتاب متضمنه لردّها و إبطالها بأقرب الطرق، و أصحابها و أوضحها، و لا تجد بابا من أبواب المعارف الإلهية، و أعمال القلوب و أدويتها من عللها و أسقامها إلا- و فى فاتحة الكتاب مفتاحه و موضع الدلالة عليه، و لا منزلا من منازل السائرين إلى رب العالمين إلا و بدايته و نهايته فيها. و لعمر الله إن شأنها لأعظم من ذلك، و هي فوق ذلك، و ما تحقق عبد بها، و اعتصم بها، و عقل عن تكلم بها، و أنزلها شفاء تاما، و عصمة بالغة، و نورا مبينا، و فهمها و فهم لوازمها كما ينبغى و وقع فى بدعة و لا شرك، و لا أصابه مرض من أمراض القلوب إلا- (_____). (١) سبق تخريجه ص

(٤١٤). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٢٠ لماما، غير مستقر. هذا، و إنها المفتاح الأعظم لكنوز الأرض، كما أنها المفتاح لكنوز الجنة، و لكن ليس كل واحد يحسن الفتح بهذا المفتاح، و لو أن طلاب الكنوز وقفوا على سر هذه السورة، و تحققوا بمعانيها، و ركبوا لهذا المفتاح أسنانا، و أحسنوا الفتح به، لوصلوا إلى تناول الكنوز من غير معاق، و لا ممانع. و لم نقل هذا مجازفة و لا استعارة، بل حقيقة، و لكن لله- تعالى- حكمة بالغة فى إخفاء هذا السر عن نفوس أكثر العالمين، كما له حكمة بالغة فى إخفاء كنوز الأرض عنهم. و الكنوز المحجوبة قد استخدم عليها أرواح خبيثة شيطانية تحول بين الإنس و بينها، و لا تقهرها إلا أرواح علوية شريفة غالبه لها بحالها الإيماني، معها منه أسلحة لا تقوم لها الشياطين، و أكثر نفوس الناس ليست بهذه المثابة، فلا يقاوم تلك الأرواح و لا يقهرها، و لا ينال من سلبها شيئا، فإن «من قتل قتيلا- فله سلبه» «١» (٢).

(_____). (١) البخارى (٤٣٢١) فى المغازى،

باب: قول الله تعالى وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرَتْكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا... و مسلم (١٧٥١ / ٤١) فى الجهاد و السير، باب: استحقاق

القائل سلب القتل. (٢) زاد المعاد (٤/ ٣٤٧، ٣٤٨). البدايع في علوم القرآن، ص: ٤٢١

فضل آية الكرسي

فضل آية الكرسي سئل صلى الله عليه وسلم: أى آية فى القرآن أعظم؟ فقال: الله لا إله إلا هو الحى القيوم [البقرة ٢٥٥]. ذكره أبو داود «١» «٢». وقد ذكر النسائي فى (السنن الكبير) من حديث أبى أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ آية الكرسي فى دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» «٣»، وهذا الحديث تفرد به محمد بن حمير، عن محمد بن زياد الألهانى، عن أبى أمامة، ورواه النسائي عن الحسين بن بشر، عن محمد بن حمير. وهذا الحديث من الناس من يصححه، و يقول: الحسين بن بشر قد قال فيه النسائي: لا بأس به، وفى موضع آخر: ثق. وأما المحدثان، فاحتج بهما البخارى فى «صحيحه» قالوا: فالحديث على رسمه، ومنهم من يقول: هو موضوع. وأدخله أبو الفرج ابن الجوزى فى كتابه «الموضوعات» وتعلق محمد بن حمير، وأن أبا حاتم الرازى قال: لا يحتج به، وقال يعقوب بن سفيان: ليس بقوى، وأنكر ذلك عليه بعض الحفاظ، ووثقوا محمدًا، وقال: هو أجل من أن يكون له حديث موضوع، وقد احتج به أجل من صنف فى الحديث الصحيح؛ وهو البخارى، ووثقه أشد الناس مقالة فى الرجال: يحيى ابن معين. وقد رواه الطبرانى فى «مجمعه» أيضا من حديث عبد الله بن حسن عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ آية الكرسي فى دبر الصلاة المكتوبة، كان فى ذمة الله إلى الصلاة الأخرى» «٤». وقد روى هذا الحديث من حديث أبى أمامة، وعلى بن أبى طالب، وعبد الله بن عمر، والمغيرة بن شعبة، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وغيرها (١) أبو داود (١٤٦٠) فى الصلاة،

باب: ما جاء فى آية الكرسي. (٢) إعلام الموقعين (٤/ ٣٧٨). (٣) النسائي فى الكبرى (٩٩٢٨) فى عمل اليوم والليلة، باب: ثواب من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة. (٤) الطبرانى فى الكبير (٣/ ٨٣، ٨٤) رقم (٢٧٣٣)، وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ١٥١): «إسناده حسن». البدايع فى علوم القرآن، ص: ٤٢٢ كلها ضعف، ولكن إذا انضم بعضها إلى بعض مع تباين طرقها واختلاف مخرجها، دلت على أن الحديث له أصل، وليس بموضوع. وبلغنى عن شيخنا أبى العباس ابن تيمية - قدس الله روحه - أنه قال: ما تركتها عقيب كل صلاة «١».

أجمع آية لمكارم الأخلاق

أجمع آية لمكارم الأخلاق قد جمع الله له صلى الله عليه وسلم مكارم الأخلاق فى قوله تعالى: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (١٩٩) [الأعراف] قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: «ما هذا؟» قال: لا أدرى حتى أسأل. ثم رجع إليه، فقال: «إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك» «٢» «٣».

فضل سورة الملك

فضل سورة الملك وسأله صلى الله عليه وسلم رجل فقال: ضربت خبائى على قبر، وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك، حتى ختمها، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «هى المانعة هى المنجية تنجيه من عذاب القبر» «٤». ذكره الترمذى، وقال ابن عبد البر: هو صحيح «٥».

فضل سورة الزلزلة

فضل سورة الزلزلة و سأله صلى الله عليه و سلم رجل فقال: أقرئني سورة جامعة، فأقرأه: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ، «أول الزلزلة»، حتى فرغ منها، فقال الرجل: و الذي بعثك بالحق لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل، فقال النبي صلى الله عليه و سلم «أفلح الرويجل»، مرتين، ذكره أبو داود «٦» «٧» (١) زاد المعاد (٣٠٣، ٣٠٤). (٢) انظر: الدر المنثور (٣/ ١٥٣) و عزاه إلى ابن أبي الدنيا و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ. (٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٤). (٤) الترمذى (٢٨٩٠) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة الملك، و قال: «حسن غريب من هذا الوجه». (٥) إعلام الموقعين (٤/ ٣٧٨). (٦) أبو داود (١٣٩٩) في الصلاة، باب: تحزيب القرآن، و ضعفه الألباني. (٧) إعلام الموقعين (٤/ ٣٧٨). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٢٣

فضل المعوذتين

فضل المعوذتين و في المسند و السنن، عن عقبه بن عامر قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه و سلم: أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة «١» و رواه أبو حاتم بن حبان في «صحيحه» «٢»، و الحاكم في «المستدرک» «٣»، و قال: صحيح على شرط مسلم. و لفظ الترمذى «بالمعوذتين» «٤». و أيضاً و قال له صلى الله عليه و سلم عقبه بن عامر: أقرأ سورة هود، و سورة يوسف؟ فقال: «لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)». ذكره النسائي «٥» «٦». باب: منه عن عقبه بن عامر قال: كنت أقود برسول الله صلى الله عليه و سلم ناقته، فقال لى: «ألا أعلمك سورتين، لم يقرأ بمثلهما؟» قلت: بلى، فعلمنى قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)، فلم يرنى أعجب بهما، فلما نزل للصبح قرأ بهما، ثم قال: «كيف رأيت يا عقبه؟» «٧». و فى رواية: «ألا أعلمك خير سورتين قرئتاه؟» قلت: بلى، قال: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) و قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)، فلما نزل صلى بهما الغداة، قال: «كيف ترى يا عقبه؟». رواه الإمام أحمد و أبو داود «٨».

فضل سورة الإخلاص

فضل سورة الإخلاص و فى «معجم الطبرانى»، و «مسند أبى يعلى الموصلى» من حديث عمر بن نبهان، و قد (١) أحمد (٤/ ١٥٥)، و أبو داود (١٥٢٣) فى الصلاة، باب: فى الاستغفار، و الترمذى (٢٩٠٣) فى فضائل القرآن، باب: ما جاء فى المعوذتين، و قال: «حسن صحيح»، و النسائي (١٣٣٦) فى السهو، باب: الأمر بقراءة المعوذات بعد التسليم من الصلاة. (٢) ابن حبان (موارد) (٢٣٤٧) فى الأذكار، باب: قراءة المعوذات دبر الصلاة. (٣) الحاكم فى المستدرک (١/ ٢٥٣). (٤) زاد المعاد (١/ ٣٠٤). (٥) النسائي (٩٥٣) فى الإمامة، باب: الفضل فى قراءة المعوذتين. (٦) إعلام الموقعين (٤/ ٣٠٤). (٧) أحمد (٤/ ١٤٤)، و أبو داود (١٤٦٢) فى الصلاة، باب: فى المعوذتين. (٨) الصلاة (١٦٣). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٢٤ تكلم فيه، عن جابر يرفعه: «ثلاث من جاء بهن مع الإيمان، دخل من أى أبواب الجنة شاء، و زوج من الحور العين حيث شاء، من عفا عن قاتله، و أدى ديناً خفياً، و قرأ فى دبر كل صلاة مكتوبة عشر مرات، قل هو الله أحد». فقال أبو بكر رضى الله عنه: أو إحداهن يا رسول الله؟ قال: «أو إحداهن» «١» «٢». و أيضاً و سأله صلى الله عليه و سلم رجل فقال: إني أحب سورة: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)، فقال: «حبك إياها أدخلك الجنة» «٣» «٤». و أيضاً فى صحيح ابن حبان عنه صلى الله تعالى عليه و سلم: «أفضل الذكر لا إله إلا الله» «٥» و الآية المتضمنة لها و لتفضيلها سيده آى القرآن، و السورة المختصة بتحقيقها تعدل ثلث القرآن «٦» «٧».

فضل سور: الإخلاص و الكافرون و الزلزلة

فضل سور: الإخلاص و الكافرون و الزلزلة سورة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١): متضمنة لتوحيد الاعتقاد و المعرفة، و ما يجب إثباته للرب تعالى من الأحديّة المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، و الصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، و نفى الولد، و الوالد الذي هو من لوازم الصمدية، و غناه و أحديته، و نفى الكفاء المتضمن لنفى التشبيه، و التمثيل، و التنظير. فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، و نفى كل نقص عنه، و نفى إثبات شبيهه، أو مثيل له في كماله، و نفى مطلق الشريك عنده. و هـ الأصول هي مجامع التوحيد العلمى

(١) أبو يعلى (٧٩٤)، و الطبراني في الأوسط (٣٣٦١)، و قال الهيثمي في المجمع (١٠٥ / ١٠): «فيه عمر ابن نيهان و هو متروك». (٢) إعلام الموقعين (٣٧٨ / ٤). (٣) البخارى (٧٧٤ م) في الأذان، باب: الجمع بين السورتين في الركعة، و أحمد (١٤١ / ٣). (٤) زاد المعاد (٣٠٤ / ١). (٥) ابن حبان (٨٤٣). (٦) أحمد (٤١٨ / ٥)، و النسائي (٩٩٦) في الافتتاح، باب: الفضل في قراءة: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. (٧) إغاثة اللهفان (١٣٤ / ٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٢٥ الاعتقادى الذى يباين صاحبه جميع فرق الضلال، و الشرك؛ و لذلك كانت تعدل ثلث القرآن. فإن القرآن مداره على الخبر و الإنشاء، و الإنشاء ثلاثة: أمر و نهى، و إباحة. و الخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى، و أسمائه و صفاته و أحكامه، و خبر عن خلقه. فأخلصت سورة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) الخبر عنه، و عن أسمائه، و صفاته، فعدلت ثلث القرآن، و خلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمى، كما خلصت سورة قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) من الشرك العلمى الإرادى القصدى. و لما كان العلم قبل العمل، و هو إمامه و قائده، و سائقه، و الحاكم عليه و منزله منزله، كانت سورة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) تعدل ثلث القرآن. و الأحاديث بذلك تكاد تبلغ مبلغ التواتر. و قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) تعدل ربع القرآن، و الحديث بذلك فى الترمذى من رواية ابن عباس رضى الله عنه يرفعه: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، و قل هو الله أحد، تعدل ثلث القرآن، و قل يا أيها الكافرون، تعدل ربع القرآن». واه الحاكم فى «المستدرک» و قال: صحيح الإسناد «١». و لما كان الشرك العلمى الإرادى أغلب على النفوس لأجل متابعتها هواها، و كثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته و بطلانه، لما لها فيه من نيل الأغراض، و إزالتها، و قلعه منها أصعب، و أشد من قلع الشرك العلمى، و إزالتها؛ لأن هذا يزول بالعلم و الحجّة، و لا يمكن صاحبه أن يعلم الشىء على غير ما هو عليه، بخلاف شرك الإرادة و القصد، فإن صاحبه يرتكب ما يدلله العلم على بطلانه، و ضرره؛ لأجل غلبه هواه، و استيلاء سلطان الشهوة، و الغضب على نفسه، فجاء من التأكيد و التكرار فى سورة قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) المتضمنة لإزالة الشرك العلمى، ما لم يجئ مثله فى سورة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١). لما كان القرآن شطرين: شطرا فى الدنيا و أحكامها، و متعلقاتها، و الأمور الواقعة فيها من أفعال المكلفين و غيرها، و شطرا فى الآخرة، و ما يقع فيها، و كانت سورة إِذَا زُلْزِلَتْ قد أخلصت من أولها و آخرها لهذا الشطر، فلم يذكر فيها إلا الآخرة.

(١) الترمذى (٢٨٩٤) فى فضائل القرآن، باب: ما جاء فى إذا زلزلت، و قال: «حديث غريب»، و الحاكم فى المستدرک (٥٦٦ / ١). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٢٦ ما يكون فيها من أحوال الأرض و سكانها، كانت تعدل نصف القرآن، فأحرى بهذا الحديث أن يكون صحيحا و الله أعلم. و لهذا كان يقرأ بهاتين السورتين فى ركعتى الطواف، و لأنهما سورتا الإخلاص و التوحيد، كان يفتح بهما عمل النهار، و يختمه بهما، و يقرأ بهما فى الحج الذى هو شعار التوحيد «١».

ما صح من أحاديث فى فضائل السور والآيات

ما صح من أحاديث فى فضائل السور والآيات و الذى صح فى أحاديث السور: حديث فاتحة الكتاب، و أنه «لم ينزل فى التوراة، و لا فى الإنجيل، و لا فى الزبور مثلها» (٢). و حديث البقرة، و آل عمران: أنهما «الزهران» (٣). و حديث: آية الكرسي و أنها «سيده آى القرآن» (٤). و حديث الآيتين من آخر سورة البقرة «من قرأهما فى ليلة كفتاه» (٥). و حديث سورة البقرة: «لا تقرأ فى بيت فيقربه

«شيطان» (٦). و حديث: العشر آيات من أول سورة الكهف «من قرأها عصم من فتنة الدجال» (٧). و حديث: قل هو الله أحد، و أنها «تعدل ثلث القرآن» (٨). و لم يصح في فضائل سورة ما صح فيها. و حديث المعوذتين، و أنه «ما تعوذ المتعوذون بمثلهما» (٩).
(١) زاد المعاد (١/ ٣١٦ - ٣١٨). (٢)

الترمذى (٢٨٧٥) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل فاتحة الكتاب، و قال: «هذا حديث حسن صحيح»، و النسائي (٩١٤) في الافتتاح، باب: تأويل قول الله عز و جل: وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، و أحمد (٢/ ٣٥٧). (٣) مسلم (٨٠٤/ ٢٥٢) في صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن و سورة البقرة. (٤) سبق تخريجه ص (٤٢١). (٥) سبق تخريجهما ص (٤١٢). (٦) سبق تخريجهما ص (٤١٢). (٧) مسلم (٨٠٩/ ٢٥٧) في صلاة المسافرين، باب: فضل سورة الكهف و آية الكرسي، و أبو داود (٤٣٢٣) في الملاحم، باب: خروج الدجال. (٨) سبق تخريجه ص (٤٢٥). (٩) سبق تخريجه ص (٤١١). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٢٧ و قوله صلى الله عليه و سلم: «أنزل على آيات لم ير مثلهن، ثم قرأهما» (١). و يلي هذه الأحاديث و هو دونها في الصحة: حديث: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن» (٢). و حديث: «قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن» (٣). و حديث: «تبارك الذي بيده الملك، هي المنجية من عذاب القبر» (٤) (٥).

ما وضع في فضائل السور

ما وضع في فضائل السور «ذكر فضائل السور و ثواب من قرأ سورة كذا فله أجر كذا»، من أول القرآن إلى آخره، كما ذكر ذلك الثعلبي و الواحدى في أول كل سورة، و الزمخشري في آخرها قال عبد الله بن المبارك: أظن الزنادقة وضعوها (٦).
(١) مسلم (٨١٤/ ٢٦٤) في صلاة المسافرين، باب: فضل قراءة المعوذتين. (٢) الترمذى (٢٨٩٣) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في إذا زلزلت. (٣) سبق تخريجه ص (٤٢٥). (٤) سبق تخريجه ص (٤٢٢). (٥) المنار المنيف (١١٣، ١١٤). (٦) المنار المنيف (١١٣). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٢٨

آداب القرآن الكريم

سماع القرآن الكريم

سماع القرآن الكريم و من منازل إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) [الفاتحة: ٥]. و هو اسم مصدر كالنبات. و قد أمر الله به في كتابه، و أثنى على أهله، و أخبر أن البشرى لهم، فقال تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا [المائدة: ١٠٨] و قال: وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا [التغابن: ١٦] و قال وَ لَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ اسْمَعْنَا وَ أَنْظَرْنَا لَكَ خَيْرًا لَّهُمْ وَ أَقْوَمَ [النساء: ٤٦] فَبَشِّرْ عِبَادَ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) [الزمر: ١٧-١٨] وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا [الأعراف: ٢٠٤] و قال وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ [المائدة: ٨٣]. و جعل الإسماع منه و السماع منهم دليلا على علم الخير فيهم، و عدم ذلك دليلا على عدم الخير فيهم. فقال وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ [الأنفال: ٢٣]. و أخبر عن أعدائى: أنهم هجروا السماع و نهوا عنه: فقال: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوَا فِيهِ [فصلت: ٢٢]. فالسماع رسول الإيمان إلى القلب و داعيه و معلمه. و كم في القرآن من قوله أَفَلَا يَسْمَعُونَ؟ [السجدة: ٢٦] و قال: أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا [الحج: ٤٦] (١).

السمع المستحب

السمع المستحب و أما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، و قراءة القرآن، و ذكر الله و استماع كل ما يحبه الله، و ليس بفرض. و المكروه: عكسه. و هو استماع كل ما يكره و لا يعاقب عليه. و المباح ظاهر «٢».

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٨١). (٢)

مدارج السالكين (١ / ١٧٧). البدايع في علوم القرآن، ص: ٤٢٩

أدب استماع القراءة

أدب استماع القراءة و أدبه في استماع القراءة: أن يلقى السمع و هو شهيد «١».

فضل سماع القرآن من الغير

فضل سماع القرآن من الغير قال القائل: المحبون لا شيء أذ لهم و لقلوبهم من سماع كلام محبوبهم و فيه غاية مطلوبهم، و لهذا لم يكن شيء أذ لأهل المحبة من سماع القرآن. و قد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «اقرأ على»، قلت: اقرأ عليك و عليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن أسمع من غيري»، فقرأت عليه من أول سورة النساء حتى إذا بلغت قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً (٤١) [النساء] قال: «حسبك الآن»، فرفعت رأسي فإذا عيناه تذرفان «٢». و كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا اجتمعوا أمروا قارئاً أن يقرأ و هم يستمعون. و كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا دخل عليه أبو موسى يقول: يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ أبو موسى و ربما بكى عمر. و مر رسول الله صلى الله عليه و سلم بأبي موسى رضى الله عنه و هو يصلى من الليل فأعجبه قراءته فوقف و استمع لها، فلما غدا على رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «مررت بك البارحة و أنت تقرأ فوقفت و استمعت لقراءتك». فقال: لو أعلم أنك كنت تسمع لحبرته لك تحبيراً «٣». و الله - سبحانه - و هو الذى تكلم بالقرآن يأذن و يستمع للقارئ الحسن الصوت من محبته لسماع كلامه منه كما قال صلى الله عليه و سلم: «لله أشد أذناً إلى القارئ الحسن الصوت من صاحب القينة إلى قينته» «٤». و الأذن بفتح الهمزة و الذال، مصدر أذن يأذن: إذا استمع. قال الشاعر: أيها القلب تعلق بـددن إن قلبى فى سماع و أذن

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٨٧). (٢)

البخارى (٥٠٥٠) فى فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك، و مسلم (٢٤٨ / ٨٠٠) فى صلاة المسافرين و قصرها، باب: فضل استماع القرآن. (٣) أبو يعلى (٧٢٧٩)، و قال الهيثمى فى المجمع (٧ / ١٧٤): «و فيه خالد بن نافع الأشعري و هو ضعيف». (٤) ابن ماجه (١٣٤٠) فى إقامة الصلاة و السنة فيها، باب: فى حسن الصوت بالقرآن، و فى الزوائد: «إسناده حسن»، و أحمد (١٩ / ٦)، و الحاكم فى المستدرک (١ / ٥٧١) و قال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه» و تعقبه الذهبى و قال: «بل هو منقطع»، و ضعفه الألبانى. البدايع فى علوم القرآن، ص: ٤٣٠ و قال صلى الله عليه و سلم: «زينوا القرآن بأصواتكم» «١» و غلط من قال: إن هذا من المقلوب و إن المراد زينوا أصواتكم بالقرآن، فهذا و إن كان حقاً فالمراد تحسين الصوت بالقرآن. و صح عنه أنه قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» «٢» و وهم من فسره بالغنى الذى هو ضد الفقر من وجوه: أحدها: أن ذلك المعنى إنما يقال فيه استغنى لا تغنى. الثانى: أن تفسيره قد جاء فى نفس الحديث يجهر به، هذا لفظه، قال أحمد: نحن أعلم بهذا من سفيان و إنما هو تحسين الصوت به يحسنه ما استطاع. الثالث: أن هذا المعنى لا يتبادر إلى الفهم من إطلاق هذا اللفظ و لو احتمله، فكيف و بنية اللفظ لا تحتمله كما تقدم. و بعد هذا فإذا كان من التغنى بالصوت ففيه معنيان: أحدهما: كجعله له مكان الغناء لأصحابه من محبته له و لهجه به كما يحب صاحب الغناء لغنائه، و الثانى: أنه يزينه بصوته و يحسنه ما استطاع كما يزين المتغنى غناءه بصوته، و كثير من المحبين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجى، فهؤلاء قتلى القرآن، لا قتلى عشاق المردان و النسوان «٣».

المستمع للقرآن مستمع لله عز وجل

المستمع للقرآن مستمع لله عز وجل من قرئ عليه القرآن فليقدر نفسه، كأنما يسمعه من الله يخاطبه به. فإذا حصل له - مع ذلك - السماع به و له و فيه؛ ازدحمت معاني المسموع و لطائفه و عجائبه على قلبه، و ازدلفت إليه بأيهما يبدأ، فما شئت من علم و حكمة، و تعرف و بصيرة، و هداية و غيره «٤».

سماع الناس القرآن يوم القيامة

سماع الناس القرآن يوم القيامة حرام على قلب قد تربى على غذاء السماع الشيطاني: أن يجد شيئا من ذلك في سماع القرآن، بل إن حصل له نوع لذة؛ فهن من قبل الصوت المشترك، لا من قبل المعنى الخاص.

(١) أبو داود (١٤٦٨) في الصلاة، باب: استحباب الترتيل في القراءة، و النسائي (١٠١٥) في الافتتاح، باب: تزيين القرآن بالصوت. (٢) البخاري (٧٥٢٧) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: وَ أَسْمِعُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣). (٣) روضة المحبين (٢٥٢-٢٥٤). (٤) مدارج السالكين (١/٥٠٤). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٣١ و ليس في نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم - سبحانه و تعالى - عيانا و سماع كلامه منه. و ذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب السنه أثار - لا يحضرني الآن: هل هو موقوف أو مرفوع «إذا سمع الناس القرآن يوم القيامة من الرحمن - عز وجل - فكأنهم لم يسمعه قبل ذلك» «١». و أيضا قال النبي صلى الله عليه و سلم: «أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه» «٢»، و هذا إنما هو في السماع القرآني لا في السماع الشعري؛ فإنه دائم بدوام المتكلم به، تزول الدنيا بأهلها و هو دائم لا يزول. و إذا سمعه المؤمنون في الجنة من الرحمن - عز وجل - فكأنهم لم يسمعه قبل ذلك، و تنسيهم لذة سماعه ما هم فيه من النعيم حتى يستفرغ جميع ما هم فيه من النعيم كما ينسيهم ذلك لذة نظرهم إلى وجهه «٣».

الشهقة عند سماع القرآن

الشهقة عند سماع القرآن الشهقة التي تعرض عند سماع القرآن أو غيره لها أسباب: أحدها: أن يلوح له عند السماع درجة ليست له فيرتاح إليها فتحدث له الشهقة فهذه شهقة شوق. و ثانيها: أن يلوح له ذنب ارتكبه فيشوق خوفا و حزنا على نفسه، و هذه شهقة خشية. و ثالثها: أن يلوح له نقص فيه لا يقدر على دفعه فيحدث له ذلك حزنا فيشوق شهقة حزن. و رابعها: أن يلوح له كمال محبوبه و يرى الطريق إليه مسدودة عنه فيحدث ذلك شهقة أسف و حزن. و خامسها: أن يكون قد توارى عنه محبوبه و اشتغل بغيره فذكره السماع محبوبه، و فلاح له جماله، و رأى الباب مفتوحا و الطريق ظاهرة، فشوق فرحا و سرورا بما لآح له.

(١) مدارج السالكين (٢/٤١٢). (٢) البخاري (٤٣) في الإيمان، باب: أحب الدين إلى الله أدومه، و مسلم (٧٨٥/٢٢١) في صلاة المسافرين باب: أمر من نسي في صلاته ... إلخ. (٣) حكم مسألة السماع (٢٨٦، ٢٨٧). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٣٢ و بكل حال، فسبب الشهقة قوة الوارد و ضعف المحل عن الاحتمال. و القوة أن يعمل ذلك الوارد عمله داخلا و لا يظهر عليه، و ذلك أقوى له و أدوم، فإنه إذا أظهره ضعف أثره و أوشك انقطاعه. هذا حكم الشهقة من الصادق، فإن الشاهق إما صادق و إما سارق و إما منافق «١».

عشق سماع القرآن

عشق سماع القرآن و العشق إذا تعلق بما يحبه الله و رسوله كان عشقا ممدوحا مثابا عليه، و ذلك أنواع: أحدها: محبة القرآن بحيث

يغنى بسماعه عن سماع غيره، و يهيم قلبه في معانيه، و مراد المتكلم سبحانه منه، و على قدر محبة الله تكون محبة كلامه، فمن أحب محبوباً أحب حديثه، و الحديث عنه، كما قيل: إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي (٢)»

سماع القرآن يغنى عن سماع الشيطان

سماع القرآن يغنى عن سماع الشيطان و أغنانا عن سماع الآيات و قرآن الشيطان بسماع الآيات و كلام الرحمن (٣).
(١) الفوائد (١٩١، ١٩٢). (٢) روضة

المحبين (١٩٩). (٣) إغاثة اللهفان (٧٠ / ٢). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٣٣

تدبر القرآن و كيفية ذلك

إشارة

تدبر القرآن و كيفية ذلك و رأس الأمر و عموده في ذلك، إنما هو دوام التفكير و تدبر آيات الله، حيث تستولى على الفكر و تشغل القلب. فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه و جلس على كرسيه، و صار له التصرف، و صار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره، و يتضح له الطريق، و تراه ساكناً و هو يبارى الريح و ترى الجبال تحسبها جامدةً و هي تمرُّ مرَّ السحابِ صُيْعُ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) [النمل]. فإن قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لي بابه، و اكشف لي حجابيه، و كيف تدبر القرآن و تفهمه و الإشراف على عجائبه و كنوزه؟ و هذه تفاسير الأئمة بأيدينا فهل في البيان غير ما ذكروه؟. قلت: سأضرب لك أمثالا- تحتذى عليها، و تجعلها إماماً لك في هذا المقصد. قال الله تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إلى قوله تعالى الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ [الذاريات: ٣٠]. فعهدى بك إذا قرأت هذه الآية و تطلعت إلى معناها و تدبرتها، فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون و يشربون، و بشروه بغلام عليم، و إنما امرأته عجبت من ذلك، فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك- و لم يتجاوز تدبرك غير ذلك. فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار. و كم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم عليه السلام. و كيف جمعت الضيافة و حقوقها. و ما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة و المعطلة. و كيف تضمنت علماً عظيماً من أعلام النبوة. و كيف تضمنت جميع صفات الكمال، التي ردها إلى العلم و الحكمة. و كيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بلطف إشارة و أوضحها، ثم أفصحت وقوعه. و كيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب و انتقامه من الأمم المكذبة. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٣٤ و تضمنت ذكر الإسلام و الإيمان و الفرق بينهما. و تضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده و صدق رسله، و على اليوم الآخر. و تضمنت أنه لا- ينتفع بهذا كله إلا- من في قلبه خوف من عذاب الآخرة، و هم المؤمنون بها. و أما من لا- يخاف الآخرة و لا يؤمن بها، فلا ينتفع بتلك الآيات. * فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة: قال الله تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) [الذاريات]. افتتح- سبحانه- القصة بصيغته موضوعه للاستفهام، و ليس المراد بها حقيقة الاستفهام، و لهذا قال بعض الناس: إن «هل» في مثل هذا الموضع بمعنى «قد» التي تقتضى التحقيق؟ و لكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغته الاستفهام سر لطيف، و معنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، و إحضار الذهن له، صدر له الكلام بأداة الاستفهام، لتنبه سمعه و ذهنه للمخبر به، فتارة يصدره بالألا، و تارة يصدره بهل، فقول: هل علمت ما كان من كيت و كيت؟ إما مذكراً به، و إما واعظاً له مخوفاً، و إما منبهاً على عظمة ما يخبر به، و إما مقررراً له. فقله تعالى: وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) [طه]، وَ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضُمِ [ص: ٢١]، وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ (١) [الغاشية]، وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) [الذاريات]، متضمن لتعظيم هذه القصص و التنبه على تدبرها و معرفة ما تضمنته. ففيه أمر آخر: و هو التنبه

على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا و تعريفنا؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا؟ فانظر ظهور هذا الكلام بصيغته الاستفهام، وتأمل عظم موقعه من جميع موارد، يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا. وقوله: ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ [الذاريات: ٢٤] متضمن لثنائه على خليله إبراهيم. فإن في الْمُكْرَمِينَ قولين: أحدهما: إكرام إبراهيم لهم، ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف. والثاني: أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى: يَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ [الأنبياء: ٢٦]، وهو متضمن أيضا لتعظيم خليله ومدحه؛ إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافا له، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم عليه السلام. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٣٥ وقوله: فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ [الذاريات: ٢٥] متضمن بمدح آخر لإبراهيم، حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجمله فعلية، تقديره: سلمنا عليك سلاما. و تحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجمله اسمية، تقديره: سلام دائم أو ثابت أو مستمر عليكم، ولا ريب أن الجملة اسمية، تقتضى الثبوت وال لزوم، والفعلية تقتضى العدد والحدوث، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن. ثم قال: قَوْمٌ مُّكْرَمُونَ [الذاريات: ٢٥]، وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذم منه وجهان في المدح: أحدهما: أنه حذف المبتدأ والتقدير: أنتم قوم منكرون، فتذم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش. وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحد بما يكرهه بل يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا». والثاني: قوله: قَوْمٌ مُّكْرَمُونَ، فحذف فاعل الإنكار وهو الذي كان أنكرهم، كما قال في موضع آخر: نَكِرَهُمْ [هود: ٧٠]. ولا ريب أن قوله: مُّكْرَمُونَ لطف من أن يقول: أنكرتم «١».

دعوة القرآن إلى تدبره و بيان أنواع التدبر

دعوة القرآن إلى تدبره و بيان أنواع التدبر تدبر كلامه و ما تعرف به- سبحانه- إلى عباده على السنة رسله من أسمائه و صفاته و أفعاله و ما نزه نفسه عنه مما لا- يسعى له و لا- يليق به- سبحانه- و تدبر أيامه و أفعاله في أولياته و أعدائه التي قصها على عباده و أشهدهم إياها؛ ليستدلوا بها على أنه إلههم الحق المبين الذي لا تنبغى العبادة إلا له و يستدلوا بها على أنه على كل شيء قدير و أنه بكل شيء عليم، و أنه شديد العقاب، و أنه غفور رحيم، و أنه العزيز الحكيم، و أنه الفعال لما يريد، و أنه الذي وسع كل شيء رحمته و علما، و أن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة و الرحمة و العدل و المصلحة، لا يخرج شيء عنها عن ذلك. و هذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه و النظر في آثار أفعاله. و إلى هذين الأصلين ندب عباده في القرآن، فقال في الأصل الأول: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ [النساء: ٨٢]، أَفَلَمْ يَتَذَكَّرُوا الْقُرْآنَ [المؤمنون: ٦٨]، كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ [ص: ٢٩]، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [٢] [يوسف: ٢]، كِتَابٌ فَصَّلَتْ

(١) الرسالة النبوية (٧٢-٧٦). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٣٦ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) [فصلت: ٣]. وقال في الأصل الثاني: قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ [يونس: ١٠١]، إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَ قُعُودًا وَ عَلَى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ مَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) [الجاثية]، أ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ [غافر: ٢١]، قُلِ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ [الروم: ٤٢]، وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) إلى قوله وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ مِنْ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) [الروم: ٢٥]. و نوع- سبحانه- الآيات في هذه السور فجعل خلق السموات و الأرض و اختلاف لغات الأمم و ألوانهم آيات

للعالمين كلهم، لا لاشتراكهم في العلم بذلك و ظهوره و وضوح دلالاته، و جعل خلق الأزواج التي يسكن إليها الرجال و إلقاء المودة و الرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون، فإن سكون الرجل إلى امرأة و ما يكون بينهما من المودة و التعاطف و التراحم أمر باطن مشهود بعين الفكر و البصيرة، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة و الرحمة و القدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين، الذي أقرت الفطر بربوبيته و إلهيته و حكمته و رحمته، و جعل المنام بالليل و النهار للتصرف في المعاش و ابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون، و هو سمع الفهم و تدبر هذه الآيات و ارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم و قيامهم من قبورهم كما أحياهم - سبحانه - بعد موتهم و أقامهم للتصرف في معاشهم، فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل و أصغى إليه، و استدل بهذه الآية عليه و جعل إراؤهم البرق و إنزال الماء من السماء و إحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون، فإن هذه أمور مرئية بالأبصار مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه و هو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى و قدرته و علمه و رحمته و حكمته و إمكان ما أخبر به من إحياء الخلائق بعد موتهم كما أحياء هذه الأرض بعد موتها، و هذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب و هو العقل، فإن الحس دل على الآيات و العقل دل على ما البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٣٧ جعلت آية له فذكر - سبحانه - الآية المشهودة بالبصر و المدلول عليه المشهود بالعقل، فقال: **وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (٢٤) [الروم فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب و شفاء لما في الصدور. و بالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر و التفكير، فإنه جامع لجميع منازل السائرين و أحوال العاملين و مقامات العارفين، و هو الذي يورث المحبة و الشوق و الخوف و الرجاء و الإنابة و التوكل و الرضا و التفويض و الشكر و الصبر، و سائر الأحوال التي بها حياة القلب و كماله، و كذلك يزجر عن جميع الصفات و الأفعال المذمومة التي بها فساد القلب و هلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها فإذا قرأه بتفكير حتى مر بآية و هو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها و لو مائة مرة و لو ليلة. فقراءة آية بتفكير و تفهم خير من قراءة ختمه بغير تدبر و تفهم، و أنفع للقلب و أدعى إلى حصول الإيمان و ذوق حلاوة القرآن، و هذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح، و قد ثبت عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قام بآية يرددها حتى الصباح و هي قوله: **إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (١١٨) [المائدة]. فقراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب، و لهذا قال ابن مسعود، لا تهذوا القرآن هذ الشعر، و لا تنثروه نثر الدقل، و وقفوا عند عجائبه، و حركوا به القلوب، لا يكن هم أحدكم آخر السورة. و روى أبو أيوب عن أبي جمره قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث. قال: لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها و أرتلها، أحب إلي من أن أقرأ القرآن كما تقرأ. و التفكير في القرآن نوعان: تفكير فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه و تفكير في معاني ما دعا عباده إلى التفكير فيه فالأول تفكير في الدليل القرآني، و الثاني تفكير في الدليل العياني، الأول تفكير في آياته المسموعة، و الثاني تفكير في آياته المشهودة؛ و لهذا أنزل الله القرآن ليتدبر و يتفكر فيه و يعمل به لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه. قال الحسن البصري: أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً. و إذا تأملت ما دعى الله - سبحانه و تعالى - في كتابه إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به - سبحانه و تعالى - و بوحدانيته و صفات كماله و نعوت جلاله من عموم قدرته و علمه و كمال حكمته و رحمته و إحسانه و بره و لطفه و عدله و رضاه و غضبه و ثوابه و عقابه، فبهذا تعرف إلى البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٣٨ عباده ندبهم إلى الفكر في آياته. و نذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله - سبحانه - في كتابه ليستدل بها على غيرها. فمن ذلك: خلق الإنسان و قد ندب - سبحانه - إلى التفكير فيه و النظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: **فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ** (٥) [الطارق] و قوله تعالى: **وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** (٢١) [الذاريات] و قال تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنْ بَعَثْنَا فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لُبِّينَ لَكُمْ وَنَقَرْنَا فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَيَّمٍ لَكُمْ نُحْرَجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** [الحج: ٥] و قال تعالى: **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى** (٣٦) **أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مِثْيِ يَمْنَى** (٣٧) **ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى** (٣٨) **فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى**

(٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠) [القيامة: ٣٦-٤٠]، وقال تعالى: أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) [المرسلات: ٢٠-٢٣]، وقال: أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) [يس: ٧٧]، وقال: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) [المؤمنون: ١٢-١٤]. وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره، إذ نفسه و خلقه من أعظم الدلائل على قدرة خالقه و فاطره، و أقرب شىء إلى الإنسان نفسه. و فيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضى الأعمار في الوقوف على بعضه، و هو غافل عنه معرض عن التفكير فيه، و لو فكر في نفسه لجزره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره. قال الله تعالى: قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) [عبس: ١٧-٢٢] فلم يكرر سبحانه على أسماعنا و عقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة و العلقه و المضغ و التراب، و لا لتكلم بها فقط و لا لمجرد تعريفنا بذلك. بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب و إليه جرى ذلك الحديث. فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة و هى قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت و أنتنت. كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب و الترائب، منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مدللة الانقياد على ضيق طرقها، و اختلاف البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٣٩ مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها و مجمعها. و كيف جمع سبحانه بين الذكر و الأنثى و ألقى المحبة بينهما و كيف قادهما بسلسلة الشهوة و المحبة إلى الاجتماع الذى هو سبب تخليق الولد و تكوينه، و كيف قدر اجتماع ذينك المائين مع بعد كل منهما عن صاحبه، و ساقهما من أعماق العروق و الأعضاء و جمعهما فى موضع واحد جعل لهما قرارا مكيئا لا يناله هواء يفسده، و لا برد يجمده و لا عارض يصل إليه و لا آفة تسلط عليه. ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقه حمراء تضرب إلى سواد ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة فى لونها و حقيقتها و شكلها، ثم جعله عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغ فى شكلها و هياتها و قدرها و ملمسها و لونها. و انظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب و العظام و العروق و الأوتار، و اليا بس و اللين، و بين ذلك. ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط و أشده و أبعد عن الانحلال. و كيف كساها لحما ركبه عليها و جعله وعاء لها و غشاء و حافظا و جعلها حامله له مقيمة له، فاللحم قائم بها و هى محفوظة به و كيف صورها فأحسن صورها و شق لها السمع و البصر و الأنف و سائر المنافذ (١). و لهذا كانت آيات الله المتلوة و المشهودة ذكرى كما قال فى المتلوة: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْهُدَىٰ وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَ ذِكْرَىٰ لِلْأُولَىٰ الْأَلْبَابِ (٥٤) [غافر]، و قال عن القرآن: وَ إِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) [الحاقة: ٤٨]، و قال فى آياته المشهودة: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيَّنَّاهَا وَ مَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبَصَّرَةٌ وَ ذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) [ق: ٦-٨] فالتبصرة آلة البصر و «التذكرة» آلة الذكر، و قرن بينهما و جعلهما لأهل الإنابة. لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات و العبر، فاستدل بها على ما هى آيات له. فزال عنه الإعراض بالإنابة، و العمى بالتبصرة، و الغفلة بالتذكرة. لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول فى القلب بعد غفلته عنها، فترتب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب ثم إن كلا منها يمد صاحبه و يقويه و يثمره. و قال تعالى فى آياته المشهورة: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (٣٧) [ق: ٣٦-٣٧]، و الناس ثلاثة: رجل قلبه ميت فذلك الذى لا قلب له فهذا ليست هذه الآية ذكرى فى حقه.

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ١٨٨-١٨٩). و قد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى فى ذلك فصلا ممتعا فانظره. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٤٠ الثانى: رجل له قلب حى مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التى يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها أو لوصولها إليه، و لكن قلبه مشغول عنها بغيرها فهو غائب القلب، ليس حاضرا، فهذا أيضا لا تحصل له الذكرى، مع استعداده و وجود قلبه. و الثالث: رجل حى القلب

مستعد، تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه و ألقى السمع و أحضر قلبه و لم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب ملق السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة و المشهودة فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر. و الثاني بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه. و الثالث بمنزلة البصير الذي قد حذق إلى جهة المنظور، و أتبعه بصره، و قابله على توسط من البعد و القرب. فهذا هو الذي يراه. فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور. فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟ قيل: فيها سر لطيف، و لسنا نقول: إنها بمعنى الواو. كما يقوله ظاهريه النحاء. فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب و قاد مليء باستخراج العبر، و استنباط الحكم. فهذا قلبه يوقعه على التذكر و الاعتبار. فإذا سمع الآيات كانت له نورا على نور. و هؤلاء أكمل خلق الله و أعظمهم إيمانا و بصيرة حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله و أنواعه. حتى قيل: إن مثل حال الصديق مع النبي صلى الله عليه و سلم. كمثل رجلين دخلا دارا. فرأى أحدهما تفاصيل ما فيها و جزئياته. و الآخر: وقعت يده على ما في الدار و لم ير تفاصيله و لا جزئياته. لكن علم أن فيها أمورا عظيمة، لم يدرك بصره تفاصيلها. ثم خرجا. فسأله عما رأى في الدار؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه، لما عناه، من شواهد. و هذه أعلى درجات الصدوقية. و لا تستبعد أن يمن الله المنان على عبد يمثل هذا الإيمان. فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر و لا حسابان. فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات و في قلبه نور من البصيرة: ازداد بها نورا على نوره، فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع و شهد قلبه و لم يغب حصل له التذكر أيضا فإن لم يُصَيَّبْها و اِبِلُّ فَطَلُّ [البقرة: ٢٦٥]، و الوابل و الطل في جميع الأعمال و آثارها، و موجباتها. و أهل الجنة سابقون مقربون، و أصحاب يمين، و بينهما في درجات التفضيل ما بينهما، حتى إن شراب أحد النوعين الصرف يطيب به شراب النوع الآخر و يمزج به مزجا، قال الله تعالى: وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْبَدَائِعِ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ، ص: ٤٤١ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) [سبأ] فكل مؤمن يرى هذا. و لكن رؤية أهل العلم له لون، و رؤية غيرهم له لون آخر. قال صاحب «المنازل»: «أبينة التذكر ثلاثة: الانتفاع بالعضة، و الاستبصار بالعبرة، و الظفر بثمره الفكرة». و الانتفاع بالعضة: هو أن يقدح في القلب قادح الخوف و الرجاء. فيتحرك للعمل، طلبا للخلاص من الخوف، و رغبة في حصول المرجو. و «العضة» هي الأمر و النهي، المعروف بالترغيب و التهيب. و «العضة» نوعان: عضة بالمسموع، و عضة بالمشهود، فالعضة بالمسموع: الانتفاع بما يسمعه من الهدى و الرشده، و النصائح التي جاءت على لسان الرسل و ما أوحى إليهم و كذلك الانتفاع بالعضة من كل ناصح و مرشد في مصالح الدين و الدنيا. و «العضة» بالمشهود: الانتفاع بما يراه و يشهده في العلم من مواقع العبر، و أحكام القدر، و مجاريه، و ما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله. و أما استبصار العبرة: فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه في منزل التفكير بقوة الاستحضار؛ لأن التذكر يعتقل المعاني التي حصلت بالتفكير في مواقع الآيات و العبر، فهو يظفر بها بالتفكير. و تنصقل له و تنجلي بالتذكر. فيقوى العزم على السير بحسب قوة الاستبصار؛ لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور. فكلما قوى الشعور بالمحجوب اشتد سفر القلب إليه. و كلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور به و البصيرة فيه. و التذكر له. و أما الظفر بثمره الفكرة، فهذا موضع لطيف. و للفكرة ثمرتان: حصول المطلوب تاما بحسب الإمكان، و العمل بموجب رعاية لحقه، فإن القلب حال التفكير كان قد كل بأعماله في تحصيل المطلوب. فلما حصلت له المعاني و تخمرت في القلب، و استراح العقل: عاد فتذكر ما كان حصله و طالعه، فابتهج به و فرح به. و صحح في هذا المنزل ما كان فإنه في منزل التفكير؛ لأنه قد أشرف عليه في مقام التذكر، الذي هو أعلى منه؛ فأخذ حينئذ في الثمرة المقصودة و هي العمل بموجبه مراعاة لحقه، فإن العمل الصالح: هو ثمرة العلم النافع، الذي هو ثمرة التفكير. و إذا أردت فهم هذا بمثال حسي؛ فطالب المال ما دام جادا في طلبه، فهو في كلال البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٤٢ و تعب، حتى إذا ظفر به استراح من كد الطلب، و قدم من سفر التجارة. فطالع ما حصله و أبصره، و صحح في هذا الحال ما عساه غلط فيه في حال اشتغاله بالطلب، فإذا صح له و بردت غنيمته له، أخذ في صرف المال في وجوه الانتفاع المطلوبة منه، و الله أعلم «١».

فوائد تدبر القرآن التأمل في القرآن، هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله. وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم، ولا تدبر. قال الله تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩) [ص. وقال تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) [محمد]. وقال تعالى: أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ [المؤمنون: ٦٨]. وقال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) [الزخرف]. وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به؛ فاتخذوا تلاوته عملاً فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحدافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغايتهما وثمراتهما، ومآل أهلها. وتتل «٢» في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله. وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها. وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال مصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسماتهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترون فيه. وبالجملة، تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه. وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمسئتيج لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٠-٤٤٥).

(٢) تل الشيء في يده، بالمشاهدة الفوقية المفتوحة: وضعه فيها (لسان العرب: تلى). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٤٣ فهذه ستة أمور، ضروري للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها: فتشاهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها. وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم؛ فترى الحق حقا، والباطل باطلا، وتعطيه فرقانا ونورا يفرق به بين الهدى والضلال، والغى والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياء وسعة وانسراحا وبهجة وسرورا؛ فيصير في شأن والناس في شأن آخر. فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص. وعلى الإيمان بالرسول، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم. وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتديرهم الأمور بإذنه ومشيتته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي. وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوفى ربه ويقدم عليه. وعلى الإيمان باليوم الآخر، وما أعد الله فيه لأولياته من دار النعيم المطلق، التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح. وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه، وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات، في خلقه وأمره. فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحته على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل. وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام. وتوقفه عليها؛ لئلا يتعدها فيقع في العناء الطويل. وتثبت قلبه عن الزيف والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب، والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته، ونى في سيره تقدم الركب وفاتكك الدليل؛ فاللحاق للحاق، والرحيل الرحيل، وتحذره به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمان العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٤٤ الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبى الله ونعم الوكيل. وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد. وبالجملة، فهو أعظم الكنوز، طلسمه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه. نزه فؤادك عن سوى

روضاته فرياضه حل لكل منزه و الفهم طلسم لكنز علومه فاقصد إلى الطلسم تحظ بكنزه لا تخش من بدع لهم و حوادث ما دمت في كنف الكتاب و حرزه من كان حارسه الكتاب و درعه لم يخش من طعن العدو و وخزه لا تخش من شبهاتهم و احمل إذا ما قابلتك بنصره و بعزه و الله ما هاب امرؤ شبهاتهم إلا لضعف القلب منه و عجزه يا ويح تيس ظالع يبغى مسابقه الهزبر بعدوه و بجمزه و دخان زبل يرتقى للشمس يس تر عينها لما سرى في أزه و جبان قلب أعزل، قد رام يأس ر فارسا شاكى السلاح بهزه «١» باب: منه فهم القرآن و تدبره هو الذى يثمر الإيمان، و أما مجرد التلاوة من غير فهم و لا تدبر، فيفعلها البر و الفاجر، و المؤمن و المنافق، كما قال النبى صلى الله عليه و سلم: «و مثل المنافق الذى يقرأ القرآن، كمثل الريحانة، ريحها طيب، و طعمها مر» «٢». و الناس فى هذا أربع طبقات: أهل القرآن و الإيمان، و هم أفضل الناس. و الثانية: من عدم القرآن و الإيمان. الثالثة: من أوتى قرآنا، و لم يؤت إيماناً. الرابعة: من أوتى إيماناً و لم يؤت قرآنا. قالوا: فكما أن من أوتى إيماناً بلا قرآن أفضل ممن أوتى قرآنا بلا إيمان، فكذلك من أوتى تدبراً، و فهماً فى التلاوة أفضل ممن أوتى كثرة قراءة و سرعتها بلا تدبر. قالوا: و هذا

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٥١-٤٥٣).
 (٢) البخارى (٧٥٦٠) فى التوحيد، باب: قراءة الفاجر المنافق، و مسلم (٢٤٣/٧٩٧) فى صلاة المسافرين، باب: فضيلة حافظ القرآن. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٤٥ هدى النبى صلى الله عليه و سلم، فإنه كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، و قام بآية حتى الصباح. و قال أصحاب الشافعى رحمه الله: كثرة القراءة أفضل، و احتجوا بحديث ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من قرأ حرفاً من كتاب الله، فله به حسنة، و الحسنه بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، و لكن ألف حرف، و لام حرف، و ميم حرف». رواه الترمذى، و صححه «١». قالوا: و لأن عثمان بن عفان قرأ القرآن فى ركعة، و ذكروا آثاراً عن كثير من السلف فى كثرة القراءة. و الصواب فى المسألة أن يقال: إن ثواب قراءة الترتيل و التدبر أجل و أرفع قدراً، و ثواب كثرة القراءة أكثر عدداً، فالأول: كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبداً قيمته نفيسه جداً، و الثانى: كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عدداً من العبيد قيمتهم رخيصة، و فى صحيح البخارى عن قتادة قال: سألت أنسا عن قراءة النبى صلى الله عليه و سلم، فقال: كان يمد مداً «٢». و قال شعبة: حدثنا أبو جمره، قال: قلت لابن عباس: إني رجل سريع القراءة، و ربما قرأت القرآن فى ليلة مرة أو مرتين، فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورة واحدة أعجب إليّ من أن أفعل ذلك الذى تفعل، فإن كنت فاعلاً و لا بد، فاقراً قراءة تسمع أذنيك، و يعيها قلبك. و قال إبراهيم: قرأ علقمة على ابن مسعود، و كان حسن الصوت، فقال رتل فداك أبى و أمى، فإنه زين القرآن. و قال ابن مسعود: لا تهذوا القرآن هذ الشعر، و لا تنثروه نثر الدقل، و وقفوا عند عجائبه، و حركوا به القلوب و لا يكن هم أحدكم آخر السورة. و قال عبد الله أيضاً: إذا سمعت الله يقول يا أيها الذين آمنوا فأصغ لها سمعك؛ فإنه خير تؤمر به، أو شر تصرف عنه. و قال عبد الرحمن بن أبى ليلى: دخلت على امرأة، و أنسا أقرأ «سورة هود» فقالت يا

(١) الترمذى (٢٩١٠) فى فضائل القرآن، باب: ما جاء فىمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، و قال: «حسن صحيح غريب». (٢) البخارى (٥٠٤٥) فى فضائل القرآن، باب: مد القراءة. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٤٦ عبد الرحمن، هكذا تقرأ سورة هود؟! و الله إني فيها منذ ستة أشهر، و ما فرغت من قراءتها «١».

علاج المدبر عن سماع القرآن

علاج المدبر عن سماع القرآن إذا لم يكن بد من المحاكمة إلى الذوق، فهلم نحاكمك إلى ذوق لا ننكره نحن و لا أنت، غير هذه الأذواق التى ذكرناها. فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزن و أسف على مفقود، و حالة فرح و رضى بوجود، و له بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان. و له بمقتضى الحالة الأولى: عبودية الرضاء، و هى للسابقين. و الصبر، و هى لأصحاب اليمين. و له بمقتضى الحالة

الثانية: عبودية الشكر، و الشاكرون فيها أيضا نوعان: سابقون و أصحاب يمين. فاقطعته النفس و الشيطان عن هاتين العبوديتين، بصوتين أحققين فاجرين، هما للشيطان لا للرحمن: صمت الندب و النياحة عند الحزن و فوات المحبوب، و صوت اللهو و المزمار و الغناء عند الفرح و حصول المطلوب فوضه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبوديتين. و قد أشار النبي صلى الله عليه و سلم إلى هذا المعنى بعينه في حديث أنس رضى الله عنه: «إنما نهيت عن صوتين أحققين فاجرين: صوت ويل عند مصيبة، و صوت مزمار عند نعمة» (٢). و وافق ذلك راحة من النفس و شهوة و لذة، و سرت فيها تلك الرقائق حتى تعبد بها من قل نصيبه من النور النبوى، و قل مشربه من العين المحمدية، و انضاف ذلك إلى صدق و طلب و إرادة مضادة لشهوات أهل الغى و أهل البطالة. و رأوا قساوة قلوب المنكرين لطريقتهم، و كثافة حجبهم، و غلظة طباعهم، و ثقل أرواحهم. و صادف ذلك تحريكا لسواكنهم؛ و انقيادا للواعج الحب، و إزعاجا للنفوس إلى أوطانها الأولى (٣) و معاهدها التي سببت منها، و النفوس الطالبة المتراضة السائرة لا بد لها من محرك يحركها، و حاد يحدوها. و ليس لها من () زاد المعاد (١/ ٣٣٧ - ٣٤٠). (٢) الترمذى (١٠٠٥) فى الجنائز، باب: ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت، و قال: «هذا حديث حسن». (٣) إن الذى يتحرك عند سماع الغناء و الموسيقى، و يطرب و يستيقظ و يتلذذ: هو النفس البهيمية، لا النفس الإنسانية. و لذلك استدلو عليه بما تجده البهائم و الطيور و الوحوش عند سماعها للغناء و الموسيقى و الحناء، فهى تتحرك حركة بهيمية لا تجد من الإنسانية الكريمة المفكرة المميزة يقظة و رشدا تكبح به البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٤٧ حادى القرآن عوض عن حادى السماع. فتركب من هذه الأمور: إيثار منهم للسمع. و محبة صادقة له. تزول الجبال عن أماكنها و لا تفارق قلوبهم، إذ هو مثير عزوماتهم و محرك سواكنهم، و مزعج بواطنهم. فدواء صاحب مثل هذا الحال: أن ينقل بالتدرج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة، مع الإمعان فى تفهم معانيه، و تدبر خطابه قليلا قليلا، إلى أن ينخلع من قلبه سماع الآيات، و يلبس محبة سماع الآيات، و يصير ذوقه و شربه و حاله و وجدته فيه، فحينئذ يعلم هو من نفسه: أنه لم يكن على شىء و يتمثل حينئذ بقول القائل: و كنت أرى أن قد تناهى بى الهوى إلى غاية ما فوقها لى طلب فلما تلاقينا و عاينت حسنها تيقنت أنى إنما كنت ألعب (١)

هل الأفضل قلة القراءة مع التدبر أو الكثرة بدونه؟

هل الأفضل قلة القراءة مع التدبر أو الكثرة بدونه؟ قد اختلف الناس فى الأفضل من الترتيل و قلة القراءة أو السرعة مع كثرة القراءة: أيهما أفضل؟ على قولين. فذهب ابن مسعود و ابن عباس رضى الله عنهما و غيرهما إلى أن الترتيل و التدبر مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها. و احتج أرباب هذا القول بأن المقصود من القراءة فهمه و تدبره، و الفقه فيه و العمل به، و تلاوته و حفظه و وسيلة إلى معانيه كما قال بعض السلف: نزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملا، و لهذا كان أهل القرآن هم العالمون به، و العاملون بمافيته، و إن لهم يحفظونه ظهر قلب. جماعها، و لا حكمة تسكن حركتها بسكينه الاطمئنان إلى آثار أسماء الله و صفاته. فعندئذ يجد الشيطان الفرصة سانحة، فيركب النفس البهيمية - و قد انسلخت من آيات ربها. و وهنت و ضعفت بهذا الانسلاخ، فاتخذها عدوها مطية. فكانت معه من الغاوين، الذين ظنوا الفسوق طاعة، و الفجور تقوى، و الشرك توحيد، و كثيرا جدا - بل ذلك نتيجة حتمية لهذا الانسلاخ و ما استتبعه - نعم كثيرا جدا ما زاد إبليس فى إضلالهم و إغوائهم، فاتخذ لهم من آيات القرآن أغاني يوقعونها على نغم الموسيقى. فيزدادون عمى على عمى، و ضلالا و خسرانا باتخاذهم آيات الله و دينه هزوا و لعبا. و هيهات أن يرجى لهم مع هذا - و بعد هذا - إنابة أو رجعة صحيحة إلى صراط الله المستقيم. و كل ذلك من ثمرات التقليد الأعمى الخبيثة. و من آثار ما رمى به المجوس و اليهود و المشركون المسلمين. و لا حول و لا قوة إلا بالله العظيم. (١) مدارج السالكين (١/ ٤٩٨، ٤٩٩) البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٤٨ و أما من حفظه و لم يفهمه، و لم يعمل بما فيه؛ فليس من أهله و

إن أقام حروفه أقامه السهم «١». و أيضا قراءة سورة بتدبر و معرفة و تفهم، و جمع القلب عليها، أحب إلى الله تعالى من قراءة ختمه سردا و هذًا، و إن كثر ثواب هذه القراءة «٢».

العلم بالقرآن أفضل العلوم

العلم بالقرآن أفضل العلوم إن النبي صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ قدم بالفضائل العلية، في أعلى الولايات الدينية و أشرفها و قدم بالعلم بالأفضل على غيره. فروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مسعود البدرى عن النبي صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُم بِالسَّنَةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السَّنَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ إِسْلَامًا أَوْ سَنًا» «٣» و ذكر الحديث، فقدم في الإمامة تفضيله على تقدم الإسلام و الهجرة. و لما كان العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة، قدم العلم به، ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجرة و فيه من زيادة العمل ما هو متميز به، لكن إنما راعى التقديم بالعلم ثم بالعمل، و راعى التقديم بالعلم بالأفضل على غيره، و هذا يدل على شرف العلم و فضله و إن أهله هم أهل التقدم إلى المراتب الدينية «٤».

تعلم قراءة القرآن

تعلم قراءة القرآن سأله صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ رجل، فقال: ما يمنعني أن أتعلم القرآن إلا خشية ألا أقوم به، فقال: «تعلم القرآن و اقرأه و ارقده، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه و قال به، كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه على كل مكان، و من تعلمه و رقد و هو في جرابه كمثل جراب و كى على مسك» «٥» «٦».

(١) زاد المعاد (١ / ٣٣٧، ٣٣٨). (٢) المنار المنيف (٢٩). (٣) مسلم (٢٩٠ / ٦٧٣) في المساجد و مواضع الصلاة، باب: من أحق بالإمامة. (٤) مفتاح دار السعادة (٨٠). (٥) الترمذى (٢٨٧٦) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة البقرة و آية الكرسي، و قال: «هذا حديث حسن»، و ابن ماجه (٢١٧) في المقدمة، باب: فضل من تعلم القرآن و علمه. (٦) إعلام الموقعين (٤ / ٣٩٠). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٤٩

المقصود من تعلم القرآن

المقصود من تعلم القرآن ثبت في صحيح البخارى من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبي صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ أنه قال: «خيركم من تعلم القرآن و علمه» «١» و تعلم القرآن و تعليمه يتناول تعلم حروفه و تعليمها، و تعلم معانيه و تعليمها، و هو أشرف قسمى علمه و تعليمه. فإن المعنى هو المقصود و اللفظ وسيلة إليه، فتعلم المعنى و تعليمه تعلم الغاية و تعليمها، و تعلم اللفظ المجرد و تعليمه تعلم الوسائل و تعليمها، و بينهما كما بين الغايات و الوسائل «٢».

تحسين الصوت بالقرآن

تحسين الصوت بالقرآن قال صاحب الغناء: و ندب النبي صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ إلى تحسين الصوت بالقرآن، فروى البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ يقول: «حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا» «٣». و عن أنس عن النبي صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ: «لكل شىء حلية و حلية القرآن الصوت الحسن» «٤». و قد صح عنه صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ أنه قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» «٥». و قد قال الإمام أحمد فى تفسيره: «يحسنه بصوته ما استطاع» و قال الشافعى: «نحن أعلم بهذا من سفيان» ينكر عليه قوله يستغنى به. و إنما هو تحسين الصوت و قال صَلَّى الله عليه و سَلَّمَ: «لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته» «٦» فإذا ندب إلى تحسين الصوت بالقرآن و التغنى به، جاز أن يحسن الصوت بالشعر و يتغنى به،

تقرن به من الألحان و آلات اللهو ما يقرون بالغناء حتى و لا عند من يقول بإباحة ذلك في الشعر بل المسلمون مجتمعون على تحريمه «٧». مسألة قال صاحب السماع: إذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قد أخبر عن ربه أنه يستمع للصوت الحسن، و النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ استمع صوت أبي موسى و أعجبه، و أثنى عليه، و قال: «قد أوتى هذا مزمارا من (١) مسلم (٢٠٧ / ٤٧٩) في الصلاة،

باب: النهى عن قراءة القرآن في الركوع و السجود، و أحمد (١ / ١٥٥)، و قال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده ضعيف من أجل عبد الرحمن بن إسحاق». (٢) الكلام (٣١٤ - ٣١٨)، حكم سماع الغناء (٢٠١ : ٢٠٤). (٣) أبو داود (١٤٦٨) في الصلاة، باب: استحباب الترتيل في القراءة، و ابن ماجه (١٣٤٢) في إقامة الصلاة، باب: حسن الصوت بالقرآن. (٤) البخارى (٥٠٢٤) في فضائل القرآن، باب الوصاة بكتاب الله عز و جل، و مسلم (٧٩٢ / ٢٣٢) في صلاة المسافرين، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن. (٥) سبق تخريجه ص (٤٢٩). (٦) سبق تخريجه ص (٤٢٩). (٧) الكلام على مسألة السماع ص (٢٧١)، حكم سماع الغناء (٧١). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٥٢ مزامير آل داود، فقال له أبو موسى: لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا «١». أى: زيتته و حسنته، و منه البرد المحبر. و قد روى أن داود كان يستمع لصوته الحسن الإنس و الجن و الطير و الوحوش، و كان يحمل من مجلسه أربعمائه جنازة ممن قد مات من قراءته «٢». قال صاحب القرآن: عجا لكم أيها السماعية و لاستدلالكم، فلو أن المنكرين عليكم كرهوا حسن الصوت و عابوه و ذموه مطلقا؛ لكان في ذلك احتجاج عليهم، كيف و هم أخبر الناس في الصوت الحسن؟ لكن الشأن فيما يؤدي بالصوت. فهذه الآثار التي ذكرتموها، و أكثر منها إنما تدل على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، و من نازع في هذا؟ فالاستدلال بها على تحسين الصوت بالغناء الذي هو قرآن الشيطان، و مادة النفاق و رقية الفواحش أفسد من قياس الربا على البيع، فإن بين الغناء و القرآن من التباين أعظم مما بين البيع و الربا، و مما بين النكاح و السفاح، و مما بين الشراب الحلال و الشراب الحرام. فأين سماع المكاء و التصديء الذي ذمه الله في كتابه، و أخبر أنه سماع المشركين، من سماع أنبيائه و رسله و أوليائه و حزبه المفلحين؟. و أين سماع المخانيث و القينات و الفساق و المغنين من سماع الخلفاء الراشدين و المهاجرين و الأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان، و اقتفوا طريقتهم المثلى، و سبيلهم الأقوم، و سلخوا منهاجهم الواضح؟ و كيف يقاس مؤذن الشيطان الداعى بحى على غير الفلاح، على مؤذن الرحمن الداعى إلى السعادة و النجاح، و قد تقدم ذكر الحديث الذى رواه الطبرانى الكبير فى معجمه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «أن الشيطان قال: يا رب اجعل لى قرآنا قال قرآنك الشعر، قال: اجعل لى مؤذنا قال: مؤذنك المزمارة» «٣». فمن قاس قرآن الشيطان و مؤذنه على قرآن الرحمن و مؤذنه فالله حسيبه و مجازيه، و سيعلم يوم الحشر أى بضاعة أضع، و عند الميزان أى يثقل أم يخف بما قدم به من السماع، و هاهنا الناس أربعة أقسام (١) سبق

تخريجه ص (٤٢٩). (٢) انظر الرسالة القشيرية (٢، ٦) (٣) الطبرانى فى الكبير (٨ / ٢٤٥، ٢٤٦) (٧٨٣٧)، و قال الهيثمى فى المجمع (٨ / ١٢٢): «و فيه على بن يزيد الألهانى و هو ضعيف، و قد تقدم لهذا طرق فى كتاب الإيمان». البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٥٣ أحدها: من يشتغل بسماع القرآن عن سماع الشيطان. و الثانى: عكسه. و الثالث: من له نصيب من هذا و هذا. و الرابع: ليس له نصيب لا من هذا و لا من هذا. فالاشتغال بسماع القرآن الرحمانى، حال السابقين الأولين و أتباعهم و من سلك سبيلهم. و الثانى حال المشركين و المنافقين و الفجار و الفساق و المبطلين و من سلك سبيلهم. و الثالث حال مؤمن له مادتان: مادة من القرآن، و مادة من الشيطان، و هو للغالب عليه منهما. و الرابع حال الفارغ من ذوق هذا و هذا، فهو فى شأن، و أولئك فى شأن، فهذه الآثار التي تضمنت مدح الصوت الحسن بالقرآن، و ما يحبه الله، و من احتج بها على السماع الشيطانى فقد بخس حظه من العلم و المعرفة. و أيضا، فإن العبد لو سمع كلام الله بلا واسطة، كما سمعه موسى بن عمران، لم يكن سماعه بعد الأصوات و الألحان و الغناء محركا لذلك مذكرا به، بل المأثور أن موسى مقت الآدميين و أصواتهم و كلامهم لما قر فى مسامعه من كلام ربه جلّ جلاله «١» «٢».

هدية صلى الله عليه وسلم في قراءة القرآن، و استماعه و خشوعه، و بكائه عند قراءته، و استماعه و تحسين صوته به و توابع ذلك

هديه صَلَّى اللهُ عليه و سلم في قراءة القرآن، و استماعه و خشوعه، و بكائه عند قراءته، و استماعه و تحسين صوته به و توابع ذلك كان له صَلَّى اللهُ عليه و سلم حزب يقرؤه، و لا- يخل به، و كانت قراءته ترتيلاً لا هَذَا و لا عجله، بل قراءة مفسرة حرفاً حرفاً و كان يقطع قراءته آية آية. و كان يمد عند حروف المد، فيمد «الرحمن» و يمد «الرحيم»، و كان يستعيد بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته، فيقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، و ربما كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه و نفخه، و نفثه» (٣). و كان تعوذه قبل القراءة (١).

عزاه ابن كثير في تفسيره (٥٨٩ / ١) لابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس موقوفاً عليه و قال ابن كثير: إسناد ضعيف، فإن جويبراً ضعيف، و الضحاك لم يدرك ابن عباس رضي الله عنه. (٢) الكلام على مسألة السماع (٣٧٦، ٣٨٣)، حكم سماع الغناء (٢٤٥، ٢٤٦، ٢٥١). (٣) أبو داود (٧٦٤) في الصلاة، باب: ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، و ابن ماجه (٨٠٧) في إقامة الصلاة و السنة فيها، باب: الاستعاذة في الصلاة، و ضعفه الألباني. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٥٤ و كان يجب أن يسمع القرآن من غيره، و أمر عبد الله بن مسعود، فقرأ عليه و هو يسمع، و خشع صَلَّى اللهُ عليه و سلم لسماع القرآن منه، حتى ذرفت عيناه «١». و كان يقرأ القرآن قائماً، و قاعداً، و مضطجعاً و متوضئاً، و محدثاً، و لم يكن يمنعه من قراءته إلا الجنابة. و كان صَلَّى اللهُ عليه و سلم يتغنى به، و يرجع صوته به أحياناً كما رجع يوم الفتح في قراءته: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) [الفتح]. و حكى عبد الله بن مغفل ترجيعه، آ آ ثلاث مرات، ذكره البخاري (٢). و إذا جمعت هذه الأحاديث إلى قوله: «زينوا القرآن بأصواتكم» (٣)، و قوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» (٤)، و قوله: «زينوا القرآن بأصواتكم ليس منا من لم يتغن بالقرآن ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن» (٥) علمت أن هذا الترجيع منه صَلَّى اللهُ عليه و سلم كان اختياراً لا اضطراراً لهز الناقه له، فإن هذا لو كان لأجل هز الناقه، لما كان داخلاً تحت الاختيار، فلم يكن عبد الله بن مغفل يحكيه و يفعله اختياراً ليؤتسى به، و هو يرى هز الراحلة له حتى ينقطع صوته، ثم يقول: كان يرجع في قراءته، فنسب الترجيع إلى فعله، و لو كان من هز الراحلة، لم يكن منه فعل يسمى ترجيعاً. و قد استمع ليلة لقراءة أبي موسى الأشعري، فلما أخبره بذلك، قال: لو كنت أعلم أنك تسمعه؛ لحبرته لك تحبيراً (٦)، أي: حسنته و زينته بصوتى تزينا، و روى أبو داود في «سننه» عن عبد الجبار بن الورد، قال: سمعت ابن أبي مليكة يقول: قال عبد الله بن أبي يزيد: مر بنا أبو لبابة، فاتبعناه حتى دخل بيته، فإذا رجل رث الهيئة، فسمعت يقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عليه و سلم يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أ رأيت إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسنه ما استطاع. قلت: لا بد من كشف هذه المسألة، و ذكر اختلاف الناس فيها، و احتجاج كل فريق، و ما (١) البخاري (٥٠٤٩) في فضائل

القرآن، باب: من أحب أن يستمع القرآن من غيره. (٢) البخاري (٤٨٣٥) في التفسير، باب: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١). (٣) سبق تخريجه ص (٤٥١). (٤) سبق تخريجه ص (٤٥٠). (٥) سبق تخريجه ص (٤٥١). (٦) سبق تخريجه ص (٤٢٩). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٥٥ لهم و عليهم في احتجاجهم، و ذكر الصواب في ذلك بحول الله - تبارك و تعالي - و معونته. فقالت طائفة: تكره قراءة الألقان، و ممن نص على ذلك أحمد و مالك و غيرهما، فقال أحمد في رواية علي بن سعيد في قراءة الألقان: ما تعجبني و هو محدث. و قال في رواية المروزي القراءة بالألقان بدعة لا تسمع. و قال في رواية عبد الرحمن المتطبب قراءة الألقان بدعة. و قال في رواية ابن عبد الله، و يوسف بن موسى، و يعقوب بن بختان، و الأثرم، و إبراهيم بن الحارث: القراءة بالألقان لا تعجبني إلا أن يكون ذلك حزناً، فيقرأ بحزن مثل صوت أبي موسى. و قال في رواية صالح: «زينوا القرآن بأصواتكم»، معناه: أن يحسنه. و قال في رواية المروزي: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت أن يتغنى بالقرآن»، و في رواية قوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، فقال: كان ابن عيينة يقول: يستغنى به. و قال الشافعي: يرفع صوته، و ذكر له حديث معاوية بن قره في قصة قراءة سورة الفتح و الترجيع فيها،

فأنكر أبو عبد الله أن يكون على معنى الألحان، وأنكر الأحاديث التي يحتج بها في الرخصة في الألحان. وروى ابن القاسم، عن مالك، أنه سئل عن الألحان في الصلاة، فقال: لا تعجبني، وقال: إنما هو غناء يتغنون به، ليأخذوا عليه الدراهم. و ممن رويت عنه الكراهة، أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والقاسم بن محمد، والحسن، وابن سيرين، وإبراهيم النخعي. وقال عبد الله بن يزيد العكبري: سمعت رجلاً يسأل أحمد، وما تقول في القراءة بالألحان؟ فقال: ما اسمك؟ قال محمد: قال: أيسرك أن يقال لك: يا محمد ممدودا، قال القاضي أبو يعلى: هذه مبالغه في الكراهية. وقال الحسن بن عبد العزيز الجروي: أوصى إلى رجل بوصية، وكان فيما خلف جارية تقرأ بالألحان، وكانت أكثر تركته أو عامتها، فسألت أحمد بن حنبل والحارث بن مسكين، وأبا عبيد، كيف أبيعها؟ فقالوا: بعها ساذجة، فأخبرتهم بما في بيعها من النقصان، فقالوا: بعها ساذجة. قال القاضي وإنما قالوا ذلك؛ لأن سماع ذلك منها مكروه، فلا يجوز أن يعارض عليه كالغناء. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٥٦ قال ابن بطال: وقالت طائفة: التغنى بالقرآن، هو تحسين الصوت به، والترجيع بقراءته، قال: والتغنى بما شاء من الأصوات واللحن هو قول ابن المبارك، والنضر بن شميل، قال: و ممن أجاز الألحان في القرآن: ذكره الطبري، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أنه كان يقول لأبي موسى: ذكرنا ربنا؛ فيقرأ أبو موسى ويتلاحن، وقال: من استطاع أن يتغنى بالقرآن غناء أبي موسى، فليفعل. وكان عقبه بن عامر من أحسن الناس صوتا بالقرآن، فقال له عمر: أعرض عليّ سورة كذا، فعرض عليه، فبكى عمر، وقال: ما كنت أظن أنها نزلت. قال: وأجازه ابن عباس، وابن مسعود، وروى عن عطاء بن أبي رباح، قال: وكان عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد، يتتبع الصوت الحسن في المساجد في شهر رمضان. وذكر الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه: أنهم كانوا يستمعون القرآن بالألحان. وقال محمد بن عبد الحكم: رأيت أبي و الشافعي و يوسف بن عمر يستمعون القرآن بالألحان، وهذا اختيار ابن جرير الطبري. قال المجوزون: - واللفظ لابن جرير: الدليل على أن معنى الحديث تحسين الصوت، والغناء المعقول الذي هو تحزين القارئ سامع قراءته، كما أن الغناء بالشعر هو الغناء المعقول الذي يطرب سامعه: ما روى سفيان، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الترنم بالقرآن» (١)، و معقول عند ذوى الحجاء، أن الترنم لا يكون إلا بالصوت إذا حسنه المترنم و طرب به. و روى في هذا الحديث: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به». قال الطبري: «و هذا الحديث من أبين البيان أن ذلك كما قلنا، قال: و لو كان كما قال ابن عيينة، يعنى: يستغنى به عن غيره، لم يكن لذكر حسن الصوت و الجهر به معنى، و المعروف في كلام العرب أن التغنى إنما هو الغناء الذى هو حسن الصوت بالترجيع، قال الشاعر: تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضممار قال: و أما ادعاء الزاعم أن تغنى بمعنى استغنى فاش فى كلام العرب فلم نعلم أحدا قال به من أهل العلم بكلام العرب. و أما احتجاجه لتصحيح قوله بقول الأعشى: و كنت امرأ زمننا بالعراق عفيف المناخ طويل النغن (١) سبق تخريجه ص (٤٥١). البدائع

فى علوم القرآن، ص: ٤٥٧ و زعم أنه أراد بقوله: طويل التغنى طويل الاستغناء، فإنه غلط منه، وإنما عنى الأعشى بالتغنى فى هذا الموضوع: الإقامة من قول العرب: غنى بمكان كذا: إذا أقام به، و منه قوله تعالى: كَأَنَّ لَمْ يَغْتَوَّ فِيهَا [الأعراف: ٩٢]، و استشهاده بقول الآخر: كلانا غنى عن أخيه حياته و نحن إذا متنا أشد تغانيا فإنه إغفال منه، و ذلك لأن التغنى تفاعل من تغنى: إذا استغنى كل فلان منهما عن صاحبه، كما يقال: تضارب الرجلان، إذا ضرب كل واحد صاحبه، و تشامتا، و تقاتلا. و من قال: هذا فى فعل اثنين، لم يجز أن يقول مثله فى فعل الواحد، فيقول: تغانى زيد، و تضارب عمر، و ذلك غير جائز أن يقول تغنى زيد بمعنى استغنى، إلا أن يريد به قائله أنه أظهر الاستغناء، و هو غير مستغن، كما يقال: تجلد فلان: إذا أظهر جلدا من نفسه، و هو غير جليد، و تشجع، و تكرم. فإن وجه توجه التغنى بالقرآن إلى هذا المعنى على بعده من مفهوم كلام العرب، كانت المصيبة فى خطئه فى ذلك أعظم؛ لأنه يوجب على من تأوله أن يكون الله - تعالى ذكره - لم يأذن لنبيه أن يستغنى بالقرآن، و إنما أذن له أن يظهر من نفسه لنفسه خلاف ما هو به من الحال، و هذا لا يخفى فساد. قال: و مما يبين فساد تأويل ابن عيينة أيضا أن الاستغناء عن الناس بالقرآن من المحال أن يوصف أحد به أنه

يؤذن له فيه أو لا- يؤذن، إلا أن يكون الأذن عند ابن عيينة بمعنى الإذن، الذي هو إطلاق وإباحة، وإن كان كذلك، فهو غلط من وجهين، أحدهما: من اللغة، والثاني: من إحالة المعنى عن وجهه. أما اللغة، فإن الأذن مصدر قوله: أذن فلان لكلام فلان، فهو يأذن له: إذا استمع له و أنصت، كما قال تعالى: وَ أذِنْتُ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ (٢) [الانشقاق، بمعنى سمعت لربها و حق لها ذلك، كما قال عدى بن زيد: إن همى فى سماع و أذن، بمعنى، فى سماع و استماع. فمعنى قوله: ما أذن الله لشيء، إنما هو: ما استمع الله لشيء من كلام الناس ما استمع لنبى يتغنى بالقرآن. و أما الإحالة فى المعنى؛ فلأن الاستغناء بالقرآن عن الناس غير جائز؛ وصفه بأنه مسموع و مأذون له، انتهى كلام الطبرى. قال أبو الحسن بن بطال: و قد وقع الإشكال فى هذه المسألة أيضا بما رواه ابن أبى شيبه، حدثنا زيد بن الحباب، قال: حدثنى موسى بن على بن رباح، عن أبيه، عن عقبه بن عامر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم «تعلموا القرآن و تغنوا به، و اكتبوه، فوالذى نفسى بيده، لهو البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٥٨ أشد تفصيلا من المخاض من العقل» (١). قال: و ذكر عمر بن شبة، قال ذكر لأبى عاصم النبيل تأويل ابن عيينة فى قوله: «يتغنى بالقرآن» يستغنى به، فقال: لم يصنع ابن عيينة شيئا، حدثنا ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، قال: كانت لداود نبى الله صلى الله عليه و سلم معزفة يتغنى عليها يبكى و يبكى. و قال ابن عباس: إنه كان يقرأ الزبور بسبعين لحنا، تكون فيهن، و يقرأ قراءة يطرب منها الجموع. و سئل الشافعى - رحمه الله - عن تأويل ابن عيينة فقال: نحن أعلم بهذا، لو أراد به الاستغناء؛ لقال: «من لم يستغن بالقرآن»، و لكن لما قال: «يتغنى بالقرآن»، علمنا أنه أراد به التغنى. قالوا: و لأن تزيينه، و تحسين الصوت به، و التطريب بقراءته أوقع فى النفوس، و أدعى إلى الاستماع و الإصغاء إليه، فيه تنفيذ للفظه إلى الأسماع، و معانية إلى القلوب، و ذلك عون على المقصود، و هو بمنزلة الحلاوة التى تجعل فى الدواء لتنفذه إلى موضع الداء، و بمنزلة الأفاوية و الطيب الذى يجعل فى الطعام؛ لتكون الطبيعة أدعى له قبولاً، و بمنزلة الطيب و التحلى، و تجمل المرأة لبعلمها؛ ليكون أدعى إلى مقاصد النكاح. قالوا: و لا- بد للنفس من طرب و اشتياق إلى الغناء، فعوضت عن طرب الغناء بطرب القرآن، كما عوضت عن كل محرم و مكروه بما هو خير لها منه، و كما عوضت عن الاستقسام بالأزلام بالاستخارة التى هى محض التوحيد و التوكل، و عن السفاح بالنكاح، و عن القمار بالمراهنة بالنصال و سباق الخيل، و عن السماع الشيطانى بالسماع الرحمانى القرآنى، و نظائره كثيرة جدا. قالوا: و المحرم، لا بد أن يشتمل على مفسدة راجحة، أو خالصة، و قراءة التطريب و الألحان لا تتضمن شيئا من ذلك، فإنها لا تخرج الكلام عن وضعه، و لا تحول بين السامع و بين فهمه، و لو كانت متضمنة لزيادة الحروف كما ظن المانع منها: لأخرجت الكلمة عن موضعها، و حالت بين السامع و بين فهمها، و لم يدر ما معناها، و الواقع بخلاف ذلك. قالوا: و هذا التطريب و التلحين، أمر راجع إلى كيفية الأداء، و تارة يكون سليقة و طبيعة، و تارة يكون تكلفا و عملا، و كيفيات الأداء لا تخرج الكلام عن وضع مفرداته، بل هى صفات لصوت المؤدى، جارية مجرى ترقيقه و تفخيمه و إمالته، و جارية مجرى مدود القراءة الطويلة و المتوسطة، لكن تلك الكيفيات متعلقة بالحروف، و كيفيات الألحان و التطريب، متعلقة بالأصوات، و الآثار فى هذه الكيفيات، لا يمكن نقلها، بخلاف كيفيات أداء (١)

أحمد (١٤٦ / ٤)، و قال الهيثمى فى المجمع (١٧٢ / ٧): «و رجال أحمد رجال الصحيح». البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٥٩ الحروف؛ فلهذا نقلت تلك ألفاظها، و لم يمكن نقل هذه بألفاظها، بل نقل منها ما أمكن نقله، كترجيع النبى صلى الله عليه و سلم فى سورة الفتح بقوله: «آآآ». قالوا: و التطريب و التلحين راجع إلى أمرين: مد و ترجيع، و قد ثبت عن النبى صلى الله عليه و سلم، أنه كان يمد صوته بالقراءة يمد «الرحمن» و يمد «الرحيم»، و ثبت عنه الترجيع كما تقدم. قال المانعون من ذلك: الحجج لنا من وجوه، أحدها: ما رواه حذيفة بن اليمان، عن النبى صلى الله عليه و سلم: «اقرأوا القرآن بلحون العرب و أصواتها، و إياكم و لحون أهل الكتاب و الفسق، فإنه سيجىء من بعدى أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء و النوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم، و قلوب الذين يعجبهم شأنهم» (١). رواه أبو الحسن رزين فى «تجريد الصحاح» و رواه أبو عبد الله الحكيم الترمذى فى «نوادير الأصول» (٢). و احتج به القاضى أبو يعلى فى «الجامع»، و احتج معه بحديث آخر، أنه صلى الله عليه و سلم ذكر شرائط الساعة، و ذكر أشياء، منها: «أن يتخذ

القرآن مزامير، يقدمون أحدهم ليس بأقرئهم ولا أفضلهم ما يقدمونه إلا ليغنيهم غناء» (٣). قالوا: وقد جاء زياد النهدي إلى أنس رضى الله عنه مع القراء، فقبل له: اقرأ، فرفع صوته وطرب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنس عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء، وقال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون، وكان إذا رأى شيئا ينكره، رفع الخرقة عن وجهه. قالوا: وقد منع النبي صلى الله عليه وسلم المؤذن المطرب في أذانه من التطريب، كما روى ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يطرب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الأذان سهل سمح، فإن كان أذنانك سهلا سمحا، وإلا فلا تؤذن». رواه الدارقطني (٤). وروى عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث قتادة، عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه، قال: كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المد، ليس فيها ترجيع. قالوا: والترجيع والتطريب يتضمن همز ما ليس بهموز، ومد ما ليس بممدود، وترجيع الألف الواحد ألفات، والواو واوات، والياء ياءات؛ فيؤدى ذلك إلى زيادة في القرآن، (١) الطبراني في الأوسط (٧٢٢٣)، و

قال الهيثمي في المجمع (١٧٢/٨): «فيه راو لم يسم، وبقية أيضا». (٢) نواذر الأصول في معرفة أحاديث الرسول (٣٩٤/٢) في الأصل الثالث والخمسون والمائتان. (٣) أحمد (٤٩٤/٣)، والبزار (٢٤١/٢، ٢٤٢)، والطبراني في الكبير (٣٦/١٨) (٤٠)، وقال الهيثمي في المجمع (٢٤٨/٥): «في إسناد أحمد عثمان بن عمير البجلي وهو ضعيف وأحد إسناده الكبير رجاله رجال الصحيح». (٤) الدارقطني (٢٣٩/١) (١١)، والحديث ضعيف انظر: المجروحين (١٣٧/١) وقال: «ليس لهذا الحديث أصل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم». البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٦٠ وذلك غير جائز. قالوا: ولا حد لما يجوز من ذلك، وما لا يجوز منه، فإن حد بحد معين، كان تحكما في كتاب الله - تعالى - ودينه، وإن لم يحد بحد، أفضى إلى أن يطلق لفاعله ترديد الأصوات، وكثرة الترجيعات، والتنوع في أصناف الإيقاعات والألحان المشبهة للغناء، كما يفعل أهل الغناء بالأبيات، وكما يفعله كثير من القراء أمام الجنائز، ويفعله كثير من قراء الأصوات، مما يتضمن تغيير كتاب الله، والغناء به على نحو ألحان الشعر والغناء، ويوقعون الإيقاعات عليه مثل الغناء سواء، اجترأ على الله وكتابه، وتلاعبا بالقرآن، وركونا إلى تزيين الشيطان، ولا يجوز ذلك أحد من علماء الإسلام، ومعلوم: أن التطريب والتلحين ذريعة مفضية إلى هذا إفضاء قريبا، فالمنع منه، كالمنع من الذرائع الموصلة إلى الحرام، فهذا نهاية إقدام الفريقين، ومنتهى احتجاج الطائفتين. وفصل النزاع أن يقال: التطريب والتغنى على وجهين: أحدهما: ما اقتضته الطبيعة، وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خلى وطبعه، واسترسلت طبيعته؛ جاءت بذلك التطريب والتلحين، فذلك جائز، إن أعان طبيعته بفضل تزيين وتحسين، كما قال أبو موسى الأشعري للنبي صلى الله عليه وسلم: «لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا» (١)، والحزين ومن هاجه الطرب، والحب والشوق لا يملك من نفسه دفع التحزين والتطريب في القراءة، ولكن النفوس تقبله وتستحليه لموافقته الطبع، وعدم التكلف والتصنع فيه؛ فهو مطبوع لا متطوع، وكلف لا متكلف، فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويستمعونه، وهو التغنى الممدوح المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامع، وعلى هذا الوجه تحمل أدلة أرباب هذا القول كلها. الوجه الثاني: ما كان من ذلك صناعة من الصنائع، وليس في الطبع السماحة به، بل لا يحصل إلا بتكلف وتصنع وتمرين، كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة، والمركبة على إيقاعات مخصوصة، وأوزان مخترعة، لا تحصل إلا بالتعلم والتكلف، فهذه هي التي كرهها السلف وعابوها، وذموها، ومنعوا القراءة بها، وأنكروا على من قرأ بها، وأدلة أرباب هذا القول إنما تناول هذا الوجه، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، ويتبين الصواب من غيره، وكل من له علم بأحوال السلف؛ يعلم قطعا أنهم برآء من القراءة بألحان (١) سبق تخريجه ص

(٢٢٩). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٦١ الموسيقى المتكلفة، التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرءوا بها، ويسوغوها ويعلم قطعا أنهم كانوا يقرءون بالتحزين والتطريب، ويحسنون أصواتهم بالقرآن، ويقرءونه بشجي تارة، وبطرب تارة، وبشوق تارة، وهذا أمر مركوز في الطباع تقاضيه، ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضى الطباع له بل أرشد إليه و

ندب إليه، وأخبر عن استماع الله لمن قرأ به، وقال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» (١). وفيه وجهان: أحدهما: أنه أخبار بالواقع الذي كلنا نفعله، والثاني: أنه نفى لهدى من لم يفعله عن هديه صلى الله عليه وسلم وطريقته صلى الله عليه وسلم (٢).

البكاء عند سماع القرآن

البكاء عند سماع القرآن وأما بكاءه صلى الله عليه وسلم، فكان من جنس ضحكته، لم يكن بشهيق و رفع صوت، كما لم يكن ضحكته بقهقهة، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهمل، يسمع لصدره أزيز، وكان بكاءه تارة - رحمه الله - للميت، وتارة خوفاً على أمته، وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق، ومحبة، وإجلال، مصاحب للخوف والخشية. ولما مات ابنه إبراهيم دمت عيناه وبكى رحمة له، وقال: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون» (٣) وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض، وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء وانتهى فيها إلى قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً (٤١) [النساء] (٤) (٥).

تلاوة القرآن

شروط الانتفاع بالقرآن

شروط الانتفاع بالقرآن إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به - سبحانه - منه إليه (٢)، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) [ق]، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض، ومحل قابل، و شرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد. فقله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ إِشَارَةٌ إِلَى مَا تَقْدِمُ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هَاهُنَا، وَهَذَا هُوَ الْمُؤَثِّرُ، وَقَوْلُهُ: لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ، فَهَذَا هُوَ الْمَحَلُّ الْقَابِلُ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْقَلْبُ الْحَيُّ الَّذِي يَعْقِلُ عَنِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقَوْلَانِ مُبِينٌ، لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا [يس ٦٩ - ٧٠]، أَي حَى الْقَلْبِ. وَقَوْلُهُ: أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ، أَي وَجْهَ سَمْعِهِ وَأَصْغَى حَاسَهُ سَمِعَهُ إِلَى مَا يَقَالُ لَهُ، وَهَذَا شَرْطُ التَّأَثُّرِ بِالْكَلامِ. وَقَوْلُهُ: وَهُوَ شَهِيدٌ، أَي شَاهِدُ الْقَلْبِ حَاضِرٌ غَيْرُ غَائِبٍ. قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: اسْتَمَعَ كِتَابَ اللَّهِ (١)

مفتاح دار السعادة (٤٥، ٤٦). (٢) الضمير في لفظه «منه» يعود إلى الله عز وجل. وفي «إليه» يعود إلى المخاطب، بفتح الطاء. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٦٣ وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر. فإن قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه، فما وجه دخول أداة «أو» في قوله: أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ، والموضع موضع واو الجمع لا موضع «أو» التي هي لأحد الشئيين؟ قيل: هذا سؤال جيد، والجواب عنه أن يقال: خرج الكلام بأو باعتبار حال المخاطب المدعو، فإن من الناس من يكون حى القلب واعيه تام الفطرة، فإذا فكر بقلبه، وجال بفكره؛ دله قلبه وعقله على صحة القرآن، وأنه الحق، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نورا على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ [سبأ: ٦] وقال في حقهم: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ [النور: ٣٥]. فهذا نور الفطرة على نور الوحي، وهذا حال صاحب القلب الحى الواعي (١).

قال إمام أهل هذا السماع عثمان بن عفان رضى الله عنه «لو طهرت قلوبنا لما شبت من كلام الله» (٢)، و في وصفه القرآن: «لا تنفضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء» (٣) فهو قوت القلوب و غذاؤها، و دواؤها من أسقامها و شفاؤها (٤).

(١) الفوائد (٦٠٥). (٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٢٣٢). (٣) هذا جزء من حديث على رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم: «إنها ستكون فتنه...» أخرجه الترمذى في جامعه (٥/ ١٩٨ - ١٩٩) برقم (٢٩٠٦) و قال: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، و إسناده مجهول. و في الحارث مقال». و أحمد في مسنده (١/ ٩١) بنحوه، و الدارمى في سننه (٢/ ٤٣٥)، و أورده ابن كثير في فضائل القرآن - ذيل تفسير ابن كثير - و قال: و الحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، و قد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه و اعتقاده أما أنه تعمد الكذب في الحديث فلا، و قصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين على رضى الله عنه، و قد وهم بعضهم في رفعه، و هو كلام حسن صحيح، على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم. (٤) حكم مسألة السماع (٢٧٥). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٦٤

موانع الانتفاع بالقرآن

موانع الانتفاع بالقرآن اعلم أن للغناء خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق، و نباته فيه كنبات الزرع بالماء. فمن خواصه: أنه يلهى القلب و يصد عنه فهم القرآن و تدبره، و العمل بما فيه، فإن القرآن و الغناء لا يجتمعان في القلب أبدا لما بينهما من التضاد، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى، و يأمر بالعفة، و مجانبة شهوات النفس، و أسباب الغى، و ينهى عن اتباع خطوات الشيطان. و الغناء يأمر بضد ذلك كله، و يحسنه، و يهيج النفوس إلى شهوات الغى. فيثير كامنها، و يزعج قاطناتها، و يحركها إلى كل قبيح، و يسوقها إلى وصل كل مليحة و مليح. فهو و الخمر رضيعا لبان، و في تهيجهما على القبائح فرسا رهان. فإنه صنور الخمر و رضيعه و نائبه و حليفه، و خدينه و صديقه. عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذى لا يفسخ، و أحكم بينهما شريعة الوفاء التى لا تنسخ، و هو جاسوس القلب. و سارق المروءة، و سوس العقل، يتغلغل في مكامن القلوب، و يطلع على سرائر الأفئدة، و يدب إلى محل التخيل. فيثير ما فيه من الهوى و الشهوة و السخافة و الرقاعة و الرعونة و الحماقة. فبينما ترى الرجل و عليه سمة الوقار و بهاء العقل، و بهجة الإيمان، و وقار الإسلام، و حلاوة القرآن، فإذا استمع الغناء و مال إليه نقص عقله، و قل حياؤه، و ذهب مروءته، و فارق بهاءه، و تخلى عنه وقاره، و فرح به شيطانه، و شكا إلى الله تعالى إيمانه، و ثقل عليه قرآنه، و قال: يا رب، لا تجمع بينى و بين قرآن عدوك في صدر واحد. فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه، و أبدى من سره ما كان يكتمه و انتقل من الوقار و السكينة إلى كثرة الكلام و الكذب، و الزهفة و الفرقعة بالأصابع فيميل برأسه، و يهز منكبيه، و يضرب الأرض برجليه، و يدق على أم رأسه بيديه، و يثب و ثبات الدباب، و يدور دوران الحمار حول الدولاب، و يصفق بيديه تصفيق النسوان، و يخور من الوجد و لا كخوار الثيران، و تارة يتأوه تأوه الحزين، و تارة يزق زعقات المجانين «١» و لقد صدق الخبير به من أهله حيث يقول: أتذكر ليلة و قد اجتمعنا على طيب السماع إلى الصباح؟ و دارت بيننا كأس الأغاني فأسكر النفوس بغير راح فلم تر فيهم إلا نشاوى سرورا، و السرور هناك صاحى إذا نادى أخو اللذات فيه أجب اللهو: حتى على السماع (١) تعليق مطابق

لواقع و ذلك حال الشباب. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٦٥ و لم نملك سوى المهجات شيئا أرقناها لألحاظ الملاح و قال بعض العارفين: السماع يورث النفاق في قوم، و العناد في قوم، و الكذب في قوم، و الفجور في قوم، و الرعونة في قوم. و أكثر ما يورث عشق الصور، و استحسان الفواحش، و إدمانه يثقل القرآن على القلب، و يكرهه إلى سماعه بالخاصية، و إن لم يكن هذا نفاقا فما للنفاق حقيقة. و سر المسألة: أنه قرآن الشيطان فلا- يجتمع هو و قرآن الرحمن في قلب أبدا. و أيضا، فإن أساس النفاق: أن يخالف الظاهر الباطن، و صاحب الغناء بين أمرين، إما أن يتهتك فيكون فاجرا، أو يظهر النسك فيكون منافقا، فإنه يظهر الرغبة في الله و الدار

الآخرة و قلبه يغلى بالشهوات، و محبة ما يكرهه الله و رسله: من أصوات المعازف، و آلات اللهو، و ما يدعو إليه الغناء و يهيجه، فقلبه بذلك معمور، و هو من محبة ما يحبه الله و رسوله و كراهة ما يكرهه قفر، و هذا محض النفاق. و أيضا، فإن الإيمان قول و عمل: قول بالحق، و عمل بالطاعة. و هذا ينبت على الذكر، و تلاوة القرآن. و النفاق قول الباطل، و عمل البغي، و هذا ينبت على الغناء. و أيضا، فمن علامات النفاق: قلة ذكر الله، و الكسل عند القيام إلى الصلاة، و نقر الصلاة، و قل أن تجد مفتونا بالغناء إلا و هذا وصفه. و أيضا، فإن النفاق مؤسس على الكذب، و الغناء من أكذب الشعر، فإنه يحسن القبيح و يزينه، و يأمر به، و يقبح الحسن و يزهده فيه، و ذلك عين النفاق. و أيضا، فإن النفاق غش و مكر و خداع، و الغناء مؤسس على ذلك. و أيضا، فإن المنافق يفسد من حيث يظن أنه يصلح، كما أخبر الله سبحانه بذلك عن المنافقين، و صاحب السماع يفسد قلبه و حاله من حيث يظن أنه يصلحه، و المغنى يدعو القلوب إلى فتنة الشهوات، و المنافق يدعوها إلى فتنة الشبهات. قال الضحاك: الغناء مفسدة للقلب، مسخطة للرب. و كتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده: ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي، التي بدؤها من الشيطان، عاقبتها سخط الرحمن. فإنه بلغنى عن الثقات من أهل العلم: أن صوت المعازف، و استماع الأغاني، و اللهج بها ينبت النفاق فى القلب كما ينبت العشب على الماء. فالغناء يفسد القلب، و إذا فسد القلب هاج فيه النفاق. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٦٦ و بالجملة، فإذا تأمل البصير حال أهل الغناء، و حال أهل الذكر و القرآن، تبين له حذق الصحابة و معرفتهم بأدواء القلوب، و أدويتها، و بالله التوفيق «١». باب: منه انظر وقت أخذك فى القراءة إذا أعرضت عن واجبها و تدبرها و تعقلها، و فهم ما أريد بكل آية، و حظك من الخطاب بها، و تنزيلها على أدواء قلبك و التقيد بها، كيف تدرك الخدمة أو أكثرها، أو ما قرأت منها، بسهولة و خفة، مستكثرا من القراءة، فإذا ألزمت نفسك التدبر و معرفة المراد، و النظر إلى ما يخصك منه و التعب به، و تنزيل دوائه على أدواء قلبك، و الاستشفاء به، لم تكد تجوز السورة أو الآية إلى غيرها «٢».

أسباب تفاوت الناس فى فهم القرآن

أسباب تفاوت الناس فى فهم القرآن فى الصحيحين من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى و العلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبت الكلا و العشب الكثير، و كان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا منها و سقوا و زرعوا، و أصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان، لا تمسك ماء و لا- تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه فى دين الله و نفعه ما بعثنى الله به فعلم و علم، و مثل من لم يرفع بذلك رأسا و لم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» «٣». شبه صلى الله عليه و سلم العلم و الهدى الذى جاء به بالغيث لما يحصل بكاء واحد منهما من الحياة و المنافع و الأغذية و الأدوية و سائر مصالح العباد، فإنها بالعلم و المطر، و شبه القلوب بالأراضى التى يقع عليها المطر؛ لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع، كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها و يزكو و تظهر بركته و ثمرته. ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام بحسب قبولهم و استعدادهم لحفظه و فهم معانيه، و استنباط أحكامه و استخراج حكمه و فوائده: أحدها: أهل الحفظ و الفهم الذين حفظوه و عقلوه، و فهموا معانيه، و استنبطوا وجوهه

(١) إغاثة اللهفان (٢٤٨ - ٢٥١). (٢)

مدارج السالكين (١/ ٢٥٨). (٣) البخارى (٧٩) فى العلم، باب: فضل من علم و علم، و مسلم (١٥/ ٢٢٨٢) فى الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث النبى صلى الله عليه و سلم من الهدى و العلم. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٦٧ الأحكام و الحكم و الفوائد منه، فهؤلاء بمنزلة الأرض التى قبلت الماء، و هذا بمنزلة للحفظ فأنبت الكلا و العشب الكثير، و هذا هو الفهم فيه و المعرفة و الاستنباط، فإنه بمنزلة إنبات الكلا و العشب بالماء، فهذا مثل الحفاظ الفقهاء أهل الرواية و الدراية. القسم الثانى: أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه و نقله و ضبطه، و لم يرزقوا تفقها فى معانيه و لا- استنباطا و لا- استخراجا لوجوه الحكم و الفوائد منه، فهم بمنزلة من يقرأ القرآن و يحفظه، و يراعى حروفه و إعرابه و لم يرزق فيه فهما خاصا عن الله، كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: «إلا فهما يؤتية الله

عبدا في كتابه». و الناس متفاوتون في الفهم عن الله و رسوله أعظم تفاوت فرب شخص يفهم من النص حكما أو حكمين و يفهم منه الآخر مائة أو مائتين، فهؤلاء بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس فانتفعوا به، هذا يشرب منه، و هذا يسقى، و هذا يزرع، فهؤلاء القسمان هم السعداء، و الأولون أرفع درجة و أعلى قدرا ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم (٤) [الحديد]. القسم الثالث: الذين لا نصيب لهم منه لا حفظا و لا فهما و لا رواية و لا دراية، بل هم بمنزلة الأرض التي هي قيعان لا تنبت و لا تمسك الماء، و هؤلاء هم الأشقياء. و القسمان الأولان اشتركا في العلم و التعليم كل بحسب ما قبله و وصل إليه، فهذا يعلم ألفاظ القرآن و يحفظها، و هذا يعلم معانيه و أحكامه و علومه، و القسم الثالث لا علم و لا تعليم، فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسا و لم يقبلوه، و هؤلاء شر من الأنعام، و هو وقود النار. فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم و التعليم و عظم موقعه، و شقاء من ليس من أهله، و ذكر أقسام بنى آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم و سعيدهم، و تقسم سعيدهم إلى سابق مقرب و صاحب يمين مقتصد، و فيه دلالة على أن حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر بل أعظم، و أنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث. قال الإمام أحمد: الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام و الشراب؛ لأن الطعام و الشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، و العلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس. و قد قال تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ مَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ [الرعد: ١٧]. شبه - سبحانه - العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٦٨ الحياة، و مصالح العباد في معاشهم و معادهم، ثم شبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علما كثيرا كواد عظيم يسع ماء كثيرا، و قلب صغير إنما يسع علما قليلا كواد صغير إنما يسع ماء قليلا، فقال: فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا، هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته، فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفوا على وجه القلب، كما يستخرج السيل من الوادي زبدا يعلو فوق الماء، و أخبر - سبحانه - أنه راب يطفو و يعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب و طغت، فلا يستقر فيه، بل تجفى و ترمى، فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه و الناس من الهدى و دين الحق، كما يستقر في الوادي الماء الصافي و يذهب الزبد جفاء، و ما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون. ثم ضرب - سبحانه - لك مثلا آخر فقال: وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ [الرعد: ١٧] يعني أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب و الفضة و النحاس و الحديد يخرج منه خبثه، و هو الزبد الذي تلقى النار و تخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها، فإنه يقذف و يلقي به، و يستقر الجوهر الخاص وحده. و ضرب - سبحانه - مثلا بالماء لما فيه من الحياة و التبريد و المنفعة، و مثلا بالنار لما فيها من الإضاءة و الإحراق و الإحراق. فأيات القرآن تحيي القلوب كما تحيا الأرض بالماء، و تحرق خبثها و شبهاتها و شهواتها و سخائمها كما تحرق النار ما تلقى فيها و تميز جيدها من زبدها، كما تميز النار الخبث من الذهب و الفضة و النحاس و نحوه منه، فهذا بعض ما في المثل العظيم من العبر و العلم. قال الله تعالى: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَصْرِيبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) [العنكبوت «١»].

كيفية تلاوة القرآن

كيفية تلاوة القرآن كان صلى الله عليه و سلم يقطع قراءته، و يقف عند كل آية فيقول: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)، و يقف الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، و يقف: مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ (٤) «٢». و ذكر الزهري: أن قراءة رسول الله صلى الله عليه و سلم كانت آية آية، و هذا هو الأفضل. الوقوف على رءوس الآيات و إن تعلقت بما بعدها، و ذهب بعض القراء إلى تتبع الأغراض و المقاصد،

(١) مفتاح دار السعادة (١٥-١٧). (٢)

أبو داود (٤٠٠١) في الحروف و القراءات، و الترمذى (٢٩٢٧) في القراءات، باب: في فاتحة الكتاب، و قال: «غريب». البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٦٩ و الوقوف عند انتهائها، و اتباع هدى النبي صلى الله عليه و سلم و سنته أولى. و ممن ذكر ذلك البيهقي في «شعب

الإيمان» وغيره، ورجح الوقوف على رءوس الآي و إن تعلقت بما بعدها. و كان صَلَّى اللهُ عليه و سلم يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، و قام بآية يرددها حتى الصباح «١».

حكم قراءة الجماعة بصوت واحد

حكم قراءة الجماعة بصوت واحد و هذه مسألة اختلف فيها أهل العلم، و هي قراءة الجماعة بصوت واحد فكرها طائفة، و استحجوا قراءة الإدارة، و هي [أن «٢» يقرأ هذا، ثم يسكت فيقرأ الآخر حتى ينتهوا، و استحجتها طائفة، و قالوا: تعاون الأصوات يكسو القراءة طيباً و تجلاله «٣» و تأثيراً في القلوب، و تأمل هذا في تعاون الحركات بالآلات المطربة كيف يحدث لها كيفية أخرى؟ فإن الهيئة الاجتماعية لها من الحكم ما ليس لأفرادها، و فضلت طائفة و قالوا: كان أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عليه و سلم إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ و الباقون يستمعون فلم يكونوا يقرءون جملة، و لم يكونوا يديرون القراءة بل القارئ واحد، و الباقون مستمعون، و لا ريب أن هذا أكمل الأمور الثلاثة، و الله أعلم «٤».

في كم يختم القرآن؟

في كم يختم القرآن؟ سأله صَلَّى اللهُ عليه و سلم عبد الله بن عمرو بن العاص، في كم أقرأ القرآن؟ فقال: «في شهر»، فقال: أطيق أفضل من ذلك، فقال: «في عشرين»، فقال: أطيق أفضل من ذلك، فقال: «في خمس عشر»، فقال: أطيق أفضل من ذلك، قال: «في عشرة»، فقال: أطيق أفضل من ذلك، قال: «في خمس»، قال: أطيق أفضل من ذلك، قال: «لا يفقه القرآن من قرأه في أقل من ثلاث». ذكره أحمد «٥» «٦» (١) زاد المعاد

(١/ ٣٣٧). (٢) ساقطة من المطبوعة، للسياق. (٣) تجلالة: مبالغة من الجلالة. (٤) حكم مسألة السماع (٢٩١، ٢٩٢). (٥) أحمد (٢/ ١٦٣) و قال الشيخ أحمد شاكر (٦٥١٦): «إسناده صحيح». (٦) إعلام الموقعين (٤/ ٣٨٠). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٧٠

دعاء ختم القرآن

دعاء ختم القرآن نص الإمام أحمد- رحمه الله- على الدعاء عقيب الختمة فقال في رواية أبي الحارث: «كان أنس إذا ختم القرآن جمع أهله و ولده». و قال في رواية يوسف بن موسى، و قد سئل عن الرجل يختم القرآن فيجتمع إليه قوم فيدعون، قال: نعم رأيت معمرًا يفعلها إذا ختم. و قال في رواية حرب: «استحب إذا ختم الرجل القرآن أن يجمع أهله و يدعو». و روى ابن أبي داود في فضائل القرآن عن الحكم قال: «أرسل إليّ مجاهد و عنده ابن أبي لبابة: أرسلنا إليك أنا نريد أن نختم القرآن، و كان يقول: إن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن ثم يدعو بدعوات». و روى أيضاً في كتابه عن ابن مسعود أنه قال: «من ختم القرآن فله دعوة مستجابة». و عن مجاهد قال: «تنزل الرحمة عند ختم القرآن». و روى أبو عبيد في كتاب «فضائل القرآن» عن قتادة قال: «كان بالمدينة رجل يقرأ القرآن من أوله إلى آخره على أصحاب له، فكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يضع عليه الرقباء فإذا كان عند الختم جاء ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فشاهده. و نص أحمد- رحمه الله تعالى- على استحباب ذلك في صلاة التراويح، قال حنبل: سمعت أحمد يقول في ختم القرآن: «إذا فرغت من قراءتك قلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)، فارفع يديك في الدعاء قبل الركوع، قلت: إلى أي شيء تذهب في هذا؟ قال: رأيت أهل مكة يفعلونه»، و كان سفيان بن عيينة يفعلها معهم بمكة. قال عباس بن عبد العظيم: و كذلك أدركت الناس بالبصرة و بمكة، و يروى أهل المدينة في هذا أشياء، و ذكر عن عثمان بن عفان. و قال الفضل بن زياد: سألت أبا عبد الله قلت: «أختم القرآن أجعله في التراويح و في الوتر؟ قال اجعله في التراويح، حتى يكون لنا دعاء بين اثنين، قلت: كيف أصنع؟ قال: إذا فرغت من آخر القرآن فارفع يديك قبل أن ترقع و ادع بنا، و نحن في الصلاة، و أطل القيام، قلت: بم أدعو؟ قال: بما شئت،

قال: ففعلت كما أمرني و هو خلفي يدعو قائما و يرفع يديه». و إذا كان هذا من أكد مواطن الدعاء و أحقها بالإجابة فهو من أكد مواطن الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم «١». (جلاء الأفهام (٢٤٢، ٢٤٣). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٧١ و في الترمذي عنه أنه سئل صلى الله عليه و سلم: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الحال المرتحل» «١»، و فهم بعضهم من هذا أنه إذا فرغ من ختم القرآن قرأ فاتحة الكتاب، و ثلاث آيات من سورة البقرة؛ لأنه حل بالفراغ و ارتحل بالشروع. و هذا لم يفعله أحد من الصحابة و لا التابعين، و لا استحبه أحد من الأئمة. و المراد بالحديث الذي كلما حل من غزاة ارتحل في أخرى، أو كلما حل من عمل ارتحل إلى غيره تكميلا له كما كمل الأول، و أما هذا الذي يفعله بعض القراء فليس مراد بالحديث قطعا، و بالله التوفيق. و قد جاء تفسير الحديث متصلا به أن يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حل ارتحل، و هذا له معنيان: أحدهما: أنه كلما حل من سورة أو جزء ارتحل في غيره، و الثاني: أنه كلما حل من ختمه ارتحل في أخرى «٢».

حكم قراءة القرآن بالفارسية

حكم قراءة القرآن بالفارسية و من العجب: تجويز قراءة القرآن بالفارسية «٣».

النهى عن الجهر بالقرآن بحضرة العدو

النهى عن الجهر بالقرآن بحضرة العدو إن الله تعالى منع رسوله حيث كان بمكة من الجهر بالقرآن، حيث كان المشركون يسمعونهم فيسبون القرآن، و من أنزله و من جاء به، و من أنزل عليه «٤». و أيضا نهى سبحانه رسوله صلى الله عليه و سلم عن الجهر بالقرآن بحضرة العدو، لما كان ذريعة إلى سبهم للقرآن و من أنزله «٥».

حكم الوضوء لقراءة القرآن

حكم الوضوء لقراءة القرآن قالوا «٦»: و السجود هو من جنس ذكر الله، و قراءة القرآن و الدعاء؛ و لهذا شرع في (١) الترمذي (٢٩٤٨) في القراءات، باب: (١٣)، و قال: «غريب». (٢) إعلام الموقعين (٣٧٩ / ٤). (٣) إعلام الموقعين (٤٠٨ / ٣). (٤) إعلام الموقعين (١٩٠ / ٣). (٥) إعلام الموقعين (٣٦٧ / ١). (٦) أى: المانعون من الوضوء. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٧٢ الصلاة و خارجها، فكما لا يشترط الوضوء لهذه الأمور- و إن كانت من أجزاء الصلاة- فكذا لا- يشترط للسجود، و كونه جزءا من أجزاءها لا- يوجب ألا يفعل إلا بوضوء. و احتج البخارى بحديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه و سلم: سجد بالنجم، و سجد معه المسلمون، و المشركون و الجن و الإنس «١» و معلوم أن الكافر لا وضوء له. قالوا: و أيضا، فالمسلمون الذين سجدوا معه صلى الله عليه و سلم لم ينقل أن النبي صلى الله عليه و سلم أمرهم بالطهارة، و لا سألهم: هل كنتم متطهرين أم لا؟ و لو كانت الطهارة شرطا فيه للزم أحد الأمرين: إما أن يتقدم أمره لهم بالطهارة، و إما أن يسألهم بعد السجود، ليبين لهم الاشتراط، و لم ينقل مسلم واحدا منهما. فإن قيل: فلعل الوضوء تأخرت مشروعيتها عن ذلك، و هذا جواب بعض الموجبين. قيل: الطهارة شرعت للصلاة من حين المبعث، و لم يصل قط إلا بطهارة، أتاها جبريل عليه السلام فعلمه الطهارة و الصلاة. و في حديث إسلام عمر أنه لم يمكن من مس القرآن إلا- بعد تطهره «٢»، فكيف تظن أنهم كانوا يصلون بلا وضوء؟ قالوا: و أيضا فيبعد جدا أن يكون المسلمون كلهم إذ ذاك على وضوء! قالوا: و أيضا، ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقرأ القرآن، فيقرأ السورة فيها السجدة فيسجد، و نسجد معه، حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته «٣». قالوا: و قد كان يقرأ القرآن عليهم في المجامع كلها، و من البعيد جدا أن يكون كلهم إذ ذاك على وضوء، و كانوا

يسجدون حتى لا يجد بعضهم مكانا لوجهته، و معلوم أن مجامع الناس تجمع المتوضى و غيره. قالوا: و أيضا، فقد أخبر- الله تعالى- في غير موضع من القرآن: أن السحرة سجدوا لله سجدة، فقبلها الله منهم و مدحهم عليها، و لم يكونوا متطهرين قطعاً، و منازعوناً يقولون مثل هذا السجود حرام، فكيف يمدحهم و يثنى عليهم بما لا يجوز؟ فإن قيل: شرع من قبلنا ليس بشرع لنا. قيل: قد احتج الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا، و ذلك منصوص عنهم أنفسهم في غير موضع.

(_____ ١) البخارى (٤٨٦٢) فى التفسير، باب: فاسجدوا لله و اعبدوا. (٢) ابن هشام (١/ ٣٧١، ٣٧٢). (٣) البخارى (١٠٧٥) فى سجود القرآن، باب: من سجد سجود القارئ، و مسلم (١٠٣/ ٥٧٥) فى المساجد و مواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٧٣ قالوا: سلمنا، لكن ما لم يرد شرعنا بخلافه. قال المجوزون: فأين ورد فى شرعنا خلافه؟ قالوا: و أيضا فأفضل أجزاء الصلاة و أقوالها هو القراءة، و يفعل بلا وضوء، فالسجود أولى. قالوا: و أيضا فالله- سبحانه و تعالى- أثنى على كل من سجد عن التلاوة، فقال تعالى: قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) [الإسراء]. و هذا يدل على أنهم سجدوا عقب تلاوته بلا فصل، سواء كانوا بوضوء أو بغيره؛ لأنه أثنى عليهم بمجرد السجود عقب التلاوة، و لم يشترط وضوءاً، و كذلك قوله تعالى: إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا [مريم: ٥٨] «١».

حكم قراءة الحائض القرآن و إعلال حديث المنع

حكم قراءة الحائض القرآن و إعلال حديث المنع جواز قراءة القرآن لها، و هى حائض؛ إذ لا يمكنها التعويض عنها زمن الطهر؛ لأن الحيض، قد يمتد بها غالبه أو أكثره، فلو منعت من القراءة لفاتت عليها مصلحتها، و ربما نسيت ما حفظته زمن طهرها، و هذا مذهب مالك، و إحدى الروايتين عن أحمد، و أحد قولى الشافعى. و النبى صلى الله عليه و سلم لم يمنع الحائض من قراءة القرآن، و حديث: «لا تقرأ الحائض و الجنب شيئاً من القرآن» «٢». لم يصح فإنه حديث معلول باتفاق أهل العلم بالحديث «٣».

حكم مس المصحف للجنب و غيره

حكم مس المصحف للجنب و غيره قال تعالى: فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) [الواقعة]، اختلف المفسرون فى هذا فقيل: هو اللوح المحفوظ، و الصحيح أنه الكتاب الذى بأيدي الملائكة، و هو المذكور فى قوله: فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) [عبس]، و يدل على أنه الكتاب الذى بأيدي الملائكة قوله: لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) [الواقعة]، فهذا يدل على

(_____ ١) تهذيب السنن (١/ ٥٤، ٥٥). (٢)

الترمذى (١٣١) فى الطهارة، باب: ما جاء فى الجنب و الحائض، و قال: «حديث ابن عمر حديث لا نعرفه إلا من حديث إسماعيل بن عياش، و ابن ماجه (٥٩٦) فى الطهارة و سننها، باب: ما جاء فى قراءة القرآن من غير طهارة، و قال الألبانى: «منكر». (٣) إعلام الموقعين (٣/ ٣٠). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٧٤ أنه بأيديهم يمسونه، و هذا هو الصحيح فى معنى الآية، و من المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر. و الأول أرجح لوجوه: أحدهما: أن الآية سقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين، و أن محله لا يصل إليه فيمسه إلا- المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق الله، و أنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، كما قال تعالى: وَ مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَ مَا يَشَاءُونَ (٢١١) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) [الشعراء]، فنفى الفعل و تأتية منهم، و قدرتهم عليه، فما فعلوا ذلك و لا يليق بهم، و لا يقدرون عليه، فإن الفعل قد ينتفى عن يمنه، و قد يليق بمن لا يقدر عليه، فنفى عنهم الأمور الثلاثة، و كذلك قوله فى سورة عبس: فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) [عبس]، فوصف محله بهذه الصفات بيانا أن الشيطان لا يمكنه أن ينتزل به، و تقرير هذا المعنى أهم و أجل و أنفع من بيان كون المصحف لا

يمسه إلا ظاهر. الوجه الثاني: أن السورة مكية، والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة؛ و أما تقرير الأحكام والشرايع فمظنة السور المدنية. الوجه الثالث: أن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر، وهذا إن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي، فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الأخبار، يوضحه: الرابع: وهو قوله: فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨)، والمكنون: المصون المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر، كما قال تعالى: كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) [الصفات]، وهكذا قال السلف. قال الكلبي: مكنون من الشياطين، وقال مقاتل: مستور، وقال مجاهد: لا يصيبه تراب ولا غبار. وقال أبو إسحاق: مصون في السماء يوضحه. الوجه الخامس: أن وصفه بكونه مكنونا نظير وصفه بكونه محفوظا فقوله: فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) كقوله: بَيْلٌ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢) [البروج يوضحه. الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين، وأبلغ في تعظيم القرآن، من كون المصحف لا يمسه محدث. الوجه السابع: قوله: لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) بالرفع، فهذا خبر لفظا ومعنى، ولو كان نهيا لكان مفتوحا، ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس هاهنا البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٧٥ موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي. الوجه الثامن: أنه قال إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ولم يقل إِلَّا الْمُتَطَهَّرُونَ. ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال: إِلَّا الْمُتَطَهَّرُونَ، كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) [البقرة]، وفي الحديث «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» (١)، فالمتطهر فاعل التطهير، والمطهر الذي طهره غيره، فالمتوضىى مطهر والملائكة مطهرون. الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن في الإخبار عن كونه مكنونا كبير فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكنونا في كتاب، لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنونا في كتاب، وهذا أمر مشترك، والآية إنما سقت لبيان مدحه وتشريفه، وما اختص به من الخصائص التي تدل على أنه منزل من عند الله، وأنه محفوظ مصون، لا يصل إليه شيطان بوجه ما، ولا يمس محله إلا-المطهرون، وهم السفرة الكرام البررة. الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه: حدثنا أبو الأحوص، حدثنا عاصم الأحول، عن أنس بن مالك في قوله: لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) قال: المطهرون الملائكة.. وهذا عند طائفة من أهل الحديث في حكم المرفوع، قال الحاكم: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع، ومن لم يجعله مرفوعا فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة، والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن، ويجب الرجوع إلى تفسيرهم. وقال حرب في مسأله: سمعت إسحاق في قوله: لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) قال: النسخة التي في السماء لا يمسه إلا المطهرون، قال: الملائكة. وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، إذ كانت الصحف التي في السماء لا يمسه إلا-المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا-ينبغي أن يمسه إلا-طاهر، والحديث مشتق من هذه الآية.

(١) رواه الترمذى (٥٥) في أبواب

الطهارة، باب: فيما يقال بعد الوضوء، عن أبي إدريس الخولاني عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين. فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء» قال الترمذى: «وهذا حديث في إسناداه اضطراب. ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب كثير شيء. قال البخارى: أبو إدريس لم يسمع من عمر شيئا. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٧٦ و قوله: «لا-تمس القرآن إلا-و أنت طاهر» (١) رواه أهل السنن من حديث الزهري عن بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده، أن في الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل اليمن في السنن، والفرائض، والديات: «أن لا يمس القرآن إلا طاهر»، قال أحمد: أرجو أن يكون صحيحا، وقال أيضا: لا أشك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه. وقال أبو عمر بن عبد البر: هو كتاب مشهور عند أهل السير، معروف عند أهل العلم، معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد؛ لأنه أشبه التواتر في مجيئه، لتلقى الناس له بالقبول والمعرفة، ثم قال: وهو كتاب معروف عند العلماء، وما فيه فمتفق عليه إلا قليلا، وقد رواه ابن حبان في صحيحه، ومالك

في موطنه، وفي المسألة آثار مذكورة في غير هذا الموضع (٢). باب: منه قوله تعالى: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) [الواقعة]: الصحيح في الآية أن المراد به: الصحف التي بأيدي الملائكة، لوجوه عديدة: منها: أنه وصفه بأنه «مكون»، و «المكون» المستور عن العيون. وهذا إنما هو في الصحف التي بأيدي الملائكة. ومنها: أنه قال: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) و هم الملائكة. ولو أراد المتوضئين لقال: لا يمسه إلا المتطهرون. كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [البقرة: ٢٢٢] فالملائكة مطهرون، و المؤمنون مطهرون. ومنها: أن هذا إخبار، و لو كان نهياً لقال: لا يمسه بالجزم. والأصل في الخبر: أن يكون خبراً صورةً و معنى. و منها: أن هذا رد على من قال: إن الشيطان جاء بهذا القرآن، فأخبر تعالى أنه في كتاب مكون لا تناله الشياطين. و لا وصول لها إليه، كما قال تعالى في آية الشعراء وَ مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَ مَا يَتَّبِعِي لَهُمْ وَ مَا يَسْتَطِئُونَ (٢١١) [الشعراء] و إنما تناله الأرواح المطهرة: و هم الملائكة (١). مالِك

في الموطأ (١/ ١٩٩) في القرآن، باب: الأمر بالوضوء من مس القرآن، قال ابن عبد البر: «لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث، و قد روى مسنداً من وجه صالح». انظر: الحاكم في المستدرک (٣/ ٤٨٥) في معرفة الصحابة، باب: مناقب حكيم بن حزام، و قال: «حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه» و وافقه الذهبي. (٢) التبيان (٢٢٦ - ٢٣٠). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٧٧ و منها: أن هذا نظير الآية التي في سورة عبس: فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) [عبس]. قال مالك في موطنه: أحسن ما سمعت في تفسير قوله: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٩٧) أنها مثل هذه الآية التي في سورة عبس. و منها أن الآية مكية من سورة مكية، تتضمن تقرير التوحيد و النبوة و المعاد، و إثبات الصانع، و الرد على الكفار. و هذا المعنى أليق بالمقصود من فرع عملي. و هو حكم مس المحدث المصحف. و منها: أنه لو أريد به الكتاب الذي بأيدي الناس لم يكن في الإقسام على ذلك بهذا القسم العظيم كثير فائدة؛ إذ من المعلوم: أن كل كلام فهو قابل لأن يكون في كتاب حقا أو باطلا. بخلاف ما إذا وقع القسم على أنه في كتاب مصون، مستور عن العيون عند الله، لا يصل إليه شيطان، و لا ينال منه، و لا يمسه إلا الأرواح الطاهرة الزكية. فهذا المعنى أليق و أجل و أخلق بالآية و أولى بلا شك. فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: لكن تدل الآية بإشارتها على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسه إلا المطهرون، لكرامتها على الله، فهذه الصحف أولى ألا يمسه إلا طاهر «١».

النهى عن المرء في القرآن

النهى عن المرء في القرآن عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «المرء في القرآن كفر» (٢). و في الصحيحين من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم عنه فقوموا» (٣). و في الصحيحين عن عائشة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» (٤).

(٢) أبو داود (٤٦٠٣) في السنة، باب: النهى عن الجدل في القرآن. (٣) البخارى (٥٠٦٠) في فضائل القرآن، باب: اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، و مسلم (٤/ ٢٦٦٧) في العلم، باب: النهى عن اتباع متشابه القرآن. (٤) البخارى (٧١٨٨) في الأحكام، باب: الألد الخصم إلخ، و مسلم (٥/ ٢٦٦٨) في العلم، باب: الألد الخصم. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٧٨ و في سنن ابن ماجه من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» (١)، ثم تلا تلك الآية: ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [الزخرف: ٥٨] (٢).

حكم التسمية بأسماء القرآن

حكم التسمية بأسماء القرآن و مما يمنع منه: التسمية بأسماء القرآن، و سورة مثل: طه، و يس، و حم. و قد نص مالك على كراهة التسمية بيس. ذكره السهيلي، و أما ما يذكره العوام: أن «يس»، و «طه» من أسماء النبي - عليه الصلاة و السلام - فغير صحيح، ليس ذلك في حديث صحيح و لا حسن و لا مرسل و لا أثر عن صحابي، و إنما هذه الحروف مثل: «الم»، و «حم»، و «الر»، و نحوها «٣».

حكم قراءة القرآن للميت

حكم قراءة القرآن للميت و قد ذكر عن جماعة من السلف أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن، قال عبد الحق: يروى أن عبد الله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة. و ممن رأى ذلك المعلى بن عبد الرحمن، و كان الإمام أحمد ينكر ذلك أولاً حيث لم يبلغه فيه أثر ثم رجع عن ذلك. و قال الخلال في الجامع، كتاب القراءة عند القبور: أخبرنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا مبشر الحلبي، حدثني عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال: قال أبي: إذا أنا مت فضعني في اللحد، و قل: بسم الله، و على سنة رسول الله، و سن عليّ التراب سناً، و اقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة فإني سمعت عبد الله بن عمر يقول ذلك، قال عباس الدوري: سألت أحمد بن حنبل قلت: تحفظ في القراءة شيئاً؟ فقال: لا و سألت يحيى بن معين فحدثني بهذا الحديث. قال الخلال و أخبرني الحسين بن أحمد الوراق، حدثني علي بن موسى الحداد، و كان صدوقاً، قال: كنت مع أحمد بن حنبل، و محمد بن قدامة الجوهري في جنازة، فلما دفن الميت جلس رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد: يا هذا، إن القراءة عند القبر بدعة، (ابن ماجه ٤٨) في المقدمة، باب:

اجتناب البدع و الجدل. (٢) تهذيب السنن (٧/ ٧٢٦). (٣) تحفة المودود (١١٦، ١١٧). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٧٩ فلما خرجنا من المقابر، قال محمد بن قدامة لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، ما تقول في مبشر الحلبي؟ قال: ثقة، قال: كتبت عنه شيئاً، قال: نعم فأخبرني مبشر عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه: أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة و خاتمتها، و قال: سمعت ابن عمر يوصي بذلك، فقال له أحمد: فارجع، و قل للرجل يقرأ. و قال الحسن بن الصباح الزعفراني سألت الشافعي عن القراءة على القبر قال: لا- بأس بها. و ذكر الخلال عن الشعبي قال: كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرءون عنده القرآن. قال: و أخبرني أبو يحيى الناقد سمعت الحسن بن الجروي يقول: مررت على قبر أخت لي فقرأت عندها «تبارك»؛ لما يذكر فيها، فجاءني رجل فقال: إني رأيت أختك في المنام تقول: جزى الله أبا علي خيراً فقد انتفعت بما قرأ. أخبرني الحسن بن الهيثم قال: سمعت أبا بكر بن الأظروش ابن بنت أبي نصر بن التمار يقول: كان رجل يجيء إلى قبر أمه يوم الجمعة فيقرأ سورة يس، فجاء في بعض أيامه فقرأ سورة يس ثم قال: اللهم إن كنت قسمت لهذه السورة ثواباً فاجعله في أهل هذه المقابر، فلما كان يوم الجمعة التي تليها جاءت امرأة فقالت: أنت فلان بن فلانة؟ قال: نعم، قالت: إن بنتا لي ماتت فرأيتها في النوم جالسة على شفير قبرها فقلت: ما أجلسك هاهنا؟ فقالت: إن فلان بن فلانة جاء إلى قبر أمه فقرأ سورة يس و جعل ثوابها لأهل المقابر، فأصابنا من روح ذلك أو غفر لنا أو نحو ذلك. و في النسائي و غيره من حديث معقل بن يسار المزني عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: «اقرأوا «يس» عند موتاكم» (١). و هذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته مثل قوله: «لقدنا موتاكم لا إله إلا الله» (٢). و يحتمل أن يراد به القراءة عند القبر، و الأول أظهر لوجوه: الأول: أنه نظير قوله: «لقدنا موتاكم لا إله إلا الله». الثاني: انتفاع المحتضر بهذه السورة لما فيها من التوحيد و المعاد و البشري بالجنة لأهل التوحيد و غبطة من مات عليه بقوله: يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ (١) أبو داود (٣١٢١) في الجنائز،

باب: القراءة عند الميت، و النسائي في الكبرى (١٠٩١٣) في عمل اليوم و الليلة، باب: ما يقرأ على الميت، و انظر تخريجه مفصلاً في: إرواد العليل (٦٨٨). (٢) مسلم (١/ ٩١٦) في الجنائز، باب: تلقين الموتى لا إله إلا الله، و أبو داود (٣١١٧) في الجنائز، باب: في التلقين. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٨٠ المَكْرَمِينَ (٢٧) [يس فتستبشر الروح فتحب لقاء الله، فيحب الله لقاءها، فإن هذه السورة قلب القرآن

ولها خاصية عجيبة في قراءتها عند المحتضر. وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي قال: كنا عند شيخنا أبي الوقت عبد الأول وهو في السياق، وكان آخر عهدنا به أن نظر إلى السماء وضحك وقال: يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بما عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) [يس وقضى. الثالث: أن هذا عمل الناس وعادتهم قديما وحديثا يقرءون «يس» عند المحتضر. الرابع: أن الصحابة لو فهموا من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقرأوا «يس» عند موتاكم» (١) قراءتها عند القبر؛ لما أخلوا به وكان ذلك أمرا معتادا مشهورا بينهم. الخامس: أن انتفاعه باستماعها وحضور قلبه وذهنه عند قراءتها في آخر عهده بالدنيا هو المقصود، وأما قراءتها عند قبره، فإنه لا يثاب على ذلك؛ لأن الثواب إما بالقراءة أو بالاستماع وهو عمل، وقد انقطع من الميت «٢». وأيضا وبالجملة، فأفضل ما يهدى إلى الميت العتق والصدقة والاستغفار له والدعاء له والحج عنه. وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوعا بغير أجره، فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج. فإن قيل: فهذا لم يكن معروفا في السلف ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير، ولا أرشدهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام، فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه و لكننا يفعلونه. فالجواب: أن مورد هذا السؤال إن كان معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار. قيل له: ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟ وهل هذا إلا-تفريق بين المتماثلات، وإن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محبوب بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع. وأما السبب الذي لأجله لم يظهر ذلك في السلف، فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على

(١) سبق تخريجه في رقم ١. (٢)

الروح (١٠-١٢) البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٨١ من يقرأ ويهدى إلى الموتى، ولا كانوا يعرفون ذلك البتة، ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده كما يفعله الناس اليوم، ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت، بل ولا ثواب هذه الصدقة والصوم. ثم يقال لهذا القائل: لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال: اللهم ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر، فلم يكونوا ليشهدوا على الله بإيصال ثوابها إلى أمواتهم. فإن قيل: فرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرشدهم إلى الصوم والصدقة والحج دون القراءة؟ قيل: هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبتدئهم بذلك، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميتة فأذن له، وهذا سأله عن الصيام عنه فأذن له، وهذا سأله عن الصدقة فأذن له، ولم يمنعهم مما سوى ذلك. وأي فرق بين وصول ثواب الصوم الذي هو مجرد نية وإسماك وبين وصول ثواب القراءة والذكر؟ والقائل: إن أحدا من السلف لم يفعل ذلك، قائل ما لا علم له به، فإن هذه شهادة على نفي ما لم يعلمه، فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه، بل يكفي اطلاع علام الغيوب على نياتهم ومقاصدهم لا سيما التلفظ بنية الإهداء لا يشترط. وسر المسألة: أن الثواب ملك للعامل، فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله الله إليه، فما الذي خص من هذا ثواب قراءة القرآن وحجر على العبد أن يوصله إلى أخيه، وهذا عمل سائر الناس حتى المنكرين في سائر الأعصار والأمصار من غير نكير من العلماء «١».

شروط الواقف قراءة قرآن عند قبر

شروط الواقف قراءة قرآن عند قبر ومن ذلك «٢»: أن يشترط القراءة عند قبره دون البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال، والناس لهم قولان: أحدهما: أن القراءة لا تصل إلى الميت، فلا فرق بين أن يقرأ عند القبر أو بعيدا منه عند هؤلاء (١) الروح (١٤٢-١٤٣).

(٢) أي: من شروط الواقفين المخالف للشرع. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٨٢ والثاني: أنها تصل، ووصولها فرع حصول الثواب للقارئ، ثم ينتقل منه إلى الميت، فإذا كانت قراءة القارئ ومجيئه إلى القبر إنما هو لأجل الجعل ولم يقصد به التقرب إلى الله لم

يحصل له ثواب، فكيف ينتقل عنه إلى الميت و هو فرعه؟ فما زاد بمجيئه إلى التربة إلا- العناء و التعب، بخلاف ما إذا قرأ لله في المسجد أو غيره في مكان يكون أسهل عليه و أعظم لإخلاصه، ثم جعل ثواب ذلك للميت وصل إليه. و ذاكرت مرة بهذا المعنى بعض الفضلاء، فاعترف به، و قال: لكن بقى شيء آخر، و هو أن الواقف قد يكون قصد انتفاعه بسماع القرآن على قبره و وصول بركة ذلك إليه، فقلت له: انتفاعه بسماع القرآن مشروط بحياته، فلما مات انقطع عمله كله و استماع القرآن من أفضل الأعمال الصالحة، و قد انقطع بموته، و لو كان ممكنا لكان السلف الطيب من الصحابة و التابعين و من بعدهم أولى بهذا الحظ العظيم لمسارعتهم إلى الخير و حرصهم عليه. و لو كان خيرا لسبقونا إليه، فالذى لا شك فيه أنه لا يجب حضور التربة و لا تتعين القراءة عند القبر «١». و أيضا فإذا شرط الواقف القراءة على القبر، كانت القراءة في المسجد أولى، و أحب إلى الله و رسوله، و أنفع للميت «٢»، فلا يجوز تعطيل الأحب إلى الله الأنفع لعبده، و اعتبار ضده. و قد رام بعضهم الانفصال عن هذا، بأنه قد يكون قصد الواقف حصول الأجر له باستماعه للقرآن في قبره، و هذا غلط، فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة، فإنه عمل اختياري، و قد انقطع بموته «٣».

النهى عن قراءة القرآن في الركوع و السجود

النهى عن قراءة القرآن في الركوع و السجود و سمعته يقول «٤» في نهيه صلى الله عليه و سلم عن قراءة القرآن في الركوع و السجود: «إن القرآن هو أشرف الكلام، و هو كلام الله، و حالتا الركوع و السجود حالتا ذل، و انخفاض من العبد». فمن الأدب مع كلام الله: ألا يقرأ في هاتين الحالتين، و يكون حلال القيامة و الاتصاف به. (١) إعلام الموقعين (٢٣٠ / ٤)، (٢٣١).

(٢) ليس القراءة للميت من هدى النبوة. المسألة فيها تفصيل كما في زاد المعاد! (٣) إعلام الموقعين (١٣٠ / ٣). (٤) أى شيخ الإسلام ابن تيمية. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٨٣ أولى به «١» «٢».

سجدة القرآن

سجدة القرآن كان صلى الله عليه و سلم، إذا مر بسجدة، كبر و سجد، و ربما قال في سجوده: «سجد وجهي للذى خلقه و صوره و شق سمعه و بصره بحوله و قوته» «٣»: و ربما قال: «اللهم احطط عنى بها وزرا، و اكتب لى بها أجرا، اجعلها لى عندك ذخرا، و تقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود» «٤». ذكرهما أهل السنن. و لم يذكر عنه أنه كان يكبر للرفع من هذا السجود؛ و لذلك لم يذكره الخرقى و متقدمو الأصحاب، و لا نقل فيه عنه تشهد، و لا سلام البتة. و أنكر أحمد و الشافعى السلام فيه، فالمنصوص عن الشافعى: أنه لا تشهد فيه و لا تسليم، و قال أحمد: أما التسليم، فلا أدري ما هو؟ و هذا هو الصواب الذى لا ينبغى غيره. و صح عنه صلى الله عليه و سلم، أنه سجد فى الم تنزِيل، و فى ص، و فى النجم و فى إذا السماء انشقت (١) [الانشقاق: ١]، و فى سورة اقرأ باسم ربك الذى خلق (١) [العلق]. و ذكر أبو داود عن عمرو بن العاص: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أقرأه خمس عشرة سجدة؛ منها ثلاث فى المفصل، و فى سورة الحجدتان «٥».

(١) فى هذا نظر، فإنها حالة عز و

رفعة؛ لأنها ذل لله الأكبر، و انخفاض من العبودية لعظمة الربوبية و جلالها شرف و رفعة، و لعل السرفى ذلك: أن المصلى حين قرأ قائما، تجلى للمتدبر الفقيه فى كتاب ربه: ما لله عليه من النعم العظيمة المتتالية، و بالأخص، و قد شرف بالنعمة العظمى، نعمة مناجاة ربه؛ فإنه يحسن عندئذ أنه يحمل من النعم ما ينوء به ظهره؛ فيخر راعكا؛ فيناسب ذلك أن يسبح بحمد ربه العظيم، الذى تجلت له عظمتة فى هذه النعم، ثم يشعر أن ربه سمع تسيحه بحمد ربه و يتذكر نعمه، فيرفع من الركوع شاكرًا لربه، قائلا: «سمع الله لمن حمده ... إلخ» فيحس إحساسا آخر أنه من الحمادين الشكارين، فيجد أن النعم قد زادت زيادة عظيمة؛ فينوء ظهره أكثر من قبل؛ فيخر

ساجدا. والله أعلم. وهو الموفق. (٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٥، ٣٨٦). (٣) أبو داود (١٤١٤) في الصلاة، باب: ما يقول إذا سجد، و الترمذى (٥٨٠) في الصلاة، باب: ما يقول في سجود القرآن، وقال: «حسن صحيح». (٤) الترمذى (٥٧٩) في الصلاة، باب: ما يقول في سجود القرآن، و ابن ماجه (١٠٥٣) في إقامة الصلاة و السنة فيها، باب: سجود القرآن. (٥) أبو داود (١٤٠١) في الصلاة، باب: تفریح أبواب السجود، و ابن ماجه (١٠٥٧) في إقامة الصلاة و السنة فيها، باب: عدد سجود القرآن، و ضعفه الألبانى. البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٨٤ و أما حديث أبى الدرداء، سجدت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم إحدى عشرة سجدة، ليس فيها من المفصل شيء: (الأعراف)، و (الرعد) و (النحل)، و (بنى إسرائيل)، و (مريم)، و (الحج)، و (سجدة الفرقان)، و (النمل)، و (السجدة)، و (ص)، و (سجدة الحواميم). فقال أبو داود: روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه و سلم إحدى عشرة سجدة، و إسناده واه «١». و أما حديث ابن عباس رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يسجد فى المفصل منذ تحول إلى المدينة. رواه أبو داود «٢»، فهو حديث ضعيف، فى إسناده أبو قدامة الحارث بن عبيد، لا يحتج بحديثه. قال الإمام أحمد: أبو قدامة مضطرب الحديث. و قال يحيى بن معين: ضعيف. و قال النسائى: صدوق عنده مناكير. و قال أبو حاتم البستى: كان شيخا صالحا ممن كثر و همه. و عبد الله ابن القطان بمطر الوراق، و قال: كان يشبهه فى سوء الحفظ محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى، و عيب على مسلم إخراج حديثه. انتهى كلامه. و لا عيب على مسلم فى إخراج حديثه؛ لأنه ينتقى من أحاديث هذا الضرب ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه، فغلط فى هذا المقام من استدرك عليه إخراج جميع حديث الثقة، و من ضعف جميع حديث سبى الحفظ، فالأولى: طريقة الحاكم و أمثاله. و الثانية: طريقة أبى محمد بن حزم و أشكاله. و طريقة مسلم هى طريقة أئمة هذا الشأن، و الله المستعان. و قد صح عن أبى هريرة أنه سجد مع النبي صلى الله عليه و سلم فى أقرأ باسم ربك الذى خلق (١) [العلق]، و فى إذا السماء انشقت (١) [الانشقاق «٣»]، و هو إنما أسلم بعد مقدم النبي صلى الله عليه و سلم المدينة بست سنين أو سبع، فلو تعارض الحديثان من كل وجه، و تقاوما فى الصحة؛ لتعين تقديم حديث أبى هريرة؛ لأنه مثبت معه زيادة علم خفيت على ابن عباس، فكيف و حديث أبى هريرة فى غاية الصحة متفق على صحته، و حديث ابن عباس فيه من الضعف ما فيه. و الله أعلم «٤».

سجود التلاوة فى الانشقاق

سجود التلاوة فى الانشقاق عمل أهل المدينة الذى كأنه رأى عين فى سجودهم فى: إذا السماء انشقت (١) أول ()
 ما جاء فى سجود القرآن، و ابن ماجه (١٠٥٦) فى إقامة الصلاة و السنة فيها، باب: عدد سجود القرآن، و فى الزوائد: «فى إسناده عثمان بن فائد، و هو ضعيف». (٢) أبو داود (١٤٠٣) فى الصلاة، باب: من لم ير السجود فى المفصل، و ضعفه الألبانى. (٣) مسلم (٥٧٨/ ١٠٩) فى المساجد و مواضع الصلاة، باب: سجود التلاوة. (٤) زاد المعاد (١/ ٣٦٢-٣٦٤). البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٨٥ كانت مرادة، فهى ثابتة فى نفس الأمر، أو أوهم أنها مرادة لضرب من المصلحة. فكل هؤلاء فى صدورهم حرج من القرآن، و هم يعلمون ذلك من نفوسهم، و يجدونه فى صدورهم. و لا تجد مبتدعا فى دينه قط إلا و فى قلبه حرج من الآيات التى تحول بينه و بين إرادته. فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء «١».

جزاء المعرض عن القرآن

جزاء المعرض عن القرآن قال تعالى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا [طه: ١٢٤] أى عن الذكر الذى أنزلته، فالذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل، كقيامى و قراءتى، لا إلى المفعول. و ليس المعنى: من أعرض عن أن يذكرنى، بل هذا لازم المعنى و مقتضاه من وجه آخر سنذكره. و أحسن من هذا الوجه أن يقال: الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء لا إضافة المصادر إلى معمولاتها. و

المعنى: من أعرض عن كتابي ولم يتبعه، فإن القرآن يسمى ذكرا قال تعالى: وَ هَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ذَلِكُمْ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) [آل عمران]، وقال تعالى: وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢) [القلم]، وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) [فصلت]، وقال تعالى: إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ [يس: ١١]، و على هذا إضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله، ونظيره في إضافة اسم الفاعل: غَافِرِ الذَّنْبِ وَ قَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ [غافر: ٣]، فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد، وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم، وكذلك جرت أوصافا على أعرف المعارف، وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَ قَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) [غافر]. وقوله تعالى: فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا فسرهما غير واحد من السلف بعذاب القبر، وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر، ولهذا قال: وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦) [طه]، أى ترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا، فذكر عذاب البرزخ و عذاب دار البوار. ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَ عَشِيًّا فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٠٤) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [غافر: ٤٦] فهذا في يوم القيامة الكبرى.

(١) الفوائد (٨٢). البدائع في علوم

القرآن، ص: ٤٨٦ ونظيره قوله تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) [الأنعام] فقول الملائكة: اليوم تجزون عذاب الهون، المراد به عذاب البرزخ الذى أوله يوم القبض و الموت. ونظيره قوله تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) [الأنفال]، فهذه الإذاعة هى فى البرزخ، و أولها حين الوفاة فإنه معطوف على قوله: يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ و هو فى القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه كمنظاره و كلاهما واقع وقت الوفاة. و فى «الصحيح» عن البراء بن عازب رضى الله عنه فى قوله تعالى: يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ [إبراهيم: ٢٧] قال: نزل فى عذاب القبر «١». و الأحاديث فى عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر. و المقصود: أن الله - سبحانه - أخبر أن من أعرض عن ذكره و هو الهدى الذى من اتبعه، لا يضل و لا يشقى، فإن له معيشة ضنكا، و تكفل لمن حفظ عهده أن يحييه حياة طيبة و يجزيه أجره فى الآخرة، فقال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) [النحل فأخبر - سبحانه - عن فلاح ما تمسك بعهده علما و عملا فى العاجلة بالحياة الطيبة، و فى الآخرة بأحسن الجزاء، و هذا بعكس من له المعيشة الضنك فى الدنيا و البرزخ، و نسيانه فى العذاب بالآخرة و قال سبحانه: وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَ إِنَّهُمْ لَيَصِيدُونَ النَّاسَ مِنَ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) [الزخرف]، فأخبر - سبحانه - أن من ابتلاه بقربنه من الشياطين و ضلاله به، إنما كان بسبب إعراضه و عشوه عن ذكره الذى أنزله على رسوله، فكان عقوبة هذا الإعراض أن يقض له شيطانا يقارنه فيصده عن سبيل ربه و طريق فلاحه و هو يحسب أنه مهتد، حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قربنه و عاين هلاكه و إفلاسه قال: يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) [الزخرف]، و كل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذى هو ذكر الله، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة. فإن قيل: فهل لهذا عذر فى ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى، كما قال تعالى: وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ [الأعراف: ٣٠]. قيل: لا عذر لهذا و أمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذى جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم، و لوظن أنه مهتد فإنه مفطر

(١) البخارى (١٣٦٩) فى الجنائز، باب

ما جاء فى عذاب القبر. البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٨٧ بإعراضه عن اتباع داعى الهدى فإذا ضل وإنما أتى من تفريطه و إعراضه، و هذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة و عجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر. و الوعيد فى القرآن إنما يتناول الأول،

و أما الثاني فإن الله لا يعذب أحدا إلا بعد إقامة الحجة عليه، كما قال تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى في أهل النار: وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ [الزخرف، ٧٦] وقال تعالى: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْبَ رَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكَاْفِرِينَ (٥٩) [الزمر] وهذا كثير من القرآن. وقوله تعالى: وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) [طه: ١٢٤] اختلف فيه: هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر. والذين قالوا: هو من عمى البصيرة، إنما حملهم على ذلك قوله: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا [مريم: ٣٨]. وقوله: لَقَدْ كُنْتُ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) [ق، وقوله: يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) [الفرقان، وقوله: لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) [التكاثر] ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة، كقوله تعالى: وَ تَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ [الشورى: ٤٥]، وقوله: يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) [الطور]، وقوله: وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنْهُمْ مَواقِعُهَا وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصِيرًا (٥٣) [الكهف، والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا: السياق لا يدل إلا عليه؛ لقوله: قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) [طه، وهو لم يكن بصيرا في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق، فكيف يقول: وقد كنت بصيرا؟ وكيف يجاب بقوله: كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى [طه: ١٢٦]، بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزى من جنس عمله؛ فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله، و عميت عنه بصيرته، أعمى الله بصره يوم القيامة، و تركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، و على تركه ذكره تركه في العذاب «١».

(١) مفتاح دار السعادة (٤٦ - ٤٩).

البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٨٨ أيضا قال تعالى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦) [طه، أى: تنسى في العذاب كما نسيت آياتي فلم تذكرها و لم تعمل بها. و إعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذي أنزله، و هو أن يذكر الذي أنزله في كتابه، و هو المراد بتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه، و أسمائه و صفاته و أوامره و آلائه، و نعمه، فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه تعالى، فإن الذكر في الآية إما مصدر مضاف إلى الفاعل، أو مضاف إضافة الأسماء المحضه، أى: من أعرض عن كتابي و لم يتدبره، و لم يعمل به، و لا فهمه، فإن حياته و معيسته لا تكون إلا مضيقه عليه منكده معذبا فيها. و الضنك: الضيق و الشدة و البلاء. و وصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة، و فسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ، و الصحيح: أنها تتناول معيسته في الدنيا و حاله في البرزخ، فإنه يكون في ضنك في الدارين، و هو شدة و جهد و ضيق. و في الآخرة ينسى في العذاب. و هذا عكس أهل السعادة و الفلاح، فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة، و لهم في البرزخ و في الآخرة أفضل الثواب «١». سلب الله تعالى عليهم «٢» من أزال ملكهم، و شردهم من أوطانهم، و سبى ذراريهم، كما هي عادته - سبحانه - و سنته في عباده إذا أعرضوا عن الوحي، و تعرضوا عنه بكلام الملاحدة و المعطلة من الفلاسفة و غيرهم، كما سلب النصارى على بلاد المغرب لما ظهرت فيها الفلسفة و المنطق، و اشتغلوا بها، فاستولت النصارى على أكثر بلادهم، و أصاروهم رعية لهم. و كذلك لما ظهر ذلك ببلاد الشرق، سلب عليهم عساكر التتار، فأبادوا أكثر البلاد الشرقية، و استولوا عليها. و كذلك في أواخر المائة الثالثة، و أول الرابعة، لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة و علوم أهل الإلحاد، سلب عليهم القرامطة الباطنية، فكسروا عسكر الخليفة عدة مرات، و استولوا على الحاج، و استعرضوهم قتلا - و أسرا، و اشتدت شوكتهم، و اتهم بموافقتهم في الباطن كثير من الأعيان، من الوزراء و الكتاب، و الأدباء و غيرهم، و استولى

أهل دعوتهم على بلاد المغرب، واستقرت دار مملكتهم بمصر (٣)، و بنيت في أيامهم (١) الوابل الصيب (٥٩). (٢) أي: بنو

إسرائيل. (٣) هم العبيديون المدعون كذبا وزورا أنهم فاطميون. وجدهم الذي دخل إلى المغرب، وأظهر دعوته هو البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٨٩ القاهرة، واستولوا على الشام والحجاز واليمن والمغرب، وخطب لهم على منبر بغداد «١». المدعو: عيد الله المهدي. قال

القاضي عبد الجبار المصري: اسم جد الخلفاء المصريين: سعيد، و يلقب بالمهدي. و كان أبوه يهوديا حدادا بسلمية، ثم زعم سعيد هذا أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح و قال القاضي أبو بكر الباقلاني: القداح - جد عيد الله - كان مجوسيا. و دخل عيد الله المغرب. و ادعى أنه علوي. و لم يعرفه أحد من علماء النسب. و كان باطنيا خبيثا، حريصا على إزالة ملء الإسلام. أعدم الفقه و العلم ليتمكن من إغراء الخلق. و جاء أولاده على أسلوبه، فأباحوا الخمر و الفروج و أشاعوا الرفض و بثوا دعواتهم فأفسدوا عقائد جبال الشام، كالنصيرية، و الدرزية، و كان القداح كذابا مخرقا. و هو أصل دعاة القرامطة ١.٥ من النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٧٥، ٧٦). (١) إغاثة اللفهان (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠). البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٩٠

المحتويات

المحتويات إهداء ٥ مقدمة ٧ فصل: علوم القرآن و الرد على الشبهات ٢٧ (١) نزول القرآن الكريم ٢٨ فصل: في منهج ابن القيم في التفسير ٣٤ في بيان معنى تيسير القرآن للذكر و بيان معنى التفسير ٣٤ أهم قواعد منهج ابن القيم ٣٨ عرف القرآن ٤٢ فصل: موقف ابن القيم من الإسرائيليات: ٤٨ بيان تعظيمه للقرآن الكريم ٥٠ ابن القيم و التفسير العلمي ٥٤ فصل: في ترجمة الإمام ابن القيم ٥٧ فصل: مكتبة ابن القيم ٦١ فصل: مؤلفات ابن القيم مرتبة على الحروف ٦٤ فصل: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ٧٢ أولا: التعريف بكتاب «الفوائد المشوق»: ٧٣ ثانيا: إن وسائل إثبات صحة نسبة الكتاب لمؤلفه، هي عديدة نذكر منها: ٧٣ ثالثا: محاولة تطبيق ما سبق على «الفوائد المشوق»: ٧٤ ضرورة الوحي ٨١ مكانة الوحي ٨١ مراتب الوحي ٨١ مراتب الهداية الخاصة و العامة و الفرق بين الإلهام و الوحي و التحديث ٨٢ مسألة ٩٤ قلم تعبير الرؤيا ٩٥ نزول القرآن الكريم ٩٧ وقت نزول القرآن ٩٧ أول ما نزل من القرآن ٩٧ مثال لأوقات النزول وقت نزول فرض الحج ٩٩ البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٩١ وقت نزول سورة براءة ٩٩ أسباب النزول ١٠٠ أمثلة من أسباب النزول من سورة البقرة ١٠٠ من سورة آل عمران ١٠٠ من سورة النساء ١٠٠ من سورة المائدة ١٠٠ من سورة الأعراف ١٠٤ من سورة الأنعام ١٠٤ من سورة إبراهيم ١٠٥ من سورة الأحزاب ١٠٧ المعوذتين ١٠٨ المكي و المدني ١١٠ مثال المكي ١١٠ مثال المدني ١١١ جمع القرآن الكريم ١١٣ كتاب الوحي ١١٣ جمع عثمان رضي الله عنه الناس على مصحف واحد ١١٣ المصاحف و جمع الناس على مصحف واحد من أهم السياسات الشرعية ١١٣ القراءات ١١٥ القراءة بالأحرف السبعة و غيرها ١١٥ الجمع بين القراءات ١١٥ النهي عن التنطع و الغلو في النطق بالحرف ١١٦ مثال للقراءات ١١٧ فواتح السور ١٢١ بيان دلالات فواتح السور و عظم شأنها ١٢١ مقاصد السور و الآيات ١٢٣ بيان بعض ما تشير إليه دلالة الآيات و السور ١٢٤ دلالة السور و الآيات على الغزوات ١٢٤ بعض الحكم و الغايات في وقعة أحد ١٢٤ الأمثال في القرآن الكريم ١٤١ قيمة المثل في القرآن ١٤١ حكمة ضرب المثل في القرآن ١٤١ أصول و قواعد من أمثال القرآن الكريم لعلم التعبير ١٤١ البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٩٢ فصل تدبر الأمثال التي وقعت في القرآن ١٤٣ مثل المقلدين ١٤٤ مثل المنفقين في سبيل الله ١٤٥ مثل من أنفق ماله في غير طاعة الله عز و جل ١٤٧ مثل فيمن انسلخ من آيات الله ١٤٨ مثل الحياة الدنيا ١٥٢ مثل المؤمنين و الكافرين ١٥٣ المثال المائي و الناري في حق المؤمنين ١٥٣ مثل في بطلان أعمار الكفار ١٥٤ مثل في الكلمة الطيبة ١٥٥ مثل الكلمة الخبيثة ١٥٨ مثل في تثبيت المؤمن ١٥٩ التمثيل بالعبد المملوك ١٦٢ في تشبيه من أعرض عن مثل الشرك ١٦٦ قدرة الذين يدعوهم المشركون من دون الله ١٦٦ تمثيل أعمال الكافرين بالسراب ١٦٧ مثل في بيان حال الكفار

١٧٠ مثل في الذين اتخذوا أولياء من دون الله تعالى ١٧١ مثل في ضلال المشركين ١٧٢ مثل الموحد و المشرك ١٧٢ مثل المغتاب ١٧٣ مثل من حمل الكتاب و لم يعمل به ١٧٤ مثل للكفار و مثلان للمؤمنين ١٧٤ مثل في تشبيه من أعرض عن كلامه و تدبره ١٧٦ فصل في الفوائد و الحكم من ضرب الأمثال ١٧٧ الخلاصة ١٧٨ المحكم و المتشابه ١٧٩ المتشابه و أنواع الإحكام ١٧٩ في النسخ و المنسوخ ١٩٣ حكمه النسخ في القرآن ١٩٣ أمثلة على النسخ ١٩٥ الاستدلال في القرآن الكريم ٢٠٦ البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٩٣ الاستدلال على الله تعالى بالآيات الأقفية و النفسية ٢٠٦ الاستدلال بأسماء الله و صفاته ٢٠٨ الاستدلال على صدق رسول الله صلى الله عليه و سلم ٢٠٩ من أساليب القرآن الكريم ٢١١ التحدى ٢١١ القرآن الكريم محكم جامع ٢١٣ بيان فساد إضافة الشر إلى الله تعالى ٢١٤ التدرج في التكليف ٢١٥ العطف في القرآن الكريم ٢١٧ تقديم بعض الكلام على بعض ٢٢٣ دخول الشرط على الشرط ٢٤٣ الروابط بين الجملتين ٢٤٦ القسم في القرآن ٢٤٢ من أحكام القسم ٢٤٢ أمثلة من قسم القرآن ٢٤٣ ألفاظ القرآن و مقاصدها ٢٤٨ بيان الوجوه التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن ٢٤٨ من أنواع استعمال القرآن لبعض الألفاظ ٢٤٩ خطأ تحميل اللفظ فوق ما يحتمله ٢٧٠ من الألفاظ المكروهة ٢٧٢ بعض ألفاظ القرآن الكريم و مقاصدها كالطبع و الختم و الغشاوة و الغطاء و غيرها ٢٧٣ السلطان في القرآن ٣١٧ السمع في القرآن ٣٢١ الصبر في القرآن ٣٢٢ صلاة الله عز و جل على عباده في القرآن ٣٢٦ الفاجر في عرف القرآن ٣٢٧ القضاء و الحكم و الإرادة و الكتابة و الأمر و الإذن ٣٢٧ تفسير القرآن و تأويله ٣٣٤ حقيقة التأويل ٣٣٤ درجات التأويل ٣٣٤ ما يدخل فيه التأويل و المجاز ٣٣٥ الأقوال في التأويل و بيان خطورته ٣٣٥ البدائع في علوم القرآن، ص: ٤٩٤ رأى الجويني في الكف عن التأويل ٣٣٦ رأى الغزالي في التأويل ٣٣٦ التأويل عدو كل الأديان ٣٣٨ أصناف المتأولة ٣٣٩ فتنة التأويل و بعض ما أحدثت ٣٣٩ رأى ابن رشد في التأويل ٣٤٠ مثل من أول شيئاً من القرآن ٣٤١ أمثلة للتأويل الفاسد ٣٤٢ التفسير بالرأى ٣٥٠ أقسام الرأى ٣٥٠ الآثار عن التابعين في ذم الرأى ٣٥٥ موقف أهل الرأى من السنة ٣٥٨ كلام أئمة الفقهاء عن الرأى ٣٥٨ النهى عن تفسير القرآن بمجرد الاحتمال النحوى الإعرابى ٣٥٨ من فوائد الإخبار عن المحسوس الواقع ٣٦٠ «عسى» من الله واجب ٣٦٠ هل نقل من القرآن آحاداً؟ ٣٦١ تفسير القرآن بالسنة ٣٦٢ منزلة السنة من القرآن ٣٦٧ الكلام عن الزيادة المغيرة لحكم شرعى ٣٧٠ أنواع بيان الرسول صلى الله عليه و سلم ٣٧٣ هل يجوز تخصيص كلام الله بحديث؟ ٣٧٧ عودة إلى حجج أن الزيادة لا توجب نسخاً ٣٧٧ تخصيص القرآن بالسنة ٣٨٦ من تفسيرات النبى صلى الله عليه و سلم للقرآن ٣٩٠ تفسير الصحابة للقرآن و الأقوال في الاحتجاج به ٣٩٠ بعض تفسير الصحابة يخالف الأحاديث ٣٩١ ما أشكل على بعض الصحابة ٣٩٣ فضائل القرآن ٣٩٧ مكانة القرآن بين الكتب المنزلة ٣٩٧ القرآن كثير الخير عظيم النفع ٣٩٧ القرآن كليل بمصالح العباد فى المعاش و المعاد ٣٩٧ القرآن باب الله الأعظم الذى منه الدخول ٣٩٨ البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٩٥ القرآن حق و صدق ٤٠١ القرآن ذكر الله الأكبر ٤٠٢ القرآن فضل الله و رحمته ٤٠٣ القرآن ذكر للعباد ٤٠٣ القرآن تبصرة للعباد ٤٠٤ محتوى خطاب القرآن ٤٠٥ فضل قارئ القرآن ٤٠٧ النهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو ٤٠٨ القرآن متضمن لأدوية القلب، و علاجه من جميع أمراضه ٤٠٨ الآيات و السور التى يعتصم بها العبد من الشيطان و يستدفع بها شره و يحترز بها منه ٤١٠ العلاج بالقرآن ٤١٣ هديه صلى الله عليه و سلم فى رقية اللديغ بالفاتحة ٤١٣ هديه صلى الله عليه و سلم فى علاج لدغة العقرب بالرقية ٤١٦ فضل سورة الفاتحة ٤١٩ فضل آية الكرسي ٤٢١ أجمع آية لمكارم الأخلاق ٤٢٢ فضل سورة الملك ٤٢٢ فضل سورة الزلزلة ٤٢٢ فضل المعوذتين ٤٢٣ فضل سورة الإخلاص ٤٢٣ فضل سور: الإخلاص و الكافرون و الزلزلة ٤٢٤ ما صح من أحاديث فى فضائل السور و الآيات ٤٢٦ ما وضع فى فضائل السور ٤٢٧ آداب القرآن الكريم ٤٢٨ سماع القرآن الكريم ٤٢٨ السمع المستحب ٤٢٨ أدب استماع القراءة ٤٢٩ فضل سماع القرآن من الغير ٤٢٩ المستمع للقرآن مستمع لله عز و جل ٤٣٠ سماع الناس القرآن يوم القيامة ٤٣٠ الشهقة عند سماع القرآن ٤٣١ عشق سماع القرآن ٤٣٢ سماع القرآن يغنى عن سماع الشيطان ٤٣٢ البدائع فى علوم القرآن، ص: ٤٩٦ تدبر القرآن و كيفية ذلك ٤٣٣ دعوة القرآن إلى تدبره و بيان أنواع التدبر ٤٣٥ فوائد تدبر القرآن ٤٤٢ علاج المدبر عن سماع القرآن ٤٤٦ هل الأفضل قلّة القراءة مع التدبر أو الكثرة بدونه؟ ٤٤٧ العلم بالقرآن أفضل

العلوم ٤٤٨ تعلم قراءة القرآن ٤٤٨ المقصود من تعلم القرآن ٤٤٩ تحسين الصوت بالقرآن ٤٤٩ مسألة ٤٥١ هديه صلى الله عليه وسلم في قراءة القرآن، واستماعه و خشوعه ٤٥٣ البكاء عند سماع القرآن ٤٦١ تلاوة القرآن ٤٦١ شروط الانتفاع بالقرآن ٤٦٢ موانع الانتفاع بالقرآن ٤٦٤ أسباب تفاوت الناس في فهم القرآن ٤٦٦ كيفية تلاوة القرآن ٤٦٨ حكم قراءة الجماعة بصوت واحد ٤٦٩ في كم يختم القرآن؟ ٤٦٩ دعاء ختم القرآن ٤٧٠ حكم قراءة القرآن بالفارسية ٤٧١ النهى عن الجهر بالقرآن بحضرة العدو ٤٧١ حكم الوضوء لقراءة القرآن ٤٧١ حكم قراءة الحائض القرآن وإعلان حديث المنع ٤٧٣ حكم مس المصحف للجنب وغيره ٤٧٣ النهى عن المرء في القرآن ٤٧٧ حكم التسمية بأسماء القرآن ٤٧٨ حكم قراءة القرآن للميت ٤٧٩ شرط الواقف قراءة قرآن عند قبر ٤٨٢ النهى عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ٤٨٣ سجودات القرآن ٤٨٤ سجود التلاوة في الانشقاق ٤٨٥ جزاء المعرض عن القرآن ٤٨٥

تعريف المركز القانمىة باصفهان للتمريات الكمبيوترية

جاهدوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١). قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرَّضَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَحِمَ اللَّهُ عَيْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَارِ - فِي تَلْخِصِ بَحَارِ الْأَنْوَارِ، لِلْعَلَّامَةِ فَيْضِ الْإِسْلَامِ، ص ١٥٩؛ عِيُونُ أَخْبَارِ الرِّضَا(ع)، الشَّيْخُ الصَّدُوقُ، الْبَابُ ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧). مَوْسَسٌ مُجْتَمَعٌ " الْقَانِمِيَّةُ " الثَّقَافِي بِأَصْبَهَانَ - إِيْرَانُ: الشَّهِيدُ آيَةُ اللَّهِ " الشَّمْسُ أَبَاذِي - " رَحِمَهُ اللَّهُ - كَانَ أَحَدًا مِنْ جِهَابِذَةِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، الَّذِي قَدْ اشْتَهَرَ بِشَعْفِهِ بِأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ) وَ لَاسِيْمَا بِحُضْرَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرَّضَا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَ بِسَاحَةِ صَاحِبِ الزَّمَانِ (عَجَلُ اللَّهِ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفُ)؛ وَ لِهَذَا أُسِّسَ مَعَ نَظَرِهِ وَ دِرَايَتِهِ، فِي سَنَةِ ١٣٤٠ الْهَجْرِيَّةِ الشَّمْسِيَّةِ (= ١٣٨٠ الْهَجْرِيَّةِ الْقَمْرِيَّةِ)، مَوْسَسَةٌ وَ طَرِيقَةٌ لَمْ يَنْطَفِئْ مِصْبَاحُهَا، بَلْ تَتَّبِعُ بِأَقْوَى وَ أَحْسَنِ مَوْقِفٍ كُلِّ يَوْمٍ. مَرْكَزُ " الْقَانِمِيَّةُ " لِلتَّحْرِي الْحَاسُوبِيِّ - بِأَصْبَهَانَ، إِيْرَانُ - قَدْ ابْتَدَأَ أَنْشِطَتَهُ مِنْ سَنَةِ ١٣٨٥ الْهَجْرِيَّةِ الشَّمْسِيَّةِ (= ١٤٢٧ الْهَجْرِيَّةِ الْقَمْرِيَّةِ) تَحْتَ عَنَايَةِ سَاحَةِ آيَةِ اللَّهِ الْحَاجِّ السَّيِّدِ حَسَنِ الْإِمَامِيِّ - دَامَ عِزُّهُ - وَ مَعَ مَسَاعِدِهِ جَمَعَ مِنْ خَرِيجِي الْحُوزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَ طُلَّابِ الْجَوَامِعِ، بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ، فِي مَجَالَاتٍ شَتَّى: دِيْنِيَّةٍ، ثَقَافِيَّةٍ وَ عِلْمِيَّةٍ... الْأَهْدَافُ: الدَّفَاعُ عَنْ سَاحَةِ الشَّيْعَةِ وَ تَبْسِيطُ ثَقَافَةِ الثَّقَلَيْنِ (كِتَابُ اللَّهِ وَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) وَ مَعَارِفُهُمَا، تَعْزِيزُ دَوَافِعِ الشُّبَّابِ وَ عُمُومِ النَّاسِ إِلَى التَّحْرِي الْأَدَقِّ لِلْمَسَائِلِ الدِّيْنِيَّةِ، تَخْلِيفُ الْمَطَالِبِ النَّافِعَةِ - مَكَانَ الْبَلَاتِيْثِ الْمُبْتَدَلَةِ أَوْ الرَّدِيْنَةِ - فِي الْمَحَامِلِ (= الْهَوَاتِفِ الْمَنْقُولَةِ) وَ الْحَوَاسِبِ (= الْأَجْهَزَةُ الْكَمْبِيُوتَرِيَّةُ)، تَمْهِيْدُ أَرْضِيَّةٍ وَاسِعَةٍ جَامِعَةٍ ثَقَافِيَّةٍ عَلَى أُسَاسِ مَعَارِفِ الْقُرْآنِ وَ أَهْلِ الْبَيْتِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِبَاعِثِ نَشْرِ الْمَعَارِفِ، خِدْمَاتِ لِلْمُحَقِّقِيْنَ وَ الطُّلَّابِ، تَوْسِعُهُ ثَقَافَةُ الْقِرَاءَةِ وَ إِغْنَاءُ أَوْقَاتِ فَرَغَةِ هَوَاةِ بَرَامِجِ الْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ، إِثَالَةُ الْمَنَابِعِ الْلازِمَةِ لِتَسْهِيْلِ رَفْعِ الْإِبْهَامِ وَ الشُّبُهَاتِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْجَامِعَةِ، وَ... - مِنْهَا الْعَدَالَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ: الَّتِي يُمَكِّنُ نَشْرَهَا وَ بَشَّهَا بِالْأَجْهَزَةِ الْحَدِيْثَةِ مَتَصَاعِدَةً، عَلَى أَنَّهُ يُمَكِّنُ تَسْرِيْعَ إِبْرَازِ الْمَرَاقِفِ وَ التَّسْهِيْلَاتِ - فِي آكْتِنَافِ الْبَلَدِ - وَ نَشْرِ الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَ الْإِيْرَانِيَّةِ - فِي أَنْحَاءِ الْعَالَمِ - مِنْ جِهَةِ أُخْرَى. - مِنْ الْأَنْشِطَةِ الْوَاسِعَةِ لِلْمَرْكَزِ: الْف) طَبْعُ وَ نَشْرُ عَشْرَاتِ عُنْوَانِ كِتَبٍ، كِتَابِيَّةٍ، نَشْرُهُ شَهْرِيَّةٌ، مَعَ إِقَامَةِ مَسَابِقَاتِ الْقِرَاءَةِ (ب) إِنتَاجُ مِائَاتِ أَجْهَزَةٍ تَحْقِيقِيَّةٍ وَ مَكْتَبِيَّةٍ، قَابِلَةٌ لِلتَّشْغِيْلِ فِي الْحَاسُوبِ وَ الْمَحْمُولِ (ج) إِنتَاجُ الْمَعَارِضِ ثَلَاثِيَّةِ الْأَبْعَادِ، الْمَنْظَرِ الشَّامِلِ (= بَانُورَامَا)، الرُّسُومِ الْمَتَحَرِّكَةِ وَ... الْأَمَاكِنِ الدِّيْنِيَّةِ، السِّيَاحِيَّةِ وَ... (د) إِبْدَاعُ الْمَوْقِعِ الْإِنْتَرْنِي " الْقَانِمِيَّةُ " WWW.GHAEMIYEH.COM وَ عِدَّةُ مَوَاقِعَ أُخْرَى (ه) إِنتَاجُ الْمُنْتَجَاتِ الْعَرْضِيَّةِ، الْخَطَابَاتِ وَ... لِلْعَرْضِ فِي الْقَنَوَاتِ الْقَمْرِيَّةِ (و) الْإِطْلَاقُ وَ الدَّدْعَمُ الْعِلْمِيُّ لِنِظَامِ إِجَابَةِ الْأَسْئَلَةِ الشَّرْعِيَّةِ، الْإِخْلَاقِيَّةِ وَ الْاِعْتِقَادِيَّةِ (الِهَاتِفُ: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤) (ز) تَرْسِيْمُ النِّظَامِ التَّلَقَائِيِّ وَ الْيَدُوِّيِّ لِلْبَلُوتُوْثِ، وَ بِيْبِ كَشِكْ، وَ الرُّسَائِلِ الْقَصِيْرَةِ SMS (ح) التَّعَاوُنُ الْفَخْرِيُّ مَعَ عَشْرَاتِ مَرَاكِزِ طَبِيعِيَّةٍ وَ اِعْتِبَارِيَّةٍ، مِنْهَا بِيُوْتِ الْآيَاتِ الْعِظَامِ، الْحُوزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، الْجَوَامِعِ، الْأَمَاكِنِ الدِّيْنِيَّةِ كَمَسْجِدِ جَمْكَرَانَ وَ... (ط) إِقَامَةُ الْمَوْتَمَرَاتِ، وَ تَنْفِيْذُ مَشْرُوعٍ " مَا قَبْلَ الْمَدْرَسَةِ " الْخَاصَّ بِالْأَطْفَالِ وَ الْأَحْدَاثِ الْمُشَارِكِيْنَ فِي الْجُلُوسَةِ (ي) إِقَامَةُ دَوْرَاتِ تَعْلِيْمِيَّةٍ عُمُومِيَّةٍ وَ دَوْرَاتِ تَرْبِيَّةِ الْمَرْبِيِّ (حُضُورًا وَ اِفْتِرَاضًا) طِيلَةُ السَّنَةِ الْمَكْتَبِ الرَّئِيْسِيِّ: إِيْرَانُ/أَصْبَهَانَ/ شَارِعُ " مَسْجِدِ سَيِّدِ / " مَا بَيْنَ شَارِعِ " بِنِجِ رَمَضَانَ "

وَمُفْتَرَقٌ "وفائي/بناية" القائمية "تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (=١٤٢٧ الهجرية القمرية) رقم التسجيل: ٢٣٧٣ الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦ الموقع: www.ghaemiyeh.com البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com المتجر الإلكتروني: www.eslamshop.com الهاتف: ٢٥-٢٣٥٧٠٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١) الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١) مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١) التجاررية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠١٠٩ امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١) ملاحظة هامة: الميزات الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينية و العلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقرته الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حدّ التمكن لكل احدٍ منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله وليّ التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
أصبحان
الغائمي



للحصول على المكتبات الخاصة الأخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir

و للإيحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

